

ديوان محمد إقبال

الأعمال الكاملة

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول

دار الكتب

دِيَوَان

مَجْمَعُ كَوَائِدِ الْغُورِي

إِعْتَدَاد
سَيِّدِ عَبْدِ الْمَاجِدِ الْغُورِيِّ

الجزء الأول

دار الكتب

(دمشق - بيروت)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْإِهْدَاءُ

إِلَى رَأْدِ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ
الْعَلَّامَةِ أَبِي أَحْسَنَ عَلِيٍّ أَحْسَنِي النَّدَوِيِّ
(رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى)
الَّذِي يُرْجَى إِلَيْهِ فَضْلٌ كَثِيرٌ فِي تَعْرِيفِ

مَحْدِ اقْبَالِ

بَيْنَ الْعَرَبِ خِلَالَ كِتَابَاتِهِ وَمُحَاضَرَاتِهِ
كُتَّابِهِ عَقِيدَةً وَدَعْوَةً وَرِسَالَةً
وَكُمُفِكِرٍ عَاشَ بِالإِسْلَامِ وَلَهُ
مُنُوهَاتُهَا كَانَ لَهُ فِي الْمَاضِي، وَمُسَالِمَاتُهَا آلُ إِلَيْهِ فِي الْحَاضِرِ
وَكِدَائِعُهُ إِلَى الْمَجْدِ الْإِسْلَامِيِّ، وَسَيَادَةِ الْمُسْلِمِ
وَكَا عَظَمِ نَائِرُهَا عَلَى هَذِهِ الْحَضَارَةِ الْفَرَسِيَّةِ الْمَادِيَّةِ
وَأكْبَرِ نَائِدَاتِهَا وَحَاقِدِ عَلَيْهَا.

عبد الماجد الغوري



دِيَوَان

مَكِّي أَقْبَالِك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة

1428 هـ - 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 24×17

نوع التغليف : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - حلب - وني - جدة ابن سينا - بناء الجابي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تليفون : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



مقدمة الديوان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد خدمت شبه القارة الهندية الإنسان والعلم والحكمة والمعرفة والفلسفة والأدب والفن طول التاريخ ، وأنجبت من الأمم والحضارات والناس والرجال والأعلام ما يكاد يعجز العذ والإحصاء والحصر عن الإحاطة به .

وكانت البداية المعروفة للشعر الأردني في هذه البلاد منذ سنة ١٤٥٠م ، وقد برز واشتهر خلال تلك الفترات الطوال مئات الشعراء ، أعرض هنا أسماء بعضهم على سبيل المثال ، ومن أشهرهم : ميرزا أسد الله غالب أحد أكبر شعراء الأردية ، وله دواوين مطبوعة بالفارسية والأردية ، والنواب ميرزا خان داغ ، أحد فحول شعراء الأردية ، كان أستاذاً للنظام السادس « محبوب علي خان آصفجاه » أمير حيدرآباد (دكن) ، نال عدة ألقاب من الدولة ، وله دواوين مطبوعة ، وغيرهما هناك شعراء مشهورون كأنيس ، ودبير ، وحالي ، وأكبر إله آبادي ، وأمجد الحيدري آبادي ، وهؤلاء الشعراء الذين يُعدُّ شعرهم بالأدب الأردني حجة ، ويُستشهد بها فيه . فهناك من هؤلاء الشعراء المذكورين مثل : داغ ، وأنيس ، ودبير ، قالوا مرثيات تحتوي على خمسمئة مسدس ، أو ستمئة مسدس ، وكلُّ مسدس يحتوي على ثلاثة أبيات ، واللغة الأردية بعد هذا لغة استوعبت كلَّ المعاني والأوصاف الجميلة ، وعلم الفلسفة والتصوّف ، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل ، كما ألّف بها القصص والروايات ، وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول ، أمثال : محمد حسين آزاد ، والعلامة شبلي النعماني ، وعبد الحلّيم شرز ، ومولانا أبي الكلام آزاد ، وأحمد علي أمّرتسري ، ونيّاز فتحخوري ، والأستاذ أختر علي ، وقيس غازي فوري ، والشيخ حسن النظمي ، والشيخ عبد الماجد الدّريابادي ، وحيدر طباطبائي وغيرهم كثيرون .

ولكن لم تُنجب اللغة الأردية شاعراً وأديباً كمحمد إقبال يتسم شعره بسهولة الأسلوب ، ووضوح العبارة ، وقوة المعاني ، وسرعة التأثير ، وكذلك لا يُعرف اليوم شاعرٌ من بين شعراء هذه اللغة طُبعت دواوينه مئات المرات غير محمد إقبال ، وقد جاء في إحدى المقالات التي قرئت في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حكومة باكستان عام ١٩٧٧م ، أن عدد ما صدر عن محمد إقبال من الكتب

والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)^(١) ، ما بين كتاب ورسالة ، هذا عدا ما نُشرَ عنه من البحوث والمقالات ، وما أُلقي من أحاديث ومحاضرات في مجالات مختلفة وحفلات أدبية في فترات متقطعة ومناسبات مختلفة ، وبذلك فاقَ محمد إقبال كبار شعراء العالم كـ « شكسبير » الإنجليزي ، و « دانتي » الإيطالي ، و « طاغور » الهندي ، فلم يكتب عن أحدٍ مغشّر ما كُتِبَ عنه ، وفي كل سنة يصدرُ فيض من البحوث والمقالات في الجامعات ، والمجامع العلمية ، والنوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزيادة دون توقّف ، وتتصاعدُ درجةُ درجةً في سبيل التوصل لاستيعاب أفكار محمد إقبال وإدراكها .

وقد رُزِقَ محمد إقبال من الاحترام والتقدير أنّ ملايين المسلمين في هذه البلاد - الهند وباكستان - يعتقدون فيه ما تعتقده الأمة في المرشد المُلهَم ، والباحث المُتحرّر ، والقائد الرائد ، والمفكر المُصلِح ، والفيلسوف المنقذ ، والسياسي الموجه ، ولم يُرزَق مثل هذا الاحترام والتقدير أحدٌ من أعلام مسلمي شبه القارة قبل في القرن العشرين لا في الهند فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والعربي ، باستثناء الإمام المحدث الفقيه الشيخ عبد الحي اللكنوي في أوائل القرن ، والعلامة الإمام المفكر الداعية الأديب الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي - في أواخر القرن - رحمهما الله تعالى - .

وقد خلّف شاعرنا العظيم خمسة دواوين باللغة الفارسية وأربعة بالأردوية ، وقد أثر الفارسية أولاً لأنها أوسع من الأردوية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويشتمل هذا المجموع الكبير من شعره على ألوف المعاني الأصلية ، والأفكار الجديدة ، والمضامين البديعة ، الذي هو في الحقيقة ثراث شعري عظيم في الأدب الفارسي والأردوني . أعرف هنا بجميع تلك الدواوين باختصار .

أما الدواوين الفارسية فمنها :

(١) - الأسرار والرُُمُوز (أسرار خُودي ورُُمُوز بيخودي)

يُعَدُّ هذا الديوان من باكورة أعمال محمد إقبال الشعرية بالفارسية ، وهو يفرد فيه فكرة الذاتية ، فيدعو إلى وجوب دعم الذات حتى تقوى وتعد نفسها لكفاح دائم مُتواصل لا يعرف أناة ولا هدوءاً ، وفي نظره أن الجهاد الدائب هو حافظ الحياة ، وأن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذّة من بلوغه ، ويصرح فيه بأنّ الأقوام المغلوبة هي التي خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها ، وزُيِّنَتْ لها فكرة نفى الذات ، وسواء في منظومته « أسرار إثبات

(١) روايت إقبال للعلامة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

الذَّات « أو في « أسرار نفي الذَّات » لهذا الديوان أو في سائر أشعار إقبال . . . إننا نجد فكرة الذَّاتية مبثوثة أحياناً ومجملة أحياناً أخرى ، ومفصلة حيناً ، وأحياناً صريحةً وأخرى ضمنية .

(٢) رسالة الشُّرق (پیام مشرق)

طُبِعَ هذا الديوان أول مرّة عام ١٩٢٣ م ، وقَدَّمه الشاعر على أنه شعر الفارسية الكامل ، لأنه قدَّم إلى اللغة الفارسية مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصَادِفنا في هذا الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت ، والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها ، وضُروب النبات فيها ، وألوان وصُنُوف الرِّيحان فيها ، وزَوَانحه جمعت أشنات الزهر من المشرق والمغرب .

(٣) زبور المعجم (زبور عجم)

هذا الديوان مجموعة نفيسة من المنظومات الفارسية ، يُعَدُّ من أجود شعر محمد إقبال الفارسي ، وقَصَدَ الشاعرُ من تلك المنظومات غرسَ الروح الجديدة في العالم ، ولا سيَّما في أوساط الشباب وشعوب الشرق ، ويتجلَّى فيه إبداع الشاعر ، وكمال فنه ، وحُسن سبكه ، ومحكم رصيفه ، وبديع وصفه .

(٤) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

هذا الديوان عبارة عن الشعر الفارسي والأردوثي معاً ، ويتألَّف من قصائد قصيرة ، أكثرها شخصية ، فيه قصيدة بديعة بعنوان « برلمان إبليس » وصَفَ فيها الشاعرُ وصوَّرَ جنسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السيامية وزعمائها ، ما يُفيد الاطلاع عليه ، وقد طُبِعَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر .

(٥) رسالة الخُلود (جاويدنامه)

يُعدُّ هذا الديوان التحفة الأدبية لمحمد إقبال ، وهو عبارة عن شعر مثنوي للفلسفة الدينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطع شعري مزدوج ، وإنه يبرز قوى الشاعر الفكرية وذراها الرفيعة ، وفيه تورية إلى « جاويد » نجل الشاعر ، وفي هذا الديوان قصة سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتلي الشاعر الإيطالي .

(٦) مَاذَا يَتَّبِعِي أَنْ نَصْنَعُ يَا أُمَّ الشُّرْق ؟ (بس چه بايد كرد « أي أقوام مشرق ؟)

هذا آخر ما نظمه الشاعر بالفارسية ، ومنظومات هذا الديوان في جملتها رائعة بليغة ،
نَفَّسَها الشاعرُ حينَ ملأَتْ أحوالُ المسلمين فُؤادَه أسى عليهم ، وَحَزَّ به ما رَأى مِنْ فُنونِ
الحضارة الأوربية وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمة
الضعيفة ، وَبَوَّسَ الشاعرُ في هذا الديوان وينصح الأمم الشرقية بإقامة الروابط الاقتصادية
والثقافية فيها بينهم ، وَيَبَيِّنُ لهم أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة
المتعددة ، والعودة إلى أحكام الإسلام وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة .

وأما دواوينه الأردوية فهي :

(٧) صَلَصلة الجرس (بانك درا)

هذا من باكورة أعماله الشعرية بالأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً وقراءة اليوم ،
فيه قصائد بديعة عن الأطفال والحب والطبيعة ، كما أنه حثَّ المسلمين فيه على التضحية
والعمل ، لكي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، ومن أروع وأجمل القصائد وأناشيد
هذا الديوان قصيدته المشهورة « شكوى وجواب شكوى » ونشيد بعنوان « نشيد
المسلم » .

(٨) جَنَاح جبريل (بال جبريل)

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يُمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العمق وسعة
المطلب والبيان ، يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين ،
وبكاءه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية ، وما يلفت النظر في
هذا الديوان هو الجزء الخاص منه عن المحاوراة بين الشاعر وجلال الدين الرومي ،
ويوضح لنا هذا الحوار أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

(٩) ضَرْبُ الكليم (ضرب كليم)

يتعلَّق هذا الديوان بالعصر الحديث ومشكلاته ، وَيَبَيِّنُ وجهةَ النظر السياسية لمحمد
إقبال ، والديوان كلُّه مفضَّل على أبواب فيها نظرات في الإسلام ، والتربية ، والمرأة ،
والفنون الجميلة ، وغيرها ، وفيه فلسفة محمد إقبال واضحة ظاهرة في أشعار معيَّنة في
موضوعات محدَّدة .

(١٠) هدية الجِجَاز (أرمنان حجاز)

قد سبق تعريف هذا الديوان آنفاً ، يحتوي القسم الثاني منه على قصائد بديعة
ورباعيات قصيرة بالأردوية .

وقد تُرجمت جميع هذه الدواوين إلى اللغة العربية كترجمتها باللغات العالمية الراقية ، وقد نجح مترجمو هذه الدواوين بالعربية من الناحية الفنية إلى حدٍّ بعيد ، ولكن القارئ النّبيه الفطن قد يلاحظ أن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تُؤثّر في نفسه تأثير الشعر الرقيق ، ولا تُعطي صورةً كاملةً واضحةً ، ويغلب عليها رونق اللفظ على عمق المعنى ، بحيث تغيب المعاني التي أرادها الشاعر في غَيَابِ الألفاظ المنمقة والمصاريح الشعرية المركزة . وشعر محمد إقبال في اللغة الفارسية والأردوية على السواء شعر يركّز المعنى الواسع في عبارات مُوجزة هي أشبه بالكلمات القصار التي يسهل حفظها وتداولها على الألسن ، فإذا ما ترجمنا هذا الشعر إلى شعر عربي يفضل الإيجاز على الإطناب والإسهاب ، فإننا نزيد من تركيز الشعر بشيء من الغموض ، يذهب بتأثير الشعر وروعه .

ونحن لا نريد بهذا أن نفرض من شأن المترجمين لهذه الدواوين ، خاصةً منهم الذين عرّفوا بعلو الهمة وجودة القريحة والإخلاص والمثابرة ، كالدكتور عبد الوهاب عزام ، وإنما نريد أن نقول : إن ترجمات الدكتور عزام - وأمثاله المترجمين لهذه الدواوين - الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر محمد إقبال من أسرار ولم تعبر عن قيمته الحقيقية التي تتفق مع الشهرة الذائعة التي أُتيحت له .

ولعلّ هذا هو ما دفع الأديب العربي الكبير العلامة علي الطنطاوي أن يوجّه نداء إلى العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي - رحمهما الله رحمة واسعة - في مجلة « المسلمون »^(١) في كلمة رقيقة مخلصة يحثه فيها على ترجمة بعض قصائد محمد إقبال ليعرّف بهذا الرجل وقوة شاعريته وسموّ رسالته ، يقول في كتاب مفتوح موجّه إلى العلامة الندوي : « هل لك أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نتذوّق طعم أدبه ونلّم بطريقته ، وتتجلّى أسباب عظمته ، فإن كلّ ما قرأنا من كلامه مترجماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلّنا عليه ... فهل تُضيف يا أخي أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام »^(٢).

وجاء العلامة الندوي واقتصر في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها الدكتور عزام بالتعريب ، وكان للديوان « جناح جبريل » أكبر نصيب ممّا تُرجمه العلامة الندوي في كتابه الذي سمّاه « روائع إقبال » فهكذا كان كتابه هذا - رغم صغر حجمه -

(١) التي كانت تصدر يومئذ من دمشق .

(٢) انظر : « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، صفحة (٢٢ - ٢٣) .

إضافةً جديدةً للمكتبة العربية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فقد استطاع - رحمه الله - في براعة وبصيرة أن يختار من دواوين محمد إقبال مقتطفات في نثر سهل ميسور على تمكُّنه من اللغتين العربية والفارسية ، وكانت أكبر شهادة بأن كاتبه (العلامة الندوي) كان التوفيق حليفه في فهم شعر محمد إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل محمد إقبال الفاضل الذي أسمى باسمه أحد دواوينه ، هو « جاويدنامه » (رسالة الخلود) ، فقد قال بعد اطلاعه على « روائع إقبال » : « ولقد عرض مؤلف هذا الكتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوب أكبر ظني أنه يُوافق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره » (١) .

ولكن إن كان المترجمون لهذه الدواوين قد جانبهم التوفيق - إلى حدٍّ ما - في تراجمهم لها بالشعر ، فقد استطاعَ الشيخ صاوي شعلان - رحمه الله - بما حَبَّاهُ اللهُ مِنْ شاعرية متدفقة ، وروح إسلامية حقة ، أن يفصح عن المعاني التي أرادها محمد إقبال ، كأنه ألهمها هو في شعرٍ يهتزُّ له الوجدان ، ولعلَّ أوضح دليل له في هذا الديوان الذي بين أيديكم في ترجمة القصيدتين : « نشيد المسلم » و « شكوى وجواب شكوى » اللتان هبَّتا هبوب الريح ، وطارتا في الآفاق ، ولا أرى مجازفةً في القول إذا قلْتُ : إن محمد إقبال اشتهر في البلاد العربية بهاتين القصيدتين أكثر مما كتب غيرهما ، وقد لا يعرف الكثير من إخواننا العرب أن له غير هاتين القصيدتين قصائد ودواوين ، ولعلَّه بسبب عدم توقُّر هذه الدواوين في المكتبات العربية كونها مترجمة ومطبوعة هنا وهناك ، وكثير من تلك الدواوين لم تُصدر له طبعة بعد الطبعة الأولى ، حتى كادت أن تصبح شيئاً منسياً ، فكانت هناك حاجة إلى جمع جميع تلك الدواوين في كتاب أو ديوان واحد مما يسهل الاطلاع عليه على من أراده .

والعمل في جمع تلك الدواوين مع الضبط والتنقيح والتحقيق بالرجوع إلى أصولها الفارسية والأردوية ، وشرح بعض الكلمات الصعبة الواردة في الترجمة ، والتعليق على ما دعت الضرورة إلى التعليق فيها ، كان يتطلبُ الجهد الكبير والتفرُّغ الثَّام ، فبدأت بالعمل فيه دون تقدير بالفراغ منه ، حتى يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ بمُساعدة بعض أصدقائي الذين وقَّروا لي بعض الدواوين المطبوعة في البلاد العربية المختلفة ؛ التي كانت في مكتبات بلادنا عديمة الوجود .

هذه سعادة ناطقي لغة الضَّاد بأنهم يتناولون هذه الدواوين كلها بالقراءة في كتاب

(١) « روائع إقبال » صفحة (١١) .

واحد ، التي تستحيل لناطقي الفارسية والأردوية ؛ كون تلك الدواوين منظوم بعضها
بالفارسية وبعضها بالأردوية إلا مَنْ تمكَّن من هاتين اللغتين كلَّ التمكن ، والمَّ بهما
كلَّ الإلمام .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد المتواضع ، ويبلغ نداء الشاعر العظيم
ورسالته كل من يسمع ويعي ، إنه سميع مجيب .

يوم الجمعة ١٢ / جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ

٣١ / آب (أغسطس) ٢٠٠١ م

كتبه

المعتز بالله تعالى

عبدالمجيد الغوري

حيدرآباد (دكن)

محمّد إقبال

عند رجال الفكر والدعوة ، وأساطين العلم والأدب

« .. إنّ إقبالاً هو طراز العظمة الذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر ، وفي كلّ حين ؛ لأنها عظمة ليست بالدنيويّة المادّيّة ، وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ، وهو زعيم العمل بين العدوتين من الدنيا والآخرة قوام بين العالمين كأحسن ما يكون القوام ! ... » .

الأستاذ عباس محمود العقاد

« شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلاميّة إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبيّ الإسلاميّ على الزمان ، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب » .

الدكتور طه حسين

« لا أعرف كشعر إقبال ، معرفاً بالحياة ، داعياً إليها ، معظماً الإنسان ، مشيداً بمكانته في هذا العالم ، نافثاً الأمل ، والهمة ، والإقدام في نفوس الناس ... »

الدكتور عبد الوهاب عزّام

« فقد طلع هذا الرجل على العالم الإسلاميّ ، وعلى العالم كلّهُ بفلسفة جديدة صاغها شعراً ، فإذا هي تهزّ المشاعر والقلوب ، وإذا هي تُثير كثيرين من عظماء العالم ، فينظرون نظرات إعجاب إلى هذا المسلم الذي وُلد في الهند ، ونشأ بين أهلها ، ثمّ أعلن على الناس فلسفةً شعريّةً سائغة لا تتفق مع الفلسفة الهندية في شيء ... »

الدكتور محمد حسين هيكل

« ... فإذا كان حسان شاعر الرّسول ، فإنّ إقبالاً شاعر الرسالة ، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن المحمّدية ، وشتان بين من يمجد الداعي الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدّعوة الكبرى عن عقيدة ، وإذا كان في الشعراء الصوفيّين من عطّر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم

الحقيقة ، والتأمل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب في قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم . . . » .

الأستاذ أحمد حسن الزيات

« . . . إني أحبته ، وشغلت به كشاعر « الطموح ، والحب ، والإيمان » ، وكشاعر له عقيدة ، ودعوة ، ورسالة ، وكأعظم تأثير على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها ، وحاقد عليها ، وكداعية إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلامية . . »

« . . . إن جلّ ما أعتقده أنّ إقبالاً شاعرٌ أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، أنطقه الله الذي أنطق كلّ شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء ، والحكماء ، قبل عصره ، وفي غير عصره . . . » .

« . . . أشهد على نفسي أنّي كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثار عواطفني ، وشعرتُ بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري . . . » .

العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي

« . . . كدُتُ أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني ، وربّما توافقتنا في الألفاظ . . . » .

الشهيد سيد قطب

« . . . ولم أر شاعراً يتصوّر للمسلم صورةً مثاليةً عاليةً كذلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة من شعره ، إنّه يصوّر المسلم حيناً كأنّه ماء في رقّة ، وحديد في شدّة يهزأ بالصعاب ، ويعلو على التراب ، ويسري مع الأفلاك ، ويجري مع الأملاك . . » .

الدكتور أحمد الشرباصي

« . . . وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفةً محضةً ، فنقله بذلك من رياض الزهر ، وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة ، والخوض وراء الغيبات التي لا طائل تحتها . . لكنه يُريد للشعر أن يمتزج بالوان الفكر ، وصادق النظرات ، وحقائق الوجود ، وكنه الكائنات ، وأن يُنتج النسيم ، ويصقل العقول ، ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات . إنّ (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات . . . » .

الأستاذ نجيب الكيلاني

« لم يهتم شاعرٌ غير عربي قبل محمد إقبال بأمجاد العرب والإسلام اهتمامه بهما ، فهو الذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال أمام الذين عاصروه ومن جاء بعده من الشعراء .

تكلم عن مجد العروبة ، وأثر الإسلام في رقي الأمم ، وتناول قضايا عربية بحثاً ، مثل قضية فلسطين ، وسجل أمجاد العرب في صقلية ، وقرطبة ، ونعى على العرب تفرقهم ، ووجه إليهم في دواوينه أكثر من خطاب . . . » .

الشيخ صاوي شعلان

« وكان أعظم ما أدهشني رفض إقبال أن يدخل مسجد باريس ، ومقالته : إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق .

فلولا أن الرجل كان يعيش في حقيقة صريحة ، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لما نزل بنا وطمٌ ، لما خطر له هذا الخاطر .

وكم من غافلٍ ساء منّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة ؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلّ والضعة والعبودية ، والفتنة بما زين له أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ .

العلامة محمود محمد شاكر

« إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلب فيها الإنسان في شتى أطراف المعمورة ، لا سيما الإنسان المسلم ، كان يعلم مشكلات الرأسمالية ، ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كله . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنه عثر على المفتاح الذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلّصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلّصوا من الذلّ ، والاستعباد ، وتخلّصوا من التفرّق والتمزّق ، فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ ويُنادي دائماً :

أيها الناس ! إنّ مشكلاتكم التي تضجّون منها حلّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ! فما عليكم إلا أن تتعرّفوا عليه ، ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الذي كان يتكرّر في شعر إقبال ، ويُنادي به من حوله ، لا يزال يُنادي به من خلال سائر ما تركه من آثارٍ ، وأشعارٍ مضرّجة لا بدموعه بل بدماء قلبه .

ولكن كان ينبه إلى أنّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنما هو فروعٌ لمشكلة جذرية

واحدة، هي ضياعنا عن الذات، وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحننا، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

« شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال - رحمة الله عليه - شاعر ذو مكانة رفيعة بين أقرانه ، وهو نابغة في الفكر والخيال والفلسفة والفن جميعاً ، له آراء حصينة ونظرات عميقة في حياة الإنسان ومكانة المسلم في العالم ، وكلامه في غاية القوة والتأثير يقع في نفس القارئ والسامع موقعاً عظيماً ، ولأفكاره قيمة ، وأهمية كبيرة للعالم الإسلامي والأمة الإسلامية . فكر عالمي ، وعقلية نابغة ، ودراسة عميقة تفاعلت في نفسه خلال حياته التي قضاها في الشرق والغرب في مجتمعات وأوساط مختلفة يبحث في الفلسفات والمدنيات والاتجاهات للأمم المختلفة ، القديمة منها والحديثة . »

الأستاذ محمد الزايع الحسني الندوي

(رئيس جامعة ندوة العلماء - الهند)

« عُرفَ (محمد إقبال) بفيلسوف الشرق الإسلامي ؛ الذي درس الحياة ، والكون ، والإنسان دراسةً واعيةً عميقةً من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقام كشاعرٍ ثائرٍ على الأوضاع الفاسدة ، يُدافع عن الإسلام وتعاليمه بكلِّ ما أوتي من موهبةٍ شعريةٍ ، وقوةٍ أدبيةٍ ، ويُنادي بالوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي بشعره القويِّ الزاخر بالمعاني الغزيرة والمفاهيم العالية كما يقول :

« فليُتَّحد المسلمون لصيانة وحراسة الحرم الشريف من سواحل النيل إلى تراب كاشغر » .

وقد تفتَّحتُ قريحته الشعرية ، وتفجَّرتُ ينباع الشعر في كيانه ، فما لبث أن قال الشعر الإسلامي في جميع المعاني الإسلامية والإنسانية وتحَدَّث فيه عن الإسلام وحضارته التي رآها صالحةً للمجتمعات الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ وجيلٍ ، وأتحف الأوساط الإسلامية كلَّها بشعره الجميل الذي تغنى به كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، وأعجب به الناس في كلِّ طبقةٍ وبيئةٍ . »

الدكتور سعيد الأعظمي الندوي

(رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »)

محمد اقبال
حَيَّانَه - شَخْصِيَّه - فِكْرَه - فَلَاسَفَتُه

أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصّلاح والتّصوّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التّصوف .

نشأته ودراسته :

تعلّم محمد إقبال في مدرسة إنكليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلّيّة ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويعثون فيهم ذوق العلم ، فأثّر في الشابّ الذّكي كلّ تأثير ، وغرس فيه حبّ الثّقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلّيّة سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية ، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)^(١) ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلّة علميّة

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)^(١) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادةً عاليةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقوله : « أبك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلّ همّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نيك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليلة بسرّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملأه حزنه ووجدته قصائد كلّها دموع حارّة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين ، وتتجلّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول « وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يترغمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجّون إلى أوربة ، ويشدّون إليها الرحال مرّة بعد مرّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدّنيا ، وقال : إنّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكّني جثت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلّى فيها شرف أمّتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيمياً فيلسوفاً ، يتكهّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبّ من حماسه نيراناً ، ويفجّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، وأنضحت رسالته ، فنشر له عدّة كتب فارسية ، وقد أثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلاميّ ، ويتكلم بها قطران مهمّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركيا ، ونشر مجموعتين

بالأردنية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيهخودي » (أسرار فناء الذات) و « پیام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردنية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

« Reconstruction of religious Thought in Islam » (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون ، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً ، وعلّقوا عليها أهميةً كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والطيانية ، والروسية ، ومن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيهخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م - ١٩٣١م .

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزيراً ، وتذكّر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة ، وإكرام بالغ ، وقابله السنيور موسولينى ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقيا ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عزّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سررأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدّث إليه الملك الفقيه طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوّار ، والعواد ، ويحدثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنّ في سبيل الله جنة أيضاً » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النعمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النعمة الحجازية ، قد أظنّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . . ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم وبقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م^(١) .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

- ١ - أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .
- ٢ - رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .
- ٣ - رسالة المشرق ١٩٢٣ (بياض مشرق) .

(١) روائع إقبال : للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ٢٨ - ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

- ٤ - أناشيد فارسية ١٩٢٧ (زبور عجم) .
- ٥ - رسالة الخلود ١٩٣٢ (جاويد نامه) .
- ٦ - المسافر ١٩٣٦ (مسافر) .
- ٧ - ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي اقوام مشرق) .
- ٨ - هدية الحجاز ١٩٣٨ (أرمنان حجاز) .

بالأردية :

- ٩ - صلصة الجرس أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .
- ١٠ - جناح جبريل ١٩٣٦ (بال جبريل) .
- ١١ - عصا موسى ١٩٣٧ (ضرب كلیم) .
- (ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .
- ١٢ - مراسلات إقبال ومقالاته (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

- تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .
- تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

العوامل التي كوَّنت شخصيته^(١)

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما المدرسة الأولى : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفضاز الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة واجتماع ، وأخلاق واقتصاد ، وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصص فضلاً عن شرقيٍّ متطعِّل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بشمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلٌّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقريّة ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

(١) مقتطف من محاضرة العلّامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/٣/١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزَّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإنني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّجَ منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمةَ الفِرِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأيد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحَدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا انتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمَنْ يُرَدُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرَّد عقيدة ، أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرُّف ، والحبُّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبِّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولا شك أنَّ الحبَّ هو خير حاجرٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتل قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةً في فلاة ، أو يعبت به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأنني اكتحلت بإئمد المدينة » ، ويقول : « مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود » ويقول : « لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكنني لا أخافهم ، فأني أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ،
وانقادت لي الصعاب ، فإنني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته
الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعبق
من العبير .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ،
والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبينا ﷺ ، والتشبع
بتعاليمه ، والتفاني في حبه ، ولما ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر بمدحه ، وأرسل
النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر
الوجداني ، يقول : « إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل
شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج
كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة
الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات
العدد ، فكان أن وُجدت أُمَّةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في
الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب
الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌ ، ولم تنجب مثله
الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجرأ جديداً ، كان يساوي في
نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم
أسيرةً مقيّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى
عليها رداءه .

نحن أعرى من السيدة الطائفة ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه
رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ،
وقال : لا تثريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ،
وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة
الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع ، وحنّت إليه سارية المسجد ؟ ! إن تربة المدينة أحب إليّ من العالم كله ،
أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبّ النبي ﷺ يزد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا
جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة - على منورها ألف سلام -
فاضت عينه ، ولم يملك دمه ، وقد ألهمه هذا الحبّ العميق معاني شعرية
عجيبة ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العالمين ،
وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدّ من حسابي فأرجوك
يا رب ، أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه
وأكون في أمته ، وأتترف هذه الذنوب والمعاصي » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد
أنّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكثر
كميّة من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في
بيت : « إن الفقير المتمرّد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين
صغيرتين قد تغفلتا في أحشائه ، وملكنا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله
إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك
ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبّه ، ومن تتبّع التاريخ عرف أنّ
الحبّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني
البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيّة الفدّة ، والعبقريّة النادرة ، إليه يرجع
الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا
تجرّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحم ودم ، وإذا تجرّدت منه أمةٌ ؛ كانت
قطيعاً من غنم ، وإذا تجرّد منه شعراً ؛ كان كلاماً موزوناً مقفّى فحسب ، وإذا
تجرّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرّدت منه
عبادةٌ ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكل بلا روح ، وإذا تجرّدت منه مدنيّةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرّدت منه مدرسة ، أو نظام تعليم ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرّدت منه حياة ؛ كلّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجذبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبّ الصادق الذي يتجلّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشجاعة ، والقوّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والأجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفّةً فنيّةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قويّة من الحبّ .

لقد ضلّ من زعم أنّ العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وأنّ الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقّة المعاني ، وأنّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحبّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنّما يفوقه ؛ لأنّ الغاية ، أو الموضوع حلّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلم تكلم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكّر ؛ فكّر بعقله ، وإذا أحبّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جناية عظيمة ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحب الجنسي ، والغرام المادي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنَّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأسأت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجماذٍ متحركٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة ، تديرها يدٌ قاهرة ، أو إرادة قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنَّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتزُّ له المشاعر ، وتتوَّثر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطَّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفُّ بالقوة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنه قد مرَّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزَّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويُّ الإيمان ، قويُّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدَّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيِّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهن بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ، ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ، ومتاع ، ودار ، وعقار ، وقد وصل هذا المهتدي بشق النفس ، وعلى جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينتظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرح ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصة فضلٌ كبيرٌ في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنحك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! أقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نفلت » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديد ، وإيمانٍ جديد ، وإشراقٍ جديد ، وقوةٍ جديدة ، وكلّما تقدّمت دراسته ، واتّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأفعال المعقّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمان المدنيّة ، وتحكيمة في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعمين للدّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمّد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنيع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولة ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة »^(١).

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقَدّمها إليه قائلاً : « إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر » فبكى الملك وقال : « لقد أتى علي نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوّته كلّ باب »^(٢).

(١) هدية الحجاز (أرمان حجاز) .

(٢) مشنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفيّاً ، ما ظنُّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندى جيبني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك »^(١) .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيّد حريته ، يقول في نفس القصيدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران »^(٢) .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلف ولا غرور ، فيضُّ

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

(٢) المصدر السابق .

بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة :
 « لك الحمد يارب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك
 والسلطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراصةً ، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما
 لملك من الملوك »^(١) ، ويقول مفتخراً : « إني من غير شك فقيرٌ قاعدٌ على
 قارعة الطريق ، ولكني غني النفس أبي » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في
 قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته
 افتقر إليك كبار الملوك . إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت
 مخيرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن »^(٢) ، ولا شك
 أن محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتُحنت عفته ، قدّم إليه رئيس وزارة
 في دولة ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ،
 وقال : « إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء » ، وعرضت عليه
 الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه
 الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في الولايم
 الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال :
 « ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة
 كرامتي » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوّته ومواهبه ، يعتقد أنه
 صاحب رسالةٍ ومهمّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلّ الشاعر الذي
 ليست له رسالةٌ ، والنّظاميين الذين ينظمون في كلّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير
 ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله ﷺ : « إني لأشكو

(١) جناح جبريل .

(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنْ أصدقائي يعتقدون أنني شاعر نظام ، فيقترحون علي اقتراحات . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل ؟ » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري ، والهيام الأدبي ، اللَّذَيْن يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكُتَّابنا ، وعلمائنا ! فيستجعون كلَّ كلاً ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظلمون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند : أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقَدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركَّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحريَّة والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، قَيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجزُّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلُّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنَّه امتاز بأنه أخضع شاعريَّته القويَّة ، وقوَّته الأدبية ، وعبقريَّته الفنيَّة لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطئ لها أكنافاً ، ويدلل لها صعباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلَوْ جُئِدُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغاية أجدى منه ، فأيقظ أمةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكمها ، وتدير دفتها ، أوجد بشعره القوي الهزاز القلق الفكري ، والاضطراب النفسي ، الذي عمّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلامي بصفة خاصة ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي ، وتعلمون جميعاً أنّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمّر من الحاضر ، والتطلّع إلى المستقبل ، والقلق النفسي ، فإذا تمّ هذا كله ، ونضج ، قامت دولة ، فإن كان شعراً قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريّةً ، كانت سبب الانتقال من حياة إلى حياة ، ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شكّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوّته ، ووضعها في محلّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقرين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٢٣] .

العامل الرابع :

والمربّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدّة المعاني ، وتدقّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرّض للنفحات السّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدّد كلّ يوم ، فيتجدّد شعره ، وتتجدّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السّحر ، ويعتقد أنّها رأس ماله ، ورأس مال كلّ عالم ومفكّر ، لا يستغني عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بظائل ، حتى تكون لك أنّ في السّحر » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « رغم أنّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنّي لم أترك في لندن التبكير في القيام » ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « خذ منّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنّ السّحر ، ولا تحرمني نعيمها » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدّى هذه الأثّة السّحرية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفع الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدّينية ، وأيقظ الآمال والأمانى النائمة في صدورهم بنجوم

سمواتك ، التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الإسلاميّ لوعة القلب ، وارزقهم حبّي وفراستي ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنّي في السّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتضطاد ، وليست لي أمانة يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ، ونفسية شديدة ضدّ الموجة العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفّق قوّةً وحياءً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرّيان الذي يملئ هذه المنظومة التي لا تزال فريدة في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويّ في تحرير الفكر من رقّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادّية الرعناء ، ويبعث التمرّد على عالم المادية الضيق ، والتطلّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيّة والخلقيّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادئ الخلقيّة ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرّد ، وعلمه المتجدّد ،

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاضطراب الفكري والاضطراب النفسي ، ساعده المثوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحرأ من العلوم » ، ويقول في بيت : « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنّ كليماً واحداً - يشير إلى سيدنا موسى - هامته على راحته يغلب ألف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « لم ينهض روميّ آخر من ربوع المعجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنّ إقبالاً ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصل كبير » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شك أنّها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحت المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال^(١)

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسرارهِ وخفائهِ ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة متنوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ - كما قلنا - لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لاثقة شأن كل باحث يهـمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلّعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكلّيات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغيرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة شيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردنية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادئ واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورفيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الأبواب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » - كما يقول إقبال - منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّمَ إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليّ باب خير » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غصون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكنتات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة - وخاصة المسيحية - الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له - على حد قولهم - أن يركب سفيتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها - كحاجة اجتماعية وواقع حي - واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الديني على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات - بطبيعة المنطق - كَفِيلَ هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة^(١) ، وقدموا صورة وحشية كالحجة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة^(٢) .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنتهى العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »^(٣) .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتنال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة جهاداً وذكراً وتسييحاً ،

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالألأ ، وتكون بينه وبين الله حجاباً^(١) .

وإنها مآثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعاشان في سلام ووثام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرماً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة راتقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها - بالطبع - القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرّون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد ،^(١) .

إن التاريخ الإنساني الطويل - الذي أثنى بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب - يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سبيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشرعية السائدة هي القوة ،

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبیح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعْبَه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهناك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونواصي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزیزه رذيله ، وقد صور القرآن بيلاعته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبا ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّلَاكَ يَفْعَلُونَ ﴿ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة - شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق - أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول - الذهول عن الله - والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائِيَةً تَقْبِثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبت الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبت اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبت الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَصَوِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

[القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَافِرَ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهُكَ ۗ﴾ [البقرة : ٢٠٤-٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جليلة ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت مواعدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتفُّ بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخسر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها^(١) .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ^(٢) ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهية المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً^(٣) ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلامة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج ١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان - وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعقلها إذ ذاك - تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجذب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل^(١) .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا انداء العضال ، داء السكر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأستهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعشهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل - كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مرق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتك ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتها هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة آمنة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالاً إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصه في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف - بالعكس - الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعناً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذ المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ،
وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء
لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير
الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى
مجاربها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ،
هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « إذا نخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقماً ، وإذا كانت
في خدمته صارت ترياقاً واقياً » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات
النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب
الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ،
واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على
لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق
الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي
الرائع البناء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه
العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا
التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر
كلامه وعبون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبثت زهرة
بانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ،
وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعة
الجميلة الوضوءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر
وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربى الصديق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف
صلاح الدين البثار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .
 واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب
أواهة مخبئة منية في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب
القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، ومضة من أنواره
وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه
العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان
على هذه الحفنة من التراب .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا
إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور
النهضة والرقى ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين
صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التمتع والعيش
الرغد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم
وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاء في
تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر
وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة
المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتركز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ كَرَّاهُ أَكْتَفَى ﴾ [العلق : ٦ - ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تر هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر - طبعاً - في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف^(١) ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولادة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتها بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين^(٢) .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

-
- (١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلامة أبي الحسن الندوي .
 (٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل نخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طمعاً ولا ضرباً »^(١) .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ - ١٥٣٠ م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم السيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذا ينبغي لنا أن ننهيًا للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصامين ونوابغ وعباقر من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورنگ زيب » إلى حماة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه »
(١٧١٩م - ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن)
واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « إن الملك محمد
شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن
بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويفادر الخليفة وركبه
القصر إلى الصحراء . . . ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني
« الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال
الدكن وغاباتها » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك
الأوضاع الفاسدة :

« كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يفتسلن الغسل
الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورد والأزهار
والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم »^(١) .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما
بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا
التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقبها
وانحطاطها في بيت واحد : « تعال أثبتك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح
أولاً ، ولهو وغناء آخراً » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو
والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان
التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولوكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها - في حينها - القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقى والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسامة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحياتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميته دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها - على ما يقول إقبال - مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .
يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

فكر محمد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارئ إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روح أساسية شاملة لكل شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كل شيء . وتسمى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ (EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهاور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقترب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبذل الحياة ، وتدافع عنها ضدّ نقيضها الموت ، وهي في نزاع دائم مع الموت ، وتتنصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهربائية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتفعل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلص في الحياة شكلها ومداها وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمحل الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلّ جانب ، كأنها جيوش جرّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرّة وألف مرّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلّية واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذات المطلق (الأنا) ، وتأکید هذه الأنا بالسمو درجة بعد درجة ، ومرحلة بعد مرحلة إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي - في تطوّرها وارتقائها - تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حد ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهد كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنب الصُّعاب ، بل يجب عليك أن تغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلى عليه ذاته .

والحق أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجهة

لا تكون ممتعة إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذات ، الحبُّ أن تصون الذات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحب ، وجوهر الحب هو الذات .

وهكذا فإن ما نبحت عنه هو الجمال . والذات الفردية ، وهي تتكامل بدافع من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبة عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحب يزيده غنى بنوع من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحب تزداد الوردة ، وشقائق النعمان روعةً وجمالاً .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أنَّ تقدُّم الذات الفردية يدلُّ على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أنَّ تراجع الذات يدلُّ على الوجهة التي يزداد فيها القبح^(١) .

قال إقبال :

كلُّ ما يبعث على سمو الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرَّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحب والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدلُّ على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الأجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،

كلها يفتقها سرُّ الفنِّ على حساب جوهرنا .

والفن يقدِّم أدلته تمجيداً للذات ، والذات هي المعيار الوحيد للحكم على

قيمه .

الفنُّ يبعث الحياة في كلِّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ،

وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنيةً فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجيين عني ؟!

فأنا لست إلا نسمة الصباح .

والإبداع لا يفتّر ، والخلق يطَّرد دون هوادة .

في كلِّ لحظة نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ

الإنسان ، حين يكون فتناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .

أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .

أنت خلقت الغابة والجيل والصحراء ،

وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرأة .

أنت خلقت الشَّم ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفن الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحى بالأمل ، ويعلم العيش في شرف .

أما الفن الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحمية لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفن الذي يضعف الذات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحق قوة وجمال^(١) .

نفى الذات :

تجنح مجموعة من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقي والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعة شيئاً بعد شيء . هذه اللاذات في المستوى الشخصي تُكوّن الذات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفى الذات) :

نفى الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالمي سيتم إنجازهُ بالتعاون على قدم المساواة بين كلِّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كاملة ، تتمتع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعيش الحق في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةٌ ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدةٌ كذلك ، ولأن الحب يدفع إلى رقيِّ الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحب .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحب خالدٌ ، وما من شيءٍ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقة ، والوجد ، ولحن الصرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظام تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذات الكونية .

وهكذا يتكوّن الإنسان الكامل الذي هو سيّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرّد » الذي تحرّر من كلِّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلِّ شيء ، ليس محروماً أي شيء ، وهكذا يتجرّد . إنّ هذا الوحي الربّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلِّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحولات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر »
« الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في
سموه ، وفي رشاقتة المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن
نتصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن (في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحقِّ والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه نذلُّها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب السُّماني والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

- يبدو المؤمن كلَّ لحظة في نهارٍ جديد .
يتجلى الله في أقواله وأفعاله .
السلطان ، والرِّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :
هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .
إنَّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .
لا يرتبط ببخارى ولا بيدخشان .
ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .
الذي يبدو أنه قارئ (القرآن) وهو القرآن حقاً !
نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .
إنَّه الميزان في هذا العالم ، إنَّه القسطاس في يوم الحساب .
إنَّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .
إنَّه الشئ الذي يرعش قلب الأزهار .
أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،
لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .
في معمل فكريٍّ تُصنع النجوم .
وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .
وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .
- الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمع إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنَّ خير نموذج يقترحه ، وأنَّ خير نظام اجتماعيٍّ هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازات وإشارات ، نجدها ماثوثة في كل ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالاً وحَّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشئ في محيط مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) - كما ورد في الإيمان - وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلّق بالوجود كله ، والتي ليست خالية من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد . . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علّمهم إياه فوق كل شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدّ الكمال ، والتي ذابت في الذات الجماعية ، دون أن تتخلّى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبي ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كل مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نمودجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فأقبال يشبه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالاً تصوّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :

الذات ..

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .
ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرّد يحتلّان مركز تفكير إقبال .
يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .
قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالثناء !
حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟
كل أحكامك حق ، ولكنّ المفسرين
يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .
ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :
إنهم يعلمون الشواهيـن الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يـبـنـي مـعـلـم المـدـرـسـة صـرـحاً ،
صنـاعـتـه رـوح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمةً سحررتني :

« لا تبـن جـداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركـت المـدـرـسـة والـدـير ، وأنا جـدُّ حـزـين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌ ، ولا معرفةٌ ، ولا بصيرةٌ !

ولذلك حمل إقبال على الرُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الرُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الرُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من

النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و (جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥ م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عز وجلّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرّ منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبؤٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظة واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ (بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في
الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس
لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى
النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمن أن يصبح نذير يتنازعان ؟ أيمن أن يكونا حليفين يتعاونان . وأسفاه ! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتج هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !
تكفي شرارة واحدة مني للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .
إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛
فلماذا وهبت لي كل هذا المقدار من النار ؟
كسر المرمر شرف لي ،
أما كسر الزجاج فعارٌ عليّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفة فردية ، وفلسفة اجتماعية في آن واحد ، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية ، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدعوة إلى صيانة قيمها الذاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافة إلى إنسانية ذات أبعاد كونية . ونجد في الميدان السياسي أن أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم ليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعاد عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجة الرفيعة .

ثم إن تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، وأتخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثلاً على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقدير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .

الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .

السجود يعني : الجهد العنيف .

الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .

الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد

وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبريدج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرة متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدثرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارّة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبل مشرقٍ علينا أن نبذعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على أَلغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالاً ظلّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظماً إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيّةٌ ، روحٌ قلقة^(١) .

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص ١٧ - ٣٥ .

فلسفة محمد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارئ على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه «خودي» (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل » .

(ج) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب
بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل
لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة
التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرى فسي سجدة للقوة الأفلاك
ولنغمة من دون نار نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحاك

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن وهاجة ولهيها دراك

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها
وضعفا :

عالم الذات به علو وسفل وبه معرك تُبح وجمال
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل وقبيح ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى
فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته
وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشارات في هذا :

يا من في القافلة سِر رفيقاً وكن وحيداً

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هو في المجمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل ، في الحفل وحيد ورفيق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتد في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويرد كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوة متحابين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظرة إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة أو كان فيه ضور إسرافيل
صمت طير الصبح أولى من غناء إن سرى في الرّوض باللحن ذبولا
والغناء إن أدى إلى ضعف أو خور فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت حرّم الناي عندنا والربابُ
(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخر له كما في القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّعَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا نَّهْ ﴾ [الجن : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ

وَالنَّهَارَ ﴿٣٢﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴿٣٣﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومختير غير مسير . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير وهو في العالمين كالميزان النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطااعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها	من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيء يقيده	لكن لخالفه في قيد أحكام
والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :	
مقصد الفن في الحياة لهيب	أبدى فما وميض الشرار ؟
يا خبيراً بفنه فيه تمت	صنعة العصر والمصور الخوالي
كم ترى من طبيعة وتربها ؛	أرنا الذات فوق هذي المجالي

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ،
ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيهما المسلم تدري اليوم ما	قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذَّكَرِ
هو مصراعٌ من البيت الذي	مضمَّرٌ فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعَه الثانيَ في	سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح	في حومة الحرب كالرجوم
---------------------	-----------------------

وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلم فالف مقام وشأن	لفقر بدا فيه روح القرآن
---------------------	-------------------------

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مسناً	فيطبع منك سيفاً للمنسايا
-------------------------	--------------------------

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أي ملك مقام فقر ، ولكن	تؤثر الذل مدعناً ما احتيالي
------------------------	-----------------------------

وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدوا	حماس العشق والفقر الغيور
------------------------	--------------------------

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدّق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .
وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها
يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلقون
رؤوسهم ولحاهم .
وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .
وقد رأيت أن أبقى اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً
وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندري .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :
إلى عصابات العرب ما أنا مُتَمِّمٌ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
يقول :
فلمست أرى في يديك اليوم جنة تشبّ بهذا العقل نار التقدم
وفي القطعة التي أولها :
متاعك في الحياة فنون علم :
يقول :
ومزّقْتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قصور
وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :
في جنوني لك أسرار بدت فاجزني يا شيخُ عن هذا اللمم
وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعد الدرس عن حماك جنونا قال للعقل : لا تُلذّ بنقاش
وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يسرى لهيئاً مُضَيّاً
وظاهر أن إقبالاً يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون
تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي
يذكر في مقابلة العقل .
وكأنه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا
الجنون^(١) .

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ
« محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلامة
أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ،
و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .

الدِّيَّانُ الْأَوَّلُ

صَلَاةُ الْجُرْسِ
بَانْكَادِرَا

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا

أَشِيخُ صَاوِي شَعْلَانِ الْمَصْرِيِّ

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حتّى فيه الشاعرُ المسلمونَ على التضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أروع الأناشيد الإسلامية ، وأعظم قصائد الرثاء .

ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائب المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلامية في القوة والانسجام ، نُقَدِّمُ هنا نشيداً وقصيدة مترجمةً بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

النشيد الإسلامي

والهَيْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا
وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنَا
أَعَدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكْنَا
فِي الذَّهْرِ صَحَائِفُ سُودِدْنَا
وَالْيَسْتُ الْأَوَّلُ كَعَبْتُنَا
بِحَيَاةِ الرُّوحِ وَبِحَفَظَتِنَا
وَبَيْنُنَا الْعِزَّ لِدَوْلَتِنَا
مِ شَعَارِ الْمَجْدِ لِمَلَّتِنَا
وَيُمَثِّلُ خِنَجَرَ سَطَوَتِنَا
فِي الْعَرْبِ صَدَى مِنْ هَمَّتِنَا
طَاوَلْنَا النُّجْمَ بِرِفْعَتِنَا
نِيرَانِ الشُّدَّةِ عَزَمَتِنَا
فِي الْخَوْفِ سَفِينَةَ قَوَّتِنَا
أَنَسِيَتْ مَغَانِي عَشَرَتِنَا
عَمَرَتْ بِطَلَائِعِ نَشَاتِنَا
شَطْبِكَ مَائِرَ عَزَّتِنَا
وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتِنَا
مِنْ وَيَا مِيلَادَ شَرِيعَتِنَا
فِي أَرْضِكَ رَوَاهَا دُمْنَا
سَبِّ يَقُودُ الْقَوْرَ لِنُصْرَتِنَا

الصَّيْرُ لَنَا وَالْعُرْبُ لَنَا
أَضْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينَا
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرُ
الْكَوْنِ يَزُولُ وَلَا تُنْحَى
بُنِيَتْ فِي الْأَرْضِ مَعَابِدُهَا
هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ نَحْفَظُهُ
فِي ظِلِّ السَّيْفِ تَرْبَتِنَا
عَلِمُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَيَا
بِهَلَالِ النَّصْرِ يُضِيءُ لَنَا
وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
قَوْلُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ
يَا ذَهْرُ لَقَدْ جَرَيْتَ عَلَى
طُوفَانِ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْبِرْ
يَا ظِلُّ حَدَائِقِ أُنْدَلَسِ
وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْكَدَارُ
يَا دَجَلَةُ هَلْ سَجَلْتَ عَلَى
أَمْوَاجِكَ تَرْوِي لِلدُّنْيَا
يَا أَرْضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمَيْنِ
رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتُهُ
وَمُحَمَّدُ كَانَ أَمِيرَ الرِّكْ

إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي
دَوْتُ أَنْشُودُهُ «إِقْبَالِ»
لِيُعِيدَ قِوَاظِنَا الْأُولَى

رُوحُ الْأَمَّالِ لِنَهْضَتِنَا
جَرَساً يَحْدُو فِيهِ السَّرْمَنَا
فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثُ أُمَّتَنَا

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)^(١)

شكوايَ أم نجوايَ في هذا الدُّجى
أَمَسْتُ في الماضي أَعِيشُ كأنما
والطيرُ صادحةٌ على أَفْئانِها
قد طالَ تَسْهِيدِي وطالَ نَشِيدُها
فإلى متى صَنَعْتِي كأني زهرةٌ
ونجومٌ ليلى حُسدي أو عودِي
قَطَعَ الزَّمانُ طريقَ أَمْسِي عن غَدِي
تبكي الرُّبى بأَينِها المتجدِّدِ
ومَدَامِعي كالطَّلِّ في الغُصنِ النَّدي
خَرَساءُ لَمْ تُزِرْ قَبراعَةَ مُنْشِدِ

قَيَّارَني مُلِئْتُ بِأَناتِ الجوى
صَعَدْتُ إلى شَفَتي بِلابلُ مُهْجَني
أنا ما تَعَدَّيْتُ الفَناءَةَ والرُّضا
أَشْكُو وفي فَمِي التُّرابُ وإنَّما
يَشْكُو لَكَ اللَّهُمَّ قَلْبٌ لَمْ يَعْشُ
لا بُدَّ لِلْمَكْبُوتِ مِنْ قِيضانِ
لَيَبِينَنَّ عَنْها مَنطَقَني وَلِسانِي
لَكُنَّما هي قِصَّةُ الْأَشْجانِ
أَشْكُو مُصابَ الدِّينِ لِلدِّيَّانِ
إِلَّا لِحَمْدِ عِلاكَ في الْأَكْوانِ

قد كانَ هذا الكونُ قبلَ وُجودِنا
والوردُ في الْأَكْمامِ مَجْهُولُ الشَّذا
بَلْ كَانَتْ الْأَيَّامُ قبلَ وُجودِنا
لَمَّا أَطْلَ مُحَمَّدٌ زَكَاةَ الرُّبى
وَأَذاعَتِ الْفِرْدَوْسُ مَكْنونَ الشَّذا
رَوْضاً وأزهاراً بغيرِ شَمِيمِ
لا يُزْتَجى ورْدٌ بغيرِ نَسِيمِ
لَيْلًا لَفْطالِها وَلِلْمَظْلُومِ
واخْضَرَ في البُشْتانِ كُلُّ هَشِيمِ
فإذا الْوَرى في نُفْرةٍ وَنَعِيمِ

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيح ما عتونها الشاعر به « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كَانَ يَهْتَفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا
عَبَدُوا تَمَائِيلَ الشُّخُورِ وَقَدَّسُوا
عَبَدُوا الْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ جَهَالَةً
هَلْ أَغْلَنَ التَّوْحِيدَ دَاعِ قَبْلَنَا
كُنَّا نَقْدُمُ لِلشُّيُوفِ صُدُورَنَا
مَنْ كَانَ يَدْعُو الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ
مِنْ دُونِكَ الْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَارِ
لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَذِيهَا أَنْوَارِ
وَهَدَى الشُّعُوبَ إِلَيْكَ وَالْأَنْظَارِ
لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جَبَّارًا

قَدْ كَانَ فِي الْيُونَانِ فَلَسَفَةٌ وَفِي الْـ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةٌ أَوْ ثَرَوَةٌ
وَبِكُلِّ أَرْضٍ سَامِرِيٍّ مَآكِزُ
وَالْحِكْمَةُ الْأُولَى جَرَتْ وَثَنِيَّةٌ
نَحْنُ الَّذِينَ بَنُورٍ وَخَيْكٍ أَوْضَحُوا
رُومَانٍ مَذْرَمَةٌ وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانٍ^(١)
فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْعِزِّ
يَكْفِي الْيَهُودَ مَوْزَنَةَ الشَّيْطَانِ
فِي الصِّينِ أَوْ فِي الْهِنْدِ أَوْ طُورَانِ
نَهَجَ الْهُدَى وَمَعَالِمَ الْإِيمَانِ

مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ لِيَرْفَعَ امْـ
كُنَّا جِبَالًا فِي الْجِبَالِ وَرُبَّمَا
بِمَعَابِدِ الْإِفْرَنْجِ كَانَ أَذَانُنَا
لَمْ تَنْسَ إِفْرِيْقِيَّةٌ وَلَا صَخْرَاؤُهَا
وَكَاَنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ
حَمَكَ فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارًا
سِزْنَا عَلَى مَوْجِ الْبَحَارِ بِحَارًا
قَبْلَ الْكَتَائِبِ يَفْتَحُ الْأَمْصَارَا
سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا
خَضْرَاءَ تُنْبِتُ حَوْلَنَا الْأَزْهَارَا

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتًا يَحَارِبُنَا وَلَوْ
نَصَبَ الْمَنَابِيَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

(١) فِي الْأَصْلِ هَكَذَا ، وَفِيهِ اضْطِرَابٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ الْوِزْنُ عَلَى حِسَابِ الْمَعْنَى
فَيَكُونُ :

قَدْ كَانَ فِي (الْيُونَانِ) وَ (الرُّومَانِ) مَذْرَمَةٌ ، وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانٍ

نَدْعُو جِهَاراً لَا إِلَهَ سِوَى الَّذِي صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الْأَقْدَارَ
وَرَوْوَسْنَا يَا رَبِّ فَوْقَ أَكْفُنَا نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنِماً وَجِسَارَ
كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ فَتَهْدِمُهَا وَتَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَ
لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَهَا كُنْزاً وَصَاغَ الْحُلِيَّ وَالذِّئْنَارَ

كَمْ زُلْزِلَ الصَّخْرُ الْأَشْمُ فَمَا وَهَى مِنْ بَاسِنَا عَزَمَ وَلَا إِيْمَانُ
لَوْ أَنَّ آسَادَ الْعَرِينِ تَفَرَّعَتْ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ ثِبَاتِنَا الْمِيدَانُ
وَكَأَنَّ نِيرَانَ الْمَدَافِعِ فِي صُدُوءٍ رِ الْمُؤْمِنِينَ الرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ
تَوْحِيدُكَ الْأَعْلَى جَعَلْنَا نَقْشَهُ نُوراً يُضِيءُ بِضُبْحِهِ الْأَزْمَانُ
فَعَدَتْ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ مَصَاحِفاً فِي الْكُؤُنِ مَسْطُوراً بِهَا الْقُرْآنُ

مِنْ غَيْرِنَا هَدَمَ التَّمَاثِيلَ الَّتِي كَانَتْ تُقَدِّسُهَا جَهَالَاتُ الْوَرَى ؟
حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْداً لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّراً
وَمَنِ الْأُلَى حَمَلُوا بِعَزَمِ أَكْفُهُمْ بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ^(١)
أَمَّنْ رَمَى نَارَ الْمَجُوسِ فَأُطْفِئَتْ وَأَبَانَ وَجْهَ الْحَقِّ أُنْبَلَجَ نَيْراً^(٢) ؟
وَمَنِ الَّذِي بَذَلَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقِظْتُ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَى
نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لَصَلَاتِهِمْ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَامِاً أَحْمَراً

(١) هُوَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي حَمَلَ بَابَ حِصْنِ خَيْبَرَ وَجَعَلَهُ تُرْساً لَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ .
(٢) هُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ الْغَزْنَوي .

جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكثروا
محمود مثل إياز^(١) قام كلاهما
والعبد والمولى على قدم الثقى

في مسمع الروح الأمين فكبرا
لك بالخشوع مصلياً مستغفراً
سجدا لوجهك خاشعين على الثرى

بلغت نهاية كل أرض خيلنا
في محفل الأكوان كان هلالنا
في كل موقعة رفعنا راية
أمم البرايا لم تكن من قبلنا
بلغت بنا الأجيال حرّياتها

وكان أنبحرهما رمال البيد
بالنصر أوضح من هلال العيد
للمجد تعلن آية التوحيد
إلا عبيداً في إصار عبيد
من بعد أصفاد وذل قيود

رُحماك رب هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مضحفاً
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً
ملا الشعوب جناتها وعصاتها
فإذا السحاب جرى سقاها غيئه

عُرف الشجود بينك المغفور
يحوي جلال كتابك المنظور
فالخلق في الدنيا بغير شعور
من ملحد عات ومن مغرور
واختصنا بصواعق التذمير

قد هبت الأصنام من بعد البلى
والكعبة العليا توارى أهلها
وقوافل الصحراء ضلّ خداتها
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا

واستيقظت من قبل نفخ الصور
فكأنهم موتى لغير نُشور
وغدت منازلها ظلال قُبور
في أنعم ومواكب وقصور

(١) إياز : هو مولى السلطان محمود السبكتكين .

بَلْ مِحتَي أَلَا أرى فِي أُنْتِي عملاً تَقْدُمه صَدَاقَ الحُوزِ^(١)

لَكَ البرِّئَةُ حكمةً ومشيئةً
إِنْ شئتَ أَجريتَ الصَّحارى أَنهراً
فإذا دُهي الإسلامُ فِي أبنائه
فَسراؤُهُم فَقَرٌّ ودولَةٌ مجدهم
عاقبتُنَا عدلاً فهَبْ لعدونا
أَغِيثَ مَذَاهِبُها أُولى الألبابِ
أو شئتَ فالأنهارُ موجُ سرابِ
حَتَّى انطَووا فِي محنةٍ وعذابِ
فِي الأرضِ نَهَبُ ثعالبِ وذئابِ
عن ذنبه فِي الدَّهرِ يومَ عقابِ

عاشُوا بِشَروِنَا وعشنا دُونَهُم
الذِّينَ يَخِيا فِي سعادةِ أهله
أينَ الذِّينَ بنارِ حُبِّكَ أَرْسَلُوا الـ
سَكَبُوا اللَّياليَ فِي أنينِ دُموعِهِم
والشمسُ كانتَ من ضياءِ وُجُوهِهِم
للموتِ بَيْنَ الدُّلِّ والإملاقِ
والكَأْسُ لا تَبقى بِغيرِ السَّاقِي
أنوارَ بَيْنَ محافلِ العَشَّاقِ
وتوضَّؤُوا بِمِدامِ العِشْواقِ
تُهْدِي الصَّبَاحَ طلائعَ الإِشْراقِ

كَيْفَ انطَوُتْ أياهُم وهُمُ الألى
هَجَروا الدِّيَارَ فأينَ أَرَمَ^(٣) ركبُهُم
يا قَلْبُ حَسْبُكَ لَمْ تَلَمْ^(٤) بِطِيفِهِم
فأَزُوا مِنَ الدُّنيا بِمَجدِ خالِدِ
نَشَروا الهُدَى وَعَلَوْا مَكانَ الفَرْقَدِ^(٢)
مَنْ يَهْتَدِي لِلقومِ أو مَنْ يَفْتَدِي
إِلّا على مِصباحِ وَجْهِ مُحَمَّدِ
ولَهُم خلودُ الفُوزِ يومَ الموعِدِ

(١) الصداق : المهر .

(٢) الفَرْقَدُ : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهتدى به ،

وهو المسمى « النجم القطبي » .

(٣) أَرَمَ : قَصَدَ وتوجَّه .

(٤) لَمْ تَلَمْ : لم تنزل بهم .

يَا رَبِّ أَلْهِمْنَا الرَّشَادَ فَمَا لَنَا فِي الْكَوْنِ غَيْرَكَ مِنْ وَلِيٍّ مُرْشِدٍ

مَا زَالَ قَيْسٌ وَالْغَرَامُ كَعَهْدِهِ
وَهَضَابُ نَجْدٍ مِنْ مَرَاعِيهَا الْمَهَا
وَالْعَشْقُ فَيَاضٌ وَأُمَّةٌ أَحْمَدُ
لَوْ حَاوَلْتُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَكَانَةً
مَا بِأَلْهَا تَلْقَى الْجُدُودَ عَوَائِرًا^(١)
وَرَبِيعٌ لَيْلَى فِي رِبْعِ جَمَالِهَا
وَضَبَاؤُهَا الْخَفَرَاتِ مَلَأَ جِبَالِهَا
يَتَحَفَّرُ التَّارِيخُ لَاسْتِقْبَالِهَا
رَفَّتْ عَلَى شَمْسِ الضُّحَى بِهَلَالِهَا
وَتَصُدُّهَا الْأَيَّامُ عَنْ آمَالِهَا

هَجَرُ الْحَبِيبِ رَمَى الْأَجَبَةَ بِالنَّوَى
لَوْ قَدْ مَلَلْنَا الْعِشْقَ كَانَ سَيْلَنَا
أَوْ نَصْنَعُ الْأَصْنَامَ ثُمَّ نَبِيعُهَا
أَيَّامُ سَلْمَانَ بِنَا مَوْصُولَةً
وَأَصَابُهُمْ بِتَصَرُّمِ الْأَمَالِ
أَوْ نَسْتَكِينُ إِلَى هَوَى وَضَلَالِ
حَاشَا الْمَوْحِدَ أَنْ يَذَلَّ لِمَالِ
وَتُقَى أُوَيْسَ فِي أَذَانِ بِلَالِ

يَا طَيْبَ عَهْدٍ كُنْتَ فِيهِ مَنَارَنَا
وَأَسْرَتْ فِيهِ الْعَاشِقِينَ بِلَمَحَةٍ
أَحْرَقْتَ فِيهِ قُلُوبَهُمْ بِتَوْقُودِ الْإِيمَانِ لَا يَتَلَهَّبُ النَّيِّرَانِ
لَمْ نَبَقْ نَحْنُ وَلَا الْقُلُوبُ كَأَنَّهَا
إِنْ لَمْ يَنْزُ وَجْهُ الْحَبِيبِ بِوَصْلِهِ
فَبَعَثْتَ نَوْرَ الْحَقِّ مِنْ فَارَانِ
وَسَقَيْتَهُمْ رَاحًا بِغَيْرِ دَنَانِ
لَمْ تَخْطَ مِنْ نَارِ الْهَوَى بِدُخَانِ
فَمَكَانُ حُزْنِ الْقَلْبِ كُلِّ مَكَانِ

يَا فَرِحَةَ الْأَيَّامِ حِينَ نَرَى بِهَا رَوْضَ التَّجَلِّيِ وَارِفَ الْأَغْصَانِ

(١) الْجُدُودُ الْعَوَائِرُ : الْحُظُوظُ الْخَائِبَةُ .

ويعود محفلنا بحسبك مسفراً كالشُّبَح في إشراقه الفينان
قد هاجَ حزني أن أرى أعداءنا بين الطَّلَا^(١) والظَّلَّ والألحان
ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي في الفقرِ حينَ القومِ في بستان
أشرقُ بنوركِ وإبعثِ البرق القديمَ بومضةٍ لِفَرَّاشِكَ الظَّمآنِ

أشواقنا نحوَ الحجازِ تطلَّعت كحينِ مُغْتَرِبٍ إلى الأوطان
إنَّ الطيورَ وإنَّ قَصَصَتْ جناحها تسمو بفطرتها إلى الطَّيْران
قيثارتِي مكبوتةٌ ونشيدُها قد ملَّ من صمتٍ ومن كتمان
واللَّحْنُ في الأوتارِ يرجو عازفاً ليسوخَ من أسرارهِ بمعانٍ
والطُّور^(٢) يرتقبُ التجلِّي صارخاً بهوى المَشُوقِ ولَهْفَةِ الحَيْرانِ

أكبادنا احترقتْ بأثاتِ الجوى ودماؤنا نهرُ الدَّموعِ القاني
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا وكأنَّه شكوى بغير لسان
أو ليس من هَوْلِ القيامة أن يكو ن الرُّهرُ نَمَاماً^(٣) على البُستانِ
النَّملُ لا يخشى سليماناً إذا حَرَسَتْ قُراه عنايةَ الرَّحمنِ
أرشدُ براهمةِ الهُنودِ ليرفعوا الـ إسلامَ فوقَ هياكلِ الأوثانِ

ما بالُ أغصانِ الصَّنوبرِ قد نأت عنها قَمَارِيهَا^(٤) بكلِّ مكانٍ
وتعرَّتِ الأشجارُ من حُللِ الرُّبا وطيورها فرَّت إلى الوديانِ

(١) الطَّلَا : الخمر .

(٢) الطُّور : هو الجبل الذي تجلَّى الله عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلمه .

(٣) نَمَاماً : هو مَنْ يُزَيِّن للناس الكلام بالكذب .

(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يَا رَبِّ إِلَّا بُلْبُلًا لَمْ يَنْتَظِرْ وَحَيَّ الرَّبِيعَ وَلَا صَبَاً^(١) نَيْسَانَ
الْحَانَهُ بِحَرٍّ جَرَى مُتَلَاظِمًا فَكَأَنَّهُ الْحَاكِي عَنْ الطُّوفَانِ
يَا لَيْتَ قَوْمِي يَسْمَعُونَ شِكَايَةً هِيَ نِيَّيْ ضَمِيرِي صَرْخَةُ الْوُجْدَانِ

إِنَّ الْجَوَاهِرَ حَيَّرَتْ مِرَاةَ هـ إِذَا الْقَلْبِ فَهُوَ عَلَى شَفَا الْبُرْكَانِ
أَسْمِعُهُمْ يَا رَبِّ مَا أَلْهَمْتَنِي وَأَعِذْ إِلَيْهِمْ يَقْظَةَ الْإِيمَانِ
وَأَذْفَهُمُ الْخَمَرَ الْقَدِيمَةَ إِنَّهَا عَيْنُ الْيَقِينِ وَكُوْثُرُ الرِّضْوَانِ
أَنَا أَعْجَمِي الدَّنَّ لَكِنْ خَمَرْتِي صُنْعُ الْحِجَازِ وَكَرْمِهَا الْفَيْنَانِ^(٢)
إِنْ كَانَ لِي نَغْمُ الْهِنُودِ وَلِحْنُهُمْ لَكِنْ هَذَا الصَّوْتُ مِنْ عَدْنَانِ

(١) صَبَاً : رِيحٌ طَيِّبَةٌ تَهْبُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ .

(٢) الْفَيْنَانُ : أَيُّ ذُو الْأُفْنَانِ طَوِيلِ الْأَغْصَانِ .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظَمَ مُحَمَّدٌ إِقْبَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ قَصِيدَةً أُخْرَى وَصَّحَ فِيهَا تَقْصِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِهْمَالَهُمْ لِدِينِهِمْ ، وَعَدَمَ إِتْقَانِهِمْ أَمْرَ الدُّنْيَا ، تَبْرِيراً لِمَا جُوزُوا بِهِ مِنْ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ ، وَسَرْعَانَ مَا تَغَنَّى بِهِاتَيْنِ الْقَصِيدَتَيْنِ الْأَطْفَالُ ، وَالشَّبَابُ ، وَحَفَظَهُمَا الرِّجَالُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَسَارَتَا مَسِيرَ الرِّيحِ وَطَارَتَا بِغَيْرِ جَنَاحٍ .

كَلَامُ الرُّوحِ لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي ^(١)	وَتُذَرِّكُهُ الْقُلُوبُ بِلَا عَنَاءٍ ^(٢)
هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِلَا جَنَاحٍ	وَشَقَّ أَنْيُّهُ صَدْرُ الْفَضَاءِ
وَمَعْدَنُهُ تُسْرَابِيٌّ وَلَكِنْ	جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لَفْعَةُ السَّمَاءِ
لَقَدْ فَاضَتْ دَمْعُ الْعِشْقِ مِنِّْي	حَسِيشاً كَانَ عُلوِّيَّ النَّدَاءِ
فَحَلَّقَ فِي رِبَا الْأَفْلَاكِ حَتَّى	أَهْجَاكَ الْعَالَمَ الْأَعْلَى بِكَائِي

تَحَاوَرَتِ النُّجُومُ وَقُلْنَ صَوْتُ	بِقَرَبِ الْعَرْشِ مُوَصِّلِ الدُّعَاءِ
وَجَاوَيْتِ الْمَجَرَّةَ عَلَّ طَيْفَاً	سَرَى بَيْنَ الْكَوَاكِبِ فِي خَفَاءِ
وَقَالَ الْبَدْرُ هَذَا قَلْبُ شَاكِ	يُوَاصِلُ شَذُوهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ
وَلَمْ يَعْرِفْ سِوَى رِضْوَانِ صَوْتِي	وَمَا أَحْرَأهُ عِنْدِي بِالْوَفَاءِ
أَلَمْ أَكُ قَبْلُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ	فَأَخْرَجَنِي إِلَى حَيْنٍ قَضَائِي

(١) يَسْرِي : يَجْرِي .

(٢) عَنَاءٌ : تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ .

وقيل هو ابن آدم في غرور
لقد سجدت ملائكة كرام
يظن العلم في كيف وكم
وملء كؤوسه دمع وشكوى
فيا هذا لقد أبلغت شيئاً
تجاوز قذره دون ازعواء^(١)
لهذا الخلق من طين وماء
وسر العجز عنه في انطواء
وفي أنغامه صوت الرجاء
وإن أكثرت فيه من المراء

عطايانا سحائب مرسلات
وكل طريقنا نور^(٢) ونور
ولم نجد الجواهر قابلات
وكان تراب آدم غير هذا
ولو صدقوا وما في الأرض نهز
ولكن ما وجدنا السائلينا
ولكن ما رأينا السالكينا
ضياء الوحي والثور المبينا
وإن يك أصله ماء وطينا
لأجرينا السماء لهم عيونا

وأخضعنا لملكهم الثريا
ولكن ألحدوا في خير دين
تراث محمّد قد أهملوه
تولّى هادمو الأصنام قذماً
أباهم كان إبراهيم لكن
وشيدنا النجوم لهم حصونا
بنى في الشمس ملك الأولينا
فعاشوا في الخلائق مهملينا
فعاد لها أولئك يصنعونا
أرى أمثال آزر^(٣) في البنينا

(١) ازعواء : كف وارتداع .

(٢) الثور : الزهر .

(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حزفة .

وفي أسلافكم كانت مزايا
تَضَوُّعٌ^(١) شقائق الصَّحراءِ عَطِراً
فهَلْ بقيت محاسنهم لديكم
لقد هَامُوا بخالفهم فناء
وكونرُ أحمد منكم قريبٌ
بكلِّ فمٍ لذكرها نَشِيدُ
بريَّاهَا وتبتسمُ الورودُ
فيجمل في دلالكم الضُّدودُ
فلم يكتب لغيرهم الخلودُ
ولكن شوقكم عنه بعيدُ

وكم لاح الصُّباحُ سَنًا^(٢) ويُنْشِرى
وكَبُرَتِ الخمائلُ في رباهَا
ونوم صباحكم أبداً ثَقِيلُ
وأضحى الصُّومُ في رمضان قِيداً
تمدَّنَ عصرُكم جمع المزايا
وأذنتِ القَمَارِي والطُّيُورُ
مصليةً فجأوبها الغديرُ
كأنَّ الصبح لم يدركه نورُ
فليس لكم به عزمٌ صبورُ
وليس بغائبٍ إلا الضميرُ

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءُ
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانُ
ومن رَضِيَ الحياةَ بغير دينٍ
وفي التوحيدِ للهَمُّ اتِّحادُ
تساندتِ الكواكبُ فاستقرَّتْ
وكيف ينالُ عهدي الظالمينا
ولا دُنْيَا لمن لم يُخَيِّ دِينَا
فقد جعلَ الفناءَ لها قرينَا
ولسنَ تبنا العُلا مُتَفَرِّقِينَا
ولولا الجاذبيةُ ما بقينا

عَدُوَّتُكم في الدِّيَارِ بلا ديارٍ
وكلُّ صواعقِ الدُّنْيَا سهامُ
وأنتم كالطُّيُورِ بلا وُكُورٍ
ليبدركم وأنتم في غرورٍ

(١) تَضَوُّعٌ : تفوح وتنتشر .

(٢) السَّنَا : الضياء .

أهَذَا الْفَقْرُ فِي عِلْمٍ وَمَالٍ وَأَنْتُمْ فِي الْقَطِيعَةِ وَالْثُفُورِ
وَيَبِيعُ مَقَابِرَ الْأَجْدَادِ أَضْحَى لَدَى الْأَحْفَادِ مَدْعَاةُ الظُّهُورِ
سَيُغْجَبُ تَاجِرُو الْأَصْنَامِ قُدَمَا إِذَا سَمِعُوا بِتَجَارِ الْقُبُورِ

مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إِلَى الْمَعَالِي عَلَى نَهْجِ الْهَدَايَةِ وَالصُّوَابِ
وَمِنْ جِبْهَاتِهِمْ أَنْوَارُ بَيْتِي وَفِي أَخْلَاقِهِمْ يُتْلَى كِتَابِي
أَمَّا كَانُوا جُدُودَكُمْ الْأَوَالِي بِنَاءَ الْمَجْدِ وَالْفَنِّ الْعَجَابِ
وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْمَاضِي تَرَاثٌ سِوَى شَكْوَى اللَّغُوبِ^(١) وَالْاِكْتِنَابِ
وَمَنْ بَلَكَ يَوْمُهُ فِي الْعَيْشِ يَأْسًا فَمَا غَدُهُ سِوَى يَوْمِ الْعَذَابِ

اتَّشَكُّوْا أَنْ تَرَى الْأَقْوَامَ فَازُوا بِمَجْدٍ لَا يَرَاهُ النَّائِمُونَ
مَشَوْا بِهَدْيِ أَوَائِلِكُمْ وَجَدُوا وَضِيعَتُمْ تَرَاثِ الْأَوَّلِينَ
أُيْخَرُمُ عَامِلٌ وَرَدَ الْمَعَالِي وَيَسْعَدُ بِالرُّقْيِ الْخَامِلُونَ
أَلَيْسَ مِنَ الْعَدَالَةِ أَنْ أَرْضِي يَكُونُ حَصَادُهَا لِلزَّارِعِينَ
تَجَلَّى النُّورِ نَوَقَ الطُّورِ بَاقٍ فَهَلْ بَقِيَ الْكَلِيمُ^(٢) بِطُورِ سِينَا ؟

أَلَمْ يُنْعَثْ لَأُفْتَكِّمَ نَبِيًّا يُوَحِّدُكُمْ عَلَى نَهْجِ الْوَنَامِ
وَمُصَحِّفُكُمْ وَقَبْلَتُكُمْ جَمِيعًا مَنَارٌ لِلْأَخْوَةِ وَالسَّلَامِ
وَفَوْقَ الْكُلِّ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ إِلَهٌ وَاحِدٌ رَبُّ الْأَنَامِ
فَمَا نَارُ الْفِتْنَةِ تَوَلَّى وَأَمْسَيْنُمْ حِيَارَى فِي الظَّلَامِ

(١) اللُّغُوبُ : التعب والإعياء .

(٢) الْكَلِيمُ : لقب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

وحسن اللؤلؤ المكنونِ رهنٌ بصوغ العِقْد في حُسن النُّظامِ

وكيف تغيّرت بكمُ الليالي تركتم دينَ أحمدَ ثم عُذَّتُم
رقيُّ الشَّعبِ قد أضحي لديكم وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ
أرى ناراً قد انقلبت رماداً وكيف تفرّقت بكمُ الأماني
ضحايَا لِلْهوى أو للهِوانِ تقرُّهُ صلاحيةُ الزمانِ
بحكمة منزلِ السَّبْعِ المثاني سوى ظل مريضٍ من دخانِ

أرى الفقراءَ عبّاداً تقاةً هم الأبرارُ في صومٍ وفطرٍ
وليس لكم سوى الفقراءِ سترٌ أضلّت أغنياءكم الملاهي
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزاً قياماً في المساجد راكعينا
وبالأسحارِ هُم يَسْتَغْفِرُونَا يوارى عن عيوبكم العُيونا
فهم في ريبهم يتردّدونا لدينِ الله ربِّ العالمينا

أرى التفكيرَ أدركهُ خمولٌ وأصبحَ وَغَطُكم من غيرِ سِخْرِ
وعند النَّاسِ فلسفةٌ وفكرٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
ولا نورٌ يُطلُّ من المقال ولكن أين تلقين (الغزالي ^(١))
ولكن أين صوتٌ من بلالٍ ومسجدُكم من العبّاد خالي
مناثرُكم علت في كلِّ حيٍّ

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥ هـ بمدينة « طوس » .

فَأَيْنَ أئِمَّةٌ وَجُنُودٌ صَدَقَ تَهَابُ شَبَابَةٌ^(١) عَزَمَهُمُ الْحَرَابُ
 إِذَا صَنَعُوا فَصَنَعَهُمُ الْمَعَالِي وَإِنْ قَالُوا فَقَوْلُهُمُ الصَّوَابُ
 مَرَادُهُمُ الْإِلَهُ فَلَا رِيَاءَ وَنَهَجَهُمُ الْيَقِينُ فَلَا ارْتِيَابُ
 لَأَمَّتْهُمْ وَلِلْأَوْطَانِ عَاشُوا فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا طِلَابُ
 كَمَثَلِ الْكَاسِ تُبَصِّرُهَا دِهَاقًا^(٢) وَلَيْسَ لِأَجْلِهَا صُنِعَ الشَّرَابُ

جِهَادُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ حَيَاةٌ أَلَا إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْجِهَادُ
 عَقَائِدُهُمْ سَوَاعِدُ نَاطِقَاتٍ وَبِالْأَعْمَالِ يَثْبُتُ الْإِعْتِقَادُ
 وَخَوْفُ الْمَوْتِ لِلْأَحْيَاءِ قَبْرُ وَخَوْفُ اللَّهِ لِلْأَحْرَارِ زَادُ
 أَرَى مِيرَاثَهُمْ أَضْحَى لَدَيْكُمْ مَضَاعًا حَيْثُ قَدْ ضَاعَ الرَّشَادُ
 وَلَيْسَ لَوَارِثٍ فِي الْخَيْرِ حِفْظُ إِذَا لَمْ يَحْفَظِ الْإِرْثُ اتِّحَادُ

لَايَ مَآثِرِ الْقَوْمِ انْتَسَبْتُمْ ؟ لَتَكْتَسِبُوا فَخَارَ الْمُسْلِمِينَ
 فَأَيْنَ مَقَامُ ذِي الثُّورَيْنِ^(٣) مِنْكُمْ وَدَوْلَةُ عَزْرَةِ دُنْيَا وَدِينَا
 وَفَقْرُ عَلِيِّ الْأَوَابِ هَلَا رِبْحَتُمْ فِيهِ كَنْزُ الْفَاتِحِينَ
 أَقَمْتُمْ فِي الدُّنُوبِ وَفِي الْخَطَايَا وَتَغْتَابُونَ حَتَّى الصَّالِحِينَ
 وَهُمْ سَتَرُوا عَيْبَ الْخَلْقِ فَضْلًا وَإِنْ كَانُوا أَبْرَرَ الْمُتَّقِينَ

(١) شَبَابَةٌ ، جمعها الشُّبَابُ والشُّبُوتُ : شِبابَةٌ كُلُّ شَيْءٍ ، أَيْ حَدُّ طَرَفِهِ .

(٢) دِهَاقٌ : مُنْتَلَى ، يُقَالُ : كَأْسٌ دِهَاقٌ ، أَيْ مُنْتَلَى .

(٣) هُوَ لَقَبُ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

أَرِيكَ قَيْصَرَ^(١) وَسَرِيرُ كِسْرَى^(٢)
وَأَنْتُمْ تَطْمَحُونَ إِلَى الثَّرِيَا
تَضِيعُونَ الْإِخَاءَ وَهُمْ أَقَامُوا
طَلَبْتُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَعَذْتُمْ
وَكَانَ لَدَيْهِمُ الْبُسْتَانُ مُحَضًّا

قَدْ اخْتَمَيْتُمْ بِمُلْكِهِمُ الْعَمِيمِ
بَلَا عِزِّمْ وَلَا قَلْبِ سَلِيمِ
صُرُوحُ إِخَائِهِمْ فَوْقَ الثُّجُومِ
بَلَا زَهْرِ يَضُوعُ^(٣) وَلَا شَمِيمِ
وَهُمْ أَصْحَابُ جَنَاتِ النَّعِيمِ

يُعِيدُ الْكَوْنُ قَصَّتَهُمْ حَدِيثًا
فَكَمْ نَزَّحُوا عَنِ الْأَوْكَارِ شَوْقًا
وَيَأْسُ شَبَابِكُمْ أَدْمَى خَطَاهُمْ
هِيَ الْمَدِينَةُ الْحَمَقَاءُ أَلْقَتْ
لَقَدْ صَنَعْتُ لَهُمْ صَنْمَ الْمَلَاهِي

وَمَلَّ مِنَ الشُّكَايَةِ وَالْعَذَابِ
يَرَى لَيْلَاهُ^(٥) وَهِيَ بَلَا حِجَابِ
رَأَى وَجْهَ الْغُرَامِ بَلَا نِقَابِ
مِنَ الْمَاضِي وَأَغْلَقَ كُلَّ بَابِ
وَعَاثَتْ^(٦) فِي الْجِبَالِ وَفِي الْهَضَابِ^(٧)

لَقَدْ سَنِمَ الْهَوَى فِي الْبَيْدِ قَيْسَ^(٤)
وَيَحَاوُلُ أَنْ يُبَاحَ الْعِشْقُ حَتَّى
يَرِيدُ سَفُورَ وَجْهِ الْحُسْنِ لَمَّا
فَهَذَا الْعَهْدَ أَحْرَقَ كُلَّ غَرَسِ
لَقَدْ أَفْنَيْتَ صَوَاعِقُكَ الْمَغَانِي

(١) قَيْصَر : لقب ملوك الروم .

(٢) كِسْرَى : لقب ملوك الفرس .

(٣) يَضُوعُ : يفوح وينتشر .

(٤) قَيْس : من أشهر عشاق العرب .

(٥) لَيْلَى : من أشهر عاشقات العرب .

(٦) عَاثَتْ : أفسدت .

(٧) هَضَاب : جمع هَضْبَة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى
خُذُوا إِيمَاناً إِبْرَاهِيمَ تَنْبُتْ
وَيَذْكُو مِنْ دَمِ الشَّهْدَاءِ وَرَدْ
وَيَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْكَوْنِ لَوْنٌ
فَلَا تَفْزَعُ إِذَا الْمَرْجَانُ^(١) أَضْحَى

لَهَا حَطَبٌ سِوَى الْمَجْدِ الْقَدِيمِ
لَكُمْ فِي النَّارِ رَوْضَاتُ النَّعِيمِ
سِنِّي الْعَطَرِ قَدْسِي النَّسِيمِ
مِنَ الْعُثَابِ مَخْضُوبُ الْأَدِيمِ
عُقُوداً لِلْبِرَاعِمِ وَالْكُورِمِ

فَكَمْ زَالَتْ رِيَاضٌ مِنْ رَبَاهَا
وَلَكِنْ نَخْلَةُ الْإِسْلَامِ تَنْمُو
وَمَجْدُكَ فِي حِمَى الْإِسْلَامِ بَاقٍ
وَإِنَّكَ يَوْسُفُ فِي أَيِّ مَصْرِ
تَسِيرُ بِكَ الْقَوَافِلُ مُسْرِعَاتٍ

وَكَمْ بَادَتْ نَخِيلٌ فِي الْبَوَادِي
عَلَى مَرِّ الْعَوَاصِفِ وَالْعَوَادِي
بِقَاءِ الشَّمْسِ وَالسَّبْحِ الشَّدَادِ
يَرَى كَنَعَانَهُ^(٢) كُلَّ الْبِلَادِ
بَلَا جَرَسٍ وَلَا تَرْجِيْعَ حَادِي

ضِبَاؤُكَ مَشْرِقٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ
بَعَثْتَ أُمَّمَ التَّنَّارِ^(٣) فَأَدْرَكْنَهَا
وَأَصْبَحَ عَابِدُو الْأَصْنَامِ قُذْمًا
فَلَا تَجْزَعُ فَهَذَا الْعَصْرُ لَيْلٌ

لَأَنَّكَ غَيْرَ مُحَدِّدِ الْمَكَانِ
مِنَ الْإِيمَانِ عَاقِبَةُ الْأَمَانِ
حِمَاةَ الْحَجَرِ^(٤) وَالرُّكْنَ الْيَمَانِي^(٥)
وَأَنْتَ النَّجْمُ يَشْرِقُ كُلَّ أَنْ

(١) الْمَرْجَانُ : صِغَارُ اللَّوْلُؤِ .

(٢) كَنَعَانُ : أَرْضُ فِلَسْطِينَ .

(٣) التَّنَّارُ : قِبَائِلُ كَانَتْ تَسْكُنُ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا ، أَصْلُهُمْ مِنَ الْمَغُولِ ، اشتهروا بغزواتهم ، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد .

(٤) الْحَجَرُ : يَرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ حَجَرَ الْكَعْبَةِ .

(٥) الرُّكْنَ الْيَمَانِي : هُوَ رُكْنُ الْكَعْبَةِ الَّذِي فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ بشعلتك المضيئة في الزمانِ

أعدْ من مشرقِ التَّوحيدِ نوراً يتمُّ به اتِّحادُ العالمينا
وأنتَ العطرُ في روضِ المعالي فكيفَ تعيشَ محتبساً دفيناً
وأنتَ نسيمةُ فاحمِلْ شذاه ولا تحمِلْ غبارَ الخاملينا
وأرسلْ شعلَةَ الإيمانِ شمساً وصُغْ مِنْ ذرَّةِ جبلٍ حصيناً
وكن في قَمَّةِ الطُّوفانِ موجاً ومُزناً يُمطرُ الغيثَ الهُتوناً

فباسمِ محمدٍ شمسِ البرايا أقيمتْ خيمةُ الفلكِ المُنيرِ
تَلألأَ في الرياضِ وفي الصحارى وفوقَ الموجِ والسيلِ المغيرِ
وتَبَضُّ الكونِ منه مُستَمِدُّ حرارته على مرِّ العصورِ
ومن مراكش^(١) يغزو صداه رُبُوعَ الصُّينِ بالصُّوتِ الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا الثُّورِ إلا ضميرُ المسلمِ الحرِّ الغيورِ

ورفعُ الذِّكرِ للمختارِ رفعٌ لقدركَ نحوَ غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عَيْنِ الكونِ واشهد مقامك عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوُثَّابِ لاحت على الأعلامِ أنوارُ الهلالِ
ندائك في العناصرِ مستجابٌ إذا دَوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوبِ أجلُّ درعٍ وعشقُك خيرُ سيفٍ للنِّصَالِ

خلافَةُ هذه الأرضِ استقرَّتْ بمجدكَ وهو للذُّنيا سماءُ

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيا من هب للإسلام يدعو
سترفع قذرك الأقدار حتى
وقيل لك اختكم دنيا وأخرى

صغيراً كل ما ضمّ الفضاء
وأيقظ صدق غيبرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما تشاء



الدِّيَّوَانُ الثَّانِي

الْأَسْرَارُ وَالرُّمُوزُ

أَسْرَارُ اثْبَاتِ الذَّاتِ وَرُمُوزُ نَفْيِ الذَّاتِ

أَسْرَارُ خُودِي وَرُمُوزُ بَیْخُودِي

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْوَهَّابِ عَزَّام

يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلامية . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلا أنه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورة عارمة تعارض أشد المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفة حديثة تؤدّي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أية فائدة للترك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظريته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوّة ، والاعتماد على النفس^(١) ولم يقنط محمد إقبال بل كرّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنّ مردّ هذا إلى الآراء الإغريقية التي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوّل هذا الدين من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية ، الأمر الذي أدّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندّد بأفلاطون ، وشنّ حملة على الصوفيّة التي عدّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدؤها بالأبيات التالية التي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرّومي^(٢) : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلًا ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي ! تبحث

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص (١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسان في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال ، وبطل من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروّج نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل ! فأحبّ شيء إلى نفسي ، أعزّه وجوداً ، وأبعده منالاً^(١) . وقد ركّز محمّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات التي يركّز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورة جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأن أخلاق الفرد والأمة تحدّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والروحانيّة ، ويؤكد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أن الاستسلام للجبرية هو الذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرّغم من قيمهم الدّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

(١) « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن الندوي ص ٨٥-٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولاً على المقدمة المنظومة ، يبين فيها محمد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيلِ السفر فهمي دمعِي على خدِّ الزهر
غسل الدمع سبات التُّرجس وصحا المشب بمسرى نفسي
جرَّب الفارس قسولي موقداً مصرعاً ألقى وسيفاً حصداً
ويشير إلى أنَّ الرومي هو الذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صَيَّر الروميُّ طينِي جوهرًا من غباري شاد كوناً آخرًا

فصول الديوان :

- ١ - أصل نظام العالم من الذاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذاتية .
- ٢ - حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .
- ٣ - تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق .
- ٤ - ضعف الذاتية بالسؤال .
- ٥ - إذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سخرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .
- ٦ - حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ - في معنى أنَّ أفلاطون اليوناني - الذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها - ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ - حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية .

٩ - تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ - في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ - نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ - الوقت سيف .

١٣ - دعاء « ويختم به المنظومة »^(١) .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضي وساخط ومستحسن ومستنكر ، بل بين مصفّق طرباً يثني معجباً ، وصائح يتعجب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

(١) إقبال . . للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها

محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)^(١) الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلق كل المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتل المشاهدات ؟ أم حقيقة دائمة ، أم أن الحياة تجلّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلياً عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟

إن سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خداع الخيال . وهي تعدّ الخلاص من هذا الغلّ نجاةً ، وميل أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقّ حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إن حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإن حالة النفس الإنسانية نتيجة محتومة لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوة إلى العمل بليغةً ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوق ينال الخلود بالعمل ، ولكن تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسر بها شنكر

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (كيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلامي . واقتفى أثره أوجد الدين الكرمانى ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة ، فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أُمم الغرب بين أُمم العالم بميلها إلى العمل ، فأراؤهم خيرٌ دليل لأُمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي^(١) ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتت بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختتم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلّ على الطريق من لم يُسلم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فإنما خيال الشعر فيها وسيلة إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القراء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثرة ، كما تستعمل في اللغة الأردية غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر

إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعٌ نظريٌّ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدرك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلُّها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصي ، أو فردٍ ، أو شيء . والخالق كذلك فرد ؛ ولكنه أوحداً لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنى القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الدِّيني والأخلاقي إثبات ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٍّ مستمر ، تسخر كل الصعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتها أن تخلق دائماً مطالباً ومُثلاً جديدةً ، وقد خلقت من أجل اتساعها وترقيها آلات كالحواس الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتفهر بها العقبات والمشقات .

وأشد العقبات في سبيل الحياة المادّة أو الطبيعة ، ولكنّ المادّة ليست شراً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعين الذات على الرقي ، فإنّ قوى الذات الخفية تتجلّى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قهرت الذات كل الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذات نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياة جهداً لتحقيق الاختيار . ومقصود الذات أن تبلغ الاختيار بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنّ الحياة حينما تتجلّى في الإنسان تسمّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالّ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوف على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبته حالّ من الاسترخاء مضرّة بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرض عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيولة دون حال الاسترخاء .

وكلّ ما يُمكننا من إدامة حال التوتر يُمكننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تعرض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطاً ممتداً إلى غير نهاية يتحمَّ علينا المرور به . هذا تصوُّر للزَّمان غيرٌ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدْ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقوفٌ على أن نسلِك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جداً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدُّ في نيلها . وخاصةً العشق أفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسْمى ظهر فيه التوحد ، ويتحقَّق ضمناً توحد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشقُ شخصي ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشق كائن غير مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدّ سؤالاً ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتبع أفكار غيره ، أو يدّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنّ في حياة الرسول ﷺ أسوة حسنة للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيّنت أنّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ - إطاعة القانون الإلهي .

٢ - وضبط النفس .

٣ - والنبابة الإلهية .

والنبابة الإلهية في هذا الدنيا هي أعلى درجات الرقيّ الإنسانيّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرط لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبيها الروحيّ والجسميّ ، فإنّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمّة مثالية يتجلّى في أفرادها في الجملة هذا التوحد الدّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريّة يتوحد أفرادها ، ويقوم على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوّر فوقها ذروة .

وقد رأى نشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسحاً فلسفته كلها « إه .
هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه
ما قدّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

القسم الأول

أسرار إثبات الذات

(أسرار خودي)

رايتُ الشيخ بالمصباح يسمى له في كلِّ ناحيةٍ مجال
يقول : ملكتُ أنعاماً وبههما وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها برشتمُ أو بحيدرٍ اندمال^(١)
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا فقال : ومُنيتي هذا المحال
(مولانا جلال الدين الرومي)

(١) حيدر : عليُّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .

تمهيد

« ليس في أعواد غابي سَقَطٌ هي للمنبر أو أعواد صَلْب »^(١)

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفر	فَهَمَى دمعِي على خدِّ الزهر
غسلَ الدمعُ سُباتَ التُّرجسِ	وصحا العُشبُ بِمَسَرَى نفسي
جَرَّبَ الرِّارُعُ قولي مُحَصِّدا	مِصرعاً لَقَى ، وسيفاً حصدا
إنَّه حَبٌّ دموعي زَرعا	نسجَ الروضَ وَأَناتِي معا
ذَرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا	كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
طيتني من جَامِ جَمٍّ أنورُ	من غيوبِ الكونِ عِندي عبْرُ ^(٢)
صَيَّدُ أفكاري طِباءَ لم تُرَمَ	لم تُسَيَّبَ بعدُ من قيدِ العَدَمِ
زَانَ بُسْتانِي عشبٌ ما ظَهَرَ	وجنيتُ الورْدَ في جوفِ الشَّجرِ ^(٣)
محفلُ الشاديين مني يَرْجُفُ	في وتارِ الكونِ كَفِّي تعزِفِ
صامِتٌ في رِبابِ الفِطْرةِ	ما وعَى عَنِّي جليسي نغمَتي
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي	حُبُكاً في فَلَكَ لم أَهْدِ

(١) نيت درخشك وتريشه من کوتاهی . جوب هرتخل که منبر شوه دارکم

(٢) جامِ جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكانه قد جناه .

لَمْ يَرْغُ ضَوْئِي سِرْبَ الزُّهْرِ أَوْ يُرْجَرْجَ زَيْتِي فِي الْبَصْرِ^(١)
 مَا رَأَتْ رَقَصَ ضِيَائِي الْأَبْحُرُ أَوْ كَسَا الْأَطْوَادَ ثُوبِي الْأَحْمَرُ
 عَيْنُ هَذَا الْكَوْنِ لِي لَا تَعْهَدَ أَنَا مِنْ خَوْفِ طُلُوعِ أَرْعَدُ
 مَرْقَ الظُّلْمَةِ فَجَرِي فَسْفَرُ وَبَدَا طَلُّ جَدِيدٍ فِي الزُّهْرِ
 إِنَّنِي أَرْقُبُ صَبْحاً مُعَلِّماً حَبْذاً مِنْ حَوْلِ نَارِي زَمْزَمَا^(٢)

أَنَا لَعَنُ دُونَ ضَرْبٍ صَعْدَا أَنَا صَوْتُ شَاعِرِي يَأْتِي غَدَا^(٣)
 دُونَ عَصْرِي كُلُّ سَرٍّ قَدْ خَفِيَ مَا بِهِذِي السُّوقُ يُشْرِى يَوْسُفِي^(٤)
 أَنَا فِي يَأْسٍ مِنَ الصُّخْبِ الْقَدِيمِ مُشْعَلُ طُورِي لِيَغْشَاهُ كَلِيمُ^(٥)
 بَحْرُ صَحْبِي قَطْرَةٌ لَا تَزْخَرُ قَطَرْتِي كَالِيمٌ فِيهِ صَرْصَرُ
 مِنْ وَجُودٍ غَيْرِ هَذَا لِي غَنَاءُ وَلرَّكِبٍ غَيْرِ هَذَا لِي حُدَاءُ
 كَمْ تَجَلَّى شَاعِرٌ بَعْدَ الْحِمَامِ يَوْقُظُ الْأَعْيْنَ حِيناً وَيَنَامُ
 وَجْهُهُ مِنْ ظُلْمَةِ الْمَوْتِ سَفَرُ وَنَمَا مِنْ قَبْرِهِ مِثْلَ الزُّهْرِ^(٦)

كَمْ بِهِذَا الشَّهْبِ مَرَّتْ قَافِلَةٌ مِثْلَ سَيْرِ الثُّوقِ رَهْوَاءَ سَابِلَةٍ

-
- (١) لَمْ يَغْشَ ضَوْئِي النُّجُومَ ، وَلَمْ يَضْطَرْبْ شِعَاعِي فِي الْأَعْيُنِ اضْطِرَابَ الزَّيْتِ .
 (٢) حَبْذاً مِنْ صَلْبِي بِنَارِي وَزَمْزَمَ حَوْلَهُمَا كَالْمَجْجُوسِ .
 (٣) هُوَ صَوْتُ شَاعِرِ الْغَدِ ، لَيْسَ صَوْتاً لِلزَّمَنِ الْحَاضِرِ .
 (٤) أَفْكَارِي لَا يَفْهَمُهَا هَذَا الْعَصْرُ ، إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جَمَالُ يَوْسُفَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ السُّوقِ
 مِنْ يَشْتَرِيهَا .
 (٥) يَأْتِسُ مِمَّنْ عَرَفَ مِنَ النَّاسِ ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِ كَلِيمٌ يَفْقَهُ عَنْهُ ، كَمَا ذَهَبَ مُوسَى
 الْكَلِيمُ إِلَى الطُّورِ .
 (٦) قَالَ : إِنَّهُ شَاعِرُ الْمُسْتَقْبَلِ لَا الْحَاضِرِ فَقَالَ : كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ لَمْ يُعْرِفْ قَدْرَهُمْ إِلَّا بَعْدَ
 الْمَوْتِ .

غير أني عاشقٌ ، ديني النواخ
 أنا لحنٌ كلُّ عنه الونرُ
 أبعد القطرة عن سيل طما
 لا تعي موجي هذي الأنهرُ
 ليس أهلاً لسحابي زهرة
 كم بُروقي نائماتٍ في الجنان
 إن تكن صحراء فاطلب لجنتي
 قد حُييتُ الوردَ من عين الحياة
 أشعل الذرة لحنسي الشائز
 مانثا ذا السرِّ غيري في البشر
 أقبلن إن تبغ عيش الخالدين
 أفشت الأفلاك لي السرِّ القديم
 أيها الساقى ! من الزاح اسقني
 شعله الماء التي من زمزم
 مقلّة المُبصر منها أبصرُ
 تجعل الريشة طوداً قاهرا
 هي تسمو للثريا بالثرى
 تجعل الصمت ضجيج المحشر
 املا الكأس بصفو نير

ثورة المحشر في هذا الصياخ
 لا أبالي أن عُودي يُكسر^(١)
 وانظرنَّ اليمَّ منه التطما
 لا تعي لجُبي إلا أبحرُ
 ليس فيها لنمو روضة^(٢)
 ضاقت البيدُ لديها والقنان^(٣)
 أو تكن سيناء فاقبس شعلتي
 ووهبتُ السرَّ من عين الحياة^(٤)
 رفرفتُ فهي يراع طائر
 لم يُقْبِ ناضمٌ مثلي الدُر
 أقبلن إن تبغ مُلك العالمين
 كيف يُخفى السرُّ من دون النديم ؟
 وآس في قلبي جراح الزمن
 قصرتُ يعنو لها كالخدم
 وشعابُ الفكر منها أنور
 وتُري الثعلب ليشاً زائرا
 وتعني القطرة منها أبحرا
 تجعل الدُّراج حنف الأضفر
 نور الفكر بنور القمر

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .

(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضة ليست أهلاً لمطره .

(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .

(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأقود الرّكَبَ شطرَ المنزل
رائساً وجهَ جديديّ الأمل
فأرى إنسانَ عينِ العارفين
مُعلّياً قَدَرَ الكلامِ المُبدع
قارئاً من فيضِ ذا الشيخ العظيم
قلبه من شعلة الوجود استعز
قد رمى السَّمْعُ فراشي باللهب
صَيَّرَ الروميّ طينيّ جوهراً
ذرةً تصعدُ من صحرائها
إنّني في لُجّة موجٍ جرى
قد عرّنتني نشوةً من كأسه

باعثاً شوقَ الشّرى في المُقل
ساعياً إثرَ جديديّ العَمَل
وأرى لحناً بأذنِ العالمين
مازجاً فيه غزيرَ الأدْمُع
كُتِباً تُضمِرُ أسرار العلوم^(١)
وأنا في نفسٍ منه شَرَزَ
وغزّت جامي الحُمَيّا فالتهب^(٢)
من غُبّاري شاد كوناً آخراً
لتنال الشّمس في عليائها
لأصيب الدُّرّ فيه نيراً
وحياةً نلتُ من أنفاسه

ليلةً رانتُ على قلبي الشُّجون وسرت « يا ربّ » في الليل السُّكون^(٣)

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهر شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعةً من قبل للروم ، واستقرّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمّن حكايات لها مغزى صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسه عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

من فراغ الكأس قلبي نائحُ من صروفِ الدَّهرِ شاكُ صائحُ
أرهقَ التسيارُ فكري فتوى هيضَ سِفْطاهِ وللنَّومِ هوى^(١)

لاحَ شيخُ الحقِّ ذاكَ الألمعي من حكى قرآننا بالفهلوي^(٢)
قال : يا ولهان بين العاشقين ! من شرابِ العِشقِ فاجرع كلَّ حين
شُقَّ في العينِ حِجابَ البصرِ وأئِز في القلبِ هَوْلَ المحشرِ
واجعلنَّ الضُّحكَ ينبوعَ البكاءِ واملأ العينَ دموعاً من دماءِ
أنت كالكمِّ صموتُ أبكم انشُرْنَ كالوردِ ريحاً تَفعم^(٣)
صعدنُ من كلِّ عضوٍ ، كالجرسِ نوحك الصامتَ في كلِّ نفْسِ
أنت نازٌّ فأضئْ للعالمين بلهيبِ منك أذكِ الآخرين^(٤)
سِرَّ شيخِ الحانِ أعلنِ في فياجِ كن مُداماً واتخذِ ثوبَ الرُّجاجِ^(٥)
وكنِ الفهرَ لمرآةِ الفِكرِ واصدعنِ جهراً وأعلنِ ما استتر^(٦)
حدثنِ كالنَّاي عن غابِ ناي حدثنِ قيساً عن الحيِّ انتأى^(٧)
جددِ النَّوحِ بلحنِ محدثِ ومن الأهاتِ في الحفلِ انفثِ

(١) السقطان : الجناحان .

(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي :
الفارسي .

(٣) كم الزهر منقبض يخفي لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت
الرائحة : ملأت الأنف .

(٤) أذكى النار : أشعلها .

(٥) اتخذ ثوب الرُّجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجة ما فيها .

(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مرآة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما
للعشق في قلبك .

(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال
الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كلَّ حيٍّ فيه رُوحاً أخكم
وهلمَّ اسلك طريقاً أنفأ
جرس الرُّكب ! تنبّه لا تنم
وزد الحيّ حياةً من « قَم »^(١)
وانفِ عن قلبك ما قد سَلَفَا
واعرف اللّذة في هذا النّغم

صِرْتُ ناراً في ثيابي تُسعر
ثُرْتُ من أوتار نفسي نغما
فرفعتُ الشّر عن سرّ خودي
كان كوني صورة لم تكمل
يبردُ العشق براني رجلاً
فرأت عيناى نبض الأنجم
وبكى النَّاسَ جنح الظّلم
مَصْنَعُ الكون أراني ما حواه
أنا - من في ظلمة اللّيل أنار -
صوتُها في الشرق والغرب علا
ذرّة أَلْقَتْ وشمساً حصّدت
آهتي الحَرَى سمّت فوق العنّان
صِرْتُ كالنّاي ، هياجاً أضمر
شِدْتُ من حسن بياني إرماً^(٢)
فبدا الإعجاز من أمر خودي^(٣)
كان سِقْطاً مُهملاً في الهمل
كيفَ هذا الكون والكمّ جَلاً^(٤)
وبعرق البذرِ دوراتِ الدّم^(٥)
فبدا سرُّ حياة الأمم
فتجلّى سرُّ تقويم الحياه
في طريق المَلّة البيضاء غبار^(٦)
لحنُها في القلب ناراً أشعلا
ألفَ روميّ وعطّارِ جنت^(٧)
عِترتي النارُ ، وإن كنتُ الدُّخان^(٨)

(١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .

(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .

(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتي . وهي أساس فلسفة إقبال .

(٤) جلاني العشق كيف هذا الكون وكمّه حين سلط على مبرده فسوّاني رجلاً .

(٥) رأى نبض النجوم وسير الدّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .

(٦) المَلّة البيضاء : الأُمَّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .

(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .

(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمي في مسرح الفكر علا فجلا الأسرارَ في السَّبْعِ العُلَى

ما قصدت الشعر في هذا النِّعَم	نحتَ أصنامٍ وتعظيمَ صنم ^(١)
أنا هنديّ شأني الفارسيّ	وهلالٌ أنا ذو جامِ خليّ ^(٢)
لا تؤمِّل عندنا حسن البيان	لحنَ خُنسارٍ به أو أصفهان ^(٣)
ذاكمُ الهنديّ يحكي السِّكرا	لكن الدَّزِّيَّ أحلى مخبِرا ^(٤)
سحرَ الفكرِ تجلّيه وراغ	فإذا لي شجرُ الطورِ يراع ^(٥)
قد علا فكري وهذا الفارسيّ	لاءمِ الفطرةَ في فكري العليّ
أيُّها العائبُ كأسُ الخندريس	انظرنِ يا صاح ما تحوي الكؤوس ^(٦)

في بيان أنَّ نظام العالم من الذَّاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكُلُ الأكوانِ من آثارها	كلُّ ما تبصر ، من أسرارها
نفسها قد أيقظت حتى انجلى	عالمُ الأفكارِ ما بين الملا
ألفُ كونٍ مختلفٍ في ذاتها	غيرُها يثبتُ من إثباتها

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للأراء السائدة .

(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمَّ نوره .

(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحانا كثيرة .

(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .

(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .

(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، ويتبغى أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلت بَسْرَ خصام بَسْرَهَا
 خلقت أضدادها من نفسها
 تتلي في نفسها قَوَّتَهَا
 خُدْعُ مَنْ وَهَمَهَا عَيْنُ الْحَيَاةِ
 تُخْرِبُ الْبُسْتَانَ أَجَلَ الْوَرْدَةِ
 لَقْلِقُكَ وَاحِدِ أَلْفِ هَلَالِ
 عَذْرَهَا فِي سَرَفٍ أَوْ قَسْوَةٍ
 حُسْنُ شِيرِينَ لَفَرَهَادَ مِخْنِ
 فِي فَرَاشٍ حَرْقَةٍ كَالْمَشْعَلِ
 أَلْفَ يَوْمٍ سَطَّرَتْهُ يَدُهَا
 أَلْفَ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ اغْتَدَى
 نَفْسَهَا تَنْظُرُ فِيهَا غَيْرَهَا
 لَتَرَى لَذَّتَهَا فِي بَأْسَهَا
 لَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا قُدْرَتَهَا
 غُسْلُهَا فِي دَمِهَا عَيْنَ الْحَيَاةِ^(١)
 تَكْثُرُ النَّوْحُ لِأَجْلِ النِّعْمَةِ
 وَلِحَرْفِ وَاحِدِ أَلْفِ مَقَالِ
 أَنَّهَا تَبْغِي جَمَالَ الْخَلْقَةِ^(٢)
 وَمِنْ الْمَسْكَ رَدَى طَبِيِ الْخَتَنِ^(٣)
 عَذْرُهُ فِي شَمْعِهِ الْمَشْتَعِلِ
 لِيُجَلِّيَ فِي سَنَاهِ غَدُّهَا
 لِسِرَاجٍ يُرْتَجَى مِنْ أَحْمَدِ^(٤)

هُمُّهَا الْأَعْمَالُ فَهِيَ الْفَاعِلُ
 ثَوْرَةٌ فِيهَا وَإِجْفَالٌ ، وَنُورٌ
 وَهِيَ الْعَلَّةُ وَهِيَ الْقَابِلُ
 وَاحْتِرَاقٌ وَاخْتِفَاءٌ وَظُهُورٌ^(٥)

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أَنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أَنَّ الخلق لها مقصدٌ ، تهْدَمُ من أجله آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسي . . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضم بعضها إلى بعض فتكون جبالاً .

والسَّمَاءُ النَّقْعُ يَعْلُو سُبُلَهَا
نَوْمُهَا اللَّيْلُ ، وَفِي الصَّحْوِ النَّهَارُ
فَرَأَى الْأَجْزَاءَ عَقْلُ الْمُفَكِّرِ
تُنشِئُ الصَّحْرَاءَ إِمَّا تَنْتَشِرُ
فَاحْزَأَلَتْ فَبَدَتْ شَمُّ الْجِبَالِ
وَهِيَ فِي الذَّرَاتِ بَاسٌ وَضِيَاءُ
عَمَلُ الْيَوْمِ لِأَتِيهَا عِلَلُ
فَعَلَى قَدْرِ الْقُوَى قَدْرُ الْحَيَاةِ
فَإِذَا الْقَطْرَةُ يَوْمًا دَرَّةٌ
وَمِنَ الْكَأْسِ اسْتَعَارَتْ شَكْلَهَا^(١)
فَغَدَا صَحْرَاءَ تَغْشَاهَا الْبَحَارُ^(٢)

سَعَةُ الْإِيمَانِ مِيدَانٌ لَهَا
يَذُهَا فِي الطَّيْنِ ، لِلْكَوْنِ ازْدَهَا
قَسَمَتْ شَعْلَتَهَا فِي شَرَرِ
تَخْلُقُ الْأَجْزَاءَ إِمَّا تَنْفَطِرُ
ثُمَّ صَارَتْ بِانْتِشَارٍ فِي مَلَالِ
شَيْمَةِ الذَّاتِ التَّجَلِّي لَا الْخَفَاءِ
قُوَّةٌ صَامِتَةٌ حِلْفُ عَمَلِ
قُوَّةِ الذَّاتِ مِنَ الْكَوْنِ الْبَوَاءِ
كَلِمَةُ الذَّاتِ تَعِيَهَا قَطْرَةٌ
خَارَتْ الْخَمْرُ فَلَا شَكْلَ لَهَا
وَسَهَا طَوْدٌ عَنِ النَّفْسِ فَحَارَ

تَخْفِقُ الْعَيْنُ بِشَوْقِ الْجَلْوَةِ
شَقٌّ صَدْرُ الْمَرْجِ حَتَّى يَظْهَرَ
وَمِنَ الذَّرَاتِ يُعْلِي رَأْسَهُ
فَتَسْرَاهُ دَمْعُ عَيْنٍ هَمَلًا^(٣)

يُعَقِّدُ الثُّنُورَ لَخْلُقِ الْمُقْلَةِ
وَإِذَا الْعَشَبُ نَمَاءً أَضْمَرَ
يَجْمَعُ الشَّمْعُ بِعِزْمِ نَفْسِهِ
وَيُذِيبُ النَّفْسَ إِمَّا عَقْلًا

فِي طَوَافٍ حَوْلَهَا لَا مُسْتَقَرَّ
فَلَهَا عَيْنٌ ذُكَاءٌ تَسْخَرُ

شَدَّتِ الْأَرْضُ قُوَاهَا فَالْقَمَرِ
وَكَيْانُ الشَّمْسِ مِنْهَا أَكْبَرُ

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت دَرَّةً ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .

(٢) حذف بيت قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .

(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعلا الحورُ فهالَ الناظرا وعلا الطودَ أبيضاً قاهرا
وارتدى كسوة نارٍ حاميه أصله جنة نبت أبيه^(١)
إنَّ ذاتاً جمعتُ أسرَ الحياه من غديرٍ أزخرت بحرَ الحياه^(٢)

في بيان أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّما يُبقى الحياة المقصدُ جرْسٌ في ركبها ما تقصد^(٣)
سرُّ عيشٍ في طلابٍ مُضمَر أصله في أملٍ مسترٍ
أحي في قلبك هذا الأمل لا يحلُ طينُك قبراً مُهملاً
يخفُّ القلب به بين الصدور هو في صدرك مرآة تُنير
يهبُ التربَ جناحاً يصعد ولموسى العقل خضراً يُرشِد^(٤)
إنَّما يحيا الفؤادُ الأملُ وإذا حيَّ يموت الباطلُ
فلذا عسى بتخليق المُنَى هيسُ سِقْطاه وأودى وهنا
أملُ الذات لهيبٌ يستعر أو هو الموج الذي لا يستقر
وهو المقصودُ حبلُ الأمل إنَّه خيطُ كتابِ العمل^(٥)
ومماتُ الحيِّ فقدانُ الرجاء يُطفىءُ الشعلةَ فقدانُ الهواء

-
- (١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذاتية شجر الجنار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرة كأنها النار . وكل هذا لأن حبه قوية محتفظة بذاتها .
(٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زائحاً من غدير صغير .
(٣) المقصد مثل جرس القافلة ينهبها للسير .
(٤) هو من العقل كالخضر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .
(٥) الوهم : حبل فيه أنشودة تمسك به الخيل المسبية ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيف فينا أعيُنٌ قد ظهرت ؟
 من مُنَى التَّخْطُّارِ رَجُلُ الحَجَلِ
 حَيَّ نَائِيٌ قَدْ نَأَى عَنْ غَابِهِ
 ذَلِكَ الْعَقْلُ الَّذِي الْكُونُ طَوَى
 إِنَّمَا أَصْلُ الْحَيَاةِ الْأَمَلُ
 لَذَةُ الرُّؤْيَا فِينَا صَوَّرَتْ (١)
 مِنْ مُنَى التَّغْرِيدِ خَلَقَ الْبَلْبِلُ
 أَطْلَقَ التَّغْمَةَ مِنْ أَوْصَابِهِ
 وَتَرَى الْإِعْجَازَ فِيهِ وَالْقُوَى
 فَكَذَلِكَ الْعَقْلُ مِنْهُ يُنْسَلُ (٢)

ما نظامٌ في شعوبٍ ، وسُننٌ ؟
 أَمَلٌ مِنْ قُوَّةٍ فِيهِ ظَهَرَ
 كُلُّ مَا نَمْلِكُ مِنْ هَذِي الْحَوَاسِ
 كُلُّ فِكْرٍ وَخِيَالٍ وَاعْتِبَارٍ
 هِيَ آلَاتُ الْحَيَاةِ الْجَاهِدَةِ
 لَيْسَ قَصْدُ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ الْفِكْرُ
 إِنَّمَا الْعِلْمُ وَقَاءٌ لِلْحَيَاةِ
 لِلْحَيَاةِ الْعِلْمُ وَالْفَنُّ خَدَمُ
 مَا تَرَى التَّجْدِيدَ فِي عِلْمٍ وَفَنٍّ ؟ (٣)
 بَرِحَ الْقَلْبُ فَنَشْتَهُ صُورِ
 كُلُّ عَضْوٍ فِيهِ لِلْعَيْشِ التَّمَاسِ
 كُلُّ حَسٍّ وَشَعْوٍ وَادِّكَازِ
 حِينَ تَمْضِي فِي وَغَاها صَامِدِهِ
 لَيْسَ قَصْدُ الْمَرْجِ أَلْوَانُ الزَّهَرِ
 إِنَّهُ لِلذَّاتِ تَقْوِيمُ النِّجَاةِ
 لِلْحَيَاةِ الْعِلْمُ وَالْفَنُّ حَشَمُ

جَاهِلًا سِرَّ الْحَيَاةِ ! اجْتَهِدِ
 مَقْصِدِ كَالصُّبْحِ فِي أَنْوَارِهِ
 مَقْصِدِ يَجْتَازُ آفَاقَ السَّمَاءِ
 وَامْضِ نَشْوَانَ بِخَمْرِ الْمَقْصِدِ
 مُحْرِقِ كُلَّ « سَوَى » فِي نَارِهِ
 يَاخُذُ الْقَلْبَ بِحُسْنٍ وَبِهَاءِ

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت
 حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبخر ، وخلق
 البلبل من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظام في الناس وسُنن وعلم وفن آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوّرت صوراً
 شتى .

ثورة فيه وفيه محشرٌ وعلى الباطل حرباً يُسعر
نحنُ أحياءٌ بخلق الأمل نحنُ في نورٍ بهذي الشعل

في بيان أنَّ الذات تستحكم بالمحبة والعشق

نُقِطَ النُّورُ التي تُدعى الذوات شرر في طيننا للحيوات
مُشَعَّلٌ بالحُبِّ منها الجوهرُ يتجلَّى من قواها المضمَرُ
قطرةٌ بالعشق تُوعِي ضَرَمًا وهي بالعشق تُنِيرُ العالَمَ^(١)
لا يهاب العشقُ في السيفِ المضاء ليس من ماءٍ وتربٍ وهواءٍ
هو في العالمِ صلحٌ وخصامٌ للحياة الماء من هذا الحُسامِ
نظرةُ العشق بها شقُّ الصُّخورِ هو عشقُ الحقِّ ، والحقُّ يصيرُ
فابغ في طينك هذي الكيمياء اقِسْنِ من كاملِ هذا الضياءِ^(٢)
امض كالروميِّ شمعاً يشتعل وارم من تبريز في الرومِ الشُّعلِ^(٣)
إنَّ في قلبك معشوقاً ثوى أقبلنْ أنثك عن هذا الجوى
عاشقوه قد شأوا كلَّ جميل حُبُّهم في كلِّ قلبٍ لا يحولُ
عشقُه في القلبِ نورٌ أسفرا للثريا يرتقي منه الثرى^(٤)
تُربُّ نجدٌ منه قد خفَّ وضاء طار وجداً مُصعداً نحو السَّماءِ
مُهْجَةُ المسلمِ مَثْوَى المصطفى عِرَّةُ المسلمِ ذَكَرَى المصطفى
موجةٌ من نَفْعِ الطورِ الأشمِّ داره ، للكعبة العظمى حَرَمٌ

(١) قرعي : تجمع وتدخر .

(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدئ .

(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ،

والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .

(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضاق عن آني حواه الأبد
 أثرت سحق حصير عقتة
 خلوات في جراء خلقا
 كم ليالي قد قضاها ساهدا
 سيفه في الحرب قطاع الحديد
 سيفه « آمين » تمحو الظالمين
 سننا في كوننا قد جددا
 فتح الدنيا له مفتاح دين
 استوى مولى لديه و غلام

مستمداً من مداه الأمد
 وعلت تيجان كسرى أمته
 أمة منها وحكماً مشرقاً
 فحبا الأمة ملكاً خالدا
 عبته في الذكر بالدمع تجود
 حين يدعو الحق بالنصر المبين
 ومن الماضين ملكاً بددا
 عقيمت عن مثله أم السنين
 هو والعبد سواء في الطعام^(١)

أسرث في غزوة بنت الجواد
 رجلها في القيد والرأس حسيز
 بردة ألقى عليها ساترا
 نحن أعرى في الوري من أخت طي
 هو في الدنيا علينا سائر
 لطفه والقهر كل رحمة
 ويوم الفتح هذا الغافر
 إننا من قيد أوطان براء

من علا طيماً بجدواه وسا^(٢)
 مطرق في ذله الطرف الكبير
 إذ رأى وجهاً ورأساً حاسرا
 ليس يكسونا لدى الأقوام شي
 وهو في الحشر إلينا ناظر
 لصديقي وعدو رأفة
 قال : « لا تثريب » وهو القادر^(٣)
 نحن من عينين نور لا وراء^(٤)

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد أكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحن في مغربنا والمشرق
أسكرتنا عينُ ساقٍ في البطاح
قد محا الأنسابَ طُراً ذا العظيم
نحن زهراً وشذانا ائتلفا
نحن كنّا سرّه في قلبه
كالندى في وجه صبحٍ مُشرق
كزجاجٍ نحن في الدنيا ، وراح^(١)
ناره قد أحرقَت هذا الهشيم
ضمّنا منه نظاماً ألفاً
فأذاعت صيحةُ الحقِّ به

عشقه ثارَ بعودي الصّامتِ
ما حديثي عن ولاءٍ واشتياقٍ ؟
صورتي قد أوضحت مرأته
ثورةُ الحشرِ بليلى النائمِ
إنّني البنسانُ في آذاره
قد غرستُ العينَ في حقلِ الوردِ
قد شأى الدارين من يثرب طيب
أنا للجاميّ في الشعر فداء
قال بيتاً بالمعاني يفهق
« هو عنوان كتاب العالمين »
ألفُ لحنٍ في فؤادي السّاكتِ
قد بكى جذعُ مواتٍ للفراق^(٢)
أنا صبحٌ أطلعت آياته
وهدوني في اضطرابٍ دائمٍ
في عروقي الماء من أمطاره^(٣)
من سراحِ العينِ لي هذا الحصاد^(٤)
حبّذا دارٌ بها مشوى الحبيب !
نظمه والشر من جهلي دواء^(٥)
فيه دُرٌّ من مديحٍ يبرقُ :
سيد الكونين ، مولى الثقلين

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .

فكأنما خمرٌ ولا قدح وكأنما قدحٌ ولا خمر

(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكان آخر .

(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .

(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .

(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كم يُرىكَ العِشْقُ من صهبائه فترى التقليدَ من أسمائه^(١)
أَحْكَمَ العِشْقَ بتقليد الحبيب لتنال القربَ من ربِّ مُجِيب
في حِراءِ القلبِ فاقعدْ خاليا وإلى الحقِّ فهاجزْ راضيا
اقوَيْنَ بالحقِّ ثمَّ ارجعْ إِلَيْكَ واحطمنْ اللَّاتَ والعزَّى لديك^(٢)
قوِّينَ بالعِشْقِ في سلطانه وابتغِ الجلوةَ في فارانه^(٣)
تظفرونَ بالقربِ يا ذا السائلُ ! وتكنَ تفسيرُ « إني جاعلٌ »^(٤)

في بيان أنَّ الذاتَ تضعفُ بالسؤال

أيها الجابي من الأسد الخراج ! صِرْتَ كالتَّغْلِبِ خَبَأً باحتِياج
ذلك الإعوازُ أصلُ العِللِ كلُّ آلامك من ذا المُعْضِلِ
سالبُ الرِّفعة من فكرٍ رفيع مطفئُ الشَّمعِ مِنَ الذَّهْنِ البديع
من كنوزِ الدَّهرِ أخرجْ ما تريد وخذِ الصَّهباءَ من دَنِّ الوجودِ
وعن الرِّحْلِ تَرَجَّلْ كعمر احذرنَ من مَنَّةِ النَّاسِ ، الحَذَرِ^(٥)
صاح ! حَتَّامَ اجتداءِ المنصبِ ! فيم كالطفلٍ ركوبُ القَصَبِ^(٦)
تجدِ الإفلاسَ بالسؤالِ أذلَّ وترى السائلَ أخزى وأقلَّ

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .

(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .

(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .

(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فتزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إياها أحد .

(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فَرَّقَ الذَّاتَ سُؤَالَ وَاجْتِدَاءَ
 أَنْ يَكُنْ فِي الرِّزْقِ وَالْجَدِّ عَنَاءَ
 لَا تَرُمُ فِي الْأَرْضِ رِزْقاً بِالْبُكَاءِ
 احْذَرِ الْخِزْيَ أَمَامَ الْمُصْطَفَى
 مِنْ سَمَاطِ الشَّمْسِ يَقْتَاتُ الْقَمَرُ
 جَاهِدِ الْأَيَّامَ وَاللَّهَ اسْتَعِزْ
 عَلَّمَ النَّاسَ الصَّدُوقُ الصَّائِبُ
 وَيَحْ مِنْ يَحْمِلُ ذَلِكَ النُّعْمَةَ
 أَرَهَقَ النَّفْسَ بِوَقْرِ الذَّلَّةِ
 مَرْحَباً بِالظَّامِءِ الضَّحِيانِ لَا
 بِسُؤَالِ النَّاسِ لَمْ يُنْدِ الْجَبِينُ
 تَحْتَ هَذَا الشَّمْسِ يَمْضِي ذَا الْفَتَى
 زَادَ فِي الْعُسْرِ مَضَاءَ حُدُّهُ
 كُنْ حَبَاباً مِنْ عَطَاءِ يَنْفَرُ

فَبَدَتْ سِينَاؤُهَا دُونَ ضِيَاءِ^(١)
 وَطَغَى حَوْلَكَ سَيْلٌ مِنْ بَلَاءِ
 لَا تَرْجُ الْمَاءَ مِنْ عَيْنِ ذُكَاءِ^(٢)
 يَوْمَ يَخْزِي كُلُّ سَاعٍ مَا وَفَى
 فَعَلِيهِ وَسَمُ نُعْمَاهَا ظَهَرَ^(٣)
 مَاءَ وَجْهِ الْمَلَّةِ الْبَيْضَاءِ صُنْ
 أَنْ « حَبِيبُ اللَّهِ سَاعٍ كَاسِبٌ »^(٤)
 خَافِضَ الرَّأْسَ لِثِقَلِ الْمُنَّةِ
 بِنَقِيرِ بَسَاحٍ تَجَاجِ الْعِزَّةِ
 يَسْأَلُ الْخَضِرَ شَرَاباً فِي الْفَلَا^(٥)
 ذَاكُمِ الْإِنْسَانُ ، لَا مَاءً وَطِينِ
 عَالِيِ الرَّأْسِ كَسَزُوا قَدَ عَتَا
 هُوَ يَقْظَانُ وَغَافِرٌ جَدُّهُ^(٦)
 فَارَغَ الْكَأْسَ بِبَحْرِ يَزْخَرُ^(٧)

-
- (١) . لَا نُورَ فِي سِينَائِهَا يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ . إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ مُوسَى .
 - (٢) . لَا تَسْأَلِ الْمَاءَ وَلَوْ مِنْ عَيْنِ الشَّمْسِ .
 - (٣) . السُّمَّةُ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْقَمَرِ سَمَةٌ اجْتِدَائِهِ نُورُ الشَّمْسِ .
 - (٤) . إِشَارَةٌ إِلَى الْأَثَرِ : الْكَاسِبُ حَبِيبُ اللَّهِ .
 - (٥) . لَا يَطْلُبُ مِنَ الْخَضِرِ شَرِبَةَ مَاءٍ . وَعِنْدَ الْخَضِرِ مَاءُ الْحَيَاةِ كَمَا فِي الْقِصَصِ .
 - (٦) . هِمَّتُهُ يَقْظَانُهُ وَإِنْ كَانَ جَدُّهُ نَائِماً .
 - (٧) . يَتَخِيلُ الشُّعْرَاءُ حَبَابَ الْمَاءِ كَأَسَافَ فَارِغَةً وَهِيَ فِي الْبَحْرِ . فَضَرَبَ الشَّاعِرُ الْحَبَابَ مَثَلاً فِي الْعَفَّةِ وَالْإِبَاءِ .

في بيان أنَّ الدَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخر قوى العالم الظاهرة والباطنة

أمرها في الكون طرّاً يَحْكُمُ
يُدُّها من قوّة الحق أنز
في خصومات الورى أقوى حَكَمُ
اشمَعْنُ مِنِّي حديثاً عن ولي
ذلك الصّداح في المرج القديم
سالكُ سكران من خمرة
وأتى العاملُ في موكبه
صاحٌ للتطريقِ جندِيّ نكير
ومضى الدّرويش في تسياره
فأتى ربُّ العصا في شرّته
فتنخّى عن طريق العامل
ومضى يشكو إلى شيخ الطريق

حينما الدَّات بعشق تُحكم^(١)
فلذا ما أومات شقّ القمر
صاغِرٌ في حكمها داراً وجم^(٢)
اسمه في الهند مشهورٌ علي^(٣)
قصّ أخباراً عن الورد الشميم :^(٤)
قصد الأسواق في بغيته
معه الحرّاسُ قد حقّت به
أيها الأحمقُ أفسح للأمير
غارقاً في اللجّ من أفكاره
ضارباً رأس الفتى في غفلته
وهو في دعرٍ وحزنٍ قاتل
دمعه من محبس العين طليق

(١) تحكم أي : تصير قوّة محكمة .

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصّب مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقى فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آتس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس التقيّة المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زمجرَ الشَّيْخَ بقولٍ من ضَرَمَ
 ثم أَملى الشَّيْخَ مطراً من لَهَبِ
 أَمْسِكِ الْمِزْبَرَ واكْتَبِ ذَا النَّذِيرِ
 «عَامِلٌ عِنْدَكَ غُرٌّ قَدْ عَصَى
 اعْزَلِ الْعَامِلَ ، هَذَا الْفَاجِرَا
 عَبْدٌ حَقٌّ فِيهِ اللَّهُ احْتِسَابِ
 آدُهُ غَمٌّ وَخَوْفٌ لَا يَحُولُ
 قَيْدُ الْعَامِلِ بِالْقَيْدِ الثَّقِيلِ
 وَرَأَى خُسْرُو لَهُ خَيْرَ سَفِيرِ
 سَاحَرَ الْأَبَابِ فِي الْحَانَةِ
 وَلَهَا خُسْرُو بِأَوْتَارِ الرِّبَابِ
 فَطَرَةٌ كَالطُّودِ فِي عِزَّتِهِ
 احْذَرْنَ لَا تَجْرَحْنَ قَلْبَ فَقِيرِ

مِثْلَ بَرْقٍ فِي ذُرَى الطُّودِ اضْطَرَمَ
 قَالَ لِلْكَاتِبِ فِي نَارِ الْغَضَبِ :
 أَبْلِغِ السُّلْطَانَ عَنْ هَذَا الْفَقِيرِ :
 وَعَلَا رَأْسَ غِلَامِي بِالْعَصَا
 أَوْ أَهْبِ مُلْكَكَ مُلْكاً آخِراً «
 أَرَعَدَ السُّلْطَانُ مِنْهُ ذَا الْكِتَابِ
 فَحَكَى فِي لَوْنِهِ شَمْسَ الْأَصِيلِ
 وَاسْتَغَاثَ الشَّيْخَ لِلصَّفْحِ الْجَمِيلِ
 ذَلِكَ الْكُوكَبُ وَضَاءُ الضَّمِيرِ^(١)
 مَسْتَمِدُّ الْغَيْبِ فِي تَبْيَانِهِ
 فَأَهْجَاكَ الشَّيْخَ وَجَدّاً وَأَذَابِ
 خَشَعَتْ لِلْخَنِ فِي رَقَّتِهِ
 لَا تَزُجَّ النَّفْسُ فِي نَارِ السَّعِيرِ

قصة في معنى أن مسألة نفى الذات من مخترعات الأمم المغلوبة
 لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قَدْ سَمِعْنَا أَنَّ فِي عَصْرِ قَدِيمِ
 وَفَرَّتْ نَسْلاً بِذَا الْمَرْعَى الْخَصِيبِ
 ثُمَّ أَلْوَى بِمُنَاهِشِ الْقَدَرِ
 دَهْمَتِهَا الْأَسَدُ مِنْ آجَامِهَا
 آيَةُ الْقُوَّةِ حَكْمٌ قَاهِرُ
 جَمَعَ ضَائِرٌ كَانَ فِي مَرَعَى يُقِيمُ
 فَارْغَاتِ الْبَالِ مِنْ لَيْثٍ وَذَيْبِ
 وَرَمَى بِالسَّهْمِ فِيهِنَّ الدَّهْرُ
 نَاشِرَاتِ الدُّغْرِ فِي إِيَامِهَا
 سَرَّهَا الظَّاهِرُ فَتَحَّ ظَافِرُ

(١) أمير خسرو الدهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضربَ الليثُ طبولَ التوبة
وكسا المَرعى بصبغٍ أحمرًا
وانبرى كبشٌ ذكيٌّ ذو عُمُر
غمَّه ما قد يعانني سِرْبُهُ
أمره أحكمَ في تدبيره
باحتيال العقل يحمي نفسه
قوة التدبير في دفع الضرر
فإذا ما نازَ للنار الجنونُ
قال : أمرٌ حار فيه العاقلُ
كيف للضأن فال الأسدِ
ليس وعظٌ من بليغٍ قادرا
لكن الليثُ رآه حمَلا
فادّعى في القوم دَعوى مُلهم
قال : كلُّ القوم « كَذَّابٌ أَشْرٌ »
جئتُ للناس بشرعٍ مُحكم
عجلوا التوبة عن كل قبيح
ويح جَلْدٍ أحكمت فيه قُواء

أخذاً آفاق هذي الثَّلة^(١)
ما سيوى الفرسِ لدى أسد الشرى
جرب الأحداث من خلٍ ومُر
من فعال الأسدِ يَدْمَى قلبه
وهو يشكو الدهر في تقديره
كلُّ رخٍ ليسَ يرجو بأسه
في زمان الضَّعف أقوى وأمر
صار عقلُ العبد خلاقِ الفتون
بحرٌ عمٌ ليس فيه ساحِلُ^(٢)
ساعدٌ رخوٌ وفولاذُ يدِ^(٣)
أن يردَّ الكبش ذبأ كاسرا
إن سها عن نفسه أو غفلا
مرسلٍ للأسد شُرَّابِ الدمِ^(٤)
غافلٌ عن يوم نحسٍ مستمرِ^(٥)
إنني الثَّورُ لطرفٍ مُظلم
واتركوا الحر إلى الفعل الريح
« نفي ذاتٍ » هو إحكام الحياه^(٦)

(١) طبل التوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .

(٢) قال الكبش . . إلخ .

(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .

(٤) فادّعى في القوم . أي ادعى الكبش .

(٥) « كذاب أشْر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .

(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

عَلَفَ الْعُشْبُ بِهِ الرُّوحَ تَطْيِيبُ
 حِدَّةُ الْأَسْنَانِ عَارٌ مُبْرَمُ
 إِنَّمَا الْقُوَّةُ خَسِرَانٌ مَبِينُ
 طَلِبُ السُّلْطَانِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
 تَأْمِنُ الْحَبَّةُ بَرْقاً مُحْرِقاً
 ذَرَّةٌ كُنْ لَا كَثِيْباً أَفِيحاً
 قُلْ لِمَنْ يُزْهِى بِذَبْحِ الْغَنَمِ
 يَقْطَعُ السُّبُلَ عَلَى هَذَا الْحَيَاءِ
 يَوطَأُ الْعُشْبُ فَيَنْمُو صُعُوداً
 أَغْفَلَكَ نَفْسُكَ إِنَّمَا تَعْقِلُ
 اسْدُدْ عَيْنَاً وَأُذُنَاً وَفَمَا
 هَذِهِ الدُّنْيَا فَنَاءً فِي فَنَاءِ
 كَانَتْ الْأَسَدُ جِهَاداً مَلَّتِ
 عَنْ هَوًى أَصْغَتْ إِلَى النَّصْحِ الْمُتَيْنِ
 كَانَ قَرَسُ الضَّأْنِ مِنْ سُتْهَا
 جَوْهَرُ الْأَسَادِ أَضْحَى خَرْقَاً
 ذَهَبَ الْعُشْبُ بِنَابِ ذِي أَشْرٍ
 ذَلِكَ الْقَلْبُ عَنِ الصُّدْرِ نَأَى
 فَذَوَى فِي الْقَلْبِ شَوْقُ الْعَمَلِ
 ذَهَبَ الْإِقْدَامُ وَالْعِزُّ الْأَيْلُ

عَائِفُ اللَّحْمِ إِلَى اللَّهِ قَرِيبُ
 بَصَرُ الْإِدْرَاكِ مِنْهَا يُظْلَمُ
 خُصَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمُسْتَضْعِفِينَ
 خَيْرُ الْفَاقَةِ مِنْ عِزِّ الْأَمِيرِ
 وَنَرَى الْبَيْدَرَ مِنْهُ مُحْرِقاً^(١)
 لَتَنَالِ النَّوْرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى
 أَذْبَحَ النَّفْسَ بِحَقِّ تَغْنَمِ
 قُوَّةٌ فِيهَا وَسُلْطَانٌ وَجَاءُ
 يَفْتَحُ الْأَعْيْنَ مِنْ بَعْدِ الرَّدَى^(٢)
 إِنَّمَا الْمَجْنُونُ مَنْ لَمْ يُغْفَلَ
 لِيَجُوزَ الْفِكْرَ أَقْطَارَ السَّمَاءِ^(٣)
 إِنَّهَا وَهْمٌ فَمَا فِيهَا رَجَاءُ
 نَازَعَاتٍ نَحْوَ عَيْشِ الدَّعَاةِ
 فَدَهَاهَا الْكَبْشُ بِالسَّحَرِ الْعَظِيمِ
 فَاقْتَدَتْ بِالضَّأْنِ فِي شِرْزَعَتِهَا
 حِينَ صَارَ الْقَوْتُ هَذَا الْعَلْفَا
 أَطْفَأَ الْأَعْيْنَ تَرْمِيًّ بِالشَّرَرِ
 جَوْهَرُ الْمَرْأَةِ فِيهَا صَدِئَا
 وَهَيْأُ السَّعْيِ خَلْفَ الْأَمَلِ
 وَالسَّنَا وَالْعِزُّ وَالْمَجْدُ الْأَيْلُ

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قروود واحد يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُورثن الفولاذ فيها قد وَهَنُ
ونما الخوفُ بنقص المنَّة
كلُّ داءٍ في سقوط الهمم
نامت الأسد بسحر الغنم

واستكان القلب في قبرِ البدن
قَطَعَ الخوفُ جذور الهمة
يجعل الأحياء مثل الرَّمَم
سَمَتِ العجَزُ ارتقاء الأمم

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرت آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهبُ الماضين أفلاطُ الحكيم
طَرَفُهُ فِي ظُلْمَةِ المعقول ضَلَّ
فَكَرُهُ فِي غير محسوسٍ فُتِنَ
قال : في الموت بدا سرُّ الحياه
حُكْمُهُ فِي فكرنا جدُّ عظيم
هو شاةٌ فِي لباس الأدمي
عالمَ الأشياء سَمَاءُ الهراء
فعلُهُ « تحليلُ أجزاء الحياه »
زعم الخسرانَ ربحاً فَكَرُهُ
فَكَرُهُ يُغْفِي ورؤيا يخلُقُ
حُرْمَ المسكين حُبَّ العمل

من فريق الضأن في الذَّهر القديم
في حزون الكَوْنِ قد أعياء وكلَّ
صَدَّ عَنْ كَفِّ وَعَيْنِ وَأُذُنِ^(١)
في خمود السَّمْعِ يزدادُ سناهُ
يمحق الدُّنيا له جامٌ مُنِمْ
وهو في الصوفيِّ ذو بأس قوي
وعَلَتْ أَفكارُهُ فوق السَّماءِ
وجفاف النَّبع من ماء الحياه
ودعا الكَوْنَ فناءً سحرُهُ
عينُهُ تُبْصِرُ آلاً يَبْرُقُ^(٢)
فقفا معدومَه لا يَأْتَلِي

(١) أعرض عن الحوَّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب .
الآل : السَّراب .

منكراً في الكون ما لا يُفقد
عالمَ الإمكان للحيِّ وطن
ظيِّه من خفة لا يجفلُ
لم يُلالىء عنده قطرُ النَّدى
حبةً في أرضه تأبى النماء
في وغي العالم نكسٌ مُحجمٌ
قلْبُه يعشون نارَ خامدة
طار من عشٍّ إلى الأوج العليِّ
هَلْكَ أقوام بهذا الثَّمَل

خالقاً في الكون ما لا يُشهد
عالم الأعيان للميتِ حَسَنٌ^(١)
غيرُ خطَّارٍ لديه الحَجَلُ^(٢)
طيْرُه ما فيه صوتٌ قد شدا
وفرَّاشٌ عنده يلقي الضياء^(٣)
مُشفقٌ راهبُنَا لا يُقدم
صوْرَت عيناه دنيا هاجدة
ثم لم يرجع إلى العش الخليِّ^(٤)
حُرِّمُوا بالنَّوم ذوق العمل

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حرقَةُ الإنسانِ من كور الأملِ
إنَّه الخمرة في كأسِ الحياة
الحياة الحقُّ تسخيرُ الدُّنَى
هي للمقصودِ في الدُّنيا سبيل

نارُ هذا الطَّينِ من نورِ الأملِ^(٥)
وبه وقدةُ أنفاسِ الحياة
والى التسخيرِ تدعوها المُنَى
وهي للعشوقِ من الحسنِ رسول

- (١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردُّ على أفلاطون .
- (٢) خلق أفلاطون عالماً لا يشب ظيِّه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .
- (٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبيعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .
- (٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحس ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيُّل .
- (٥) الكور : مجمرة الحداد .

أمل الإنسان أنى يظهر
كل خير وبهيج وجميل
حسنة في القلب نوراً ينطع
خلق الحسن نضير الأمل
كيف يشجو الحي هذا المزهر؟
هو في بيدائنا نعم الدليل^(١)
تجد الآمال منه تطلع
وأدام الحسن نور الأمل

مطلع الحسن ضمير الشاعر
زادت الحسن جمالاً نظرته
غرّد البلبل من تلحينه
ناره كل فراش كساويه
مضمّر في خلفه بحر وبز
كم شقيق في الحشا لم يطلع
فكره للبدر والنجم نجى
خضّر في ليله ماء الحياة
نحن أغرا بطاء الأرجل
لطف في سيرنا حيلته
يحفز الركب لفردوس الحياه
فمضى الركبان إثر الجرس
وسرت في زهرنا نفحته
نفس منه حياة تزهر
طوره صبغ الجمال الباهر
زادت الفطرة حباً صنعته
ضاء خد الزرد من تلوينه
قصص العشاق منه زاهيه
ألف كون محدث فيه استتر
وغناء وبكى لم يسمع^(٢)
يبدع الحسن ، وفي القبح عبي
تزهرو الأكوأ من ماء بكاه^(٣)
ضل ساريننا طريق المنزل
وعلت في ركبنا نغمته
ويتم الدور في قوس الحياه^(٤)
وشدا الحادي بصوت مؤنس
مذ سرت في روضنا نسمته
خزة لؤامة لا تصبر

(١) يقول : إن الأمل وسيلة العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .

(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعون .

(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .

(٤) يكمل دائرة الحياة .

يَأْدِبُ النَّاسَ جَمِيعاً لِلْقَرَى نَارُهُ كَالرَّيْحِ تَسْرِي فِي الْوَرَى

وَيْلُ قَوْمٍ لِهَلَاكِ طَائِرِهِ
كُلُّ حُسْنٍ شَاءَ فِي مِرَاتِهِ
تُذْبِلُ الْأَزْهَارَ مِنْهُ الْقُبْلُ
تَهِنُ الْأَعْصَابُ مِنْ أَفْيُونِهِ
يَسْلُبُ السَّرَّوُ جَمِيلَ الْبَيْلِ
هُوَ حُوتٌ نَصْفُهُ كَالْأَدْمِيِّ
يُسْحَرُ الرِّبَّانُ مِنْهَا بِاللَّحُونِ
يَسْلُبُ الْقَلْبَ ثِبَاتاً لِحُنِّهِ
يُلْبِسُ النَّفْعَ لِبَاسَ الضَّرَرِ
فِي بَحَارِ الْفِكْرِ يُلْقِيكَ فَلَاحِ
شِعْرُهُ فِينَا يَزِيدُ الْكَلَالَا
سَيْلَ بَرْقٍ مَا حَوَى نَيْسَانُهُ
فُتُّهُ بِالْحَقِّ لَا يَعْتَرِفُ
نَوْمُ مَثُ الْحَائِثِ يَقْطَعُنَا
بَلْبَلُ سُوءِ قُلُوبٍ نَعْمُهُ
خَمْرُهُ اللَّالَاءَةُ أَتَرَكَ وَاحْذَرِ

صَدَّ عَنْ وَرْدِ حَيَاةٍ شَاعِرُهُ
فِي الْجِسْمِ السُّمُّ مِنْ جَرَعَاتِهِ
وَيُعَافُ الشَّدْوُ مِنْهَا الْبَلْبَلُ
وَيَمُوتُ الْحَيُّ مِنْ تَلْحِينِهِ
وَيَرُدُّ الصَّقَرُ مِثْلَ الْحَجَلِ^(١)
كِبْنَاتُ الْبَحْرِ تَقْتَادُ الْغَوِيَّ^(٢)
وَلِقَاعُ الْبَحْرِ تَهْوِي بِالسَّافِينِ
وَيُورِي الْمَوْتَ حَيَاةً فُتُّهُ
وَيُورِي الْحُسْنَ قَبِيحَ الضُّمُورِ
تَشْتَهِيهِ أَوْ تَطِيقُ الْعَمَلَا^(٣)
كَأْسُهُ فِينَا تَزِيدُ الْمَلَالَا
أَلْ لَوْنٍ وَشَدَا بَسْتَانِهِ^(٤)
بَحْرُهُ مَا فِيهِ إِلَّا الصَّدْفُ
أَطْفَاتُ أَنْفَاسِهِ شَعَلْتَنَا
ضِغْثٌ وَرَدَّ فِيهِ يَنْوِي أَرْقَمَهُ
كَأْسُهُ وَالطَّاسَ وَالِدَنْ أَهْجِرِ

(١) السَّرَوُ : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .

(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .

(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .

(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في صحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سراپ من اللون والرائحة .

يا صريعاً خمره يُغْتَبَقُ لك صبحٌ من سناها مشرقُ
يا برود القلب من ألحانه قد شربت الشَّمَّ من تبيانهِ
يا دليلاً للردى أفكاره عطَّلْتُ من نغمٍ أوتاره
أنت للذلِّ أرحمتَ البدننا أنت للإسلام عارٌ في الدُّنَى
من نسيم مرٍّ يدمى خدُّكا بعروق الورد يُلوى قُدُّكا
أخزتَ العشق دُجى صيحاتكا غَضَّ من صورته بهزادُكا^(١)
شاحبَ الوجه بدا مِن ضُرُكا بردتَ نيرانه مِن قُرُكا
عاجزُ الهمة مِن ذلتكا وعليلُ السُّوح من عِلَّتكا
أدمعُ الأطفال في كاساته كنزه ما اعتدَّ من آهاته
آه مِن وغدٍ ذليلٍ يائس هالكٍ من رَكَلات الحارس^(٢)
صار كالنَّاي هزيراً نائحا شاكي الأقدار جهلاً صائحا
ليس إلا الحقْدُ في جوهره ليس إلا العجزُ في مخبره
يائسٌ فسَل حليف الخيبة شِقْوَةٌ في خِسَّةٍ في ذلَّة^(٣)
نوحه روحك منه في سقام قد حمى جيرانه طيبَ المنام
ويحَ عشقٍ قد ذكا في الحرَم

صيرفني القول ! إن تبغ النِّجاة فاجعلن معياره نازَ الحياه
نُيِّرُ الفِكرِ يقود العملا مثلَ برقي قادَ رعداً جلجلا

- (١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوَّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .
(٢) يستجدي أو يحاول الشَّرقة فيركله الحارس .
(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

من بفكرٍ صالحٍ في الأدب ؟
 وسُلِّمَى العُربِ يا صاحِ اعشقا
 في رياضِ العجمِ قَطَفْتَ الزَهْرَ
 من حَرورِ البيدِ فاشربْ يا رفيقُ
 أُنِلمَ من رَأْسِكَ يوماً صَدْرَها
 قد لبستِ الخُرَّ طولَ الزمنِ
 كم وطئتِ الوردَ في طولِ المدى
 فعلى رملِ الصَّحارى المُضَرَمِ
 فيم هذا النوحُ مثلَ البلبَلِ ؟
 قد علا جُدُّ الهُما من صيدكا
 ابن عُشّاً حيث لا تَزُقَى الأنوقُ
 تُتْرَى أهلاً لأعصارِ الحياةِ

ارجعَنْ يا صاحِ شطرِ العُربِ^(١)
 لتُرى صَبَحَ الحِجازِ اثتلقا
 في ربيعِ الهندِ سَرَّحتِ البصرَ
 واشربِنْ من نَمَرِها الرَاحَ العتيقُ
 وَأَلْقَيْتَ في حُرِّها صَرَصَرِها
 فألفِ الكِزْباسِ يوماً واخشِنْ
 غاسلاً ، كالوردِ ، خِذاً بالنَّدَى
 أقْدِمَ من يوماً وُغْصَ في زَمَرمِ
 وإلامِ العُشِّ بَيْنَ الطُّللِ ؟
 اجعلِن في الطودِ مَثوى عُشْكا^(٢)
 تختفي فيه رَعودٌ وبروقُ^(٣)
 وتُذِيبُ النَّفْسَ في نارِ الحياةِ

(١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدّهم شيء ،

ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .

(٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع

عشك فوق الجبل .

(٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذاتية ثلاث مراحل :
الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى الطَّاعة

شِمْةُ الصَّبْرِ وَقَارُ الْجَمَلِ	أَلْفَةُ الْكَدِّ شِعَارُ الْجَمَلِ
زَوْرقاً فِي الْبَيْدِ يَسْرِي هَادِياً	صَامِتَ الْأَخْفَافِ يَمْشِي مَاضِياً
شَارِدَ النَّوْمِ قَلِيلاً أَكْلَهُ	نَقَشَتْ وَجَةَ الصَّحَارَى أَرْجُلُهُ
رَاقِصاً يُقَدِّمُ شَطْرَ الْمَنْزِلِ	ثِمِلاً يَخْتَالُ تَحْتَ الْمَحْمَلِ
هَائِمْ بِالسَّيْرِ عُجْباً يَخْطُرُ	فِي الْمَدَى مِنْ رَاكِبِهِ أَصْبُرُ

وَارْجُونَ مَنْ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَأْبِ ^(١)	فَاحْمِلِ الْفَرَضَ قَوِيّاً لَا تَهَابْ
فَمِنْ الْجَبْرِ سَيِّدُو الْاِخْتِيَارِ ^(٢)	أَجْهَدَنَّ فِي طَاعَةٍ يَا ذَا الْخِزَارِ
وَهَوَى الطَّاعِي وَلَوْ كَانَ اللَّهَبُ	بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ يعلو مِنْ رَسَبِ
مَنْ ثَوَى فِي الْقَيْدِ مِنْ شَرْعَتِهِ	سَخَّرَ الْأَفْلَاكَ فِي هِمَّتِهِ
طَوَّعَ قَانُونُ لَهُ قَدْ ذُلُّلاً	قَدْ سَرَى النَّجْمُ يَوْمَ الْمَنْزَلِ
فَإِذَا مَا حَادٍ يُجَفِّى بِالْعِرَاءِ	وَنَمَا الْعَشْبُ بِقَانُونِ النَّمَاءِ
دُمُهُ مِنْ ذَاكَ يَسْرِي فِي الْعُرُوقِ ^(٣)	وَلِهَيْبٍ دَائِمٍ دِينُ الشَّقِيقِ
فَهِيَ بَحْرٌ وَهِيَ بَرٌّْ بِاتِّصَالِ	يَرْبِطُ الذَّرَاتِ قَانُونُ الْوَصَالِ

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .

(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .

(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحترق .

كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ قَانُونٌ سَرِي كَيْفَ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي يُعْتَرَى ؟^(١)
 ارْجِعْ يَا حُرٌّ دُسْتُورٍ قَدِيمٌ زَيْنُنْ رِجْلَكَ بِالْقَيْدِ الْوَسِيمِ
 شِدَّةً فِي شَرْعِنَا لَا تَشْكُونُ وَحُدُودَ الْمُصْطَفَى لَا تَعْدُونُ^(٢)

المرحلة الثانية

ضَبْطُ النَّفْسِ

جَمَلُ نَفْسِكَ تَرْبُو بِالْعَلَفِ فِي إِبَاءٍ وَعِنَادٍ وَصَلَفِ
 فَكُنِ الْحُرَّ وَقُذْهَا بِزِمَامِ تَبْلُغُنْ مِنْ ضَبْطِهَا أَعْلَى مَقَامِ
 كُلُّ مَنْ فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ هُوَ فِي حُكْمٍ سِوَاهِ مُرْعَسُمِ
 إِنَّمَا صَوَّرْتَ مِنْ طِينِ لَزْبِ سَيْطِ فِي أَمْشَاجِهِ خَوْفٌ وَحَبٌّ :
 خِيفَةُ الدُّنْيَا وَخَوْفُ الْآخِرَةِ خَوْفُ مَوْتٍ وَرِزَايَا فَاقِرِهِ
 حُبُّ جَاهٍ وَثَرَاءٍ وَبِلْدِ حُبُّ زَوْجٍ وَقَرِيبٍ وَوَلَدِ
 مِنْ مَزَاجِ الطَّيْنِ وَالْمَاءِ الْبَدَنِ مَرْكَبُ الْأَهْوَاءِ ، مَغْلُوبُ الْفِتَنِ
 مَنْ يَمْسُكَ بَعْضًا مِنْ « لَا إِلَهَ » فَلتَحْطُمِ طُلُوسُ الْخَوْفِ يَدَاهُ^(٣)
 كُلُّ مَنْ بِالْحَقِّ أَحْيَا نَفْسَهُ لَا تَرَى الْبَاطِلَ يُحْنِي رَأْسَهُ
 لَيْسَ يَدْنُو الْخَوْفُ مِنْهُ أَبَدًا لَيْسَ ، غَيْرَ اللَّهِ ، يَخْشَى أَحَدًا

- (١) في الآيات السابقة ضرب الشاعر أمثالا مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .
 (٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه .
 ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فأرجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ،
 ففي هذا القيد حررتك لا عبوديتك .
 (٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثير من شعره . قوله :
 إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل
 السحر .

كُلُّ مَنْ مَوْطَنُهُ إِقْلِيمٌ « لَا »
مُعَرَّضٌ عَمَّا سِوَى اللَّهِ الْأَحَدِ .
مَنْ قِيودُ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ خِلَا^(١)
يَضَعُ السَّكِينُ فِي حَلْقِ الْوَلَدِ^(٢)
يِيذُلُ الزَّوْجَ يِيْسُومُ الْخَطَرَ

دَرَّةُ التَّوْحِيدِ ، فَاحْفَظْهَا الصَّلَاةَ
فِي يَدِ الْمُسْلِمِ هَذَا الْخَنْجَرُ
يَفْتِكُ الصَّوْمُ بِجُوعٍ وَصَدَى
وَيَنْبِرُ الْحَجُّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ
إِنَّمَا الطَّاعَةُ أَسْرُ الْأَمَةِ
بِالزَّكَاةِ الْعَابِدُ الْمَالِ اذْكُرْ
تُكْثِرُ الْمَالَ ، وَشُحًّا تَمَحُّقُ
تِلْكَ أَسْبَابُ بَهَا تَسْتَحْكِمُ
اقْوِ يَا مُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْقَوِي

حَجَّكَ الْأَصْفَرُ ، فَاعْرِفْهَا الصَّلَاةَ
يُقْتَلُ الْفَحْشُ بِهِ وَالْمَنْكَرُ
ضَابِطًا بِالْقَسْطِ هَذَا الْجَسَدُ
هَجَرَةُ الْأَهْلِ بِهِ وَالْوَطَنُ
إِنَّمَا خِيَطُ كِتَابِ الْمَلَّةِ^(٣)
عَلِّمْتَ حَبَّ الْمَسَاوَاةِ الْبَشَرُ
« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تَتَفَقَّهُوا »
إِنْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ دِينَ مُحْكَمٌ
تَحْكُمَنَّ فِي ذَلِكَ الْبَكْرُ الْأَبْيَ^(٤)

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إِنْ خَطَمْتَ الصَّعْبَ قُدَّتْ الْعَالِمَا نَافَذَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ حَكَمًا^(٥)

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .

(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .

(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .

(٤) البكر : الجمل الفتى ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .

(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرض ما دارَ الفلك
 نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدُ
 هو بالجزء وبالكُلِّ خبير
 في فسيح الأرض يمضي طاويًا
 ينجلي من فكره مثل الزَّهر
 يُنضج الفكرة فينا بالضَّرمِ
 رنَّ عودُ القلبِ من مضربه
 باعثٌ في الشَّيب ألحان الشباب
 هو في الناس بشيرٌ ونذيرُ
 مقصدٌ من «عَلَمِ الأسماء» هُوَ
 مُحضَّرٌ من تحته طُرفُ الزَّمانِ
 يبعث الأرواحَ منه قولُ «قُمْ»
 ذاتُه تتبَّعُ ذاتُ العالَمِ
 يبعث الميتَ بإعجازِ العملِ
 سيرُه يخضُرُّ فسي يبدائه
 جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرِ جديدهِ
 كونه المكنونُ أسرارُ الحياةِ

فترى المُلك الذي يخلد لك
 حكمُه في الكون خُلدٌ لا يبيدُ
 وبأمر الله في الأرض أَميرُ
 وعزمُه ، هذا البساط البالي^(١)
 غيرَ هذا الكون أكوَانٌ آخرُ^(٢)
 يُخرج الأصنام من بيت الحرمِ
 يَقْظُ في الحق نومَانُ به^(٣)
 ناشِرٌ في الكون ألوان الشَّبابِ
 وهو جُنْدِيٌّ وراعٍ وأَميرُ
 سرُّ «سبحان الذي أسرى» هُوَ^(٤)
 حينما يُمسِكُ منه بالعنان^(٥)
 وهي إلى أبدانها مثل الرَّمَمِ^(٦)
 سطوةٌ فيه نجاة العالَمِ
 قِيَمُ الأعمالِ منه في بدل^(٧)
 كم كليم هام في سينائه
 عبَّرَ الرؤيا بتعبيرِ جديدهِ
 نعمةٌ يُضمِرُ مزمائرُ الحياةِ

-
- (١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .
 (٢) يخلق من فكره أكوَاناً أخرى ، لا يقيده ما هو واقع .
 (٣) المضارب : أداة تضرب بها أوتار العود .
 (٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في «الأسماء» و«أسرى» .
 (٥) يمدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .
 (٦) إن قال قم انبعث الأرواح من قبور الأبدان .
 (٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شاعرُ الفِطْسةِ غَنَّى طَبْعَهُ لِيَقِيمَ الْوِزْنَ إِذْ أَبَدَعَهُ
نَقَعْنَا نَارَ إِلَى أَوْجِ السَّمَاءِ فَبَدَا الْفَارِسُ مِنْ هَذَا الْهَبَاءِ^(١)

فِي رَمَادِ الْيَوْمِ مَنَّا تَرَقُّدُ شُعْلَةٌ يَرْمِي بِهَا الْكَوْنَ الْغَدُ
رَوْضَةً تُضْمِرُهَا أَكْمَامُنَا ضَاءٌ مِنْ صَبْحِ غَدٍ أَبْصَارُنَا^(٢)
أَنْتِ يَا فَارِسَ طَرْفِ الزَّمَنِ ! أَنْتِ يَا نَوْرًا لَعَيْنِ الْمَمْكَنِ
مَوْكِبَ الْإِنْشَاءِ هَيَّا زَيْنِ وَتَمَكَّنْ فِي سَوَادِ الْأَعْيُنِ
قُمْ فَسَكُنْ مِنْ ضَجِيجِ الْأُمَمِ وَامْلَأِ الْأَذَانَ زَهْرَ النَّغَمِ
جَدِّدَنَّ فِي النَّاسِ قَانُونَ الْإِخَاءِ وَأِدْرِهَا كَأْسَ حُبٍّ وَصَفَاءِ
أَبْلِغِ النَّاسَ رِسَالَاتِ السَّلَامِ وَأَعِذْ فِي الْأَرْضِ أَيَّامَ الْوِثَامِ
مَنْ بَنَى الْإِنْسَانَ أَنْتِ الْأَمَلُ أَنْتِ مَنْ رَكِبَ الْحَيَاةَ الْمَنْزَلُ
أَذْبَلْتُ كَفَّ الْخَرِيفِ الشَّجَرَا فَاغْدُ فِي الرُّوْضِ رِبْعًا نَضِيرَا
نَحْنُ مَنْ فَيْضُكَ نَسْمُو لِلْقُلُلِ فِي جِهَادِ الْكَوْنِ نَمْضِي كَالشُّعْلِ^(٣)

***^(٤)

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سيفتح عن روضة ، وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يا أخا الوردة كن صنوَ الحجر
 آدميًّا صوِّرَن من تُربكا
 أنت إن كنت تراباً هينا
 أيها الصَّارخ من جور الدَّهر
 فيمَ هذا النوح ؟ ماذا المأتم ؟
 مضمِرٌ في السعي مضمونُ الحياة
 قُمْ فشيد عالماً دون مثيل
 إنما السَّيرُ على حُكم الزَّمان
 إنما الحرُّ الشجاع الفطِنُ
 وإذا الدُّنيا عَتَتْ عن أمره
 يهدم الموجدودَ فيما آنرا
 يصرفُ الأيامَ عن كراتها
 خالقاً من قوَّة في قلبه
 فإذا أعوز عيشُ الرَّجُلِ
 حبذا عشقُ بغي الأمر الجليل
 تتجلى في مِراس المُغضِلِ
 عُدة الأنذال حقدٌ لا سواه
 الحياةُ الحقُّ بأسٌ يظهرُ
 ربَّ عفوٍ كان من آفاتِها
 يحسب العجزُ قنوعاً خانعُ

وكن السورَ لبستان الزَّهر^(١)
 ثم شيد عالماً بدعاً لك
 فليضع غيرُك منك اللبنا
 يا زجاجاً يشتكي جورَ الحجر
 وإلام الصَّدرَ حُزناً تَلدِم ؟
 لذَّة التخليق قانون الحياة
 وخضر النار وأقْدِم كالخيل
 هو رَمي الثُّرس في وقت الطَّعان
 من قفا الآثار منه الزَّمنُ
 حارب الدَّهر ، ولم يعأ به
 يمنع الذَّرات شكلاً آخرًا^(٢)
 يمنع الأفلاك من دوراتها^(٣)
 ذلك العصر الذي يرضى به
 فالحياة الموت موتَ البطل
 وجنى في النَّار ورداً كالخيل
 قوَّة كامنة في البطل
 استمع : صاح ، ذا شرع الحياة :
 حُب الاستيلاء فيه مضمِرُ
 يكسرُ الموزون من أبياتها
 لصروف الدهر ذلٌّ طائعُ

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابة ، وكن سوراً يحمي الأزهار .

(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يسخر عالم الطبيعة في مراده .

(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قَاطِعُ سُبُلِ الحَيَاةِ الخَوْرُ
 قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَارِغُ
 فِي كَمِينٍ رَاصِدٌ هَذَا اللَّيْمُ
 احْذَرْنِ يَا صَاحِبَ مَنْ تَزِينُهُ
 إِنَّهُ يَخْفَى عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ
 فِي ثِيَابِ اللَّيْنِ حِيناً يَظْهَرُ
 وَهُوَ طَوْرًا فِي ثِيَابِ الْمُجْبَرِ
 وَهُوَ حِيناً فِي لِبَاسِ التَّسْرِفِ
 مَا سِوَى الْقُوَّةِ لِلصَّدَقِ دَعْمُ
 هِيَ مِنْ حَقْلِ الحَيَاةِ الحَاصِلِ
 مَدَّعَاهُ فِي غِنًى عَنْ حِجَةِ
 تَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا مَائِلًا
 سَطْوَةُ الْقُوَّةِ تُحْلِي مَا أَمَرَ
 أَثْمَهَا الْغَافِلُ عَمَّا حُمِّلَا
 افْتَحْنِ عَيْنًا وَأُذُنًا وَمَا

قَلْبُهُ خَوْفًا وَكِذْبًا يُضْمَرُ
 لَيْشُهُ فِي كُلِّ خَبَثٍ وَالْغُ
 فَاحْذَرْنِ يَا صَاحِبَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ
 إِنَّهُ الْجَرَبَاءُ فِي تَلْوِينِهِ^(١)
 لَبَسَ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ وَاسْتَتَرَ
 وَهُوَ حِينًا فِي اتِّضَاعٍ يُسْتَرُ
 وَهُوَ طَوْرًا فِي حِجَابِ الْقَدَرِ
 يُلْبَسُ الصَّحَّةُ ثَوْبَ الدَّنْفِ
 اعْرِفْنِ نَفْسَكَ ، هَذَا جَامُ جَمِ^(٢)
 فُسِّرَ الْحَقُّ بِهَا وَالْبَاطِلُ
 إِنَّ تَحْدَى الْمَدَّعِي بِالقُوَّةِ
 وَهَنْ الْحَقِّ يُحِقُّ الْبَاطِلَا
 إِنَّ ثَقُلَ لِلْخَيْرِ شَرٌّ فَهُوَ شَرٌّ^(٣)
 أَنْتَ فِي الْكُونِينَ أَعْلَى مَزَلَا
 تُبْصِرِ الْحَقَّ طَرِيقًا مُعَلِّمًا

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر القارئ أن إقبالاً يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري^(١) شاكياً بغير أعدائه

مُجْتَبَى هُجَوِيرَ مَقْصُودُ الْأَمْنِ	مَنْ رَأَى الْجَشِيَّ مَشَوَاهُ الْحَرَمُ ^(٢)
قَطَعَ الْأَطْوَادَ وَاجْتَازَ السُّدُودَ	بِأَذْرًا فِي أَرْضِنَا بِذَرِ الشُّجُودِ
زَمَنَ الْفَارُوقَ مِنْهُ يُشْرِقُ	وَبِهِ لِلْحَقِّ يَعْلُو مَنْطِقُ
حَارَسُ الْعِزَّةِ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ	مَعْقِلُ الْبَاطِلِ مِنْهُ فِي تَبَابِ
حَيَّتِ الْبِنْجَابُ مِنْ أَنْفَاسِهِ	صُبْحُنَا نَوْرَ مَنْ نَبْرَاسِهِ
ذَا رَسُولُ الْعَشَقِ ، وَهُوَ الْعَاشِقُ	فِيهِ سِرُّ الْعَشَقِ بِإِدِّ بَارِقُ

قِصَّةٌ أَسْرَدُهَا فِي أَسْطَرِ	طَاوِيَا فِي الْكَيْمِ رَوْضَ الزَّهَرِ :
قَدْ أَتَى لَاهُورَ مِنْ مَرَوْ فَتَى	قَدَّهُ كَالسَّرْوِ عَالٍ قَدْ عَتَا
جَاءَ عِنْدَ السَّيِّدِ الْعَالِيِّ الْجَنَابِ	كَاشَفَا مِنْ نُورِهِ عَنْهُ الصُّبَابِ
قَالَ : إِنِّي فِي عُدَاةٍ لَوْمُوا	كَزَجَاجٍ بِصَخُورٍ يُصَدِّمُ
عَلَّمَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ	كَيْفَ عِيشِي بَيْنَ أَعْدَاءِ كَثِيرِ
فَأَجَابَ الشَّيْخُ ، مِنْ فِيهِ الْجَمَالُ	قَدْ تَجَلَّى فِي إِطَارٍ مِنْ جَلَالِ :

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب «كشف المحجوب لأرباب القلوب» في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، وعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدين الجشي أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثير من الهنالك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشي قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافلُ عن سرِّ الحياة
 حرَّزَنْ نفسك من يأسٍ وغمٍ
 إن رأى النَّفسَ زجاجاً حَجَرُ
 وإذا خارت قسواء السَّائِرُ
 كم ترى نفسك طيناً قد حُقر
 فيمَ شكواك الرقيقَ النافعا
 كم عدوُّ لك ، في الحق صديقُ
 قوة الأعداء فضلاً يعلمُ
 يوقظُ الخضمُّ قِواك الهاجدة
 قوة العزم تذيب الحجر
 تشحذُ العزمَ عقابُ السُّبُلِ
 ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحَكِّمٍ ؟
 زلزلِ العالمَ وافعل ما ترى
 اهجرَنَّ الذَّاتَ إن تبغ الفناء
 ما الرَّدَى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنُ
 يا أخا يوسف في الذاتِ أقمُ
 أحكمَنَّ الذاتَ وانهض عاملاً
 هاك سرّاً في حديثٍ مؤنسٍ
 « حبذا سرٌّ حبيبٌ يُضَمَّرُ »

لا يَميزُ الخيرَ من سرِّ الحياة
 أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنمُ
 فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسرُ
 قطع السُّبُلَ عليه الفاجرُ
 شعله الطُّور من الطَّيْنِ أُنزِ
 فيمَ شكواك العدوَّ الخادعا
 أنت بالأعداء ذو غُصْنٍ وريقِ
 من مقامِ « الذاتِ » حقاً يفهمُ
 مثل ما تحيي الموتَ الراعدة^(١)
 لا يبالي السيلُ صخراً إن جرى
 امتحانُ العزمِ بُعدُ المنزلِ^(٢)
 ما غناء العيش مثل النِّعمِ ؟
 إن حَبَّكَ الذاتُ عزمًا مُسْعِراً
 واعمُرَنَّ الذاتَ إن شئت البقاء
 أتراه بُعدَ روحٍ وبدنٍ ؟^(٣)
 ومن السُّجنِ إلى المُلكِ استقمُ^(٤)
 ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملاً
 افتح الكَمَّ بحَرِّ النَّفْسِ^(٥)
 في حديثٍ عن سواءِ يؤثرُ^(٦)

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .

(٢) العقاب : جمع عقبة .

(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروح البدن .

(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .

(٥) أبدي السر في قصة قصيرة ككم الزهرة .

(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهدته العطش

طائرٌ مِنْ ظمأٍ قد جهدا
 قَدْ رَأَى الْمَاسَةَ مِثْلَ النَّدى
 خَدَعَتْهُ شَذْرَةٌ مِثْلُ الشَّرَرِ
 لَمْ يَجْزِ رِيّاً بِضَرْبِ الْمِنْقَرِ
 قَالَتِ الشَّذْرَةُ : جُنِبْتَ الْهُدَى
 لَسْتُ مَاءً . لَا تَرَانِي سَاقِيه
 جَاهِلٌ يَقْصِدُ هَضْمِي مَا اهْتَدَى
 كُلُّ مَنْقَارٍ بِمَائِي يَنْكَسِرُ
 مَا رَأَى الطَّائِرُ فِيهَا أَرْبَا
 حَسْرَةً فِي صَدْرِهِ تَنْقُذُ
 كَدَخَانٍ نَفْساً قَدْ صَعَّدَا
 صَاغَهَا مَاءٌ لَعِينِيهِ الصَّدى
 فَرَأَى الْجَاهِلُ مَاءً فِي الصَّخْرِ
 لَمْ يُصِبْ مَاءً بَنَقْرِ الْجَوْهَرِ
 تَضْرِبُ الْمَنْقَارُ فِي جِسْمِي سُدى
 مَا أَنَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِي بِاقِيه
 لِحَيَاةٍ نَوْرُهَا مِنْهَا بَدَا
 وَتَرَى الْإِنْسَانَ مِنْهُ يَنْبَهَرُ
 فَتَوَلَّى عَنْ سِنَاهَا لَغْياً
 زَفَرَاتٍ لِحُنْه يَصْعَدُ

وَأَضَاءَاتٍ مِثْلَ دَمْعِ الْبَلْبَلِ
 لَضِيَاءِ الشَّمْسِ فِيهَا مِئَةٌ
 كَوَكَبٌ يَرْعَدُ مِنْ تَنَلِ السَّمَاءِ
 غَرَّهَ الْأَكْمَامُ وَالزَّهْرُ الْخَصِيبُ
 قَطْرَةٌ مِنْ دَمْعٍ صَبَّ تَبَهَّرُ
 قَطْرَةٌ فِي غُضْنٍ وَرِدٍ خَضِلُ
 وَلِخُوفِ الشَّمْسِ فِيهَا رَعْدَةٌ^(١)
 شَاقَهُ الْجَلُوءُ فِي هَذَا الْفَضَاءِ^(٢)
 لَمْ يَزُودْ مِنْ حَيَاةٍ بِنَصِيبِ^(٣)
 زَانَتِ الْهُذْبُ وَكَادَتْ تَقْطُرُ

(١) هي مضينة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفَّ في أشعة الشمس .

(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .

(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضى الطائر فيها راغباً
 أيها الباغي عدوّاً تقهّراً !
 حينما الطائر أضناه صده
 كانت الشّدة عضباً يُرمب
 قوّة الذّات احفظنها أبداً
 أنضج القطرة كالطّود تُرى
 أثبت الذّات وفيها حقّق
 ومن الذّات أبّن أسرارها
 بلّ بالقطرة خلقاً لاها
 قطرة أنت ، تُرى ، أم جوهر ؟
 حيّ نفساً بحياةٍ من سيّواه
 لم تكن قطرة طلّ يُشرب
 وكن الألماس لا قطر الندى
 حاملاً غيماً مُفيضاً أنهارا
 فضّة كن بالتّثام الزّئبق^(١)
 حرّكن عن لحنها أوتارها

قصة الألماس والفحم

قصة أخرى بها أدلي إليك
 قال للألماس فحم المعدن :
 نحن صنوان نمانا والد
 وعلى التيجان أنت الزينة
 لك حسن في المرايا يسطع
 من ظلامي قد أضاء المجر
 موطىء الأقدام بين البشر
 إنّ حالي بيكاء لحرى
 إنني موج دُخان يُعقد
 ومن الأنجم فيك الرّونق
 يفتح الحقّ بها باباً عليك :
 يا حليف الثّور طول الرّمن !
 أصلنا في الكون أصل واحد
 وأنا في الثّرب حظي الذّلة
 وأنا من كفّ ترب أضيّع
 ورماداً أض فيّ الجواهر
 قد رموا في مهجتي بالشّر
 هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
 كلّ ما فيّ شرار يصعد
 كلّ جنب فيك نور يُشرق

(١) كن في صلابة الفضّة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تسارة نور بعيني قيصرًا تارة فص يزين الخنجرا

قال : فاسمع يا رفيقي وافهما	ينضج التراب فيغدو خاتما
شن فيما حوله حرباً ومز	وغدا بالحرب صلباً كالحجر
هيكلي من نضجه قد نورا	وبصدري كم شعاع أسفرا
أنت من ضعف وكيان تنفق	وبلين في قوام تخرق
اهجرن خوفاً وغماً لا تهن	وانضجن كالصخر والألماس كن
من أجاد السعي والأخذ معا	فهو في الدارين بدر طلعا
وبحجر الكعبة انظر حجرا	كان من قبل تراباً خفرا
جاوز الطور علاء لا جرم	ورجست تقيله كل الأمم
قوة الأحياء عز ونجاة	والوئى والذل من ضعف الحياة

قصّة الشيخ والبرهمي ، ومحاوره نهر الجنج وجبل همالا

في معنى دوام حياة الأمة بالتمسك بستها

برهمي في بناريس علم	غائص في فكر كون وعدم ^(١)
برجال الله يحقّى فعله	ومن الحكمة وافو كفله
عقله فوق الثريا قد علا	ذهنه ماضي يحلّ المشكلا
فكره العناء إما حلّقا	شعلة منها السماك احترقا
كأسه دهرأ خلّت من خمرة	قد حماه الراح ساقى الحكمة
في رياض العلم ألمى شبكا	طائر المعنى به ما أدركا

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فَكَرَّهَ أَذْمَى وَلَكِنْ لَمْ تَزَلْ
أَعْرَبْتَ عَنْ يَأْسِهِ آهَاتِهِ
سَارِ يَوْمًا نَحْوَ شَيْخٍ كَامِلٍ
لَقِيَ الشَّيْخَ بِنَفْسٍ رَاجِيَةٍ
فَأَمَّا الشَّيْخُ : يَا خِدْنَ السَّمَاءَ
ضَقَّتْ فِي الْأَرْضِ مَجَالًا فَعَلَا
طَاوِي الْأَفْلَاكِ ! فِي الْأَرْضِ قُمْ
لَا أَقُولُ أَهْجَزُ غَدًا أَصْنَامُكَ
يَا أَمِينًا لِنَثَرَاتِ الْأَوَّلِينَ !
بِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ تَحْيَا الْأُمَّةُ
لَمْ يَكْمَلْ فِيكَ حَتَّى كَفَرُوكَ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ فِينَا هُجِرَا
قَبَسْنَا مَا هَامَ خَلْفَ الْمُحْمَلِ
إِنَّ شَمْعَ الذَّاتِ فِينَا لَا نَطْفَأُ

عُقِدَ الْأَكْوَانُ فِيهِ دُونَ حُلٍّ
وَحَكَّتْ حَيْرَتُهُ نَظْرَاتِهِ
رُبَّ صَدْرٍ بِفُؤَادِ أَهْلِ
تَحَسَّنُ الصَّمْتُ ، وَأَذِنَ وَاعِيهِ :
أَهْبَطَنَّ الْأَرْضَ وَارَعَ الذُّمَّاءَ
فَكَرُّكَ الْمَقْدَامِ فِي أَوْجِ الْعُلَى
لَا تَطْرُقُ تَطْلُبُ سِرَّ الْأَنْجَمِ
كَافِرٌ أَنْتَ فَخِذْ زُنَّارَكَ
لَا تَدْعُ نَهْجَ الْجُدُودِ الْأَقْدَمِينَ
وَكَذَلِكَ الْكُفْرُ فِيهِ وَحْدَةٌ
لَيْسَ أَهْلًا لِفُؤَادِ صَدْرِكَ
وَبُعْدَتْكُمْ أَنْتُمْ عَنْ آزْرَا^(١)
فِي جَنُودِ الْعِشْقِ لَمَّا يَكْمُلُ
كَيْفَ يُجَدِّدُنَا طَوَافٌ فِي السَّمَاءِ

جَاشَ نَهْرُ الْجَنَاحِ يَوْمًا جَائِلًا فِي سَفُوحٍ مِنْ هِمَالَا قَائِلًا :
حَامِلًا مِنْ بَرْدٍ أَوْقَارَهُ ! عَاقِدًا مِنْ أَبْهَرِ زُنَّارِهِ^(٢)

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكمال فيه ما دام برهميًا . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إِنَّ الموحدين لا يسرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاوره : أَنَّ النهر يعبرُ الجبل بالمعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاوره تصوّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها ، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يؤدي بها .

صاغك الحقُّ نجياً للسماء
قُيِّدتَ رجلُك عن سيرٍ فما
إنما العيشُ مسيرٌ وُصِّلا
غَضِبَ الطُّودُ لقولِ النَّهْرِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيه الحَيْنُ لك
بمقامٍ لك هلاً تأبه !
يا وليد الفلك المرتفع !
قد وهبتَ النَّفسَ بحرأ غاصبا
كُنْ كورِدٍ في رُباه عاكفٍ
إنما العيشُ نماءً في المكان
في دهورٍ لم تُزَخَّزْ أرْجُلِي
وإلى الأفلاك قَدْ يَصْعَدُ
أنتَ تَفْنَى في خِضْمٍ خَضِرِمْ
وبعيني لاح سِرُّ الفلكِ
وينارِ الجدُّ طولَ الدَّهْرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخرِ
قطرةٌ إن كنتَ فاحفظ نفسك
وابتغِ النُّورَ وكنْ درأً يُضِيءُ
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا

وحمى رجلُك سيرا في العراء
هيبةً فيك ورأسٌ قد سما ؟
وحياةُ الموجِ في أن يجفلا
فرمست أنفاسه بالشررِ
كم حوى صدري بخاراً مثلكا
من يزل عن نفسه يوماً هلك
أفخارٌ بالردى يا أبله !
صِرْتَ دونَ السَّاحلِ المتَّضِعِ
وأبحت الرُّوحَ لصاً سالبا
لا تَرُمَ للريح كَفَّ القاطف^(١)
وبروضِ الذاتِ قطفُ الأقحوانِ
أثرانسي زائلاً عن منزلي ؟
فعلى سفحي الثُّريا ترقد
وقلالي مسجدٌ للأنجمِ
ويسمعي طيرانُ المَلِكِ
قد حوى صدري صنوفَ الجواهرِ
ليس للماءِ إلى ناري ممز^(٢) «
جاهد الأمواجِ واجنُبْ بأسكا
ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيءٍ
يُشعلُ البرقَ ويهمي أبجرا^(٣)

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .

(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .

(٣) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ
يجتدي منك البحر ماءه .

يسيطر البحرُ لجوداك يدا شاكياً من فاقة يرجو الندى
فهو في فيضك دون الموجهة وهو في جدواك بادي الذلة

في بيان أنَّ حياة المسلم لإعلاء كلمة الله وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض » فهو حرامٌ في شريعة الإسلام

صِبْغَةَ اللَّهِ أَنْزَلَ فِي قَلْبِكَ	والهوى والصَّيْتَ دَغْ فِي حَبِّكَ
إِنَّمَا الْمُسْلِمُ بِالْحَبِّ قَهْرٌ	مُسْلِمٌ لَا حَبَّ فِيهِ قَدْ كَفَرَ
غَضٌّ بِالْحَقِّ ، وَبِالْحَقِّ نَظَرٌ	وَلَهُ فِي الْحَقِّ نَوْمٌ وَسَهَرٌ
فِي رِضَاءٍ لِرِضَا الْحَقِّ فَنَاءٌ	كَيْفَ يَرْضَى النَّاسُ هَذَا الْادِّعَاءُ؟ ^(١)
فِي رُبَى التَّوْحِيدِ أَرْسَى الْعَمْدَا	وَعَلَى النَّاسِ جَمِيعاً شَهْدَا
وَعَلَيْهِ يَشْهَدُ الدَّاعِي الْأَمِينُ	شَاهِدٌ أَصْدَقُ كُلِّ الشَّاهِدِينَ
فَدَعَ الْقَالَ إِلَى الْحَالِ الْجَلِيِّ	وَأَضَىءَ بِالْحَقِّ لَيْلَ الْعَمَلِ
وَكُنَ الدَّرْوِيشُ فِي زِيِّ الْأَمِيرِ	ذَا كَرَأَ اللَّهُ يَقْظَانُ الضَّمِيرِ
وَاقْصِدَنَّ الْحَقَّ فِي كُلِّ الْفِعَالِ	يَسْطَعُنْ فِيكَ مِنَ الْحَقِّ جَلَالِ
خَيْرُ الْحَرْبِ إِذَا رَمَتْ الْإِلَهِ	شَرُّ السَّلَامِ إِذَا رُمَتْ سِوَاهِ
نَحْنُ إِنْ لَمْ يُعْمَلْ حَقّاً سِيفُنَا	اكَتَسَى فِي الْحَرْبِ عَاراً صِفُنَا

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضا
رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانمير) الولي
كان ثبثاً في طريق المصطفى
قبره الإيمان في أوطاننا
سجد النجم على أعتابه
غرس الملك هواء في الفؤاد
بالهوى أضرم ناراً قلبه
دوّخت أجناده كل وطن
ديدن المسلم للحق التجاء
قصّد الشيخ العلي القذر
صمت الشيخ لقول المالك
قطع الصمت مريد أقدم
قال : مولاي ! اقبل النذر الحقيق
عرقني من كل عضو قد همى
قال : سلطاني به أولى يدا

من سناء كل سر ينجلي^(١)
مزهّر العشق بحق عرّفا
مشعل النور على بلداننا
كان ملك الهند من طلابه
طالباً في حرصه فتح البلاد
مقرئاً « هل من مزيد » عصبه^(٢)
وتوالى الفتح في أرض الدكن
يحكم التدبير منه بالدعاء
راجياً منه دعاء الظفر
وصغى كل مريد سالك
أمسكت إحدى يديه درهما
أنت للمسكين بالحق نصير
قبل أن تمسك كفي الدرهما
سائل في حلة الملك بدا^(٣)

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرة . شاده لزوجته ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ - ١٠٦٨ هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨ هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥ هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيد جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني .. إلخ .

وَعَلَى الشَّمْسِ تَوَلَّى وَالْقَمَرِ	مَلَكْنَا أَفْقَرُ مِنْ كُلِّ الْبَشَرِ
عَيْنُهُ فَوْقَ سَمَاطِ الْآخِرِينَ	جَوْعُهُ بِالنَّارِ يُصَلِّي الْعَالَمِينَ
نَفْسُهُ يَبْنِي وَيُرْدِي عَالَمًا	سَيْفُهُ بِالْقَهْطِ وَالْمَوْتِ رَمَى
شَقِيَ الْمَسْكِينُ مِنْ جَوْعِ يَدِيهِ	ضَجَّتِ الْأَقْوَامُ مِنْ فَقْرٍ لَدِيهِ
قَطَعَ الطَّرْقَ عَلَى رَكْبِ الْبَشَرِ	حُكْمُهُ فِي النَّاسِ شَرٌّ وَأَشْرُ
نَهَبَهُ فَتْحًا . وَيَتَسَّ الْمَدْعَى	بِخَدَاعِ النَّفْسِ وَالْجَهْلِ دَعَا
بَسِيفِ الْجَوْعِ مِنْهُ شَذَرُ	عَسْكَرُ الْمَلِكِ وَمَا قَدْ أَسْرَا
وَحَرَابُ الْمُلْكِ جَوْعُ الدَّائِلِ	غَضَّةُ السَّائِلِ جَوْعُ السَّائِلِ
سَيْفُهُ فِي صَدْرِهِ قَدْ أَغْمَدَا	مَنْ لَغِيرِ اللَّهِ سَلَّ الْمُغْمَدَا

نصيحة مير نجاة النقشبندی المعروف باباي صحرائي (الأب الصِّحْرَاوي) التي كتبها لمسلمي الهند

مَنْ ضَمِيرَ الذَّاتِ نِلْتَ الْمَوْلَدَا	أَنْتَ كَالْوَرْدِ مِنَ الْأَرْضِ بَدَا
قَطْرَةً كُنْ وَاشْرَبِ الْبَحْرَ صَدَى ^(١)	لَا تَعْدُ الذَّاتَ وَاخْلُدْ أَبَدَا
وَالْغِنَى فِي حِفْظِ هَذِي السَّلْعَةِ	إِنَّمَا الرِّبْحُ بِهِذِي الثَّرْوَةِ
يَا أَسِيرَ الْوَهْمِ أَخْطَأْتَ الْفَهْمَ	أَنْتَ مَوْجُودٌ وَفِي خَوْفِ الْعَدَمِ
سَأْتِيكَ بِأَسْرَارِ الْحَيَاةِ :	عِنْدِي الْخُبْرُ بِأَوْتَارِ الْحَيَاةِ
وظَهْوَرٌ بَعْدَ هَذِي الْخُلُوعَةِ	غَوْصَةٌ فِي النَّفْسِ غَوْصَ الدَّرَةِ
وَاشْتِعَالٌ بَعْدُ يُعْشِي الْبَصْرَا	هِيَ جَمْعٌ مِنْ رَمَادٍ شَرَرَا
وَاجْعَلْنِ نَفْسَكَ بَيْتَ الْحَرَمِ	هِيَ حَوْلَ الذَّاتِ طَوْفٌ فَاعْلَمْ
مَنْ هُوِيَّ لَا تَخَفْ ، مِثْلَ الْعَقَابِ	خَلَقْنِ فِي اللَّوْحِ عَنْ جَذَبِ التَّرَابِ

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمنها . الصدى : الظمأ .

أَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُ طَيْرًا وَيَحْكَا
أَيُّهَا الْجَاهِدُ فِي كَسْبِ الْعُلُومِ
« إِنَّمَا الْعِلْمُ لَدَى الْجِسْمِ شِفَاءٌ
قِصَّةُ الرُّومِيِّ تَقْضِي بِالْعَجَبِ :
وَعَلَى رَجُلَيْهِ لِلْعَقْلِ قِيُودُ
هُوَ مُوسَى دُونَ طُورٍ يُشْرِقُ
وَعَنِ الْإِشْرَاقِ وَالشُّكِّ حَكْيُ
وَعَنِ الْمَشَاءِ ^(٤) حَلُّ الْعَقْدَا
وَحَوَالِيهِ صَوَانُ الْكُتُبِ

فَعَنِ الْغَارِ فَابْعَدْ عَشْكَا ^(١)
عَنِ إِمَامِ الرُّومِ خُذْ نَصَحَ الْحَكِيمِ
وَهُوَ فِي الْقَلْبِ دَوَاءٌ وَشِفَاءٌ ^(٢)
كَانَ فَيْضًا مِنْ عُلُومٍ فِي حَلَبِ
فِي ظِلَامِ الْعَقْلِ بِالْقُلُوكِ يَرُودُ
مَا دَرَى مَا الْعَشَقُ أَوْ مَنْ يَعَشَقُ
وَمِنَ الْحِكْمَةِ دَرْأٌ سَلَكَا ^(٣)
كُلُّ خَافٍ مِنْ سِنَاهُ قَدْ بَدَا
وَعَلَى فِيهِ بَيَانُ الْكُتُبِ

أَمْ يَوْمًا مَكْتَبَ الْمُلا جَلالُ
قَالَ : مَاذَا الْقَالَ وَالْقِيلُ وَمَا
صَرَخَ الرُّومِيُّ : مَهَلًا يَا جَهْلُ !
اخْرُجْ مِنْ مَكْتَبِي يَا أَبْلَهُ !
قَالْنَا أَرْفَعُ مِمَّا تَعْقِلُ
نَارُ شَمْسِ الدِّينِ زَادَتْ حُرْقًا
فَاسْتَطَارَ الْبَرْقُ مِنْ نَظَرَتِهِ

شَيْخُ تَبْرِيزٍ بِأَمْرِ مِنْ كَمَالِ ^(٥)
مِنْ قِيَاسٍ وَدَلِيلٍ أَوْهَمَا
لَا تَهْوُونَ مِنْ مَقَالَاتِ الْعُقُولِ
قَالْنَا وَالْقِيلُ أَنْتَى تَفْقَهُ ؟
سُورُجُ الْإِدْرَاكِ مِنْهُ تُشْعَلُ
فَرَمَى مِنْ رُوحِهِ مَا أَحْرَقَا
وَتَلَطَّيَ التُّزْبُ مِنْ شُعَلَتِهِ

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عشتت عليه . يعني إن لم تكن ذا همّة تطير عن الأرض فلا تطلب المعتزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمته في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فيإذا الأدراك من نارِ القلوب
 جهل الرومي عشقاً أضرم
 قال : هذي النار ما قصتها ؟
 قال شمس الدين يا ذا المسلم !
 حالنا أرفع مما تُفكر
 محرق والكذب منها في لهيب
 ما درت أوتاره ذا النغما
 أحرقنا أسفارنا وقدتها
 ذوقنا والحال أنى تعلم ؟
 ولظاننا الكيمياء الأحمر^(١)

تجمع الحكمة زاداً بردا
 من هشيم فيك أذك اللهب
 من لهيب القلب علم الكامل
 صد إبراهيم عما يأفل
 قد نبذت الذين ظهرياً وما
 أيها الساعي لكحل المقل
 من فم التين فابغ الكوثر
 حجر الكعبة من بيت الوثن
 طفىء العشق بعلم الحاضر
 فسحاب الفكر يهمي بردا^(٢)
 من تراب فيك أطلع شهباً
 مقصد الإسلام ترك الآفل^(٣)
 فحوته كالجنان الشعل^(٤)
 تبغي بالذين إلا الدرهما
 غافلاً عما به من كحل^(٥)
 واسألن ماء الحياة الخنجرا^(٦)
 التمس والمسك في الكلب اطلبن
 لا تؤمل كأس هذا الكافر

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .

(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .

(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكان الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .

(٤) إشارة إلى قصة لقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .

(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشجار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .

(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبغي ، واطلب المنفعة عن كل ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعْيُ في كل بعيد
وحباني سرُّ هذي الجَنَّةِ
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ
من حدودِ الحسنِ لا ينطقُ
زلقت رجلاه في سُبُلِ الحياة
كشفيقٍ فيه نارٌ هامدة
من لهيبِ العشق تخلو فطرته
عَلَّلَ العقل لها العشق دواء
سَجَدَ العالمُ للعشق الجليل
جاءه من نشوة الرِّيحِ خلا

وعرفتُ السرَّ في العلم الجديد
قِيمُ البستان بعد الخِبرة
يعبد الوثن وفيها يتجر
وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
وضعت في حلقهِ السِّيفَ يداهُ
شعلةٌ كالطُّلُّ فيه بارده^(١)
في طلابِ الحقِّ تبدو خبيثه
مبضعُ العشق لدى العقل شفاء
هو محمودٌ لأصنامِ العقول^(٢)
ليله عن وَجدٍ « يا ربِّ » سلا^(٣)



سَروك الباسقُ قد أغفلته
أنت كالتَّساي خَلِي من جواك
تبتغي نفسك في سوقِ سِواك
مِنْ سراجِ النَّاسِ نادينا استعر
ظَبِينا خاف سِوادَ الكعبةِ

كلُّ سَروٍ غيرُهُ أكبرُته^(٤)
بُلُحون النَّاسِ أعليت صدائك
وسماطُ النَّاسِ تجدوه يدائك
أحرقَ المسجدَ مِنْ دِبرِ شرز
فرمأه صائدٌ في الثُّغرة^(٥)

- (١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والمقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كآسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الوردَةِ كالْعَرَفِ انتَشَرَ
يا أَمِينَ السِّرِّ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ
نَحْنُ حُرَّاسُ حَصُونِ الْأُمَّةِ
أَكْوَسُ السَّاقِي أَرَاهَا كَسَرَا
تَعْمُرُ الْكَعْبَةَ مِنْ أَصْنَامِنَا
شَيْخُنَا بَاعَ الدُّمَى مِلَّتَهُ
شَيْخُ الشَّيْخِ بِيضُ الشَّعْرِ
قَلْبُهُ يَبْتَ لِأَصْنَامِ هَوَا
يَلْبَسُ الْخِزْقَةَ مِنْ يُرْخِي الشَّعْرِ
بِمَرِيدِهِ أَدَامَ السَّفَرَا
أَعْيُنُ عُمِّي حَكَاهَا النَّرْجِسُ
عَبْدُ الْأَشْيَاخِ فِينَا الْمَنْصِبُ
وَأَعْظَ عَيْنَاهُ شَطَرَ السَّوْثِنِ
وَجْهَهُ لِلْحَانَ وَلَّى شَيْخُنَا

جَافِلًا مِنْ نَفْسِهِ! عُدَّ لِلْمَقَرِّ^(١)
هَلْ إِلَى وَحْدَةٍ مَاضِينَا إِيَابُ؟
كُفَرْنَا تَرَكْنَا شَعَارَ الْمَلَّةِ
حَفَلْنَا نُدْمَانِ الْحِجَازِ انْتَشَرَا
يَضْحَكُ الْكُفْرُ عَلَى إِسْلَامِنَا^(٢)
جَاعِلًا زُنَّارَهُ مُبْنَحْنَهُ^(٣)
وَهُوَ لِلْأَطْفَالِ مِثْلُ الشَّخَرِ^(٤)
فَهُوَ صِفْرٌ مَقْفَرٌ مِنْ «لَا إِلَهَ»^(٥)
أَوَّ! لِلتَّاجِرِ بِالذُّبَيْنِ اتَّجَرَ
فِي هُدَى أَمَّتِهِ مَا فَكَّرَا
وَصُدُورٌ مِنْ قُلُوبِ تُقْلِسُ
حُرْمَةَ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ تَذْهَبُ
وَفَتَاوَى تُشْتَرَى بِالثَّمَنِ
«يَا رِفَاقِي بَعْدُ مَا تَدِيرُنَا»^(٦)

- (١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسنته . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردَةِ ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق فثبت .
- (٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .
- (٣) الدُّمَى : جمع دمية ؛ يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .
- (٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً ببيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .
- (٥) «لا إله» اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .
- (٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :
شِبَّ أَرَى مَسْجِدَ سَوَى مِيْخَانِهِ أَمَدٌ بِيْرَمَا
چَيْسَتْ يَارَانِ طَرِيقَتْ بَعْدَ أَزِينِ تَدِيرُمَا

الوقت سيف (١)

نَضَّرَ اللهُ تَرَابَ الشَّافِعِيِّ فَكَرُّهُ قَدْ صَادَ نَجْمًا لَامِعًا فَاتَ خَوْفًا وَرَجَاءً صَاحِبُهُ تُغْدِقُ الصَّخْرَةَ مِنْ ضَرْبَتِهِ كَانَ هَذَا السَّيْفُ فِي كَفِّ الْكَلِيمِ شَقَّ صَدْرَ الْبَحْرِ لَمَعُ الْقَبَسِ وَبِهَذَا السَّيْفِ يَسُومُ الْخَطَرَ	سَحَرَ الْأَبَابَ هَذَا الْأَلْمَعِي حِينَ سَمَى الْوَقْتُ سَيْفًا قَاطِعًا كُفَّهُ كَفُّ كَلِيمٍ ، ضَارِبُهُ وَيَغِيضُ الْبَحْرُ مِنْ صَوْلَتِهِ فَشَأَ التَّذْيِيرَ بِالْعَزْمِ الصَّمِيمِ صَبَّرَ الْقَلْبُومَ مِثْلَ الْيَبَسِ زَلَزَلْتُ خَيْرَ كَفِّ الْحَيْدَرِ^(٢)
--	---

مَمَكُنُّ إِبْصَارُ دَوْرِ الْفَلَكَ يَا أُسِيرَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ انظُرَا^(٣) أَنْتَ فِي النَّفْسِ بِذَرْتَ الْبَاطِلَا وَذَرَعْتَ الْوَقْتَ طَوْلًا ، لِلشَّقَاءِ وَجَعَلْتَ الْخَيْطَ زُنَّارًا لَكَ صِرْتَ يَا إِكْسِيرُ ثُرْبًا سَافِلَا اقْطَعْ الزُّنَّارَ حَزًّا لَا تَهْنُ إِيهِ يَا غَافِلُ عَنْ أَصْلِ الزَّمَانِ يَا أُسِيرَ الصُّبْحِ وَالْمُسَى اعْقِلُنْ	وَتَوَالِي نُورِهِ وَالْحَلَاكِ انظُرُنْ فِي الْقَلْبِ كَوْنًا سُبْرَا وَحَسِبْتَ الْوَقْتَ خَطًّا طَائِلَا بِذِرَاعٍ مِنْ صَبَاحٍ وَمَسَاءِ صِرْتَ لِلْأَصْنَامِ نَذًّا وَيَلْكَأُ يَا وَلِيْدَ الْحَقِّ صِرْتَ الْبَاطِلَا شَمْعَةً فِي مَحْفِلِ الْأَحْرَارِ كُنْ كَيْفَ تَدْرِي مَا خُلُودُ الْحَيَوَانِ^(٤) « لِي مَعَ اللَّهِ » بِهَا الْوَقْتُ اعْرِفُنْ^(٥)
--	--

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .

(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .

(٤) الحيوان : الحياة .

(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد =

كلُّ ما يظهرُ ، من تسياره
ما مِن الشَّمسِ أراه يوجَد
وبه الشَّمسُ أضاءت والقمر
قد بسطت الوقت بسطاً كالمكان
يا شذاً قد فرَّ من بستانه
وقتُنا بين الحنايا سافرُ
الحياةُ الدَّهرِ يا مَنْ عرفا
« لا تسبوا الدَّهرَ » قول المصطفى

نكتةٌ كالذُّرِّ خذها رائقة
حيرةُ العبدِ مسيرُ الرِّمَنِ
ينسج العبدُ عليه كفناً
وترى الحرَّ من الطين نجا
قفصُ العبدِ صباحٌ ومساء
وبصْدِرِ الحرِّ ثار النفسِ
فطرة العبدِ حُصولُ الحاصلِ
في مقامٍ من همودٍ راكدُ
ومن الحرِّ جديدهُ الخلقة
قيدُ العبدِ صباحٌ ومساء
بين حرٍّ ورقيقٍ فارقة :
حيرةُ الأزمانِ قلبُ المؤمن
من صباحٍ ومساء مُذعنا
نفسه حول الليالي نسجا
يُحرِّم التحليقَ في جوِّ السماء
طائر الأيَّامِ فيه يُحبَس
ليس في تفكيره من طائلٍ
نوحه ليلاً وصباحاً واحدُ
كلَّ حينٍ ، وحديثُ النِّغمة
وثوى في فمه لفظُ القضاء^(١)

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته

يد تسير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحرَّ مُشِيرًا لِلْقَسَدِ صَوَّرَتْ كَفَّاهُ أَحْدَاثَ الدَّهْرِ ^(١)
عنده الماضي التقى والقابل عاجلٌ بين يديه الآجل ^(٢)

ضاقَ عن معنَيَ حرفٍ وصَدَى عجزَ الإدراكُ في هذا المدى
قلتُ ، واللفظُ من المعنى خَجِلٌ وشكا المعنى من اللفظ المَحِلُّ
مات معنَى في حروفٍ يُحْبَسُ نازَه يُخمدُ منك النفسُ
سرٌّ غيبٍ وحضورٍ في القلوبِ رمزٌ وقتٍ ومرورٍ في القلوبِ ^(٣)
إنَّ للوقتِ لِلْحَناءِ صامتا وله في القلب سرّاً خافتا ^(٤)
أينَ أيامٌ بها سيفُ الدهرِ صرّفته في أيادينا القَدَرِ ^(٥)
قد غرسنا الدّينَ في أرضِ القلوبِ وجلونا الحقَّ من سترِ الغيوبِ
وَمِنَ الدُّنيا حلَلنا العُقدا واستنار الثُّربُ مِنّا سُجّدا
مِنَ دنانِ الحقِّ صرّفنا الرّحيقَ وهَدَمنا حانةَ العصرِ العتيقِ
يا مديراً الرّاحِ في أضوائها ومُذِيبَ الكأسِ مِن لآلئها ^(٦)
من غرورٍ واختيالٍ تَسْكُرُ ومن الفقرِ لدينا تَسْخَرُ !
كأُسنا كانت سِراجَ المحفلِ صَدَرنا كانَ لقلبٍ مُشعلِ
إنَّ هذا العصرَ مِن آثارنا من عجاجِ ثارٍ في تسيارنا

- (١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .
(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .
(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضة الحق ارتوت من دمننا
 كبر العالم من تكبيرنا
 « اقرأ » الحق لنا قد علما
 لا تهون قدر حرر أعذما
 إن نكن عندك أصحاب الخسار
 فلدينا عزرة من « لا إله »
 قد تركنا غم أمس وغد
 نحن وراث هداية للبشر
 لا تزال الشمس تبدي نورنا
 ذاتنا المراءة للحق ، اعلم
 عز أهل الحق في الدنيا بنا
 كعبات شاد من تعميرنا
 يبدينا رزقه قد قسمنا^(١)
 أن ترى الثاج مضى والخاتما
 قدماء الفكر أحلاف الصغار
 نحن للكونيين حراس أباء
 ووفينا لحبيب أوحد
 نحن عند الحق سر مدخر
 غيمنا فيه بروق وسنا
 آية الحق وجود المسلم

دعاء (٢)

أنت في الكون كروح مُستِير
 منك فيه نعمة عود الحياة
 عذ فسكن ذي القلوب البائسة
 عذ فكلفنا الفعال الماجدا
 إننا نشكو تصاريف القضاء
 عن فقير لا تحجب ذا الجمال
 عين سهد لفؤاد قلبق
 روخنا أنت ، ومنّا تستر
 في هواك ، الموت محسود الحياة
 عذ فعمّر ذي الصدور اليائسة
 ألهمنّ العشق فينا الخامدا
 أنت تغلي السّعر والأيدي خلاء^(٣)
 عشق سلّمان امنحنا وبلال
 امنحنا واضطراب الرّثيق

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

(٢) الخطاب لله تعالى .

(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيَةً أَظْهَرَ مِنَ الْآيِ الْمُبِينِ
 أَظْهَرَ الْبُرْكَانَ مِنْ أَعْوَادِنَا
 كَفُّنَا أَلْقَتْ بِخِيطِ الْوَحْدَةِ
 قَدْ مَضِينَا كَنَجُومِ حَائِرَةِ
 انْظَمْنَ فِي السَّلَكِ هَذَا الْوَرَقَا
 ابْعَثْنَا مِثْلَ مَا كُنَّا لَكَ
 مِنْزَلَ التَّسْلِيمِ أَبْلُغْ رَكْبِنَا
 عَلَّمَنَّ الْعَشَقَ مِنْ أَفْعَالِ « لَا »
 لَنَرَى أَعْنَاقَ قَوْمٍ خَاضِعِينَ^(١)
 وَامْحُ غَيْرَ اللَّهِ فِي نِيرَانِنَا
 كَمْ تَرَى فِي أَمْرِنَا مِنْ عُقْدَةٍ؟^(٢)
 إِخْوَءٌ لَكِنْ وَجْوَءٌ نَافِرَةٌ
 جَدَّدَنَّ سَنَةَ حُبِّ أَخْلَقَا^(٣)
 ائْتَمْنِ فِيمَا تَرَى أَحْبَابَكَ
 عَزَمَ إِبْرَاهِيمَ يَسْرَهُ لَنَا
 رَمَزَ إِلَّا اللَّهَ عَلَّمْ غَافِلَا^(٤)

أَنَا كَالشَّمْعِ لَغَيْرِي أُخْرَقُ
 رَبِّ ! هَذَا الدَّمْعُ نَوْرٌ فِي الْقُلُوبِ
 أَبْذُرُ الدَّمْعَ فَتَنْمُو شُعْلُ
 أَمْسِ فِي قَلْبِي ، وَعَيْنَايَ الْغَدُ
 « ظَنَّ كُلُّ أَنْبِي نَعَمِ السَّمِيرِ
 أَيْنَ يَا رَبَّنَا فِي الدُّنْيَا النَّدِيمِ
 وَبِدَمْعِي كُلُّ حَفْلٍ يَشْرَقُ
 ذُو هَيْجٍ وَاضْطِرَابٍ وَنَجِيبِ
 نَارُ شَقْرِ الرُّوضِ مِنْهَا تَنْصِلُ^(٥)
 أَنَا فِي الْجَمْعِ فَرِيدٌ مُوَحَّدٌ^(٦)
 لَيْسَ يَدْرِي أَيُّ سُرٍّ فِي الضَّمِيرِ^(٧)
 نَخْلُ سَيْنَاءَ أَنَا ، أَيْنَ الْكَلِيمِ ؟

(١) إشارة إلى الآية: ﴿ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى نَبِيِّهِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَزَايِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤] .

(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .

(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .

(٤) « لَا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و« إِلَّا اللَّهَ » هي الإثبات في هذه الكلمة .

(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكن الشاعر يقول إِنَّ هَذِهِ النَّارَ الْبَارِدَةَ تَمْحُوها نَارُ دَمْعِي .

(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .

(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

شُعلاً فِي صَدْرِهَا أَذْكِيْتُهَا وَتَشُبُّ النَّارُ فِي أَثْوَابِهِ ^(١) وَبِهَا أُحْرِقُ مَا قَدْ عَلِمَا ^(٢) حَوْلَهَا لِلْبَرْقِ طَوْفٌ فِي الْفُضَاءِ شُعلاً يَنْبُتُ فِي الشَّعْرِ فَتَرَاهُ نَغَمًا مَسْتَعْمِراً نَوْحٌ قَيْسٍ حِينَ يَخْلُو الْمَخِيل ^(٣) فِي فَرَّاشٍ لَا يَرَى أَهلاً لَهُ ^(٤) وَنَجِيّاً كَمْ أَرْجِي مُسْعِداً لِي فِي الْبَشَرِ	ظَالِمٌ نَفْسِي فَكَمْ عَنَيْتُهَا شُعلاً لِلْحَسَنِ تَذَرُو مَا بِهِ وَبِهَا الْعَقْلُ جُنُوناً عَلِمَا قَدْ عَلَتْ مِنْ حَرِّهَا شَمْسُ السَّمَاءِ كُلُّ عِزِّكَ فِي نَارٍ يَقْطُرُ بِلَبْلَبِي يَلْفِظُ هَذَا الشَّرَّارَا صَدْرُ عَصْرِي مَا بِقَلْبِ يَوْهَن يَخْفِقُ الشَّمْعُ وَحِيداً وَيَلْهُ! كَمْ أَرْجِي مُسْعِداً لِي فِي الْبَشَرِ
--	---

أَرْجِعْ مِنْ نَارِكَ مَنْ رُوحِي الْكَسِيرِ عَظْلُنْ مِنْ نَوْرِهَا مَرَاتِهَا هُوَ مَرَّةً لِعِشْقٍ مُحْرَقٍ	يَا مَنْ الْأَنْجَمُ مِنْهُ تَسْتَنِيرُ اسْلُبْ نَفْسِي مَا أودَعْتَهَا أَوْ فَهَبْ لِي وَجْهَ خَلِّ لَيْقٍ
---	--

لَا يَسِيرُ الْمَوْجُ إِلَّا فِي صِحَابِ وَعَلَى الْأَقْمَارِ يَحْنُو الْغَيْهَبُ وَمَسِيرُ الْيَوْمِ يَقْتَادُ غَدَا وَنَسِيمَ الرِّوَضِ فِي عَرْفِ الرِّهَزِ	يَخْفُقُ الْمَوْجُ بِمَوْجٍ فِي الْعُبَابِ وَمَعَ الْكُوكَبِ يَسْرِي الْكُوكَبُ وَمَعَ اللَّيْلِ نَهَارٌ أَبَدَا نَهراً ، أَبْصُرْ ، يَفْنَى فِي نَهَرِ
---	--

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .

(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقته الناس من علم .
انظرا الكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكلم .

(٣) يبكي إقبال لخلو عصره من القلب كما يبكي المعجون لخلو المحمل من ليلي .

(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رَبِّ حَانِ أَهْلٍ مِنْ شَرِيبِهِ	رَاقِصَ الْمَجْنُونِ مُجْنُوناً بِهِ
أَنْتَ يَا وَاحِداً لَا شِبَهَ لَكَ	عَالِماً أَنْشَأْتَهُ مِنْ أَجْلِكَ
وَأَنَا مِثْلُ شَقِيقَاتِ الْقَلَا	مُفْرَداً ، فِي بُهْرَةِ الْجَمْعِ خَلا ^(١)
هَبْ نَجِيّاً يَا وَلِيَّ النِّعْمَةِ	مَحْرَماً يُدْرِكُ مَا فِي فِطْرَتِي
هَبْ نَجِيّاً لَقِناً ذَا جُنَّة	لَيْسَ بِالدُّنْيَا لَهُ مِنْ صَلَاة ^(٢)
زُوحِهِ أَوْدِعْ مِنْ أَنْتَابِي	وَأَرَى فِي قَلْبِهِ مَسْرَاتِيهِ
وَأَسْوِيهِ بِطِينِي مُحَكِّماً	وَأَرَى آزَرَهُ وَالصَّنَمَ ^(٣)

(١) الشَّقِيقَاتُ : جَمْعُ شَقِيقَةٍ وَاحِدَةُ الشَّقَاتِقِ الَّتِي تَسْمَى شَقَاتِقُ النِّعْمَانِ : هُوَ وَحِيدٌ وَإِنْ كَانَ جَمَاعَةً .

(٢) يَرِيدُ إِقْبَالَ نَجِيّاً مُجْنُوناً . وَالْمَجْنُونُ فِي لُغَةِ إِقْبَالَ الْهَيْامِ وَالْإِقْدَامِ إِلَى غَيْرِ حَدٍّ .

(٣) يَكُونُ لَهُ نَاحَتَا كَأَزَرٍ وَيَكُونُ صَنْمًا لَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ تَوَجُّهُ الْعَابِدِ إِلَى الصَّنَمِ .

القسم الثاني
رُمُوزُ نَفِي الدَّات
(أسرار بيخودي)

٢ - رموز بيخودي (أسرار نفي الذات)

باللغة الفارسيّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللّغة الفارسيّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنّها في الحقيقة تفسر ، وتبيّن نفس النظرية ، وتعتبر التّمة للأزمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلّد واحد بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات التي تعيش فيها .
وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ - الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة .

٢ - أركان الأمة الإسلاميّة .

أ - التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصلاً أخرى للتمثيل .

ب - الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصّ قصصاً شتى في

هذا الصّدّد . وأنّ الأمة المحمّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحّدّها مكان ، وأنّ الوطن ليس أساس الأُمّة ، وأنّ الأمة المحمّدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنّ نظام الأُمّة لا يكون بغير القانون ، وقانون أُمّة محمد القرآن ، وأنّ نجاح الأُمّة باتّباع الشريعة الإلهية ، وأنّ حسن سيرة الأُمّة بالتأدّب بالأدّاب المحمّدية .

٣ - حياة الأُمّة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأُمّة الإسلاميّة الحرم .

٤ - الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأُمّة المحمّدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ - توسيع حياة الأُمّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأُمّة أن تحسّ ذاتها كما يحسّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأُمّة .

٦ - بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ - السيدة فاطمة الزهراء أسوةً كاملةً لنساء الإسلام .

٨ - خطاب إلى المسلمين .

٩ - خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ - مناجاة المصنّف الرّسول الذي بُعث رحمةً للعالمين .

ويبيّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنّ « الوطن ليس أساس الأُمّة » فيقول : إنّ العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبين كيف هجر النصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلّ حزب بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعل الملك إلهاً دينه كلّ قبح ناله تحسينه
وزن الحقّ بربع وجدى ولدى الملك خنوعاً مسجداً

صَبَّرَ الحيلة فَنَأَ محكما

فزهـا الباطل مما أعلم^(١)

ويخاطب المرأة المسلمة :

احذري فتنة عصرٍ مهلك

والى صدرك ضمّي وُلدكِ

بُعِدَتْ عن عَشْهـا في خطرٍ

هـذه الأفـراح ، لا تَطِرِ

فيك تسمو للمعالي فطره

فاتبعي الزهراء ، نعمَ الأسوة

علَّ غصناً منك يأتني بِحُسين

فترى النضرة رَوْضَات ذَوَيْنِ

(١) إقبال - للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٣٧ .

جذِّبْنِي الذَّاتِ . لَا تَهَابِ
اجْتَهِدْ ، وَاللَّهُ يَهْدِيكَ الصَّوَابَ
(جلال الدين الرُّومِي)

تمهيد

مهداة إلى الأمة الإسلامية

إيه يا مُنكراً أحاديثَ عشقي	ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي ^(١)
ختمَ اللهُ إليكَ الأُمَمَ	بك حقاً كلَّ بدءٍ خُتِما
كم تقيّ فيك كالرسل مُنيب	وجريح القلب رقاء القلوب
لك طرفٌ بالنَّصارى سُجرا	وعن الكعبة أبعدت الشرى ^(٢)
يا منِ الأفلاكُ من هَبوتِها	« من رنا الكونُ إلى طلعتها » ^(٣)
سرتِ كال موج دُوب السَّفرِ	« أين تبغين مُرادَ النَّظرِ ؟ » ^(٤)
كفَراشٍ في لظى الحبِّ اصبري	وخذي عُشَّكَ بين الشرِّ
أُحْكَمِي العشق بروح قد صفا	جدّدي العهد بحبِّ المصطفى
صحبَةَ النَّصارِينِ قلبي هجرا	حينما وجهك عندي أسفرا
ورفيقي رهنُ حسنِ الآخرين	واصف الطرة منهم والجين

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صُدِّر به الشاعر هذه التقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبةً .

(٣) الأفلاك من الهبة التي أثمرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سَدَّةُ السَّاقِي بِخَدَّيْهِ يَدُوسُ
وَأَنَا فِيكَ قَتِيلُ الْحَاجِبِ
أَنَا مَنْ نَظَمَ مَدِيحَ أَرْفَعُ
كَمْ مَرَايَا صُغْتُهَا مِنْ كَلِمِي
لَا تَرَى الْمَنَّةَ جِيدِي تَأْطِرُ
مُقَدِّمٌ فِي الدَّهْرِ مِثْلَ الْخَنْجَرِ
أَنَا فِي نَارِ الْحَيَاةِ الشَّرُّ
مَنْشَدًا قَصَّةَ غُلَمَانِ الْمَجُوسِ^(١)
وَتُرَابٌ فِي جِمَاكِ الْحَادِبِ
لَسْتُ مَعْنَى لَأَمِيرٍ يَرْكَعُ
فَعَنِي إِسْكَندَرَ تَعْلُو هِمَمِي^(٢)
مَنْ زَهَرَ الرُّوضُ حِجْرِي صَفِيرُ^(٣)
مَنْ قُلُوبَ الصُّخْرِ مَائِي أَمْتَرِي^(٤)
فِي ثِيَابٍ مِنْ رَمَادِي أُسْتَرُ



قَصَدْتُ بَابِكَ رُوحِي فِي خَشُوعٍ
إِنَّ فِي الزَّرْقَاءِ يَمًّا يَقْطُرُ
أَجْمَعُ الْقَطَرِ رِبْعًا جَارِيًا^(٥)
قَدْ حَيَّيْتُ الْحَبَّ مِنْ مَحْبُونَا
قَذَفَ الْعَشَقُ بِقَلْبِي حُرْقًا
وَشَقَقْتُ الصَّدْرَ ، كَالْوَرْدِ لَكَ^(٧)
فِي هَدَايَا مِنْ لَهْيٍ وَدَمُوعٍ
فَوْقَ قَلْبٍ لَا هَبَّ لَا يَفْتَرُ
وَالِى رَوْضِكَ أَزْجِي صَافِيَا
أَنْتِ قَلْبٌ قَدْ ثَوَى فِي صَدْرِنَا^(٦)
صَاغَ مَرَاةَ فَوَادِي الْمُحَرِّقَا
مُدْنِيَا مَرَاتِهِ مِنْ وَجْهِكَ

(١) يعني : أَنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر ألحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النَّصَارَى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدام الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إِنَّ فِي شِعْرِي مَرَايَا كَمَرَاةِ إِسْكَندَر ، فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا .

(٣) يعني : أَنَّهُ لَا يَجْنِي الزَّهْرُ فِي حَجَرِهِ بَلْ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَجْنِيَهُ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ .

(٤) حَذَفَ بَعْدَ هَذَا بَيِّنَاتٍ .

(٥) الرَّبِيعُ : النَّهْرُ الصَّغِيرُ .

(٦) مَحْبُونَا الرَّسُولَ ﷺ .

(٧) يَتَخِيلُ الشُّعْرَاءُ أَنَّ الْوَرْدَ يَمْزُقُ صَدْرَهُ حِينَ يَتَفَتَّحُ ، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ : إِنَّ الْعَشَقَ صَاغَ قَلْبَهُ =

لتنالني نظرة من سحرِك وتُرني مغلولَةً في شِعركِ^(١)
ثم أشدو قِصصاً من أمسك فأذْكي حُرْقاً في نَفْسِكِ

أسأل الحقَّ حياةً تحضِّف لفريقٍ نفسَه لا يعرف
نوائحٍ والليل ساجٍ سادلُ يهَجِّعُ الناسُ ودمعِي هاطلُ
تصطلِّي رُوحِي بحزْنٍ وألم وردُ « يا قَيْتوم » أنسي في الظلم
أملًا في الصدر صيَّرتُ دما ليُرى في أدْمُعِي مُنجمًا
ما احتراقِي كشقيقٍ أبدا فيم أستجدي من الفجر الندى^(٢)
أنا كالشمع دموعي غُسلِي في ظلام الليل أذكي شُعلي
محفلُ الناس بنوري يُشرقُ أنشرُ النُّور ونفسي أحرقُ
ما لناري في الحشا من فترَةٍ ما بأسبوعي فراغُ الجمعة^(٣)
إنَّ رُوحِي في سحيق الجسد آهةً ثوبَ غبارٍ ترتدي^(٤)
مُذْ براني الحقُّ فجرَ الخلقة زلزلت أوتارَ عودي أنْتِي
أنَّةً للعِشق نَفْسي سرَّة آهةً في العِشق تُذكي جمره
تجعل العصفَ لهيباً يُحرقُ وفراشاً من ترابٍ تخلُقُ^(٥)

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرأة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

- (١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزايك ، وتحبي نفسك .
- (٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعِي ندى .
- (٣) أيامه كلها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .
- (٤) روحه آهة والجسد ترابٍ يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .
- (٥) تجعل العصف - وهو الهشيم ضعيف اللهب - ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

في ضمير العشق وَنَسَمٌ كالشَّقَرِ وله وردةٌ وجلدٌ تستعزُّ
 هذه الوردة أَحْبَبُ صَدْرِكَ في سُبَاتٍ منك أذكى حَشْرِكَ
 لأرى في تُربِكَ الروضَ البَينِغِ وبأنفاسِكَ أرواحَ الرِّبِغِ

في معنى ارتباط الفرد والأمة

رحمةٌ للفرد جِجَرُ الأُمَّةِ كاملٌ جوهره في المَلَّةِ
 فالزَمَنُ الجمعَ جهْدَ المستطاعِ في ذُرَا الأحرار كنْ مثلَ الشعاعِ
 واخْفَظْنِ ما قاله خيرُ البشرِ : كلُّ شيطانٍ مِنَ الجمعِ نفرُ
 فَرَدْنِنا مَرَاتِه أُمَّتُه وكذا مَرَاتِها صورُته
 وهما سِلْكُ نظامٍ ودُرُز أو نجومٌ تتجَلَّى في النَّهَرِ^(١)
 قيمةُ الأفرادِ جدوى المَلَّةِ ومن الأفرادِ نظمُ الأُمَّةِ^(٢)
 وإذا الواحدُ في الجمعِ نما كان كالقطرة صارت خِضْرَما
 جُمعَ الماضي له في لُبِّه والتقى الغابرُ والآتي به
 صلةُ الأَمْسِ تراه والغَدِ وقُتِه لا ينتهي كالأبدِ
 هو بالأُمَّةِ قلبٌ طامحُ وهو بالأُمَّةِ سعيٌّ رابحُ
 روحه من قومهِ ، والبدنُ سرُّه مِن قومهِ والعَلَنُ
 بلسانِ القومِ يشدو : منطَقا وَمِنَ الأسلافِ يَقِفُو طُرُقَا
 تُنضِجُ الفطرةَ فيه الضَّحْبَةُ فتراه الفِرْدَ وهو الأُمَّةُ
 تُحَكِّمُ السَّوْحَدَةَ فيه الكثرةُ وهي ، بالسَّوْحَدَةِ فيه ، وحدة^(٣)

(١) نهر المجرة .

(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمة عليها .

(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي =

أفرد اللفظ من البيت ترى
تسقط الأوراق من غصن ينيع
طفئت أنعام أعواد غناء
يحرم الفرد السوحيد المقصدا
تجمع الأمتة شمل المنة
نشأت بالقيد حراً مطلقا
ظيئه الوئاب مسكاً يعبق
أنت لم تعرف «خودي» من «بيخودي»
إن في طينك نوراً قد بدا
كل غم ورضاً من دورته
أنت منه أنت حقاً ، وأنا
يخلق النفس ويذرو ويقر
جوهر المعنى لديه انكسرا^(١)
فترى محرومة وصل الربيع
فاتها من زمزم الأمة ماء
فترى نظم قواه بددا
فيه تحبوه عظيم الهمة
أثبتت في الأرض سزواً بسقا^(٢)
إن حواه من نظام وهق^(٣)
أنت لا ريب من الشك ردي^(٤)
بشعاع منه أبصرت الهدى^(٥)
أنت حي بتوالي ثورته
أنا وهو الفرد لا يرضى ثنا^(٦)
ذو دلالة في خضوع مستر^(٧)

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتمطل معنى اللفظ .

(٢) تقيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبد بل يحره ، وثباته في الجماعة ينمي مثل الشجرة تثبت في الطين فتتمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويعطيه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أن الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه وجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلالة يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يَأْسُرُ الشَّعْلَةَ هَذَا الشَّرُّ
 حَرَّةٌ رَهْنٌ قِيودُ فَطَرْتَهُ
 لِكِفَاحِ دَائِمٍ تَنْزُو قُصَاوَاهُ
 يَسْتَبِيرُ الْحَرْبَ فِي جَلْوَتِهِ
 يَقْطَعُ الْجَبِرَ عَلَيْهِ الطَّرْقَا
 تَشْتَظِلِي الذَّاتُ فِي أَمْتِهَا
 نَكْتَةُ خِذْمَا بِكَفٍّ مِخْدَمٍ
 لَهَبٌ مِنْ حَرِّهِ مُسْتَعْرٌ^(١)
 جَزْوُهُ بِالسُّكُلِ حَاطَتْ قُوَّتُهُ
 هُوَ يُسَمَّى الذَّاتَ أَوْ يُسَمَّى الْحَيَاةَ
 حِينَ يُبْدِي النَّفْسَ مِنْ خُلُوتِهِ^(٢)
 وَلَهُ بِالْحَبِّ فَرْعٌ سَمَقَا^(٣)
 لُتْرَى الرُّوضَةِ مِنْ زَهْرَتِهَا^(٤)
 «وَانصَرَفَ عَنِّي إِنْ لَمْ تَفْهَمْ»^(٥)

فِي مَعْنَى أَنَّ الْمَلَّةَ تَنْشَأُ مِنْ إِخْلَاصِ الْأَفْرَادِ وَأَنَّ تَكْمِيلَ تَرْبِيَّتِهَا بِالنَّبَوَّةِ

مَا ارْتَبَاطُ الْجَمْعِ ، أَنَّى يَوْصَفُ ؟
 إِنَّنَا نَبْصُرُ فَرْدًا فِي الْجَمِيعِ
 فِطْرَةٌ تَنْهَجُ نَهْجَ الْوَحْدَةِ
 كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ اتْتَلَفَا
 قِصَّةٌ أَوَّلُهَا لَا يُعْرِفُ
 زَهْرَةٌ نَقْطِفُ فِي هَذَا الرَّبِيعِ^(٦)
 إِنَّمَا تَزْهَرُ وَسَطَ الرُّوضَةِ
 مِثْلَ دُرٍّ فِي سُمُوطِ الْفَا
 لَقَّهَمَ فِي عَيْشِهِمْ مَعْتَرَكُ
 كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ مُمَسِّكُ

- (١) شَرُّ صَغِيرٌ ، وَلَكِنَّهُ كَبِيرٌ فِي مَعْنَاهُ يَقْوَى عَلَى الشَّعْلَةِ الْكَبِيرَةِ .
- (٢) يَظْهَرُ مِنْ خُلُوتِهِ أَيَّ يَبْدُو فِي الْكُونِ فَيُشِيرُ حَرْبِيًّا هِيَ جِهَادُ الْحَيَاةِ الدَّائِمِ .
- (٣) الْجَبَرُ وَالْإِكْرَاهُ يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَهُوَ بِالْحَقِّ وَالْإِخْتِيَارِ يَنْمُو وَيَعْظُمُ .
- (٤) تَفَرَّقَ الذَّاتُ نَفْسَهَا فَتَنْمُو مِنْ زَهْرَتِهَا رَوْضَةً ، أَيَّ : تَعْظُمُ وَتَكْثُرُ بِهَذَا التَّفْرِيقِ .
- (٥) هَذَا الشَّطْرُ مِنَ الْمَثْنَوِيِّ لِجَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ .
- (٦) مَذْهَبُ إِقْبَالٍ أَنَّ غَايَةَ الْجَمَاعَةِ سَعَادَةُ الْفَرْدِ ، وَأَنَّ الْفَرْدَ لَا يَفْنَى مِنْ أَجْلِ الْجَمَاعَةِ .

من جذاب تتوالى الأنجمُ كوكبٌ من كوكبٍ مستحکمُ

كان ركبُ النَّاسِ مأواهُ الجبالِ نسجهُ ما أحكمتْ لُحْمَتُهُ
عودُهُ ما بلحونٍ رَتَمَا لم يُثِرْهُ مِنْ رجاءٍ مضربِ
محفلٍ عُقلِ حديثِ المولدِ محفلٌ عُقلِ حديثِ المولدِ
لم يُرعرِغْ في ثراهِ نجمُهُ لم يُرعرِغْ في ثراهِ نجمُهُ
فكره دارٌ لغيلانِ الخيالِ فكره دارٌ لغيلانِ الخيالِ
ذو وجودٍ ضيقٍ ميدانُهُ ذو وجودٍ ضيقٍ ميدانُهُ
طينُهُ من خيفةٍ قد خلَقَا طينُهُ من خيفةٍ قد خلَقَا
روحُهُ من كلِّ صَغْبٍ تهرُبُ روحُهُ من كلِّ صَغْبٍ تهرُبُ
كل ما ينمو بأرضٍ يقطفُ كل ما ينمو بأرضٍ يقطفُ

ثم يهدي الله ذا قلبٍ بصيرٍ ثم يهدي الله ذا قلبٍ بصيرٍ
عازفٌ في كلِّ نفسٍ ينقُثُ عازفٌ في كلِّ نفسٍ ينقُثُ
تقبسُ السدرةُ مِنْ أنوارهِ تقبسُ السدرةُ مِنْ أنوارهِ
ينشرُ الأنفسَ مِنْه نَفْسُ ينشرُ الأنفسَ مِنْه نَفْسُ

(١) المضروب ما يضرب به أوتار العود .

(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .

(٣) النجم : النبات الذي لا ساق له .

(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفةٌ تُحيي وعينٌ تجذبُ وَحَدَا الْأَشْتَاتَ هَذَا عَجَبٌ^(١)
يَهَبُ النَّاسَ جَدِيدَ النَّظَرِ يَجْعَلُ الْيَدَ كَرُوضٍ نَفِيرٍ^(٢)
فَتَرَى الْأُمَّةَ مِنْهُ سَائِرَهُ بِلَهَبٍ مِنْهُ حَرَّى نَائِرَهُ
شُرّاً فِي قَلْبِهَا قَدْ أَشْعَلَا فَأَحَالَ الطَّيْنَ فِيهَا شُعْلَا
سِيرُهُ يَعْطِي التَّرَابَ الْبَصْرَا فَلِذَا الذَّرَّةُ سَيْنَاءَ تَسْرَى^(٣)
عَارِيَّ الْعَقْلَ بِجَدْوَاهِ كَسَا وَهَبَ الثَّرْوَةَ هَذَا الْمَفْلِسَا^(٤)
يَنْفُخُ الْجَمْرَةَ فِي مَوْقِدِهِ وَيَذِيبُ الْغِشَّ مِنْ عَسْجَدِهِ^(٥)
وَيَفْكَ الْعَبْدَ مِنْ أَغْلَالِهِ وَيُجِيرُ الْقَنَّْ مِنْ أَقْيَالِهِ
قَائِلًا أَنْ لَسْتُ عَبْدًا فَاعْلَمْ أَتَرَى قَدْرَكَ دُونَ الصَّنَمِ^(٦)
يَجْذِبُ الْإِنْسَانَ شَطْرَ الْمَقْصَدِ جَاعِلَ الشَّرْعِ زَمَامًا فِي الْيَدِ
نَكْتَةَ التَّوْحِيدِ يُوْحِيهَا إِلَيْهِ أَدَبَ الطَّاعَةِ يَمْلِيهِ عَلَيْهِ^(٧)

- (١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفس واحدة .
(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، قرب حسن بصير قبيحاً ، وقبيح بصير حسناً .
(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .
(٤) العقل عريان مفلس حتى يمدّه الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .
(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .
(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .
(٧) يقيدّه بالشرعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فتري الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمة الإسلامية

الركن الأول : التوحيد

طَوَّفَ الْعَقْلُ بِدُنْيَا الْعِلَلِ
أَعْوَزَ الْمَنْزِلُ هَذَا السَّابِلَا
فِي « آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا » مُضْمَرُ
يَبْتَلِي التَّوْحِيدُ فِيكَ الْعَمَلَا
يُشْرِقُ الدِّينُ بِهِ وَالْحِكْمَةُ
قَدْ تَجَلَّى حَيْرَةً لِلْعَالَمِينَ
يَرْتَقِي فِي ظِلِّهِ الْمُتَضِعُ
يَجْتَبِي التَّوْحِيدُ عَبْدًا ثَابِرًا
فَهُوَ فِي الْحَقِّ حَيْثُ دَائِبُ
رَبُّهُ يَفْنَى وَيَحْيَا الْعَمَلُ
فِي « مَقَامِ الْعَبْدِ » إِنْ تَثَبَّتْ قَدَمُ
« لَا إِلَهَ » السُّرُوحُ فِي أَمْتِنَا
« لَا إِلَهَ » السُّرُّ فِي أَسْرَارِنَا
صَارَ قَلْبًا إِنْ حَوَاهَا حَجَرُ
يَتَلَفَّضُ الْكَوْنُ مِنْ زَفَرَتِهَا
وَتُسِيلُ الْقَلْبَ مَاءٌ فِي الصَّدُورِ

قاده التَّوْحِيدُ شَطْرَ الْمَنْزِلِ
زَوْرَقُ الْفِكْرِ أَضَلَّ السَّاحِلَا
رَمَزُ تَوْحِيدِ لِقَلْبٍ يُبْصِرُ^(١)
فِيَجْلِي لَكَ سِرًّا أَغْفِلَا
وَيُرَى الْأَيْدُ بِهِ وَالْمُكْنَةُ
وَتَجَلَّى عَمَلًا فِي الْعَاشِقِينَ
وَيَصِيرُ الثَّرْبُ تِبْرًا يَسْطَعُ
فِرْدُ الْعَبْدِ خَلْقًا آخِرَا
دُمُهُ كَالْبَرْقِ فِيهِ لَا هُبُ
عَيْنُهُ فِي الْكَوْنِ يَقْطِي تَعْمَلُ
جَرَّةُ السَّائِلِ تُصْبِحُ جَامَ جَمِ^(٢)
« لَا إِلَهَ » اللَّحْنُ فِي نَعْمَتِنَا^(٣)
« لَا إِلَهَ » السَّمْطُ مِنْ أَفْكَارِنَا
كُلُّ قَلْبٍ لَمْ تُتْرَهِ ، مَدْرُ
وَيُضِيءُ الْقَلْبُ مَنْ وَقَدْتَهَا
تَصْهَرُ الْمَرَاةُ مِنْهُ فِي الْخُرُورِ

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جشميد .

(٣) تقدّم أنَّ « لَا إِلَهَ » اختصار كلمة التوحيد .

شعلة في روحنا مثل الشقيق
 بئس التوحيدُ مُسودَّ البشر
 ليس إلا القلب قربُ وابتعاد
 وحدة القلب قوامُ الأمة
 قد هدى الأمة سُبُلَ العمل
 نزعاً واحدةً في قلبها
 لا يُجيد الفكرُ في قيثاره
 نحن في الإسلام أبناء الخليل
 أممٌ قد عادت أوطانها
 أتري الأوطان أصل الأمم
 إنما الأنسابُ فخرُ السفهاء
 ضمنا في الحق أسً آخر
 قد خلصنا من حدودٍ وقيود
 ضمنا ، كالزهر ، نظم مضمُر
 وحَّد الرئي لنا والفكرة
 نحن فكرٌ وخيالٌ واحد
 نحن من نعمائه حلفُ إخاء

كل ما نمتاره منها الحريق
 فأبو بكر أخوه وعمر
 وهذه الكأسُ بها هاجَ الفؤاد
 أشرقَت سيناء من ذي الجلوة
 هذه الفكر بها والأمل
 فعيارُ الحُسن والقُبْح بها
 دون نارِ الحق في أوتاره^(١)
 من « أبيكم » خذ إذا شئت الدليل^(٢)
 وبنث من نسبِ بنيانها
 تُعبد الأرضُ بها كالصنم؟
 حُكمها في الجسم ، والجسمُ هباء
 هو في الأبواب منّا مُضمَر
 قلبنا في الغيب إذ نحن شهود^(٣)
 بصُرٍ ليس يراه مُبصر^(٤)
 كسها من جمعتهَا جعبة^(٥)
 ورجاءٌ ومآلٌ واحد
 قلبنا والروح واللفظ سواء

-
- (١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقه الإيمان .
 (٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ يَلِّغْ أَيْسُكُمْ بِرُؤُوسِهِمْ ﴾ [الحج : ٧٨] .
 (٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحسن بل هي منصلة
 بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .
 (٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .
 (٥) الرئي : المظهر .

في معنى أَنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث^(١)

وقاطعاتُ طريق الحياة ، وَأَنَّ في التوحيد دواءً هذه

العلل الخبيثة

عُدَّة الموت فُتُوْطُ مُحْبِطُ	والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا » ^(٢)
إنما العيشُ رجاءٌ يُوصِلُ	فقنوطُ الحيِّ سَمٌ يَقْتُلُ ^(٣)
يأسُك القبرِ إليه ترجع	إن تكن أَلُوْنَدَ فهو المصرع ^(٤)
رُبَّت الخيبة في أكنافه	ونما العجز على أَلطافه ^(٥)
أَوْ مَنْ نَوم الحياةِ المُخْدِرِ	إنَّه آيَةٌ ضَعْفِ العنصر
كحلُّه في العين يُعمي البصرا	ويردُّ الصُّبْحَ لَيْلاً أَكْدِرا ^(٦)
نفسٌ منه سَمُومٌ للحياه	كُلُّ يَنْبوع به جَفٌّ ثِراء
وهو للغمِّ حليفٌ واصلُ	إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتِلُ
يا سجينَ الغمِّ أَبْصِر واسمع	من رسول الله « لا تحزن » وعي ^(٧)
ذلك النَّصْحَ سَرى في قلبه	فغدا الصُّدِيقُ صَدِيقاً بِهِ
نما المسلم مثل الكوكبِ	باسمٍ في سعيه والدَّابِ

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) أَلُوْنَدَ : جبل عال مشرف على مدينة همدان يعني : إن تكن كجبل أَلُوْنَدَ في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، ويفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجعلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حَرِّرِ النَّفْسَ مِنَ الْغَمِّ وَدَعْ
 قُوَّةَ الْإِيمَانِ تُحْيِي فاعلمن
 قلبه من « لا تخف » قلب سليم
 خوف غير الله قتل العمل
 وبه العزم يخاف الغير
 من نما ذا البذر يوماً في ثراه
 فهو فسل وهو شاد يغزف
 يسرق الرجل قوى تسيارها
 إن تجلّى لعدو خوفك
 سيفه يزداد فتكاً في اليد
 غلنا الخوف ، وكم في بحرنا
 إن أبى النعمة يوماً مزهرك
 فاعزك الأذن يثر فيه الغناء
 كل شر في فؤاد يضمُر
 من ديار الموت عين قديما
 عينه تلييس أثار الحياة
 يزهر الخب به والمليق

إن عرفت الله ، أغلال الطمغ
 وزد « لا خوف عليهم » فاقران^(١)
 حين يمضي نحو فرعون كليم^(٢)
 وهو لأحياء قطع السبل
 وترى المقدام منه خذرا
 حرمته من تجليها الحياة
 يد سللت وقلب يرجف
 يسلب الرأس قوى أفكارها
 هان كالورد ، عليه قطفك
 عينه فيك حسام لا يدي^(٣)
 من عباب مائج في دهرنا
 فمن الخوف تندى وترك
 ويهر اللحن آفاق السماء
 أصله الخوف ، إذا ما تبصر
 مثل ميم الموت قلب أظلم^(٤)
 أذنه تدليس أخبار الحياة^(٥)
 ونفاق القلب منه يورق

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .
- (٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .
- (٣) لا يؤدي دية من قتله .
- (٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .
- (٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

شوبه للزُّور سترٌ والريِّبُ حِجْرُهُ الفتنَةُ فيه والحربُ
حُرِّمَ الخوفُ طُمُوحَ الهِمَّةِ فهو خَدْنٌ لحليف السَّدَّةِ
كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى يجدُ الإِشْرَاكَ في الخوفِ اختفى

محاورة السَّهم والسَّيف

قال سهمٌ مرهفٌ يوم الزَّحَامِ قال للسَّيف وللحرب ضرامُ
يا من الجَنَّةِ في أعطافه ذو الفقار العضبُ من أسلافه ^(١)
خالداً صاحبتَ يَفْرِي الفيلَقَا وعلى الشَّام نثرتَ الشِّفَقَا ^(٢)
نارُ قهر الله في جوهرِكا جَنَّةُ الفردوسِ مأوى ظَلُكا !
إنني في الجوّ أو في جَعْبتي حيثما كنت ، بجسمي شُعلتي
وإذا القوس رمتني للثُّبور بَصُرْتُ عيني بأحناء الصُّدور :
إن خلا الصَّدْرُ مِنَ القلبِ السَّليمِ ما به يأسٌ ولا خوفٌ مقيمُ
نَفَذَ النَّصْلَ خِلَالَ الأعْظَمِ فكسوتُ الجسمَ درعاً من دمِ
وإذا حَلَّاهُ قلبٌ مؤمِنُ نوره الظَّاهرُ ممَّا يُبْطِنُ
ذاب رُوحِي من فؤادٍ وَقدا وهمي نِصْلي كقطرات النَّدَى

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشِّفَقَا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قَصَّةُ

السُّلْطَانُ عَالِمَكِيرُ وَالْأَسَدُ^(١)

إِنَّ عَالِمَكِيرَ عَالِي الْمَنْزِلِ	مَنْ بَنِي تِيْمُورِ فَخْرِ الدُّوَلِ
كَانَ لِلْإِسْلَامِ مِنْهُ عِزَّةٌ	وَلِحُكْمِ الشَّرْعِ فِيهِ حُرْمَةٌ
آخِرُ الْأَسْهَمِ فِي جُعْبَتِنَا	فِي ذِيَادِ الْكُفْرِ عَنْ مِلَّتِنَا
غَرَسَ الْإِلْحَادَ فِينَا أَكْبَرُ	فَنَمَا فِي طَبْعِ دَارَا يُزْهِرُ ^(٢)
وَحَبَا فِي الصَّدْرِ مَصْبَاحُ الْفَوَاذِ	وَبَدَتْ أَمْتِنَا رَهْمَنْ فَسَادُ
فَتَوَلَّى الْهِنْدَ فِي ذِي الْمَحْنَةِ	زَاهِدُ رَبِّ حَسَامٍ مُصْلَتِ
اجْتَبَاهُ الْحَقُّ لِلدِّينِ الْمِيْنِ	اجْتَبَاهُ أَجَلَ تَجْدِيدِ الْيَقِيْنِ
أَحْرَقَ الْإِلْحَادَ مِنْ بَرْقِ الْحُسَامِ	وَأَنَارَ الدِّينَ فِي هَذَا الظَّلَامِ
حَرَّفَ الْجُهَّالُ عَنْهُ مَا جَرَى	فَكَرُّهُمْ عَنْ قَصْدِهِ قَدْ قَصُرَا
كَانَ إِبْرَاهِيمُ بَيْتَ الصَّنَمِ	فِي لُظَى الْحَقِّ فَرَاشاً يَرْتَمِي
كَانَ فِي الْأَمْلَاكِ فَرْداً خَيْرَا	زَهْدُهُ مِنْ قَبْرِهِ قَدْ ظَهَرَ ^(٣)

- (١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً بحدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩ هـ إلى سنة ١١٤٨ هـ ، انظر ترجمته في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .
- (٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دين سماه الدين الإلهي ، وكان يتقرب إلى الهنالك ، ويرعى شعائهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .
- (٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجه . فلما ولي عالمكير لم يبين لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجه في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكم المَلِكُ الفقير الجاهد
 سار صباحاً مُوغلاً في غَيْضة
 في نسيم الصبح نشوانَ خَطَرٍ
 وَاَمَحَى السُّلْطَانُ في شوق الصلاة
 وَاَتَى لَيْثٌ مَهِيْبٌ فَتَكَ
 شَمَّ رِيحَ الْإِنْسِ بُعْداً فِدْنَا
 فإِذَا الْخَنْجَرُ مِنْهُ فِي الْيَدِ
 لَمْ يَفْرَعْ قَلْبُهُ بِالْبَغْتَةِ
 ثُمَّ لِلْحَقِّ دَعَا الْوَلَدُ
 مِثْلَ ذَا الْقَلْبِ الَّذِي لَمْ يَهِنْ
 إِنَّمَا الْعَبْدُ أَمَامَ الْحَقِّ « لَا »
 أَيُّهَا الْغَافِلُ ! قَلْباً حَضَّالاً
 ابْذُلِ النَّفْسَ تَنْلُهَا لَا مَفْرَ
 أَحْرَقْ بِالْعَشْقِ خَوْفاً وَانْهَذَا
 إِنَّ خَوْفَ اللَّهِ إِيْمَانٌ جَلِي

زينة العرش المليك الماجد^(١)
 معه مِنْ جُنْدِهِ ذُو ثِقَةٍ
 سامعاً تسييح طيرٍ في الشجر
 مِنْ مَجَازِ حَتٍّ لِلْحَقِّ خُطَاهُ
 صَوْتُهُ يَرَعْدُ مِنْهُ الْفَلَكُ
 وَعَلَى السُّلْطَانِ أَهْوَى الْبُرْتُنَا
 بِاقْرَأْ كَالْبَرْقِ بَطْنَ الْأَسَدِ
 خَالَ لَيْثُ الْغَابِ لَيْثُ الصُّورَةِ^(٢)
 فِي صَلَاةِ الْوَجْدِ مَعْرَاجٌ لَهُ^(٣)
 دَارُهُ بِالْحَقِّ صَدْرُ الْمُؤْمِنِ
 وَهُوَ لِلزُّورِ « نَعَمْ » لَنْ يَيْطُلَا^(٤)
 هَيْئَتُنِ لِلْحَبِّ هَذَا الْمَحْمَلَا^(٥)
 ذَلٌّ لِلْحَقِّ تَنْلُ عِزَّ الدَّهْرِ
 حَمَلًا فِي الْحَقِّ لَيْثًا لِلْعَدَى
 ثُمَّ تَقْوَى غَيْرُهُ شَرَكٌ خَفِي

-
- (١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .
 (٢) توهم الليث صورة ليث .
 (٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرة أخرى .
 (٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العربيَّان « لَا » ، و « نَعَمْ »
 في الأصل .
 (٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثاني

الرسالة

تارك الآفل ، من قبل الخليل
إنه لله فينا آية
﴿ طهرا بيتي ﴾ إليه أنزلا
قفرة من أجلنا قد عمرا
﴿ تب علينا ﴾ نضرت زهرتها
صور الرحمن منا هيكلا
أحرفاً كنّا ولّسنا كلّما
بالرسالات بدا تكويننا
ذاك من « يهدي إليه من يريذ »
حلقة ذات محيط يعجز
نحن ممّا جمّعنا أمّة
موجنا في بحرهما متصل
أمة في حرز سور الحرم

هو للرّسل على النهج دليل
رُيئت في قلبه ذي الملة
بعد سيل من دموع سيل^(١)
وبنى البيت الذي قد طهرا
فتمت في أرضنا روضتها^(٢)
وحياه الروح ممّا أنزلا
فتألّفنا كييت نظمنا
شرعنا منها ومنها ديننا
حلقة منها حوالينا يشيد^(٣)
ساحة البطحاء فيها مركز^(٤)
أرسلت للناس فيها الرحمة
موجة من موجة لا تفصل
في حفاظ مثل أسد الأجم^(٥)

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرَادْنَا مَا سِئَلَاكَ رَبُّكَ وَعَبَّادَاتٍ بَيْنَ يَدَيْكَ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاهُ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَرِئُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(٤) بطحاء مكة .

(٥) إشارة إلى بيت البردة :

أحلّ أمته في حرز ملته كالليث حلّ مع الأشبال في أجم =

إِنْ تَحَقَّقَ مَعْنَى فِي كَلِمِي
فَالنَّبِيُّ الرُّوحَ فِينَا وَالْعَصَبُ
سِفْرُهُ فِي الْقَلْبِ نَبْعُ الْقُوَّةِ
قَطْعُ جَبَلٍ مِنْهُ لِلْمَوْتِ رَدِيفُ
حَيَاتِ الْأُمَّةِ مِنْ تَرْيَاقِهِ
وَحَدَّ الْمُرْسَلُ فِينَا النِّعْمَا
كَثْرَةُ الْأَلْفِ عَيْنِ الْوَحْدَةِ
وَحَدَّةُ الْقَصْدِ حَيَاةُ الْكَثْرَةِ
عَلَّمَ الْفَطْرَةَ خَيْرُ الرُّسُلِ
بِحَرْهُ أَخْرَجَ هَذَا الْجَوْهَرَ
هَذِهِ الْوَحْدَةُ مَا لَمْ تَفْقِدِ
خَتَمَ اللَّهِ عَلَيْنَا شِرْعَتَهُ
مَحْفَلُ الْأَيَّامِ مِنْهَا يَبْسُمُ
خِدْمَةُ السَّاقِي إِلَيْنَا صَرْفًا
« لَا نَبِيَّ بَعْدُ » فَضَّلْ عُرْفًا
إِنَّهُ قُوَّةٌ هَذِي الْمَلَّةُ
كُلُّ دَعْوَى بَعْدَهَا لِلْأَقْنِ
مَا سَوَى الْحَقِّ قِلَاهُ الْمُسْلِمُ

نَظَرَةُ الصُّدَيْقِ رَبِّ الْفَهَمِ
وَإِلَى الْقَلْبِ مِنَ الرَّبِّ أَحَبُ
شَرَعُهُ حَبْلُ وَرِيدِ الْأُمَّةِ
كَذْبُولِ الْوَرْدِ فِي رِيحِ الْخَرِيفِ
صُبْحُهَا نَوَّرَ مِنْ إِشْرَاقِهِ
وَالطَّوَايَا وَالْمُنَى وَالْأَلْمَا
وَمِنْ الْوَحْدَةِ نَشَأَ الْأُمَّةُ^(١)
مَقْصِدُ الْمُسْلِمِ دِينَ الْفَطْرَةِ
فَمُضِينَا لِلْهُدَى كَالشُّعْلِ
نَحْنُ رَوْحٌ وَاحِدٌ مِنْهُ سَرَى
تَحْفَظُ الْمُسْلِمَ حَتَّى الْأَبَدِ
وَعَلَى الْمُرْسَلِ فِينَا بَعَثَهُ^(٢)
خَتَمَ الرُّسُلِ بِنَا وَالْأُمَمُ
جَمَامَهُ الْآخِرَ فِينَا خَلْفًا
إِنَّهُ حَرَمَةٌ دِينَ الْمُسْطَفَى^(٣)
إِنَّهُ سِرُّ اتِّحَادِ الْأُمَّةِ
أَحْكَمَ الْإِسْلَامُ طَوْلَ الزَّمَنِ
قَائِلًا : « لَا قَوْمَ بَعْدِي » فَاعْلَمُوا

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا اتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعينَا لطاعته بأكرم الرسل كنَّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

في بيان أن مقصود الرسالة المحمدية تمكين الحرية والمساواة والأخوة بين البشر

عبد الإنسان أصنام البشر قيصر العسف وكبرى قيذا ومن القيس والملك طلاب نصب الأثراك للصيد الضرع حقله قد عاث فيه البزهمن أضعف الرق لديه الهمما	فهو في عذم وذل محتقر منه جيداً ثم رجلاً ويدا بخراج الحقل ، والحقل خراب بائع الجنة أسقف الخدع ومجوس أحرق ما قد خزن لحنه في عوده سال دما
--	---

وأميناً بعث المولى به رفع العبدان بالحق إلى بت في برد الرماد الشعلا سلب السلطان حزب الأمرين عزمه هد قديمات الضور بت روحاً حيث الموتى بها مولد مات به العصر القديم أزهر التحرير في روضته عصرنا اللالاء في أنواره خط في العالم سطرأ مبدا	سلم الحق إلى أصحابه سُرر الخاقان والرؤر قلى فعلى برويز فرهاد علا^(١) فسما بالحق قدر العاملين وبنى حصناً جديداً للبشر وافتدى الأعد من أربابها ويوت النار والوثن حطيم هذه الصهباء من كرمته فتح الأعين في أحجاره^(٢) أمة فاتحة قد أبدعا
---	---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسي له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صدرها من وقدة الحق أضاء
أشرق الكون بها إذ يتنى
ولدتها الأنبياء القدم
إخوة فيها جميع المؤمنين^(١)
المساواة لديها فطرة
نسلها كالسرو حرّ قد علا
سجدة الحق بسماها غرر
ذرة منها أنارت في ذكاء
كعبات من يوت الوثني
فإذا الأتقى لديها الأكرم
طينها حربة في العالمين
ومن التمييز فيها نفرة
عهدها أحكم من ﴿ قالوا بلى ﴾^(٢)
قبل النجم ثراها والقمر

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوة الإسلامية^(٣)

مسلم في حومة الحرب أسر
قائد ربّ خداع ماکر
لم يعرف أسريه باسمه
قال للاسر : يا ذا الكرم
وضع الجندي في الغمد الحسام
وخبث في الحرب نيران العجم
فإذا المأسور جابان الكبير
قائداً من جيش كسرى ذا خطر
عجم الأيام ذنب غادر
أو يحدث أحداً عن اسمه
أمتني . ذاك شأن المسلم
معلننا أن دمك اليوم حرام
وهوى من آل ساسان العلم
قائد في جند إيران أمير

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسي .

أقبل الجند بصوتٍ قارِع يسأل القائد قتل الخادع
 بُوعبيد قائد العُزْب الأبِي عزمه في الحرب عن جيش غني^(١)
 قال يا قوم : ألسنا المسلمين نعمةً واحدةً في العالمين
 من أبي ذرٍّ علث أو حيدر من بلالٍ سُمعتُ أو قنبر^(٢)
 كلُّ جنديٍّ أمينُ المَلَّةِ صلحُه والحربُ عهدُ الأُمَّةِ
 إنَّ جابانَ عدوٌّ غَشِمُ لكنَّ الأمنَ حَباهِ مسلمُ
 دُمُه اليومَ عليكم حُرِّمًا أمةُ المختار ! أوفوا الذِّمَّما

قصة

السلطان مراد والعمَّار^(٣)

في معنى المساواة الإسلامية

أخرجتُ أرضُ حُجندٍ صانعا نال في التشييد صيتاً ذائعاً
 صانعاً فرهادُ حقاً ولداً لمراد مسجداً قد شَيِّداً^(٤)
 غضب الشُّلطان من تقصيره لم يرَ الإتقانَ في تعميره
 قدَحَت عينُ المليك الشُّررا ويدَ المسكين فوراً بترا
 سار للقاضي حزيناً يجار دُمُه من يده يَنْهَمِرُ
 قال : يا مَنْ قولُه الحقُّ المبين ! يا حفيظاً شرعَ خيرِ المرسلين !

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .

(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نعمة ينطق بها بلال ، أو قنبر

هي نعمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .

(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لَسْتُ لِلْسلْطَانِ عَبْدًا فَاسْمَعْ
 قِرْعَ الْحَاكِمِ سِرِّ الْمُبْلِسِ
 فَأَتَى السُّلْطَانُ يَخْشَى ذَنْبَهُ
 عَيْنُهُ مِنْ خَجَلٍ لِلْقَدَمِ
 وَقَفَ الْخَصْمَانِ : خَصْمٌ يَشْتَكِي
 جَهْرَ السُّلْطَانِ : إِنِّي نَادِمٌ
 وَتَلَا الْقَاضِي : « حَيَاةٌ فِي الْقَصَاصِ »
 لَيْسَ دُونَ الْحُرِّ عَبْدٌ مُسْلِمٌ
 سَمِعَ الْقُرْآنَ يُمْلِي حُكْمَهُ
 إِذْ رَأَى الْخَصْمُ الَّذِي قَدْ فَعَلَا
 قَائِلًا : « اللَّهُ أَعْفُو وَكَفَى
 نَمْلَةً عَزَّتْ سُلَيْمَانُ الْقَوِي
 جَمَعَ الْقُرْآنُ مَوْلَى وَفَتَاهُ
 حَكَّمَ الْقُرْآنَ فِينَا وَاقْطَعْ ^(١)
 وَدَعَا السُّلْطَانُ نَحْوَ الْمَجْلِسِ
 هَيْئَةُ الْقُرْآنُ تُدْمِي قَلْبَهُ
 وَعَلَى خَدَّيْهِ لَوْنُ النَّدَمِ
 وَخَصِيمٌ فِي ثِيَابِ الْمَلِكِ
 لَا أَرُدُّ الْحَقَّ إِنِّي جَارِمٌ
 ذَاكَ قَانُونُ حَيَاةٍ . لَا مَنَاصَ
 وَخَدَّ الْمَعْمَارِ وَالْمَلِكِ دَمٌ
 فَضَا السُّلْطَانُ فَوْرًا كَمَّه ^(٢)
 آيَةُ « الْإِحْسَانُ وَالْعَدْلُ » تَلَا ^(٣)
 إِنِّي أَعْفُو لِأَجْلِ الْمُصْطَفَى
 أَنْظِرْنِي سَطْوَةَ قَانُونِ النَّبِيِّ
 وَذَوِي التَّيْجَانِ سَوَى بِالرَّعَاءِ

فِي بَيَانِ أَنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مُؤَسَّسَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ فَلَا تَحْدُهَا الْأَمْكَنَةُ

قَلْبِنَا الْخَفَّاقُ يَا أَبَى مَوْطِنَا رِيحُهُ الْعَاصِفُ تَأْبَى مَسْكِنَا ^(٤)

(١) اقْطَعْ يَدَ السُّلْطَانِ قَصَاصًا .

(٢) شَمَّرَ كَمَّهُ اسْتِعْدَادًا لِقَطْعِ يَدِهِ .

(٣) آيَةُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] الْقَطْعُ عَدْلٌ ؛ وَالْعَفْوُ إِحْسَانٌ .

(٤) حَذَفَ قَبْلَ هَذَا آيَاتٍ فِيهَا حَدِيثُ وَفْعَةٍ كَرَبْلَاءَ .

لَيْسَ مِنْ هِنْدٍ وَرُومٍ قَلْبُنَا
 كَعَبِّ الشَّاعِرِ فِي خَيْرِ الْعِبَادِ
 نَظَّمِ الدُّرَّ مَنِيرًا فِي ثَنَاهِ
 مَنْ عَلَى الْأَفْلَاكِ فِيهِ رَفْعَةٌ
 قَالَ : سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ قُلٌّ
 وَكَذَا كَمْ قَالَ ذُو الْقَدْرِ الْعَلِيِّ
 لِي مِنْ دُنْيَاكُمْ قَدْ حُبِّبَا
 إِنْ تَكُنْ سِرًّا الْمَعَانِي تَعْلَمُ
 كَانَ فِي الدُّنْيَا وَفِيهَا مَا سَكَنُ
 مِنْ سَنَاهِ قَدْ تَجَلَّى الْعَالَمُ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا حِمَاهُ وَالْوَطَنُ
 قَدْ رَأَى فِي أَرْضِنَا دُنْيَا لَنَا
 إِذْ أَضَعْنَا الْقَلْبَ فِي هَذَا الْبَيْتِ
 لَا تَحُدُّ الْأَرْضُ قَلْبَ الْمُسْلِمِ
 لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ فِي الْأَرْضِ عَطَنُ

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد قلبي اليوم مثبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ مَسْلُوكُ
 (٣) إشارة إلى الحديث : « حُبَّ إِلِي مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ ... » إلخ . لم يقل الرسول من
 دُنْيَايَ ، أَوْ دُنْيَانَا بَلْ قَالَ : دُنْيَاكُمْ .

(٤) سَكَنَ الْإِنْسَانُ : مَنْ يَسْكُنُ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ ، أَوْ صَدِيقٍ .

(٥) لَا يَتِيهِ فِي عَالَمِ الْعُلَلِ وَالْمَقَادِيرِ .

(٦) يَقُولُ إِقْبَالَ فِي دِيْوَانِ ضَرْبِ الْكَلِيمِ :

إِنَّمَا الْكَافِرُ حَيْرًا نَ لَهُ الْآفَاقُ تَبِيه
 وَأَرَى الْمُؤْمِنَ كَوْنًا تَاهَتِ الْآفَاقُ فِيهِ =

حَصَّلَ الْقَلْبَ فِيهِ وَشَعَتِهِ
عَقْدَةُ الْأَقْوَاتِ حَلَّ الْمُسْلِمُ
أُمَّةً مَلَأَ الدُّنْيَا قَدْ أَسَّأَ
صَارَتْ الْأَرْضُ لَدِينًا مَسْجِدًا
ذَلِكَ الْمَحْمُودُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
تَفَزَّعُ الْأَعْدَاءُ مِنْ هَيْبَتِهِ
فَلَمَّاذَا أَرْضَ أَهْلِيهِ هَجَزَ؟
حَجَبَ الْقَضَا صُ مَعْنَى الْقَضَا
هَجَرَةً شَسَزُ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ
إِنَّهَا التَّيْبَارُ نَحْوُ الْوُسْعَةِ
أَهْجَرَ الزَّهْرَةَ أَجَلَ الرُّوضَةِ
شَرَفُ الشَّمْسِ مَسِيرٌ مَطْلُوقُ
لَا تَكُنْ نَهْرًا مِنَ الشُّخْبِ يُمَدِّ
اقْصِدْنَ تَسْخِيرَ كُلِّ الْعَالَمِ
لَا يَقِيدُكَ مُقَامٌ فِي الْوَرَى
كُلُّ مَنْ حُرِّرَ مِنْ ذُلِّ الْجِهَاتِ
تَرَكَ السُّورَةَ شَذَاهُ فَسَرَى
يَا أَسِيرًا قَدْ ثَوَى فِي رَوْضَةٍ
سَيَّرَنُ نَفْسَكَ حَرًّا كَالطَّيْبِ

ضَلَّ هَذَا الْكُونُ فِي فُنْحَتِهِ
هَجَرَ الدَّارَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ^(١)
جَعَلَ التَّوْحِيدَ فِيهَا أَسَا
إِذَا أَشَاعَ الْفَضْلَ فِينَا وَهَدَى
ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ بِاللَّهِ الرَّحِيمِ
فِي ارْتِعَادٍ مِنْ سَنَا طَلْعَتِهِ
أَتَرَاهُ خَشْيَةَ الْأَعْدَاءِ فَرَّ؟
غَلَطُوا فِي فَهْمِ مَعْنَى الْهَجَرَةِ
هَجَرَةً سَرُّ ثَبَاتِ الْمُسْلِمِ
وَلَأَجَلَ الْيَسْمِ تَرَكَ الْقَطْرَةَ^(٢)
إِنَّ هَذَا الْخُسْرَ رِبْحُ الْكَثْرَةِ
فِيهِ مِنْ فَوْقِ الْبَرَايَا تَخْفُوقُ
وَكُنِ الْبَحْرَ ، عُبَابًا لَا يُحَدِّ
لُتَرَى سُلْطَانُ أَهْلِ الْعَالَمِ
وَكُنِ الْحَوْتَ يَسِيحُ الْأَبْحُرَا
فَلَكَ يُزْهِزُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فِي فَسِيحِ الْمَرْجِ عِطْرًا نَشْرَا
عَنْدَلِييَا هَائِمًا فِي وَرْدَةٍ!
ثُمَّ عَانَقَ كُلَّ أَزْهَارِ الرُّؤْيَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسول الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كَاٰسْتَضْعُوْنَ فِي الْاَرْضِ قَالُوا اَلَمْ تَكُنْ اَرْضًا مِّنْ نَّهَارٍ فَتَبٰرَكُ مَا يَدْعٰۤى بِهَا ۚ ﴾

[النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرن من خدعة العصر الجديد التباس النهج حاذر يا رشيد

في بيان أن الوطن ليس أساس الأمة

قطّعوا الأرحام بين الإخوة
قدّسوا الأوطان إعجاباً بها
طلبوا الجنة في « بنس القرار »
محق الجنة هذا الشجر
أنكر الإنسان وجه الإخوة
ذهب الإنسان روحاً وانقضى
منصب الدين حواء الساسة
دين عيسى بطلت قصته
عجز الأسقف عن تقديره
قوم عيسى حقروا بيعته
مزق الدهري ثوب المذهب
ذا الفلورنسي عبث الوثن
خط للأملاك سفراً منكراً
مزق الحق بحد القلم
آزر العصر ، بدا تزويره
جعل الملك إلهاً دينه

صيّروا الأوطان أسّ الأمة
قسّموا الإنسان أسراباً بها
« فأحلّوا قومهم دار البواز »^(١)
ليس إلا الحرب فيه ثمر
وانتهت قصّة الإنسانية
بقيت أقوامه وهو مّضى
فتمت في الغرب هذي الآفة
وخبث في دوره شعلته
حادث الأزلأم عن تديره
أطلقوا في سوقهم سكّته
ومن الشيطان قد وافى نبي
كحلّه أودى بنور الأعين^(٢)
وبذور الحرب فينا بذرا
فطرة تؤثّر عيش الظلم
خطئة بدعاً جلا تفكيره
كلّ قبح ناله تحسينه

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسي : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلّ للملوك كل وسيلة تبلغ بهم الغاية .

جعل النفع عيارَ الذَّمِّ حينما خَرَّ لهذا الصَّنَمِ^(١)
 صارت الحيلةُ فَنَاءً مُحَكِّمًا ونما الباطلُ مَآءًا عَلَمًا
 خِطَّةٌ لِلنَّوْهِنِ فِينَا حَبْكَأ في طريقِ الدَّهْرِ ألقى حَسْكَأ
 أَرَمَدَ النَّاسَ بِهِذِي الْحِكْمَةِ إذْ دَعَا التَّزْوِيرَ بِالمَصْلَحَةِ

في بيان أنَّ الأمةَ المحمديةَ ليس لها حدودُ زَمَانِيَّةٌ أيضاً

أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي غُرْسِ الرِّبْعِ وَهِيَاجَ الْكَيْمِ وَالسَّوْدَ الْيَنِيعِ
 وَعَرُوسُ الزَّهْرِ نَشْوَى النَّعَمِ وَعَلَى الْأَرْضِ قُرَى مَنْ أَنْجَمِ
 غَسَلَ الْعُشْبَ دَمَوْعُ السَّخَرِ وَشَدَا الْمَاءُ لَنَوْمِ النَّهْرِ
 وَإِذَا الْكَيْمُ عَلَى الْغَصْنِ رَبَا مِنْحْتَهُ حَجَرَهَا رِيحُ الصَّبَا
 دَمِيَ الْبَرَعُومُ مِنْ قَطْفَتِهِ وَمَضَى كَالرَّيْحِ عَنْ رَوْضَتِهِ^(٢)
 عَشَّشَ الْوُزُقَ وَطَارَ الْبَلْبُلُ وَشَدَا فَرًّا وَطَلَّ يَنْزَلُ^(٣)
 لَيْسَ يُكْرِى مِنْ رِيْعٍ رَوْنُقُ حِينَ تَذْوِي زَهْرَاتِ تَعِيقُ
 مُحْفَلُ الْأَزْهَارِ بَاقٍ يَضْحَكُ لَا يُيَالِي كَنْزُهُ مَا يُهْلِكُ
 مُوسِمُ الْأَزْهَارِ أَبْقَى فِي الدَّهْرِ هُوَ أَبْقَى مِنْ وَرُودِ وَزَهْرِ^(٤)
 لَا يُيَالِي جَوْهَرًا قَدْ كُسِرَا مَعْدَنُ يُنْمِي وَيُيْدِي الْجَوْهَرَا
 كَمْ شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ ، لَا مَقَرَّ ! أَكُؤْسٌ تَأْخُذُ مِنْ دَنِّ الدَّهْرِ

(١) الصنم : الملك .

(٢) الريح : الرائحة .

(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل الندى . فالروضة باقية على تبدل ما فيها .

(٤) موسم الزهر أبقي من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

خمرةٌ من شربها لا تنفدُ تذهب الآماس والباقي الغد^(١)
 ثابتٌ في الدهر تقديرُ الأمم من مسير الغد سيارِ القَدَمِ
 يسفر الخُلُ وتبقى الصُّحبة يرحل الفرد وتبقى الأُمَّة^(٢)
 ولها عيشٌ وموتٌ آخرُ ثم ذاتٌ وصفاتٌ آخرُ
 ينشأ الفردُ من الطين القليل تولد الأمة من قلب جليل
 نفسُ الأُمَّة يُحصى بالمئين ويعيش الفرد عشراتِ سنين
 وحياءُ الفردِ روحٌ في بدن وحياءُ الشعب في حفظِ الشَّننِ
 موت فردٍ نضبُ وردٍ للحياه موت قوم تركُ قصدٍ للحياه

كمماتِ الفردِ تفنى الأمم ولها يوماً قضاءً يُحتَمُ
 أمةُ الإسلام تآبى أجلا أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾^(٣)
 لا تخاف الموت هذي الأُمَّة ﴿نحن نزلنا﴾ لديها حجة^(٤)
 دَامَ ذَكَرُ ما أقام الذَّاكِرُ بدوام الذُّكر دَامَ الذَّاكِرُ^(٥)
 ذلك المصباح أنى يُطفأ ؟ قال ربي عالماً : ﴿أن يطفئوا﴾^(٦)
 أمةُ الحقِّ إلى الحقِّ تُنيب أمةٌ يَغشُّها أهلُ القلوب^(٧)

(١) الآماس : جمع أمس .

(٢) يسفر ، أي : يُسافر .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدة أزليّة عامّة خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بدّ أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .

(٦) الآية : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُضِلَّتْ بِالْحَقِّ ذَا السَّيْفِ الصَّقِيلِ مُضِلَّتْ مِنْ غَمْدِ آمَالِ الْخَلِيلِ^(١)
 مَا سِوَى الْحَقِّ مُحَاهٍ بَرْقُهُ لِيَعِيدَ الْحَقَّ حَيًّا نَطْقُهُ
 نَحْنُ لِلتَّوْحِيدِ أَقْوَى حِجَّةُ لِلْكِتَابِ اخْتَارْنَا وَالْحِكْمَةِ^(٢)

أَضْمَرَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا نَارَهُ مَخْفِيًّا فِي صَدْرِهِ تَاتَارَهُ
 أَطْلَقَ الْفِتْنَةَ مِنْ أَجْبَالِهَا وَرَمَى بِالطُّودِ مِنْ أَثْقَالِهَا
 فِتْنَةً مَوْطِنُهَا هَامُ الْأَمَمِ نَظَرَةً مِنْ طَرْفِهَا قَتْلُ عَمَمِ
 أَنْفُ هَوْلٍ فِي حِشَاهَا يَرْقُدُ لَيْسَ لِلْأَمْسِ بِمَشَاوَاهَا غَدُ
 سَطْوَةُ الْإِسْلَامِ لِلتَّرَبِّ هَوَتْ مَا رَأَتْ بِغَدَادِ رُومَا مَا رَأَتْ
 لَكِنْ اسْأَلْ ذَلِكَ الدَّهْرَ الْمُلِيمَ مُحَدِّثَ الْأَفْعَالِ ذَا الْمَكْرِ الْقَدِيمِ
 رَوْضَنَا كَانَ لِهَيْبِ التَّرَبِّ حَلِينَا كَانَ نِشَارُ الشَّرِّ^(٣)
 فَلِإِبْرَاهِيمَ فِينَا فَطْرَةٌ وَإِلَى الْمَوْلَى لَدِينَا نِسْبَةٌ
 مِنْ لِهَيْبِ قَدْ جَنِينَا زَهْرًا نَارَ نَمْرُودٍ رَدَدْنَا كَوْثَرًا
 كُلُّ نَارٍ يَوْقُدُ الدَّهْرُ لَنَا زَهْرَاتٍ حِينَ تَأْنِي رَوْضَنَا

ذَهَبَ الرُّومُ وَفُضَّ الْمَوْكِبُ شَرْقُهَا أَقْوَى وَأَقْوَى الْمَغْرِبُ
 كَأَسُّ سَاسَانٍ مِنَ الْغَمِّ دَمٌ حَانَ يُونَانَ خَرَابٌ مُظْلَمٌ^(٤)

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمة موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَرَعَيْنَاكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَرَعَيْنَاكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا قَالُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي =

وَعَنْتُ مِضْرُ لِدَهْرٍ عَرِمٍ وَأَذَانُ الْحَقِّ فِينَا خَلَدَا
 أَمَةُ الْإِسْلَامِ تَبْقَى أَبَدًا إِنَّ لِلْكَوْنِ مِنَ الْعِشْقِ حَيَاهُ
 وَبِهِ أَجْزَاؤُهُ شَدَّتْ قُؤَاهُ أَحْيَتِ الْعِشْقَ قُلُوبٌ تُسَعَّرُ
 شَبَّهَا مِنْ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ^(١) إِنَّ نَكْنَ كَالْكَمْ نَطْوَى كَمَدَا
 فَرَدَانَا فِيهِ لِلرَّوْضِ رَدَى ^(٢)

في بيان أَنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمّدية القرآن

أُمَّةٌ خَلَّتْ يَدَاهَا الشُّنْتَا سِيرَةُ الْمُتْلِمِ شَرَعٌ وَكَفَى
 ذَلُكُم بِأَطْنُ دِينِ الْمُضْطَفَى بَانْتِظَامِ الصَّوْتِ تَعْلُو النَّغْمَةُ
 وَهِيَ مِنْ دُونِ نِظَامِ ضَجَّةٍ إِنَّمَا فِي الْحَلْقِ مَوْجٌ مِنْ هَوَاءٍ
 يَعْلَقُ النَّظْمُ بِهِ فَهُوَ غِنَاءُ صَاحِبُ هَلْ تَعْلَمُ مَا سُنْتُكَ؟
 أَيْ سَرُّ ضَمْنَتْ قَدَرْتُكَ؟ الْكِتَابُ الْحَيُّ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ
 حَكْمَةٌ فِي الدَّهْرِ تَبْقَى لَا تَرِيمُ إِنَّ فِيهِ سَرُّ تَكْوِينِ الْحَيَاهُ
 يَسْتَمِدُّ النِّكْسُ أَيْدَا مِنْ قُؤَاهُ لَفْظُهُ لَا رَيْبَ أَوْ تَبْدِيلَ فِيهِ
 آيَةٌ لَا لَبْسَ أَوْ تَأْوِيلَ فِيهِ قُوَّةٌ فِيهِ تَشْدُّ الْخَوْرَا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أَنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل

وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منطوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن

بحياتنا إن متنا ماتت .

قَطَعَ الْأَشْرَاكَ عَنْ صَيْدٍ كَسِيرٍ فَدَعَا الصَّيَّادُ مِنْهُ بِالْثُبُورِ
 ذَا بِلَاغٍ آخِرٍ لِلْمُرْسَلِينَ قَدْ تَلَاهُ « رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »
 تَرْفَعُ الْخَامِلَ فِيهِ رَفْعَةً وَتَقِيمُ الرُّأْسَ مِنْهُ سَجْدَةً
 قَاطِعُوا الطَّرِيقَ هِدَاةً صُيِّرُوا مِنْ كِتَابٍ ، كَمْ كِتَابٍ سَطَّرُوا
 وَالْبَوَادِي مِنْ سِرَاجِ زَهْرَا قَدْ أَضَاءُوا بِالْعِلْمِ الْفِكْرَا^(١)
 الَّذِي يُصَدِّعُ مِنْهُ الْجِبِلُّ وَعَلَى الْأَفْلَاكِ مِنْهُ وَجَلُّ^(٢)
 ذَلِكَ الْيَنْبُوعُ مِنْ أَمَانَا قَدْ حَوَاهِ الصَّدْرُ مِنْ أَطْفَالِنَا
 انْظُرِ الظَّمَانَ فِي حَزِّ الْقَفَارِ عَيْنُهُ حَمْرَاءُ مِنْ وَقْدِ النَّهَارِ
 عَنُوشُهُ كَالطَّبْيِ فِي تَغْدَائِهَا دُمُهَا كَالنَّارِ فِي رَمَضَائِهَا
 طَائِفُ الصَّحْرَاءِ يَأْبَى الْجُدْرَا ضَارِبٌ فِي الْبَيْدِ يَقْلِي الْحَضْرَا
 خَفَقَتْ فِي قَلْبِهِ هَذِي الشُّورُ فَاسْتَقَرَّ الْمَوْجُ فِيهِ كَالدُّرَرِ^(٣)
 قَرَأَ الدَّرْسَ مِنَ الْآيِ الْمَبِينِ فَعَدَا بِالْحَقِّ حَزًّا لَا يَمِينُ
 حَكَمَ الدُّنْيَا جَمِيعاً عَدْلُهُ عَزَّشَ جَمًّا وَطِثَّهُ رَجُلُهُ^(٤)
 مُدْنًا قَدْ شَيْدَتْ هَبْوَتُهُ وَرِيَاضًا أَتْبَتَتْ زَهْرَتُهُ^(٥)

إِنَّ إِيْمَانَكَ فِي قَيْدِ الرُّسُومِ سَنَنْ الْكُفْرَ لَكَ السَّجْنَ الْمُقِيمِ
 أَمْرُكُمْ قَطْعَتُمْ فَهُوَ « زُبُر » مُسْرَعِي السَّيْرِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرُ^(٦)

(١) زهر السراج : أضواء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه النثر سكن واستقر كالدرة في الماء .

(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .

(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .

(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّالِجُ ﴾

سَكِرَ الصُّوفِيُّ مِنْ أَحْوَالِهِ وانتشى باللحن من قوَّاله^(١)
 قلبه شعرَ العراقيِّ تلا ومن القرآن أقوى وخلا^(٢)
 تاجه والعرش صوفٌ وحصير فقره يجبي رباطاً للفقير^(٣)
 وأخو الوعظ جُزافاً قائلُ كلم عالٍ ، ومعنى سافلُ
 قولُه من ديلمِّي وخطيب فعله جلف ضعيفٍ وغريب^(٤)
 لكتاب الله حقٌ . فاقْرَأْ كل ما تبغيه منه فاطْلُبْ

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفتن طبعه خلقُ شرورٍ ومخن
 محفلُ الماضين فيه مقفر صوّحت فيه حياةٌ تنضر
 أنكرت أنفسنا أنظارنا وجفست نغمتها أوتارنا
 شعلَةُ التَّوْحِيدِ فِينَا سَلْبَا ناره والنُّور مئنا سلبا
 وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه فمن التقليد للقوم نجاه
 سننُ الأبناء حبلُ الملة ومن التقليد جمعُ الأمة
 يا خلياً في خريفٍ من ثمر ارقب الغيث ولا تجفُ الشجر^(٥)

= [الشمس وتكبر] [القمر : ٦] .

- (١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .
- (٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .
- (٣) يعني : أنه يأخذ مالاً من الفقراء المقيمين في الأربطة .
- (٤) الديلمِّي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث . بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .
- (٥) يعني : يجب الاستمسك بسنن الأبناء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قَدْ حُرِمَتْ الْبَحْرَ فَادْكُرْ خُسْرَكَ
 فَعَسَى سَيْلُ الْجِبَالِ الْهَادِرُ
 حَالُ إِسْرَائِيلَ فِيهَا تَبْصِرُهُ
 أَنْظِرُنْ كَيْفَ ابْتَلَاهَا الزَّمَنُ
 وَجْهَهَا فِي كُلِّ حِينٍ يُلْطَمُ
 عَصْرَتْ عَنْقُودَهَا كَفُّ الْخُطُوبِ
 إِنَّ خَبَا فِي اللَّحْنِ مِنْهَا قَبْسُ
 سَارٍ فِي إِثْرِ الْجُدُودِ الْمَحْمَلِ
 يَا مَنْ انْفَضَّ لَهُ جَمْعٌ وَجَاءَ
 آيَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْقَلْبِ اسْطُورًا
 اجْتِهَادٌ فِي زَمَانِ الْقَهْقَرَى
 اقْتِدَاءٌ بِرِسُومِ الْأَوَّلِينَ
 لَمْ يُصَبِّ آبَاؤُنَا بِالْهَوَسِ
 فَكَرُّهُمْ كَانَ رَفِيقًا مَرْهَفًا
 فَكَّرُ الرَّازِي وَنَجْوَى جَعْفَرِ
 ضَيْقُ الدِّينِ عَلَيْنَا يَسْرُهُ
 قَدْ جَهِلْتَ الدِّينَ عَنْهُ حَائِدًا
 بَاخَ لِي بِالسَّرِّ نَبَاضُ الْحَيَاةِ
 وَحُدَّةُ الشَّرْعِ حَيَاةُ الْأُمَّةِ
 نَحْنُ طِينٌ وَهُوَ قَلْبٌ لَا جَرَمَ

يَا قَلِيلَ الْمَاءِ وَاحْفَظْ نَهْرَكَ^(١)
 مِنْهُ فِي مَجْرَاكَ لَعَجٌ زَاخِرُ
 إِنَّ تَكُنْ رَوْحُكَ رَوْحاً مُبْصِرَهُ
 وَعَرْتَهَا فِي الْخُطُوبِ الْمَحْنُ
 كَادَ فِي أَعْرَاقِهَا يَفْنَى الدَّمُ
 ذَكَرُ هَارُونَ وَمُوسَى فِي الْقُلُوبِ
 لَمْ يَزَلْ فِي الصَّدْرِ مِنْهَا نَفْسُ
 حِينَمَا انْفَضَّ لَدَيْهَا الْمَحْفَلُ
 وَخَبَا فِي صَدْرِهِ شَمْعُ الْحَيَاةِ
 وَمَنْ التَّقْلِيدَ أَمْسَكَ بِالْعُرَا
 يَزْهَبُ الْأَقْوَامَ مِنْهُ شَذْرًا
 هُوَ أَوْلَى ، لَا اجْتِهَادَ الْغَافِلِينَ
 طُهُرَتْ أَعْمَالُهُمْ كَالْأَنْفُسِ
 فَعَلَهُمْ أَوْفَى بِشَرِّعِ الْمَصْطَفَى
 أَيْنَ ؟ وَالْعُرْبُ هِدَاةُ الْبَشَرِ
 وَادَّعَى كُلُّ لَيْثٍ سِرَّهُ
 الزَّمَنُ يَا حُرَّ نَهْجًا وَاحِدًا
 إِنَّمَا فِي الْخَلْفِ مَقْرَاضُ الْحَيَاةِ^(٢)
 فَمَنْ الْقُرْآنَ رَوْحُ الْمَلَّةِ
 هُوَ « حَبْلُ اللَّهِ » مَنْ شَاءَ اعْتَصَمَ

= الشجر أيام الخريف إيراقة وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قل الماء في نهرك فاحفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرة أخرى .

(٢) كلمتا نباض ومقراض في الأصل .

فانتظم في سلكه كالذُررِ أو غباراً في الرِّيح انثر

في بيان أنَّ كمال سيرة الأُمَّة من اتِّباع الشَّرع الإلهي

لا تقل في الشرع معنى مُضمَرُ
جوهرٌ أبدع فيه القادرُ
ليس علمُ الحقِّ غيرَ الشُّرعةِ
شرعنا للفرد مِرْقاةُ اليقينِ
شُرعةُ الحقِّ نظامُ الأممِ
إنَّ فيه الأيدِ يا من أخلصا
قام للإسلام بالشَّرعِ قوامُ
لك أيدي نكتةُ الشَّرعِ المبينِ
إنَّ يعارض ذو عنادٍ مسلماً
صارَ هذا النفلُ فرضُ الأُمَّةِ
وإذا جيشٌ عدوٌّ في الوغى
وقضى أوقاته في الدَّعةِ
فحرامٌ أخذه بالبغتةِ
سرُّ هذا الأمرِ يا ذا البصرِ :
يتحدَّاك برضوى العاليه
ويناديك أن اقصمَ ظهرها
ليس كفاءَ الليث في صولته

ليس إلَّا النورَ تحوي الذُّرُ
جوهرٌ باطنه والظاهرُ
ليس غيرَ الحسبِ أصلُ السَّنةِ
ترتقي منه مقاماتُ اليقين^(١)
ومن النَّظمِ دوامُ الأممِ
اليُدُ البيضاءُ فيه والعصا
بدؤه الشَّرعُ وبالشَّرعِ الختامُ
أنتَ مَنْ في حِكْمَةِ الدِّينِ أمينُ :
في أداءِ النفلِ ما إنَّ لزمَا
فالحياةُ الحقُّ عينُ القدرةِ
ترك الإعدادَ والسَّلمَ بغي
تاركاً لِلْحَزْبِ أخذَ العُدَّةِ
قَبْلَ أن يأخذَ كلَّ الأُهبَةِ
« الحياةُ العيشُ بين الخطرِ »
في امتحانٍ لِقِوَاك العانيه^(٢)
ويحدُّ السيفُ فاصهز صخرها
حملٌ يرجفُ في ذلَّته

(١) مِرْقاةُ اليقين ومقلّماتُ اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل ألوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إِنَّ حَكِي الصَّعُودَةَ صَفَرٌ كَاسِرٌ
 كَتَبَ الشَّارِعُ رَبُّ الْحِكْمَةِ
 يَشْحَذُ الْعِزْمَ بِنَارِ الْعَمَلِ
 وَإِذَا تَلَّغَبُ يَعْطِيكَ الْقُوَى
 إِنَّ دِينَ الْمُصْطَفَى دِينَ الْحَيَاةِ
 إِنَّ تَكُنْ أَرْضاً يَصْبُرْكَ السَّمَاءُ
 يَصْقِلُ الْمَرَاةَ مِنْ صَخَرٍ شَدِيدٍ
 ضَيَّعَ الْقَوْمُ شِعَارَ الْمُصْطَفَى
 ذَلِكَ الْغَصْنُ الْعِسِيُّ الْمَعْتَلِي
 الَّذِي الْبَطْحَاءُ أَزَكَّتْ غَرْسَهُ
 أَذْبَلْنَاهُ الْيَوْمَ رِيحُ الْعَجَمِ
 قَاتِلُ الْأَسَادِ ذَبَحَ الْغَنَمِ
 مَنْ أَذَابَ الصَّخَرَ مِنْ تَكْبِيرِهِ
 مِنْ عِلَا الطُّودِ سَرِيعاً مُصْعِداً
 مَنْ بَرَى الْأَعْنَاقَ ضَرْباً غَضْبُهُ
 مُوقِظُ الْآفَاقِ مِنْ خَطَوَاتِهِ
 مَنْ أَطَاعَ النَّاسَ طَرّاً أَمْرَهُ
 رَضِيَ الْقُنْعُ وَأَكْدَى جِدُّهُ
 شَيْخُنَا أَحْمَدُ^(١) مَنْ فِي قُرْبِهِ
 قَالَ يَوْمًا لِمُرِيدٍ فَهَمِ
 فَكَّرُهُمْ إِنَّ كَانَ لِلنَّجْمِ ارْتَقَى

فَهُوَ كَالصَّعُودَةِ وَاهٍ خَائِرٌ
 لَكَ هَذَا اللَّوْحُ ، لَوْحَ الْقُدْرَةِ
 وَيَرْقِيكَ لِأَعْلَى مَنْزِلِ
 وَيَرْبِّي مِنْكَ طُوداً مَا خَوَى
 شَرْعُهُ لِلنَّاسِ قَانُونُ الْحَيَاةِ
 وَيَرْبِّيكَ كَمَا الْحَقُّ يَشَاءُ
 وَيَنْقِي الرِّينَ مِنْ قَلْبِ الْحَدِيدِ
 ضَيَّعُوا رَمَزَ بَقَاءِ عُرْفَا
 مُسْلِمُ الصَّحَرَاءِ رَبُّ الْجَمَلِ
 وَرِيَاخُ الْبِيدِ رَأَتْ نَفْسَهُ
 صَيَّرْتَهُ النَّيَّ رَوْحُ الْعَجَمِ
 وَطءُ نَمَلٍ مَسَّهُ بِالْأَلَمِ
 رَاعِهِ الْبَلْبَلُ فِي تَصْفِيرِهِ
 غَلَّ بِالتُّكْلَانِ رَجُلًا وَيَدَا
 يَلْدِمُ الصَّدْرَ وَيَدْمَى قَلْبُهُ
 قُيِّدَتْ رَجُلَاهُ فِي خَلَوَاتِهِ
 وَاجْتَسَدَى دَارًا وَكَسَرَى بَرَّهُ
 وَارْتَضَى الْكَذِبَةَ عِزًّا جَدُّهُ
 تَكْسَبُ الشَّمْسُ سَنًا فِي قَلْبِهِ
 احْذَرْنَ يَا صَاحِ فَكَّرِ الْعَجَمِ
 فَهُوَ مِنْ سُنْتِنَا قَدْ مَرَّقَا

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفي عراقي من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرفاعية ، انضم إليها خلق كثير من الفقهاء ، كان له به اعتقاد كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يا أخى فاسمع لهذا الرشد استمع نضع الإمام المرشد
وبهذا الحق فاشدد قلبك واتبع العزب نصيب شرعتك

في بيان أن حُسن سيرة الأئمة من التأدب بالآداب المحمدية

سائلٌ مثل قضاء مُبرم	صاح بالباب بصوت مُبرم ^(١)
بالعصا ضلت عليه غضبا	فهوى من يده ما قشبا ^(٢)
إن هذا العقل في شرخ الشباب	لا ييالي بضلالٍ وصواب
ورأى الوالدُ فعلي فنفر	وذوى في وجهه روض الزهر
آهةً في فمه تلتهب	قلبه في صدره يضطرب
كوكبٌ في عينه قد ومضا	نور الهدب قليلاً ومضى ^(٣)
روحي الغافل في الجسم ارتعد	ومضى الصبرُ وخلاني الجلد
مثل فرخ في الخريف انتفضا	من رياح الليل في العش قضى
قال لي الوالد : يوم المحشر	تلتقي أمة خير البشر
الغزاة الغرُّ من أئنته	وأولو الميراث من حكمته
والنجوم الزهر أرباب الصفاء	حجة الذين فريق الشهداء
وأولو العلم وأرباب القلوب	وأولو الزهد وأصحاب الذنوب
وعلا في لجج هذا المحشر	صوت هذا السائل المنكسر

- (١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .
- (٢) قشب : جمع وكسب .
- (٣) يعني دمعت عينه ، علق الدمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب !
 « قد حباك الحقُّ طفلاً مسلماً
 هيئن الأشياء قد شقَّ عليك
 وأنا في العتب من خير الرُّسل
 أفكرن في الأمر واذكر يا بُني
 لحيتي البيضاء في الحشر انظر
 لا تزد عبء أبيك الوهن
 أنت كم في فروع المصطفى
 نظرة من روضه فالتمس
 مرشد الرُّوم الذي قطرته
 » لا تجذَّ الجبل من خير البشر
 فطرة المسلم طراً رأفة
 العظيم الخلق من شق القمر
 لست من معشرنا فاعتزل
 طائر أنت على دوحتنا
 إن تكن ذا نعمة لا تُفرد
 كل من أوتي حظاً من حياه
 بلبل أنت ؟ ففي الرّوض امرح
 إن تكن صقراً فلا تغش البحار

ما جوابي حين يلحاني النّبي :
 لم تُنله من كتابي مغنما
 لم يَصِرْ ذا الطّين إنساناً لديك^(١)
 بين خوف ورجاء وخجل
 أمة المختار إذ ترنو إلي
 رعدتي في الخوف والحزن اذكر
 عند مولاي غداً لا تُخزني
 فتفتح في ربيع المصطفى
 وسناً من خلقه فاقتبس
 قد حوت بحراً ، سمّت قوله :^(٢)
 لا تقل عندي فنون وبصر
 قوله والفعل كلُّ رحمة
 رحمة عمّت ونور للبشر
 إن تكن منه بعيد المنزل
 شدؤه واللحن من نغمتنا
 سوى بستاننا لا تُفرد^(٣)
 في سوى بيته يلقي رداه
 ومع السّرب بلحن فاصح
 ليس إلا خلوة الصّحراء دار^(٤)

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .

(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .

(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .

(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليلزم كل بيته .

أو تكن نجماً فنور في سماك لا يكن مسراك إلا في الجباك

قطر نيسان اجمعن إن ترد
لتراه مثل قطرات الندى
وانشف الأنداء من جواهرها
بشعاع الضبح وضاء البكر
لن ترى ذك إلا كالحباب
ألقها في اليم تغد جوهرا
قطر نيسان عن اليم نأى
واجعلن في الروض مأواه الندي^(١)
تحضن الأكماء منها ولدا
واسلب اللأاء من عنصرها
الذي من سحره ينمو الزهر^(٢)
لن ترى سغبك إلا في سراب
مأوها يسطع نجماً ثيرا
لجفاف . لن تراه لؤلؤا

طينة المسلم دُرّ يا بُني
قطر نيسان ! فغصن في موجه
صاح ! من شمس الضحى كن أنورا
ماؤها والنور من بحر النبي
وابرزن ، درأ صفًا ، من لجه
كن ضياء ليس يخبو الدَّهرا

في بيان أنَّ حياة الأمة تحتاج إلى مركز محسوس وأنَّ مركز الأمة الإسلامية البيت الحرام

عقدة تحلُّ من أمر الحياه
كخيالٍ جفَلت من نفسها
حين أفشي لك من سرِّ الحياه :
حُرَّة قد نفرت من حبسها^(٣)

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .

(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .

(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُها ما فيه أمْسٌ وغدٌ
أنظرونَ نفسَكَ حيناً واعتبرْ
شعلةً فيها أعدتْ سِترَها
ماؤها قد عقدته في دُرْز
نارُها في نفسها تُخفي الحريق
فكرُك العاجزُ عنها أو هما
ما أوى للعُشِّ هذا الطائرُ
هو حرٌّ وحواءَ محبِسُ
ريشه ينسلُّ طيراً كلَّ حينٍ
عُقداً تعقد في أعمالها
تسكنُ الطينَ على إسراعها
كم لحونٍ في جواها رُقْدِ
في سهولٍ كلَّ حينٍ وحزونُ
إن تكنُ كالريحِ تأبى محبسا
حولها من خيطها ناسجة
هي في العُقدة مثلُ الحَبَّة
تفتحُ العينَ على ما تُضمّر

في دُنَى الأوقات ليست تُصَفِّدُ
لستَ إلَّا جَوْلاناً يستمرُّ
من دخانٍ فأشاعت سرَّها
ليرى السَّيرُ سكوناً في النَّظر
وتُرى في الغُضنِ أزهارَ الشَّقِيق^(١)
طيرانَ اللَّونِ ورداً جُسمًا^(٢)
هو طيرٌ وهو لون طائر^(٣)
وهو في النَّوحِ لحوناً يَبُئِسُ^(٤)
يخلقُ الأسبابَ منه كلَّ حينٍ
وتحلُّ العقد في تجوالها
لتزيد السَّيرَ في إهطاعها^(٥)
يومُها ميلادُ أمْسٍ وغدٍ
كلَّ حينٍ في اختراعٍ وفنونٍ
تنزلُ الصَّدرَ فتُدعى نَفْسًا
حولها من خيطها عاقدة
مضمَّرٌ فيها فروغُ الدَّوْحَةِ
فإذا الدَّوْحَةُ منها تَظْهَر

(١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .

(٢) الحياة حركة دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلاناً في طيران مستمر .

(٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسرائاً في سيرها .

خلعة الطين عليها تُرفَد
تؤثر الخلوة في الجسم الحياه
هكذا سنة ميلاد الأمم
إنما المركز روح الدائرة
ومن المركز للقوم نظام
نقطة المركز منّا الحرم
نفس في صدرنا يتقد
من نداء نصرت أغصاننا
نحن من دعواه في الدنيا دليل
صوتنا يندى به في الأمم
وحد الملة طوف حوله
وحدث في حنبه كثرنا
إن في الجمع حياة الأمم

فلذا عين وقلب ويد^(١)
وتجلى نشأة العم الحياه^(٢)
مركز فيه حياة تنتظم^(٣)
نقطة ، فيها محيط ، ضامره
ومن المركز للقوم دوام
لحننا والوجد فينا الحرم
روحنا الغالي ، ونحن الجسد
حي من زمزمه بستاننا
نحن فيه من براهين الخليل^(٤)
واصلأ محدثنا بالقدم
فهو صبح قد حوى صدر له
أحكمت من وحدة قوتنا^(٥)
إن هذا الجمع سر الحرم

أيها المسلم يا ذا البصر !
زهدوا في مركز قد جمعا
يا عليلاً شاكياً جور الزمن
قوم موسى عبرة فاعتبر
فتراهم في البرايا قطعاً^(٦)
يا أسيراً غلّه وهم وظن

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . إلخ .

(٢) العم : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ،

ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذف هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلن ثوبك ثوب المحرم أطلع الصُّبحَ بلبلٍ مُظلم
افن كالآباء ما بين السجود اسجدن حتى تُرى عين السجود^(١)
من خشوع المسلمين الأولين سيطروا بالحق بين العالمين
في سبيل الحق شوكةً وطناً فإذا الروضة هذا الموطأ

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمة الإسلامية حفظ التَّوحيد ونشره

اعرفن عني لسان الكائنات ففعال الكون فيها كلمات
ينظم المقصدُ أشتات الحياه فتراها « مطلقاً » راع الرواه^(٢)
طرفنا من تحت مهماز الطلب صرصر ما ندَّ عنه من أرب
إنما يُبقي الحياه المقصدُ هو أشتات قواها ينضدُ
حينما تدري الحياه المطلبا تجعل الكونَ إليه سببا
وبه الأشياء طرّاً تنقصد فتردّ الشيء أو تعتقد^(٣)
يُحمر الرُّبان أجل الساحل وإلى المنزل سيرُ السَّابل
وعلى قلب الفراش الحرقُ لسراج حوله يحترق^(٤)
طاف قيسٌ في الصحارى ولها قاصداً ليلاه يرجو وضلها
ما اقتفينا في الصَّحارى أثرا منذ ليلانا أقامت في القرى

(١) السجود الأول جمع ساجد .

(٢) المطلق هنا مطلق القصيدة .

(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .

(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحترق للفراش ، ولبل لقبس .

إِنَّمَا الْمَقْصُودُ رَوْحُ الْعَمَلِ
 دَوْرَانِ الدَّمِّ فِي أَعْرَاقِنَا
 الْحَيَاةُ الْحَقُّ مِنْهُ تَسْتَعِزُّ
 هُوَ مُضْرَابٌ لِعُودِ الْهَيْمَةِ
 حَرَكِ الْأَعْضَاءِ فِي رَكْبِ الْبَشَرِ
 فَكُنِ الْمَجْنُونُ فِي هَذَا الْحَبِيبِ
 أَبْدَعِ الْقَمِيَّ فِيمَا أَسْمَعَا
 رَامَ نَقْشَ الشُّوْكِ حِينَ رَجُلُ
 لِحْظَةٍ يَا صَاحِبِي إِنْ تَغْفُلْ
 ذَاكُمُ الْعَالَمُ دَيْرٌ قَدْ مَآ
 كَم وَكَمْ يُنْبِتُ مِنْ مَقْصَبَةٍ
 كَمْ نَدَمْتُ مِنْ يَدَيْهِ رَوْضَةٌ
 كَمْ تُرَى نَقْشاً وَكَمْ تَمَحُو يَدَاهُ
 كَسَمِ مِنَ الْأَرْوَاحِ بُوَّتْ أَنْتَهُ

كَيْفَهُ وَالْكَسَمُ مِنْهُ تَجْتَلِي^(١)
 مَسْرَعٌ بِالْجَسَدِ فِي أَغْرَاضِنَا
 تَجْمَعُ النَّارُ بِهِ مِثْلَ الشَّقَرِ^(٢)
 مَرْكَزٌ يَجْذِبُ كُلَّ الْقُوَّةِ
 جَامِعاً شَتَى عَيُونٍ فِي نَظَرِ^(٣)
 طُفٍّ بِهِ طُوفَ فَرَاشٍ بِاللَّهِيبِ
 عَلَّمَ الْأَوْتَارَ مَعْنَى مُبْدَعَا^(٤)
 فَاخْتَفَى عَنْ نَاطِرِيهِ الْمَحْمَلِ
 أَلْفَ مِيلٍ زَادَ بُعْدُ الْمَنْزِلِ
 بِسَامْتِزَاجِ الْأَمْهَاتِ انْتِظَمَا^(٥)
 لِيَرَاعَ فِيهِ نَارَ النَّوْحَةِ
 لَتَسْرَبِّي مِنْ شَقِيقِ زَهْرَةٍ^(٦)
 لِيُرَى نَقْشُكَ فِي لَوْحِ الْحَيَاةِ
 لَتَعَالَى مِنْ أَذَانِ نَغْمَةٍ^(٧)

(١) يتبين للعمل كيفه وكفه من مقصوده .

(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعز به . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .

(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .

(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .

« ذهب لأنقش الشوك من قدمي فاخفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .

(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .

(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكميل في العالم شاقٌّ أليمٌ يبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدّم هذا أول الكتاب .

(٧) تعالى : تتعالى .

ورجال الزور دهرأ ربيا
ثم في طينك إيماناً بسدر
نقطة دار عليها العالم
قوة فيها تُدير الفلكا
لؤلؤ البحر ندى من نورها
نقحها صير طيناً سنبلاً
في عروق الكزيم منها شعلة
لحنها في مزهر الكون استتر
نعمات فيك تسري كالدم
كلمة التوحيد منك المقصد
الجهاد المرّ جلف المسلم
أنت لا تدري بآيات الكتاب
أنت في الأيام نور وبصر
ادعون كل ليب ، أبلغ
قوله ما فيه نطق عن هوى
نبض هذا الكون قد جسّت يداه
نضّر الأزهار في روض الدهر
دينه فيه الحياة الخالده
أيها التالي الكتاب المنزل

وعلى الأحرار والى الحرّبا
كلمة التوحيد من فيك نشر
كلمة صار إليها العالم
وبها الشمس تُنير الحلكا
به الموج طما من نورها
وجدها صير ريشاً بلبلاً^(١)
ويطين الكأس منها لمعة
أيها العازف! يدعوك الوتر
أعمل المضرب في ذا النغم
أنت للتكبير فيها توجّد^(٢)
أو يدوي الحق بين الأمم
أمة العذل يميننا الخطاب
شاهد أنت على كل البشر^(٣)
وعن الأتسي قولاً بلّغ
صادق ما ضل يوماً أو غوى^(٤)
فتجلّس سرّ تقويم الحياه
ومحا الأذناس عنها والكدر
لا تراها عن هداة حائده
شمّر ، لا تقعدن عن عمل

(١) السنب : نبات طيب الرائحة .

(٢) فيها : في الدنيا .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَالتَّجَرُّ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا صَلَّ صَاحِبُكَ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْحَقِّ ۚ ﴾ [النجم : ١ - ٣] .

يعشق الأصنامَ عقلُ الأممِ
هو أحياءُ سُنَّةٍ من آزرا
اسمه لَوْنٌ وداؤٌ ونسب
وعَلَى أقدامِ هذا الصَّنمِ
أيها الشاربُ من كأس الخليلِ !
سيفٌ « لا موجود إلا هو » تُخِذْ
في ظلامِ الدَّهرِ أشرقَ للملا
خجلتْنا لك في اليومِ العسيرِ
قد أخذتِ الحقَّ عني ما دهاك

ناحتُ أو عابِدُ للصَّنمِ
محدثاً فيها إلهاً للورى
هو من سفك دماء في طرب^(١)
ذُبَحَ الإنسانُ ذُبَحَ الغنمِ
يا حميَّ النفس من طاس الخليلِ !
وبه الأصنامِ هذي فاجذُذْ
وانشرنْ حقاً عليك اكتملا^(٢)
حينما يسألك الهادي البشيرُ :
لم تبْلِّغه بحقِّ لسواك !

في بيان أنَّ توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم

مؤمناً بالغيبِ غير الغافل
اعلُ عن ذا الطَّينِ غصناً ناضرا
ذلك الحاضرُ تفسيرُ الغيوبِ
ما سوى الله لتسخيرِ العملِ
ما سوى الله تراه يُخلَقُ
عقدةٌ تلقاك بَعْدَ العقدةِ
فَسَرْنَ يا كِمْ ! روضاً نفسكا
من يسخرُ عالمَ الحسنِ سما

كارهاً كالسَّيلِ قيدَ السَّاحلِ !
وصلِ الغائبَ واغزُ الحاضرا
وهو مفتاحُ لتسخيرِ الغيوبِ
صَدْرُهُ للرَّمي ، فاقذِفْ لا تُبَلِّ
لترى سهمَكَ فيه يَمْرُقُ^(٣)
لِيُرى في الحلِّ لُطفُ الحيلةِ
سَحَرْنَ يا طُلُ ! ذي الشمسِ لكا
ومن الذَّرَّةِ يُخرجُ عالماً

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الآيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحسن ، وبيان أنَّ هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بَحْرِ وَبَرٍّ
 أَتَاهَا النَّائِمُ طَالَتْ غَفْلَتُهُ
 قُمْ وَفْتَحْ بَصْرًا قَدْ سَكَّرَا
 إِنَّهُ تَوَسَّيْعُ ذَاتِ الْمُسْلِمِ
 هُوَ يَلُوكُ بِسَيْفِ الزَّمَنِ
 اضْرِبِ الصَّدْرَ بِقَهْرِ الْقُوَّةِ
 جَعَلَ الْحَقُّ الدُّنَى لِلْخَيْرِينَ
 هَذِهِ الدُّنْيَا طَرِيقُ الظَّعَنِ
 فَأَسِرْنَهَا قَبْلَ أَنْ تَأْسِرَكَ
 أَدْهَمُ الْفِكْرُ الَّذِي يَطْوِي الْفُضَاءَ
 سَاقَهُ فِي الْكَوْنِ حَاجَاتُ الْحَيَاءِ
 يَتَغَيُّ فِي الْكَوْنِ تَسْخِيرُ الْقُوَى
 نَائِبُ الْحَقِّ ، بِحَقِّ آدَمُ
 لَكَ مِنْ ضَيْقِكَ ، مِنْهَا سَعَةٌ
 صَهْوَةُ الرِّيحِ اعلُوتُهَا آمِرَا
 شَقَّ قَلْبَ الطُّؤْدِ عَنْ جَوْهَرِهِ
 أَلْفُ كَوْنٍ فِي فُضَاءٍ تُكَفَّتُ
 بِشُعَاعِ أَظْهَرْنَ مَا احْتَجَبَا
 مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ نَارًا فَاقْبَسِ
 ثَابِتُ الْأَنْجَمِ أَوْ سَيَّارُهَا
 كُلُّهَا يَأْصَاحُ عُبْدَانُ لَهَا
 سَيَّرْنَ فِكْرَكَ فِيهَا عَسَا

لَوْحُ تَعْلِيمٍ لِأَرْبَابِ النَّظَرِ
 عَالَمُ الْحَسَنِ جَفَّتْهُ هَمَّتُهُ
 لَا نَحْقُرُ عَالَمًا قَدْ حُقِّرَا
 وَامْتَحَنَانِ لَصِفَاتِ الْمُسْلِمِ
 لَتَرَى أَنَّ دَمًا فِي الْبَدَنِ
 اخْتَبَرُ عَظَمَكَ فِي ذِي الصَّدْمَةِ
 وَجَلَاهَا لَعَيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 هَذِهِ الدُّنْيَا مُحْكُ الْمُؤْمِنِ
 لَا تُضِغْ فِي جَوْفِهَا جَوْهَرَكَ
 وَالَّذِي يَجْتَازُ آفَاقَ السَّمَاءِ
 فَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَفِي النَّجْمِ خُطَاهُ
 لَتَرَى فِيهِ بِأَعْلَى مُسْتَوَى
 حَكَمَهُ فِي الْأَرْضِ مَاضٍ حَاكِمٌ ^(١)
 وَلِأَعْمَالِكَ فِيهَا فَسْحَةٌ
 أَلْجَمَنْ هَذَا الْجَوَادُ النَّافِرَا
 شَقَّ مَوْجَ الْبَحْرِ عَنْ دُرٍّ بِهِ
 رُبَّ شَمْسٍ قَدْ حَوَتْهَا ذَرَّةُ
 وَاكشَفْنَ عَنْ كُلِّ سِرٍّ حُجُبَا
 وَمَنْ السَّيْلُ بِرَوْقًا فَاخْلِسِ ^(٢)
 الَّتِي قَدْ عُيِدَتْ أَنْوَارُهَا
 وَإِمَاءُ سُخَّرَتْ مِنْ أَجْلِكَ
 سَخَّرْنَ آفَاقَهَا وَالْأَنْفُسَا

(١) يعني أَنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحق ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتح العينَ وأنعمَ نظراً
 كم ضعيفٍ في قوئِي أمراً
 أيها المقصود من أمرٍ ﴿انظروا﴾
 قطرةً من نفسها ذاتَ خَبَرٍ
 وهي في البحر تراها جوهراً
 كالصَّبَا لا تهفُ حولَ الصُّورِ
 دون مضرابٍ لحوناً سيِّراً
 أيها الظَّالِعُ في حَزَنِ الحِياهِ
 بَلِّغِ السَّعْيِ الرفاقَ المنزلاً
 وبقيتَ اليومَ قيساً مبلساً
 «عَلِمَ الأسماءُ» فخرُ الأدمي^(١)

أبصرن في الراح معنىً مُضَمَّراً
 حين في الكون أجال البصراً
 كيف في آفاقها لا تنظر؟^(٢)
 خمرةً في الكرم ، طُلَّ في الزَّهَرِ
 جوهراً كالنَّجْمِ في الليل سرى
 اطلبن في الروض معنى الزَّهَرِ
 ومن الأحرف طيِّراً طيِّراً^(٣)
 أيها الغافل عن طعنِ الحياةِ
 أنزلوا ليلي وخطوا المحملاً
 في الصحارى عاجزاً مستيشاً
 حكمةُ الأشياءِ نصرُ الأدمي

في بيان أن كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد
 وأن توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن
 الأمة ورواياتها

أرأيتَ الطفلَ يا ذا البَصَرِ !
 ليس يدري ما قريبٌ وبَعِيدُ
 ما سوى الأم يرى منه الجفاء
 ليس تدري أذنه ما النعمةُ

ما له عن نفسه من خبرٍ
 كرة النجم بكفيه يريد
 هُمٌّ أَكَلٌ ونومٌ وبكاء
 لحنه ثورته والضجَّةُ

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

(٢) إشارة إلى آيات البرق ، والهاتف ونحوها .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكره غُفْلٌ ضعيفُ الأثرِ
ليس في تفكيره إلا السؤالُ
كلُّ نفسٍ عنده ينطبعُ
عنه إمّا بكفٍّ تُطبق
فكره في الجوِّ وإِهْ حذرُ
خلف صيدٍ في حِذارٍ يُرسله
ثم غشاه لهيبُ الفكرِ
فتراه عينه مُستعلنا
ومن الذُكرى ينمّي نفسه
ينظمُ الأيامَ خيطُ الذهبِ
جسمه يُرمي ويكري قائلًا :
« أنا » هذي بدءُ مقصود الحياه
مثلُ الأئمة حين النشأة
هي طفلٌ نفسه لا يعرفُ
يومه بالغدِ لم يوصل ولا
وبعين الكون إنساناً يُرى

قوله فيه صفاء الجوهرِ
أين ؟ أنى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال
وهو كلُّ غيره يتبع
تنزّى روحه في قلبي
كصقيرٍ لاصطيادٍ يُجبرُ
ثمَّ يدعوه إليه يُعجله^(١)
فرمى خذروفه بالشرر^(٢)
فيدقُّ الصّدرَ يعني : ها أنا^(٣)
غده يربطُ فيه أمسه
نسقَ الدُرَّ بسمطٍ مُعجب
مثل ما كنتُ أراني مائلًا^(٤)
اليقظة في عود الحياه
مثلُ الطفلِ ضعيفُ المنة
جوهرٌ غشّى عليه الصّدفُ
بصباحٍ ومساءٍ سلسلا
كلُّ شيءٍ ما عداه أبصرا^(٥)

- (١) كالصقر الصغير الذي يُعلّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .
- (٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمره النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دويّ .
- (٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .
- (٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .
- (٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْدَ لَايٍ طَرَفُ الْخِيطِ بَدَا
فَإِذَا رَازَ قُوَاهَا الدَّهْرُ
أَسْطَرّاً تَمَحَوُ ، وَأُخْرَى تَسْطُرُ
يُبْلِسُ الْفَرْدُ إِذَا مَا انْتَشَرَا
نَوْرُ قَوْمٍ مِنْ مَدَادِ السَّيْرِ
أُمَّةٌ قَدْ نَسِيَتْ سِيرَتَهَا
أَنْتَ سَفَرٌ كَتَبَتْهُ السَّيْرَةُ
ثَوْبَنَا أَبَائُنَا فِي الزَّمَنِ
مَا تَرَى يَا غُرُّ تَارِيخِ الْبَشَرِ ؟
فِي سَنَاهُ أَنْتَ بِالنَّفْسِ بَصِيرُ
إِنَّهُ أَعْصَابُ جَسَمِ الْأُمَّةِ
هُوَ يَجْلُوكُ كَسِيفٍ مَخْذَمُ
أَيُّ عَوْدٍ ذِي فَنُونٍ تَسَحَّرُ !
خَامِدُ الشُّعْلَةِ ، فِيهِ يُشْعَلُ
شَمْعُهُ كَوَكَبُ بَخْتِ الْأُمَمِ
عَيْنُهُ تُبْصِرُ مَا قَدْ عَبَّرَا
وَعَتِيقُ الرَّاحِ فِي كَاسَاتِهِ
صَائِدٌ يَرْجِعُ فِي أَشْرَاكِنَا
فَاذْكُرِ التَّارِيخَ وَاسْتَحْكِمْ بِهِ
أَحْكِمَنْ وَضَلَّةَ يَوْمٍ وَغَدِ

بعد ما حَلَّتْ يداها الْعُقْدَا^(١)
يَتَجَلَّى ذَا الشُّعُورُ الْمَضْمُرُ^(٢)
صَفَحَاتٍ بِيَدَيْهَا تَزْبُرُ
عَقْدُ أَيَّامٍ عَلَيْهِ قُدْرَا
نَفْسُهُ يَعْرِفُهَا بِالذِّكْرِ
يَنْسُخُ الدَّهْرُ غَدَاً آيَتَهَا
خَيْطُهُ أَبَائُكَ الْمَوْصُولَةُ
وَخِيَاطُ الثُّوبِ حَفِظَ السُّنَنِ^(٣)
قِصَّةٌ ! أَسْطُورَةٌ ؟ لَهْوٌ سَمَرُ ؟
فِي هَدَاهُ أَنْتَ بِالسَّيْرِ خَبِيرُ
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ مِثْلُ الشُّعْلَةِ
ثُمَّ يَرْمِي بِكَ بَيْنَ الْأُمَمِ
نَغْمَاتُ الْأَمْسِ فِيهِ تُؤَثِّرُ
يَوْمُهُ لِلْأَمْسِ فِيهِ مَائِلُ
وَسْنَا الْيَوْمِ وَأَمْسِ الْمَظْلَمِ
وَتُرى الْمَاضِي حَيًّا مُحَضَّرَا
وَحُمَارُ الْأَمْسِ فِي نَشْوَاتِهِ
طَائِرًا قَدْ طَارَ مِنْ بَسْتَانِنَا
عِشْ بِأَنْفَاسٍ مَضَتْ ، فِي طَبِّهِ
وَالْحَيَاةُ أَمَضُ بِهَا طَوْعَ الْيَدِ

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقد الأيام قسراً بمهاز أو فعش أعمى بليلى ونهاز^(١)
 صاح ! من ماضيك تبدو حالكا ومن الحال بدا استقبالكا
 إن تُردّ خُلد حياة فيصل ما مضى بالحال والمستقبل

في بيان أن بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأن حفظ الأمومة واحترامها من أصول الإسلام

نَعَمَاتُ الْمَرْءِ عَزْفُ الْمَرْأَةِ هو من محبتها في عزة
 كَسَتْ الذُّكْرَانَ رِبَاثُ الْحِجَالِ إنَّ ثوبَ الْعِشْقِ مِنْ نَسِجِ الْجَمَالِ^(٢)
 عَشَقْتُ الْحَقَّ رَبَاهُ حِجْرُهَا ذَلِكِ اللَّحْنُ حَوَاهِ صَدْرُهَا
 الَّذِي قَدْ بَهَرَ الْكَوْنَ سَنَاهُ قَرَنَ الطَّيِّبَ إِلَيْهَا وَالصَّلَاةَ^(٣)
 جَهَلَ الْقُرْآنَ جَهْلًا مُسْلِمًا قَدْ رَأَاهَا أُمَّةً لَا تُغْظَمُ
 إِنَّمَا الْأُمُّ عَلَيْنَا رَحْمَةً وَإِلَى الرُّشْلِ لَدَيْهَا نِسْبَةٌ
 رَأْفَةُ الْمُرْسَلِ فِي رَأْفَتِهَا سِيرُ الْأَقْوَامِ مِنْ صَنْعَتِهَا
 وَمِنْ الْأُمِّ عَلَتْ أَقْدَارُنَا وَبِسِمَاهَا بَدَا مِقْدَارُنَا^(٤)
 لَفْظَةُ الْأُمَّةِ فِيهَا نُكْتُ أَتَرَى فِكْرَكَ فِيهَا يَتَبَيَّنُ ؟
 إِنَّمَا الْأُمَّةُ مِنْ وَصْلِ الرَّجْمِ دُونَهُ أَمْرُ حَيَاةٍ لَا يَتَمُّ
 قَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ ، وَهُوَ الْحِجَّةُ : تَحْتَ رِجْلِ الْأُمّهَاتِ الْجَنَّةُ

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبار الرجل المرأة وحبا يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حب إلي من ديناكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوب في سيما الأم .

كُشِفَتْ بِالْأَمِّ أَسْرَارُ الْحَيَاةِ بِخِلَالِ الْأَمِّ تَسْيَارُ الْحَيَاةِ
وَبَهَا فِي نَهْرِنَا يعلو العُبابُ ويدوم الموج فيه والحبَابُ

هَذِهِ الْغُرَّةُ بِنْتُ الْقَرْيَةِ عَبْلَةُ الْجِنِّمِ وَغُفْلُ السَّحْنَةِ
حَيَّةُ الْعَيْنِ ، كَهَامُ الْمَقْوَلِ دُونَ تَعْلِيمِ وَصَقْلِ الصَّبِيقِلِ^(١)
أَلَمِ الْأُمِّ عَلَيْهَا يَنْقُصُ وَجْهَهَا يُعْرَبُ عَمَّا تَحْمِلُ
أَمَرْنَا يُحَكِّمُ مِنْ أَلَمِهَا صَبَحْنَا يَشْرِقُ مِنْ إِظْلَامِهَا^(٢)
إِنْ تَهَبْ مِنْ جِجْرِهَا لِلْأُمَّةِ مُسْلِمًا حَقًّا عَظِيمِ النَّجْدَةِ
وَالَّتِي رَقَّتْ وَخَفَّتْ مَحْمِلًا بَاطِنُ الْمِرَاءِ فِيهِ عَطْلًا^(٣)
شَعَّ نَوْرَ الْعَرَبِ فِي فِكْرَتِهَا وَتُرَى الثَّوْرَةَ فِي مَقْلَتِهَا
قَطَعَتْ أَوْصَالَ هَذِي الْأُمَّةِ حِينَ طَاشَتْ عَيْنُهَا بِالنَّظَرَةِ
إِنَّ حَرِيَّتَهَا أَصْلُ الْبَلَاءِ إِنَّ حَرِيَّتَهَا فَقْدُ الْحَيَاءِ
لَيْلِهَا مَا ضَاءَ فِيهِ نَجْمُهَا لَمْ يَطْلُقْ أَعْبَاءُ أُمِّ عِلْمِهَا^(٤)
لَيْتَهَا لَمْ تَنْمُ فِي رَوْضَتِنَا لَيْتَهَا تُغْسَلُ مِنْ حُلَّتِنَا

أَنْجَمُ التَّوْحِيدِ فِي غَيْبِ الْأَبْدِ مَضْمَرَاتُ لَيْسَ يَحْصِيهَا عَدْدُ
لَمْ تُسَيِّبْ بَعْدُ مَنْ قَيْدَ الْعَدَمِ لَمْ تُقَيِّدْ بَعْدُ فِي كَيْفِ وَكَمِ
جَلَّوَاتُ فِي دَجَانَا تُضْمَرُ فِي ظِلَامِ الْكُونِ عَنَّا تَسْتَرُ
قَطَرَاتُ لَمْ تَزِنْ زَهَرَ الرُّبَى وَزَهْوَرُ لَمْ تَفْتَحْهَا الصَّبَا

(١) كهام المقول : عيبة اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .

(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائقها .

(٣) صدفت عن الحمل والوضع .

(٤) لم يضيء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنما تنبتُ هذي الزَهَراتُ ناضراتٌ في رياض الأمهات
أيها العاقلُ ! مالُ الأُمَّةِ ليس من عِقْيَانِهَا وَالْفَضَّةِ
إنَّه أولادها ملءُ الأملِ في ذِكَاءٍ ونشاطٍ وعَمَلٍ
تحفظُ الأمُّ إخفاءَ الأُمَّةِ وقُوى قرآننا والمِلَّةِ

في بيان أنَّ سَيِّدَةَ النِّسَاءِ فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّسَاءِ المسلمات

أُمُّ عِيسَى نَسَبَةٌ واحِدَةٌ بثلاثِ تزدهي فاطمةُ :
قَرَّةُ العَيْنِ لخيرِ الأوَّلِينَ ، خاتِمِ الرُّسُلِ ، وخيرِ الآخرين ،
نافعُ الرُّوحِ بدنياً وَوَهْنِ خالقُ العَصْرِ جَدِيدِ السَّنَنِ
وهي زوجُ المرتضى ذا البطلِ أسدِ اللهِ الحَكِيمِ الفِئِصَلِ
ملكٌ في الكوخِ زهداً قد أقام كلُّ ما يملك درعٌ وحُسامُ
وهي أُمُّ السَّيِّدِينَ الأَكْرَمِينَ حسنِ خيرِ حَلِيمٍ وَحُسَيْنِ
ذا سراجٍ في ظلامِ الحَرَمِ حافظٌ وَخِدَّةُ خيرِ الأُمَمِ
ازدري المَلِكَ ابتغاءَ الألفَةِ أطفأ النِّيرانَ بين الإخوةِ
ذاك في الأبرارِ ربُّ العَلَمِ أسوةُ الأحرارِ في الخُطْبِ العَمِيِّ
سيرةُ الأولادِ صنْعُ الأمَّهاتِ وَخِلالُ الخَيْرِ طَبْعُ الأمَّهاتِ
زهرةٌ في روضةِ الصِّدْقِ البَتُولِ أسوةُ النِّسوةِ في الحقِّ البَتُولِ
فاقةُ السَّائِلِ أذرت دمعها ليهوديٍّ أباعَتْ درْعَها^(١)
كلُّ من في الأرضِ قد طاع لها ورضاها حين تُرضي بعلها
نُشِئتُ ما بين صبرٍ ورضا في الفَمِ القرآنُ ، والكفِّ الرِّحَى

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دُمُعُهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ جَرَى فِي مَصْلَاهَا يَفُوقُ الْجَوْهَرَا
لَقَطَ الرُّوحُ الْأَمِينَ الدُّرَرَا وَعَلَى الْعَرْشِ الْمَعْلَى نَشْرَا
أَنَا لَوْلَا الشَّرْعُ عَنْ هَذَا نَهَى وَإِلَى شَرِيعِ الرُّسُولِ الْمَتَهَى
طَفْتُ حَوْلَ الْقَبْرِ إِجْلَالًا لَهَا نَائِرًا مِنْ سَجْدَاتِي حَوْلَهَا

خطابٌ إلى المرأة المسلمة

مُشْعَلٌ مَصْبَاحُنَا مِنْ نَارِكَ عَرَضْنَا فِي الصُّونِ مِنْ أَسْنَارِكَ
خَلَقَكَ الطَّاهِرُ فِينَا رَحْمَةً قَوِيَ الدِّينُ بِهِ وَالْأَمَّةُ
طَفَلْنَا عَلِمَتِهِ حِينَ الْفُطَامِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ مِنْ قَبْلِ الْكَلَامِ
صَيَغَ مِنْ حُبِّكَ أَطْوَارَ لَنَا فَعَلْنَا ، أَقْوَانَا ، أَفْكَارُنَا
بَرَقْنَا فِي سُحُبٍ مِنْكَ ثَوَى شَعَّ فِي الْأَطْوَادِ ، وَالْيَدَ طَوَى
ضَاءَ دِينِ الْحَقِّ مِنْ أَنْفَاسِكَ وَنَمَا التَّوْحِيدُ فِي أَحْجَارِكَ
ذَلِكَ الْعَصْرُ غُرُورٌ مَآكِرُ وَعَلَى الْأَدْيَانِ بَاغٍ فَاجِرُ
عَقْلُهُ أَعْمَى وَبِاللَّهِ كَفَرُ كَمْ جَهُولٍ فِي شِرَاكِ قَدْ أَسَرُ
عَيْنُهُ عَيْنٌ وَقَاحِ فَاتِكَ بِشَبَاكِ الْهُدْبِ كَمْ مِنْ هَالِكِ !
صَيْدُهُ يَحْسَبُ حَرًّا نَفْسَهُ مَيِّتُهُ يَزْعُمُ قَصْرًا رَمْسَهُ^(١)
بِكَ يَخْضَرُ غِرَاسُ الْوَحْدَةِ بِكَ يَنْمُو رَأْسُ مَالِ الْمِلَّةِ
لَا تَسِيرِي غَيْرَ نَهْجِ السَّلَفِ لَا تَبَالِي بِجَدَى أَوْ تَلْكَفِ
احْذَرِي فِتْنَةَ عَصْرِ مُهْلِكِ وَإِلَى صَدْرِكَ ضُمِّيْ وَلَدَكِ
بَعُدْتُ عَنْ عَشْهَافِي خَطَرِ هَذِهِ الْأَفْرَاحِ ، لَمَّا تَطَرِ

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حرًّا ، والميت يحسب رمسه قصرًا لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فِيكَ تَسْمُو لِلْمَعَالِي فَطَرُهُ فَاتَّبِعِي الزَّهْرَاءَ ، نَعَمَ الْأَسْوَةُ
عَلَّ غَصْنًا مِنْكَ يَأْتِي بِخُسَيْنٍ فَتَرَى النُّصْرَةَ رَوْضَاتٍ دَوْنَيْنِ

خلاصة مطالب المنظومة

في تفسير سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ظَهَرَ الصُّدَيْقُ لِي فِي الْحُلُمِ	مُزْهِرًا مِنْهُ تَرَابُ الْقَدَمِ
ذَا « أَمْرُ النَّاسِ » فِينَا مَنْ جَلَا	طُورُنَا مِنْهُ الْكَلِيمُ الْأَوَّلَا ^(١)
هُوَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي الدِّينِ وَفِي	صَحْبَةِ الْغَارِ وَفِي الْقَبْرِ ، الْوَفِيِّ ^(٢)
قُلْتُ : يَا صَفْوَةَ أَصْحَابِ الصَّفَاءِ	مَطْلَعِ الدِّيَّانِ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ !
بِكَ قَرَّ الْأَسْرُ فِي بُيَانِنَا	فَانظُرْنَ مَا الطَّبُّ مِنْ أَدَوَانِنَا
قَالَ : حَتَّامٌ أَسِيرُ الْوَهْمِ	سُورَةُ الْإِخْلَاصِ بُرْءُ السَّقَمِ
نَفْسٌ فِي كُلِّ صَدْرٍ جَائِلٌ	وَهِيَ لِلتَّوْحِيدِ سِرٌّ هَائِلٌ
فَاجْلُ هَذَا السِّرِّ فِي كُلِّ الْفِعَالِ	وَلَتَكُنْ مِنْهُ مَثَالًا لِلْجَمَالِ
الَّذِي سَمَّاكَ عَبْدًا مُسْلِمًا	بِكَ لِلْوَحْدَةِ فِي الدُّنْيَا سَمَا
قُلْتُ : أَفْغَانٌ ، وَتَرْكٌ وَعَجَمٌ	لَمْ تَزُلْ عَمَّا تَعُودُ الْقَدَمُ
طَهَّرْنَا الْحَقُّ مِنْ هَذِي السَّمَاتِ	اقْصِدِ الْبَحْرَ وَخَلِّ الْقَنَوَاتِ
يَا أَسِيرًا لِسَمَاتٍ وَيَحْكَا !	قَدْ بَعُدْتَ الْيَوْمَ مِنْ دَوْحِكََا
أَبْدَلِ الْوَحْدَةَ بِالتَّثْنِيَةِ	لَا تَقْطَعْ صَاحِ ! حَبْلَ الْوَحْدَةِ

(١) إشارة إلى الحديث : « أَمْرُ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالَهُ أَبُو بَكْرٍ » .

(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن

بجانبه .

عابد الواحد ! وحّد واهجرن
 أيها المغفل معنى الكلم
 أمة قطعتها في أمم
 قوة الإيمان زد بالعمل
 كلّ تفريق وللحقّ ارجعن
 أثبتن في القلب ألفاظ القم
 هدمت الحصن فيه تحتمي
 مات إيمان إذا لم يعمل

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾

أشعرن القلب « الله الصمد »
 ليس عبد الله عبد السبب
 ليس غير الله يرجو المسلم
 لا تبئن شكاة أحدا
 بالشعير اقنع ، ثقيل حيدرا
 فيم للأجواد حمل المن
 لا ترّم رزق لثيم يُنغص
 إن تكن نملاً وكنّت المقعدا
 خفف الزاد ، طريق وعُر
 اجعلن « أقلل من الدنيا » الشعاز
 وكن الأكسير لا التّرب بها
 تخلصن من قيد أسباب وحد
 ما الحياة الحقّ دور اللولب^(١)
 وفو للنّاس جميعاً سلّم
 لا تمدّن إلى الخلق يدا
 مرحباً فاقتله ، وافتح خيبر^(٢)
 أنت ، من لا ونعم في حزن
 يوسف أنت ، فأنى ترخص
 لا تؤمل من سليمان جدى
 عش ومث حرّاً . عداك الغرر
 و« تعش حرّاً » بها كلّ الفخار^(٣)
 معطياً لا سائلاً . في حبّها^(٤)

(١) إن أخلص الإنسان لله ، وتوكل عليه لا يقيد ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادة الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليّ رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حرّاً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بو عليّ » ليس مجهولاً لديك
 « تخت قابوس اركلن بالأرجل
 يفتح الحان عَجولاً نفسه
 جَرعةً من كأسه أهدي إليك :^(١)
 ابذل الرأس وبالعرض ابخل
 لفقير لم يدنس كأسه

قائدُ الإسلام هارون الرشيد
 قال : يا مالك مولى الأُمّةِ
 أنت يا بلبل فردوسِ الحديث
 لِمَ يُخفى ذا العقيقِ اليمَنُ ؟
 حبّذا زهرةُ أيامِ العراق
 تربُّه فيه من السُّقَمِ نجاه
 قال : « إني خادمٌ للمصطفى
 أنا ، من قيّدت في حُبِّي له
 لي في يثرب حبٌّ واشتياقٌ^(٢)
 ويقول العشق : أمري امثلاً
 أنت تبغي أن تُرى لي سيّداً
 التعليمك أغشى بابك
 إن تَرُم في الدين علماً يُقتنى
 من سقى نقفور من ماء الحديد^(٣)
 أنت يارونق وجه المَلّةِ
 إنني أرغب في درسِ الحديث
 اقصدن بغداد ، نعم الوطن^(٤)
 حبّذا حسنٌ به الأعين راقٍ
 قاطرٌ من كزيمه ماء الحياه
 وبحسبي حُبّه لي شرفاً
 كيف أنأى عن مكانٍ حلّةُ
 أين من ليلي بها صبغ العراق ؟
 لستُ أرضى بملوكٍ خولا
 أن تُرى مولىً لحرٍّ عبداً
 خادمُ الأُمّةِ لا يعنوا لك
 فاغشين حلقة درسي هاهنا »

-
- (١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .
 (٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .
 (٣) اليمَن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .
 (٤) في الأصل : أنا حيّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الذي استغنى جديرٌ بالدلال
 صبغة الحق من استغنى اكتسى
 أنت من غيرك تجدو علمكما
 أنت منه إشعار تفخرو
 خشعت أرضك من أمطاره
 مطراً من مزنه لا تجتدي
 سلسلت عقلك أفكار له
 مستعار كلم في فمكما
 أعوزت طيرك ألحان الغناء
 أنت في كأسك خمراً تجتدي
 لو يعود اليوم فينا ذو النظر
 ماز صدقاً وكذباً سمعه
 ثم نادى « لست مني » يافسى
 فإلام العيش مثل الأنجم
 أنت قد غرّك صبح كاذب
 أنت شمس نفسك اعرف كل حين
 إن في قلبك نفساً من سواك
 بسراج الناس مغناك أضواء

في دلالٍ عنده كل جمال
 ورأى صبغ سواه دساً
 بطلاء منه تطلبي وجهكما
 أنت ذا أم غيرتك الغير؟^(١)
 وخلا البستان من أزهاره
 لا تُبذ زرعك عمداً باليد
 ثلاث خلقك أوتار له
 مستعار أمل في قلبكما
 ليس في سروك في الجو رواء^(٢)
 وكذلك الكأس جدوى في اليد
 من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾^(٣)
 وابتلّى كل فراش شمع^(٤)
 ويلتا يا ويلتا يا ويلتا
 يطلع الشبح لها بالعدم
 أنت عن نفسك حقاً ذاهب
 لا تُضئها من نجوم الآخرين
 باعت الأكسير بالترب يدك
 وبخمر الناس في الرأس انتشاء

- (١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .
 (٢) السرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إن
 طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .
 (٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] .
 (٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمع الفراش الذي
 يهفو إليه حباً .

لك حول الشَّمع في الحفل دوار اغشَيْنَ نارك . هل في القلب نار^(١)
 ابقَ في مثواك مثلَ البصر لا تدغُ عُشَّكَ مهما تَطُر^(٢)
 حَيَّ فردُ نفسه قد عَرَفَا وقيلَ عن سواه صَدَفَا^(٣)
 عن طريق المصطفى لا تذهبن واترك الأرياب ، والله اعْبُدُنْ

﴿ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِدْ ﴾

قد علا قومك عن لونٍ ودَمٍ وعلا أسودُه حُمَرَ الأُمم
 في وضوء قطرةٍ من قنبر هي أغلى من دم من قيصر
 اتركن عَمَّا وأمَّا وأبَا وكسلمان إلى الدين انسبا^(٤)
 يا خليلي اسمع حديثي واعقلا من خلايا النحل هذا المشلا :
 قطرةٌ من شقير كالقَبَسِ ثمَّ أخرى مِنْ بياضِ النرجسِ
 لم تقلْ هذي : أنا نَيْلُوفَرُ أو تقلْ هاتيك إنِّي عَبَهْرُ
 شأنُ إبراهيمَ في ملتنا دين إبراهيم فيه شهدنا
 إن جعلتَ الدَمَ ركنَ الملة صدعتَ دعواك جمعَ الإخوة
 في ثرانا ليس ينمو بَزْرُكَما أنتَ ما أسلم حقاً فكَرُكَما

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطلل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالْبَصَرِ ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدُّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدق عن غيرها .

(٤) يروي أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابن مسعود سراج المتقين
 أج من موت أخيه صذره
 لم يجف الدمع من حرقة
 « آه للفقاريء درس العظة
 « آه للسرو الذي قد وزفا
 « عينه تحرم إحصار النبي

جسمه والروح وجد المختين
 وأذاب القلب منه جمره
 ناح نوح الأم في لوعته :
 ورفقي في طلاب الحكمة
 وشريكي في ولاء المصطفى
 وأنا أشهد أنوار النبي^(١) »

ما من الأنساب يقوى وصلنا
 إنما حب الحجازي الحبيب
 حبنا أسرة من حبه
 جذد الدهر بنا سيرته
 عشقه سر اجتماع الأمّة
 صلة العشق لنا أقوى سبب
 أيها العاشق خلّ النسبا
 نور حقّ مثله أمّته
 « نور حقّ ما حواه نسب
 من ثوى في نسب أو بلد

ليس من روم وغرب أصلنا
 قد حبانا ذاكم الوصل القريب
 حسب عين نشوة في قربه
 مذ حوت أعرافنا نشوته
 نبضت منه عروق الملة
 هو في الروح ، وفي الجسم النسب
 خلّ إيران ، وخلّ العربا
 قد نمت أغصاننا دوحته
 ثوب حقّ ، لا سدى أو لحمه^(٢)
 قد غفا عن « لم يلد ولم يولد »

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

عامراً بالحق قلباً قد عمر ؟
 لم ترُ عها طلعةً من مُجننٍ
 فتراها لها يستعمرُ
 أنها خلُف عنها كوكبُ
 وشُعاعُ الشمس فيها قُبُلُ
 لتُرى في الناس حُرّاً أوحداً
 عبده يابى شريكاً مثله
 ليس يرضى بمُسامٍ في السّما
 ﴿ أنتم الأعلىون ﴾ تاجُ المَفرق
 وحوى برّاً وبحراً صدره
 صدره لِلْبَرِّقِ إمّا نزلاً
 أمره المعيار في خيرٍ وشرٍ
 جوهراً فيه كمالٌ للحياه
 نعمةٌ إلا أذانُ المُسلم
 وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريمٍ
 قهره في الحرب صهرٌ للحجر
 وهو في اليد انقضاض الأجل
 هو فوق الزُهرِ ما إن يستقر
 طائراً فيما وراء الفلك
 دودةٌ في ظلمةِ الثُرب تُراح
 قد أصبتِ الدُّلَّ من هَجَرِ القُرآن^(١)

صاح ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقر
 زهرةً من شَقَرٍ في القُننِ
 نفساً ينفخ فيها السَّحَرُ
 تُشفق الزُّهرُ عليها تحسبُ
 النّدى منها نُعاساً يغسل
 ﴿ لم يكن ﴾ أميكُ بها واشدُّ يدا
 ذلك الواحدُ لا شريكَ له
 قد سما المسلم أعلى مَنْ سَما
 وردّه ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المازق
 حملَ الكونين طرّاً ظَهْرُه
 أذنه للرعَدِ إمّا جَلْجَلَا
 قاتِلُ الرُّورِ ، وللحقِّ ورز
 جمره كلُّ لهيبٍ في حشاه
 ليس في ضوضاء هذي الأمم
 هو في العفو وفي البذل عظيمُ
 لُطفُه في الحفلِ جبرُ المنكسرِ
 هو في الرّوض صفيّرُ البُلبلِ
 قلبه تحت سماءٍ لا يقر
 طائرٌ ينقر نجمَ الحُبكِ
 أنت ، يا مَنْ لم يَطُرْ منك جَنَاحُ !
 مستكينٌ تشتكي جور الرّمانُ

قد هَبَطَتِ الْأَرْضَ طَهْرًا كَالنَّدَى بِالْكِتَابِ الْحَيِّ أَمْسَكَتْ يَدَا
فَلَامَ الْعَيْشُ فِي الثَّرْبِ ؟ أَرْحَلَا اصْعَدَنَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمة للعالمين

نَفَرْتُ مِنْكَ مُحْيَاها الْحَيَاةَ وَرَأَتْ تَعْيِيرَ رُؤْيَاها الْحَيَاةَ
الْجِهَاتِ السَّكَّاتِ نَوْرٌ يَسْطَعُ مِنْكَ ، وَالْأَقْوَامُ جَمْعًا تَبْعُ
إِنَّ فَقْرًا فِيكَ ذَخِرُ الْكَائِنَاتِ قَدْ تَعَالَى بِكَ قَدْرُ الْكَائِنَاتِ^(١)
أَنْتَ أَشْعَلْتَ مَصَابِيحَ الْحَيَاةِ وَجَبُوتَ النَّاسِ مِنْ رَقٍّ نَجَاةِ
صُورُ الْكُونِ بَدَتْ مِنْ دُونِكَ فَاقَةً تَشْكُو وَتَشْكُو الْخَلْكَ
نَفْسٌ مِنْكَ أَطَارَ الشُّرَا فَاسْتَحَالَ الطَّيْنُ مِنْهُ بَشَرًا^(٢)
وَسَمَتْ لِلنَّيْرِيسِ اللَّذَّةُ وَتَجَلَّتْ مِنْ حَشَاها الْقُوَّةُ
مَنْ أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَقْرَبُ مَذْرَأَى وَجْهَكَ طَرْفِي الْمَعْجَبُ
عَشْقُكَ النَّارَ بِجَسْمِي يُضْرِمُ فَلْيُذِبْ رُوحِي مِنْهُ ضَرْمُ
وَمَتَاعِي أَنَّهُ مِثْلَ الرَّبَابِ إِنَّهَا الْمَصْبَاحُ فِي بَيْتِي الْخَرَابُ
كَيْفَ لَا يُبْدِي شَجَّ أَنْرَاحِهِ ؟ كَيْفَ لَا يُبْدِي زَجَاجَ رَاحِهِ ؟
ضَلَّ عَنْ سِرِّ النَّبِيِّ الْمُسْلِمُ مَوْثِقًا قَدْ صَارَ هَذَا الْحَرَمُ^(٣)
كُلُّهُمْ فِي قَلْبِهِ يَتَوَي هُبْلُ وَمَنَاةٌ فِيهِ وَالْعُرَى تُحْلُ

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكلم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلام وفاق وفاق وحاجة إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شِخْنَا يَفْضُلُهُ الْبَرْهَمَنْ
هَجَرَ الْعُرْبَ ، وَفِي الْعُزْبِ عَصَمَ
فَتَّ بَرْدُ الْعُجْمِ فِي أَعْضَائِهِ
هُوَ ، كَالْكَافِرِ ، يَخْشَى الْأَجْلَا
دَاوَهُ كَسَلٌ طَيِّبٌ مَا شَفَا
هَالِكَا عَزَفْتَهُ مَاءَ الْحَيَاةِ
قَلْتُ عَنْ أَحْبَابِ نَجْدٍ قِصَّتِي
فَأَضَاءَ الْحَفْلَ مِنْ لَحْنِي آيَاةَ

سُمناتُ رَأْسِهِ يَسْتَوِطِنُ^(١)
وَاطْأَلِ النَّوْمَ فِي حَانِ الْعَجْمِ
دَمْعُهُ أَبْرَدُ مِنْ صَهْبَائِهِ
صَدْرُهُ مِنْ قَلْبٍ حَيٍّ قَدْ خَلَا
فَحَمَلْتُ النَّعْشَ عِنْدَ الْمُصْطَفَى
وَمِنْ الْقُرْآنِ أَسْرَارَ النِّجَاةِ
حَدَّثْتُ عَنْ رَوْضِ نَجْدٍ نَفْثَتِي
وَدَرَى قَوْمِي أَسْرَارَ الْحَيَاةِ^(٢)

قِيلَ : أَهْدِي سَحَرَ أَوْزِيَّةَ لَنَا
وَاهِبِي عَوْدَ سُلَيْمَى كَرَمَا
أَهْدِ لِلْحَقِّ ، الَّذِي قَدْ أَفْكَأَ
إِنْ يَكُنْ قَلْبِي غَوَى لَا يُبْصِرُ
أَنْتَ يَا مَنْ نَوْرُهُ صَبَحَ الْعُصُورِ !
أَهْتَكُنْ أَسْتَارَ فِكْرِي وَافْضَحْنِ
وَحَيَاتِي اقْطَعْ لِأَجْلِ الْأُمَّةِ
أَبْعِدْنِ عَنْ رَوْضَتِي الْغَيْثَ الْمَرِيعَ
جَفَسَفِ الرَّاحَ بِكَرْمِي عَاجِلَا

وَبِقَانُونِ الْفَرَنْجِ افْتَنَّا^(٣)
وَالْأَبُوصِيرِي بُرْدًا كَرُمَا^(٤)
الَّذِي يَجْعَلُ مَا قَدْ مَلَكَا^(٥)
أَوْ سَوَى الْقُرْآنِ لَفْظِي يُضْمِرُ
أَنْتَ يَا عَالِمَ أَسْرَارِ الصُّدُورِ !
طَهَّرَنْ مِنْ شَوْكَتِي رَوْضَ الرِّمَنِ
وَكَفَيْنِ شَرِّي أَهْلَ الْمَلِكَةِ
وَاحْرَمْنِي مِنْ شَأْيِبِ الرِّبَاعِ
وَامْلَأْنِ وَاحِيَّ سُمًّا قَاتِلَا

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعبد الهنادك بناءه اليوم .

(٢) الآية : شعاع الشمس .

(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .

(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمى يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .

(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخزيتني يوم حشر الأمم
أو أكن أخلصت نصحي في البيان
فدعاءً منك أجري وكفى
اسألن الله رب العرش لي
رب قد أنعمت بالروح الحزين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا

واحرمتني منك لثم القدم
ونظمت الدُر من سر القرآن
بك كم نال وضيع شرفا
يجعلن عشقي قرين العمل
ونصيأ شئت لي من علم دين
واجعلن قطر ريعي دُررا

أمل آخر في القلب أقام
هو في صدري كقلبي نزلا
أمل أذكيت منه لهبي
كلما غيَض مني الزمن
شب في قلبي هذا الأمل
إنه تحت ترابي جوهُر

مُد حوى قلبي في الدنيا مقام
شاهداً صبح حياتي الأولا
مُد شدا باسمك أمي وأبي
ودهانسي ربُّه والمحن
ونما بالعتق فيه الثمل
كوكب في جنح ليلي يُسفر

همت حيناً بذوات الحور
وعلى الرّاح صحبت الغانبه
وأحاطت بيدي نارُ البروق
وبروحي لم يزل هذا العُقار

وتعشقت ذوات الطرر
حين أطفأت سراج العافيه
وغزا قلبي قُطَاع الطريق
وبكيسي لم يزل هذا النُّضار

لبس الزُّنارَ عقلي الأزري

وغزا روحي بالنقش الفري^(١)

(١) الأزري المنسوب إلى آزر تاحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

في إسار الشك أمضيت سنين
أحرفاً ما نلت من علم اليقين
لم يُلح في ليل عمري نور حق
وفؤادي مُضمّر هذا الرجاء
ثم من عيني دمعاً سَجَمَا
وهو في رأسي مقيم لا يبين
ومن الحكمة في الريب رهين^(١)
لم يُنزل لي شعاع من شفق
صدف في قلبه دُرّ أضاء
وتجلّى في فؤادي نغماً^(٢)

يا من القلب سواه أغفلا !
سيرتي ما ضاء فيها العمل
أنا من إظهاره في خجل
يا رحيماً بك للناس مفاز
هَجَرُ غير الله شأن المسلم
حسرة المسلم إن حُمّ الممات
ويل يومي ، وهنيئاً لغدي
حبذا أرض تراها موطننا !
اِذْنَن اذكر هذا الأمل
كيف مثلي مثل هذا يأمل ؟
منك لطف يسر الجُراة لي
كل ما أبغيه موتي في الحجاز^(٣)
كيف لي عيش بيت الصنم ؟
أن يكون الذير مثنوى للرفات^(٤)
إن أقم في ذا الحمى من لَحدي
حبذا تربّ تراه مسكنا !

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنّ في قلبه .

(٣) كَرّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحج ، وسأله أن يدعو الله ليقبل حجّه ، فبكى إقبال بكاء شديداً وقال : بل أسأل الله أن يسر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصة ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دَارُ حُبِّي وَمَلِكِي وَالسَّكَنُ أَيُّهَا الْعُشَّاقُ ! ذَا نِعَمَ الْوَطَنِ »^(١)
 كَوَكْبِي أَطْلَعُهُ بِالسَّعْدِ غَدَا فِي ظِلَالِ الدَّارِ هَبْ لِي مَرْقَدَا
 لِيَرَى الرَّاحَةَ قَلْبِي الْقَلْبُ وَيَرَى الْهَدَاةَ هَذَا الزَّبْتُ
 أَيُّهَا الدَّهْرُ انظُرْ هَذَا السَّلَامُ قَدْ رَأَيْتَ الْبِدْءَ فَانظُرْ مَا الْخَتَامُ

(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .

الدِّيَّوَانُ الثَّالِثُ

رِسَالَةُ الشَّرْقِ
پیام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْوَهَّابِ عَزَّام

طبع هذا الديوان أوّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشّاعر فوق
عنوان الديوان : ﴿ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب
ديوان الشاعر جوته » .

وقدّم محمد إقبال هذا الديوان على أنّه شعر الفارسيّة الكامل ، لأنّه قدّم إلى
القارئ اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشّعـر
الفارسي من الغزل والرّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادفنا في
الديوان الشّعـر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والديوان روضةٌ من الشّعـر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات
فيها وألوان وصنوف الرّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشتات الزهر من المشرق
والمغرب .



محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضرب الذي يسمّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلًا ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمس وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويردّ .

القسم الخامس : الدقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الديوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدّم إليك الآن مع مقدمة الشاعر .

مقدمة محمد إقبال^(١)

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سَمَّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تتيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقالٍ له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام .

استراسبورج حيث كان يتعلّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نفتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحب لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثر من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنّ قصته « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت بيكر » واستهلّها بقوله :

كفت كز جمله ولايت روس

بود شهري بنيكوئي چو عروس

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتدأ التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهياة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبا أخذت روحه القلقة المحلقة تلتبس عشاء في فضاء الشرق الساكن الأمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختر آخر الأمر « للديوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرة في جوته فحسب ، بل كانت مأخذاً لخيالاته العجيبة الغريبة ، فيبدو نظمه أحياناً كأنه ترجمة حرّة من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوة تخيُّله في مصرع

واحد مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغة في الدقة والصعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنَّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك الشُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السَّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحوُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوته المطبوعة تتجلى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصلوك ، وكلاهما أثر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »^(١) وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيِّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشَّيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلاً في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلفٍ مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهذاب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه - ساقى نامه - عشق نامه - تيمور نامه - حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلُّه فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غريبته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التصوّف العجمي قط . وكان يعلم أنّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفيّاً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصوفي في كلام حافظ أيّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرّومي وحقائقه الفلسفية مبهمّة عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي)^(١) .

والخلاصة أنّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .



وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمّا بلاتن ؛ فقد تعلّم الفارسيّة لمقاصد أدبيّة ، ونظم غزلاً في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدة في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلف ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغرّل المحض كذلك .

وأمّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانة عظيمة في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزل كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التفت لآلء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

(١) يعني أنّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعبّار دانش ، ومنطلق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقبصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية^(١) وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظومات بالاسم المستعار « مرزا شفيح » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدّة قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيح ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلة بالتأثير الشرقي ، ولم يهتمّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشرقي إلا ديوان جوته ، على أنّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنّ قلب هذا الشاعر الألماني الحرّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوّر نفسه مرّة شاعراً إيرانياً أجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنّ أخاكم في سجن الغم يخفق حيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلة ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلة عالية في العلم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

(١) من دولة المماليك التي قامت في دملي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقّاً ، ولكن لم يتيسّر الوقت ، ولا العدّة لهذا البحث . ولعلّ هذا البحث المختصر يشير قلب أحد الشبان للتحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

وأما « پیام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنّ الاضطراب الباطن في أمم العالم . . الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به - هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطاليا » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن وأسفاه لم يستطع عبّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرة أدبية خالصة نرى أنّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مثل روحية صحيحة ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ، والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شك أنَّ أمريكا عنصر صحيح في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ، ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

إنَّ الشَّرقَ ، ولا سيما الشَّرقَ الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدَّل ما حولها حتى يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في كلماتٍ يسيرةٍ وبليغةٍ : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبين للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعى في العالم - ولا سيما في بلاد الشرق - يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

وأختم بالشثناء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسَوِّدَات « پیام مشرق » للطبع . ولولا احتمالاه هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال

القسم الأول

شقائق الطور

- ١ -

شَهِيدُ دَلَالِهِ حَفْلُ الوجود وكلُّ الكائناتِ من الشُّجود^(١)
ألم ترَ أَنَّ شمسَ الأفقِ لاحَتْ بوجهِ الصُّبحِ من أثرِ الشُّجودِ ؟

- ٢ -

بقلبي من تحرُّقه ضياءً ويجلو الثُّور في عيني البكاء
فزاد من الحياة نوى غبيٍّ يقول : العشقُ مسٌّ أو هُراءُ

- ٣ -

نسيمُ العِشقِ في الجنَّاتِ جارٍ ويُنمي العِشقُ أزهارَ البراري
ويخترقُ البحارَ له شعاعٌ فيهدي العِشقُ حيتانَ البحارِ

- ٤ -

رموزُ العِشقِ في ورقِ الشقائق وغمُّ العِشقِ في رُوحِ الخلائق
وإن تَضدَّعَ طباقُ الأرضِ تُبصر نصيبَ العِشقِ من دمِ كلِّ عاشِق

- ٥ -

وما كلُّ له في الحُبِّ كفلُ وما كلُّ السورَى للحُبِّ أهلُ
على ورقِ الشقائق وَنَمُ غَمٌ ويخلو من شرارِ القلبِ لَعْلُ^(٢)

- ٦ -

بهذا المزجِ مثلَ الرِّيحِ^(٣) أسري علامٌ أهيمُ فيه ؟ لستُ أدري
فإن أظفرَ وإن أخفقَ فلإنِّي شهيدُ تضرُّمِ الآمالِ عُمري

(١) جمع ساجد .

(٢) اللعل : أي العقيق .

(٣) الرِّيح : الرائحة .

- ٧ -

يقول العندليبُ : أيا صحابي ! أغيرُ الغمِّ في هذا التراب ؟
يشيخُ الشوكُ في عَرْضِ الفيافي ويذوي الورْدُ في عُمُرِ الشبابِ

- ٨ -

لبِذءٍ أو ختامٍ لَسْتُ أسري أنا سرٌّ أحاولُ كَشْفَ سرِّ
فإنْ بَدَتِ الحَقِيقَةُ دونَ ستر رجعتُ إلى « لعلَّ » و « ليت شعري »

- ٩ -

أقلبي ! كالفرّاش هوى ، إلامه ؟ ولا تمضي مضاء فتى ، إلامه ؟
بنارك فاحترق يوماً وأقدم بنارِ الأجنبيِّ صُلَى ، إلامه ؟^(١)

- ١٠ -

أقمُ بدنأً على كَفِّ الغُبارِ^(٢) شديدَ الأسرِ صُلْباً كالحجارِ
وقلباً فيه جيّاشاً بهم كنهرٍ في حمى الأطوادِ جارِ

- ١١ -

أنجمَ الصُّبحِ تُسرِعُ في فراقِ لعلَّكَ من رُقادي ضُمَّتْ ذُرعا
ضللتُ بغفلتي سُبُلِي ولكن أتيتُ وجُزئتُنا يقظانَ تسعى

- ١٢ -

وكم ذا في الوجود من الحُبور ! أرى اللَّذاتِ في شوقِ الظهورِ
ويصدّعُ عُصْنَه بُرعومُ زهرٍ فيسمُ للحياةِ من السُّرورِ

- ١٣ -

تقول فراشةٌ من قبل خلق أنلني لمحّةً قلبي الحياة
رمادي فاذهبه سَحَراً ولكن أذقني ليلةً حُرّقَ الحياة

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .

(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

- ١٤ -

بني الإسلام أَسْرٌ في ضَمِيرِي يُضَيِّءُ كَرُوحَ جَبْرِيلَ الرُّسُولِ
أَخْدَاعُ آزَرِيَّ الطَّبَعِ عَنْهُ^(١) فَهَذَا السَّرُّ مِنْ سَرِّ الْخَلِيلِ

- ١٥ -

أَرَاكَ بِسَرٍّ أَفْلَاكِ تَجُولُ وَتَجْهَلُ سَرَّ نَفْسِكَ يَا جَهْلُ
فَوَجَّهْ - كَالنَّوَاةِ - إِلَيْكَ عَيْنَا لِيُثَبِّتَ مِنْ قَرَارَتِكَ النَّخِيلُ

- ١٦ -

تَغْنَى طَائِرٌ سَحَرًا طَوِيلَا فَأَبْدَعَ شَدْوَهُ نَغْمًا وَقِيلَا :
أَبْنِ عَمَّا بِصَدْرِكَ لَا تَدْعُهُ غَنَاءٌ أَوْ أَيْنِسًا أَوْ عَوِيلَا

- ١٧ -

أَتَبْغِي عِنْدَ مِثْلِي مِنْ شَرَابٍ يَرُدُّكَ مِنْ وَجُودِكَ كَالْبَعِيدِ
فَلَا تَطْلُبْ بِسَوْفِي مِنْ مَنَاعٍ سَوَى صَدْرِ تَمَزَّقَ كَالْوَرُودِ^(٢)

- ١٨ -

تَسْوِيْكَ رَوْضَتِي مَرَأًى إِذَا لَمْ يَسْرُوكَ فِي طَلَابٍ بِذُلِّ رَوْحِ
أُبَيِّنُ فِي عُروْقِ الْوَرْدِ سِرًّا رَبِيعِي لَيْسَ مِنْ لَوْنٍ وَرِيحِ

- ١٩ -

أَنَا فِي الرُّوْضِ مُتَفَرِّدٌ غَرِيبٌ عَلَى غَضْنِي أَنْوَحُ مَعَ الرِّيحِ
فَإِنْ تَكُ مِنْ رِقَاقِ الْقَلْبِ فَابْعُدْ فَإِنَّ دَمِي لَيَرشَحُ فِي نُوَاحِي

- ٢٠ -

أَهَابَ إِسْكَندَرُ بِالْخَضِرِ : أَقْبَلْ وَعَانَ الْكَدَّ فِي بَحْرِ وَبَرٍّ
وَمَوْتُنْ فِي الْوَعَى تَزْدَدُ حَيَاةً إِلَامَ تَحْيِيدٍ عَنْ كَسْرٍ وَفَرٍّ ؟

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمع ورد . والورد في خياله يمزق صدره ليتجلى جماله .

- ٢١ -

له نقشٌ يُجدد كلَّ حينٍ فلا تبقى الحياةُ على غرار
فإنَّ صوّرتَ يومك مثلَ أمسٍ فما يحوي ترابك من شرار

- ٢٢ -

بهذا المَرَجِ ما علّقتُ قلبي مضيتُ ولم تعوّقني القيودُ
كريح الصُّبحِ طفئتُ به قليلاً مضيتُ ونضرت مني الورودُ

- ٢٣ -

أجاش بقطرتي بحراً وردتُ حُمَيَّاه ترابي جامِ جم^(١)
أقام العقلُ أصناماً براسي خليلُ العشق بادرها بهدم

- ٢٤ -

أتيت الطُّورَ تلمسُ التجلّي فروحُك منك ليست في وصال
فأقدم في طلابك آدمياً كذاك الله في طلب الرجال

- ٢٥ -

لخوفِ الموتِ قلبُك في ارتعادٍ ولونُك حالٌ من خوفِ الشّتاتِ
فنفسُك أحكمنَ وازدد نضوجاً فإنَّ تفعل تعش بعد المماتِ

- ٢٦ -

دع الرّازيَّ في تفسير آي فإنَّ ضميرنا نعم الدليلُ
يضرّم عقلنا والقلبُ يصلّي بسذا نمروُدُ فسّر والخليلُ

- ٢٧ -

فأبلغ شاعر الألوانِ عني : لهيُك كالشّقائق لا يضرُّ
فنفسُك لا تُذيب بنارِ قلبٍ ولا ليلاً لمحزونٍ تنيّرُ
جميلُك أو قبيحُك لا أراه جعلتَ عياري ربحاً وخسراً
بهذا الحفلِ من مثلي وحيداً ؟ أرى الدُّنيا بعينٍ في أخرى

(١) كأس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطَّانَ لا تركزنَ إليها ضعيفٌ عندها جرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارَ فيه موجاً حياةُ الخلدِ في نصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أكثرُ لي حديثاً عن حياةٍ ولستُ أراكَ فيها بالحقيقِ؟
سَكَرْتُ بلذَّةِ التَّسْيَارِ حتَّى جعلتُ منازلِي مِثْلَ الطَّرِيقِ^(١)

- ٣٠ -

مَرَزْتُ بزهرَةٍ ذبلتُ فقالتُ وجُودي مثْلُ ما طارَ الشَّراؤُ
يذوبُ لِمَخْنَةِ النِّقَاشِ قَلْبِي فليسَ لنقشٍ ليقنسه قرارُ

- ٣١ -

أرى الدُّنْيَا على سعةٍ كحوتٍ من الأيامِ في بحرٍ عميقٍ
فقلِّبْكَ أبصرُنْ واعجبْ لبحرٍ منَ الأيامِ في كاسٍ غريقٍ

- ٣٢ -

أنا في المرحِ حديثُ الطَّيُورِ ومقولُ كلِّ بُرعومٍ صَغيرٍ
فأسلَمَ للضُّبِّا تُربي بموتي فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهورِ

- ٣٣ -

أوادي الوردِ يُبدي كلَّ شيءٍ فما سرُّ الشَّقَاقِ في لهيبٍ؟
بأعيننا الرُّبَى أمواجُ لونٍ فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغي يَعتشِقُ الأصنامَ كُفْراً يربُّها ويعبدُ كلَّ حينٍ
فأبصرَ في فؤادي نارَ عشقٍ بعيدٌ أنتَ مِن سَنِي وديني

(١) يعني : أن كلَّ منزلٍ يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

- ٣٥ -

عِوَالِمُ مِنْ نَجُومٍ لَا تُحَدُّ يَطِيرُ الْفِكْرُ فِيهَا لَا يُرَدُّ
وَلَكِنْ فِي خَفَايَا الْقَلْبِ يُلْفَى لِمَا يَحْتَوِيهِ الْحَدُّ ، حَدُّ

- ٣٦ -

بِسُلْسَلَةِ الْقَضَاءِ رِبَطَتْ رَجُلًا وَفِي سَعَةِ الْعِوَالِمِ ضُمَّتْ حَالًا
فَقُمَ إِنْ كُنْتَ فِي رَيْبٍ وَحَاوِلْ تَجِدْ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا مَجَالًا

- ٣٧ -

بِضَرْبِكَ قَدْ عَلَتْ أَنْعَامُ رُوحِي أَفِي رُوحِي وَخَارِجَهَا تَكُونُ ؟
بِرَقِّكَ خَامِدٌ وَبِكَ اشْتَعَالِي بَلَا كَيْفٍ فَكَيْفَ تُرَى بِدُونِي

- ٣٨ -

أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا فُلُكِي ! وَيَا بَرِّي وَبَحْرِي !
قَطَرَتْ عَلَى تُرَابِي كَالنَّدَى أَمْ نَبَتْ بِتُرْبَتِي بُرْعُومُ زَهْرٍ ؟

- ٣٩ -

أَتَسْأَلُ مَنْ أَنَا مِنْ أَيْنَ جِيتَ حَيْثُ بِمَا عَلَى نَفْسِي طَوِيتُ
بِهَذَا الْبَحْرِ مِثْلَ الْمَوْجِ أُسْرِي إِذَا لَمْ أَطُوفِ فِي نَفْسِي فَنَيْتُ

- ٤٠ -

عَلَيْكَ السَّيْرَ لَا تَرْغَبْ مَقِيلًا وَمِزْ كَالشَّمْسِ لَا تَرْقُبْ دَلِيلًا
وَهَبْ لِلْآخِرِينَ مَتَاعَ عَقْلٍ وَنَارَ الْعِشْقِ فَاحْفَظْهَا بِدِيلًا

- ٤١ -

أَلَا يَا عَشْقُ ! يَا رَمَزَ الْفَوَادِ ! وَيَا زَرْعِي النُّضِيرِ ! وَيَا حِصَادِي !
تَقَادِمَ أَهْلُ هَذَا الثَّرْبِ فَاخْرِجْ بِأَدَمِ مُحَدَّثٍ مِنْ ذَا الرَّمَادِ

- ٤٢ -

يَرَى قَلْبُ الشُّجَاعِ اللَّيْثَ وَهَمًا وَفِي قَلْبِ الْجَبَانِ الطَّيْبِ يَرُ
فَلِإِنْ تَجِبُنْ رَأَيْتَ الْمَوْجَ وَحْشًا وَإِنْ تَشْجُعْ فَلِإِنَّ الْبَخْسَ بَرُ

- ٤٣ -

أخمرأ خلتنني أم كأسَ خمرٍ ودُرّاً خلتنني أم كيس دز
أراني غير روعي وهي غيري متى أنظر إلى مكنون سرّي

- ٤٤ -

تقول : بطيرنا علقث قيودُ وفي شركِ الجسوم لها همودُ
ومعنى الرّوح بالأجسام يعلو مسرُّ سيوفنا هذي الغمودُ

- ٤٥ -

فكيف بقلبنا ولدَ الرّجاءُ وكيف سراجُ منزلنا يُضاء
ومن في العين يبصر ؟ ما يراه ؟ وكيف حوىّ النّهي طينٌ وماءُ

- ٤٦ -

لنا كون لأزميلٍ ونحتٍ يقبّبه صباحك والمساءُ
مثالٌ من تُرابٍ لم يكمل يسوّيه بمبرده القضاءُ

- ٤٧ -

طريقُك فانحنته في كفاحٍ طريقُ سواك مسلّكه عذابُ
فإن أبدعت في عملٍ فرى وإن يك مائماً فلك الثوابُ

- ٤٨ -

دليلُ القلب لا يرضى نزولاً ولا يُرضيه ماؤك والثّرابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيماً فلا يرضى بشطّ ذا العُباب

- ٤٩ -

تخذتُ لخلوتي طيني ومائي وبُوعدَ بين أفلاطٍ وبينني
فلم أستجد يوماً عينٍ غيري ولم أر عالمي إلّا بعيني

- ٥٠ -

ترى رمز الحياة بكل كمٍ مجازٌ فيه يا قلبي الحقيقة
بُسرٍ مظلّمٍ ينمو ولكن له عينٌ إلى شمس الخليفة

- ٥١ -

يُضيء على المروج وكلَّ سَهْبٍ وكاسُ الورد فيه نورُ حُبٍ
وما تَغشى الورى ظلماتُ ليلٍ فحرقته السُّراج لكلِّ قلب

- ٥٢ -

وبالعدَم استزابت ثمَّ راغت فحلَّت قلبَ آدمَ للثَّواءِ

- ٥٣ -

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروحٍ فلا فزع إذا أجلي أناني
فإمَّا غاب عن عينيَّ كونٌ فباقٍ أَلْفُ كونٍ في جناني

- ٥٤ -

مزاجَ الزَّهر أعرف في يقينٍ وريحُ الورد في خَلَد الغصونِ
وحبَّيني إلى الأطيَّار أنِّي عَرَفْتُ لها مقاماتِ اللُّحونِ

- ٥٥ -

نظامُ الكون من شعر الرِّجاء له الأوتار من وتر الرِّجاء
بعيني كلُّ ما يمضي ويأتي هو اللَّمحاتُ من دهر الرِّجاء

- ٥٦ -

يهيمُ القلبُ في أثر الرِّجاء وصدري من ضجيجٍ في عناءٍ
فلا تطمعْ جليسي ! في حديثي فلاني من فُؤادي في نداءٍ

- ٥٧ -

أرى الحكماء تحطمُ كلَّ شكلٍ ومن هذا الوجودِ بسومنات^(١)
يريدون الملائك في طلابٍ وما ظفروا بآدم في الحياة

- ٥٨ -

جلستُ مع الطبيعة ألف عامٍ وُصِّلْتُ بها وعن نفسي فُصِّنتُ
قُصَّاري سيرتي في ذاك أن قد نحتُ ، وقد عبتُ ، وقد حطمتُ

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

- ٥٩ -

بنفسي جلوة الأفكار ، ما هذا ؟ وحولي محشر الأسرار ، ما هذا ؟
أبن لي يا حكيم : يقيم جسمي وروحي دائم التسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إن تُحِطْ خُبْرًا وكمّك يفيض من فطرة لك فيض يَمُك
فيا قلبي لم استجداء شمس ؟ من الأنفاس نوّز ليل غمّك

- ٦١ -

أفق ما القلب بالأنفاس يحيا ولا هو رهن ما يبقى ويفنى
أخا الأوهام لا ترهب حماماً فإن نفس مضى فالقلب يبقى

- ٦٢ -

إلى أهل التصوّف والصفاء رجال الله أرباب الضياء :
أنا عبد الهمة عبد نفس بنور النفس للخلاق راء

- ٦٣ -

بعدة حاننا الغبرا غبار ودورة كأسنا الفلك المدار
حديث جهادنا مضمّن طويل ودنيانا لقصتنا اختصار

- ٦٤ -

وما علقت بالأنغام قلبي وفي نغم الحياة أنا الخبير
وقد غيّت في الأغصان حنّي نصيح الطير : من ذا ؟ يا زهور !

- ٦٥ -

أثرت بنغمتي كل النوادي ومن شرّ الحياة جعلت زادي
أضاء القلب من عقلي ولكن جعلت عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددت العجم فتباناً بزمري وراج متاعهم من بعد خسر
وكانوا هائمين بكلّ وإد وقافلة نظمتهم بشعري

- ٦٧ -

بروح العُجم مِنْ نَغْمِي شرار
وعاليتُ الحداء لهم كعُزْفِي^(١)
قرعتُ لهم بأجراسي فساروا
تباطأ محملاً ونأت ديار

- ٦٨ -

نفثتُ النَّار مِنْ رُوحِي نفثتُ
وصيّر طينه لهباً نُواحِي
وصدر الشُّرق قلباً قد وَهَبْتُ
كبرق في سجاياه نَفْذْتُ

- ٦٩ -

بأغصانِ الرَّجاءِ جنيثُ أكلاً
أرامِي أخشَ للبهستانِ ربّاً
وأفضى الدَّهر بالسُرِّ المنيع
فإنَّ معي رِسالَتِ الرِّبيعِ

- ٧٠ -

بحار العُجم ليس لها قرارُ
ولكن لا أحبُّ ركوبَ بحرٍ
وفي أحشائها دُرٌّ كَبَّارُ
إذا لم يُخشَ في موجٍ خطارُ

- ٧١ -

على دُنْيَاكَ تقضي بالهوانِ
فأحكم يومَكَ المشهودَ واعلمُ
وسترُّ للمغيَّبِ كلُّ آن
بأنَّ غداً ضميرٌ في الزمانِ

- ٧٢ -

كَرِهْتَ سيادةَ الإفرنجِ لكنْ
ألفتَ عبادةَ السَّاداتِ حتَّى
سجودُكَ للقبابِ وللقبورِ
لتنحتُ سادةً لك من صخورِ

- ٧٣ -

إلامَ تعيش في رثِّ الإهابِ ؟
فَطِرْ كالصَّقَرِ معتزماً وحلَّقْ
إلامَ تعيش نملاً في ترابِ ؟
إلامَ أسيرُ حبِّ في اليَّابِ ؟

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نوارا تلخ ترمي زن جوذوق نغمه كما يابی

حدی راتیز ترمی خوان چون محمل را کران بینی

- ٧٤ -

اتخذ في الورد والأزهار عشا
وإن ينقص قواك الشيب فاؤخذ
ومن طير دروساً في انتخاب
من الدنيا نصيباً من شباب

- ٧٥ -

أهاب بمسمعي تُراب قبر :
له نفس وليس لديه روح
وتحت الأرض يُمكن أن يُعاشا
ذليلٌ في مُرادٍ سواء عاشا

- ٧٦ -

سماطي ليس فيه ما يروق
غزالي يفتدي عُشب الموامي
ولا في الكأس لألأث السرحيق
ولكن صدره مسكٌ فتيق

- ٧٧ -

قُلوبُ المسلمين قسَن ناري
برُوحِي مَخْشَر قد غابَ عنهم
ودمعي من عيونهم هَتُونُ
فلم تر ما رأيتُ لهم عيونُ

- ٧٨ -

أرى للعشق تصريفاً عجيباً
رماك بأذمعٍ وسباك نفساً
يقلّب كيف ما يهوى القلوبا
وصيّرنِي إلى نفسي قريبا

- ٧٩ -

رأيتك لا تزالُ أسير طينِ
أنا بشرٌ بلا لونٍ وريحِ
إلى تُركٍ وأفغانِ تُردُّ
وللتوران أو للهند بعدُ

- ٨٠ -

أثار الشَّعْرُ في جنبِي نارا
حديثُ الحبِّ حاولَهُ لساني
ورَدَّ الثُّرْبَ في طُرقي سَرارا
فزاد السرَّ تيباني سَرارا

- ٨١ -

تولّى بعدُ عن عقلِ الفنون
فلا تستفتِ إقبالاً لشيءٍ
وأدمى قلبه عِشْقُ الشُّجونِ
فإنَّ حَكِيمنا زَهْنُ الجنونِ

القسم الثاني

أفكار

الوردة الأولى

لا أرى في المروج لي من قريب
أبتغي في الغدير صورة نفسي
فسي سُطوري رسالةً يبراع
أمس قلبي ، وعبرةً اليوم عيني ،
وأنا النجمُ خلفته الثريا
أنا أولى زهورِ هذا الربيع
لأرى وجهَ مؤنسٍ لي سميع
خطأ سطر الحياة في ترصيع
وغدي مُنيتي وكلُّ بديع
نَسَجَ الثربُ ثوبَ وردٍ عليّ

دعاء

أيا مالئاً كاسي بحانة فطرتي
وصيّر أنيني ثروة العشق واجعلن
إذا متُّ فاجعلني سراجَ شقيقة^(١)
أذب طينَ كاسي من حرارة خمرتي
ترايباً بسينائي تسعّر شعلته
وبالبيدٍ أحرقني وزد نار وشمتي

رائحةُ الورد

وحوراء في الخلد ضاقت فقالت :
يحْيِئْ عقلي نهائراً وليلاً
غَدَتْ رِيحَ وردٍ وذَرَّتْ بَغْضَني
« جَهلنا بما تحتنا مِنْ جهاتِ
وما قيل عن مَولِدٍ أو مماتِ
فحلّت بعالمٍ ماضٍ وآتِ

(١) يعني : زهرة من الشقائق .

وَتَفْتَحْ عَيْنًا وَتَبَسِّمْ كَمَا ويعد نماء هَوَتْ فِي شَتَات
لهذي العليقة لم تبق ذكرى سوى آهة سَمَّت بِالشَّذَاةِ^(١)

نشيد الوقت

قد أحاطَ الشَّمْسَ حِجْرِي	وحوى الأنجم صَدْرِي
أَنَا لَا شَيْءَ وَلَكِنْ	فِيكُمْ رُوحِي تَسْرِي
أَنَا فِي دُورٍ وَقْفِرِ	أَنَا فِي كُوخٍ وَقَصْرِ
أَنَا دَاءٌ وَدَوَاءُ	وَأَنَا عَيْشَةٌ يُسْرُ
أَنَا سَيْفُ الدَّوْرَانِ ^(٢)	أَنَا عَيْنَ الْحَيَوَانِ ^(٣)
إِنَّ جَنْكِيَزَ وَتِيْمُو	رَ قَلِيلٌ مِنْ غُبَارِي
ثَوْرَةُ الْإِفْرَنْجِ فِيهَا	نَفَثَاتٌ مِنْ شَرَارِي
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ وَالذُّنْيَا	نُقُوشِي وَابْتِكَارِي
وَدِمَاءٌ مِنْ قُلُوبِ	فِي رِيْعِي كَالْبُهَارِ
أَنَا لَفْحُ النَّيْرَانِ	أَنَا رَوْضُ الرُّضْوَانِ
أَنَا سَيَّارٌ مَقِيمٌ	إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِمْرُ
إِنَّ فِي خَمْرَةٍ يَوْمِي	مِنْ غَدٍ يَظْهَرُ سِرُّ
أَلْفُ كَوْنٍ ، فَاَنْظُرْنَهَا	فِي ضَمِيرِي تَسْتَسِرُّ
وَنَجُومٌ فِي حَبَاكَ	وَقَبَابٌ فِي خُضْرُ
أَنَا ثَوْبُ الْإِنْسَانِ	أَنَا سِرُّ الرَّحْمَنِ

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِرِّي التَّقْدِيرُ والتَّد	يِر مِنْ سَحْرِ فَنُونِكَ
أَنْتَ مَجْنُونٌ بَلِيلِي	أَنَا صَحْرَاءُ جَنُونِكَ
أَنَا كَالرُّوحِ بَرِّي	مِنْ خِيَالَاتِ ظَنُونِكَ
أَنْتَ فِي جُوفِي سِرٌّ	وَأَنَا سِرٌّ شُؤْنُونَكَ
أَنَا حَادٍ أَنْتَ نُزْلُ	أَنَا حَقْلٌ أَنْتَ حَاصِلُ
أَنْتَ فَيَاضٌ بِلَحْنِي	أَنْتَ نَارٌ فِي الْمَحَافِلِ
يَا أَسِيرَ الطَّيْنِ فَكَّرِ	أَنْتَ عَنْ قَلْبِكَ غَافِلِ
انْظُرْنَاهُ مَلَأَ كَأْسِي	وَهُوَ بَحْرٌ دُونَ سَاحِلِ
إِنَّ مَوْجاً فِيكَ يعلو	مِنْهُ يَبْدُو طُوفَانِي

الرَّبِيع

- ١ -

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرَّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ
 وَشَذُو الْعَنَادِلِ فِي كُلِّ وَادٍ
 وَدَرَّاجُهُ وَالْقِطَاءُ فِي تَهَادِي
 عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ جَذَلَى شَوَادِي
 شَقِيقٌ وَوَرْدٌ ضَحْوَكٌ يُنَادِي
 فَطَرَفَكَ سَرَّحَ بِهَذَا الْمُرَادِ

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرَّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ

- ٢ -

هَلُمَّ فَمِلْهُ الرُّبَى وَالشُّهُولِ قَوَافِلُ أَزْهَارِهِ وَالْوُرُودِ
 نَسِيمُ الرَّبِيعِ عَلَى كُلِّ عَوْدِ
 وَلِلطَّيْرِ إِبْدَاعُهَا فِي النَّدِيدِ

ومزقتِ الجيبَ حُمُرُ الخدود^(١)
جنى الحُسنُ ناشيءَ زهرٍ نَضِيدِ
وللعشقِ إيداعُ غمٍّ جَدِيدِ
هلمَّ فعملء الرُّبى والسَّهولِ قَوافِلُ أزهاره والورودِ
- ٣ -

صَفِيرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصلِ ملءُ النَّسيمِ^(٢)
دُمُ المِرجِ في جوفه كالْحَمِيمِ
فيا قاعداً صامتاً لا يَريمُ !
دع الصمتَ واتركِ وقارَ الحليمِ
وَحُمُرَ المعاني اشربنِ يا سقيمُ !
تَدثُرُ بورِدٍ وغمٌّ النديمِ
صَفِيرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصلِ ملءُ النَّسيمِ
- ٤ -

دعِ الدُّورَ واطلبِ فسيحَ البراري وانظرِ إلى صفحاتِ الجمالِ
على حافةِ الماءِ دونَ ملالِ
تَأْمَلِ تَرَفُّقَ ماءِ زُلالِ
وحَدِّقِ إلى نَرجسٍ ذي دَلالِ
بُيُوتِ نِيسانِ ذاتِ اختِمالِ
وَقَبِّلِ عيوناً لها كاللّالي
دعِ الدُّورَ واطلبِ فسيحَ البراري وانظرِ إلى صفحاتِ الجمالِ
- ٥ -

وَعَيْنَ البَصيرةِ فانظرِ بها أيا غافلاً عن عيانِ الخَلْقِ !

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل : الفاخنة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيقٌ بدا حَلَقاً في حَلَقِ
 بأعطافه لهبٌ قد عَلِقَ
 على كبدٍ فيه ذات حرق
 يلوح ندئٌ من دموعِ الفَلَقِ
 فحذِّقْ إلى أنجس في شفق^(١)

وعينَ البصيرة فانظر بها أيا غافلاً عن عيان الخَلْقِ

- ٦ -

ثرى المرجِ صرَّح في هَيْجِه بما أضمرث مُهْجُ الكائناتِ
 فَناءُ الصفات وكونُ الصفاتِ
 وما أبدتِ الذَّات من جَلواتِ
 وما خَلَّتْهُ من معاني الحياةِ
 وما خَلَّتْهُ من معاني المماتِ
 فليس له هاهنا من ثباتِ
 ثرى المرجِ صرَّح في هَيْجِه بما أضمرث مهْجُ الكائناتِ

الحياةُ الخالدة

لا تظنَّ الخَمَّارَ وافى ختاماً كم من الرَّاح في عُروقِ الكروم !
 يجمُلُ المَرَحُ لا بشوبِ حياةٍ مرَّفته التَّسِيمُ كالْبُرْعومِ
 من يُحِطُ بالحياة لم يرض قلباً لم تَخْزُهُ المنى بشوكِ أليمِ
 مُحْكماً كالجبالِ عث ، لا ضعيفاً واهنَ النَّار طائشاً كالهشيمِ

(١) يشبه الندى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بَكْوَكِبٍ لِأَخِيهِ يَشْكُو : لَنَا بَحْرٌ وَلَيْسَ يَلُوحُ سَاحِلُ
خُلِقْنَا لِلْمَسِيرِ بَسْلاً وَقُوفٍ فَلَيْسَ لِرَكْبِنَا أَبَدًا مَنَازِلُ

فَإِنْ تَمَضَّ النُّجُومُ كَمَا نَرَاهَا فَمَا جَدَوَى الْعَنَاءِ ؟ وَمَا نُفَيْدُ ؟
بِأَشْرَاكِ الزَّمَانِ لَنَا إِسَارُ سَعِيدٌ مَنْ يُجَانِبُهُ الْوُجُودُ

لَهَذَا الْعَبَاءُ مَحْمَلُهُ شَدِيدُ فَلَيْتَ وَجُودَنَا عَدَمٌ أَيْبَدُ
كَرِهْتُ الْقَبَّةَ الزَّرْقَاءَ أَوْجَا حُضِيضُ الثَّرْبِ خَيْرٌ لَوْ نَرِيدُ^(١)

فَطُوبَى لِأَبِي آدَمَ فِي طَعْمَانٍ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى طَرْفِ الزَّمَانِ
خَلِيقٌ بِالْحَيَاةِ لَهُ قَوَامٌ يُجَدِّدُ أَوْ يُخْلَقُ كُلَّ آنٍ

الحياة

بَكَى فِي الظَّلَامِ سَحَابُ الرَّيِّعِ فَقَالَ : الْحَيَاةُ بَكَاءٌ مَدِيدُ
فَقَالَ لَهُ الْبَرُّ فِي وَمُضَه : هَلِ الضُّحْكُ فِي لَمَحَةٍ ؟ لَا تَزِيدُ
فَمَنْ أَبْلَغَ الرُّوْضَ هَذَا الْحَدِيثَ فَصَّارَ حَوَارَ النَّدَى وَالْوَرُودُ ؟

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعشق

العلم :

أنا سرُّ الكواكب والجهات
وعيني حذقت فيما أمامي
وكم نغمتُ في عُودي وبوقي
العشق :

بسحرك سُجرت هذي البحارُ
وكنْتَ لي الصديق فكنت نوراً
وُلدتُ الأَمس في حرم الرحيم
هَلَمْ فَرُدَّ رَوْضاً ذا اليابا
هَلَمْ بِذَرَّةٍ مِنْ نارِ قلبي
كلانا الدَّهرَ خَلَّ لا يجورُ
وملأ الجوَّ سَمُوك والشرار
ونورك مَذْهَجَتْ حماي نارُ
وصرْتُ اليوم في قيد الرحيم
ورُدَّ مَشْنِبَ دُنْيَانَا شَبَابَا
أقسم في الأرض فردوساً عَجابَا
للحنِّ واحدٍ بَمَ و زيز

غناء النجوم

وجودُّنا نظامُنا
في دُورِنا دَوائِنا
في فلكِ مرامِنا
وجلوةَ الشَّهْودِ
وسُكْرنا انسجامُنا
لا يُرتجى مقامُنا
ننظر سائراتِ
ومظهَرَ البَدُودِ^(١)

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

والمعذم والموجود	ومعرك الوجود
ننظر سائرات	والغيب والمشهود
ونشأة الشَّجَعَانِ	وحلبة الطَّعْمَانِ
وذلك السُّلْطَانِ	وغير التيجان
ننظر سائرات	ولعب الزَّمان
والعبد قد تولى	مضى زمان المولى
وقصرُ قد ذلَّ	سكندرُ قد ولى
ننظر سائرات	والوثنُ اضْمَحَلَّ
والذلَّ والكفاحا	والصمت والصياحا
وتارة أفراحا	والخنَع والطماحا
ننظر سائرات	وتارة أنراحا
من كم وكيف في شغل	عقلك في عقيد وحل
مضطرب ومضمحل	مثل غزال قد عُقِل
ننظر سائرات	ونحن في العليا نحل

وما الدُّجى ما الثَّورُ ؟	ما السرُّ ما الظهور ؟
ما فطرة ضجور ؟	ما القلب ما الشعور ؟
ننظر سائرات	ما الغيب والحضور ؟
حولك عندنا لم	كفرك عندنا أم
قنعت بالظل انسجم	يا من بصدريه خضم
ننظر سائرات	نحن بعالم نهم

نسِيمُ الصُّبْحِ

أجبيء من لَجِّ بَحْرِ	ومن قلال الجبالِ
مُسَيَّراً لَسْتُ أدري	من أين شُدَّت رحالي
أزجسي لَطَسائِرَ غَمٍّ	بشري ربيع الجمالِ
ونائراً تحت عُشٍّ	نِثَارَ زَهَرٍ غَوَالِ
بُخْضِرة أنـرَدَى	وبالشقيق اتصالي
حنَّسى يهـجُّ فيه	لوناً وريحاً وصالي
يمـمـمـن أوراق وردي	تلطفني واحتيالي
فلا تـمـيلُ غصـونُ	من طوفني المتوالي
وشـاعـرٍ هـيـجـتـه	همومُ عَشْقٍ لقالِ
مزجت أنفاس صدري	بلحنه والمقالِ

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّم بنـيَّ بأنَّ الصُّقـورَ	لها قلبٌ ليثٌ وجسمٌ صغير
فكنْ مُحَكِّمَ الرأْيِ شهماً جسوراً	عليَّ السجايـا أبيعاً غيورا
بُغاث الطيور اهجرنها بعيدا	ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا
فتلك الرعايدُ نسلُ اللثام	تدسُّ مناقيرها في الرِّغَامِ
أرى البارَّ صيداً لما اصطاده	إذا قلَّد الصيد ما اعتاده ^(١)
فكم باشقٍ قد أتاه النوى	بصحبة لقاطٍ حبٍّ هوى

(١) يعني : إن قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

جريئاً متيناً قويّ العضل
 وكن مغلباً كالمدى أو أحد
 وصبراً على محنة واجتهاد
 « بريق الدماء يفوق العقيق »
 توخّذ كقومك منذ القدم
 بالأ نقيم بظلّ وساق
 فسيحُ الفياضي لنا والجبال
 حبانا الإله عنان السماء
 فأشرف منه حمام ريب
 يحدّ مخالهنّ الصخر
 كأنك عنقاء جوّ متين
 كليلٌ بإنسان عين النمر
 من الشهب فيك كريمُ العروق^(٣)
 وكل ما أصبت يساً ورطباً
 وكن راشداً واستمغ للرشد

فنفسك فاحفظ وعش في جذل
 ودغ للدراريح ليسن الجسد^(١)
 متاع الحياة ، تعلّم ، جهاد
 نقول لفرخ عقاب عتيق :
 ولا تبغ ميزباً كسب الغنم
 سمعت وصاة الصقور العناق
 فليس لنا في رياض مجال
 ولقطك حباً بأرض خطاء
 فأما خطي في الثراب النجيب^(٢)
 فإن بساط البزاة الحجر
 نماك الأوابد زرق العيون
 أصيل أبي يوم الخطر
 جناحك من سطوات البروق
 فطر في السموات لا تخش خطبا
 ولا تقبلن طعمة من أحد

سوس الكتب (الأرضة)

سمعت : بمكتبي ليلة يُنادي الفراشة سوسُ الكتاب

(١) دراريح : جمع دراج وهو طائر معروف .

(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل .

(٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

يقول مررتُ بكتبِ ابنِ سينا ونقبتُ في كتبِ الفاريازي
ولم أدرِ حكمةَ هذي الحياة وما زلتُ من ظلمتي في حجابِ
تُجيبُ الفراشةُ في حُرقةٍ : أرى نكتةً لا تُرى في كتابِ
رأيتُ الكفاحَ يُعدُّ الحياه رأيتُ الكفاحَ يُمدُّ الحياه

الشَّيْقَةِ (١)

نارٌ بِصَدْرِ عَشِقٍ ففِي أزلِ أنيسٍ
شمساً أرى وفِي كلِّ ذرةٍ أثمٍ
شرارها من ناري السماءُ تستعيرُ
حللتُ صَدْرَ مَرَجٍ كنفٍ أدورُ
وكالندى من تُربِي عُصْنٌ بدا نضيرُ
قال : قفِي قليلاً ولهبي يغورُ
وما ثواء قلبٍ من أَلَمٍ يسيرُ ؟
ثوى بضيقِ عُصْنٍ ففِي قلبٍ يفورُ
حتَّى كُسيْتُ لوناً وعبق العبيرُ
فراشةٌ فِي قلبٍ تطيرُ كلَّ ناحيه
على اللهبِ رفرفَتْ حتَّى كأنَّه هيه

أنا وأنتِ قالِيه (٢)

أو كوكبٌ فِي صدره مُستترُ الضياءِ

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقه القلب .
انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنتِ .

وقد تدلّنى هابطاً في الأرض لاجتلاء
من فلك السماء

أو قمراً مصغراً
فمنّة الشمس على شعاعه حرام
للم يحويه مقام

يا لك من يراعة تصوّرت من نور
مسيرها سلسلّة الغياب والحضور
وسنّة الظهور

يا مشعلاً للطير في معتكّر الظلام
ما حرقه أحستها فأنت في هيام ؟
حرارة الإقلام

نحن - وقد نبتنا مثلك من تراب -
نجهل في اضطراب نبصر في اضطراب
نخفق في الطّلاب

أقول قول واع مجرب شفيق :
لا تسعين لنزل وامض على الطريق
وارض بهذا التوفيق

الحقيقة

تقول لبطّة صحت عُقاب :
أجابتها محاورّة بحق
فقال الحوت في لجج عميق :
أرى ما أدركت عيني سراباً
ولكني أرى ماءً عُباباً
هنا شيء ويضطرب اضطراباً

حذاء

نغمةُ حادي الحجاز

يا ناقتي الخطارةُ

وظييتسي المعطارةُ

وعُدَّتِي والشَّارِه

والمالُ والتجارةُ

يا دولتي السيارةُ !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ

مطربةُ الرُّغَاءِ

جميلةُ الرُّوَاءِ

محسودةُ الحسَنَاءِ

وغيرُةُ الحوراءِ

بنيَّةُ الصَّحراءِ !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ

كم غُصَّتِ في السَّرَابِ

في وقدة الياب

وسرتِ لم تهابي

في اللَّيْلِ كالشَّهابِ

والنَّوْمُ عنك نائي

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ

قطعةُ غيمٍ غادي

سفينةُ الرُّوَادِ

كالخضر في البوادي

تمضيمن في سداد
 فلذة قلب الحادي !
 حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب
 هيامك الزمام
 وسيرك الأنغام
 يتعبك المقام
 لا الجوع والأوام
 والسفر المُدام
 حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب
 ممسية في اليمن
 مصبحة في قرن
 نرين حزن الوطن
 كالخز تحت الثفن
 إيه غزال الحُتن !
 حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب
 بدر السماء نَعسا
 خلف التلال خنسا
 والضُّبح قد تنفَّسا
 مرَّق هذا الغلسا
 والريح تزجي نفسا
 حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب
 لحنسي دواء السقم
 والروح ملء نغمي
 يحدو الركاب كَلمي
 من جارج ويلسم

هَلَمْ بَنَتْ الْحَرَمَ !
حُثِّي الْخَطِيءَ قَلِيلاً مَنْزِلُنَا قَرِيبٌ

بين الله والإنسان

خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ	خَلَقْتُ تَتَاراً وَزَنْجاً وَفُرساً
خَلَقْتُ مِنَ الثُّرْبِ هَذَا الْحَدِيدَ	وَسَهْماً خَلَقْتُ وَسَيْفاً وَتُرساً
وَفَأْساً خَلَقْتُ لَجَذَعٍ وَغُصْنٍ	وَسَجْناً صَنَعْتُ لَطَيْرٍ مَغْنًى
الإنسان :	

خَلَقْتَ الظَّلَامَ فَصُغْتُ السُّرَاجَ	وطيناً خَلَقْتَ فَصُغْتُ الْكُؤُوسَ
خَلَقْتَ جِبَالاً وَبِيداً وَمَرْجاً	خَلَقْتَ حَدَائِقَهَا وَالْغُرُوسَ
أَنَا مِنْ حِجَارٍ صَنَعْتُ مَرَايَا	أَنَا مِنْ سُمُومٍ صَنَعْتُ دَوَايَا

اليراعة

تَقُولُ يِرَاعَةً : لَا نَحْسِبُنِّي	كَنَمَلِ الشُّوءِ بِأَلْمَنِي رَفِيقِي
وَلَا أَعِشُو إِلَى نِيرَانٍ غَيْرِي	كَمَا يَهْفُو الْفَرَاشُ عَلَى الْحَرِيقِ
إِذَا حَلَّكَ الظَّلَامُ كَعَيْنِ ظَبْيٍ	أَنْرْتُ بِنُورِ أَضْلَاعِي طَرِيقِي

وَحْدَةٌ

قَدْ قَلْتُ لِلْبَحْرِ يَوْمًا فِي مَوْجِهِ الْمَتَعَالِي

أراك حليف طلائع
وَكَمْ عَوَيْتَ بِصَدْرِ
أَفِيكَ مِثْلِي صَدْرُ
فَصَدَّ عُنِّي بِجَزْرِ
وَقُلْتُ لِلطَّوْدِ يَوْمًا :
أَنَالَ سَمْعَكَ صَوْتُ
إِنْ كُنْتَ تَحْوِي عَقِيصًا
فَوَاسِنِي بِحَدِيثِ
فَصَدَّ عُنِّي صَمَوْنًا
جَدَّدْتُ فِي السَّيْرِ حَتَّى
فَقُلْتُ : يَا نَضْوُ سِيرِ
الْأَرْضُ مَرْجُ زَهْوٍ
أَخْلَفَ نَوْرَكَ قَلْبُ
رَأَى الْكَوَاكِبَ تَرْنُو
وَقُلْتُ لَهِ رَبُّنِي
أَمَّا بِدُنْيَاكَ هَذَا
أَكُلُّ طِينِي قَلْبُ
طَابَتْ مُرُوجٌ وَلَكِنْ
أَجَابَنِي بِابْتِسَامِ

فَمَا تُكُنُّ بِسَالٍ ؟
مِنْ لَامِعَاتِ السَّلَاسِي
بِجَوْهَرِ الْقَلْبِ حَالِي ؟
وَلَمْ يَرُدَّ سَوْأَلِي
يَا خَالِيًّا مِنْ عَنَاءِ
مِنْ زَفَرَةٍ وَيُكْشَاءُ
بِهِ عَسْرُوقُ دِمَاءِ
إِنِّي حَلِيفُ شَقَاءِ
وَلَمْ يَرُدَّ سَوْأَلِي
أَتَيْتُ بِدَرِ السَّمَاءِ
إِلَى مَتَى فِي مَضَاءِ
مِنْ نَوْرِكَ السَّلَإِ
فِي حَرْقَةٍ وَعَنَاءِ
فَلَمْ يَرُدَّ سَوْأَلِي
مِنْ بَعْدِ طُوفِ الْبَرِّيَّةِ :
مِنْ ذَرَّةٍ لَسِي نَجِيَّةِ ؟
وَذِي الْبَرَايَا خَلِيَّةِ
لَيْسَتْ بِشَدْوَى حَسْبِهِ
وَلَمْ يَرُدَّ سَوْأَلِي

قَطْرَةُ النَّدَى

قَدْ قِيلَ لِي تَدْلِي
وَاسْتَحْكَمِي وَسِيْرِي
مِنْ فَلَّكَ الدَّرَارِي
لِلْبَحْرِ ذِي النَّيَّارِ

في الموج لا تحساري
تحوّلي واختاري
في الدُّرر الكبار

فما رضىست بحرّاً لصُحبني بحـال
عفتُ احتسَاءَ رَاحٍ تَسْلُبني خـلالـي
ما ضفتُ من خصالي
وعشت في اعتزال
قطرتُ كاللّالي

السورد لي سؤول : ما خطبُ طير السّحر
وما جهاتُ النّظر ؟
وما وِراء البصر ؟
ما الشّوك حول الزّهر

ما نحن في اصطحاب ؟ من نحنُ يا ودود ؟
ما طائري المغنّي رجّحه الأملود ؟
ما يقصدُ الغريد ؟
وما الصّبا تُريد ؟
ما العالَمُ العتيّد ؟

فقلْتُ : المُروجُ حرُّ بُ الحياة في الأفاق
خَفَلُ لَهُ نَظَام من لَذّة الفراق
الرّؤُح من إشراق
ونفسي أشواقِي
سرّ من الخَلّاق

من فلكِ هُبوبِي من طينة فتقت
من لَذّة التّجلّي نموت إذ أشـرقت

فِي الْغُضَنِ قَدْ خَفَقَتْ
كَمْ حُجُبٍ مَزَقَتْ
نَفْسِكَ قَدْ حَقَّقَتْ

الذَّهْرُ فِي اخْضِرَارٍ مِنْ دَمْعِنَا فِي السَّحَرِ
وَذِي الْجَهَنَّمَاتِ طُورًا خِذَاعُنَا فِي النَّظَرِ
بِالصَّدْرِ سَرُبُ الرَّهْرِ^(١)

مَنْ قَلْبِنَا كَالشَّرَرِ
وَنُورِنَا فِي الْبَصَرِ

فِي ثُوبٍ وَرِدٍ إِسْرُ مِنْ شَوْكَةِ تَصَوُّلِ
شَوْكٌ ، أَجَلٌ ، وَلَكِنْ نَادَمْنَاهُ الْجَمِيلِ
مَنْ عَشَقْنَاهُ نَحِيلُ وَعَنْدَهُ الْخَلِيلُ
فِي رَوْضِهِ أَصِيلُ

الْقَلْبُ أَخْلَيْنَاهُ مِنْ صُخْبَةِ الذَّهْرِ
عَيْنُكَ فَافْتَحْنَاهَا لِلْكَوْكِيبِ الْمُنِيرِ
وَصَحْبَةُ الْبَصِيرِ مِثْلِي هَلُمَّ طِيرِي
وَفِي الْفَلَكَ الْكَبِيرِ

العشق

فَكْرِي قَدْ أَجَدَّ كُلَّ سِيرِ وَطَافَ بَيْنَ حَرَمٍ وَدَيْرِ
عَدْتُ لِلطَّلَابِ فِي الْبَرَارِي مَرْتَدِيًا بِالنَّقْعِ كَالْإِعْصَارِ

(١) الرَّهْرُ : التَّجُومُ .

بغيرِ خضرٍ أطلُبُ المنازل^(١)
تطلُبُ راحاً كأسِي الحطيمِ
منطوياً كالْمَوْجِ في البحارِ
عشْقُكَ فاضَ بغتةً بقلبي
عرَّفني الوجودَ والفناء
على حصيدي مرَّ كالْبُروقِ^(٢)
صُعِقْتُ تَوّاً وسُلِبْتُ حُسِّي
رَفَعْتُ لِلْعَرْشِ العَلِيِّ تُرْبِي
وبلَغْتُ سَفِينَتِي مُرْسَاهَا
عندي حديثُ العِشْقِ لا سِوَاهُ
غَيْثٌ عَن وَمَضِ الْعُلُومِ حَسْبِي

حياتك فابغ في الخطر الجليل

غزالٌ بئْ شكواه غَزَالاً
أرى الصَّيَّادَ حولي كلَّ حينِ
أبدلْ خيفةَ الصَّيَّادِ أَمْنَا
أجابَ رفيقَه أن يا خَلِيلِي
ونفْسَكَ فاشحِذْ في كلِّ آنٍ
فَقَالَ ساقُضْ البلدَ الحرامَا
فلا أستطيعُ في أرضٍ مُقامَا
وأنفسي الغمَّ عن قلبي المعنَى
حَيَاتَكَ فابغ في الخطرِ الجليلِ
وعش أمضى من السيفِ اليماني

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق
علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففي الأخطار لِيَهْمَمِ اخْتِيارُ لأرواحٍ وأجسادٍ عيارُ

الحياة

قد سألنا عن الحياة حَكِيمًا قال : خَمَرٌ يَطِيبُ فِيهَا الْأَمْرُ
قُلْتُ : بل دُودَةٌ نمت في تُرابٍ قال : لا ! بل سَمَنْدَرٌ لا يَقْرُ^(١)
قُلْتُ : والشر طبعها . قال : لا بل خيرها قد جَهِلَتْ والجَهِلُ شُرُ
قُلْتُ : ما شوقها يسير لُنْزُلٍ قال : في الشوقِ منزلٌ مستسِرُ
قُلْتُ : في الطينِ خَلَقُها قال فانظر : شَقَّتْ الطينِ حَبَّةٌ فَهِيَ زَهْرُ

الحور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحور والشاعر لجوته)

الحور :

لا الخمرُ يوماً تَطْيِينُكَ ولا إلينا أنتَ ناظِرُ
إِنِّي عَجِبتُ لشاعِرٍ بهوى الأُحبةِ غيرِ شاعِرٍ
مِنْ حُرٍّ أنغامِ الرَّجاءِ وحرقةِ الطَّلَبِ المُشابِرِ
نَفْسٌ تَذِيبُ بلِوعَهُ وتغرُّلُ يشجو المِزاهرِ
وخلقت بالألحانِ دنيا كَ العجيبَةِ خَلَقَ شاعِرِ
تَبَدُّو لَهَا إِرْمٌ كَمَا يَبْدُو لِعَيْنِ فِعْلاً سَاحِرِ

(١) السَمَنْدَرُ : حيوان خرافي يعيش في النار .

الشاعر :

تُخَدَعَنْ قَلْبَ مَسَافِرٍ بِالسُّخْرِ مِنْ وَخَزَاتِ قَائِلِ
مَا إِنْ تَحَاكِي لَذَّةَ وَخَزَاتِ شَوْكِ فِي الْمَجَاهِلِ
مَآذَا أَقُولُ وَفَطَرَتِي لَا تَرْتَضِي دَعَاةَ الْمَنَازِلِ
قَلْبِي عَلَى قَلْقٍ كَمَا تَهْفُو الصَّبَا حَوْلَ الْخُمَائِلِ
فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى جَمِيلِ رَائِعِ حُلِيِّ الشَّمَائِلِ
خَفَقَ الْفَوَّادُ إِلَى الَّذِي يَعْلُوهُ حَسَنًا فِي الْمَحَافِلِ
فَمَنْ الشَّرَارُ إِلَى النُّجُومِ إِلَى الشُّمُوسِ رَقِيَّ آمَلِ
إِنِّي لِيَهْلِكُنِي الْقَرَارُ فَمَا أَعْوَجُّ عَلَى الْمَرَا حِلِ
وَإِذَا شَرِبْتُ مِنَ الرَّبِّيعِ الْكَاسَ تَسْرِي فِي الْمَفَاصِلِ
أَشَدُّ بِشَعْرِ آخِرِ وَرَبِيعِي الْآتِي أَغْزَلُ
طَلَبِي النِّهَايَةَ فِي الَّذِي لَا يَنْتَهِي فِيهِ الْمُسَائِلُ
لَا صَابِرٌ نَظَرِي وَلَا قَلْبِي عَنِ الْأَمَالِ غَافِلُ
نُودِي قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ بِدَارَةِ الْخُلْدِ الْمُوَاصِلُ
لَا صَوْتُ مُحْزُونٍ وَلَا أَلَمٍ وَلَا وَاسٍ يَسَائِلُ

الحياة والعمل

(جواب لنظم هاتنا^(١) المسمَّى سؤالات)

يقول الساحل المسكينُ : دهرأ حيثُ ولم يَينُ لي ما أكون... ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ الشُّكون

الملكُ لله

طارقُ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا من فعله برشيد
غريباءُ ومن لنا بـرجوعٍ ذا خطاؤٍ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامٍ قائلًا واثقاً بعزمٍ شديد :
مُلكننا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ إنَّه مُلك ربِّنا المعبود

النهر^(١)

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاءٍ ونضره
يقصد البحر ذا العباب طروباً وعزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريباً
مَنَحْتُهُ يَدُ الرَّيِّيع طريقاً من أقاحٍ وـنرجسٍ وشقيقٍ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ في الرُّبى والوهادِ غير رفيقٍ

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصة إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعزوفاً عن كل شيء غريباً
ومئات الأنهار في الحزن والسَّهْل
قَدْ حَمَانَا الْمَسِيرَ قَلَّةُ مَاءٍ
أَفْسَحِ الصَّدْرَ لِلرِّيَّاحِ سَرِيعاً
يَقْصِدُ الْبَحْرَ ذَا الْعُبَابِ طُروياً
هَدَرَ النَّهْرُ جَائِزاً كُلَّ سَدٍّ
فَاضَ سَيْلاً عَلَى رُبَى وَوَهَادٍ
هَائِجاً زَاخِراً سَرِيعاً مَشُوقاً
يَقْصِدُ الْبَحْرَ ذَا الْعُبَابِ طُروياً

الجنة

وَأَيْنَ بَجْنَةٌ لَعِبِ اللَّيَالِي
وَلَا فِيهَا لِيُوسُفَ غَمٌّ سَجِنٍ
وَلَيْسَ خَلِيلُهَا يَصْلَى بِنَارٍ
وَلَيْسَ لِيَصْرُصِرَ فِيهَا هُبُوبٌ
وَلَا لِيَقِينَهَا « هَلْ » أَوْ « عَسَى أَنْ »
وَكَيْفَ يَلْدُ عَقْلٌ ذُو ضَلَالٍ
فَلَا تَحْفَلُ بِكَوْنٍ فِيهِ نَقْصٌ
وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ فَلَكَ يَدُورُ
وَلَا فِيهَا زُلُخَا تَسْتَجِيرُ
وَلَا بِكَلِيمِهَا شَرٌّ يَثُورُ
فَرَوَزُهَا عَلَى أَمْنٍ يَسِيرُ
وَلَا لِوَصَالِهَا هَجْرٌ مَرِيرُ
إِذَا وَضَحْتَ طَرِيقُ لَا تَجُورُ
بِهِ الْمَوْلَى وَلَيْسَ بِهِ الْغُرُورُ

العشق

العقلُ يُحْرِقُ عَالِماً
فِي جَلُوةٍ مِنْهُ تُغَيِّرُ

لكنَّه بالعِشْقِ يعرفُ	كَيْفَ في الدنيا يُنِيرُ
العِشْقُ في الأرواحِ يخلقُ	كُلَّ لَوْنٍ أو يَشِيرُ
إنَّني لأذكر راقصاً	ذا الحرف أو هو بي يدور
بالعِشْقِ ترتاح القلوبُ	وإنَّه فيها سعيـرُ
ما كل معنى ينطوي	في اللَّفْظِ ، كم معنى يثور
أنصت لقلبك ساعةً	فلعلَّما يدنو العسير

لغزُ السَّيفِ

ما جاهدٌ يُنبِطُ ماءَ الحجرِ	لا يَهْتَدِي بالخضرِ كالإسكندر؟
كنظرِ العينِ صفًى مشرقُ	لا بلبل وهو غريقُ نهر
مصراعُه مكْمَلٌ منفردُ	ليس عليه منَّةٌ للأشطر

الجمهورية

تريد معنى العُلَى من ساقطي هم	وأين للنمل إقدام الشليماني ^(١)
فاتبع حكيماً ودغ جمهورهم ، أترى	بألفِ رأسٍ حمارٍ عقلَ إنسان ؟

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الدَّهْرُ عَادَ بنارِ نمرود جَوْهَرُ الإسلامِ رَهْنُ تجديدِ
هَلَمْ نُلِقَ الحِجَابَ عن حُرْقِ كالشَّمْسِ تَغْشَى الوريَّ بتجريد^(١)
أَمَلتَ حُورَ الفرنجِ مِنْ حَكَمِ ورُعتْ أصنامُهُم بتوحيدِ
فَقُلْ لأهلِ الحِجَازِ عن سَلَمِ وبِثَّ في التُّركِ شوقَ معمودِ
على خراسانَ والعِراقَ فَعَجَّ وردٌ للعُجَمِ شوقَ تغريد^(٢)
كَمْ انتظرنا لِعَافٍ ولكم شجاءَ «جمال»^(٣) بلحنِ مفؤودِ
جَعَلتَ عَشْقاً حَدِيثَ ذِي هَوَسِ نَثَرْتَ دَرَّ الكَلَامِ باليديدِ

غنى الكشميري^(٤)

غنى أخو الشَّعرِ ربُّ البَيانِ وبَلِّلْ كشميرَ ذاتِ الجنانِ
يَفْتُحْ أَبوابه إنْ نَدَرَ ويغلقها جَاهِداً إنْ حَضَرَ^(٥)
فَقِيلَ لَهُ : يا أنيسَ القُلُوبِ عَجِبْنَا وفعلُكَ أَمْرٌ عَجِيبُ
فماذا أَجَابَ الهمامُ الفقيرُ ؟ فقيرٌ بملكِ المعاني أميرُ :
إِخْوَانِنَا ما رأيتُم سَدَادَ أفي الدارِ غيري متاعٌ يرادُ ؟

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقى أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفغاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كان في الدار ربُّ العرين غنى ففيها متاعٌ ثمين
وإنْ غاب عنها أنيسُ الورى فلا دارَ أفرغَ منها تُرى

إلى مصطفى كمال باشا^(١)

حزيران (١٩٢٢ م)

أمة كانت ومن حكمتها قد عرفنا سرَّ تقديرٍ مضى
شرراً كنا ، أجدنا نظراً شيخاً أطفأ في أحشائه
صرصر البداء في فطرتنا وعلى الأفلاك دوى صوتنا
رُبَّ صيدٍ قد أخذنا وثبةً وغدونا يوقِّعُ الصيدُ بنا
« كلما أمكن طرفٌ فاركضن نحن أنارُ على مرَّ العصور
فمضينا نفتفي سرَّ الدهور فإذا شمسٌ على الكونِ تسير
نارَ عشقٍ فخنعنا في فتور أذبلت ریح الصبا فينا الزهور^(٢)
فاسمعنه اليوم في نوح الأسير دون أشراك كما انقضت صقور
ولنا قوسٌ وسهمٌ في الجفير كم أمات العزمَ تدبيرُ الأمور^(٣) »

الطائرة

على غصنٍ وردٍ بوقت السَّحر نغا طائرٌ لطيورٍ آخر :

(١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمٌ أوربية .

(٢) يعني خلقنا للجهاد فأضعفنا الترف .

(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقد سُلِبَ الأجنح الأدمي
فقلت له : « يا أَمِيرَ الرِّيحِ
بطائرة قد ركبنا الهواء
وأبنة طائرة في الفلك
لها عزم صقري وأيدُ عقاب
تُدوي وتزفر حين السَّفار
من الطَّين صار لنا جبرئيل
وعى الطائر الألمعيُّ الكلام
فأهوى إلى ريشه ينقر
فيا مَنْ يروِّقك عقدٌ وحلٌّ
أصلحت في الأرض بعد عناء

ومكَّن في الأرض هذا الغبيّ
أفي الحقَّ إن قلبه من جناح . . ؟
شققنا بها في عَنان السَّماء
يفوت مداها جناح المَلَك
بلاهور^(١) ترنو إلى فارياب^(٢)
وفي العش صمْتُ كحوت البحار
من الأرض نحو السماء دليل
وأبصر ما قلَّته في الخصام
وقال مقالَّك لا أنكر
وفي قيد سحرك علُوّ وسُفلُ
فجئت لتصلح جوَّ السَّماء^(٣)

العشُّق

هو الحرفُ ضاءتُ عليه القلوب
هلم أنبئكَ قولَ الخبير
وعاه النَّدى خلصةً في السَّماء
وباح به الوردُ للعندليب

وليس بسرٌّ وسرّاً يرى
بمن قد رواه وعمَّن روى
وأسمعه الوردَ قطرُ النَّدى
عن العندليب روته الصَّبا^(٤)

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .

(٢) فارياب ، تقع في تركستان .

(٣) البيت الأخير للشيخ سعدى الشيرازي .

(٤) أبيات تمثل تطور العشق من قطرة إلى غناء بلبل إلى خفق الرِّيح .

القسم الثالث
الخمر الباقية
(غزليات)

حبا الريبعُ رُبانا
 فاستيقظت أكماس
 لا تحسبَنَّ أنْ خُلِقْنَا
 فما تزال خيالاً
 لا تغتـرر بعـلـسـوم
 إنَّ الفقيه مُـرـيـبٌ
 ضمَّ السـرـيـعُ شـتـي
 وبـسَّ رـيـحاً ولسوناً
 من يُحكـمـن نظـراتـه
 لم يشـدُّ يـومـاً بـغـيـب
 قد قال فـي الحان فاس
 في كلِّ دهرٍ خـلـيـلٌ
 لا تلحـيـنَ أهـل دـيـرٍ
 أقـام أوـثـان حـبٌ
 يضيـع شـدو حـيـاةٍ
 فالـمـيت ليس بـحيٍّ

محافل التَّغريد
 للبلبل الغـرـيـد
 في صبح دهرٍ مـديـد
 حوى ضمير الوجود
 الكأس خير شهيد
 فلا تـكنْ بـثـريـد
 ست الأوراد بالتضيـد
 أنظارنا في السورود
 لنفسه في شهود
 كلاً ولا مـوجـود
 مع مقال شيخ رشيد :
 والنار من نمـرود^(١)
 فالعشقُ جدُّ عـنـيد
 في القلب من محمود^(٢)
 ينساب بين الهنود
 بالنفخ من داود

عقلنا ينحط رباً كل حين
 ارفع البرقع جهراً لا تُبل

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .

(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنا من عيني غيورٌ ناسج
بسمه خلّس ودمعٌ ورنأ
حبذا العشق ففي يوم النوى
أيها الطائر من صدري اقسن
عود تيمور مضى لا لحنه
سادن الكعبة لا تأذن له
نظراتي لك سترأ في العيون
ليس في الحب سواها من يمين
زاد باللوعة عهد لا يمين
لتزيد النار في هذا الأئين
هو في لحن سمرقند يبين
فلإقبال إله كل حين



شكواي أمـرٌ عجيب
فتظرتني لي حجاب
أبلغ خلّلق نور
حذار كفف تراب
في محفل من ربيع
بالرّيش منا شرار
يا واهنّ النفس تدري
حوالك كـونٌ بعيد
مثل الشقيق تراني
والقلب غرضة رمي
في عرف أهل قلوب
لكعبتي لم أسافر
وكم قبيل أقاموا
من نور عيني شكاتي
وأنت في الجلوات
الحق من كلماتي^(١)
للنفس في نظرات^(٢)
نذوب من حركات
في الفجر من آهات
من أين لي نغماتي ؟
من عالمي وجهاتي
بالرّوض في حسرات
من أسهم اللحظات
الكذخ سرّ الحياة
للأمن في طرفاتي
وأدبروا في شتات

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .

(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار

خودي » .

الهلال في مشكاة ^(١)	في دارة ضياء فيها
ذا يقظته وحصاة	فاخلق بطينك خالقاً
تلبث الفرصات ^(٢)	مثل اتسام شرار
فتلك إحدى نكاتي	إن لم تكن ذا فضول
من ضائع الأنات	العشق أبعد شأننا
ما باخ من جمرات	في العجم أزكى نشيدي
لم تأتهم نفثاتي	والعرب من نار شوقي

عن محرم بي حقيق	في ذلك الحفل مؤلي
وفيه لحن الصديق ^(٣)	لذاك أزجى غنائي
فيها كستر صفيق	في خلوة كل لفظ
بمقلتي وبموقتي	يبث قلبي حديثاً
لوجهك المرموق	من أجل نظرة وجد
بدمع عين طليق	مظهر نظراتي
لعقدة ولضيق ^(٤)	كالكم كل أموري
أنمو بقلب مشوق	لكن الجلوة شمس
يهاب سيل العقيق ^(٥)	كالموج ، ليس كياني
إلى الشطوط طريقي	ولست في البحر أبغي

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .

(٢) فرصات : جمع فرصة .

(٣) اللحن : الرمز في الكلام .

(٤) يتخيل الشاعر أن كم الزهر لانطباقه معقود .

(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشق الأرض وواد بالمدينة .

ما بين عيني ورأي
مهما تباعد عني
قد خطأ في ستر عيني
بشعـوذات أرائـسي
في قبة قد أحاطت
شوك بجنب سماء
لا أستريح بعش
طوراً بشاطئ نهر

بيني وبين صديقي^(١)
فكل حين رفيقي
نقوش كون أنيق^(٢)
في قيد سحر وثيق
لا أرتضي بالضيق
لا بد لي من مروق
من لذة التحليق
طوراً بروض شقيق

المغني الصبح في الحان
وتحيي دم الربيع شقيق
نغمة تفتح العيون لمعنى
فأمل بعين عشق وأبصر
فيقول العقول تظهر فيها
وعن عشق خذ دروس جهاد
إنما العشق جوهر لشعور
ولنا غاية من الشمس أعلى
إيه يا قطرة عن النفس تاهت

ورياض الربيع ألواح ماني^(٣)
أي ظمأ به إلى الألوان ؟
ضاق عنه طرائق التبيان
منه آباء تضيء دون بيان
هذه الكائنات سحر العيان
وافعلن ما تشاء في كل آن
وهو روح الإدراك والعرفان
إنها الشمس صوة الركبان^(٤)
تطلبين المحال في الأكوان

(١) الرأي : رأي العين .

(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إن هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .

(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورة في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .

(٤) الصوة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إِنَّ عَاراً مَعِيشَةَ الْبَحْرِ إِنْ لَمْ تَطْلَعِي مِنْهُ دُرَّةً ذَاتَ شَانِ
يَا جَهُولاً بِقَدْرِ نَفْسِكَ لَوْلَا أَنْتِ كَانِ الْعَتِيقُ كَالصَّوَانِ^(١)

قَدْ هَدَمْتُ الْأَصْنَامَ لَمْ أَرْضَ شِكْلاً أَنَا سَيْلاً هَدَمْتُ كُلَّ سُدُودِي
وَمَنْ الْعُشْقُ قَدْ رَأَيْتُ كِيَانِي كَانَ عَقْلِي يُرِينِي وَجُودِي
وَبَدِيرٍ ضِرَاعَتِي وَهُوَ أَنِي وَصَلَاتِي بِكَعْبَةِ التَّوْحِيدِ
وَمَنْ الذِّكْرُ سُبْحَتِي بِيَمِينِي فَاعْجَبْنِي مِنْ زُنَّارِي الْمَعْقُودِ
مَنْبَعُ الْحُزْنِ فِيكَ غَيْرَ نَضُوبٍ دَمْعُ قَلْبِي حَبْسُهُ عَنْ خُدُودِي
رَاقِ قَوْلِي ، وَسِيرَتِي لَجُنُونٍ : خَمْرُ شَوْقِي لِسُكْرَتِي وَشُهُودِي

طُوبَى لِمَحْرَقِ عَقْلِي بِنِجَارِ رَاحِ عَتِيقِ
مَنْ يَعْتَنِي بِمَتَاعِ مَنْ نَارِهِ كَالشَّقِيقِ
أَوْحَى الرَّيِّعُ إِلَى الزَّا هَدَيْنَ يَبِيعُ الدَّلُوقِ^(٢)
فَاغْرَسَ بِالْكَأْسِ الْحَمِيَّاءَ بَسْتَانَ وَجْهِ أُنَيْقِ
قَلْبِي رُثَى لَفَقِيهِ مَجَاوِرِ بَالْعَتِيقِ
مَا اتَّبَاعَهُ شَيْخُ خَانَ فَتَوَى بِكَأْسِ رَحِيقِ
اللَّحْنُ لَا تَقْدُرُونَهُ عَلَى غَنَائِي الرِّقِيقِ
فَبَرْقَةُ اللَّحْنِ تَغْشَى إِسْكَندراً بِحَرِيقِ
لِرَوْضِ « وَيَمِر » تَهْدِي الصَّبَا سَلَامَ مَشُوقِ^(٣)
فَلِذِي الدِّيَارِ أَضَاءَتْ لَعِينِي ذِي تَحْقِيقِ

- (١) يعني أَنَّ الإنسانَ جهلٌ قَدَّرَ نَفْسَهُ وَقَدَّرَ أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا قِيَمَةٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ .
(٢) الدَّلُوقُ : جَمْعُ دَلَقَ ، وَهُوَ لِبَاسٌ بَالِيٌّ مَرْقَعٌ يَلْبَسُهُ الرُّهَّادُ وَالشَّحَادُونَ .
(٣) وَيَمِر : مَدِينَةٌ فِي أَلْمَانِيَا ، أَقَامَ فِيهَا الشَّاعِرُ غُوتَهُ كَثِيراً وَمَاتَ وَدُفِنَ فِيهَا .

والهموم في الفلق	نوح ليلي القلق
والقريض من حرق	والأين من شرر
من تضرّم العشق	أين حرص مجتهد
ذاك خسر في مذق ^(١)	ذاك فأس فرهاد
عن ترابي القلق :	قل لساكني حجب
ذا التراب ذو فلق	ذا الغبار ذو نظر
وتزيد في حرق	مطربتي تسكرني
بالقلوب ذي علق	نغمات مستحضر
فندبت في فرق	من حذاره أرض سمر
أو هلاك في الحلق ^(٢)	من هجوم جنكيز
نظم مرشدي اللبق	هات مطربي غزلاً
التبريزي بالحرق	لأفوز من لهب



ذلك البدر التمام	مئيتي أن يتجألي
وبعيني اقتحام	فيدي ثمنك صدي
ليس يغشاه ظلام	ويقول الحسن : صبحي
ليس يخبر والهيام	فيقول العشق : وجدي
وغدي في زمام	ليس من يومي وأمسي
ليس يحويني مقام	ليس لي نجلد وغور

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له محشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمرة الأسرار أبغي	وكسؤوساً لا تـرام
وبحانات مجوس	دائر عندي جام ^(١)
لا تقل: مالي ولحناً	لا يرى فيه انسجام
فأنسا طائر غيب	عن حبيبي لي كلام
أرفع الستر وأشدو	لي في اللحن مقام ^(٢)
أنا صمصام دماء	لي بالغمد كعام ^(٣)

غُضُنُ الحياة ندي	من ظمنا في الطلاب
عين الحياة أراها	تعلقه الهباب ^(٤)
فمن أبست حديثي	وأين أزجي ركابي ؟
ولا تؤثر آمي	ونظرتي في حجاب
فزمزمن في غناء	واخفض نواح الرباب ^(٥)
فلا تزال طيور	تنسوح تحست نقاب
أهل الحجاز تولوا	قوافلي بسلاب
حبينا عربسي	فلا تفه بعناب
وزن عجم وهند	لا تبغ وزن خطابي

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحناتهم .

(٢) من مقامات الموسيقى .

(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الذي يخشى صياله - وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السلاح - .

(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .

(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فأصل هذي اللآلي بالليل دمع انتحابي
هلمَّ فالزَّاحُ عندي من دُنْ عالي الجناب^(١)
وخمرة القبول أصبى من خمرة الأعناب

من كرى الموت لا تفيقُ عيونُ دون نور تفيضُ من سناكا
إنَّ من دونك الوجودُ محال ومحالُ فناؤنا في جسماك
قد حوى الكون قلبنا وهو فيه عقدةٌ لا تحلُّ فاكظم فاك
نغماتي الضعاف أحرقن صحتي حرقتي نغمةً أبت أن تحاك^(٢)
إن تضرَّ الصبا بطلُّ فدعها نار قلب الشقيق تأبى فكاك^(٣)
فإلى الحق وجه القلب واصبر لا تؤمل بغيره إدراكا
سُدَّة السوئي هذه وعليها^(٤) جهات الأباة تأبى حكاكا

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة^(٥)

لهيب الوجد من أسماء لا عندي ولا عندك
وحرُّ القلب في البداء ، لا عندي ولا عندك

- (١) جلال الدين الرومي .
- (٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطيع إظهارها .
- (٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط الطل فهذه النار لا تفارقنا بأية حال .
- (٤) الوثن : جمع وثن .
- (٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثمانى مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا « لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيخ أنت في حان وإني ناشئ ساق
 عطاش نطلب الصهباء لا عندي ولا عندك
 رهناً قلبنا والذين حبُّ الغيد من عجم
 ونازُ الشوق من ظمياء ، لا عندي ولا عندك
 حطام كان أصدافاً على شطِّ لقطنائها
 فقدنا الدُّرَّة البيضاء ، لا عندي ولا عندك
 وبلوى يوسف المفقود من يطيع ذكراها
 وخفق القلب في زلخاء^(١) ، لا عندي ولا عندك
 كفانا الثُّورُ في المصباح قد أخفته أستارُ
 فطوق الثُّور في سيناء ، لا عندي ولا عندك^(٢)

قلبنا كـوْنٌ ولكـن	ما به دور القمر
دورانٌ ليس فيه	من عشيٍّ أو بُكر
ويل ركـبٍ قد أسف	العزمُ فيه وضمـر
فهو يرتاد طريقاً	ليس فيها من خطر
فدع العقل ومـوج	العشق صارع لا تقرر
فبذاك النهر ضيق	ليس فيه من دُرر
كلُّ ما يجري خيالُك	أو خيالي في الأثر
هو في العين ولكن	مُستـرٌّ كالنَّظـر

غير مجلٍ بكـاؤنا ويلتنا ! ضاع ذا النغم

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام .

(٢) الطوق : الطاقة .

نُوح قلب ممزق
خفق القلب ساعياً
هو فينا محذوق
نبذ الستر أهله
غيرة العشق فانظرون !
مطرب ألحان في الدُّجى
ذوق راح محموم
هي مسير حياتنا
ليس للموج منزل
أشعل النار في هشمي
« منزل الكبرياء لي »

حاصل الغم والألم
يخلق الدَّيْر والحرم
نحن فيه على قدم
لُذت بالنفس في حرم^(١)
أينما شوقه احتدم ؟
قد شدا معجب الحكم
شرب راح لنا أمم
ما سوى السير يُغتنم
أو طريق إذا التطم
من قال في القدم :
مرشد الرُّوم^(٢) ذا العلم

أبد من طينك ناراً تُضمَر
ملك جمٌ « لنظيري »^(٣) مصرع :
ساحر العقل يعبِّي جنده
بمقام ولحون لم تُحط
نظري في النَّفس أحكمت فلم
فتجلى الحب في كل الدُّنى

لا تحلل بعد هذا يُقلَر
« ليس من قومي من لا يُنحر »
لا تُسرع للعشق جند ينصر
عود سلمى كل حين يقطر
يتوجّه لسواها النظر
وأنا في شغل لا أنظر

(١) أهل السر الذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العشق في البيداء سدى
وبصيد الوحش في البحر اهتفن
ملء عيني دليل ما مضى
اصبحن شرباً خليعاً واخذرن
غاية الإفصاح لمسخ وكنى
ففي قرى الحسن تعالوا نجار^(١)
لا تقل : زورقنا لا يُحمر
في طريق ليس فيها خطر
عهد شيخ ليس فيه ذار^(٢)
فلغى الخلوة رمز يُعبر^(٣)

تضيّق بدار أصنام
ولكن نحو مشتاق
فاقدم واتخذ مغنا
وكيف وأنت ربّ السدا
تغير على ذوي التسييح
وتطرق أهل زئار
وذو جحفل لجب
وطوراً في جماعات
وتأتي باللهيب إلى
وتأتي كالفراش إلى
فيا إقبال خذ كأساً
ولا ترضى بمحراب
تسيرُ بشوق أصحاب
كف في أرواح أجاب
ر تدخل خطو مرتاب ؟
تحمل كل أسلاب
بيلٍ فعل نهاب
لسفك دماء أصحاب
بكاسات وأكواب
كليم غير هيّاب^(٤)
يتيم شمعُه كابي^(٥)
بخمر « الذات » لهّاب

- (١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلي وهيامه في البيد ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .
(٢) الذار : الشرّة وحدة الخلق .
(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .
(٤) إشارة إلى النَّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .
(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفاك الغربُ من كامنٍ لنفسك منك سلاب

لذعات حان العُجم ليست	كُفء ناري الحاميه
ذا أحمد العربيُّ نَظَـ	ررُّهُ تحيط جهاتيه
ما حيلتي والعقلُ في	عُقْد له متواليه
نظراتُ عينك ، فانظرنُ	حلَّت طلسم مجازيه
حَيْلُ العقول تفوقها	خفقات قلبي الداميه
فاهجر كنيس تفلسفٍ	لحريم ناري الحاميه

أنت كالمرآة تفتنى في جمال الآخرين	فاغسلن قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقبن واحرقن ^(١)	ذلك العش الذي شُدَّت بمال الآخرين
وتعلم جامداً خفق جناحك وطز	أنت لا تستطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرني	ممكن قلبي بكأس من زلال الآخرين
إيه يا أقرب من روحي ولا أبصره	عندنا هجرُك أحلى من وصال الآخرين ^(٢)

عندليب الربيع جُنَّ غناء	وعروسُ الشَّقِيق تُزهى بهاء
لا مغنٍ ولا مزاهرُ فيه	ذاك لحنٌ من المغنِّب جاء
محرم السرُّ من يسدد ضرباً	في وتار الحياة أيان شاء ^(٣)

(١) الأحرام : جمع حرم .

(٢) وهذه قطعة أخرى بنيت على الرمل المثلث - والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف .

(٣) الوتار : جمع وتر .

من وراء الستور أنبتت سرّاً
لا تعنّف وخذّ سبيل ودادٍ
أين في دارة التراب مقام ؟
زهرة من رياض كشمير جسمي
وأغانيّ واللحونُ نمّتها
أرضُ شيراز ، حبّ ذاك انتماء

لست أفشي ، فالذهر لعباً أساء^(١)
قدّر الله في الحياة التقاء
كل شيء كالزّمل يمضي هباء
وبأرض الحجاز قلبي أضاء
أرضُ شيراز ، حبّ ذاك انتماء

نحن ترابٌ ، وكالنجوم سفارا
نحن من شعلة الحياة جميعاً
قل لأهل السّماء : إن تراباً
نحن في العشق زهرة في نسيم
نحن في المرج نرجس ناظرات

من خضمّ الزرقاء نبغي قرارا
لذة « الذات » فرّقنا شراراً^(٢)
نال بالعقل في السماء مطارا
وبكذّ الحياة نقدح ناراً
كلّنا أعينٌ فالق الستارا

ليردّ العُرب دمعي دامياً
وليردّ العُجم أنفاسي وقد
من حياة وخلود كدحنا
صحب الله فؤادي هائماً
صوّر اليأس على آفاقنا
وبعود قطعّت أوتاره
أنت نشء وكلامي شغل
ليس في قلبي إلا أن أرى

روضة تنبت ورداً وشقيقاً
صوّحت جناتهم ، روضاً أنيقاً
يا ترابي ! فلتكن قلباً خفوقاً
سار لا يرضى مقاماً أو طريقاً
عقلنا اليأس فاحذره رفيقاً
قد حبا قلباً إلى اللّحن مشوقاً
علّ شدوي مضرّم فيك حريقاً
قطرة فيك غدت بحرّاً عميقاً

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالذي يسمّى خيال الظلّ .

(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عرا الرُّوح هدوء ولتكن بحياة الكدِّ والكذب خليفا

ولا سنا الرُّينات	لا التاج يزهو عليه
من الملوك الأباة	فقيراً حيُّك ، لكن
وفتيعةً في سُبُحات	في الشيب ماتت قلوبُ
في الفجر من آهات	فما لصدر نصيبُ
فسي واسع الفلوات	لا تقعدن عن طلاب
هادٍ إلى الطُّرقات	فما بعصر ك هذا
أضعت به في شتات	غفلت عن سرِّ وقت
بالشَّهر والسَّنوات	وقت عدها حسابُ
ما فيه عيش مواتي	هذا الرُّباط قديم
وعن جهاد الحياة	غفلت عن سرِّ عيش
كاتبها الهفوات	ماذا يخطُّ من الذنب
فيها سوى نظرات	دنياك ما قد أصبنا
بذيله في ثبات	إقبالاً الحرَّ أمسك
من بائعي الخرقات	فما يرى في رباط

وحكمتي عن شرر تخور	عشقي الجريء صدره سعيرو
قيس بـ « ليلي » عندنا شهير	إن يكمل الهيام صار ذلاً
سيماء فوق جبهتي تفور	إليك جئت في سجود وجد
« إلا » ي كيف في الدنى تنور ^(١)	هب سيف « لا » لكافري وأبصر

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بدّ من دورٍ يعيد أمسي
نورك فيه للذنّى نصيبُ
أحدّ الرحمن في حجابِ
أيّا رسول الله ! إنّ ربي
في جلوات من غدي يسير
« سينا » ي كيف فاتها تنوير
وفي حماك منطقي جهير
محجّب وأنت لي ظهور

أسفي عليك نحتٌ أصناماً آخر
أسفي عليك صُهرت في نار الفرن
أسفي عليك فما وُزنت بنظرة
أسفي عليك قرأت أسفار العقو
أسفي عليك تطوف من دير إلى
عوداً ولم تبحث بقلبك عن أثر^(١)
حج ومن لحاظ العين روحك قد قطر^(٢)
في حلّة فيها الترابُ له قدر
ل وما فهمت حديثَ وجدٍ يُستطر
حرم وفي معنك لم تُجد النّظر

-
- (١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .
(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .

القسم الرابع

نقشُ الإفرنج

نقش الإفرنج

أبلغني يا ربح عني
إنما العقل أسير
يتحدى العشق برقاً
سحر العقل ، وكان العشق
تبصر الأعين لونا
ووراء اللون معنى
ما عجبنا أن إعجا
قد عجبنا لمريض
تجمع العلم وتلقي القل
آه ذا نقد ثمين
إنما الحكمة أمر
ليس في كتابها للحب
قطعت سبل قلوب
ذات طرفة ذي كلام
ودلال لا ترى فيه

عالم الإفرنج جهرا :
زاده التحليل أسرا
منه هذا العقل فزا
بالأكباد أدرى
حينما تبصر زهرا
هو أجلى منه يدرى
ز مسيح نلت خبرا^(١)
داؤه عندك أشرى^(٢)
ب لا ترغب فيه
ضاع في كف سفيه
ليس فيه من نهايه
والعشق بسدايه^(٣)
يقظات بالعمايه
هو في الفتنة آيه
إلى القلب سرايه

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شرى الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كال المسيح في المعجزات ، ولكنه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزه كما يرى القلم .

سُرَّةٌ مِنْ غَمْرِ الرُّعَايَةِ
فَسِرْ بِظِلِّي فِي النِّهَائِيَةِ
لِغَمِّ مِنَ الْأَزْهَارِ غَايَةِ
سَدَاداً وَرَشَاداً
وَابْلَغُوا مِنْهُ مُرَاداً

لَيْسَ فِيهَا لَذَّةُ الْوُخْدِ
طُيُوتُ الْبَيْسِ وَلَمْ تَظْ
طَافَتْ الْبُسْتَانَ لَسَمِ تَبِ
فَهَلُّكُمُونا نَسْأَلُ الْعِشْقَ
وَاقْصِدُوا الْعِشْقَ سُجُوداً

ذَا شَعَابٍ حِينَ مَارَا
وَأَصَارَ الْمَاءَ نَارَا
رَدَّتِ السَّرْمَلُ نَضَارَا
فِي قُلُوبٍ أَوْ أَنْارَا
فَقَبْلُنَا جَهَارَا
قَطَعَ السُّبُلَ نَهَارَا
سَجَّ وَالنَّقِيعَ أَثَارَا
ذَرَّ مِنْ ذَاكَ عُجَارَا
وَحَصَدْنَا مِنْ لَهَبِ
عُقْدَاً فَوْقَ الْقُلُوبِ

سَلَكَ الْعَقْلُ طَرِيقاً
مَلَأَ الْعَالَمَ هَرَجاً
فِي يَدَيْهِ كَمِيَاءُ
لَمْ يَضَعْ إِكْسِيرَ حَبِّ
سَحَرُهُ قَدْ خَالَ فِينَا
ذَاكَ قَطَّاعَ طَرِيقِ
فَنَّهُ قَدْ هَدَمَ الْأَفْرَدَ
ثُمَّ فِي مُقْلَةٍ عَيْنِي
كَمْ زَرَعْنَا مِنْ شَرَارِ
كَمْ عَقَدْنَا وَحَلَلْنَا

— جَنَاحُ الْعَنْدَلِيبِ
عَلَى الْأَرْضِ تَرِيبِ
دُ الثُّرَيَّا لَا يَخِيبِ
كَنْسِيمٍ فِي هَبِيبِ
— لِلسَّرِّ يَصِيبِ
سَارَ أَوْ شَكَّ مَرِيبِ
كَ لِلْمَسْرِيِّ السَّرَّ حِيبِ

أَيْنَ مِنْ خَفَقِ الشَّوَاهِدِ
أَيْنَ مِنْ يَلْقَطُ مِنْ حَبِ
مَنْ فَتَى يَلْقَطُ عَنَقُو
أَيْنَ مِنْ يَسْرِي بِرُوضِ
مَنْ بِصِيرٍ فِي ضَمِيرِ الزَّهْدِ
أَيْنَ فَوْقَ الْأَرْضِ ظَنُّ
مَنْ طَمُوحٍ جَاوَزَ الْأَفْلَا

حَبَّذا عَقْلٌ فَسِيحٌ
 نَوْرُ أَمَلِكِ وَنَا
 نَحْنُ مِنْ خَلْوَةِ عِشْقٍ
 فَجَعَلْنَا مَوْطِئَ الْأَقْدَا
 فَانْظُرْنَا هَمَّتْنَا كَيْ
 قَدْ أَضَعْنَا الْكَوْنَ جَهْرًا
 قَدْ نَزَلْنَا شَطْطَ نَهْرٍ
 تَبَصَّرُ الْأَعْيُنُ سَطْرًا
 قَلْبُنَا يَبْتَ هَذَا الدَّيْرَ
 فَرَمَى النَّارَ بِرَطْبِ
 شَعْلَةٍ كُنَّا جَمِيعًا
 أَهْلَ شَوْقٍ وَحَنِينٍ
 أَصْبَحَ الْعِشْقُ غَوِيًّا
 فَتَنَةً لِلنَّاسِ فِيهَا
 آثَرُ الْحَرْبِ عَلَى الْخَفِضِ
 لَمْ يَسِرُّ السَّيْفُ إِلَّا
 قَطَعَ الطُّسْرُقَ وَسَمَّى الدَّ
 أَخَذَ السُّدْفَ وَغَنَّى
 رَافِعًا فِي الْكَفِّ كَأْسًا
 حَانَ أَنْ نُحَدِّثَ نَهْجًا

قَدْ أَحْصَا الْعَالَمِينَ
 رَ الْآنَسِ فِيهِ دُونَ مِينَ
 قَدْ بَرَزْنَا بِالسَّجَايَا
 مَ فِي الْأَرْضِ مَرَايَا
 فَعَلْنَا بِالْعَطَايَا
 حِينَ حَزَنَاهُ خَفَايَا^(١)
 نَبَصَّرُ الْمَوْجَ سَرَايَا
 مِنْ غُدُوٍّ وَعِشَايَا
 لَا يَبْغِي سَبَايَا^(٢)
 وَيَبْسِرُ فِي الْبَرَايَا
 وَانْتَشَرْنَا كَالشَّرَرِ
 وَرَجَاءٍ وَنَظَرِ
 قَاطِعًا كُلَّ وَكَايَا^(٣)
 خَفَقَ حَوْتَ فِي الْعَرَاءِ
 وَعَبَّأَ لِلْقِيَاءِ
 مِنْ صَدُورِ الْأَوْفِيَاءِ
 قَطَعَ حِفْظَ الْأَمْنَاءِ
 رَاقِصًا دُونَ حِيَاءِ
 مِنْ دِمَاءِ الْأَصْفِيَاءِ
 وَنَجَدَ النُّظْرَا

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلته أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدَّيْرُ الْقَدِيمُ ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الدُّنْيَا .

(٣) أَحْسَبَ الشَّاعِرُ يَقْصِدُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى أَنَّ الْعِشْقَ ، وَهُوَ الْوَجْدَانُ السَّلِيمُ قَدْ صَارَ

هَوًى وَطَمَعًا ، فَعَمِلَ مَا فَعَلَ (الْمُرْتَجِم) .

فَاغْسِلُنْ لَوْحَ فُؤَادِ
 لَحْنُ إِسْكَنْدَرِ وَلَّى
 وَأَتَى فَرِهَادُ يَنْغِي
 يَوْسُفُ فَارِقَ سَجْنَا
 وَخِرَافَاتُ زَلِيخَا
 كُلُّ سِرِّ كَانَ يَخْفَى
 وَمَضَى حِفْلُ التُّدَامَى
 فَافْتَحِ الْعَيْنَ وَأَمِمْ
 إِنَّمَا تَبْنِي الْحَيَاةَ الْيَوْمَ
 أَنَا فِي الْأَرْضِ بِصِيْرُ
 أَبْصُرِ السُّدُورَاتِ طَرَا
 وَأَرَى الْحَبَّةَ تَحْتَ الثُّرْبِ
 ذَاتُ أَصْلٍ وَفُرُوعِ
 وَأَرَى الْأَطْوَادَ رِيْشَا
 وَأَرَى الرِّيشَ ثِيَابَا
 وَانْقِلَابُ لَيْسَ يَحْوِ
 قَدْ أَرَاهُ لَسْتُ أَدْرِ
 حَبْذَا الْمَبْصُرُ جَهْرَا
 وَيَرَى جَوْهَرَ لَحْنِ
 بِالْحَيَاةِ النَّهْرُ جَارِ
 عَاتِقِ الرِّاحِ فَتَى
 كُلُّ أَهْلِ لَوْجُودِ
 وَوَجُودُ غَيْرُ أَهْلِ
 إِنَّمَا الْعِشْقُ عَيْسُونُ
 وَمُنَى الْحَسَنِ ظَهْرُ

وَأَجْدُ الْأَسْطَرَا
 وَتَقْضَى لَحْنُ دَارَا
 مَلِكُ بَرْوِيَزَ جَهَارَا
 وَعَزِيَزَ الْمَلِكِ صَارَا
 وَزُقَاهَا تَتَوَارَى
 غَشِيَ الشُّوقُ نَهَارَا
 وَبَرِيْقُ الْقَوْلِ بَارَا
 لَتَرَى مَا لَا تَرَى
 كَوْنَا آخِرَا
 عَارِفُ سِرِّ الْحَيَاةِ
 كَنْجُومِ نَظَائِرَاتِ
 مَنْ قَبْلَ نَبَاتِ
 وَثَمَارِ يَنْانِعَاتِ
 فِي رِيَّاحِ قَلَقَاتِ
 كَجِبَالِ رَاخِضَاتِ
 بِهِ ضَمِيرُ الْكَسَائِنَاتِ
 كَيْفَ فِي الْعَيْنِ يَوَاتِي
 فَارِسَا فِي ذَا الْقَتْرِ
 فِي اهْتَزَازٍ بِالْوَتْرِ
 وَسَيَجْرِي فِي مَضَاءِ
 وَسَيَبْقَى فِي قُتَاءِ
 سَوْفَ يَحْظَى بِالصُّبْيَاءِ
 سَوْفَ يَحْوِيهِ الْفَنَاءِ
 تَرْقُبُ الْحَسَنَ ظَمَاءِ
 وَسَيَبْدُو فِي جَلَاءِ

إِنَّ هَذَا الْأَرْضَ فِيهَا لِي دَمْعٌ مِنْ دَمَاءِ
سُورِي الدَّمْعُ عَقِيقاً فِي حِشَاهَا ذَا بَهَاءِ
« فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ جَاءَتْ نِي مِنَ الصُّبْحِ بِشَارِهِ
أَطْفَىءَ الشَّمْعَ وَلاَحَتْ لِي مِنَ الشَّمْسِ أَمَارُهُ »^(١)

جمعية الأمم

بِؤْسَاءِ الْأَرْضِ رَامُوا مُنْزَاً لَتَزُولَ الْحَزْبُ فِي هَذَا الْعُصُورِ
وَسَمِعْنَا أَنَّ تَبَاشِي قُبُورِ شَرَكَةً شَادُوا لِتَقْسِيمِ الْقُبُورِ

شوبنهاور ونيتشا^(٢)

طَارَ مِنْ عُنْثِهِ يَسِيرُ بِرُوضِ فَأَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ مِنْ زُهورِ
لَعَنَ الرُّوضَ وَالرُّمَانَ وَنَادَى بِشُورٍ لِنَفْسِهِ وَالطُّيُورِ
وَرَأَى وَسْمَةَ الشَّقَائِقِ جَوْرًا وَطَلَسَمَ الْبَرَعُومَ خَدْعُ خَبِيرِ^(٣)
قَالَ ذِي الدَّارِ شَيْذَتْ بِاعْوَجَاجِ كُلُّ صَبَحٍ بِهَا إِلَى دِيَجُورِ
نَاحَ حَتَّى تَقَاطَرَتِ نَغَمَاتُ مِنْ دَمَاءٍ ، بِدَمْعِ عَيْنِ غَزِيرِ
وَشَجَا الْهَدْمَ الذُّوُجُ فَوَافِي يَنْزِعُ الشُّوكَ مِنْ جَنَاحِ الْكَسِيرِ

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .

(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .

(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الشُّعراء وسمة من الحرقه . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً مَزَّقَ الوردُ صَدْرَهُ للعبير
واجعل الجُزَحَ بِلِسْمًا فسترضى واثْلَفَ الشُّوكُ تَغْدُ كُلُّكَ رَوْضًا

الفلسفة والسياسة

لا تقيسوا فلسفيًا بارعاً بسياسيً وبالعَدَلِ احكموا
ذاكَ عَيْنٌ جهرت في شمسها^(١) وجمودُ عَيْنٍ ذا لا تَزْحَمُ
ذاكَ في الحقِّ دليلٌ واهنٌ ذا لدى الباطلِ قولٌ مُحْكَمٌ

نيتشا

ثَارَ مِنْ ضَعْفِ الْإِنْسَانِيِّ قَلْبِهِ فَبَرَى الْخَلْقَ الْمَكْمَلَ لُجْبِهِ
فَتْنَةٌ فِي الْغَرْبِ مِنْ ذِي جَنُونٍ كَانَ فِي دَارِ الرُّجَاجِيِّ ضَرْبُهُ

بايرُن^(٢)

قطراتٌ رشحت من كأسه شعلَةٌ تنمو كوردٍ وشقيق
ذو رسالاتٍ بها حرُّ الجوى فرسولُ الحبِّ منها في حريق
ضائق بالإنفرنج برداً طبعه فهو في الأوطانِ في غمٍّ وضيق

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .

(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فاروق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة النازيين بها ، ومات هناك .

وخيالٍ كم بنى مِنْ ملعبٍ فيه للحدودِ مراحٍ وبريقٍ
جَلَسَاتُ لِلشَّبَابِ اثْلَقَتْ فهو في الغَشِيَةِ منها لا يفوقُ
طَائِرٌ فَارِقٌ عَنَّا وَرَأَى حَلَقَ الشُّبَاكِ^(١) أُولَى بِالْحُلُوقِ

جلال وهيكل^(٢)

لَيْلَةٌ بَتْ أَعَانِي حَلَّهَا مَشْكَلَاتِ لِحَكِيمِ الْأَلْمَانِ
ذَاكَ مَنْ أَبْرَزَ فِي إِيْدَاعِهِ أَبْدِيَّ الْكَوْنِ مِنْ سِتْرِ لَأَنِي^(٣)
يَخْجَلُ الْعَالَمَ مِنْ أَفْكَارِهِ شَاكِياً ضَيْقَ زَمَانٍ وَمَكَانٍ
سَرْتُ فِي بَحْرِ لَه فَالْتَطَمْتُ سَفْنُ الْعَقْلِ بِمَوْجِ الطُّوفَانِ
نَفَثَ النَّوْمَ بَعِينِي سَحْرُهُ فَحَمَانِي فَكَّرَ بَاقٍ أَوْ فَانِي
وَاحِدًا الشُّوقَ طَرَفِي فَلِذَا نَوْرَ وَجْهِ لِحَكِيمِ رَحْمَانِي
إِنَّهُ الشَّمْسُ تَجَلَّتْ فِي الضُّحَى كُلُّ أَفْقٍ بَسَّاهَا نَوْرَانِي
نَوْرُهُ فِي مَظْلَمِ الْأَفْقِ سَرَى كَمَنَارٍ فِي طَرِيقِ الرُّكْبَانِ
تَنَبَّأَ الْأَفْكَارَ فِي الْفَاطِظَةِ مَثَلٌ مَا يَنْمُو شَقِيقُ النُّعْمَانِ
قَالَ : قُمْ يَا أَيُّهَا النَّائِمُ ! هَلْ تَمَخَّرُ الشُّفْنَ سَرَابَ الْقِيَعَانِ
« فِي طَرِيقِ الْعِشْقِ بِالْعَقْلِ يُسَارُ ؟ » بِسَرَّاجٍ تَبْتَغِي شَمْسَ النَّهَارِ^(٤)

(١) الشبّاك : الشبكة .

(٢) جلال الدين الرومي ، وهيكل الفيلسوف الألماني .

(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .

(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفى

(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على
بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياضِ غَنَّتْ حِيناً	زدتَ قلباً جوى وأسليتَ قلباً
وخَضِبْتَ الشَّقِيقَ من دمك المسفوك	وجُداً وجلَّ ذلك خضيباً
كم بآهِ الصَّبَاحِ في المَرَجِ يسري ،	في صدور الأَكمامِ فَتَحَتْ قلباً
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها	في « مزار » القريض تُدفن حبا
والى الترب لم تعد بمماتٍ	ذاك حقٌ فليس أصلك ترباً

جلال وجوته^(١)

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم ^(٢)	فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعرٌ يشبه ذا العالي الجنب	ما نبياً كان لكن ذو كتاب ^(٣)
قصٌّ للعارفِ بالسِّرِّ القديم	ما وعى إبليسُ والشيخُ الحكيم
فأجابَ الشَّيْخُ : يا رب العلاء	أنت صيادٌ ولكن في السماء
قد خلا فكرُك في القلب السليم	فأجدُّ الرُّوحَ في الكون القديم
فرايتُ الدَّرَّ في قاع البحار	وديبَ الرُّوحِ من خلف الستار

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجنب - لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب - .

ليس كلُّ قد تجلَّى العشقُ له ليس كلُّ أهل هذي المنزله
« قد تجلَّى لسعيد المعى مكرُّ إبليس وعشقُ الآدمي »^(١)

رسالة برگسون^(٢)

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ نبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدُ بنفسك عن لظاها كما جفَلَ الشرارُ عن اللهب
ولا تصحبْ سوى نظيرٍ عريف ولا تمرر بأرضك كالغريب
وما صورتُه وهمٌّ فأعدد لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

حانة الفرنج^(٣)

عهدُ حاناتِ فرنج ذُكرنسي يا خليلي ا
رَبَّتِ الخمرةُ فيها عينَ خمارٍ جميل
نظرة الساقى رسالا ثلَّ لشرابِ الشمول
عقلها الخاتر غاز عشقها كلَّ سبيل
جوها ما أشعلته نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها منْ خليع فيه ترنيحُ الشكارى

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .

(٢) فيلسوف فرنسي .

(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء^(١)

لوك^(٢)

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيق^(٣) يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت^(٤)

فطرة ضاءت شراباً ولها نجم كأس من حريم الأزل

بگسون

ماله مِنْ أزلِ خمِرٍ وكاس ناره مِنْ حرقه القلب الشَّقِيقُ

شعراء

برونكى^(٥)

ليس في كأس الحياة البرد نازٍ فبماء الخضر كأسى أملاً^(٦)

بايرن

منةٌ للخضر لا تلهبُ صدري فبماء القلب كأسى أملاً

(١) صوّر الشاعر كلاً من هؤلاء الفلاسفة بيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرّمها إسكندر .

غالب^(١)

لأزيد الخمرَ والصُّدرَ لهيباً أصهر الدُّنَّ وكأسي أملاً

جلال الدّين الرومي

أين مزجُ مِنْ سنا جوهرها مِنْ عروقِ الكَرمِ كأسِي أملاً

حانات الفرنج

أمسٍ في حانة الفرنجة وهناً	راعني قولُ ماجنٍ ذي خلاعة
قال : ليست كنيسةً تغشاهما	في دُمى للغناء تبغي سماعه
إنّها حانةُ الفرنج وفيها	كلُّ ما ذمّه البسيرةُ طاعه
قد وزنا الأعمالَ فيها بوزنٍ	غير ما حسن الأنام اصطناعه
لا تزنُ وزنَ أمّةٍ ذات دينٍ	رثُ ميزانهم فحاذر متاعه
كلُّ قبح يزيدُ جاهك ، حسنٌ	كلُّ حسنٍ يضُرُّه فهو شناعه
إن تفكّرت فالحياةُ رياءُ	وبها الصّدقُ قولةٌ خدّاعه
إنّما الصّدقُ والوفاء حجابُ	يُحرم السّاعي الغريزُ ارتفاعه
شيخنا قال : مؤهنّ كلُّ صُفر	بنضارٍ وزيّفن كلُّ ساعه
ذاك سرُّ الحياه لا تفشينه	تربحن في يدك كلّ بضاعه

(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .

القسم الخامس

وقائع

رقائق

ذُرَاتُنَا ثَوْرَةٌ تَهْدُرُ بِأَنْفَاسِنَا مُحْشَرٌ مَضْمُرٌ
لَقَدْ أَنْصَحَ الْخَضِرُ فِي الظُّلُمَاتِ عَلَى حِينِ صَاحِبِهِ إِسْكَنْدُرٌ
عَسِيرٌ عَلَى النَّاسِ فَهَمُّ الْمَمَاتِ وَفَهُمُ الْحَيَاةُ لَهُمُ أَعْسَرُ

حَبَّةُ الدُّرِّ تَعْرِفُ الْبَحْرَ لَكِنْ أَيُّ عِلْمٍ لَهَا بِدَوْرِ الرَّحَى ؟

يَصْرُ الْيَرَاعُ لِأَعْوَاظِ لَبٍّ^(١) فَلَيْسَ لِمُرُودِ كَحْلٍ صَرِيرِ

طِفْتُ بِالْبَيْتِ حَامِلًا أَصْنَامِي وَأَمَامَ الْأَصْنَامِ « هُو » قَدْ جَارَتْ^(٢)
وَفُؤَادِي يَسِيرُ خَلْفَ طِلَابِ فِي طَرِيقِ كَشَعْرَةٍ قَدْ مَرَزَتْ
يَقُولُ وَرْدُ رَوْضٍ : عَيْشُ الرَّبِيعِ أَحْلَى وَصَبْحُ مَرْجٍ عِنْدِي مِنَ الْجَمِيعِ أَحْلَى
مَنْ قَبْلَ جُورِ كَفِّ لَزِينَةٍ تَقْطِفُنِي مَوْتُ بَحْضِنِ نَضْرٍ مِنَ الْفُرُوعِ أَحْلَى^(٣)

يَا صَاحِبِي ذَاكَ قَوْلٌ عَلَى الْحَيَاةِ دَلِيلٌ

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .

(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .

(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

اللمعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدأت هذه المنظومة حينما قرأت منظومتِي إقبال : « أسرار خودي » ،
و « رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شغلتُ عن إتمامها ،
فلبثتُ أعادُ النَّظْمَ فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پیام مشرق » على النِّهاية عزمْتُ على إتمام
المنظومة ، فتمَّت بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضلِهِ .

(عبد الوهاب عزام)

أَيُّهَا اللَّيْلُ ! إِلَيْكَ الْمَفْزَعُ
 كَمْ خَفِينَا فِي غِيَابَاتِ الدُّجَى
 كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلَ أَمَّا حَانِيَةً
 كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلَ وَحِشاً رَاقِبَا
 كَمْ بَشَتْ اللَّيْلَ سِرّاً كَتَمَا
 كَانَتْ الظُّلُمَاءُ لَوْحاً لِّلْأَلَمِ
 كَانَ لِي اللَّيْلُ مَدَاداً فَتَفَقَّدَ
 جَاشَتْ الظُّلُمَاءُ مَوْجاً بَعْدَ مَوْجٍ
 فَنَيْتُ هَذِي ، وَهَذَا زَاخِرُ
 خَلَّتَنِي فِي اللَّيْلِ جَمِراً سَعِراً
 إِزَّةً قَدْ وَقَدْتُ فِي أَضْلَعِي ^(١)

كَمْ حَنَّتْ مِنْكَ عَلَيْنَا أَضْلَعُ ؟
 وَمَلَأْنَا اللَّيْلَ هَمّاً وَشَجَا ؟
 وَكَرِهْتُ النَّجْمَ عَيْناً رَانِيَةً ؟
 مِنْ شُعَاعِ الصُّبْحِ سَهْماً صَائِبَا
 فَوَعَاهُ اللَّيْلُ عُنِّي أَلَمَا ؟
 خَطَّتِ الْآهَاتُ فِيهِ كَالْقَلَمِ !
 وَطَغَى قَلْبِي بِمَدٍّ بَعْدَ مَدٍّ
 وَغَزَانِي الْوَجْدُ فَوْجاً بَعْدَ فَوْجٍ !
 وَانْجَلَّتْ هَذِي ، وَهَذَا غَامِرُ
 وَنَجُومُ اللَّيْلِ مِنْهُ شَرَرَا
 وَسَحَابٌ هَاطِلٌ مِنْ أَدْمَعِي ؟

كُنْتُ سَطِراً لَمْ يُفَسِّرْهُ أَحَدٌ
 فِي ضَمِيرِي كُلُّ مَعْنَى مِنْهُمْ
 قَدْ ثَوَى الْعَالَمُ فِي قَلْبِي وَمَا
 جَلَّ قَلْبِي أَنْ أَرَاهُ جَامِ جَمٍّ ^(٢)
 إِنَّمَا الْأَقْطَارُ فِي قَلْبِي الْعَمِيدُ

خَطَّهُ فِي غَيْبِ اللَّهِ الصَّمَدِ
 حَرَّتْ فِي الْإِعْرَابِ عَنْهُ بِالْكَلِمِ
 خُطَّ شَيْءٌ فِيهِ إِلَّا الْحَرْفُ « مَا » ^(٣)
 صُورُ الْأَقْطَارِ فِيهِ تَنْتَظِمُ
 أَحَرْفٌ أَوْحَتْ إِلَى مَعْنَى بَعِيدِ

(١) الإزَّة : جبل النار .

(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .

(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السبعة .

رَبِّ مَعْنَى فِي ضَمِيرٍ يَكْتُم
 وَقُلُوبٍ رَفُشُهَا هَذَا الضُّدُورُ
 أَنَا فِي النَّاسِ فَصِيحٌ أَعْجَم
 صَمَّتِ الْأَذَانُ عَنْ هَذَا الْبَيَانِ
 كَيْفَ يُجْدِي الْقَوْمَ هَذَا النَّعْمَ
 كَيْفَ يُجْدِي الْقَدْحُ فِي هَذَا الْحَجَرِ ؟
 إِنَّ خَفَقَ الْقَلْبَ قَدَحٌ مُجْهَدٌ
 كَيْفَ يُجْدِي النَّفْعُ فِي هَذَا الرِّمَازِ
 لَيْسَ فِي النَّاسِ عَلَيْهِ مَخْرَمٌ ^(١)
 أَتَرَانِي مَسْمَعاً مِنْ فِي الْقُبُورِ ^(٢)
 نَاطِقٌ فِيهِمْ كَأَنِّي أَبْكُم !
 ضَاعَ فِي ضَوْضَائِهِمْ هَذَا الْأَذَانُ !
 وَعَلَى الْأَذَانِ رَانَ الصَّمَمُ ؟
 قَلْبُهُ رَخَوُ خَلِيٍّ مِنْ شَرَرٍ
 بَعْضُهُ يَوْرِي ، وَبَعْضُ يَضْلُدُ
 طَفَىءَ الْجَمْرِ وَلَمْ تَوْرِ الزَّنَادُ !

يَخْرِقُ اللَّيْلَ شِعَاعٌ يَخْفِقُ
 كَمَنَارِ الْبَحْرِ يَخْفَى وَيُلُوحُ
 أَوْ يَرَاعِ اللَّيْلَ يَخْفَى وَيُنِيرُ
 تَارَةً يَسْدُو طَرِيقاً لَحَباً
 أَوْ يَبَانُ مِنْ بِيَاضٍ وَسَوَادٍ
 كُلُّ لَوْنٍ فِيهِ حَرْفٌ مُفْصَحُ
 وَرَأَهُ تَارَةً خَطاً أَجْمَ
 فَهُوَ سَطَرٌ مِنْ ظِلَامٍ أَرْقَطُ
 كُلُّ لَوْنٍ فِيهِ حَرْفٌ أَعْجَمُ
 ثُمَّ يَلْتَفُ عَلَيْهِ الْغَسَقُ
 فِيهِ بَيْنَ الْغَيْبِ وَالْوُضْهِ وَضُوحُ
 فَهُوَ سَطَرٌ مِنْ غِيَابٍ وَحُضُورِ ^(٣)
 قَامَتِ الْأَنْجُمُ فِيهِ نُصْباً
 كَبِيَّاسِ الطَّرْسِ يعلوه الْمِدَادُ
 أَلْفَتْ مِنْهُ سَطُورٌ وَضَحُ
 وَكَأَنَّ الضَّوْءَ تَفْصِيلُ الظُّلَمِ
 أَعْجَمَتْ مَعْنَاهُ تِلْكَ النُّقْطُ
 وَحَوَى الْأَحْرَفَ سَطَرٌ مَظْلَمٌ ^(٤)

(١) المَخْرَمُ هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمك شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبك سلسله غيب و حضور ست (يا براعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسله من الغيبة والحضور) .

(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارة تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارة تُغَمُّ عليها الحقائق .

يا ليلى أوقدي ، طالَ المدى
أوقدي يا لئن قد حارَ الدليل
ارفعي النار وأذكي جمرها
شُردي هذا الظلامَ الجائما
جَبذا النارُ بليلى توقدُ
جَبذا عندك هذا النزلُ
ما لهذا المنزلِ قد سار الفريق
قد ترحلنا من الفجِّ العميق
رَنٌ في آفاقنا هذا النداء
قد غنينا عن مبيتٍ ومقيل
وعن الرغبة والخوفِ موى
نحن لا نرضى بنار الغسق
نحن لا نرضى بنجم الصُّبح لاح
نحن لا نرضى نجوماً لامعه
قد رحلنا بالجوى والحرق
أين منا طائراتُ سَبَق
نحن ركبٌ في جواه مُوضع
كلُّ حُرٍّ ضاق عنه الموطنُ

أوقدي علٌّ على النار هدى^(١)
أوقدي النَّارَ لأبناء السبيل
علٌّ هذا الركبَ يعيشو شطرها
أرشدني هذا الفراش الهائما
جَبذا المؤمنُ هذا الموقدُ؟
لو حوانا في سفارٍ منزل
إنما الثيران أعلامُ الطريق
لا نبالي بقريبٍ أو سحيق
فأمننا البيت يحدونا الرِّجاء^(٢)
وعن الأمواه والظلُّ الظليل
خُلع النعلان في وادي طوى^(٣)
نحن لا نرضى بنور الشفق
لا ولا نرضى تباشير الصُّباح
إنما نبغى شمساً طالعها
وغنينا عن رسيم الأبنق
جَمَعَ الغزبُ لها والمشرقُ
لم يَسْغُهُ في جواه موضعُ
وانطوى دون مناه الزَّمَنُ

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَمَّا أَتَيْنَاكَ بَشِيرًا أَوْجَدُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

كُلُّ طَيَّارٍ عَلَى مَتْنِ الْفَكْرِ وَعَلَى مَتْنِ هَيْسَامٍ لَا يَقْرَ
طَائِرٌ مِنْهُ يَغَارُ الْمَلْسَكِ طَائِرٌ مِنْ تَحْتِهِ ذَا الْفَلَكِ
بَارِقٌ فِي اللَّوْحِ لَا يَنْظَفِي كُلُّ غَايَاتٍ لَدَيْهِ مَبْدَأُ
زُودِنَا بِهِيَامٍ وَوَجِيبِ زُودِي يَا بُنَّ مِنْ هَذَا اللَّهَيْبِ

جَالَ فِي الظُّلُمَاءِ نَوْرٌ مِنْ نَعَمِ مُزَّقَتْ مِنْهُ دِيَاغِيرُ الظُّلَمِ
أَشْعَاعٌ فِيهِ صَوْتُ صَائِحِ أَمْ كَلَامٌ مِنْهُ نَوْرٌ لَائِحِ ؟
أَذَنَ الرُّكْبِ لِهَذَا الْمُنْشِدِ أَطْرَبَ النَّاشِدَ صَوْتُ الْمُنْشِدِ^(١)
سَالَ فِي الْقَلْبِ مَسِيلَ الْمَطَرِ يَنْبُتُ الرُّوْحُ بِسَهْبٍ مَقْفَرِ
أَوْ خَرِيرِ الْمَاءِ مِنْ نَبْعِ زُلَالِ بَشَّرَ الْغَارِقَ فِي بَحْرِ الرَّمَالِ
رَنَّ فِي نَفْسِي رَنِينَ الْجَرَسِ صَاحَ فِي أَذْنِي فَقِيدُ مَبْلَسِ
طُوتِ الْبِيدَاءِ عَنْهُ السَّابِلُ وَهَدَاهُ الصَّوْتُ شَطْرَ الْقَافِلِ
سَبَقَ الْقَلْبُ إِلَيْهِ الْأَذْنَا كِبَالٍ لَصَلَاةٍ أَذْنَا
دَارَ قَلْبِي شَطْرَ هَذَا الْمَطْرِبِ دَوْرَةَ الْإِبْرَةِ شَطْرَ الْقُطْبِ
« غَنَّتِي يَا مَنِيَّتِي ! لَحْنُ النَّشُورِ اِبْرَكِي يَا نَاقَتِي ! تَمَّ الشُّرُورِ
عُدْتُ يَا عَيْدِي إِلَيْنَا مَرْحَبَا نَعَمْ مَا رَوَّحَتْ يَا رِيحَ الصَّبَا^(٢) »

حَبِذَا الصَّوْتُ فَمَنْ هَذَا الْبَشِيرِ ؟ وَمَنْ الْهَاتِفُ بِالْقَلْبِ الْكَسِيرِ ؟
وَمَنْ الْمُسْعِدُ فِي هَذَا الْهَمُومِ ؟ وَمَنْ الْبَارِقُ فِي هَذَا الْغَيْومِ ؟
وَمَنْ الْهَابِطُ فِي نَوْرِ السَّمَاءِ هَادِيًا فِي الْأَرْضِ جِيلًا مَظْلَمًا ؟

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ،
والناشد : مَنْ يَنشُدُهَا .

(٢) جاء هذان البيتان بالفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومِي .

وَمِنْ الْهَادِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ
وَمِنْ السَّائِقِ شَطْرَ الْحَرَمِ
وَمِنْ الْقَارِيءِ فِي بَيْتِ الصَّنَمِ
وَمِنْ الْحَرِّ الَّذِي قَدْ حَطَمَا
وَمِنْ الْأَبْيِ عَلَى كُلِّ الْقِيُودِ
وَمِنْ الْبَاعِثِ فِي مِيتِ الْأُمَمِ
لَاخٍ كَالْفُورَةِ فِي هَذَا السَّوَادِ
جَرَفَ النَّاسَ أَنْيُّ مَزِيدٍ
وَطَفَى اللَّجْجُ عَلَيْهِ وَالتَّطَلَّمَ
عَارِضَ الْمَوْجِ عَلَى أَغْمَارِهِ
سَبَحَ اللَّجْجُ وَبِالشَّطِّ اسْتَقَرَّ
يَجْرِفُ النَّيَّارَ جَسَماً جَامِداً
إِنَّ عَزَمَ الْحَرُّ بَحْرٌ مُزِيدٌ
هَذِهِ الْأَقْدَارُ فِي تَسَارِهَا
وَمِنْ الشَّاعِرِ يُذَكِّي الْقَافِيَهُ
تَقْشَعُرُّ الْأَرْضُ مِنْ أَوْزَانِهِ
وَكأنَّ الذَّهْرَ صَوْتُ كُتَيْبَا
هُوَ بِالشَّاعِرِ بَحْرٌ فَائِضٌ
حَدَّثَتْهُ الْأَرْضُ عَنْ أَخْبَارِهَا
هُوَ بِالْأَمْسِ خَيْرٌ بِغَدٍ
كَشَفَ اللَّهُ عَنِ الْغَيْبِ لَهُ
عَرَفَ الشَّرْقَ وَرَادَ الْمَغْرِبَا

يعرف النهج وقد حاز اللَّيْبِ ؟
وإلى الأصنام سَيَّرَ الْأُمَمِ ؟
سورة الإخلاص في هذا النَّعْمِ ؟
من قيود الأسر هذا الأدھما ؟
وَمِنْ الْقَاطِعِ أَغْلَالَ الْعَبِيدِ ؟
ثورة العزّة من هذِي الھمم ؟
بصّ كالجمرة في هذا الرّماد
ضلّ فيه المقتدي والمرشّد
فرساً كالصّخر في هذا الخضم
وطوى اللّجج على تيّاره
داعياً والناس غرقى في النّھر
تَقْذِفُ اللَّجْجَةُ قَلْباً خَامِداً
جائش في الذّھر لا يَنْثُدُّ
ھمم الأحرار في أسفارها^(١)
فهي نور وهي نار حاميہ ؟
ويھيم النّجم من ألعانہ
قد حكاه الشّعر لحناً مطرباً^(٢)
وهو للأزمان قلب نابض
وحبّته الرّھر من أسرارها
وهو اليوم نجیّ الأبد
فلسان الغیب ینلّي قوله
فانجلي السّر له ما كُذِّبَا

(١) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .

(٢) يعني : أن الذّھر أمام الشّاعر كعلامات الموسيقى ، والشّعر قراءة هذه العلامات .

فرأى العليم سبيلاً للردى
صوت « إقبال » على شطّ المزار
إذ رأى القلب خليئاً من هدى
أسمع اليقظان في هذي الديار

أيتها الدّاعي إلى سرّ « خودي »
فطره الله التي أودّعها
إنها سرّ الحياة الخالدة
إنها الثّيار مثل الكهرباء
إنما العيش جهاد لا يقتر
من يضيء ذا السرّ في أعماقه
وتعالى عن حدود الأزمنة
شعل في قوله تضطرم
مطلع في اليأس صُبْح الأمل
أرايت الغيث في أرض موات
همم الأحرار تحيي الرّمما
لا يصدّ الحرّ عمّا يامل
هو بالله العليّ اتصال
من يضيء في قلبه إيمانه
فهو بالله عليّ وقويّ
جاهد والله في تسييره
قائم بالحق بين البشر
يُمسك الدّنيا ولا تُمسكه
وترى الدّنيا انطوت في كسبه
إنّه القانون بالله سرى
يسعّ النَّاسَ جميعاً هُثمّه

ليت أننا بهداها نهتدي
كلّ نفسٍ خائب من ضيّعها
دونها كلّ حياة هامة
إن يعطل لمحّة كان الفناء
وركوذ الحيّ موت مستمرّ
ضاقّت الأفلاك عن آفاه
وتجافى عن قيود الأمكنة
وطما في القلب بحرّ خضرم
نافع في الموت روح العمل
منبتاً فيها أفانين الثّبات
نفخة الأبرار تحيي الأمما
أو يحذّ البرّ فيما يفعل
جلّ ربي عن حدود وعلا
وينز في سبله وجدائه
وهو بالله غنيّ ووليّ
تحسب الأقدار في تقديره
ماله في باطل من وطّر
يملك الأرض ولا تملكه
ليس منها ذرة في قلبه
عادلاً في حكمه بين الورى
في سبيل الله ماضي عزّمه

جاهدٌ في الخيرِ لا يتَّسَدَّ عزمُهُ في صَدْرِهِ يَتَّقِدُ
وفقيرٌ وغناه لا يُخَدُّ فقره استغناؤه عن كلِّ يد
هو باللهِ وفي اللهِ غنيُّ ضاقَ عن هذا الغنى كلُّ ثري

صغار الهمم

إنَّ في الناسِ قلوباً جامده هُمُّها ما يبتغيه الجسدُ
جذوةُ الإقدامِ فيها خامده حُدَّتْ آرائُها آفاقُها
كلُّ ما تهوى طعامٌ ودُدُّ لا تبالي حين تبغي أربا
فحكَّتْ في ضيقِها أخلاقُها إنَّما قانونُها أهواؤها
عُمِرَ الكونُ بهِ أم خَرِبَا وترى أهواءها تغلبُها
سُخِّرَتْ في نفعِها آراؤها وإلى الأرضِ تراها مُخلِده
كلُّ حينٍ في هوى يجذبُها إنَّما آفاقُها هذا البدن
لا تُرى نحو المعالي مُضِعده إنَّما أحياءُها كالرَّمم

العالمُ مَعْبُد

إنَّما العالمُ طُراً مَعْبُدُ كلُّ مَنْ أدلى بقولٍ طَيِّبٍ
كلُّ مَنْ أحسن يوماً عملاً ينبتُ الخيرُ كفيثٍ صَيِّبٍ
كلُّ مَنْ في أرضه قد زرعَا ليقبَتَ النَّاسُ والعُجَمُ معا
كلُّ مَنْ يفرسُ مخضِرَّ الشَّجرِ فيه للإنسانِ ظلٌّ وثمر

كل من يَنْبِطُ بشراً في السبيل
كل من يبنّي بناءً حسناً
كل من أحدثَ علماً للبشر
كل من أحدثَ فكراً مُحكماً
كل من جدَّ وإن لم يجد
كل من أثّر فيها أثراً
كل من في دهره قد أجملاً
كلهم لله نِغَمَ العابدُ
فاصطنع للخيرِ فكراً ويدا

تنفعُ الظمآنَ من حرِّ الغليل
كل من في صنعه قد أتقنا
ينفعُ الناسَ ولم يقصدْ لشرِّ
يتفني للناس خيراً عما
لم يضع وقتاً بلهواً وودٍ
خالداً للخيرِ ما بينَ الورى
فكرةً أو قولاً أو عملاً
كلهم للخيرِ نِغَمَ القاصدُ
ولساناً وابغِ في الخيرِ يدا

لا رهبانية في الإسلام

ليس منا من ثوى في صومعه
ضاق نفساً عن مجالٍ وسما
ليس شيئاً أن تُرى معتزلاً
إنما العابد من خاض الحياة
أخذاً بالعدلِ ما عنه حول
إنه بالحق موصولٌ ومن
ثورةٍ مضمرةٍ في حلمه
أرايت الصَّقرَ في متنِ الرِّياح
طائراً في الجو يسمو عازماً
يأكلُ الجوع ولا يرضى الجيف
فإذا الجدُّ رماه في الشُّرك
ليس يحوي الحرَّ يوماً شبك

يحبسُ الأعمال والفكر معه
ثوى في ضيقه قد خنعا
عابداً تخشى البرايا وجلا
موضحاً فيه سبيلاً للنَّجاة
ذاكراً مولاه في كلِّ عمل
يتصلُّ بالحق لا يخش الفتن
إن يفكر ظالم في ظلمه
يطلبُ الرزق بعزم وجناح
لا يرى حول الدُّنيا حائماً
لو يراه الجوع يوماً ما أسفَّ
لم يطق صبراً عليه فهلك
فأسار الحرَّ فيه مهلك

يا فنى هذا الجهاد الأكبر
قل في الناس عليه صابر
عزما الحز فيه تُخبر
ليس إلا الحز فيه ظافر
وامض فيمن صَحَّ عزماً واتكل
يا أسير الوهم أقدم لا تُبَل

معنى التَّوَكَّل

مَنْ يَنْمَ عَنْ سَعِيهِ لَا يَتَّكِلُ
مُقَدِّمٌ فِي أَمْرِهِ الْمُتَّكِلُ
عَازِمٌ مَاضٍ عَلَى خَيْرِ سَنَنِ
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي نَوْرِ الصُّبْحِ
إِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كَفِّ الْقَدْرِ
طَالِبَاتِ الرِّزْقِ فِي كُلِّ رَجَا
يَالِهًا مِنْ أَمَلٍ قَدْ صَوَّرَا
أَرَأَيْتَ الْعَزَمَ فِي شَكْلِ جَنَاحِ
لَا يَصُدُّ الطَّيْرَ خَوْفُ التَّهْلُكَةِ
ضَرْبِ الْمُخْتَارِ هَذَا مِثْلًا
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي أَوْكَارِهَا
ثَاوِيَاتٍ تَبْتَغِي أَرْزَاقَهَا
مَنْ وَنَى فِي سَعِيهِ لَمْ يَتَّكِلْ
إِنَّمَا التَّكْلَانُ عَزَمٌ وَعَمَلٌ

إِنَّمَا التَّكْلَانُ سَعْيٌ مُتَّصِلٌ
وَاثِقٌ بِاللَّهِ فِيمَا يَأْمُلُ
لَا يَبَالِي بِعِقَابٍ أَوْ مِحْنٍ^(١)
تَطْلُبُ الرِّزْقَ بِعَزَمٍ وَجَنَاحِ
مَقْدَمَاتٍ لَا تَبَالِي بِالْخَطَرِ
تَمَلُّ الْجَوَّ وَثِقُوا وَرَجَا
طَائِرًا يَطْلُبُ رِزْقًا قُدْرًا
خَافِقًا لَا يَنْتَشِي دُونَ النَّجَاحِ
أَوْ تَبَالِي بِطَرِيقٍ مَهْلِكَةٍ
لِلَّذِي يَسْعَى عَظِيمًا أَمَلًا^(٢)
رَاجِيَاتٍ رِزْقَهَا فِي دَارِهَا؟
لَيْسَ تَذَرِي مَنْ إِلَيْهَا سَاقَهَا
إِنَّهُ لِلْوَهْمِ وَالْعَجْزِ وَكُلِ
إِنَّهُ الْإِقْدَامُ فِي ضَوْءِ الْأَمَلِ

(١) العقاب : جمع عقبة .

(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لوزقتم كما تزق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطناً .

إِنَّهُ الإِعْدَادُ وَالْعَزْمُ مَعَا
 إِنَّهُ التَّقْدِيرُ فِي سَعْيِ الْبَشَرِ
 هَمُّ الْأَحْرَارِ فِي إِيْمَانِهَا
 سُنَّةُ اللَّهِ التِّي لَا تَبْسُدُ
 إِنَّهُ الْحَرْزُ إِلَى الْقَصْدِ سَعَى
 هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ بَعْضِ الْقَدَرِ
 سُنُّ الْخَلَاقِ فِي أَكْوَانِهَا
 مَا لَهَا كَرُّ اللَّيَالِي حَوْلُ

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

أَوْ مَنْ لِي بِقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ
 أَوْ مَنْ يَفْقَهُ هَذَا الْكَلِمَا ؟
 أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مَاذَا قَدْ عَدَا ؟
 أَوْ لِلنُّسُورِ الَّذِي قَدْ طَفْنَا
 أَوْ لِلنَّارِ الَّذِي تَشْتَعِلُ
 خَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ
 إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ زَنْدٌ وَحَجَرُ
 إِنِّي أَضْرِمُ هَذَا الْأَلْمَا
 إِنِّي أَنْفُخُ فِي هَذَا السَّوَادِ
 عَلَنِي أَذْهَبُ هَذَا الْخَبَا
 إِنِّي أَبْعَثُ فِيهِمْ نَغْمِي
 إِنِّي أُمْطِرُ فِي أَرْضِ مَوَاتِ
 مُقَدِّمَاتٍ فِي الْمَعَالِي سَاعِيَةٍ
 أَوْ مَنْ يَدْرِكُ هَذَا النَّغْمَا ؟
 كُنْتَ فِي الْأَرْضِ جِهَاداً وَهُدًى
 أَوْ لِلْقَلْبِ الَّذِي قَدْ صَدِنَا
 فَيُضِيءُ الْأَرْضَ مِنْهَا شُعْلُ
 خَمَدَتْ فَالنَّفْسُ عَجَزٌ وَرُكُودُ
 لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لَدِيهِ مَنْ شَرَرُ
 عَلَيْهِ فِي الْقَلْبِ يَذْكِي ضَرَمَا
 عَلَى جَمْرٍ مُحْرِقاً تَحْتَ الرَّمَادِ
 عَلَنِي أَمْحَسِقُ هَذَا الْعَبَا
 عَلَنِي أَبْعَثُ مَيْتَ الْهَمَمِ
 عَلَيْهَا تُنْبِتُ أَلْوَانَ النَّبَاتِ

الأمل

لَا تَرَانَا فِي جِهَادٍ نِيَّاسُ
 لَيْسَ مِنْ أَمْتِنَا مَنْ يَشَاوَا

أشعل الإيمان في كل دُجى
 وَاَزْفَعَن في كل ليل شَعْلًا
 وصل القلب بخلاق الرجاء
 إنما الإنسان فكرٌ وعمَل
 أمل الإنسان في القلب ضياء
 إِنَّهُ النَّارُ التِّي تَشْتَعْلُ
 إن دَجَا بالياس ليلٌ غَيْهَب
 هو وَخِيُّ الله يَهْدِي عبده
 هو نورُ الله في أفق النجاء
 إِنَّهُ الْقُطْبُ إِلَيْهِ يَنْزَعُ
 إبرة تهدي إلى قُضْدِ السَّيْلِ
 يا دليلاً هادياً في كل واد
 يَفْدُحُ الْقَلْبُ إِذَا مَا خَفَقَا
 فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْدَعُ
 فاؤْمَلْ لخيرٍ وصابرٍ لا تمل
 وقضاء الله عَوْنُ الْأَمْلِينِ
 لا يَرُدُّ الله قلباً آملاً
 ربَّ عبدٍ مخلصٍ قد أقسما
 وجهادُ العبدِ أُولَى أَنْ يُبْرَ
 إنَّ عَزَمَ الْحَرَّ فِيهِ قَسَمُ
 قد تَوَلَّى الله هَذَا الْمَقْسَمُ

واقدح العزم إذا الهَوْلُ دجا
 وابعثن من كل ياسٍ أملاً
 واخلقن في كل حين ما تشاء
 يَضْدَعُ الظُّلْمَاءُ فِي نورِ الأمل
 وهو في الكفِّ جهادٌ ومضاء
 إِنَّهُ النَّجْمُ الَّذِي لَا يَأْفُلُ
 يَضْدَعُ الظُّلْمَةَ هَذَا الْكَوْكَبُ
 وَيُرِيهِ فِي الدَّبَاجِي قُضْدَهُ
 هو هدي الله في هذي الحياه
 كلُّ قلبٍ وإليه يَنْزَعُ
 تَقْصِدُ الْقُطْبَ وَعنه لا تَمِيلُ
 أنت سرُّ الله في كل فؤاد
 شرراً منه منيراً مُخْرِقاً
 يوضح النَّهْجَ وفيه يَذْفَعُ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا رَجَاءٌ وَعَمَلُ
 وهو في عَوْنِ الْأَبَاءِ الْعَامِلِينَ
 لا يَرُدُّ الله عبداً عاملاً
 فابْرَأَ اللهُ مِنْهُ الْقِسْمَا^(١)
 إِنَّهُ الْفَعْلُ عَلَى الْقَوْلِ أَبْرَ
 مُضْمَرٌ يَعْلَمُهُ مَنْ يَعْلَمُ
 فدعاه في يقينٍ يقسم

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

الوجدان السليم

ذلك الوجدان إن لم يصدأ
 أو تحجبه رياح عاتيه
 أو يجللُهُ ظلام الغفلة
 أيقظ الوجدان يا مَنْ غفلا
 أيقظ الوجدان واسمع وحيه
 إنه المرأة ، إنا صُقلا
 أجله بالفكر والعلم معا
 لا تُضغ في الشوق هذا الجوهر
 لا تُضغ في لغوهم هذي الحكَم
 نحن في الدنيا حوانا مهممة
 تقصد المنزل هذي القافلة
 فاتبعن حرثتها لا تبلس
 إنه الوجدان في هذي الفلاة
 أرايت الفلّك تسري ماخره
 تهتدي فيها بنُورِ بارق
 تهتدي النهج على لمحاته
 وهَدْنَهَا إِبْرَ لا تَغْفُلْ
 إنما الوجدان في بحر الحياه

مِنْ غَشَاوَاتِ الهوى أو يُطفأ
 صَرَصَرُ الأهواء فيها سافيه
 أو يَحْجُبُهُ حِجَابُ الشَّهْوَةِ
 فمضى يحيا حياة هملا
 أيقظ الوجدان واتبع هديه
 تبصر العالم فيسه مثلا
 واجلُهُ بالذِّكْرِ حتّى يسطعا
 لا تُطغ من باع فيه واشتري
 لا تَغُلْ ضوضاؤهم هذا النغم
 مَجْهَلٌ أعلامه تشبهه
 في فِافٍ خافَ فيها السَّابِلُ
 وأصيحَ فيها لِصَوْتِ الجَرَسِ^(١)
 إنه داع يُنادي للنَّجَاة
 في ليالٍ وبحارٍ زاخره
 من منارٍ في الدِّياجي خافق
 وتوقى الصَّخْرَ مِنْ ومضاته
 قاصداتٌ قطبها لا تعدلُ
 إبرة القطبِ ومُضْبَاحِ النَّجَاة

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارة إلى قول سعدى الشيرازي - ما زمنت مقصود من خبريم - ابن قدرهست كه بانگ جرس میآید .

طغيانُ العقلِ على القلبِ

كلُّ إنسانٍ به مُنتَحَنٌ	محنةٌ للناس هذا الزمنُ
فتنٌ فيها تحارُ الفطنُ	كلُّ ما نبصرُ فيه فتنُ
سُبِّبَ الشَّيْطَانُ مِنْ أحواله	أُطْلِقَ الإنسانُ مِنْ أغلاله
وانبصرى يكشفُ عن أسرارهِ	جُرِّدَ العالمُ مِنْ أستاره
ومضى يبحثُ في ذرَّاته	وأجال الفكرَ في طيَّاته
ومضى يبحثُ في أغوارها	وأحاط الأرض من أقطارها
مخرجاً من بطنها أثقالها	فارعاً في ظهرها أجبالها
حيثُ لا يطمع صَفَرٌ أو عَقاب	طائراً في اللوح من فوق السَّحاب
كل ما يسمو إليه يقترب	طاوياً أقطارها لا يفترب
من بأقصى الشَّرْقِ فاسمِعْ واعجبِ	يَسْمَعُ الهمسَ بأقصى المغربِ
في ذُرَى الأفلاكِ يبغى مسرحاً	ضاقَت الأرض عليه فانتحى



مثل ما أعطي عقلاً بارقاً	آه لو أعطي قلباً خافقاً
مثل ما يَغْمُرُ عقلاً راجحاً	آه لو يعمُر قلباً راحماً
مثل ما أعمل كَفّاً حاطمه	آه لو أغمَرَ عيناً ساجمه
مثل ما مَكَّنَهُ عِزِّ فائمه	آه لو هَدَّبَهُ إيمانَه
مثل ما سيطر في أجوائه	آه لو سَيَّطَرَ في أهوائه
فيهلِّدُ فوقه بنيانه	آه لو لم يُغَمِّمه طغيانَه
لينه لم تُغمِه أمواله	ليتَه لم تُطْفِئَه أعماله
وتوقِّز سمعَه ضوضاؤه	
في ظلام الصَّدر منه قد أضاء	آه لو أنَّ شعاع الكهرباء

ويلسه من ماردٍ قد دمَّرا ما بناه مخرباً ما عمرا
ليته حاط السذي قد شيدا بوئام وسلام وهدي
ليته حاط البلاد الزاهرة ليته صان الجنان النَّاضرة

إنَّ هذا العصرَ روضٌ مُزهرُ كلُّ عُصْنٍ فيه نامٍ مثمرُ
نَضَرْتُ فيه فنونَ الزَّهرِ أَيْنَعَتْ فيه ضُروبُ الثَّمَرِ
أهْ لَكُنْ في مهبِّ العاصفةِ كلُّ حينٍ تعترسه جائفَةٌ
صَرَصَرْتُ تأتي عليه لا تَذَرُ تَخْطُمُ الأغصانَ فيه والشَّجَرِ
يَخْرُبُ البستانَ منْ قد غرسا يَهْدِمُ البُنيانَ منْ قد أسَّسا
كلُّ طاعٍ يدَّعي البستانَ له يتغني الأشجارُ والبنيانُ له
لو تآخَوْا ورَضُوا بالمعدله وجنوا في غيرِ بغْيٍ أَكَلَه
لو تآخَوْا واهْتَدَوْا واستثمروا ثمَّ أسمى عدلُهم ما دمَّروا
لأَوْزَا مِنْهُ إلى ظلِّ ظليلِ ورأوا في زهره كلَّ جميلِ
وجنوا أثمَّاره وانتفعوا ونما بستانهم فاستمتعوا
فتعالوا ننظرِ الدَّاءَ العصيَّ ونرى الأسبابَ في الدَّاءِ الدَّوِيَّ
إنَّ هذا الشَّعرَ لا يحصي العِللُ إنَّه يعيا بهذا الأمرِ الجَللُ
إنَّه لمحَّةُ عينٍ عابره ليته كفَّ طيبٍ ما همره
إنَّه نفثَةُ نفسٍ شاعره ليتها كفَّ حكيَمٍ قادره

البيت

معبُدُ الله ما أطهره فيه سرُّ الله ما أظهره
روضةٌ يُنبِثُ فيها الخلقُ وترى الحقَّ عليها يُشْرِقُ

تنشأ الخيرات فيه وترب
 أنفس فيه كنفس واحد
 بل شكول مثلث للوالد
 كلها حب وإيثار فلا
 فاح يفدي أخاه جامدا
 وترى الأم عليهم حانية
 وأبوهم في غدو ورواح
 روضة للحب فيها مثلا
 كل خير هاهنا منبعه
 مسجد يسعد فيه الوالدان
 يعبد الرحمن من قد عبدا
 فالى توحيدة من غير بين
 إن تشاؤوا مثلاً لا يدفع
 فاقروا يا قومنا كي تشهدوا
 ﴿واعبدوا الله﴾ فهيا فاقروا
 أحكموا الأسرة من قرأها
 واعمروا البيت ببر ووفاء
 إن هذا البيت في نظم الأمم
 كل بيت ألفت أحاده

من رأى الخير له أم وأب !
 ألفتها في حماها الوالده
 كالمرايا حول وجه واحد
 حسد فيها ولا حقد ولا
 وكلا الصنوين يفدي الوالدا
 تنهر الليل إليهم رانية
 يسط الحب عليهم والجنح
 كل غصن بأخيه اتصلا
 كل بر هاهنا مطلعته
 وهما الخلاق فيه يعبدان
 والديه وإلى البر اهتدى
 قرن الرحمن بر الوالدين
 بينا كالشمس نوراً يطلع^(١)
 ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا﴾
 ﴿قل تعالوا أتل﴾ فيها النبأ^(٢)
 وارفعوا بالدين من بنيانها
 وسلام ووثام وإخاء
 مثل بيت الشعر في نظم النعم
 آزرت أسباطه أوتاده

(١) الآية : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الأيتان : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء : ٣٦]

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

[الأنعام : ١٥١] .

كُلُّ لَفْظٍ بِأَخِيهِ يَنْتَظِمُ
 كُلُّ حَرْفٍ بِأَخِيهِ ائْتَلِفَا
 لَيْسَ فِيهِ مِنْ قُصُورٍ أَوْ مَزِيدٍ
 وَرَوِي نَاطِمٍ أَشْنَاتُهَا
 تَرْتَقِي الْأَنْفُسَ فِيهَا عَالِيَهُ
 كُلُّ بَيْتٍ فِيهِ ذُو مَعْنَى وَضِيعٍ
 مِنْ بَيُوتٍ جَمْعُهَا لَا يُنْظَمُ
 يُوْذَنُ الْبَيْتُ أَخَاهُ بِالْفِرَاقِ
 كُلُّ لَفْظٍ فِيهِ حَرْفٌ نَافِرٍ
 بَلْ شَذُوذٌ وَسِنَادٌ وَخَلَلٌ

وَنِظَامُ الْبَيْتِ مِنْ نَظْمِ الْكَلِمِ
 كُلُّ لَفْظٍ مِنْ حُرُوفٍ أَلْفَا
 وَنِظَاماً وَاحِداً يُبْنَى الْقَصِيدُ
 فِي قِوَافٍ أَلْفَتْ أَيْبَاتُهَا
 وَمَعَانٍ بَعْدَ هَذَا غَالِيَهُ
 هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ مِنْ شَعْرِ رَفِيعٍ
 كَيْفَ تُبْنَى لِلْمَعَالِي أُمَمُ
 مِنْ بَيُوتٍ فِي خِلَافٍ وَشِقَاقٍ
 كُلُّ بَيْتٍ فِيهِ لَفْظٌ ثَائِرٌ
 لَا تَقْلُ فِيهَا زَحَافٌ وَعَلَلُ

مَا أَصَابَ الْخَيْرَ فِيهِ وَالْهَدَى
 لَا وَلَا صَفّاً لَدَيْهِ قَوْماً
 لَا وَلَا أَسْمَعُ تَرْجِيْعَ الْأَذَانِ
 عَطَلَ الْمَحْرَابُ مِنْ آيَاتِهِ
 وَمَضُوا فِي كُلِّ أَفْقٍ بَدَداً
 وَمَضَى فِي غَيْبِهِ كُلُّ فَرِيقٍ

لَيْتَ شَعْرِي مَا أَصَابَ الْمَسْجِدَا
 لَا أَرَى جَمْعاً لَدَيْهِ نُظُمَا
 مَا أَحْسَنُ الْيَوْمَ تَرْتِيلَ الْقُرْآنِ
 خَرَسَ الْمَنْبِرُ عَنْ أَصْوَاتِهِ
 ذَهَبَ الْعَبَادُ عَنْهُ قَدَداً
 غَلَبَ الْمَلْهَى عَلَيْهِ وَالطَّرِيقُ

كَانَتْ الْأَمْسَ زَهَوَراً زَاهِيَهُ
 وَدَوَتْ أَوْرَاقُهَا وَالسَّرْهَرُ
 وَحَمَتَهَا الْمَاءُ أَيْدٍ سَاقِيَهُ
 فَطَغَى الشُّوْكَ عَلَيْهَا وَالتُّرَابُ
 أَنْعَمُوا التَّفْكِيرَ فِيهَا وَالنَّظَرُ

رَوْضَةُ الْبَيْتِ أَرَاهَا ذَاوِيَهُ
 صَوَّخَتْ أَعْشَابُهَا وَالشَّجَرُ
 صَدَفَتْ عَنْهَا عَيُونٌ وَاقِيَهُ
 غَابَ بَسْتَانِيُّهَا دُونَ إِيَابِ
 إِنَّهَا يَا قَوْمَنَا إِحْدَى الْكَبَرُ

هي أصل الذاء أو أصل الدّواء نعمة الأقوام فيها والشقاء

اعمروا بالخير هذا المسجدا وابتغوا الخيرات فيه أبدا^(١)
اعمروا البيت وردّوا والديه واجعلوه حرماً يؤوى إليه
نضّروا الرّوضة من إروائها وابتغوا النّعمة في أفيائها
أرجعوا الطير إلى أوكانها ليشبّ الولد في أحضانها
ألفوا الأحرف في كلماتها وانظموا الأمة من أبياتها

تنافر الجماعة

إنّنا نبصر في كلّ مكان حسرة الأنفس في هذا الرّمان
من وجوه مات فيها الخفر وعيون حاز فيها النّظر
يلعن الوجه أخاه نافرا يغيّض الطّرف أخاه ناظرا
قطّعوا من بينهم كلّ سبب هجر النّاس حياء وأدب
ثورة تبصرها كلّ طريق يتجلّى الهجر فيها والعقوق
ليست الأمّ بها أما ترى لا ولا الوالد فيها عزّرا
لا ولا الأخت لها حرمتها من أخيها وقبذت حسرتها
لا صغير قد رعى حقّ الكبير أو كبير راحم ضعف الصغير
فنرى في قبورها أفعالها تسمع الألفاظ أصداؤها
تلك فيض من قلوب في نفور تقدح النيران منها في الصّدور
إنّما الناس صلاح وفساد بالتشام أو شقاق وعناد
إنّنا نبصر أحاداً ولا نبصر الحُبّ بها متصلاً

(١) المسجد : هو الأسرة .

لم يؤلفها على التَّهَجِّ احتساب
ومن الأعداد حُبٌّ واتِّلاف
ومن الأعداد رُحِمٌ ووفاق
فهي بغضٌ وشقاقٌ وفتن
فاستقامتُ في طريقٍ واحده
وحسابٌ بالغٌ كلَّ مراد
وانظروا ما الجمع في آحادنا
واجمعوا هذي الوجوه الشائره
واجمعوا بالحُبِّ هذا البددا
أطفئوا بالودِّ هذا الضَّغنا

إنها الأعداد في غير حساب
ومن الأعداد بُغْضٌ واختلاف
ومن الأعداد حِقْدٌ وشقاق
فإذا سارت على غير سَنَن
وإذا ألفتها في قساعده
فهي نظمٌ واتِّلافٌ وأطراد
فانظروا ما النِّظَم في أعدادنا
انظموا هذي القلوب النافره
املؤوا الأنفس خيراً وهدي
اغسلوا بالحُبِّ هذا الدُّرنا

إنَّما الأهواء أسبابُ النَّوى
إنَّ للحقَّ طريقاً واحده
ما سوى الحقِّ إليه نستجيب
أشعروها الحقَّ في أحضانها
لا تزيغوا عن شمالٍ أو يمين
ليس إلا الحقُّ للخير رفيق
ومن الحبِّ إلى الجمع المصير

ما ينالُ الحبُّ يوماً بالهوى
يجمعُ الحقُّ نفوساً شارده
ليس إلا الحقُّ في جمع القلوب
أرضعوها الحقَّ في ألبانها
واجعلوه قبله في كلِّ حين
ومن الحقِّ إلى الخير طريق
ومن الخير إلى الحبِّ المسير

كلُّ حقٍّ من سناه يُشْرِقُ
كلُّ خيرٍ من جداه ينبُعُ
كلُّ ينبوعٍ إليه عائد
باريُّ بالحقِّ كلَّ العالمين
برُّه في خلقه فيضٌ عميم

لا يُرى للحقِّ إلا مُشْرِقُ
ليس للخيرات إلا منبُعُ
إنَّما للحبِّ نهرٌ واحد
منبُعُ الحقِّ هو الحقُّ المبين
منبُعُ الخير هو البرُّ الرَّحيم

مَبْعُ الْحَبِّ هُوَ اللَّهُ الْعَلِيِّ
 فَاضْبِثُوا النَفْسَ مِنْ إِيْمَانِهَا
 اَمَلُوا الْاَنْفُسَ مِنْ نَوْرِ الْيَقِيْنِ
 اِنَّمَّا الْاِنْسَانَ مَسْنُ لَحْمٍ وَدَمٍ
 ذَلِكَ اللَّحْمُ اِلَى مَاءٍ وَطِينٍ
 فَاِذَا اُطْفِئَ فِيْهِ ذَا الضُّيَاءِ
 اِنَّ هَذَا الْجِسْمَ ذُو وَزْنٍ وَحَدٍ
 هَالِكٌ مَنْ عَاشَ فِي ضَيْقِ الْجَسَدِ
 اَنْتَ فِي جَسْمِكَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
 اَنْتَ فِي الرُّوحِ حَيَاةٌ وَطَمَاحٌ
 اَنْتَ فِي قَلْبِكَ سِرُّ الْعَالَمِيْنَ
 لَا يَحْدُ الْقَلْبَ فِي الْاَفَاقِ حَدٌ
 اَيُّْهَا الْغَافِلُ عَنْ سِرِّ الْاِلهِ
 ضَاقَ عَنْ اَمْرِ الْاِلهِ الْعَالَمِ
 كُلُّ مَا اَدْرَكَتْ مِنْ مَعْنَى جَمِيْلٍ
 كُلُّ مَا اَوْعَاةُ تَارِيخُ الْبَشَرِ
 كُلُّ مَا سُجِّلَ عَنْ اَخْيَارِهِ
 هُوَ نَوْرُ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ الصَّغِيْرِ
 هُوَ نَبْضُ الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا اَنْتَشِرُ
 اِنَّمَّا الْاِيْمَانَ بِالدُّنْيَا يَدُوْرُ
 فَاجْعَلُوا مِنْهُ تَبَاشِيْرَ الْمُنَى
 اِرْفَعُوا الْاَنْفُسَ فِيْهِ صَاعِدِهِ
 عَنْ مَتَاعٍ وَطَعَامٍ وَشَرَابٍ

هُوَ مَوْلى لِلْبَرَايَا وَوَلِي
 وَاَنْظُرُوا الْاَيَّاتِ مِنْ اِحْسَانِهَا
 وَاَنْظُرُوا اِيْدَاعِهَا فِي كُلِّ حِيْنٍ
 فِيْهِ قَلْبٌ كَسْرَاجٍ فِي ظَلَمٍ
 ذَلِكَ الثُّوْرُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ
 فَهُوَ وَحْشٌ هُمُّهُ سَفْكُ الدِّمَاءِ
 وَبِهَذَا الْقَلْبِ كَوْنٌ لَا يُحَدُّ
 مَنْ يَعِشُ فِي وَسْعَةِ الْقَلْبِ خَلَدُ
 اَوْ قَوَامٍ فِيْهِ لَحْمٌ وَدَمَاءٌ
 وَرَجَاءٌ وَجَهَادٌ وَكِفَاحٌ
 فِيْهِ اَمْرُ اللَّهِ لِلْخَلْقِ مِيْنٍ
 اِنَّهُ يَكْبُرُ عَنِ وَزْنٍ وَعَدٍ
 اَنْظُرْنَ فِي الْقَلْبِ يَوْمًا لَتَرَاهُ
 وَحَوَاهِ الْقَلْبِ ، هَذَا الْخَاتَمُ
 كُلُّ مَا اَبْصَرْتَ مِنْ اَمْرِ جَلِيْلٍ
 مِنْ جَلَالٍ وَجَمَالٍ وَعَبَرٍ
 كُلُّ مَا حُدِّثَ عَنْ اَبْرَارِهِ
 اَوْ تَجَلَّى اللَّهُ فِي الْكُوْنِ الْكَبِيْرِ^(١)
 هُوَ خَفَقُ الْقَلْبِ يَرْمِي بِالْشَّرِّ
 فَهُوَ نَارٌ فِي دَجَاها وَهُوَ ثُوْرٌ
 وَاَمَلُوا الْاَفَاقَ مِنْهُ بِالسَّنَا
 اِرْفَعُوْهَا عَنْ مَعَانٍ خَامِدَةٍ
 وَمَعَانٍ كُلِّهَا نَبْتُ الثُّرَابِ

(١) الْكُوْنُ الْكَبِيْرُ : الْقَلْبُ .

لا رياسَ ومَتاعٌ للبلى
وزُنُه بين السورى مَنبُةُ
حَلَقَنَ في جَوِّها مثل العُقَابِ
مَنْ لَهذا الكونِ في يومٍ وُغْدِ
أبصر الإنسان يا قومي هوى

قيمة الإنسان قلبٌ لِلْعُلَى
كُلُّ ساعٍ قَذَرُه بَغِيثُه
أَيُّها القانع دوداً في ترابٍ
أَيُّها السادرُ في لَهوٍ وَدَدِ
أنقذوا الإنسان من هذا الرَّدَى

ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقاً
أنت في الأرضِ عن الله وكيل
قسم الأرزاق يوماً بيديك
واحكمُنْ بالعدلِ ما بينَ العبادِ
وأزل من أرضنا هذا العناء
وسلامٍ وودادٍ وإخاء
وانعمُنْ بالأمنِ في أفيائها
واملأَنَّ بالخيرِ آفاقَ الدُّنْيا
عَلِمَ الإيثارَ والزهدَ الغني
وهي في عينه لغوٌ وزيف
فعلَةٌ في الخيرِ أعلى عنده
كُلُّ ما ينفق منها مغنمُ
لا تساوي ذلَّةَ الحرِّ الأبى
إنَّها الدُّزْهُمُ في كفِّ الكريمِ
وهي عند العارفين الصَّدْفُ
وسِعَ الأرضَ جميعاً والسَّماءُ
أخذاً في الأرضِ كُلَّ الثَّمَراتِ
رَبِّما أوفى على آمادها

أَيُّها المسلمُ يا مَنْ خُلِقا
انهضنْ يا صاحٍ بالعبءِ الثَّقيلِ
قد قضى الخلاقُ بالأمرِ إليك
سَطَرُنَ بالحقِّ في هذي البلادِ
أنقذِ الإنسان من هذا الشَّقَاءِ
املأ الأرضَ بحبٍّ وصفاء
واحكمُنْ بالحقِّ في أرجائها
واملأ الآفاقَ حقّاً وسَناء
عَلِمَ الإيمانَ والحقَّ العلي
زهْدَ مَنْ يملك آلاف الألفِ
قولةٌ في الحقِّ أعلى عنده
كُلُّ ما يمسكُ منها درهمُ
هذه الأموالُ جمعاً يا بني
إنَّها اللُّبَّةُ في عينِ الحكيمِ
جوهرٌ يحسبُ من لا يعرفُ
إنَّما الجوهرَ قلبٌ قد أضاء
لا يعافُ الحرُّ أَكْلَ الطَّيِّباتِ
رَبِّما استولى على أعدادها

أَخْذاً أَوْ مَعْطِياً لَا يَشْرَهُ
عَبْدُ الدُّنْيَا وَلَا تَسْتَعْبِدُهُ
حَائِماً لِلرِّزْقِ صَقِراً طَائِراً
فَإِذَا شِيمَ هَوَاناً فَزَعَا
وَاسْتَمَدَّ الْعِزَّ مِنْ هَمَّتِهِ
فَإِذَا الْمَاءُ لَهَيْبٍ وَدُخَانٍ
وَإِذَا سُدَّ عَلَيْهِ كُلُّ بَسَابِ
إِنَّ مَسَوْتَ الْحَرِّ فَنَسِي ذَلَّتِهِ
رَابِحاً أَوْ خَاسِراً لَا يَأْبَهُ
فَاكْهَافاً فِي نَعْمَةٍ لَا تَفْسِدُهُ
لَا يُرِيغُ الرِّزَّاقُ فِيهَا صَاغِراً
مِثْلَ مَا يَفْزَعُ مِنْ قَدِّ لُسْعَا
وَاسْتِثَارِ النَّارِ مِنْ عَزْمَتِهِ
وَإِذَا الْحَلَمُ ضَرَابٌ وَطِعَانٍ
فَنَارِقَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ إِيَابٍ
وَحَيَاةَ الْحَرِّ فِي عَزَّتِهِ



قَالَ لِسِي شَيْخٍ وَقَوْرُ الْمَعِي
كُنْتُ يَوْمَافِي عَيُونٍ وَنَخِيلٍ
وَمَعِي مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ نَفَرُ
وَإِذَا صَقَرَ عَلَيْنَا حَلَقَا
أَسْرَعَ الرِّفْقَةُ فِي نَضْبِ الشَّرْكَ
وَهَوًى فَاَنْقَضَ هَذَا الْأَجْدُلُ
فَطَوَى سَقَطِيهِ هَذَا الْمَهْلِكُ
وَأَتَى الصَّيَّادُ لِلطَّيْرِ الْأَسِيرِ
سَابِغُ الْجَوِّ بِخَيْطٍ عُلِقَا
ذَلِكَ الصَّيَّادُ فِي جَوْ السَّمَاءِ
قَاهِرُ الْجَوِّ بِعِزِّهِ وَجَنَاحِ
ضَاقَتْ الْأَجْوَاءُ عَنْهُ مَسْرَحَا
ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ جَنُنَا نَنْظُرُ
فَإِذَا دَمَعَةُ عَيْنٍ هَسَامِلِهِ
مِنْ بَنِي يَنْبَعِ شَهْمٍ عَرَبِي
فِي الْقَرْيِ مِنْ يَنْبَعِ النَّخْلِ الْجَمِيلِ
اصْطِيَادُ الطَّيْرِ فِيهِمْ وَطَرِ
سَابِحاً فِي جَوْهُ قَدْ خَفَقَا
وَسَمَانِي وَضَعُوها فِي الشُّبَّكَ
بَلْ هَوًى هَذَا الْقَضَاءُ الْمَنْزِلُ
وَتَوًى فِي حَبْلِهِ يَرْتَبِكُ
عَيْنُهُ فِي اللَّوْحِ لَكِنْ لَا يَطِيرُ
ذَلِكَ الْخَفَّاقُ فِيهِ أَحْفَقَا
صَادَهُ بِالْخَتْلِ صِيَادُ الْقَضَاءِ
بَدَّلَ الشُّبَّكَ مِنْ مَثْنِ الرِّيَّاحِ
كَيْفَ يَرْضَى فِي إِسَارٍ مَطْرَحَا ؟
لِنَرَى الْأَجْدَلَ أَتَى يَوْسُرُ
وَإِذَا الْمَهْجَةُ فِيهَا سَائِلُهُ

ذا يسمّى « الحرّ » من بين الصُّقور
 فكُنِ الصَّقْرُ الأبَيُّ العَالِيَا
 واحذرنُ يا حرّ هَذي التَّهْلِكَة
 إنَّهَا معرَكَةٌ لِلأَبْطَنِ
 فِي وَغَاهَا كُلُّ حَزْمٍ ضَيِّعَا
 لَا تَغَرَّنَّكَ مَرَايَا بَارِقَة
 إِنَّهَا رَأْسٌ بِسَلَا قَلْبٍ يَسِيرُ
 قَدْ أَضَلَّ الغَيِّ هَذي الأَمَمَا
 فدَعَاهَا فِي ظَلَامٍ تَصْطَلِمُ
 لَا يَطِيقُ الأَسْرُ مِنْ بَيْنِ الطَّيُورِ ^(١)
 وَكُنِ الحرّ الكَرِيمُ الأَيَا
 احذرنُ مِنْ خَوْضِ هَذي المَعْرَكَة
 ضَلَّ فِي غَوَاثِهَا ذُو الفِطَنِ
 غَابَ عَنْهَا العَقْلُ وَالقَلْبُ مَعَا
 وَفَنُونٌ وَعُلُومٌ خَارِقَة
 إِنَّهَا هَزَجٌ وَمَزَجٌ وَسَعِيرُ
 فَتَوَى إِبْلِيسُ فِيهَا حَكَمَا
 وَرَمَاهَا فِي ضَلَالٍ تَحْتَدِمُ

الشيوعية

أَحَدْتُ الدَّعَوَاتِ فِي هَذي الأَمَمِ
 تَعَدُّ الْإِنْسَانَ بِالْمَرْعَى الْخَصِيبِ
 تَعَدُّ الْإِنْسَانَ أَعْشَابَ الرِّبْعِ
 يُوْعَدُّ الْمَرْعَى وَلَا شَيْءَ لَهُ
 لَيْسَ يَرْغُو سَرْبُهُمْ : أَيْنَ الْمَسِيرِ
 وَيَتِمُّ الشُّبُهَةُ فِيهِ بِالْغَنَمِ
 كَفَرَهُ بِاللهِ وَالْخَيْرِ وَمَا
 وَضِيَاعُ الْبَيْتِ مِنْهُ وَالرَّجَمِ
 كَافِرٌ بِاللهِ لَا بِالسُّوْثَنِ
 يَبْصُرُ الظُّلْمَةَ عِنْدَ الصُّنَمِ
 تَسْلُكُ الْإِنْسَانَ فِي سِلْكِ الْغَنَمِ
 فِيهِ عُشْبٌ وَرُغَاءٌ وَنَيِّبُ
 ثُمَّ عَيْشٌ مِثْلُ مَا عَاشَ الْقَطِيعُ
 وَعَصَا الرِّئَاسَةِ تَرْبَهُ أَكْلَهُ
 لَا ، وَلَا يَنْغَوِ إِلَى أَيْنَ الْمَصِيرِ
 قَطَعُهُ عَنْ مَنَبَعِ الْخَيْرِ الْعَمِيمِ
 فِيهِ إِنْسَانٌ عَنِ الْعُجْمِ سَمَا
 وَحَنَانِ الْقَلْبِ مِنْ أُخْتِ وَأَمِ
 كَافِرٌ بِالسَّلَامِ لَا بِالْفَتَنِ
 عَنْ ضِيَاءِ اللهِ وَالْحَقِّ عَمِي

(١) الحرّ : نوع من الصقور قل أن يعيش بعد إمساكه .

كُلُّ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْ وَدٍّ وَحَبٍّ لَا يَسَاوِي عِنْدَهُ مَكِيلَ حَبٍّ
كُلُّ مَا يَدْعُو أَنْاسٌ بِالشُّعُورِ لَا يَسَاوِي عِنْدَهُ كَفٌّ شَعِيرِ
ذَاكُمُ السَّيْرُ وَهَذَا الْمُنْتَهَى أَنْعَمُوا التَّفَكِيرَ يَا أَهْلَ التَّهَى

إِقْبَال

يَبْنَ الإِقْبَالُ مِنْ سِرِّ الْحَيَاةِ وَأَزَالَ السُّتْرَ عَنْ نَوْرِ النِّجَاةِ
يَبْنَ الإِقْبَالُ مِنْ سِيرِ الزَّمَانِ وَأَفَاضَ الثُّورَ مِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ
بَثٌّ فِي النَّفْسِ كَلَاماً مِنْ شَرَرٍ مِنْهُ عَشَقُ الْحَقِّ فِي الْقَلْبِ اسْتَعْرَ
فَتَقَتْ نَظَرَاتُهُ كُلَّ حِجَابٍ فَرَأَى الدَّوْحَةَ مِنْ تَحْتِ الثُّرَابِ
ضَاقَتْ الْأَفَاقُ عَنْ نَظَرَاتِهِ ضَجَّتِ الْأَفْلَاكُ مِنْ أُنَاتِهِ
وَصَلَّتْهُ نَفْحَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَتَجَلَّى نَوْرُهُ فِي قَلْبِهِ
قَدْ ثَوَى فِي قَلْبِهِ كُلُّ الْجِهَاتِ وَاسْتَوَى فِي فِكْرِهِ مَاضٍ وَآتٍ
سَالَ فِي أَلْحَانِهِ دَمْعٌ وَدُمٌّ وَالتَّقَى الْمَاءُ عَلَيْهَا وَالضَّرْمُ

يَا بَرُودَ الْقَلْبِ خُذْ مِنْ نَارِهِ فَالْحَيَاةُ الْحَقُّ فِي أَشْعَارِهِ
يَا مَوَاتَ الْقَلْبِ خُذْ مِنْ رَجْعِهِ^(١) يَا جَمُودَ الْعَيْنِ خُذْ مِنْ دَمْعِهِ
يَا صَغِيرَ الْهَمِّ خُذْ مِنْ هَمَّتِهِ يَا كَلِيلَ الْعَزْمِ خُذْ مِنْ عَزْمَتِهِ
يَا أَسِيرَ الْيَأْسِ خُذْ أَمَالَهُ فِي دَجَى الْيَأْسِ أَيْزُ أَقْوَالِهِ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ صَعِدْ فِي السَّمَاءِ وَابْلُغْ فِي جَوْهَا أَعْلَى الْعِلَاءِ
وَخُذِ الْإِقْدَامَ مِنْهُ وَالطَّمَّاحَ وَجَنَاحاً قَاهِراً هُوجَ الرِّيَّاحِ

(١) الرَّجْعُ : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّينِ مِنْ خَلْفِ العُصُورِ قد أتى في شِعْرِهِ نازٌّ ونورٌ^(١)
 إِنَّهُ الإسْلَامُ فِي عَزَّتِهِ إِنَّهُ الإِيْمَانُ فِي قُوَّتِهِ
 إِنَّهُ الْقُرْآنُ فِي أَنْوَارِهِ إِنَّهُ الْفَرْقَانُ فِي أَسْرَارِهِ

بُلْغِي يَا رِيحُ فِي شَطِّ النَّوَى أَدْمَعِي قَبْرًا بِبَلَاهُورِ ثَوَى
 وَامْضِي يَا بَرْقُ بِوَجْدِي وَهِيَامِي أَبْلُغْنِي قَبْرًا بِبَلَاهُورِ سَلَامِي
 إِنَّ : إِقْبَالَ بَلَاهُورِ أَقَامَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَالسَّلَامُ

دعاء

فَالِقَ الْإِصْبَاحِ رَبَّ الْمَشْرِقَيْنِ بِأَسْطِ اللَّيْلِ وَرَبَّ الْمَغْرِبَيْنِ !
 أَنْتَ فِي الضُّبْحِ ضِيَاءٌ فِي جَمَالِ أَنْتَ فِي اللَّيْلِ ضِيَاءٌ فِي جَلَالِ
 نَاشِرَ الشَّمْسِ خِضَمًّا مِنْ ضِيَاءِ طَاوِي الذَّرَّةَ شَمْسًا فِي خِفَاءِ
 أَنْتَ نَوْرٌ فِي ظُهُورٍ وَجَلَاءِ أَنْتَ نَوْرٌ فِي حِجَابٍ وَخِفَاءِ
 يَا جَلِيْسًا فِي دُجَى أَسْتَارِهِ يَا خَفِيْسًا فِي ضُحَى أَنْوَارِهِ
 يَا أُنَيْسًا فِي قُلُوبِ الْعَارِفِينَ وَحَيَاةَ لِقُلُوبِ الْغَافِلِينَ
 يَا ضِيَاءَ الْعَيْنِ فِي النُّورِ الْعَمَمِ وَضِيَاءَ الْقَلْبِ فِي دَاجِي الظُّلَمِ
 قَرُبُكَ الْمُؤْنَسَ فِي هَذَا الْقَفَارِ هَدِيكَ الْمُنْقَذَ فِي هَذَا الْبَحَارِ
 نَاطِمَ الْكَوْنِ الْبَلِيْغِ الْمُبْدَعَا مُحَسِّنًا مَطْلَعَهُ وَالْمَقْطَعَا
 خَلَقْتَكَ الْأَلْفَاظُ فِيهِ وَافِيهِ أَمْرُكَ الْوِزْنُ لَهُ وَالْقَافِيهِ^(٢)
 كُلُّ لَفْظٍ فِيهِ نُظَّارٌ إِلَيْكَ كُلُّ مَعْنَى فِيهِ بَرَهَانٌ عَلَيْكَ

(١) مولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منك هذا العقل ، هذا الثائر ،
جاوز الأفلاك يسعى نحوكما
منك هذا القلب ، هذا الخافق
ذاكر إياك راج كل حين
طالب إياك ساع حائر
يكشف الأستار يبغي وجهكما
في الدياجي منك نور بارق
خفقه ذكر وشوق وحين

اجعلن عقلي ضياء ثاقبا
واشددن فكري بصدق وسداد
واملأن قلبي بحب وصفاء
وازفعن في الحق صوتي عاليا
واجعلن وجهك قصدي لا سواه
وامنح المسلم قلباً خافقاً
امنحنه العقل والقلب السليم
واجعلنه في البرايا حكماً
اجعلنه قائداً بين البشر
يصدع الباطل حقاً صائبا
واحبني التوفيق في كل مراد
واخفظنه من شقاق ومراء
وجناني فيه عضباً ماضيا
هوئن في عين قلبي ما عداه
واحبه بالعلم عقلاً بارقاً
واهده رب الصراط المستقيم
قاضياً بالعدل إمّا حكماً
هادياً للخير لا يسعى لشر

أنجى من هذي العمم
هدم الإنسان ما قد عمرا
فامد بالإيمان عقلاً حائرا
أذكر الناس بحب ووئام
أنجى من بغيها هذي الأمم
حينما أمر عقلاً كفرا
واجعل القلب عليه آمرا
إنك الداعي إلى دار السلام^{(١)(٢)}

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَاقُلْ يَدْعُوا إِلَى كَارِ السَّكِينِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچی . والله الحمد أولاً وآخرأ ﴿ سُبْحَنَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا ظَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

الدِّيَّوَانُ الرَّابِعُ

زُبُورُ الْعَجَمِ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدُّكْتُورُ حُسَيْنُ مَجِيدِ الْمَصْرِيِّ

هذا الديوان - في الأصل - جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الديوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أوماً إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوةٍ بلغت من الجرأة مداها ، يتمسك صاحبها فيها التمسك الشديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعةً أكثرها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعةً تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (كلشن رازجديد) وهو على طريقة «كلشن راز» .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (كلشن راز) ، ألفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوف أرسلها إليه بعض الصوفية ، ولهذا سماه الشاعر - محمد إقبال - « روضة السر الجديد » (كلشن راز جديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفية وصوفية .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة
والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .
وإليكُم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الذي نقله من الفارسية إلى العربية
شعراً الأستاذ حسين مجيب المصري :

لك عينٌ ، نظراً فيها خلقت لك نفسٌ ، ولها دُنْيَا خلقت
 نامَ هذا الشَّرْقُ لا يرعاه نَجْمٌ بنشيد العَيْشِ فجرأ قد خلقت^(١)

تمهيد

خبأ في الشَّرْقِ ذِيكَ اللّٰهِيْبُ فأين الرُّوحُ بل أين الوجيب^(٢)
 وأضحى صورةً ترنو إليها وما للعيش من ذوقٍ لديها^(٣)
 يجافي قلبه طيفَ الأمانِي ويُسكت نايَه رجْعُ الأغاني^(٤)
 عن المقصود من قولي أبنتُ على سفرٍ لمحمود أجبتُ
 تواليت بَعْدَ ذا الشيخِ العهود وما لِلنَّارِ في روحٍ وقود^(٥)
 لنا كَفَرْنَا ونَزَقْنَا في ثرانا قيامُ البعثِ يوماً ما عنانا^(٦)
 وفي تبريزَ عَيْنٌ للحكيم رأَتْ آثارَ جنكِيزَ الظَّلوم^(٧)

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقادت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهْمْنَا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر جنكيز على سبيل المجاز .

ولكنْ ثُورَةٌ أُخْرَى وَجَدْتُ
رَفَعْتُ أَنَا عَنِ الْمَعْنَى الثُّقَابَا
أَلَسْتُ تَرَى بِلَا كَأْسٍ خُمَارِي
وَكُلُّ الْخَيْرِ فَيَمَنْ قَالَ تَعْدَمُ
فَمَا أَشْتَاقُ دَاراً لِلْحَيِيبِ
تَرَابِي لَيْسَ مِنْ هَذَا الْمَمَرِ
لَقَدْ صَافَيْتُ جَبْرِيلَ الْأَمِينَا
بِفَقْرِي كَانَ لِي مَالُ الْكَلِيمِ
وَمَا الصُّحْرَاءُ تَحْوِينِي تُرَابَا
زُجَاجِي مِنْهُ تَرْتَعِدُ الصُّخُورُ
هِيَ الْأَقْدَارُ نَكْمَنُ خَلْفَ سَتْرِي
بِذَاتِي بَرَهَةٌ هَا قَدْ خَلُوتُ
وَلَيْسَ الْعَاثُ مِنْ شَعْرِي عَلِيَا

وَشَمْسٌ غَيْرُ هَذِي مَا شَهِدْتُ
جَعَلْتُ الشَّمْسَ مَا كَانَ التُّرَابَا
وَلَيْسَ لِشَاعِرٍ غَيْرِي شَعَارِي^(١)
بِأَنِّي شَاعِرٌ يَا صَاحَ فَافْهَمُ^(٢)
وَمَا فِي الْقَلْبِ مَنْ وَجَدَ مَذِيبَ
وَفِيهِ الْقَلْبُ لَا يَشْقَى بِأَسْرَ
عَدُوّاً لَا أَشَاهِدُ لِي مَبِينَا^(٣)
وَجَاءَ الْمَلِكُ فِي سَمَلِ الْعَدِيمِ^(٤)
وَلَا الدَّمَاءُ تَطْوِينِي عُبابَا^(٥)
وَأَفْكَارِي بِلَا شَطِّ بُحُورِ
قِيَامَاتٍ أَقْمَتُ بِمَحْضِ أَمْرِي
بِدُنْيَا الْخُلْدِ أَخْلَقَهَا بِدَوْتِ
فَلِلْعَطَارِ لَنْ تَجِدَ السَّمِيَا^(٦)

(١) الخمار : صدام السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .

(٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .

(٣) العدو المبين : الشديد العداوة .

(٤) الكلیم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، وقال ذلك وهو راضي بهذا البذل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقداً الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمَل : الثوب البالي . العديم : الفقير .

(٥) الدَّمَاءُ : البحر . والعباب : الموج .

(٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بروحي للحياة مع الفناء
 رأيتُ ثراكِ عن روحٍ غريباً
 ولي في القلب وهاجُ السَّعير
 وذاك القلبُ حبٌّ في ثراه
 وذوق الذاتِ شهدٌ في لهاتي
 لقد جربت ذلك في البدايه
 وجبريلُ كتابي إنْ رآه
 لرَّبِّي ظل يشكو من مقامه
 جلاء للتعجُّلي لا أريد
 كفتُ عن الوصالِ السَّرمدي
 غرورُ المرءِ هبني والخضوعا

صراعٌ ، لا أرى غَيْرَ البقاء
 ففيه نفختُ من روحي ديباً^(١)
 دجاك أنير بمصباحي المنير^(٢)
 كلوحٍ خطَّه ما في سواه^(٣)
 وهذا كُلُّه من وارداتي^(٤)
 منحت الشرقَ منه في النهايه
 أنسارَ لنا بلمسحٍ من سنائه^(٥)
 وحالُ القلبِ يتن في كلامه
 ولكن ما حوى القلبُ العميد^(٦)
 لذتُ شكاةَ قلبٍ لي شجي^(٧)
 إذا ما ذابَ أو أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحير فما مفهوم ما يُدعى التفكُّر

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار .
 السُّمِّي : النظير هنا .

- (١) الدبيب : دبُّ الشراب والسُّقم في الجسم ديباً : سري ، وكأنه مشى .
- (٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيئة .
- (٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .
- (٤) اللهاة : لحمه في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّد من الإنسان .
- (٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .
- (٦) العميد : من هدَّه العشق .
- (٧) السَّرمدي : الخالد . والسَّجِّي : الحزين .

طريقَ شَرْطُهَا مِنْ أَيِّ فِكْرٍ ؟ نَطِيعُ اللَّهِ ثُمَّ نَكَادُ نَكْفُرُ !

الجواب

يَصْدُرُ الْمَرْءُ مِّنَّا أَيُّ نَوْرٍ
بَدَأَ لِي الثَّابِتُ السَّيَّارُ جَهْرَةً
وَفِيهِ النَّارُ حِينًا مِّنْ دَلِيلٍ
بِهَذَا الثُّورِ لِلرُّوحِ الشُّرُوقِ
بِمَسِّ الثَّرْبِ يَنَازِلُ عَنْ مَكَانٍ
وَمَا بِتَسْرُدُ الْأَنْفَاسَ يَبْقَى
وَيَهْنَأُ فِي الشَّوَاطِئِ بِالْمَقَامِ
عَصَا مُوسَى وَهَذَا كَانَ بَحْرَهُ
غَزَالًا ، وَهُوَ يَرْعَى فِي السَّمَاءِ
لَهُ فِي الْأَرْضِ وَالزَّرْقَا مَقَرٌ
وَمِنْ أَحْوَالِهِ ظُلْمٌ وَنَوْرٌ
لِإِبْلِيسَ وَآدَمَ مِنْهُ مَظْهَرٌ

عَجِيبٌ ، غِيْثُهُ عَيْنَ الْحَضُورِ
أَرَاهُ النَّارَ أَوْ نَوْرًا بِنَظَرِهِ^(١)
وَيَسْطَعُ نَوْرُهُ مِنْ جِبْرِئِيلِ
شِعَاعٌ مِنْهُ شَمْسًا قَدْ يَفُوقُ
بَقِيْدَ الْيَوْمِ يَخْرُجُ مِنْ زَمَانٍ^(٢)
دَوْبِيًّا مِثْلَهُ فِي الْبَحْثِ تَلْقَى ؟
يَعْبُ الثَّابِتُ الْبَحْرَ أَحْيَانًا بِجَامٍ^(٣)
وَقَدْ ضَرَبَتْ فَشَقَّتْ مِنْهُ صَدْرَهُ
وَيُزَوِّى مِنْ مَجْرَتِهَا بِمَاءٍ^(٤)
وَحِيدًا يَبِينُ قَافِلَةً يَمُرُ^(٥)
وَجَنَاتٌ وَمَوْتٌ ثُمَّ صُورٌ
وَيَكْمُنُ تَحْتَهُ لَا شَكَّ مُخْبِرٌ^(٦)

(١) جهرة : عياناً . أو : بمعنى الواو .

(٢) الثرب : الثراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عب الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .

(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو نائثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهَرِ .

(٥) الزرقاء : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أما آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليه العينُ في شوقٍ شديد
بعينٍ خلوةٍ ها قد رآها
حرامٌ عَضْبُ عَيْنٍ بامتهان
وذاك البحرُ يخلقه بنهره
فيبدو صورةً ليست لجنسه
هياجٌ فيه منعدمٌ صداه
وهذي كأسه تحوي الزمانا
حياةً منه بالأوهاق تُرمى
ولكنْ نَفْسُهَا أَسْرَتْ بِذَلِكَ
وَأَنْتَ الْعَالَمِينَ إِذَا غَزَوْتَا
وهذا البحثُ في القفر احذرته
ضعيفٌ ؟ خذْ من الذَّاتِ قَوًى
بغزو الذَّاتِ إِنَّ يَوْمًا ظَفَرْنَا
لَكَ الدُّنْيَا ، لیسعد يومُ نصرِكَ
جعلتِ البدر يسجدُ في هوانٍ

تجلُّ منه إعجابُ الحميد^(١)
تجلُّ عينه الأخرى ملاها^(٢)
فشرطٌ للطريق ، له اثنتان
ويُصبح جوهرًا في مستقره
وغواصاً يصير للقط نفسه !
له لونٌ ، وما أحدٌ رآه
وبالتدرج نُذِرْكَ عيانا
ومنْ يعلو ولا يعلو لتُصمى^(٣)
وغيرَ اللهِ أَوْرَدَتِ المِهالكُ^(٤)
فَوَخَذَكَ من هلاكٍ قد نجوت^(٥)
عليك بعالمٍ فيك ادخلته
تريدُ الله ؟ قُرْبُهَا ، لذاكَا
لكَ الأفاقُ في ملكٍ وجدنا
سماءٌ قد شَقَقَتْ فَتَنَ بِقَدْرِكَ
عليه رميت أوهاق الدُّخان^(٦)

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .

(٢) ملاها : ملاها .

(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشودة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .

(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ماسوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوجدانية والانصراف عن التعدد إلى الواحد .

(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .

(٦) الأوهاق : تقدَّم شرحها .

بهذا الدَّيرِ حرّاً قد أقمنا وأصناماً كما تهوى نَحْنُ^(١)
من الدُّنيا بملك كلِّ حذفوز مقام الصَّوتِ والألوانِ والنُّوز^(٢)
وتنقصه وأنتَ تزيدُ فيه تغَيِّره على ما تشتهيهِ^(٣)
بِقَطْعِكَ عنه قَلْبِكَ كلَّ قطع وإبطالِ الطَّلسم لسحريِّ تسع^(٤)
إذا ما شئتَ غوصاً في ضميره فَمَمَحَكَ فَضَّلَنْ على شعيره^(٥)
وهذا الملكُ ، والملكُ العظيم

السُّؤال الثَّاني

وعلم كان ساحلُ أيِّ بحر ؟ بعيدِ القاع يُخرجُ أيَّ درّ

الجواب

حياةً ، يالها بحرّاً يمور وساحله الفُطانة والشُّعور^(٦)
عميقٌ موجُّه أبداً يُميد وفي الشُّطآن أطوادٌ ويبد^(٧)
عُبابٌ فيه قد عَدِمَ القرارا فلا تسأل ، على شطِّ أغارا^(٨)

-
- (١) الدَّير القديم : من أسماء الدُّنيا في الشُّعر الفارسي .
(٢) الحذفوز : الجانب . وجمعه حذفير . يقال : ذكره بحذفيره ؛ أي بجميع جوانبه ، وتفصيله .
(٣) يريد العالم .
(٤) الطلسم : كتابة للسُّحرة . والتسع هي السموات السبع .
(٥) في رأي إقبال أنَّ الملك ينبغي أن يقوم على أساس من الدين أي : الدِّين الحنيف .
(٦) الفُطانة : الإدراك ، والفهم .
(٧) يميد : يضطرب . الشُّطآن : جمع شاطئ . الأطواد : جمع طود وهو الجبل . والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء .
(٨) العباب : الموج .

روى الصَّحراءُ منقطعاً عن اليمِّ
 وما تلقاه جاء إلى حضوره
 بخلوته انتشى كسرة الرِّفِّيقا
 ويظهر أولاً للمستنير
 وقربه من الدُّنيا الشعورُ
 بدا بالعقل مرفوع النُّقاب
 وفي دنياه ليس له مُقام
 ترى الدُّنيا ولكن ليس فيكما
 من الأزهار دنيا اللون طاقه
 طريق القلب سرى إليها
 إذا أغمضت عنها العين هانت
 برؤيتنا لدنيانا النِّماء
 ومنظورٌ وناظرٌ غورٍ سرٌّ
 أنا المشهودُ يا مَنْ أنت تشهدُ

أفاد العين معنى الكَيْفِ والكمِّ^(١)
 ينيرُ بفضل فيضٍ من شعوره^(٢)
 بقلب الكائناتِ بدا شروقاً^(٣)
 بمראהٍ ليؤخذ كالأسير
 فأدرك سرّها وهو الخير
 ولكن قد تعرّى بالخطاب
 من الدُّنيا له هذا المقام^(٤)
 بما تحويه فلتدع الشُّكوكا
 تُقيدها ، لها منّا انطلاقه^(٥)
 ويشني كلُّ مخلوق عليها
 وإلا البحرَ والأطوادَ كانت^(٦)
 بنا لغصونها هذا الغلاء
 تَضْرُغُ قلب ذرات لأمر
 لتجعلني ، فيالنظراتِ أوجد^(٧)

- (١) اليمُّ : البحر .
- (٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
- (٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .
- (٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .
- (٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيّد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .
- (٦) الأطواد : تقدم شرحها .
- (٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاثُ الشيء تَكْمُلُ بالسَّجود
فليس زوالها بالسَّبعْد عُنَّا
تَجْلِينَا بِهِ الدُّنْيَا تَكُون
ومنها العَوْنُ فِي اللّٰوَاءِ جَرَّبُ
وَأَيَّقِنُ أَنَّ آسَادَ الْفَلَاةِ
تَعِينُكَ ، أَنْتَ تِلْكَ الذَّاتُ فَاعْرِفْ
وعالمُ كَثْرَةِ بِالْعَقْلِ شَاهِدُ
ومن رِيحِ الْقَمِيصِ فَنُلْ نَصِييَا
وذاثُكَ نَيْرِينَ بِهَا تَصِيدُ

وبالتمكين من هذا الشَّهود
ونسورُ شعورِنَا فَقَدْتُهُ مَنَّا
بِنَا نَسورُ تَجَلَّى أَوْ رَيْنِ (١)
بأحوالِ لَهَا نَظَرًا فَأَدَّبُ (٢)
أَرَادَتْ عَوْنُ نَمْلِ لِلنَّجَاةِ (٣)
كجبريل الأَمِين إِذَا فَرَفَرَفْ
لتدركَ مَظْهَرًا يَبْدِيهِ وَاحِدُ (٤)
تَنَسَّمَ مِنْ ضَفَافِ النَّيْلِ طَيِّبَا (٥)
ومن تَدْبِيرِهَا لَهَا الْقِيودُ (٦)

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحسن ، ويشير إلى أَنَّ العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللّواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَخِشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِأَتَائِهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ رَأْسِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِلَّةً لِّعِبَادِكِ فِي صَبَاحِكَ وَمُسَالَمًا لِّعِبَادِكِ فِي ظِلِّهِ لَئِنْ رَأَيْتُ النَّامِلَ رَأَتْ أَمْلَةً جُنُودِ سُلَيْمَانَ فَرَتْ مِنْهُمْ فَتَبِعَهَا مِنْ خَلْفِهَا لَهَا زَنْدٌ بِمَا كَانَتْ تَصْنَعُ فِي الْأَرْضِ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَتَأَكَّلَاتِ لَمْ يُحْسِنْ لَهَا صَيْدًا وَهِيَ تَمُوتُ بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُ ١٩ ﴾ [النمل : ١٧ - ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النمل كما أنجت جنود سليمان من ظلم كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمل ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجات جنوده من ظلمهم النمل من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إِنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسع أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ أَذْهَبْنَا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَأْتِ بِصَبْرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شم .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلك الذات في دنياك أضرم بغزوك ما ترى أو غاب حطم^(١)

السؤال الثالث

يقال لممكن صلة بواجب وما بعد وقرب يا مخاطب؟^(٢)

الجواب

وهذا العالم الفاني فجذ	وعقل كيفه والكم قيذ
لإقليد وطوسسي أراه	وعقل قاس أرضاً قد كفاه ^(٣)
وليس حقيقة فيه الزمان	ولا أرض ولا حتى المكان
أقم هدفاً لترشق بالسهم	وما المعراج فافهم من كلامي ^(٤)
أتحوي مطلقاً دنيا الجزاء	وليس سوى ضياء للسماء ^(٥)

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أننا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبغ العالم الثاني بالروح الملهمة . وتسمى هذي القوة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثير والقليل .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادئ علم الهندسة السطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافاة . والدير في الشعر الفارسي يطلق على الدنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وعند إقبال أن النور أقرب شيء إلى المطلق .

وما لحقيقة زمنٌ وَحَدٌّ لها حَدٌّ ولكن ليس يظهرُ وليس بباطنٍ أي ارتفاع إلى أبدٍ لعقلٍ ما السبيل ؟ وأعرجُ كان ، بغيته الشكون ومزقنا الحقيقة في يدنا وفي غير المكانِ رأى مكانا زمانٌ ما بدا لي في الضمير يمرُّ العام ، ما ساوى الشعيرا لذاتك عُد ، تَخَلَّص من هدير وفصلُ الجسمِ عَنْ روحِ كلام وتخفي الرُّوحُ سرَّ الكائنات

فكيف تريدُ دنيا لا تحدا ! ولا يخفى بها ما كان أكثر^(١) ويقبلُ ظاهرٌ كلَّ اتساع^(٢) فواحدة كثيرٌ ، والقليل على القشر اللبابُ له يكون^(٣) مظاهرٌ للفوارقِ ما رأينا وكالزُّنار يتخذُ الزمانا^(٤) خلقت الوقت يمضي بالشهور^(٥) بآية ﴿ كم لبثتم ﴾ كن بصيرا^(٦) ونَفْسَك ألقي في قاعِ الضمير^(٧) فتفرقةً وتمييزُ حرام وهذا الجسمُ حالٌ للحياة

- (١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .
- (٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقاس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .
- (٣) كان هنا تامة .
- (٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزُّنار : ما يشد به النصارى وسطهم .
- (٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغبُّر ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .
- (٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمَّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَتْسَاءٍ لَوَّابِينَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدم الحجة على عجز الحساب عن قياس الزمن .
- (٧) الهدير : صوت الرُّعد والبحر .

لها الحناء مِنْ صَوْرِ عروس
تَسْتَرُ الحَقِيقَةُ بِالنُّقَابِ
وَبَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ الفِراقِ
رِجَالُ الدِّينِ سُبْحَتُهُمْ تَدورُ
فَفِي التَّمْوِيهِ مَنقَطْعُ الشَّبِيهِ
وَقَلْبُكَ ثُمَّ عَقْلُكَ فَاصْحَبْنِ
بِتَقْلِيدِ لَهُمْ ذَاتاً أَضَاعُوا
وَكَمْ جِزْءٌ لَوَاحِدٍ قَدْ رَأَيْنَا
تَرَى دُنْيَاكَ مَا يَدُو كَتْرِبَ
وَصُورَةَ مَيِّتٍ رَسَمَ الْحَكِيمِ
وَمَا مِنْ حِكْمَةٍ قَلْبِي رَأَاهَا
أَرَى الدُّنْيَا بِشَوْرَتِهَا تَمِيدُ
دَعِ الْأَعْدَادَ وَاطْرَحِهَا ، لَتَهْمَلُ
فَمَنْ كُلُّ جِزْيَةٍ كَانَ أَكْثَرُ

هي المعنى ، ففي حُلُلِ تَمِيس^(١)
ويسعدُّها الظُّهُورُ بِلا حِجَابِ
بِغَرْبٍ ، أَيْنَ فِي الْحَكْمِ الْوِفَاقِ^(٢)
بِأَمْرِ الْحَكْمِ لَيْسَ لَهُمْ شُعُورُ
هُوَ الْجَسَدُ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ^(٣)
إِلَى الْأَتْرَاكِ فَارْحَلْ ، وَانْظُرْ
بِدِينٍ رِبْطُ حَكْمٍ لَمْ يَرَاوُ
بِأَعْدَادٍ لِنُحْصِيهِ أَتَيْنَا
أَرَاهَا بَرَهَةً مِنْ صُنْعِ رَبِّي^(٤)
بِلا عَيْسَى وَلَا ضَرْبِ الْكَلِيمِ^(٥)
بِشَوْقِ حِكْمَةٍ أُخْرَى ابْتَغَاهَا
خَفُوقٌ هَرَّ بِأَطْنِهَا شَدِيدُ^(٦)
وَبَعْضُ الْوَقْتِ فِي ذَاتٍ تَأْمَلُ
جَنُونَ قَوْلَةَ الطُّوسِيِّ وَآخِرُ^(٧)

(١) تَمِيس : تَبَخَّرَ .

(٢) يَقُولُ : إِنَّ أَهْلَ الْغَرْبِ يَفْصَلُونَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، وَبِالْتَّالِيِ فَصَلُوا بَيْنَ الدِّينِ
وَالدُّوْلَةِ ، وَعَكَفَ رِجَالُ دِينِهِمْ عَلَى الْعِبَادَةِ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الْحَكْمِ
فِي دَوْلَتِهِمْ .

(٣) يَرِيدُ نِظَامَ الْحَكْمِ الَّذِي يَنْفَصِلُ عَنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ . وَالتَّمْوِيهِ : الْخِدَاعُ بِالظَّاهِرِ .

(٤) يَرِيدُ لِيَقُولَ : إِنَّ الْعَالَمَ كَتَلَةٌ مِنَ الْمَوَادِّ ، وَلَكِنَّهَا أَحْدَاثٌ مُتَلَحِّقَةٌ . وَسُلُوكٌ مُنَظَّمٌ ،
وَالطَّبِيعَةُ لِلذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، كَالطَّبِيعِ لِلذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهِيَ فِي تَصْوِيرِ الْقُرْآنِ عَادَةٌ إِلَهِيَّةٌ ،
كَمَا يَقُولُ إِقْبَالُ .

(٥) هُوَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي أَحْيَا الْمَوْتَى ، وَالْكَلِيمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي ضَرَبَ
الْبَحْرَ بَعَصَاهُ .

(٦) تَمِيدُ : تَضْطَرِبُ .

(٧) فِي الْأَصْلِ : نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيِّ ، وَفَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيِّ مِنْ أَهْلِ الْقُرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ .

أرسطو مرةً إياه فاعرف ويكون لحنه يوماً لتعرف^(١)
لهذين المقام فغادرته تضيّع بمنزل ، فحذار منه
بعقلك وهو يدرك كل كم وباطن مَعْدِنِ أو قاع يَم^(٢)
على دنياك سَنَظَرِ ثَمَّ هَيَمَنَ وفي أفلاكها الأجرام مَكُن^(٣)
ولكن حكمةً أخرى تعلم وذاتك نَحْ عن يوم لتسلم^(٤)
ودغ دنيا الدِّياجي والنَّهار يميناً فاطلبن بلا يسار^(٥)

السُّؤال الرَّابِع

أهذا محدثٌ هجرَ القديم فكانا الكونَ والباري العظيما
أمعروفٌ وعارفه ، إلهي لم الأشواقُ أَرَمَصَتِ الظَّلِيمَا^(٦)

الجواب

حياةُ الذاتِ إيجادٌ لغير وللمعروفِ بعددُ كلِّ خير^(٧)

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .

(٢) المعدن : المنجم . واليم : البحر .

(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .

(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .

(٥) الدِّياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .

(٦) يقول : إنَّ المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى .. وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى

الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .

(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قديمًا أو مغايسره حسينا
 ذكرنا الأَمْسَ والغد في دوام
 وفطرتنا انقطاع عنه كانا
 وليس لنا بفرقة عيَّاز
 بنا وبه ! عجيبٌ ، أيُّ حالِ
 فراق يمنح النظر الترابا
 وهذا العشق يزكو بالفراق
 تباريح الفراق لنا الحياةُ
 مَنِ المولى ؟ وَمَنْ إياه يُعبد
 يدومُ له التجلِّي نورُ ذاتِ
 وتلكَ محبةٌ في الجمعِ تُبصر

طلسمًا كان حُسيانٌ ، فخبنا^(١)
 (فكان) و (سوف) أَسْرٌ للكلام^(٢)
 سبيلًا قد ضللنا في سُرانا^(٣)
 وواصلنا ، فدامَ له القرار^(٤)
 ففرقتنا فراقٌ في وصال^(٥)
 وقشًا ما به بلغ السحابا^(٦)
 مع العشاق كانَ على وفاق^(٧)
 تخلدنا ، فيقينا الممات^(٨)
 هما سرٌّ يؤيِّدُ أن سنخلد^(٩)
 ويسن الجمع معنى للحياة^(١٠)
 بغير الجمع ذا ما ليس تُبصر

- (١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسياناً : عدّه وأحصاه . وكان هنا تامة .
- (٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .
- (٣) السرى : السير ليلاً .
- (٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .
- (٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .
- (٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .
- (٧) زكا : نما وصلاح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .
- (٨) تباريح الشوق : شدته وآلامه .
- (٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلَّ الخير في اجتماع المحب بالمحبيب .
- (١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجلياتُ محفلنا تأملُ تجلّي الله لا الدُّنيا تأملُ^(١)
فلا الأبوابَ أمسكنا علينا ونحنُ به بمفردنا اختلينا^(٢)
ويجعلُ نفسهُ عنا غريباً يُداعينا كمعزفه طروباً^(٣)
وننحتُ مثلَ صورته الحجاره ونسجدُ ، ما رآته العينُ ، تاره
هتكنا سترَ فطرتنا علينا جمالَ حبيبنا ها قد رأينا^(٤)
وهذا الثُّربَ ما جَ به الخيال فباطنه أضاء ولا يزال^(٥)
ولكن من فراقٍ وهو يشكو بفضلِ فراقِهِ تلقاه يزكو^(٦)
به كانت له هذي البصيره فهذا ليله أضحي الظهيره
وأنفد حزنه جزعُ الصُّبور ومن حزنٍ تبدّل بالشُّرور^(٧)
وأصبح دمه دُرّاً ثميناً الحزن أودتِ الغصوننا^(٨)
وذاتك : إن تعانقها طويلاً تجد في الخلد من موتٍ بديلاً !
مقاماتٌ لها بالحبِّ عقدُ وما من منتهى يحدّوه حدُّ^(٩)
تسير له الأمورُ بلا ختام به الفجرُ الصُّحوكُ بلا ظلام

- (١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .
(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .
(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .
(٤) هتك الستر : مرَّقه أو جذبه من موضعه .
(٥) الثرب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .
(٦) يزكو : ينمو ويصلح .
(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصُّبور .
(٨) أودّه : ثناء وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .
(٩) في الأصل : أنَّه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغايِر عقلنا وعزُّ الطريق ودنيا كان في وهج الشروق^(١)
 بآلاف العوالم قد مررنا على بعض التوقف هل قدرنا ؟
 خلوداً في حياتك يا مسافر وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر^(٢)
 وليس البحر يفرقنا انتهاء تعلّق فيه ، ما هذا فناء^(٣)
 وجودُ الذات في ذاتٍ محال لتصبح نفسها ، هذا كمال^(٤)

السؤال الخامس

أجبنني من أنا ؟ وَضَح (أنا) لي وما في الذات من (شدُّ الرِّحال)^(٥)

الجواب

بذاتٍ عُوذَةٌ للكائنات وأوَّلُ نورها أصلُ الحياة^(٦)
 وتصحو مِن رُؤاها في كراها بكثُرٍ بَعْدَ واحدِها تراها^(٧)

- (١) الوهج : انتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنه عالم في نور برهة .
- (٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريق إليك ، واسلكه .
- (٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناء في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصُّوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلّق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .
- (٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .
- (٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنى في قولنا سافر في الذات) .
- (٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرِّ والحسد .
- (٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثر : الكثرة . وعند إقبال أن الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماريونا
يضمُّ صميمُها في العمق بحرا
تخالفُ من بشيمته تَصَبَّر
كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ
وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد
تأمل في انطواء كيف تبدو
تثور وراء سترٍ للخفاء
بنارٍ في الصِّميم ثوث وقامت
فَمِنْ هذا لعالمنا النظام
ذواتُ أطلعتها من شعاع
ترابُ الجسم للذات الحجاب
وتلك الذات تشرق من صدور
ومعنى لانا كم قلت بين
على صلة بأرواحِ جُسوم
بذلك مولدٌ من غير أم
على خلد حصولك بالتياح

ولولا ذاك منها ما زكونا^(١)
وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا
وفي ملأ لنا تبدو بمظهر^(٢)
نجومٌ ، سائر وله القراز^(٣)
وفي الجمع الكبير كَمَنْ توخذ^(٤)
ترابٌ ديس ، منه كيف تنمو
وتبحث في دوامٍ عن رواء
تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت
وكالمرآة قد أضحي الرِّغام^(٥)
جواهرُ أُخْرِجَتْ كانت بقاع
وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب
بجوهرها التُّراب لنا كنور
(بذاتك فلتسافز) فلتُعَيِّن
فسافز كي تحقِّق ما تروم^(٦)
ومن سطحِ كإمساك بنجم
كانك قد رأيت بلا شعاع

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كريا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبرا . الملأ : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرِّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعن أملٍ وعن وجلٍ تناء
 طلسم البرِّ والدأماء فاصدع
 بأوبة مَنْ يطوف بلا مكان
 لهذا السرِّ تفسيرٌ محال
 فما قلبي (أنا) وهي الضياء
 ويرجفُ من سناها الأزهران
 مقرُّ ضمِّها كأنَّ القلوبا
 عن الغيرِ افتراقٌ ، وارتباط
 خيالٌ في التراب له الكيان !
 سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت !
 بصدرك مثل مصباحٍ منيرٍ

كشَّقْ أنت محدُّثه بماء^(١)
 وبدرِ النِّمِّ فلتصدغ بإصْبَع^(٢)
 له الدُّنيا لتحملُ في الجنان^(٣)
 وتنفع فيه عينٌ لا مقال^(٤)
 وفي ﴿ إنا عرضنا ﴾ ما نشاء^(٥)
 زمانٌ تحتضنه والمكان^(٦)
 لهذا الثُّربِ أصبحتِ النِّصيا^(٧)
 بنفس ضيعو ، وبه اختلاط^(٨)
 أبحويه الزَّمان أم المكان ؟^(٩)
 فما الرَّامي وأوهاقٌ ندلت ؟^(١٠)
 لك المرأة ، فيها أيُّ نور

- (١) التناهي : البعد . الوجل : الخوف .
 (٢) الدأماء : البحر .
 (٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .
 (٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .
 (٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة : الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفه ولم يف ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلومًا ، ويكنه عاقبتها جهولًا . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .
 (٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسَّناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .
 (٧) الثُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .
 (٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .
 (٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .
 (١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا بإدراكك لذاتك كن قمينا^(١)

السؤال السادس

أهذا الجزء عن كلِّ يزيد ! وكيف البحث عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما للذات مقياسٌ لدينا	وأعظمُ ما يلوح لناظرينا ^(٢)
من الأفلاك تهبطُ ثمَّ تعلو	ببحر الكون تسقطُ ثمَّ تسمو ^(٣)
فَمَنْ بالنَّفس يملكه الشعور	سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورٌ	تناءت جنةٌ ، في الحُضن حورٌ ^(٤)
لها حكمٌ بها الأبوابُ تسحر	ومن قاع الحياة أثث بجوهر
خلوداً في الصميم العيش كانا	ولكن للعيون بدا زمانا
مقامُ الكون منها قد تقدَّر	وتحفظه بما للعين يظَهَر
أتسألُ عن طبيعتها وتسأل	وعنها ما بقدرٍ ليس يفصل
وماذا عَنْ طبيعتها لقائل	فجير ظاهر والضدُّ مائل ^(٥)
فما قولي ؟ وفي قول النَّبي	بذا الإيمان في قولٍ جلي ^(٦)

(١) القمين : الجدير .

(٢) الناظران : العيان . يقول : إِنَّ الذات أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليست بالبصر .

(٣) تسمو : تعلو .

(٤) تناءت الجنة : بعدت .

(٥) المراد بالضد هو الاختيار . مائل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .

(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وبالقدر خيره وشره .

وَمَا لِلْخَلْقِ عِنْدَكَ غَيْرَ جَبْرٍ
 وَتِلْكَ الرُّوحُ مِنْ نَفْسِ الْإِلَهِ
 وَهَذَا الْجَبْرُ وَهُمْ أَوْ ظَنُّونَ
 تَصُولُ بِعَالَمٍ لِلْكَيفِ وَالْكَمِّ
 وَذَاكَ الْجَبْرُ مِنْهُ إِنْ أَفَاقَتْ
 بِرَغْبَتِهَا خَفُوقُ النُّجْمِ وَاجِبٌ
 تَمِيطُ السُّتْرَ عَمَّا أَضْمَرْتَهُ
 وَأَهْلُ النُّورِ قَدْ وَقَفُوا طَوِيلًا
 وَمِنْ كَرَمٍ لَهَا خَمْرُ الْمَلَائِكَةِ
 تَقُولُ : وَهَلْ إِلَيْهَا مِنْ سَبِيلٍ
 لَكَ الْأَيَّامُ فَاجْعَلْهَا خُلُودًا
 لِهَذَا الْعَقْلِ مِنْ حَسَنٍ صَدُورٍ
 لِعَقْلِ جِزْوَةٍ ، لِلنُّوحِ كُلِّ
 وَذَاكَ الْعَقْلُ مَا وَسَّعَ الْخُلُودَ

- (١) أي أَنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
- (٢) كان هنا تامة .
- (٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
- (٤) في الأصل : أنها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقط عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
- (٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أَنَّ السماء تدور بإذنها .
- (٦) تميط : تزيح وترفع .
- (٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
- (٨) الكرم : شجر العنب . والملائكة : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدينارين والدرهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والتراب : التراب ، فهي تستمد قيمتها من ترابها .
- (٩) في الأصل : إِنَّ أنفاسنا تحصى الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلق الليل يُشَغَل والنَّهَار
 قصارانا نواحِ العِشْقِ كانا
 وذاتٌ إن بدا المعروف عنها
 لعينك مثلها هذا الضياء ؟
 فكيفَ تخافُ مَنْ رِبِّ الفناء
 وموتاً غير هذا خاف قلبي
 سكون الخَفَقِ في شوقِ أليم
 وأنفسنا بأيدينا نَكْفُن
 فوئُكَ كامنٌ لك في الكمين
 بجسمك كان حفرٌ للحفير

ومن نارٍ له بعضُ الشَّرار^(١)
 وتحوي برهةً منه زمانا
 لحَلَّت عقدةً في العمق منها^(٢)
 وتحسبُ أن سيدركُها الفناء
 إذا نَضِجَتْ ، فعنها الموتُ نائي
 وروحي بل وماءٌ لي وتربي
 وإبعادُ الشَّرارِ عن الهشيم^(٣)
 وموتٌ جاءنا نلقى بأعين
 تذْكرُ ، واخشَ عادية المنون^(٤)
 ومنكرٌ فيه جاوره نكير^(٥)

السؤال السابع

ومن عبر السبيلَ ومنَ مسافرٍ ووصفَ كمالٍ من في ذكرٍ ذاكر ؟

الجواب

أطلَ نظراً على قلب تردد بصدركَ منزلٌ ، إيَّاهُ فاشهد^(١)

-
- (١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .
 (٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .
 (٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما ييس وتكسر من النبات .
 (٤) المنون : الموت .
 (٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .
 (٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفي حَضِرٍ بذلك تلكَ سفره
فأين مَقْرُنَا يَا لَيْتَ شعري
ومالك غايَةٌ ، لا تبغ غايَةً
بنا نضجاً ظننْتُ وما نضجنا
وفي عدم الوصول لنا الحياةُ
تجوُّلنا برحبِ الأفقِ كانا
لغينا ، حولَ أنفسنا ندورُ
ودوماً كنْ لذاتك في الكمين
وما لأجيجِ عِشْقٍ من فناء
كمالاً نظرة كانت بذات
بذات الحقِّ تخلو آنذاكا

ومن ذاتٍ إلى ذاتٍ ، بخطر^(١)
وما لحنا لشمسٍ أو لبدرٍ
فروحك تنتهي عند النهاية
نقصنا في المنازل أو كملنا
بسفرتنا تحشُّانا المماتُ^(٢)
وطننا ذا المكانَ وذا الزَّمانا^(٣)
بقاعِ الكونِ موجتُنا تشور^(٤)
ومن شكٍّ ففرَّ إلى اليقين
ونظرةُ ذي اليقين بلا انتهاء^(٥)
وذلك بالخروج عن الجهات^(٦)
تري مولاكَ والمولى يراكا^(٧)

(١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .

(٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناء . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .

(٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماء . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .

(٤) لغينا : تعبنا .

(٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .

(٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .

(٧) عند إقبال أنَّ هذا ما تبلغه الذات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبت ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية المعجائب التي أمر برؤيتها .

ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنور فلتنر مِنْ ﴿لن تراني﴾
 بذاتك كن قوياً في حضوره
 ومما ماج فيك لتعط ذرّه
 تحرق حيث يبدو في جلاء
 برؤيته ، لعالمنا إمام
 وإياه اطلبن إذا افتقدته
 ولا تمدد إلا الملا يمينا
 لأمر الدين والدنيا إمام
 كمثل الشمس تشرق في الصباح
 وغربي له حكماً أقاما
 بغير العزف ليس له غناء
 ومن بستانه الصحراء أجمل

وإن أغمضت عينك أنت فان^(١)
 حذار من الضياع ببحر نوره^(٢)
 بجانب شمسنا لتنير مرّه
 وأظهر منك ذاتك في ضياء^(٣)
 له لا للورى كان التمام^(٤)
 بفضل ثيابه خذ إن وجدته^(٥)
 ولا تغمض عن الشخص العيون^(٦)
 هو الرائي ، وقد عمي الأنام^(٧)
 لديه شمس أفكار صحاح
 عن الشيطان قد خلغ الزماما
 حوته بما يطير به السماء^(٨)
 مديته فدغ ، فالفقر أفضل

= طلبها .

- (١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أُنظِرْ لِّيَٰلِيكَ قَالَ لَن نَّبْنِيَّ لَكَ أَقْطَرُ إِلَى الْجَنَّةِ لَئِن أَتَيْتَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْعَبْدِ لَئِيْلَهُ دَعَا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .
- (٢) هذا صريح في دلالة على أن إقبالاً لا يأخذ بمذهب الفناء في الذات الإلهية .
- (٣) يقول : أن ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .
- (٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتمام : الكمال .
- (٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمكن التمسك به منها .
- (٦) الملا : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشخص : الحديدية التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إن مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخدع السمكة بالشخص لتصاد .
- (٧) الأنام : الناس .
- (٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادية .

من السَّرَّاقِ شَرِذْمَةٌ تَغِيرُ
صَحَا جِسْمٍ وَلِلرُّوحِ الشُّبَاتُ
لدى الكَفَّارِ زاد الكُفْرِ عَقْلُ
وهذا راصِدٌ ولذا الكَمِينُ
إذا ما شئتَ بَلَّغْهُمْ كَلَامِي
على هذا الحِسامِ الرُّوحُ تَجْرِي
ليدخلَ ذلكَ الصَّنَمُ غَمْدَهُ
وراء الخَبِزِ طَالٌ بِهَا المَسِيرُ^(١)
مع الدِّينِ الفَنونُ مُحَقَّرَاتُ^(٢)
ولإنسانَ عندَ الغُربِ قَتْلُ
إلهي ! كُنْ لَهُم نِعَمَ المَعِينُ !
نِظَامُ الحِكمِ كالسَّيْفِ الحُسامِ^(٣)
يَصُولُ على الرِّقابِ وليس يَدْرِي^(٤)
ولا أَهْلَكَ الإنسانَ بَعْدَهُ^(٥)

السؤال الثامن

أتعرف ما تَضَمَّنَهُ (أنا الحقُّ) أتَحْسِبُهُ هراءَ حينَ ينطقُ^(١) ؟

الجواب

أَعَاودُ عَنْهُ قَوْلًا لِي يَطُولُ وعندَ القومِ سُرٌّ ما أَقُولُ^(٧)
بِحَلَقَتِهِ مَجْوسِيَّ أَشْاعَا (حياةً بالأنا خَدَعْتَ خَدَاعَا)

- (١) السَّرَّاقُ : جمع سارق . والشَرِذْمَةُ : الجماعة من الناس .
- (٢) السِّبَاتُ : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأَطلَقنا الفَنونَ على العلوم والفن .
- (٣) السَّيْفُ الحِسامُ : القاطع . يقول : إِنَّ هَذَا نِظَامَ الحِكمِ في بلادِ الغُربِ .
- (٤) يَصُولُ : يَثْبُ . وفي الأصل : إِنَّ هَذَا السَّيْفُ لا يَمِيزُ في الضَرْبِ بينَ مُسلمٍ وكافرٍ .
- (٥) الصَّنَمُ : السَّيْفُ . يريدُ لَهُ أَنْ يَسْتَقَرَّ في غَمْدِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ بِقَتْلِهِ النَّاسِ .
- (٦) أَنَا الحَقُّ : قولٌ منسوبٌ إلى الحَلَّاجِ ، ذلكَ الصُّوفي الذي كانَ يَتَجَوَّلُ في الأسواقِ ، وقد غلبَ عليه الوجد والطرب ، وحرصَ على الدَّعوةِ إلى آرائِهِ وتعاليمِهِ التي خَرَجَتْ على مألُوفِ القومِ في زمانِهِ ، فبَلَغَتْ من أَهلِ الدِّينِ مِلْغاً شَدِيداً ، وانتهموا بِالحلولِ والكُفْرِ ، وأَقْتَرُوا بِقَتْلِهِ ، فصَلَبَ في بَغدادَ سنة ٣٠٩ هـ . وإقبالُ يَرى في الحَلَّاجِ رأياً آخرَ يَنافِضُ رأيَ قومِهِ ، ويعانِدُهُ . ولذلكَ انبَرى لِلدَّفْعِ عَنْهُ في عَديدٍ من تَأليفِهِ .
- (٧) عَاودُ الشَّيْءِ : عادَ إِلَيْهِ . والمِرَادُ بِالقومِ هُنَا أَهلُ إِيْرانَ وَالهِنْدِ .

سبات الرب فيه الحلم كُنَّا
ولولاه لما وُجد المكان
هو العقل المميز بل هو القلب
وفي الأحلام تُغرق ناظريكا
وباستيقاظه يفنى الجميع
لديننا العلم نورٌ بالقياس
تغيّر حُسننا سببُ التغيّر
فما مِن حولنا ريحٌ ولون
وهذا كُلُّه وهمٌ عجاب
وخدعةٌ حُسننا لا ريبَ فيها
فما ذاتُ لنا في الكائنات
حريمُ الذات ما بَلَغَتْهُ نظره
لها يومٌ بلا فلكٍ يدور
إذا سَمَّيتَ تلكَ الذاتِ وهما
معِي قل : من تخامره الظنون

وهذا الحلم مِنْهُ قد خُلِقْنَا !^(١)
بما يحوي ولا وُجِدَ الزَّمان
هو التَّفَكُّيرُ والتَّصَدِّيقُ والرَّيبُ^(٢)
وأقوالاً وأعمالاً لَدَيْكَ^(٣)
فَمَنْ شوقاً سيشري أو يبيع^(٤)
وتعويلُ القياسِ على الحواسِ^(٥)
لعالمنا ، فيشملنا التطوُّر
ولا يسدي لنا الآثارَ كونُ^(٦)
على وجهٍ لخالقنا حجاب
دخلنا مِنْ خِذَاعِ الحسِّ فيها^(٧)
بذاتِ حُسننا قطعُ الصُّلَات
تشاهدها بلا نظر ، بخطرهِ^(٨)
تأملُها فما شكٌّ يشور^(٩)
كمظهرٍ أيَّ شيءٍ قلتَ حتما
تأملُها ، لتعرفَ مَنْ يكون

- (١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنة ولا نوم .
- (٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .
- (٣) الناظران : العيان .
- (٤) يشري : يشتري .
- (٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .
- (٦) الريح : الرائحة . وطالما سَمَّى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .
- (٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
- (٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرَم . الخطرة : المفكرة .
- (٩) يقول : إن أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعالمنا ترى ؟ أورد دليلا
لقد خفيت ، دليلاً فاطرحن
أراها الحق ما في ذاك باطل
إذا نَضَجَتْ ، لها امتنع الزوال
جناح لو حبوت به الشرارا
بما أبلاه ربي ما الخلود
لروح طابَ خلد ، تستعاز
وما للطُودِ والوادي البقاء !
عن المنصور ما جدوى الكلام ؟
بذاتك ضغ ، ودغ عنك الجدالا

بفكرك كان ذلك مستحيلا^(١)
تفكّرْ ، ذلك السرُّ اكشِفْ
لها أكلٌ ، فأيقن لا تجادل^(٢)
فراقُ العاشقين هو الوصال
لخلد في الخفوق به وطارا^(٣)
ببحثٍ ليس هذا ما يُريد^(٤)
ويُتملّها من العشق العُقار^(٥)
ستبقى الذات ، للذُنْيا الفناء^(٦)
بذاتك فاطلبن ربَّ الأنام^(٧)
وحقّقها بما الحلاجُ قال^(٨)

السؤال التاسع

وسرّ الوَحْدَةِ الخافي أتدري أيعلمُ عارفٌ يا ليت شعري !؟^(٩)

- (١) يقصد أن العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .
- (٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .
- (٣) حياه : أعطاه .
- (٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .
- (٥) يشمل : يسكر . العقار : الخمر .
- (٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .
- (٧) المنصور : هو الحلاج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چريا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .
- (٨) دع عنك : اترك وأهمل .
- (٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقامٌ تحت قُبَّتِها يطيب وفيها النُّيرانِ إلى مغيب! ^(١)
 ونعشُ الشَّمسِ يحمله المساء كواكبُه لها الكفنُ الضياء
 كمنهالِ الرُّمالِ هَوَتْ جبالُ لهذا البحرِ بعد الحالِ حالُ
 على الأزهارِ عاصفةٌ تشور ورعبٌ للقوافلِ من مغير
 وإنْ بالدُّرِّ زان الطَّلُّ زهرا فباقٍ تارةً ليزولَ أخرى ^(٢)
 بغيرِ سماعِها الألحانُ تَفنى وتلقى النَّارُ في الأحجارِ دفناً ^(٣)
 حمامٌ عنه تَسألُ أيجدي من الأنفاسِ قُيدنا بَقيد ^(٤)

غزل

لنا الكاساتُ دارتُ بالفناء وقد دُقناه من دَانٍ ونائي ^(٥)

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء . وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما .

(٢) الطَّلُّ : الندى . وهذا الندى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النَّارُ الكامنة في الحجر .

(٤) الحمام : الموت ، والتَّسألُ : السؤال .

(٥) الغزل عند الفرس منظومةٌ ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة

عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .

دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تَسْمَى سَاحَةً قَدْ جَالَ فِيهَا
بِهَا إِنَّ ذَرَّةً أَبَدَتْ نَفَارًا
أَتَطْلُبُ أَنْ يَقَرَّ لَنَا قَرَارٌ
شَغَافَ الْقَلْبِ فَاحْفَظْ فِيهِ ذَاتًا
هِيَ الدُّنْيَا مَقَامُ الْآفِلِينَ
بِقَلْبٍ بَاطِلًا مَا إِنَّ أَرْدْنَا
هَنَا الرِّغْبَاتُ مَا هُمْ يَزْمَقُونَ
وَفِي الْإِمْكَانِ تَخْلِيدٌ لِذَاتِ
وَمَصْبَاحٌ بِزَفَرَتِنَا تَأَلَّقَ
لَدَى الْقَيُّومِ ذَوْقٌ لِلْكَلامِ
فَمِنْ بَرَقِ التَّجَلِّيِّ كَانَ فِيهِ

بَدْنِيَا ، مِنْ نَجُومٍ فِي ضِيَاءِ
فَرْقِيَّةَ نَظَرَةً كُلَّ الْغَنَاءِ^(١)
بَنَا الْأَيَّامُ تَجْرِي جَرِي مَاءِ
وَكُوكِبُهَا سَرَّاجٌ لِلْمَسَاءِ^(٢)
وَذَا الْعَرْفَانُ عِنْدَ الْعَارِفِينَ^(٣)
وَهَذَا الْحَزَنُ مِنْهُ قَدْ أَفَدْنَا^(٤)
وَبِهَجَّةٍ شَوْقِهِمْ مَا يَطْلُبُونَهُ^(٥)
وَجَعَلَ الْوَصْلُ مِنْ هَذَا الشَّتَاتِ^(٦)
بِإِبْرَتِنَا سَمَاءٌ سَوْفَ تُرْتَقِ^(٧)
تَجَلَّى فِي جَمْعٍ لِلْأَنَامِ^(٨)
وَذَاكَ الْجَامُ مَنْذًا يَحْتَسِيهِ^(٩)

- (١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرقية السحر .
- (٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .
- (٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ؛ لأنَّ مثل هذا التغيُّر من صفات الأجسام .
- (٤) أفاد : استفاد .
- (٥) يرمى : ينظر ويطلب .
- (٦) الشَّتَات : التفرق .
- (٧) رتق الفتق : سدَّه .
- (٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .
- (٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدح برق التجلِّي في قلبه ، وشرب تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لَمَنْ قَلْبُ عِيَارِ الْحَسَنِ مِنْهُ وَطَافَ بَيْتٍ مِنْ ؟ مَا زَالَ عَنْهُ^(١)
 (أَلَسْتُ) لَخْلُوءٍ قَدْ صَعَّدَتْهَا (بَلَى) أَيُّ الْمَعَارِفِ رَدَّدَتْهَا^(٢)
 لِعَشْقٍ أَيُّ نَارٍ فِي التَّرَابِ وَحَرَّقَ لِحَنَّا كَمْ مِنْ نِقَابِ^(٣)
 تَدَوَّرَ الْكَاسُ ، لَكِنْ مَا بَقِينَا بِمَحْفَلِهِ الْحَيَاةُ عَدَّتْ رَيْنَا^(٤)
 لِعِزْلَتِهِ فَوَادِي قَدْ تَحَرَّقَ أَهْيَىءَ مُحْفَلًا مَا إِنْ تَفَرَّقَ
 وَأَنْشُرُ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ ذَاتِي لَهُ قَدْ صُنْتُ لَا لِسِوَاهُ ذَاتِي !



-
- (١) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدرهم . زال عن المكان : غادره .
 وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .
- (٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۭ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألسنتي ، والمعزف الذي ردد لحنها .
- (٣) التراب هنا هو الإنسان .
- (٤) ما بقينا : ما دمتا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

الخاتمة

لِيُشْهِزَ مِنْكَ ذِيكَ الْحُصَامِ بِغَمْدِكَ لَا يَطِيبُ لَكَ الْمَقَامِ^(١)
وَتَمْلِكُ قَدْرَةَ فَارْفَغِ نَقَابَا تَنْلُ شَمْساً وَبَدْرًا وَالسَّحَابَا
دُجَاكَ أَنْزِلْ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ يَدَا بِيضَاءِ أَظْهَرِ لِلْعُيُونِ^(٢)
وَعَيْنَكَ فَافْتَحْنِ عَلَى فَوَادِكِ مِنَ الشَّرِّ الثَّرِيَّا فِي حَصَادِكِ^(٣)
وَمَنْ قَلْبِي لَتَقْتَبِسِ الشَّرَارَا أَنَا الرُّومِيُّ إِمَّا شَنْتَ نَارَا^(٤)
وَالْأَ ، نَارَ غَرِبٍ خَذْ وَحَاذِرْ وَمُتْ فِي الْقَلْبِ كِي تَحْيَا بِظَاهِرْ



- (١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .
(٢) الدُّجَى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمُتُمْ إِلَيْكَ إِنْ جَنَاحَكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ أُخْرَى ﴾ [٢٢] لِرُبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [٢٣] أَذْهَبَ إِنْ فِرْعَوْنَ إِنْ تَرْتَأَى ﴿ طه : ٢٢-٢٤] .
(٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل : من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .
(٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة العريد إلى الشيخ .

الدِّيَّوَانُ الْخَامِسُ

جِنَاحِ جَبْرِيلَ بِالِ جَبْرِيلَ

نَقَلَهُ مِنَ الْأُرْدُونِيَّةِ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ نَثْرًا
اسيدميز راسم غفر شاعري
واسيد سوزان بوساك

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا
الاستاذ عبد المعين الملوحي

ثُمَّ صَاحَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الاستاذ زهير طائفا

طُبِعَ هذا الديوان عام ١٩٣٥ م ، وهو يحتوي على قصائد باللغة الأردوية حول زيارات محمد إقبال لفلسطين ، ومصر ، وأفغانستان ، وإنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا .

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العمق وسعة المطلب والبيان ، وما يلفت انتباهنا هنا هو أن محمّد إقبال يحكي خواطره الخاصّة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلاميّة التاريخيّة ، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص عن المحاورّة بين محمد إقبال وجلال الدين الرّومي ، فالمرید الهندي (محمد إقبال) يسأل بالأردوية والروميّ يُجيب عن كل سؤال من المثنوي ، وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

ربّما لا يجد القارئ العربي في هذا الديوان محمد إقبال البليغ الجذّاب في شعره الأخّاذ الذي تفرّد به بين كبار شعراء الأردوية القُدماء والمُعاصرين ، وهو بسبب كثرة نقل هذا الديوان من شعر إلى نثر ، ثم من نثر إلى صياغة شعرية بالعربية ، فهكذا زال جمال الشعر وروعته وخفّت بلاغة الشاعر وإبداعه ، لذا ضَمَمْتُ إلى بعض عيون قصائد هذا الديوان تراجمها النثرية للعلّامة السيد أبي الحسن علي الحسني النّدوي ملقطاً من كتابه « روائع إقبال » الذي قرأ هذا الديوان - مع جميع دواوينه - بكل عمق ودقّة بلغته الأصليّة قَبْلَ مُخَسِّنًا ومُجِيداً بترجمته النثرية مبلّغاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده .



محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورة تمثيلية رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .
وقطع كثيرة متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المعين الملوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوْتُ بِصَرَخَةٍ رَغْبَتِي أُرْكَانَ حَضْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ
فَاسْتَرْحَمْنَاهُ الْعَاكِفُونَ لِفَرْطِ جَرَانَتِهَا الْمُخِيفَةِ
هِيَ ذِي مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَحُورُهَا أُسْرَى خِيَالِي
بَصْرِي يَكْثُرُ مَا يَفْضُضُ بِهِ التَّجَلِّيَ مِنْ جَمَالِ
إِنْ كَانَتْ اقْتَصَرْتُ عَلَى نَقْشِ الْمَسَاجِدِ هَمَّتِي
لِي سَاعَةً تَجْتَاخُ فِيهَا الْكَوْنُ حِدَّةً نَظَرْتِي
مَاذَا فَعَلْتَ ، أَبَحَثْتُ سِرِّي مَا هُنَا ، لَكِنْ لِمَاذَا ؟ !
وَأَنَا هُوَ السِّرُّ الْوَحِيدُ لَهُمْ بِصَدْرِ الْكَوْنِ هَذَا
أَنَا مَا سَكَرْتُ بِمَا سُقِيتُ فَهَلْ بِكَأْسِكَ مِنْ ثَمَالَةٍ
مَا مَدَحَةٌ لِلْبَحْرِ أَنْ يَهْبِ النَّدَى ظِمْثًا حِيَالَةٍ

(٢)

لِمَ أَهْتَمُّ بِأَخْطَاءِ النُّجُومِ ؟	وَأَذِيبُ الْقَلْبَ فِي هَذَا الْعَنَا
إِنْ أَصَابَتْ شَاوَهَا أَوْ أَخْطَأَتْ	فَهُوَ شَيْءٌ لَيْسَ يَعْنِينِي أَنَا
ثُمَّ هَلْ يُمْكِنُنِي أُرْثِي لَهَا	وَأَنَا أَطْلُبُ مَنْ يَرْنِي لِحَالِي
لَسْتُ فِي كَوْنِكَ إِلَّا حَفْنَةً	فَلِمَاذَا يُشْغِلُ الْعَالَمُ بِأَلِي
هُوَ لِي أَمْ لَكَ أَنْتَ	عَالَمِي أَمْ عَالَمُكَ ؟
كُلُّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ	لَيْسَ لِي مِنْهُ نَصِيبٌ
جَاهِدَ الْعَقْلُ جِهَادَهُ	هُوَ أَمْ أَنْتَ الْمَصِيبُ
أَنَا مَا قَضَّرَ فِي بَحْرِيكَ هَذَيْنِ مَضَائِي	رُغْمَ أَنِّي لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَا خَلْفَ الْقَضَاءِ
كَيْفَ إِبْلِيسُ الرَّجِيمِ	قَالَ : لَا ، لِلْكَوْنِ هَذَا

ولماذا (أنا حتى الآن لا أدري لماذا) !!
 ليت شعري أنت حقاً أم أنا موضع سرّ
 أنا بالنسبة لي طوّختُ في خيرِي وشرّه
 يا أبا القاسم يا جبريلُ يا قرآنُ إنّي^(١)
 حلفُ سيرٍ فإليكم أيّها السّادة عنّي
 أينما يشرح ما في القول هذا من حلاوة
 أنا أم أنت الذي يمتنحه هذي الطّلاوة
 عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولسونك
 وبإشراقه هذا النّجم قد أشرق كونك
 أنا من آدم فرع وهو من صنّع يدك
 هل أساءت هذه السّرجلة في شيء إليك

قد تألفت فزده ألّقا هذا العذاز
 وأدم لبي حكمتي في أسره ليسل نهاز
 خذ إلي أسرك قلبي فلقد طاب التهاالك
 أنا لا أرغب أن يكشف حبي وجمالك
 أنت كاللّجة لا ساحل لك وأنا الجدول لا لّجة لي^(٢)
 قل لها تأخذني في حضنها وأغثنني مرة من ساحلي

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنّ القلب السليم هو الذي لا يحول بينه وبين الله رسول ولا ملك ، إنّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَصَلُّ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّ كان ذلك الذي سيمر على صفافه فإنه من غير أن يذل كبير جهد سيميز بين الحصى الخضراء والزرقاء .

أما أنت فكاللّجة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآة تعكس زرقتها .

إِنَّ أَكُنْ قَوْعَةً فَارْغَةً
 أَنْتَ مَنْ يَجْعَلُ مِنْ هَذَا الْحَصَى
 رَبُّ مَا قَدَّرْتَ لِي رَجَعَ الرِّبْعُ
 فَعَسَى تَرْوِي بِهِ قُبْرَةً
 مَعَ مَا أَرْهَقَنِي عَبَاءَ الْحَيَاةِ
 سَتَرِي كَمْ تَوَبُّوْ فِي صَفْحَتِي
 أَنَا قَدْ يَخْمُرُ وَجْهِي خَجَلًا
 فَرَجَائِي عِنْدَمَا تَقْرُوْهَا
 أَعْرِفُ الْحَبَّ الَّذِي خَبَّأْتَهُ
 أَنْتَ لَوْ تَجْعَلُهُ قُطْبًا لَهَا
 أَرْحَمَ الْكَأَلِ الضَّعِيفُ
 بَدَلًا مِنْ ذَا الرِّغْغِيفِ

(٤)

سَوَاءٌ أَهَزَّتْكَ أَمْ لَمْ تَهَزَّكَ
 أَنَا وَقَحُّ لَسْتُ أَسْأَلُ عَدَلًا
 سَمَاءً وَأَرْضًا وَرِيحًا غَضَابًا
 فَهَلْ لَكَ فِي الْخَلْقِ مِنْ فَرْحَةٍ
 أَنَا الْعَطْرُ خِيَمْتُهُ وَرَدَّةُ
 وَبِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ أَسْبَابِهَا
 وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي فِي السَّمَاءِ
 رَضِيتُ بِبُؤْسِي الَّذِي اخْتَرْتَهُ
 خَلَا الرُّوْضُ مَا فِيهِ مِنْ أَجْمَةٍ
 إِذَا كَانَ صَيَادُنَا مَاهِرًا
 إِلَى عَالِمِ الْحُبِّ لَا تَسْتَطِيعُ وَصُولًا مِلَاتُكَّةً فِي السَّمَاءِ

ورأيتُه ليس تُعطى سوى
ومن أينَ تعرفُ معنى الوصال
سألتك تملأُ روحَ الشَّباب
وتؤتي الشَّواهد عون الجناح
وأمنية العُمر هذي الجراح

(٥)

نمطُ العيشِ هاهنا
أدرك الحُبَّ أخمدت
فسي لهيب انتظاره
ضاع عمري بلحظة
تربست من شرارة
هَبْ له خُلدَ روحه
وانظر الأرضَ عندما

(٦)

أنا أرجو ألا يقوم رمادي
ورجائي ألا يكون عذابي
ثمَّ أرجو ألا أخورَ وأبكي
وعسى هذه المحافلُ ألا
ربَّما يذكرُ المسافر يوماً
فرجائي ألا يصير حنيناً
جعلَ الحُبَّ من فؤادي بحراً
أنا أرجو ألا أفاجأ يوماً
ورجائي ألا أكون ببحثي

كالذي ضاع عمره خلف ليلي يقتفي إثر هودج بعد هودج^(١)
 آدم الأرض في صعود غريب ولهذا الثجوم طراً تمور
 ربما صار للسموات بدرأ ربما عاد نجمه المكسور
 مولاي سرّك ماضي في عوالمه من عالم الطير حتى عالم السمك
 ولست غير صراخ الفجر أملكه أنا بكونك كالغصنور في الشوك

(١) في الأصل ص ٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .

إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حب ليلي ؟ عندما رآها فكان يلحق بكل بعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .

وفي تأويلات أخرى أنّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلي ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .

قال الأستاذ الملوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلي في قوله :

ولما دخلت الخدر خدر عنيزة ... إلخ

قلت في ديوان الأسرار ص ٧٠ يعلق عزّام على البيت :

صدر عصري ما يقلب يؤهل نوح قيس حين يخلو المحمل
 قال : يبكي لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلي وقد يكون من ذلك قول المجنون :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نساها
 وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١ هـ : كان السهروردي صاحب العوارف مرة في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب له في الركب محبوب
 فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :

كأنما يوسف في كل راحلة له وفي كل بيت منه يعقوب
 فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجله عند إنشاد الشيخ البيت .

أَيُّهَا السَّاقِي لَقَدْ قَامَ الْغَفَاةُ
 ذَرَّةٌ لَمْ تَخْلُ مِنْ عَاصِفَةٍ
 نُهَبَتْ خَيْرَاتُنَا أَجْمَعَهَا
 أَيُّ عَيْنٍ قَدْ أَصَابَتْ رَكْبَنَا
 فَتَنَةٌ فِي الْقَلْبِ قَدْ أَوْدَتْ بِنَا
 أَيْنَ فِي وَدْيَانِنَا الْمَاءُ الَّذِي
 لِمَ لَا يَنْطَلِقُ التَّوْقُ الَّذِي
 حُجِبَتْ غَطَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 رَغِمَ أَنَّ النَّهْرَ وَالْبُسْتَانَ فِي تَبْرِيزَ بَسْتَانَ وَنَهْرَ
 لَمْ يَزَالَا لَمْ تَقُمْ جَوْقَةُ رُومِي مِنْذُ دَهْرَ
 قُلْ لَهَا إِنْ شئتَ هَذَا النَّهْرَ وَالْبُسْتَانَ قُومِي
 لَوْ تَرَى إِذْ رَقَصَتْ تَبْرِيزَ فِي حَضْرَةِ رُومِي
 أَنَا لَا أَبَاسَ مِنْ حَقْلٍ ذَوِي
 فَأَعِذْ رُونَقَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ
 أَيُّهَا السَّاقِي هُمُ قَدْ مَنَحُوا
 أَنَا لَوْ أُعْطِيتُ دُنْيَا أَبْرُوزَ
 أَنَا لَا أَخْلُو بِمَا أَنْعَمْتَ مِنْ مَوْهَبِ
 أَنَا بِالْفَطْرَةِ أَصْبَحْتُ رَقِيبًا لِلْوُجُودِ
 ثَوْرَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ
 أَيُّهَا السَّاقِي خُذِ الْكَاسَ وَهَاتِ
 لَمْ نَعِذْ نَفْعُ شَيْئًا لِلْعِبَادِ
 جَعَلْتَهُ هَائِمًا فِي كُلِّ وَادِ
 نَحْنُ أَبْنَاءُ أَطِبَّاءِ الْقُلُوبِ
 قَبْلُ أَخِينَا بِهِ رُوحَ الشُّعُوبِ
 يُوقِدُ الْجَذْوَةَ فِي صَدْرِ الْحَرَمِ
 أَنْ تَرَى زَمْزَمَ قُرْبَ الْمُلتَزِمِ
 رَغِمَ أَنَّ النَّهْرَ وَالْبُسْتَانَ فِي تَبْرِيزَ بَسْتَانَ وَنَهْرَ
 لَمْ يَزَالَا لَمْ تَقُمْ جَوْقَةُ رُومِي مِنْذُ دَهْرَ
 قُلْ لَهَا إِنْ شئتَ هَذَا النَّهْرَ وَالْبُسْتَانَ قُومِي
 لَوْ تَرَى إِذْ رَقَصَتْ تَبْرِيزَ فِي حَضْرَةِ رُومِي
 أَنَا لَا أَبَاسَ مِنْ حَقْلٍ ذَوِي
 فَأَعِذْ رُونَقَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ
 أَيُّهَا السَّاقِي هُمُ قَدْ مَنَحُوا
 أَنَا لَوْ أُعْطِيتُ دُنْيَا أَبْرُوزَ
 أَنَا لَا أَخْلُو بِمَا أَنْعَمْتَ مِنْ مَوْهَبِ
 أَنَا بِالْفَطْرَةِ أَصْبَحْتُ رَقِيبًا لِلْوُجُودِ

أَلَا يَا أَيُّهَا السَّاقِي
 لَعَلِّي أَنْ أَرَى يَوْمًا
 لَمَّاذَا أَغْلَقْتَ أَبْوَابَهَا
 مِنَ الْكَاسَاتِ هَاتِيكَ
 مَكَانِي مِنْ مَعَانِيكَ
 الْحَانَاثُ فِي الْهِنْدِ

مضت هدرأ ثلاث قرون بغد سقوط سرهندي^(١)
مضت هدرأ ثلاث قرون في حان هدمناها
ولم تتحمل التدمان بُعدك أيها الساقبي
ذوت غزليتي لا شيء واللاشيء حرمة
علينا بائع اللاهوت بُعدك أيها الساقبي
قلوب أسودنا في الغاب قد هجرت تحقّقها
مع الضوْفِي والملاً عيّد أيها الساقبي
من انتزع الحقيقة من مهّد حنّا هذا
وما أبقسى لها إلا قراباً أيها الساقبي
كلام القلب حسن يكون حياً خمّرتنا الباقي
ولا كان للأرواح موتاً أيها الساقبي
أنا ليل بلا قمر ومالي هاهنا قذر
ألا يا أيها الساقبي بكأسك ذلك البدر
بكأسك سرّ ذيساك الشكون وهذه الحركة
فأين الماء ، ماذا كان ردّ الخضر للسمكة

(٩)

ساقبي ما حصل الذي أبغيه الذات عالمها متى نلغيه
القلب مشغول بما عاطيته عمّن يغنيه ومن يسقيه
ذهب بجوقته كؤوسك كلّها لم تبقى إلا الصنّت في واديه

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الزباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السهرندي المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

ما مثله متسوّلٌ في حانةٍ باللامبالاة التي ترويه^(١)
لو جاء ماءُ الخضرِ كسرَ كأسه ورثى لذي كلفٍ به يأتيه

ساقِي والكأس الصغيرة لم تعد تكفي هلمَّ له بما يكفيه
فرغت دنانُ القومِ في أديارهم وأتيتُ أسألك الذي تخفيه
بصري على طمحٍ وقلبي جامعٌ فاستز إذا أحبت ما أنويه
غادرتُ لؤلؤتي التي أغرقتها في البحر تنعمُ من ضيائك فيه

نظراتُ هذا الشعرِ تسخرُ لبناً والحسنُ لا يحتاجُ للتنويه
تضفي على لونِ الشقائق رونقاً وتزيدها ألقاً بما تضفيه

مرةً تبصرُ المحبَّ شريداً مرةً تبصرُ الملوكَ لديه
مرةً يقحمُ النزالَ عرياً مرةً يحشدُ الدروعَ عليه

(١٠)

أحرقْتُ رغبتِي بلاهةً سُوقٍ فأتتني ملوكةٌ تشتريها
لستُ أبتاعُ سكرةَ الملكِ عُنباً بعبوديتي التي أنا فيها
لا يليقُ الوجودُ هذا بحرٌ سرُّه يشتكي وجودك ذاكا
لم يجدْ هاهنا من الموتِ بداً أو مفسراً من الحياة هناك
لذّةُ العشق من فراقٍ وهجرٍ فأثق الله أن تقولَ لماذا
ما ترددتُ أو تشردتُ يوماً أو تسكمتُ في طريقٍ كهذا
لا يملُ الشاهينُ ما يرتجيه يسر غابٍ يرودها وجبال

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص ٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويرى في اتخاذه العُشَّ عاراً
من تُرى يَسَّر الذَّيِّح لبرُّ
كثرة الدَّرْسِ أم نباهة نفسٍ
سلوة الشرق حين يجرح شعري
جئتُ (آلوند) ^(١) مرةً بعد أخرى
ليس يحتاجُ زخرف القول معنى
ما استعارتُ يدُ الحديقة لونا

ناعمٌ بأله شديدُ المحالِ
بعدما كان تُلَّه للجيينِ
إنَّ في ذاك آيةً للضَّنينِ
وضريحى لكلِّ طلعةٍ حرِّ
فغارُ الطريق يعرفُ سرِّي
كيفما قلَّته سيَّت الغواني
حينَ صاعَت شقائق النُّعمانِ

هو ذا الحبُّ مرةً إلَفَ وإد
مرةً بالغيابِ يَشْقَى وأخرى
طالما ألَهَبَ المحاريبَ وَجُداً
مثله مثلُ الإمامِ عليّ

مرةً وحده يغنِّي الجبالا
يملا القلبَ غبطةً ووصالا
طالما أضلَّح المنابرَ بالا
أخذ العلمَ كلَّه والقِتالا

(١١)

ألا يتذكَّرُ يومَ اللقاء
وما قدَّسَ الحبُّ من بقعةٍ
ذوى الحبِّ في أنفُسِ العاشقين
وصرنا إلى زمنٍ ماله
يقولون أستاذنا آزرُ
هُمُ وثيَّثون لا يعرفون مَنْ
نَعَمْ همُ إلى الآنَ لم يعرفوا

وتاريخَ لحظته الحاسمة
وأسيافَ نظراته القاسمة
ولم يبقَ منه سوى وسوسة
إلهٍ سوى صنمِ المدرسة
ولأنَّ ما عرفوا رسمه
رشاقةً فطرته البادئة

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب
ومن هنا اختار عزَّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال
نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر
جبل آلوند وميمند .

ولم تبق زاوية هادئة
فلا هو عُشٌّ ولا هو قَفْصَن
فلم يبق في الدُّنْ إلا غصن
وهذي التي فجَّرت عَيْنَا
وما علموا ما الذي بيننا
اللذان يجيشان فيما تشيذ
وخلد التألق أجرُ الشهيد
ولا أشتكي جُورَ هذا الزمان
بفضلِكَ أخلعُه في أمان
كما فني السابقون الأول
ولا الخوفُ أفعدهم في الدُّول
وخلصني من شياطينه
وتجعلني من مجانينه

تطوِّح معبدهم في الرِّيح
تعجبت من عالم هكذا
هب الكرم رونقه يا كريم
وحانات إيران قد أجديت
يظنون شعري لأجل الرِّيع
دمي وغباري هما الجوهران
وأنت سفكت عليها دمي
بفضلِكَ لا أشتكي الأصدقاء
وثوب الحياة التي خضتها
فهني بسرك ذوق الفناء
فلا الحزن ثبط من عزمهم
نعم ، عقد الفكر أطلقها
متى الحب تمنحني سرّه

(١٢)

فترى الكؤوس على مدى البستان
لأقلِّ بارقة بهذا الحان
من طعمة المتسولين ملوكا
فتظنُّ كان كمثلهم صعلوكا
هل من نجوم غيرها وسماء
ما حظها من هذه الضوضاء
عني لحلَّ الويل بي في لحظتي
حاشاك تحرمني وداعة غبطتي
ولو اهتممت جعلت منه يقينا
دللت على عدم اكتراثك فينا

يَهَبُ الشَّقِيقُ بلا حسابِ خمره
عجبا من الصُّوفي يترك زُهدَه
الحبُّ يجعلُ حيثُ مدَّ سَاطِطُه
يرثون شرفة أبرويز بمكرهم
هذي النجوم عتيقة كسمائها
يا لست شعري والقيامة أزلقت
مولاي عينك لو أدت لحاظها
أنا غبطتي عند الصباح تنهّدي
لم لست مُهْتَمًّا بهذا كلّهُ ؟
عيناك لامعتان إلا أنّها

أنا لا يلائمني ربيع طافح
ويظن من خيالاته عن فرحة
قالت لي الحمقى تبدد شملنا
فأجبهم إن كان غير مناسب
حقاً أبو الحسن المحقق قال لي :
أنظن تبقى الشمس مشرقة إذا
بالزهر لم يُذكر مدى أحزاني
غنى له العصفور في البستان
فكن ابنَ عصرك أيها المجنون^(١)
فمن المناسب حربنا المكنون
الروح لا تفسى إذا فني الجسد
هي أنكرت هذا الشعاع إلى الأبد^(٢)

(١٣)

عدم اكتراثك لم يزل وشقائي
رياء أين أنا وأنت وإن يكن
ولك الوجود جميعه أم لي أنا
ما خضت إلا وقعةً نشبت به
ما خضت طوال العمر إلا وقعةً
بحرارة الرومي كنت أخوضها
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت
فلصقنا الملكي سرّاً واحد
للحُب أغنية وما لِينائها
هي إن تكن أو لم تكن عريّة

لم استفذ شيئاً بكل غنائي
هذا فضاؤك أنت أين فضائي ؟
والكون سخرُك أم تموج ذاتي
في ساحها أنفقت كل حياتي
نشبت على لغز من الألغاز
حيناً وحيناً باكتساب الرّازي
وترعرعت بين الثُور الكاسرة
لم تدره تلك العقاب الحائرة
لغةً ، ولا تحتاج لالفاظ
فالسرُّ كل السرِّ في الألفاظ

- (١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .
(٢) في الأصل (أيمن أن تظل الشمس مشرقة لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أن الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .
قلت : وقريب من هذا .

رياء ذاتك في سماء حياتنا شمس أشعتها ذوات الناس
وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيه ابن سينا :
يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عامر وأشعة في بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت شتى الأشعة والتفت في المرجع

ما بين دروشة ولا ملكية
كلتاها تغزو الوجود فهذه
البعض قد ترك الركاب لغيرها
لو اتقن الحادي مقاماً واحداً
الفكر حتى بالفضيلة لم يعد
والقلب حتى بالتجارب كافر
فإلى متى هذا النفور يقودنا
الله يعلم ما رأت نفسي التي

(١٤)

فرق إذا صلحت أمور الذات
بيد الجنود وتلك بالنظرات
والبعض يكتنم جرحه ويعاني
لم يرغبوا عنه لحاد ثانٍ
يرضى بقول القلب في تفسيرها
ويرد قول الفكر في تقريرها
وإلى متى تجتاحني أنفاسي
أقسو عليها رحمة بالناس

أنا لا يبدو مجالي هاهنا
وأرى اللعبة من ماء وطين
أي عين هاهنا ما افتتنت
تربث من أعين كانت ترى
كم لنا قافلة مرهقة
إن هذا المشتري واليَّيرين
هذه الأرض وهاتيك السماء
قفزة واحدة من عاشق
أنت إن حاولت كتمان الهوى
صرخة الحب التي تملكني
رغم ما تطلقه من حيرة
هي عندي وكما أعرفها

يتعدى أبداً ظل القمر
ليس في كوني سوى هذا السَّمَر
عندما مزقت أطراف الرداء
بقعة زرقاء في هذي السماء
طوّحت خلف تلايف الأثير
بعض من صاحبت في هذا المسير
في رحاب السر لا تنتهيان
تجعل الأسرار في جبة كان
فصحنه صرختي عند الصّباح
لم تدع للحب سراً لا يُباح
صرخة التائه من غير دليل
دعوة تُعرب عن قُرب الرّحيل

إن تكن ربّاً فيعني عندنا
وجع في الرأس لا يتركه

صرت تهتم بأرضي وسماء
لهناء في صباح ومساء

أَسْتَمِيعُ الْعُذْرَ إِنَّمَا إِنْ تَكُنْ مَخْضَرُ إِنْسَانٍ عَلَى هَذَا الْوَهَادِ
فَهُوَ لَا يَعْنِي (تَمَاماً) عِنْدَنَا وَجَعاً فِي الرَّأْسِ ، لَكِنْ فِي الْفَوَازِ

(١٥)

وَاضِحٌ قَوْلِي ، وَفِكْرِي نَيْرٌ رَغِمَ أَنِّي حَافِلٌ بِالْحَجِيرِ
طَيْبَتِي هَذَا النَّسِي أَمْلِكُهَا كُلُّ مَا اعْرِفَهُ عَنْ قَدْرِي
لَيْسَ عِنْدِي غَيْرَ شَيْءٍ وَاحِدٍ أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي يَمْلِكُكَ ؟
أَنْتَ لَوْ مَكَّنْتَنِي مِنْ صَوْنِهِ عَنْ زَمَانِي لَمْ أَكُنْ أَهْتِكُكَ
كَيْفَ لَا تُعَرِّبُ عَنِّي صِرْخَتِي كَيْفَ لَا تَمْلَأُ أَرْجَاءَ السَّمَاءِ
أَنَا عَنِّيْتُ كَمَا عَلِمْتَنِي أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي صَاغَ الْغِنَاءَ ؟
خَطِئاً إِنْ كَانَ فِي تَصْمِيمِنَا مَا الَّذِي يَدْعُو إِلَى تَكَرَّارِهِ
ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَا قِيَمْتُهُ وَمَتَى يَخْرُجُ مِنْ فُخَّارِهِ
رَغِمَ أَنَّ الْغَرْبَ مَا عَلَّمَنِي مِنْ جَمِيعِ الْعِلْمِ غَيْرَ التُّرَاهُثِ
فَأَنَا يَوْسُفَنِي (الْمَلَأَ) الَّذِي صَارَ لِلْإِسْلَامِ عَاراً فِي الْحَيَاةِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ^(١) يَا نَوْرَ السَّمَاءِ كَيْفَ لَا تَشْرِقُ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ
أَنْتَ سُلْطَانُ اللَّيَالِي لَا كَمَا قَالَتِ الْحَمَقَى أَسِيرٌ لِلْقَدَرِ
إِنَّ أَصْنَامِي النَّسِي فِي مَعْبَدِي مِثْلُهَا تِلْكَ النَّسِي فِي مَعْبَدِكَ
لَمْ تَحْطُمْهَا يَدٌ غَيْرُ يَدِي فَتَرْفَعُ عَنْ يَدٍ غَيْرِ يَدِكَ
ذَلِكَ الْأَعْمَى الَّذِي تَقْصِيدهُ مَا لَهُ عِلْمٌ بِمَا فِي قَلْبِكَ
هُوَ لَا يَبْصُرُ حَتَّى نَفْسِهِ وَنَرَاهُ تَحْفَةً مِنْ رَبِّكَ

(١) فِي تَرْجُمَةِ الشَّرِّ لِلْأَسْتَاذِ الْمُلُوحِيِّ « يَا أَنْتَ ! وَقَدْ اخْتَلَفَ النِّقَادُ فِي تَحْدِيدِ الْمُنَادَى »
ص ٩٨ .

ربّاه هذا الشوق ينبضُ روعةً
بالرَّغم من هذا فأرخصُ سلعةً
ملكُ المرابون البلادَ جميعها
والناسُ يعتقدون رغم شقائهم
لم تمنح العلماء حتى قسّةً
والإنكليز وهم عبادٌ مثلنا
ملكنا كنائسهم بكلّ ملذّةٍ
هل في مساجدنا بكلّ بلادنا
قرأتك الحقّ المبين وإن يكن
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا
فردوسك اللهم لم يره هنا
الإنكليز بلادهم فردوسهم
ما زال فكري في سمائك حائماً
تأبى عليّ ملائكةُ فطرتي
لك ذلك الدُّرويش جرّح نفسه
لا في سمرقند ولا دلهي ولا
أنا لستُ مسكيناً ولستُ مراوغاً
غضبت عليّ الأصدقاء جميعهم
لم أستطع أبداً أسمي سُمهم

ويروجُ حتى في ابتياع الذّاء
عند الشراء مواهبُ العلماء
وتقامروا حتّى على الأديانِ
لإنكليز بمطلق السُّلطانِ
وجعلتُهم أخلق العبادِ وفاضا
يُعطون أبناء الحمير رياضاً
فهنا اللحومُ وهاهنا الكاساتُ
إلا المواعظُ تلك والصلواتُ^(١)
قاسى كلامَ مفسّريه وعانى
القرآن (بازند المجوس)^(٢) لكانَ
أحدٌ وأنتَ هو السَّميعُ المُبصرُ
والمسلمون إلى سمائك تنظُرُ
فاسجنه في فلّك من الأفلاكِ
أن استمرَّ بهذه الأشراكِ
حاشا تكون لقلبه جهتانِ
في أصبهانَ له مقامٌ ثانٍ
والحقّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهداً
والحقّ لا يبقِي صديقاً واحداً
حلوى وأعرفُ أنّه قتالُ

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون والأدينية التي انتهت إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومند) عندي لا يسمّى صخرة
لما قُذِفَتْ لِنَارِ نمرودِ أتى
وصمّتُ لَمَّا قال : هل لك حاجةٌ
رَبّاه ! إني أَنَعَبْتُني حيرتي
الحسنُ من حولي يشيعُ وصالهُ
سكرانُ مغتبطُ السَّجِيّةِ متشّرِ
يا ليت شعري كيفَ يُخرَمُ برعمُ
لم يستطع إقبالُ يكتُمُ جرحه
من سوف يُسَكِتُ ذلك الوقحَ الذي
وعليه من قُللِ الجبالِ جبالُ
جبريلُ يسألني فَلَمَ أَتَكَلَّمِ
أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شيلمِ
ما عاد يمكن أن أغضَّ عيوني
والحُبُّ في صدري يذيعُ فتوني
بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُ
من رغبةٍ في الابتسام تهيجُ
حَتَّى أُمَامَ الله قام وقالا
لم يبق للمتجملين جمالا

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضّل جلالة السلطان نادر شاه - الذي استشهد بعد ذلك - بدعوتي فاغتنمتُ
زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م
وقد نظمتُ هذه التأملات على نمط قصيدة مشهورة لهذا الفيلسوف^(١) ذكرى
لهذا اليوم السعيد :

« إِنَّا نسير على خُطى السنائي والمطّار »^(٢) .

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى
تجسيد عقيدة عند أهل التصوّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لما جنتُ على احتواء جنوني
 لم آتِها بمخاوفي وظُنوني
 بعثته من عطرٍ ومن تلوين
 أسرارَ وحدانية التكوين !
 فاملاً عيونك ما ملأتُ عيوني
 ألقى بموج الظنِّ بحرُ يقيني
 عَصَفْتُ بِمَنْبَرِ ذَلِكَ المسكينِ
 كَسَرَ الصَّليبِ تعصباً للدينِ
 لم ألق غير خصومة من طينِ

لم تَقَوَ صحراء الطبيعة هذه
 لولا الجنونُ أساء في تقديرها
 بالذات يمكنُ أن نكسر سحرَ ما
 لا أنت تملكُ في الحياة ولا أنا
 صُورُ الوجودِ تموجُ نُصَبَ عيوننا
 لو يستطيعُ البحرُ يتركُ موجه
 بين المحقق والفقير خصومة
 لما رُثِيَ الحلاج فوق صليبه
 ما بينَ مَنْبَرِ ذا وبين صليبِ ذا

سيّان عبداً كانَ أو سلطانا
 لا يشتكي زمناً ولا شيطانا
 لا أنت أستاذي ولا أنا عَبْدُكَ
 شَتَانُ وَجْدِي فِي السَّمَاءِ وَوَجْدُكَ
 لَكُنَّهَا فِي الْأَرْضِ أَقْدَسُ فَرْضِ
 يستغفرون بها لمن في الأرضِ
 أُنْفَخَصُ الحاناتِ فِي الْأَفَاقِ
 وهناك خمرٌ ما لها من ساقِ
 وبلاطٍ قيصر من دمائها ندي
 لا يابِهون لصارمٍ ومهتدٍ
 بوشاحِ فاطمةٍ ومصحفِ أحمدٍ
 شكواي قال - بحرقةٍ وتنهدٍ - :
 ينهي الوجود بشغره المتمردِ
 هذي النهاية ما ترى يا سيدي

رجلُ البصيرة لا يذوقُ هوانا
 يختالُ والدَّرْعِ الوحيدة زهده
 جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي
 أنا إن تَبِعْتُ خُطَاكَ خنْتُ خلافتي
 سَفَكُ الدِّمَاءِ رسالةٌ مدمومة
 أهلُ السَّمَاءِ صلاحُهم في أنهم
 كم ذا ذهبَتْ مُشْرِقاً وَمُغْرِباً
 فهنا كؤوسٌ لا مذاقَ لخمرها
 طورانُ من إيرانٍ تأخذُ ثأرها
 ذهب الدراويش الذين عهدتهم
 وبقيتُ في حرمٍ يتاجر شيخه
 لما اشتكى لله إسرافيلُ من
 هذا الفتى قبل الأوان يريد أن
 فأجابه صوتٌ : أليس أشدَّ من

إِحْرَامُ أَهْلِ الصَّيْنِ دَاخِلَ مَدَّهَا وَرَقُودُ مَكَّةَ فِي جَوَارِ مُحَمَّدٍ

كَأْسُ يَمِينِنَا	مِنْ (لَا إِلَهَ) لَنَا
كُسْرَتْ بِسَائِسِدِينَا	وَكُسُوس (إِلَّا اللَّهَ)
بِالْقَفِي فِي الْأَرْوَاحِ	الْكَأْسُ طَافِحَةٌ
تَبْكِي ذَهَابَ السَّرَّاحِ	وَالْكَأْسُ فِي الْإِثْبَاتِ
بِالْعَزْفِ آخِرَسْنَا	الْعَازِفُ الْمَوْهُوبُ
وَنَخْوَنُ أَنْفُسَنَا	نَبْكِي بِبِلَا صَوْتِ
بِالنَّهْرِ تُغْرِينَا	عَجَبًا لِأَوْرَبَّةَ
ضَاعَتْ مَعَانِينَا	وَبِذَاتِ لَجَّتْهُ
تَبَارَهَا الْمَاحِي	تُخْفِي بِهِدَاتِهَا
وَكُورًا لِيَمْسَحَ	عَصْفَتْ فَمَا تَرْكَتْ
لَا نَطْمِنُ لِيَهْ	رَأْيُ الْعَبِيدِ بِهَا
الرَّأْيُ مَجْمَلُهَا	وَتَقَرَّرُ الْأَحْرَارُ
إِلَّا اجْتَهَادُ وَفِي	لَا شَيْءَ يُقْنِعُنَا
مَنْ ذَلِكَ الصَّدْفِ	يَأْتِي بِالْؤُلُوءِ
عَجَّتْهُ فِي الْكِيَرِ	ذَاكَ السَّرُّجُجَاجِ إِذَا
صَخْرًا بِإِكْسِيرِي	فَأَنَا أَسْوِيَهُ
فَرَعُونَ يَخْشَاهَا	لِي فِي الْجَهَادِ يَدُ
إِلَّا لِمَوْلَاهَا	يَبْضَاءُ مَا مُسَدَّتْ
أَنْ يَنْتَهِي نَفْسِي	أَنْظَرُنْ أَوْرَبَّةَ
فِي قَشْهَا الْيَسَسِ	أَوْ تَنْطَفِي نَارِي
مَا اخْضَرَّ مِنْ قَصْبِي	نَارِي وَقَدْ أَذْكَتْ
مَنْ ذَلِكَ الْخَطْبِ	لَا شَيْءَ يَمْنَعُهَا

متفاههم قلبى
الحب علمه
من عنبر عالمه
لا قضاير قصيره
متعلق أبداً
لا غزو للاقمار
هو سيد الأشياء
هو شغل الساري
هو مركب من نور
أعطى جنون الطور
هو أول العيودان
في أعين السكران
هو رحمة القرآن
هو سيدي ياسين
أقلعت عن غوصي
لولا (سنائي) ما
لولا عن بحري
فلألي فيه

لا يعرف اليأس
أن يزغم النفس
يستخرج اليأس
يرجو ولا كسري
بركاب سيده
ينقطن في يده
هو خاتم الرؤس
في هذه السبل
يمشي أمام الركب
لغبار هذا الدرب
هو آخر الدرب
من نشوة الحب
للناس أعطاهما
هو مالكي طه
وتركت أخملاً
أقلعت إجلاً
لولا ما جلت
أضعاف ما قلت

(٢)

الشاعر الفرخ الحزين معاً أنا
أوتيت ملكهما بوجه معذبي
والرهد من شيم الملوك فإن تجد

حذر الحكيم أشوبه بجنونه
ورميت بالاثنين حول عيونه
ذا الفقر فيه فمن عظيم فتونه

زهدُ الملوكِ كأبرويز محبةٌ
وكهداةِ الأسدِ المقيم كما يُرى
لا قعدةُ الصُّوفيِّ مُنهَديمِ القُوى
ما قول سادتنا الدَّراويز التي
هو من رجالِ الله إلا أَنَّهُ
رجلٌ تنيرُ طريقه شطحاته
ملكٌ أماراتُ الجنونِ بوجهه
تيمورُ أو جنكيزُ كانَ كلاهما
شعري بفارسَ والعراقِ محيِّرُ
الكافرِ الهنديِّ^(٢) يذبحُ دونما

ألقى ممالكه إلى شيرينه^(١)
ما يبسنِ مِخلَبه وبين عرينه
من فقد دُنياه وضيعه دينه
سمعت لآهاتِ ابنها وأنينه
سيثِرُ عاصفةُ النُّشورِ بطينه
حيٌّ كمثلِ البَرْقِ بين شؤونه
والعَبْدُ يفضُّحه غباءُ سكونه
ملكاً وخدش اللهُ فوق جبينه
طربوا له وتحَيَّروا لشجونه
سيفٌ ولا رمحٌ فَمَنْ لجنونه

(٣)

روعةُ السرِّ التي أعطيتها
إنَّ أنفاسي التي أهدو بها
لستُ آتي النِّجم كي أسأله
هو لا يعرف من أين أتى
ما حياةُ الناس إلا سكرةٌ
لا تُضغِ عمرَكَ في تفسيرها

والتَّسي مَكْنُسي منها الجنونُ
أُخِذْتُ من صَدْرِ جبريلَ الأمينِ
عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
في رحابِ الكونِ منبؤٌ مَهينُ
وهي في اليقظة أو في الخُلُمِ
كثرةُ الحيرة موتُ الهَمَمِ

فرحني تفجَّرَ مَنْ قَدَمي إلى رأسي

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الرضائي الجزء الأول ، ص ٣٢) .

والقـومُ تطلـبُ أن
 ما سرُّ قلبي ؟ آه
 وسمو نظرتـه
 لا أرتضي بي بدلاً
 بكنوز قـارون
 معراج سـيدنا
 بسدت السـماء به
 لابدُّ يـذهبنـا
 فـوجدنا هـذا
 في كلّ أـونة
 يلغـي خـرافات
 ألـهـتك أوربـة
 إياك أن تـرضى
 لا تترك الرُّومي^(١)
 فدواؤك الشـافي

أنـسل من نفسي
 لضميرـه العـذب
 في سكرة الحـب
 عن قلبي المـجنون
 وعلوم أفلاطون
 علم عظيم الشـان
 في عالم الإنسان
 ما كان يـختمـل
 ما زال يـكتـمل
 نـضـفي إلـى إعلان
 من سالف الأزمان
 بالسـحر عن ذاك
 عن كـثر مرآتـك
 ولهب حـرقـه
 في نار نظـرتـه

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقدمة فإنها لا تتركز على وهم ، وإنما تحمل قيمة معرفية كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلّل بدرجة مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريبية التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أَوْ مَا اسْتَعَدَّتْ بِهِ مَا ضَاعَ مِنْ نَفْسِكَ
إِيَّاكَ كُنْتَ تَرَى جِيحُونَ فِي كَأْسِكَ

(٤)

أَلَا يَا عَالِماً فِي الْمَاءِ بَيْنَ الثَّرْبِ وَالْأَهْوَاءِ
ظَاهِرَ ذَلِكَ السَّرِّ أَنَا أَبْدِيهِ أَمْ أَنْتِ
وَهَذَا اللَّيْلُ فِي حَزَنِ وَحَسْرَتُهُ وَحَيْرَتُهُ
وَلَحْنُ مَوْذَنِ الْفَجْرِ أَنَا أُعْطِيهِ أَمْ أَنْتِ
نَشَاطِ الدَّهْرِ يَطْلُبُ مَنْ أَنَا أَمْ أَنْتِ يَتَقَلَّبُ
وَيَخْمَلُ عِثْرَهُ يَجْسِرِي أَنَا أَغْرِيهِ أَمْ أَنْتِ
غِبَارُ نَحْنِ يَا أَعْمَى وَلَكُنِّي أَعْيِي ذَاتِي
فَحَقْلُ الْكَوْنِ لَا أَدْرِي أَنَا أَسْقِيهِ أَمْ أَنْتِ

(٥)

كَمَا أَنْتَ لَا تَكْتَرِثُ لِلسَّيْنِ وَسِرُّ فِي طَرِيقِكَ نَحْوَ الْأَمَامِ
كَمَا أَنْتَ لَا تُضْغِ لِلْقَائِلِينَ فَلَسْتَ لِنَجْدٍ وَمَصْرِ وَشَامِ
تَعَالَى جِهَادُ النَّزِيهِ الْغَيُورِ تَعَالَى يَكُونُ لَنَيْلِ الْخُطَامِ
وَجَائِزَةُ الْحَرِّ غَيْرُ الْخَمُورِ وَغَيْرُ الْغَوَانِي وَغَيْرُ الْخِيَامِ
عَلَى الطُّغْمِ يَسْقُطُ مَنْ لَا يَطِيرُ وَمَنْ لَا يَحْلُقُ فَوْقَ الْغَمَامِ
إِذَا سَلَبَ الْغَرْبُ قَلْبَ الْغَرِيرِ فَسُوكَ يَغْزُو مَصِيرَ الْأَنَامِ
عَصَاكَ تُصَدِّعُ صُفْمَ الْجِبَالِ وَتَعْرِفُ سِنَاءَ صِدْقِ الْكَلَامِ
فَدَغُ تَرْفِ الْغَمْدِ مَا لِلْهَلَالِ عَلَى فَخْرِهِ غَيْرُ شَكْلِ الْحَسَامِ
إِمَامُكَ يَفْقَدُ مَعْنَى الْخُشُوعِ وَيَتَّقُضُ نَجْوَاكَ عَزُّ الْقِيَامِ
أَمْثَلُكَ يَرْضَى بِهَذَا الْخُشُوعِ وَتِلْكَ الصَّلَاةُ وَذَاكَ الْإِمَامِ

نسبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ وحكمةُ الذُّوقِ تعلو حكمةَ الكُتُبِ
 كم كانَ مِنْ سفينٍ للقومِ أغرقها سلمُ التَّصوفِ واللاهوتِ والأدبِ
 كنْ ثاقِبَ العينِ في قلبِ الأسودِ لها جرحُ فما لثَغَاءُ الشاةِ من عَتَبِ
 جسَّ الطَّيِّبُ بقلبي ما أكابِدهُ فقال : ويحك ما تخفيه من طلبِ
 تطلعاتك لا طاقاتُ تحملها لكن (لَكَ الحقُّ) لا تياس من السَّبِ
 وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوحِ أعرفه وليس هنذا الذي في قلبك اللَّجِبِ
 هذا الدَّمُ القِرْمِزِيُّ اللونِ (نَضْرَتُهُ) تدلُّ أنَّك لم تشرب شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد^(١)
 ويحشني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدد في التشيد
 الحورُ صفً بعد صفً والزهورُ مبعثرة
 ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرموز التي طُفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما مُعش به جناح جبريل - الأصل - من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .

يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقَّة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثلاً لؤلؤة الندى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلِّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختتم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثُّوبُ أَصْفَرُ أَصْفَرُ وَالثُّوبُ أَرْقُ أَرْقُ
 وَالْقَزْمَزِيَّةُ قَزْمَزِيَّةُ وَالتَّفْرُؤُ مُطْلَقُ
 أَلْقَى نَسِيمُ الصُّبْحِ لِسُؤْلُوَّةٍ عَلَى تَاجِ الرُّهُورِ
 وَالشَّمْسُ نَوَّرَتِ النَّدى لَتَزِيدَ مِنَ الْقَوِ الْعُطُورِ
 مِنْ هَذِهِ الْغَابِياتِ قَامَ الْحَسَنُ يَبْدَأُ رَقَصَتَهُ
 فِي هَذِهِ الْغَابِياتِ لَا فِي الْمُنْدِ نَفْهَمُ قَصَّتَهُ
 اغْرَقَ بِذَاتِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَشَطَّ بِحَرِّكَ فِي حَيَاتِكَ
 إِنْ كَانَ يَزْعُجُكَ انْتِسابِي فَاَنْتَسِبْ لِحِمَالِ ذَاتِكَ
 مَا عَالِمُ الْقَلْبِ ؟ الْمَحَبَّةُ وَالْمَرْوَةُ وَالْحِمَاسَةُ
 مَا عَالِمُ الْجَسَدِ ؟ التَّجَارَةُ وَالتَّمَلُّقُ وَالسِّيَاسَةُ
 يَا أَنْتَ أَنْتَ إِذَا وَجَدْتَ غِنَى الْفُؤَادِ فَلَنْ تُرَاعَ
 أَمَا غِنَى الْأَجْسَادِ فَهُوَ وَكُلُّ مَا فِيهِ ضَيَاعُ
 وَإِذَا وَجَدْتَ الْقَلْبَ ثُمَّ أَضَعْتَهُ فَالْحَقُّ أَنَّكَ مَا وَجَدْتَهُ
 وَالْحَقُّ : أَنَّكَ ضَائِعُ الْخُطُواتِ مِنْ وَهْمِ تُصَدِّقُ مَا ظَنَنْتَهُ
 لِلْإِنْكِلَابِ سِيَادَةُ فِي غَيْرِ قَلْبِ الْمُسْلِمِ
 مَا فِيهِ تَأْوِيلَاتُ شَيْخٍ أَوْ مَسَائِلُ بَرَهْمِي
 لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ لِلْقَلْبِ حِينَ قَالَ وَحِينَ جَلَّلَنِي حَيَاءُ
 لِمَا انْحَنَيْتَ أَمَامَ غَيْرِكَ صَرْتَ مِنْ جَسَدٍ وَمِنْ قَلْبٍ هَبَاءُ

(٨)

دَمُ الْمُسْلِمِ الثُّورُ فِي دَرِيهِ وَمَوْهَبَةُ السَّحَرِ فِي قَلْبِهِ
 وَيَعْتَرِفُ الْعَصْرُ أَنَّ الْجَمَالَ صَبَا وَتَرَعَرَغَ فِي شَعْبِهِ
 وَلَوْ لَا مَدَارِسُ هَذَا الشُّيُوخِ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرَهْبَانُهَا
 لَرَوَى الْمَدِينَةَ مَا ارْتَوَاهُ وَأَوْرَقَ بِالْحَبِّ بِسَائِلِهَا
 صَفَارُ الشَّوَاهِينِ مَا ذَنْبُهَا هُمْ عَلَّمُوهَا عَنَاقَ الْغَبَازِ

هُمُ قَتَلُوا الْقَلْبَ فِي صَدْرِهَا هُمُ أَبْدَلُوهَا بِهَذَا الشَّنَارِ
تَرَى النِّشَاءَ يَمْلَأُ وَجْهَ الطَّرِيقِ بِرُوحَاتِ نِسْرِ وَغَدَوَاتِ بَارِ
وَمِفْتَاحِ الْمَدِينَةِ وَإِذْ سَحِيقُ يَضُجُّ بِمِصْطَلِحَاتِ الْحِجَازِ
أَنَا لَسْتُ أَفْهَمُ هَذَا الْكُؤُوسِ وَيُؤَسِّفُنِي مِثْلُ هَذَا اللَّجَاجِ
وَمَنْ كَانَ يَحْسُنُ نَحْتَ الصُّخُورِ تَرْفَعُ عَنْ أَنْ يَصُوغَ الرُّجَاجِ
يَقُولُونَ إِقْبَالَ مَاذَا يَرِيدُ وَمَنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَذَا الشَّلُوكِ
سَأَلْتُ الدَّرَاوِيشَ عَنْ سِرِّهَا وَالْقَيْتُ فِي وَجْهِهِ الْمَلُوكِ

(٩)

هُوَ الْحُبُّ يَمْضِي حِيَالِ الْحَيَاةِ وَيَمْنَحُهَا فِي وَجْهِهِ الثَّرَابِ
يُغْلَغِلُ فِي الْأَرْضِ أَوْتَارَهُ كَمَا يَتَغَلَّغِلُ لِيْنِ النَّسِيمِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَذَرِ مَا رُبُّهُ وَمَنْ طَلَبَ اللَّهَ لَا مِنْ سِوَاهِ
تَحَوَّلَ (دَارًا) لَهُ طَالِبًا يَجَاهِدُ لِلْقَلْبِ حُرَّ الْجِهَادِ
وَذَاكَ يَحْصُلُ سِرُّ الْخُلُودِ تَمَعَّنَ بِقَلْبِكَ وَاسْتَفْتَاهِ
خَلَا حَرَمُ اللَّهِ مِنْ أَهْلِهِ فَكُنْ أَنْتَ جَذْوَةً أَرْكَانِهِ

(١٠)

الْقَلْبُ يَنْقُضُ هَهُوَ الْهَوَى وَالْعَيْنُ يَنْقُضُهَا الصَّفَاءُ
مَنْ لَمْ يُغَامِرْ مِثْلَمَا غَامَرْتُ تَدْهَشُهُ السَّمَاءُ
مَا سِرُّ طَيْتِكَ الَّتِي ذُوقُ التَّجَلُّي نَقْشُهَا

أَنْضِيعُ فِي وَهْمِ الْحَيَاةِ وَأَنْتَ قَلْبِكَ عَرْشُهَا
 حَاشَا لِأُورُوبَةِ الْتِي جَعَلَتْ دَمَوْعُ عِيُونِهَا
 حَاشَا تَنْيِرُ بِقَطْرَةٍ مُلْتَثِّ بَلِيلِ ظَنُونِهَا
 هَلْ يَعْرِفُ الصُّوفِيُّ وَالْمَلَأَ حَقِيقَةَ جَذْبَتِي
 ضُئُّوا بِكُلِّ ثِيَابِهِمْ وَأَنَا أَمْرُقُ جَبَّتِي
 مَا مَرَّقَا يَوْمًا وَلَا حَشَوًا وَلَا طَرَفَ الرِّدَاءِ
 فَاَعْجَبْ لَصُوفِيٍّ وَمَلَأَ يَلْجُثُونَكَ لِلرِّيَاءِ
 حَتَّى مَتَى يَمَاطِيْتِي تَتَوَسَّلِينَ إِلَى النُّجُومِ^(١)
 كَانَتْ نَجُومًا ثُمَّ ضَاعَتْ خَلْفَ أَوْهَامِ الْعِلْمِ
 إِنَّمَا أَكْفُ أَنَا وَإِنَّمَا أَنْ تَكْفَ عَنْ الْوُجُودِ
 هَذَا الصُّرَاعُ الْبَارِدُ الْوَاهِي طَرِيقٌ لِلْجُحُودِ
 مَا دُمْتُ صَاعِقَةً فِي الصَّحَرَاءِ أَعْمَلُ وَالْجِبَالِ
 عُشْبٌ وَقَشٌّ يَابِسٌ لَا يَسْتَحَقُّ أَنْفَعَالِي
 الْكَوْنُ مِيزَانٌ يَكُونُ لِذِي الشَّجَاعَةِ وَالْجِلَادِ
 لِلْمُؤْمَنِ الْحَقُّ الْمَخَاطِرُ بِالْحَيَاةِ لِمَا يَنَادِي
 حَاشَا لِمَنْ (لَوْلَاكَ)^(٢) فِي يَدِهِ يَرَى شَيْئًا مَنِيعًا
 مَا مُؤْمِنًا مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْكَوْنِ عَلَيْهِ جَمِيعًا

(١١)

أَلْفُ خَوْفٍ وَلَا قِيَامُ لِسَانِي بِحَدِيثٍ مِمَّا يُكَذِّبُ قَلْبِي
 عِنْدَمَا قُلْتُ لِلْقَلَنْدَرِ^(٣) هَذَا قَالَ : أَحْسَنْتَ إِنَّ ذَلِكَ دَأْبِي

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأبهم اقتديتم ... » (الحديث) .

(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .

(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للاماتية ، ويشير السهروردي في :

عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقرئ ذلك بتصرف في الخطط (٤٣٢/٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٢٩٢/٤) . النعمي (٢٠٩/٢) معجم البلدان (ساوة) ، تليس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ١٩١/٣ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ٤٨/١ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣٨٩/٣ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (٣٥٣/١) . والعبر (١٤١/٥) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحّص رأي دائرة المعارف الإسلامية «النسخة الفرنسية» من أنّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص ٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية . كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . «النسخة الإنكليزية» والمرجح أن يكون من تأليف هانفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و«شاه نامه» الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفاحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقد مبينة قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية . فمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنّ الدرگزني الهمداني شيخ الساي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي .

الذي يَحْشُدُ الجموعَ بحانٍ
خَوْرُ القلبِ لا يداويه رازي
المريدُ البسيطُ وهو نقِيٌّ
اسأل الله نعمةً مثل هذي
ربّ ما زال نجلُ آدم هذا
صنمُ النَّفسِ تحت إبطيه يُضفي
لستُ في صرختي أبرئ نفسي
وأنا ، كلُّ نهْنأتِي (لَمَلًا)
مؤمنٌ لا يكون للحبِّ أهلاً
وإذا الكُفْرُ صادفَ الحبَّ يوماً

ظُرِفَ ساقٍ مُنشأً في الخلاعة
رغمَ ما في كلامه من براعة
يُرفِقُ التَّوبَةَ النَّصوحَ بكاء
للشيوخِ التي تموت رياء
إسَرَ وهم وشعوذاتٍ قديمة
حُلَّةُ النَّصرِ فوق شرِّ هزيمة
فاحتراف الإيمان روحُ الشَّجاعه
يدَّعي حملَ مثل هذه القناعة
مؤمنٌ في الجحود جدُّ عريق
قاده الحبُّ مرغماً لطريقي

(١٢)

أو لا تزال مسافراً تسري
والعصرِ إنَّ القومَ في خُسْرِ

وتَفُكُّ الدُّنيا بما فيها
وسل الطبيعة عن فيا فيها

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص ٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص ٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج ٢ ص ٣٠٤) .
ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص ٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر يتنقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .
ويتوسّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمرّق قلبه الكأبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناى وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتمل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أنت أسد أيها القلب أم نمر من نمر ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

لا زاهداً حقاً ولا ملكاً
ملكاً يُجَّجَلُ أبناً سلكاً
في حمل سيفٍ يبعثُ الفرقا
قدراً يشوبُ سيوفه ألفا
حرّاً ولا من صولة القدرِ
مُتعلّلاً بالعلم والنظرِ
نرمي بها الجهلاء بالدين
متستترٌ في زيّ مسكين
مرقتُ أسراري إلى الأبدِ
لا أستطيع بلوغها بيدي

يمشي المنافقُ في نقائصه
وترى الموفقَ رغم محتته
كفُ المنافق لا تساعده
والمؤمن الصديق محتته
ما للمنافق من إرادته
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً
المسلم المغسوار حجّتنا
في نفسه أقدارُ أمّته
حتى تحسنّ بما أكابده
وجدورُ غفلتك التي سكرت

(١٣)

فاهداً قليلاً وكن منها على حذرٍ
وبعض ما فيه موجُ الشمس والقمر
أن تستطيع احتواء اللحن والوتر
يريد يستبدلُ البحور بالحجر
من صيحة الحق أو من صرخة السحر
روح الجبال وأين الصّغق في الصّور
فإذ بها أمة الصّحراء في خورٍ
وماله في وجوه القوم من أثر
تلوح بين دخان الغرب بالشّرر
تفوح رَغَم حروب الكفر والأشر

الحور في الغرب سكر القلب والبصر
بحر الوجود تعالى أن نحيط به
حاشا لقيشارة مهما بذلت لها
صوفئنا خلفَ لاهوتي أديرة
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا
أين الأذان الذي كانت تميد له
طوّفت في أمّة الصحراء أسألها
رأيتهم في سجود لا اتجاه له
مهلاً فقرطبة الحمراء ما برحت
حماسة الشعر هذا من شبيبته

(١٤)

يَقْظُ كما الفاروق يقظة قلبه يقْظُ كمثّل المرتضى في حربِه

حجرُ الفلاسفة المجزَّب مثله
أيقظُ فؤادَكَ إِنَّ عُمرَكَ ضائعُ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفِيدُه
ستكون في الصَّحراء أحرقُ باحثُ
وغزالنا التَّريُّ لست تصيدُه
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُكَ الَّذي
أبروحُ في طلبِ الشواطئ مخطئاً
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي
كُتِمَتْ مخافةُ برهمي لم يزلُ
فإلى متى صمتي وحولي أمةُ
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِهِ
سمحتُ حضارتنا الحديثُ هذه
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها
مولاي خُذْ بيدي ليثربَ إِنَّه
ضَيَّعْتُ معرفتي وإيماني على

(١٥)

عيونُ الـذَّاتِ دافقةُ
بغيرِ تصنُّعٍ منها
إذا كانتَ لها أسلُوبها في الهَجَرِ والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها
خلالِ الدُّرِّ والصَّدفِ
ولا دَجَلٍ ولا صَلَفٍ
وذلكَ منتهى الدُّوقِ

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خير
من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أَتَطْلُبُ جِيْفَةَ الْغَرِيْبَانِ هَاتِيكَ الشَّوَامِيْنَ
إِذَا أَخْفَيْتُ مَخَالِبَهَا فَأَعْيُنُهَا سَكَابِيْنَ
مَتَى الْاَوْتَسَارُ تَلْهِيْهَا بِلَوْعَةِ ذَلِكِ الْحَبِّ
فَنَغْمَةُ صَوْرِ اِسْرَافِيْلَ لَا تَفْنِيْ فِي الْقَلْبِ
أَتَيْتُ الْغَرْبَ لَمْ أَغْبَأْ بِسَكْرَةٍ دَلَّ سَاقِيْهَا
كَرَامُ النَّاسِ لَا تَشْجُو عَلَى مَرَأَى أَعَادِيْهَا
غَزَاةُ الْعَصْرِ لَيْسَ لَهَا عَلَى عَشَّاقِنَا عَوْنُ
وَمَا مِنْ عَاشِقٍ إِلَّا لَهُ مِنْ حُبِّهِ كَوْنُ
غِيَابٍ كَالْحَضْوَرِ بِهِ مِنْ الْهَيْجَانِ أَدْوُمُهُ
لَعَلَّ الْهَجَرَ لِلْجُرْحِ الَّذِي فِي الْوَضَلِ مَرْمُهُ
وَلَوْ لَا ذَاكَ عَانَيْتُ مَا عَانَيْتُ مِنْ عُصْصِي
وَلَوْ أَنِّي ظَفِرْتُ بِهِ رَجَعْتُ وَلَمْ تَطُلْ قِصْصِي !
إِذَا أَحْبَبْتُ تَلَمَّسُهُ فَذَلِكَ فَيْضُ أَشْجَانِي
أَقُمْ فِي عَزْلَةٍ وَاقْرَأْ (مَزَامِيرِي بِإِيرَانِ) ^(١)
وَلَا يَحْزَنْكَ مَا تَقْرَأُ مِنْ شَطْحِي وَمِنْ مَيْلِي
يَقَالُ : يَرُنُّ صَوْتُ السَّرِّ فِي مُتَصَفِّ اللَّيْلِ !

(١٦)

شَبَابٌ قَعُودٌ رَقُودٌ نِيَامٌ لِعَجْزِ الْأَمِيرِ وَفَوْضَى الْجُنُودِ
فَوَالسَّافَا كَيْفَ هَذَا السَّهَامِ تَطِيْشُ بِلَا هَدَفٍ فِي الْوُجُودِ
يَقُولُونَ بَحْرٌ عَمِيقٌ عَمِيقٌ وَمَا أَضْيَعُ الْبَحْرَ مَا أَضْيَعَهُ
بَحْثُ بِهِ مَوْجَةٌ مَوْجَةٌ وَقَلْبُ قَوْعَةً قَوْعَةً
أَمَّا أَنْ تَهْجُرَ أَصْنَافَهُمْ أَمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ قُمْقُمِكَ

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغايةً أصنامهم أنَّها
أنا كيف أجهزُ هذا المساء
وشغلُ الحكيم بهذا العراء
هو الحبُّ ينسبك وقع الجراح
وما الحبُّ إن لم تمت عزة
أنا لم أر السُرَّ لو لم أنل
ومن بَدْء تلمذتي قال لي
رأيتُ فلاسفةً بالألوف
وذو الوحي يزفع من رأسه
إذا خضت معركةً فلتكن
فَمِنْ « لا تخف » شعلةً لم تزل
بريقُ الحضارة أوجُ الثُرف
أنا ابنُ المدينة وابنُ النجف
غبارُهما قطرةٌ للغيثون
مقيمٌ برغم رياح القرون

(١٧)

تزخرفُ هيكلها من دمك
بسرُّ كهذا الذي أهيكه
كشغلُ المحبِّ بما يهلكه
وتفضُّحُ سرِّك آثاره
وما العيش جَلَلَه عازه
طريقةً روميٍّ وأحواله
وما زلتُ أحفظ ما قاله
رؤوسُهُم تحت أطمارها
وبكشِف أوهام أفكارها
كموسى بخطوته الضاربة
تصاعدُ في الأجمة اللاهبة
لدى الغرب لم يستطع فتتي
غبارُهما كان في مُقلتي
وأنفعُ طبِّ لذي علو
وما كان من مستبد عتي

وكان طُرفُ الهوى في مَبِعةِ الولع
بما تضمُّ من الحانات والبيع
على الصَّقيع بمرأى الفاجر الهلع
يشير في حتمه آلام مجتمعي
وتدَّعي أنَّ همَّ الشرق جاء معي
ما تدَّعيه يدُ العمَّال من سُرع^(١)

كان الشتاء كمثل السَّيفِ حَدُّهُ
أيامَ لندنَ ماخوِراً لطالبها
أيامَ كنتُ صلاةَ الفجر أبعثها
ما لي هنا ولهيبى حيثُ رحى ذكي
وكيف كانت هناك النَّاسُ تُنكرُني
أيامَ آلت مقاليدُ الأمور إلى

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤ م ، =

فكان في دربِ قُطَاعِ الحِجَارَةِ ما
يا لَعْبَةً من ديمقراطيةٍ طَلَبَتْ
كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها
ذكرتْ دلهي بروما حين طفتُ بها^(٢)
كلا الدروس لها سحرٌ وأبهةٌ
لأبرويز من التَّدليس والطَّمَعِ^(١)
عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ
إنَّ السياسةَ جنكيزيةَ الجَشَعِ
فكنتُ بينهما في ملتقى وجعي
ربَّاه عَفْوَكَ قد أَبْعَدْتَ مُتَجَمِّعِي

(١٨)

استفتِ قلبك كيفَ المسجدُ افترقا
وأين ذو جَلَسِدٍ منهم يمرُّ به
الحبُّ ، يَعْرِفُ من زَلَّتْ له قدمٌ
وأَنَّهُ جرحُ سَهمٍ إن صبرتَ له
ضاعَتْ عَقِيدَةُ قومٍ في مصادمةٍ
هيهاتَ يُذَرِّكُها من لَيْسَ في دمه
درسُ الشَّرِيعَةِ غيرُ الوجودِ وهو كما
وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
تقوى طويئته إن تكنم الحُرَقا
بأنَّه أقصرُ الأشياءِ أزمانا
أوتيتُ من جُعْبَةِ الصِّيَادِ سُلْوانا
بائني وسبعين وإد من معانيها
وجدتُ يؤلِّفُ قاصيها ودانيها^(٣)
رأيتُ مُتَشَرِّفِي جُفْلَةِ الفِرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً
جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهم
إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان مستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يَكُنْ بها أبرويز فسوف يَتِمُّ بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص ٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمر المائدة المستديرة ، الذي دعت إليه
الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام
١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببسبب ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي
المظهر والمشرّب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وَأَنَّهُ وَكَمَا نَمَتْ تَجَارِبُنَا
 غَصْنُ الْيَقِينِ الرَّطِيبِ الْوَجْدُ يَنْبَتْهُ
 فَقُلْ لَدِي هِمَّةٌ بِالْدَرْسِ مَجْتَهِدِ
 الْحُبِّ فِي قَحَّةٍ يَحْلُو فِي سَفِهِ
 وَلَا تَكُونَنَّ ذَا حُبٍّ بِلَا سَفِهِ
 لَنْ تَهْدَأَ الرِّغْدَةُ الْمَلَقَاةُ فِي خَلْدِي
 إِنْ لَمْ تَشُقَّ بِسَيْفِ الشُّكْرِ جَذْبَتَهَا

إِسْلَامُنَا الْغَيْرِ مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَرَقِ
 وَلَا يَفُوحُ بِغَيْرِ الْوَجْدِ مَعْنَاهُ
 هِيَهَاتَ تَبْلُغُ بِالْأَوْهَامِ مَغْنَاهُ
 فَكُنْ بِحُبِّكَ فِي هَذَيْنِ سَكْبِيرَا
 فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجْدِيكَ قَطْمِيرَا
 وَلَنْ تَرَاقِبَ يَوْمَ الْحَشْرِ ذَا جَاهٍ
 شَقَّتْ أَمَامَ الْبَرَايَا مَعْطَفَ اللَّهِ^(١)

(١٩)

الرُّهْدُ إِخْضَاعُ هَذَا الطَّيْنِ وَالشَّرُّ
 فَقُلْ لَصُوفِيَّةٍ بِالْفَقْرِ رَاضِيَةٍ
 وَمَا عَلَيْكَ إِذَا أَنْكَرْتَ مَذْهَبَهُمْ
 فَالرُّهْدُ وَالْمَلِكُ لَا يُسْتَحْسَنَانِ لِمَنْ

وَلَيْسَ فِي بُغْدَانَا عَنْ عَالَمِ الْبَشَرِ
 هَذَا الْعَذَابُ عِقَابُ الْجُبْنِ وَالْخُورِ
 وَقُلْتَ : أَطْلُبْ مِنْكُمْ زُهْدًا مُقْتَدِرِ
 أَضَاعَ أَمْجَادَ تَيَمُورْلَنْكٍ فِي سَمَرِ

يَا حَبَّذَا يَغْفُلُ السَّاقِي الْجَمِيلُ فَلَا
 إِنَّ الرِّفَاقَ إِذَا جَاشَتْ قَرَائِحُهُمْ
 خَاضُوا بِكَلِمَةٍ (عَفْوًا) مَا يَرُوقُ لَهُمْ
 أَفِيلَسُوفٌ وَصُوفِيٌّ وَمَجْتَهِدٌ
 مَا فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ أَبْدَى فَوَا أَسْفَاً
 كَانَتْ بِزَاوِيَةِ الْأَقْفَاصِ بَغْيَتُهُمْ

يَلِيقُ بِالْقَوْلِ هَذَا جِسْمُهُ الْقَمْرِي
 وَأَيْقِظَ الطَّيْنُ مِنْهُمْ رَقْدَةَ الْفَكْرِ
 وَمَزَّقُوا سَرَّهُمْ فِي ثُوبٍ مَعْتَذِرِ
 فِي سَكْرَةٍ مِنْ كُؤُوسِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
 مِنْ رُوحِ ذِي طَمَحٍ فِي عَيْنِ مُنْبَهَرِ
 لَوْ أَمَعْنُوا قَبْلَ هَذَا التَّيِّهِ بِالنَّظَرِ

(١) فِي تَرْجُمَةِ الْأَسَازِ الْمُلُوحِيِّ النَّثْرِيَّةِ :

لَنْ تَسْكُنِي رَعْدَتِي حَتَّى فِي يَوْمِ الْحِسَابِ ، إِمَّا أَنْ تَشُقَّ ثُوبَهَا أَوْ أَنْ تَشُقَّ مَعْطَفَ اللَّهِ !
 يَرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ يَقُولَ : لَنْ أَضْحِيْ بِهَذِهِ الرَّعْدَةِ الَّتِي تَمْتَلِكُنِي وَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أَجِدَ مِنْ
 يُصْنَعِي إِلَيْهَا وَلَوْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنِّي سَأَتَمَسَّكَ بِمَعْطَفِ كِبْرِيَاءِهِ وَلَنْ أَبْرَحَ حَتَّى أَشْفَقَهُ
 بِجَذْبَتِي أَوْ يَمْحُوَهَا بِخَمْرِهِ . (انظر ص ١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سَجُنُ التَّغْلُتِ لَا قَضِيَانُ تُنْسِكُهُ وَرُبَّ غُلٍّ خَفِيَ بِالْأَثَرِ
تَغْنِيكَ إِنْ حَرَتْ فِيمَا قَلْتُ نَجْرَةً فَمَا التَّجَارِبُ إِلَّا مَرَهُمُ الْحَيْرِ
انْظُرْ خَرَابَ فَوَادِ الْعَرْبِ يَأْكُلُهُ وَعَقْلُهُ فِي كِمَالٍ وَافِرٍ بِطَيْرِ
يَقُودُهُ الْعَقْلُ فِي نَهْرٍ يَفْجُرُهُ وَخَلَفَهُ قَلْبُهُ يَمْشِي عَلَى كَدَرِ

(٢٠)

رُغْمَ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَمْنَعُهُ قَرَبٌ وَبُعْدُ
إِنْسِهِ وَالْحَقُّ : مَا أَقْبَلَ لِلْحَضَرَةِ بَعْدُ
اسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلَ عَيْنًا لِقَابِكَ
إِنَّهَا أَتَمُّ مَا تَكْسِبُهُ مَنْ قَضَلَ رَبِّكَ
أَنَا لَا أَنْكَرُ أَنَّ الْعِلْمَ لِلنَّفْسِ حُبُور
هُوَ فَردوسٌ وَلَكِنْ فَارِغٌ مَا فِيهِ حُورُ
مَا أَحَقُّ النَّاسَ بِالرَّافَةِ مِنْ عَصْرِ سَفِيهِ
لَيْسَ فِي الْعَالَمِ قَلْبٌ يَجِدُ الْغِبْطَةَ فِيهِ
إِنَّهُ صَحْوٌ بَآنٍ وَاحِدٍ هَذَا الْجَنُونَ
ذَلِكَ النَّسْوُجُ جَنُونٌ مَا لَهُ صَحْوٌ يَكُونُ
قَلْبُ الْقَلْبِ غِذَاءٌ وَعَطَاءٌ حَيَوِيٌّ
إِنَّ قَلْبًا لَيْسَ فِيهِ قَلْبٌ ، قَلْبٌ شَقِيٌّ
أَنْتَ لِلْحَضَرَةِ سَرٌّ مَا لَهَا سَرٌّ سَوَاكَ
إِنَّهَا إِنْ كُنْتَ حَيًّا حَيْثُمَا كُنْتَ هُنَاكَ
كَسَرَ اللُّؤْلُؤُ كَسْرًا كُلَّ أَصْدَافِ الْبُحُورِ
فَلَمَّاذَا أَنْتَ يَا لَوْ لَوْتِي تَأْبَى الظُّهُورِ
مُسْلِمٌ أَنْتَ وَقَدْ أَلْهَيْتُ سِنَانِي عَلَيْكَ ١٩

أولا يزعج قولي : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ (١)

(٢١)

إنَّهَا الذَّاتُ إِن تَمَعَّنْتَ بَحْرٌ وَمَحَالٌ تَكُونُ جَدُولَ أَنْسٍ رُبَّمَا تَكْسِرُ السَّمَاءَ بِفَاسٍ وَالَّذِي يَجْعَلُ الْبَحَارَ بَحَاراً لَا يَطِيقُ الْجَبَانَ لَجَّةَ ذَاتٍ وَقَوَامُ الشُّجَاعِ لَيْسَ عِلُوماً كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ الْمَنْجُمُ هَذَا أَنْتَ مِنْ طِينَةٍ يَحْكُ عَلَيْهَا إِنَّ فَرْدَوْسَنَا عَلَى الْأَرْضِ هَذِي حَبَّذا أَنْ تَكُونَ ثَاقِبَ عَيْنٍ بِجَنُونِي فَهَمْتُ عَصْرِي تَمَاماً الْبَسُ الدُّزْعُ مِنْ نَسِيجِ جَنُونِي إِنَّ شَخَّ الطَّبِيعَةِ الْيَوْمَ هَذَا لِلْيَوَاقِيتِ كَاللَّهْيَبِ أَحْمَرَاؤُ	مَالَهُ سَاحِلٌ لِحَوْضِ جِبَانٍ وَمَحَالٌ لَجْمَعِ أَهْلِ الْهَوَانِ فَبِنَاءِ السَّمَاءِ سَبْكُ زَجَاجٍ تُتَّقَى أَنَّهَا مَحَلُّ الْهَيْجِاجِ وَيَغْوِصُ الشُّجَاعُ فِيهَا وَيَطْفُو تَرِبَ الْعِلْمُ فَالشُّجَاعَةُ لَطْفُ بَطْرِيقِ مَكْبَلِ بِالنُّجُومِ سُرُّكَ الْحَيُّ زَيْفَ كُلِّ الْعُلُومِ فِيهِ جَبْرِيلُ لَا يَغِيبُ وَحُورُ حَجَرُ الْعَيْنِ فِيهِ مَاءٌ وَنُورُ وَتَحْمَلُكَ وَقْعَةٌ بَعْدَ وَقْعِهِ لَيْسَ ثَوْباً مَرْقَعاً أَلْفَ رُقْعَةٍ وَهِيَ مِنْ طَبْعِهَا السَّخَاءُ لَعَاؤُ شَكْلُ نَارٍ وَلَيْسَ فِيهَا شَرَاؤُ
---	--

(٢٢)

وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى عَرْشِ ذَاتِي صُرْتُ فِي رَتْبَةِ الْمُلُوكِ الْكُفَاءِ وَالْحَيَاةُ الْكَرِيمَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ أَيُّ مَعْنَى لَهَا وَأَيَّةُ قِيمَةٍ	جَاءَ مِنْ نَسْمَةِ الصَّبَاحِ كِتَابٌ فَإِذَا فِيهِ : مَبْصَرَ الذَّاتِ أَقْبَلُ شَرَفُ الرَّأْيِ ذَاكَ جَاءَكَ مِنْهَا وَحَيَاةٌ تَكُونُ مِنْ غَيْرِ ذَاتٍ
---	---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أَيُّهَا الْفِيلَسُوفُ دَعَكَ وَشَأَنِي
لَسْتُ مِثْلِي مَسَافِراً كَيْفَ أَشْكُو
لَيْسَ سَهْلاً إِذَا الدَّرَاوِيشُ حَجَّتْ
الْقَضَايَا دَقِيقَةً فَاسْتَلَمَهَا
لَسْتُ أَخْفِيكَ أَنْتَنِي لَمْ يَرْقُ لِي
لَا يَصِيدُ^(١) الْعَنْقَاءَ صَيَّادُ سَوْءٍ
طِرْتُ أَمْ غُضَّتْ فِي سَمَاءٍ وَبَحْرِ
لَيْسَ يَدْعُو إِلَى الرُّثَاءِ وَجُودٌ
وَسَوَاءٌ ، فَلَا تَقْلُ عَرَبِيٌّ
سَتَرِي الذِّكْرَ أَجْنَبِيّاً إِذَا لَمْ

فَأَنَا مَدْرَكَ إِلَى أَيْنٍ أَمْضِي
لَكَ دَرْبِي وَأَنْتَ فِي غَيْرِ أَرْضِي
مَنْ بَعِيدٍ إِلَى مَدَارِسِ شَعْرِي
وَاقْضِ فِي أَمْرَهَا إِذَا كُنْتَ تَدْرِي
ذَلِكَ الْعَيْشُ فِي طُقُوسِ الصَّوَامِ
مُلِئْتُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ الْمَطَامِ
أَمْ تَرَاجَعْتَ عَنْهُمَا وَجَبُنْتَ
كَالْوَجُودِ الَّذِي تَعَانِيهِ أَنْتَ
كَنْتُ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَلَيْسَ يُفِيدُ
بَكَ لِلذِّكْرِ فِي الْفُؤَادِ شَهِيدُ

(٢٣)

النَّخْلَةَ الشَّمَاءُ أَخْتُكَ كُؤُنْتُ
أَتَطَوَّفُ فِي الْحَانَاتِ تَسْقِي كَأْسَهَا
مَا فِي مَدَارِسِكَ الَّتِي تَرْتَادُهَا
سِرُّ الدِّرَاسَةِ فِي فُؤَادِكَ كَامِنٌ

مِمَّا تَبَقَّى مِنْ بَقَايَا طِينَتِكَ^(٢)
وَتَطَوَّفُ مَخْنُوقاً بِعِلْمَانِيَّتِكَ
إِلَّا بِحُوثٍ مَغْفَلٍ وَبَلِيدٍ
لَوْ كُنْتَ تُتَقَرَّنُ صَرْخَةَ التَّوْحِيدِ

(١) يرى الدكتور كفا في أن اصطلياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص ١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي الثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .

يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الذي سرق نبئك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لم تبق يا مسكين إلا فرصة
اطلب علوم القلب من أستاذها
لك في استعادة سرِّك المفقود
واجهذ لنيل مقامك المحمود

إن كان زئيك زئ سلطان
فقطاؤنا لا رأس يَحْمِلُهُ
ليس النجوم برغم لعبتها
بل موت ذاتك بعدما شقيت
أنا آسف جداً ويحزنني
ضاعت هناك بصيرتي وذوى
أو كان زئيك زئ مسكين
فيليق إلا رأس شاهين
مسؤولة عن هدم أمجادك
ما بين قنقمها وأصفادك
غضبي على ديري ومدرستي
جبي وأظلم درب معرفتي

(٢٤)

دواء البصيرة - هذا الدواء -
وما العقل إلا جدال العلوم
مصيرك أرفع من وقفة
وسر اللآلئ خلد البريق
وما هي جدوى دم في العروق
فقل للشقائق في خذرها
وما عدّه الغرب سقط المتاع
يقولون إقبال في فقره
وعالمه لهب كله
رجاؤك في كشف داء البصر
وحرب الظنون ورجم النظر
وأول معناه ذوق السفر
ولا فمعدنّها من حجز
إذا كان يطفئ نار الفكر
تجلّي فإنني نسيم السحر^(١)
بمذهبنّا رأس مال الطفر
غني على أي كنز عثر
ولا يمنح الناس إلا الشرز^(٢)

(١) المقصود قل لهذه المتعلمة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إلي فلن أعصف بك أنا لست إلا
جمالاً وعطاء أنا نسيم السحر ولست ربح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أظهرت أبهة الإسكندر
وهي تستجدي نساء اليبدر
ومن الله تعالى تياس
غير هذا أيها المتكسر
وهي بالسلطة لو شاءت تطيح
أي مفهوم عن الشعب الجريح
وشؤون القلب عنها تضد
نظرة فارغة لا تسحر
باعتزال القصر محكوم علي
ومصير الكل معلوم لدي
مالة من طمع في السلطة
أنا حرر سلطانتي في خلطني
أزضت الناس جميعاً كلمي
خطرات في قلوب الأمم

أعين الدرويش لم تعبأ بما
هذه التيجان ما قيمتها
كيف لا تياس ترجو صنماً
أنت هل تعرف كفر آخر
أنا لا أفهم ما قصد السماء
تهب السلطة من لا يملكون
وحدهما النظرة ما أطلبه
نظرة خالية من جذوة
وأنا من أجل هذا كله
أنا لا أجهل ما تقصده
مع هذا لا أرى من زاهد
أنا لا أقتل ذاتي هكذا
وحياتي عندما شردها
قيمة الأسمار هذي أنها

= للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسياتي قوله :

وأنا رغيتي بحرق الدقائق
عملي الفرد والوحيد احترافي
حطب الموقد الغليظ ممل
أنا لا أمنح الحصاد لحقل

لست لهذي الأرضي والسَّماءِ
ولست موضوعهما وإنّما
تطلّع العقل ووجد القلب
والعُشبُ موجودٌ لِحرقاهُ
والرّوضُ هذا بقعةٌ تصطفقُ
أعشابهُ ليست لصنعِ عِشٍّ
حتّى متى مركبُ هذي الدّاتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحرأ مالهِ
فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ
رغائبهم بالرّغم من نشاطها
الحاظُ موهوبٍ وعينِ ثاقبه
كلُّ الذي يملكه من عُدّةٍ
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيه
بحسبُ طولِ العُمرِ في بستانهِ
تَرُقِدُ في حَنجرتي أغنيةٌ
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةٌ

وإنّما السَّماءُ والأرضُ لك
هذان جانبانِ من موضوعك
شرارتان من لهيبِ الحبِّ
في ذلك السَّهلِ الخصبِ الرّخبِ
بصرخةٌ وزفرةٌ تنطلقُ
كلُّ الجمالِ عندما تحترقُ
يمخُرُ في النّيلِ وفي الفُراتِ
من ساحلٍ في هذه الحياةِ
بأن يدلّها المدارُ الحائرُ
يَنقُصُها اليومَ دليلٌ ماهرُ
وسحرُ الفاظٍ وروحٌ لاهبه
قائدُ هذي القافلاتِ الدّاهيةِ
ويا لكأيسه ويا لفضّتي
فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتِي
لو قُلْتُها لحيّرت جبريلاً
هناك سوف أنقُ الغليلاً

لست دمعاً على منازلِ رسيمهِ
بين صَلَصالهِ وهيكلي جسيمهِ
فلماذا ملأتُ بالخوفِ عَشْكَ
عندما تحرقُ الصواعقُ قَشْكَ
ملأتُ عالَمَ القَلَنْدِرِ طيباً

لست يا أنتَ في الفضاءِ سجيناً
يَشْهَدُ الحرُّ أن سرَّ التَّجَلّيِ
لا يخاف البستانُ شَهَرَ خريفٍ
يرقص العِشُّ في السَّماءِ لهيباً
الحياةُ الحياةُ لفظةٌ سرٌّ

إِنَّهَا السَّهْمُ مِنْذُ كَانَتْ رَمَتْهُ وَمِنَ الْقُوسِ لَا يَزَالُ قَرِيبَا
 لَا تَعِيْقُ النَّجُومُ سَرَّكَ هَذَا فَسَمَاءُ النَّجُومِ غَيْرُ سَمَائِكَ
 أَخْطُ فِي الْمَوْقِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ لَتَرَى زُرْقَةَ السَّمَاءِ بِمَائِكَ
 لَا تَقُلْ لِلدَّلِيلِ دَعْنِي لَوْحَدِي إِنَّ أَمْرًا كَمَثَلِ هَذَا بِيَدَيْهِ
 لَا يَطِيقُ الْكَرِيمُ ذَلِكَ سَوَالٍ فَاجْتَهِدْ وَخُذْكَ اجْتَهِادَ فُقَيْهِ

(٢٨)

تَأْتُلُ فِيلَسُوفٍ كُلُّ مَا أَعْطَانِي الْفِكْرُ وَلَوْلَا الْحَبُّ مَا أَدْرَكْتُ مَا يَضْمُنُ الشَّكْرُ
 وَنَظَرْتُهُ هِيَ الشَّرُّ الْمُشْعُ بِمَحْفَلِ الْقَلْبِ بِبَلَا دَنْ وَلَا خَمَرٍ تَدُورُ كَوُوسُهَا جَنَبِي
 تَنْظُرُ تَنَافُرَ الْكَلِمَاتِ مِنْ شِعْرِي وَمِنْ أَدْبِي فَحَانَتَا عَلَى عِلْمٍ بِمَا مَرَّقَتْ مِنْ حُجْبِي
 إِلَيْكَ الْبَرَعَمَ الظَّامِي لِمَقْدَمِ نَسْمَةِ الضَّبْحِ تَأْمُلُهُ تَجِدُ فِيهِ حِكَايَةَ ذَلِكَ الْجُرْحِ
 غِيَابٌ أَمْ حُضُورٌ لَسْتُ أَدْرِي مَا أَكَابَدُهُ فَهَلْ مِنْ بَيْنِهِمْ أَحَدٌ يَشَاهِدُ مَا أَشَاهِدُهُ
 هُنَا يَا أَنْتَ كُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا هُنَا إِلَّا أَنَا فِيهِمْ غَرِيبٌ يُنْكِرُ الْأَرْضَا
 وَكُنْتُ بِقَصْرِ أَوْرِيَّةَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ أَبْقَى شَرِيطَةً تَحْتُلُ الصَّحْرَاءَ حِينَ أَجْنُ مَا تَلْقَى
 مَضَى إِقْبَالَ هَوْنًا فِي دُرُوبِ الْفِكْرِ وَاجْتَازَا وَلَمَّا جَاءَ دَرْبَ الْحَبِّ مَالَ الْقَلْبِ وَانْحَازَا

وأخيراً انتبهتُ ولَبَّثْتُ صَـرْخَتِي هـذِي السَّمَاءَ
وسمعتُ ما قالوا : أخيراً سوف يَنكشِفُ الغِطاء
للعاشقين حكايةً وتكاد تَنفِقُ الحكاية
نارَ وحزنَ وانفجارَ في البداية والنهاية
فانظرْ إلى قَدَرِ الشُّعوبِ وكيف يبدأ بالسُّيوفِ
فإذا انتهى فالإلى المزامير الشَّجِيَّةِ والدُّفوفِ
حاناتٍ أوربَّة كـذلك والغريبُ طقوسها
الشُّكْرُ يبدأ أولاً وتدورُ بعدُ كـؤوسها
سَيِّانِ تيمورلنك في سُلْطَانِهِ سُلْطَانِ نـادِز
الكلُّ تسقطُ أخيراً سَكْرَةُ الزَّمَنِ المُبَادِزِ
ولَّى زمانُ الوَخْدَةِ المطروح في دُزْبِ الفناءِ
خرجتُ أخيراً من صدور الغَيْمِ عاصفةُ البقاءِ
لم يتحمل موجةَ الشَّطْحَاتِ هـذِي أيُّ ساحل
هتكتُ يا مجنونُ أسرارَ الكتابِ بغيرِ طائل

يرحلُ كلُّ كائنٍ ويذهبُ	حوثٌ وطيرٌ ، لجةٌ وكوكبُ
وأنتَ أنتَ فارسُ الميدانِ	وقائدُ الجيوشِ في الزَّمانِ
يا سيِّدَ الجبالِ والصَّحراءِ	جنْدُكَ في الأرضِ وفي السَّمَاءِ
أهكذا قيمتُك الدَّائِيَّةُ	هدرتُها وروحك الفتيَّةُ
فيا لها بصيرةً في كدرِ	وياله من قِصْرِ في البصرِ
لا تعبدِ الأرضَ فإنَّها لكَا	كن راهباً إن شئتَ أو كُنْ ملكاً
لا شكَّ فيما قُلْتَهُ ولا جَرَمَ	فقد رأيتُ اليوم سيِّدَ الحَرَمِ
قولُ بلا فِكْرٍ ولا إشارة	وعملُ تَنقُصِهِ الحراره

كل شيء إلى التَّجَسُّدِ يسعى
وحياةً بغير ذوقٍ ظهـورِ
قُوَّةُ الذَّاتِ قُوَّةُ الذَّاتِ سرٌّ
خَوَرُ الذَّاتِ يجعل السَّيفَ عبثاً
شَرَّدَتْ نَفْسَهَا النُّجُومَ ولكنْ
لفراقٍ يؤولُ كلُّ وجودٍ
يظهر البَدْرُ آخر الليل فرداً
كلُّ نورٍ أَخَذَتْهُ مِنْ غَرِيبٍ
قلْبِكَ الشَّمْسُ فاقِيسِ النُّورَ منه
كلُّ شيءٍ سواكَ - أنت - سرابٌ
شوكٌ صحرائنا يحلُّ بلطفٍ
فامضِ في الشُّوكِ حافياً وتفرِّحْ
لغزِّ هذِي التَّدَاخِلَاتِ وإنْ لم
شوكٌ صحرائنا يغورُ برفقٍ

(٣٢)

رغبةً في التَّمَوُّ يهلك نفسه
يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهُ
يَهَبُ النَّصْرَ في الحياة لأعزَلِ
ويرى في الجبالِ حَبَّةَ خردلٍ
ليس يعني ضلالةً واختلاطاً
ليس عن صُدْفَةٍ وليس اعتباطاً
أصفرَ الوجه في السَّمَاءِ وحيداً
سوف تخبو به رويداً رويداً
كلُّ ما ترتجيه نفسك عندك
شَهِدَ اللهُ أَنَّكَ الْحَقُّ وَخَدَكَ
عَقَدَ السَّالِكِينَ مِنْ حَيْثُ يُدْمِي
لستَ تنجو بلا جنونٍ وحزمٍ
يستطع أن يفكَّه العِلْمُ كُلُّهُ
وبأسلوبه اللَّطِيفِ يحلُّهُ

ما لِمُلْكِكَ الْغَرْبُ خُلِدَ
كَلِمَا شَيْءٌ صَرَحاً
عندما أنهيتُ عَشِيَّ
صرخاتُ العُشْرِ بِرَقْ
أنتَ عَبْدُ اللهِ فَالزَّمْ
ما عدا عَزَّ الْعبودِيَّةَ اللهُ تَسْوُلُ
سَيِّدُ الْأَحْرَارِ عَبْدُ
فاحفظِ الذَّاتِ وَصْنَهَا
كَيْفَ (إِنْ لَمْ تَذَمَّ) لَمْ تَذَمَّ
بَلَّغَ الْعَضْرُ أَشَدَّ
ضَحِكَ الشَّرْقِ وَهَدَّ
قِيلَ هَبْ لِلْعُشْرِ ذَاتَا
تَمَلَّأَ الْعُشْرِ حَيَاةً
ليس للحُرِّ تحوُّلُ
حرم اللهُ بِذَاتِهِ
لأنَّهَا مِنْ عَتَبَاتِهِ
أساطيرُ مسطَّرُ

أَبْنِ ذَاكَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالطَّبْعُ الْمُسَيِّطُ
 كَمْ قُلُوبٍ فِي صَدُورٍ ذُعِرَتْ مِنْ نَظَرَتِكَ
 دَرَسَ الْعِلْمَ اللَّذُنِّي وَذَوِي فِي فَطَرَتِكَ
 رُبَّمَا أَشْرَفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى السِّرِّ الْقَدِيمِ
 حَدَّثَ السُّرَّ حَدِيثاً كَحَمِيمِ لَحْمِيهِمْ

(٣٣)

لِمَ تَسْأَلُونَ الْقَوْمَ مَا هُوَ مَصْدَرِي ؟
 مَا زِلْتُ مِنْذُ وَجِدْتُ أَشْرُقُ سَائِلًا
 الْحُرُّ يَسْمُو فِي الْحَيَاةِ بِذَاتِهِ
 يَا أَنْتَ حَتَّى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
 أَسْرَارُ رُوحِكَ جَدُّ سِيمَائِيَةِ
 بِلَهِيْبِ أَنْفَاسِي الَّتِي أَطْلَقْتُهَا
 سِرِّي تَرْجَمُهُ سِلَاطَةُ أَعْيُنِي
 لَوْ أَنَّ (نَيْتَشَهُ) جَاءَنِي بِحِمَاسِهِ
 صَرَخَاتُ وَجْدِي فِي الصَّبَاحِ تَلَطَّخَتْ
 رَبَّاهُ ! أَيُّ جَرِيْمَةٍ قَارَفْتُهَا

(٣٤)

تَدْخُلُ الْحَبَّ بِأَطْوَارِ السُّلُوكِ
 مَا كَانَ لِلرَّازِي وَلِلْغَزَالِي
 لَوْ لَمْ يَمَانُوا رَغْبَةَ الصَّبَاحِ
 فَيَا رَيْسَ الرُّثُلِ كُنْ حَلِيمًا
 تَنْقُصُنَا شَجَاعَةَ الرَّسُولِ
 إِيَّاكَ يَا قُبْرَتِي مِنَ التَّلَفِ
 يُعْرِقُ قُلُوبَ الْجَنَاحِ أَنْ يَطِيرَ
 يَكْشِفُ لِلْعَبِيدِ أَسْرَارَ الْمُلُوكِ
 وَالرُّومِي وَالْعَطَّارِ مِنْ نَوَالِ
 وَصَرَخَةِ الْحَيْرَةِ فِي الصَّبَاحِ
 لَا يَقْتُلُ الْيَأْسُ فَتَى حَكِيمًا
 لَا تَنْقُصُ الرَّغْبَةُ فِي الْوَصُولِ
 فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذَا الْعَلَفِ
 وَرَبِّمَا يَتَسَرَّكُهُ كَيْبَرًا

أَعَزُّ مِنْ أَهْمَةِ الإسْكَندَرِ
دَروْشَةٌ تَنْمُ عَنْ قَلْبِ مَلِيٍّ
شَرِيعَةُ الشَّجْعَانِ هَؤُلَاءِ
وَمَا لَهُؤُلَاءِ قَطُّ غَالِبُ

وَمَلِكُ (دَارَا) نَظْرَةُ الْقَلَنْدَرِ
فِيهِ عَيْسُرُ أَسَدٍ عَلِيٍّ
الْجَهْرُ بِالْحَقِّ بِلَا رِيَاءٍ
هَٰذَا أَسْوَدُ اللَّهِ لَا تُعَالِبُ

(٣٥)

جَاءَ مِنْ عِنْدِهِمْ كِتَابٌ جَدِيدٌ
فَإِذَا فِيهِ : يَا مَسَافِرُ أَمْسِكْ
رَبِّمَا كُنْتَ ذَاهِباً مِنْ جَدِيدِ
عُصْ طَوِيلاً فَأَنْتَ أَيْضاً عَمِيقُ
أَنَا (سَيْفٌ خَرَجْتُ) مِنْ غَيْرِ غَمْدٍ
يَجْرُحُ النَّاسَ مِنْظَرِي مِنْ بَعِيدِ
أَيُّ مُنْتَهَتِي بِكُلِّ مَلَامٍ
(هَذِهِ الْأَغْيَاءُ تَسْجُدُ لَهَا
أَمُضِرْ يَا شَاهِدَ الشَّقَاءِ بِصَمْتِ
بَعْدَمَا الْحَفْلَةُ انْتَهَتْ وَتَوَلَّوْا
وَهَبِ الْمُسْلِمِينَ إِقْبَالَ نَاراً
مَا عَلَى الْكَأْسِ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْمٌ
ذَاكَ إِقْبَالَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ
وَأَخِيراً وَبَعْدَ لَاي طَوِيلِ

صَرَخَةُ اللَّيْلِ أَوْصَلَتْهُ إِلَيَّا
وَتَفَكَّرَ بِمَا قَطَعْتَ مَلِيّاً
فِي طَرِيقِ كَمْثَلِ تِلْكَ عَسِيرِهِ
وَأَفْهَمَ الْقَضْدَ فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ
ضَاعَ فِي غَمْرَةِ الْمَعَارِكِ غَمْدِي
وَيَخُوضُونَ فِي مَرَامِي وَقَضْدِي
خَطٌّ فَوْقَ الْمِخْرَابِ تِلْكَ الْحُرُوفَا
يَقْتَضِي الْأَمْرُ أَنْ يَكُونُوا وَقُوفَا
إِنْ تَكُنْ مَوْضُوعِي لَمْزَقَتْ نَفْسَكَ
جَاءَ دَوْرِي وَقِيلَ : كَأْسَكَ كَأْسَكَ
فَإِذَا النَّارُ ذَاتُهَا فِي ذُبُولِ !!
خَامِلٌ طَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْخُمُولِ
وَهُوَ مُسْتَعْصِمٌ بِحَصْنِ رُوحٍ
وَقَعَ الْبَازُ فِي حَبَائِلِ فَحْيٍ

(٣٦)

أَنَا لَوْلَا مَوْجَةُ الرَّغْبَةِ لَمْ تَوْجَدْ حَيَاتِي
فَحَيَاتِي مَوْجَةُ الرَّغْبَةِ فِي أَعْمَاقِ ذَاتِي

كُلُّ حِينٍ عَالِمِي يَفْطَرُنِي أَطْلُقُ وَجُدِي
 عَلَّ إِنْسَاناً جَدِيداً يَحْمِلُ اللَّوْعَةَ بَعْدِي
 مُمْكِنٌ لِلنَّارِ أَنْ تَحْرِقَهُ عَشْكَ هَذَا
 تَسْأَلُ السَّاقِي إِذَا لَمْ تَكُ ظِمْآنَا لِمَاذَا
 لَا تَقُلْ فِي الْغَرْبِ رَأْيَا بِيَرِي نُو يَتَعَلَّقُ
 مَاسُهُ مِنْ كَهْرِبَاءٍ جَعَلْتَهُ يَتَأَلَّقُ
 لَا تَتَسَوَّقُ النَّفْسُ أَنْ تَخْجُسَ آفَسَاقَ الْفَضَاءِ
 حَيْسَنَ لَا تَتَصَفَّ الْأَبْصَارُ حَقّاً بِالْمَضَاءِ
 أَنَا لَوْلَمْ تَسْقُطِ الْأَوْرَاقُ عَنْ عَشْيِ اللَّطِيفِ
 عَجَزَ الصَّيَادُ عَنْ صَيْدِي وَلَوْ وَقَتَ الْخَرِيفِ
 عَنْ قَرِيبٍ تَقْلِبُ النِّيَّاتُ أَقْدَارَ الْخِلَائِقِ
 لَيْسَ أَوْهَامُ غَيْبِي إِنَّهَا جَدُّ حَقَائِقِ

(٣٧)

الْعَقْلُ هَذَا لَيْسَ يَقْهَرُ وَسْءُهُ وَسْعَ الطَّيْفِ
 وَجْهًا لَوَجْهِ ضَعْفُهُمَا وَانْظُرْ لِقَوَّتِهَا الْمَطِيعَةَ
 الْحَقُّ : أَنَّكَ قَدْ أَضَعْتَ الذَّاتَ فَاطْلُبْ مَا أَضَعْنَا
 وَعَلَى الْعَطُورِ وَعَالِمِ الْأَلْوَانِ سَيَطُرُ مَا اسْتَطَعْنَا
 وَانْظُرْ مَقَامَ الْقَبَةِ الزَّرْقَاءِ لَيْسَ لَهُ حُدُودُ
 وَاخْتَرْ مَقَاماً مِثْلَهُ يَسْمُو بِذَاتِكَ فِي الْوُجُودِ
 أَشْجَارُ حَوْرِكَ عَارِيَاتٍ حَوْلَ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 أَوْقِفْ تَمَرُّقَ وَرْدِكَ الطَّامِسِي وَتَحْطِمْ الشَّقِيقِ
 لَمْ يَسْتَطِعْ ذَوْقُ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَوْكُدَ وَسْءَهُ
 اضْنَعْ بِذَوْقِكَ أَنْتَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ هِيَ صُنْعَهُ

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرُّثاءِ
 حصاؤُ جهودِهِم ظلماتُ شكِّ
 بنفسكِ ثِقْ تجذُ (نغفور) عبداً
 أنا حزني على هجري تبدى
 بسكرةِ قربه ، بضراخٍ وجيدٍ
 ومن يكُ شأنه حباً وسكراً
 جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ
 وذنُبُ الرّاجعين بلا نصيبٍ
 أما كانت بنو تيمور تركا
 أولئك في ترابِ السند ضاعوا
 بمِ النُّشاكِ في الحرَمِ استبدّت
 ولم تقوَ الملوكُ عليه يوماً
 فما هو سرُّه ؟ الشّاهين هذا
 يطيرُ على القصور فيزدرِها

العلمُ أطلقَ الحياةَ الراقدة
 من كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ
 ذو العقلِ مثلُ نصلٍ سيفٍ عقلُهُ
 والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدٌ
 حُجَّاجُهُ تَظَلُّ في تلَهُّفٍ

(١) ابن السّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللاخير تتسبُّ الكؤوس
 النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإن هُم
ليس يسيراً هاهنا انتقالك
وأنت لو ألقىت ذلك الثقل
يا أنت ! ثروة الحكيم طراً
والآخرون جهدهم مُتَّهَبُ
أرواحهم تَرْزُخُ في المصائبِ

(٤٠)

حياةٌ تُمزَّقُ صَدْرَ الفضاءِ
مغامرةٌ خلفَ أخرى تخوض
كذلك حُبُّكَ لا ينتهي
هناك تجارب أخرى له
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتسب
ولولا بساتين أخرى هناك
فَطِرْ ليس لِلْبَازِ أن يستريح
ففي دَرْبِنَا أَلْفُ قَلْبٍ جَرِيخٍ
سمواتنا تلك لا تنتهي
فإياك أغلالهم إنها
أنا قد تخلَّيتُ عن حُمَقِهِمْ
وأصِحتُ لي أصدقاء هناك

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أن بقاء الرِّفاه أن يستمرَّ بهذا النهج

فكم يفعل الطَّيِّشُ في عقله	وَيُنْقِصُ رَغْبَتَهُ مِنْ نُضْجِ
لَقَدْ بَلَغْتَ صَرَخَتِي أَوْجَهَا	كَذَلِكَ أَغْلَنَ شَيْخُ الْحَرَمِ
وَحَذَّرَنِي الْيَوْمَ مِنْ كَثَمِهَا	لِتَسْمَعَ ذَلِكَ كُلُّ الْأَمَمِ
أَنَا لَمْ أَقُلْ ﴿أَرْنِي﴾ مَرَّةً	كَمُوسَى لَأَعْرِفَ أَسْرَارَهُ
فَمُوسَى جَدِيرٌ بِالْحَاجَةِ	وَمِثْلِي جَدِيرٌ بِمَا اخْتَارَهُ
وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ	تُهْتَكُ أَسْرَارُهَا فِي الْبِلَادِ
فَإِنَّ الطَّرَائِقَ هَذِي الْجَرِيثَةَ يَضْعُبُ إِطْلَاقُهَا لِلْعِبَادِ	عِيُونٌَ ضَعِافٌ وَقُلُوبٌ هُلُوعٌ
تَضْرُغُ حَاشِيَةَ السَّالِكِينَ	فَأَيْنَ الْحِمَاسَةُ أَيْنَ النَّصَارَةُ
فَأَيْنَ الْحِمَاسَةُ أَيْنَ النَّصَارَةُ	أَيْنَ السَّكِينَةُ أَيْنَ الدُّمُوعُ
أَنَا لَمْ أَزَلْ عَطِشًا مَا ارْتَوَيْتُ	كَمِثْلِكَ عَطِشَانٌ لَمْ تَرْتَوِ
هُوَ الْحَبُّ أَسْمَى صَعُودٍ لَنَا	وَلَكُنَّا فِيهِ لَمْ نَنْضَوِ
نَهَضْنَا بِأَسْلُوبِ دُرُوشِنَا	فَكَانَتْ لَنَا أَرْضُ رُومٍ وَشَامِ
وَلَمَّا زَهَدْنَا بِأَسْلُوبِهِ	ذَهَبْنَا دَوَالِيكَ خَلْفَ الْأَنَامِ

(٤٢)

ذَاتَكَ فَالذَّاتُ الَّتِي تَذَعُمُهَا	مَعْرِفَةٌ يَغْبِطُهَا جَبْرِيلُ
وَإِنْ أَضَافَ الْحَبُّ عَوْنًا أَطْلَقْتَ	فِي النَّاسِ مَا يُطْلِقُ إِسْرَافِيلُ
أَنَا خَلِيلُ هَذِهِ الْأَصْنَامِ	وَعُدَّتِي مَعْرِفَةُ الْأَيَّامِ
فِي النَّارِ الْقَوْنِي كِإِبْرَاهِيمَ	فَكُنْتُ فِي النَّيْرَانِ فِي نَعِيمِ

قَافِلَةُ الْقَوْمِ بِوَضْعِ يَوْسُفَ	حَائِرَةٌ يَسْحَرُهَا التَّوَقُّفُ
وَرُغْمَ هَذَا غِبْطَةِ السِّيَاحِ	تَجَاوَزْتَ غِبْطَةَ تِلْكَ الرَّاحِ
أَنَا عَلَى شِعْرِي شَدِيدُ الْغَيْرَةِ	فَقُمْ إِذَا كُنْتَ بِلَا بَصِيرَةِ
أَنَا مَجَالِي الذَّاتُ فِي مِشَاعِرِي	نَبِيلَةٌ كَحَدِّ سَيْفٍ بَاتِرِ

تذكرت رحي دروس الغرب أيام حوره سكرن جنبي
فآه يا لفرحة الحضور وآه من منطقه المغرور

هذا الزمان ليله شديد وأنت عن قافلتني بعيد
لهيب زفرتي هو المصباح لك يبدد الليل ويقشع الحلك

حكاية ليس لها نظير بسيطة لكنها تثير
ثبات إسماعيل مبتداهما ومقتل الحسين منهاها

(٤٣)

غصن العقيدة في المدارس عار وبالزعم من طول الطريق وعشره
أسفاً لدين ليس يكسب دولة من أين للاثين كره حيدر
لا تبلغ العلماء باطن مؤمن أسرارهم فيما وراء حدودهم
وعجوز حانتنا يقول مؤكداً هذي المرايا من جليد ما لها
ومذاق أديرة بلا أسرار عيناك ظاعنة وقلبك سار
ولدولة وقفت كخيبر وجهه يلقي سخافتها ويضلع فقهاء
ومذاق رغبته ولطف تأمله وجماله فيما وراء تجمله
عن صرح أوربة المضيء المعتم وسع لتعكس نور قلب المسلم

(٤٤)

الحادث المحجوب قبل ظهوره للناس تغلنه نقاوة مهجتي
لا حظ للأفلاك من دورانها فالسر مظهره جسارة صرختي
أترى بلا روح شرارة أنتي أم أن عشبك ما يزال ندياً

تُذَكِّي لَهْيِكَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا
حَتَّى يُحَرَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا
فُضِّحَتْ شَيْوُخُ الشُّكْرِ فِي نَادِيهَا

صرخاتُ هذا القلبِ في صلْصالِهِ
لن يَخْمُدَ اللَّهْبُ الَّذِي فِي طَيْتِي
بِالرُّغْمِ مِنْ قَدَرٍ قَدْ اِزْتَبَكَّتْ بِهِ

(٤٥)

فِي حَوَاشِي الصُّوفِيِّ إِلَّا غُبَارَا
كَبَّدَتْهُ هَزِيمَةً وَسَنَارَا
وَارْتَضَى هَذِهِ الْحَيَاةَ السَّقِيمَةَ
وَقُصَّارَاهُ أَنْ يَكُونَ غَنِيمَةً
يَصِلُ اللَّيْلَ حَوْلَهَا بِالنَّهَارِ
أَوْلِيَاءَ يَقُولُهَا لِلصُّغَارِ
فِي الزَّوَايَا وَفِي تَكَايَا السُّلُوكِ
كَيْفَ دَبَّتْ إِلَى قُصُورِ الْمُلُوكِ
أَيُّ يَوْمٍ مَضَى عَلَيْكَ كَيُومِي
يُطْفَحُ النَّجَاحُ فِي مَنَازِلِ قُومِي
وَالَّذِي عِنْدَ كُلِّ مُلَأٍ وَصُوفِي
وَوَقُوفاً يَكُونُ مِثْلَ وَقُوفِي
عَرِيباً أَمْ لَا ، مَعَانِيهِ يَبْضُ
وَعَنِ الْعَالَمِ الْأَخِيرِ يَفِضُ
نَظَرَةُ السَّاقِي فِي الْفُؤَادِ كَنْضُلِ
فَسَلُّوهُ فِدْيَتَهُ لِمَ قَتَلْتَنِي ؟
يَضْبُغُ الرُّوْحُ مِنْهُ لَوْناً فَلَوْنَا
وَدَوَاءَ يَكُونُ لِلدَّاءِ عَوْنَا

مَا وَجَدْنَا وَقَدْ بَحَثْنَا كَثِيرَا
يَدَّعِي أَنَّهُ يَخُوضُ حُرُوبَا
كَيْفَ زَالَتْ حَرَارَةُ الْحَبِّ عَنْهُ
حَرْبُهُ لَمْ تَكُنْ لِيَنْقَمَ شَيْئاً
كُتِبَ الْقَوْمُ عِنْدَهُ فَوْقَ بَعْضِ
مَا تَبَقَّى لَدَيْهِ إِلَّا حَكَايَا
مَا تَعَجَّبْتُ أَنْ يَشِيَعَ خَرَابُ
عَجَبِي مِنْ نَهَائِهِ مِثْلَ هَذِي
اِمْضِ يَا شَاهِدَ الشَّقَاءِ بِصِمْتِ
مِثْلَ سَجَادَةِ الصَّلَاةِ نِفَاقَا
الْكِتَابِ الَّذِي يَمُوجُ بِيَاضَا
يَمَلَأُ الْحَشَرَ حَيْرَةً وَارْتِبَاكَا
وَسِوَاءَ كَانَ ابْنُ آدَمَ هَذَا
وَعَنِ الْعَالَمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ
ذَهَبَتْ سَكْرَةُ الْمَسَاءِ وَلَكِنْ
وَلَهَا فِيهِ طَعْنَةٌ بَعْدَ أُخْرَى
لَا يَذُمُّ الْبَسْتَانَ مُرَّ غَنَائِي
رُبَّ سُمٍّ يَكُونُ تَرِياقَ دَاءِ

أَقْصَى مَوَاهِبِ أَوْرَبَةِ النَشِيطَةِ أَنْ
 كَمْ وَرْدَةٍ قَصَفْتُ فِي رَوْضِنَا يَدُهَا
 حَرَارَةُ الْحَبِّ مِنْ خَمْرِ الْيَقِينِ وَمَا
 هَسِبِ الْمَدَارِسُ يَا رَبِّاهُ حُرْقَتَهَا
 مَتَى سَمَوَاتُنَا تَنْشَقُّ وَزَدْتُهَا
 هَذِي السَّمَاءُ الَّتِي أَغْرَثَ كَوَاكِبُنَا
 سَمَاءُ شَيْطَانٍ مَا فِيهَا مَلَائِكَةٌ
 الْعَقْلُ حَبَّتْنَا طَرّاً فَمَا أَحَدٌ
 هَذَا الْجَنُونَ - وَمَنْ يَدْرِي حَقِيقَتَهُ -
 الْعَقْلُ عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ مِنْهُجُهُ
 وَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ هَذَا الْكَوْنُ أَجْمَعُهُ

لَيْسَ سَهْلاً فَقَبِلَ بِدَيْكَ فَارْجِعْ
 مَوْضِعُ الثُّرَّةِ الْفَرِيدَةِ صَعْبٌ
 مَا لَسَنْجَارَ أَوْ لَ (طَغْرَل) حَظٌّ
 حَيْرَةُ الْفِكْرِ أَمْ حِمَاسَةٌ رُومِي ؟
 هِيَ أَسْلُوبُ ثَعْلَبٍ فِي ظَلَامٍ
 حِيلَةُ الْإِنْكَلِيزِ تَظْهَرُهَا أَمْ
 أَهْيَ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ قَامَتْ
 أَمْ هِيَ الْوَجْدُ فِي فَوَادٍ مُلَبِّ

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كُنْ غَنِيًّا وَكُنْ إِذَا شِئْتَ عَبْدًا أَوْ أَمِيرًا مَا بَيْنَ (سَمْعًا وَطَاعَةً)
كُلُّ هَذِي الْأَلْقَابِ الْقَابُ وَهَمَّ لَا يَكُونُ الْوَصُولُ دُونَ شَجَاعَةٍ

(٤٨)

لَيْسَ لِلْجُنْدِ غَيْرُ شَكْلِ سَيُوفٍ لَيْسَ لِلتَّاجِ غَيْرُ لَمْعَةٍ جَوْهَرٍ
فِي عُرُوشٍ وَفِي جِيُوشٍ بَحْثًا مَا عَشَرْنَا عَلَى فُؤَادِ الْقَلَنْدَرِ
لَمْ تَحْصُلْ مِنْ (لَا إِلَهَ) ضِيَاءَ هَذِهِ الذَّاتُ لِلطَّرِيقِ الطَّوِيلِ
أَصْبَحْتَ مَعْبَدًا لِأَصْنَامٍ وَهَمَّ عِنْدَمَا ضِيَعَتْ حَوَارِ الْخَلِيلِ
يَصْنَعُ الْحَرْ كَوْنَهُ بِجَهَادٍ وَيَرَى فِي تَدَخُّلِ النَّاسِ عَارًا
لَسْتَ أَجْزَرَةً لِقَصْرِ غَرِيبٍ لَسْتَ فِي وَقْعَةِ الْحَيَاةِ غُبَارًا
كُلُّ مَا فِي سَمَائِنَا مِنْ مَدَارٍ لَا يَسَاوِي مَدَارَ هَذِي الْقُلُوبِ
وَمَصِيرُ الْقُلُوبِ أَبَعْدُ شَاوَأَ مِنْ غِبَارٍ مُشَرَّدٍ فِي الدُّرُوبِ
قَالَ أَهْلُ الْبَحَارِ أَهْلُ الْبَرَارِي : لَيْسَ لِلْغَرْبِ غَيْرُ رَاحَةٍ يَأْسِهِ
وَاقِفْ فِي طَرِيقِ سَبِيلِ عَنِيدٍ لَيْسَ يَقْوَى عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهِ
قِفْ قَلِيلًا فَأَنْتَ أَيْضًا قَدِيرٌ وَلَكَ الْحَقُّ فِي اخْتِيَارِ الْحَيَاةِ
كُلُّ فَجَرٍ يَطْلُ تَبْدُعُ كَوْنًا صَرخَةُ الْوَجْدِ فِي عَوَالِمِ ذَاتِي
أَنَا فِي حَانَتِي قَنَعْتُ بِدُنْيِي لَسْتُ مَمْنٌ يَطُوفُ حَوْلَ الْكُنَائِسِ
أَبْدًا لَا تَقْدُمُ الْخَمْرُ هَذِي نَفْسَهَا فِي رَحَابِ تِلْكَ الْمَدَارِسِ

(٤٩)

لَمْ تَهَبْ لِي الطَّبِيعَةَ الْيَوْمَ فِكْرًا ثَابِتًا ، غَيْرَ أَنَّي لَا أَبَالِي
عُدَّتِي طَيْتِي النَّيِّ وَهَبْتِي طَيْرَانِي الْمُخِفْتُ عَبْرَ اللَّيَالِي
طِينَةً بِالْجَنُودِ تَصْفُلُ جِسْمِي طِينَةً تَجْعَلُ الْغَبِيَّ نَبِيهَا
رَبِّمَا مَرَّقْتُ لَجَبْرِيلَ سَرًّا وَرَأَى قَوْلُهُ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾
طَيْتَسِي لَا يَهْمُهَا صُنْعَ عَشٍّ مِنْ دَقَاقِ الْأَغْصَانِ فِي الْبُسْتَانِ

وجيئَ النجوم يَرْشَحُ عاراً لبريقِ الدُموعِ في أجفاني

(٥٠)

يَقْصِدُ الْمُبْدِعُ الْغَيُورُ بِلاداً لا إلى الكوفة التي ما استطاعت
نظراتي التي تموجُ فتوناً مَنَحْنِي فِي حَانَةِ الْغَرْبِ صَحْوَاً
لست أحتاج فيلسوفاً ومُلاً كيف لَلاهوتِي أُبدي ازدرائي
الدَّرَاوِيشُ يَطْرِبُونَ لِهَذَا لستُ أَغْنِي بِمِثْلِ هَذَا فِدْعَنِي
ممكنٌ يُشْتَرَى غِنًى (أبرويز) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرَى^(٢)

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانية أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجُرِّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند النبأ .

وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحة سليمة مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحجوب معاً . وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .

قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر =

أنه لا يخاف للسر نشرًا
تلك أسرارنا وليس وساوس
هبة الفكر من رقاد المدارس
غير مجد في ملتي واعتقادي
برهمي مشعوذ في البلاد

والذي يجعل القلندر حراً
لست عن متعة أمزق ثوبي
طمعي الفرد والمطامع كثر
رأي غاندي إن كنت غير قوي
ليس إلا عصا الكليم لسحر

(٥١)

عابت أمام الله جرأة صرخته
ويجمل الدنيا بلؤلؤ نظرتة
لا الشام موطنه ولا قاشان
ملك وفي رغبانه إنسان
ويعيقه بستانه المتناهي
لطريق آدم في رحاب الله

إقبال تحزنه الملائكة التي
وقح يهتك للطبيعة سرّة
لا ينتمي للأرض وهو سليلها
تعمد الأوصاف في قدراته
قلق رباح الخد تملأ صدره
في ظل مذهبه الملائكة اهدت

(٥٢)

أرني مظهراً لتلك المغازي
فاز رومي بها وأخفق رازي
أي ملكية بلا شعوذات
إن تمكنت في صدور الفئات
ودواء الضعيف ذوق العبادة
فصلاتي كما صلاتك عادة
فوق سجادة بغير حراك
تعلن النصر قبل بدء العراك !!

لعبه النرد لم تكن دون نرد
خمرة القوم لا تنال ببحث
كأس جمشيد لمعها في دوام
ليس قلبي وليس قلبك فابحث
ليس للعاجز الضعيف حياة
لا تقل في الصلاة : وجهت وجهي
نحن سجادة له حركات
إن حرباً أبطالها نحن حرب

عَذِيبَةُ مَلَأُوهَا الطَّرِبُ	لَغَةُ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ
مَلِكُ تَرْكِ وَلَا عَرَبِ	لَكِنِ الْحَبِّ لَمْ يَكُنْ
حَسْبُهُ كَنْزُهُ الدَّفِينُ	حَسْبُهُ الْبَعْدُ عَنْهُمَا
لَهْجَةُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ	حَسْبُهُ الْخُبُّ إِنَّهُ
صَنَعَةُ الْعَاجِزِ الدَّلِيلُ	نَحْنُ أَصْنَامُ آزِرِ
حَسْبُهُ صَنَعَةُ الْخَلِيلُ	وَالَّذِي يَطْلُبُ الْعُلَا
إِنَّكَ النَّجْمُ وَالْمِدَادُ	لَسْتَ نَقْعاً مَجْرَداً
ذَلِكَ النَّقْعُ وَالْعُبَارُ	مَنْ جَنَوْنٍ مَثَابِرِ

(٥٣)

بَدَأَ الْمَسِيرَ فَقَمِ مَعَ الرُّكْبَانِ	دَوَى النُّدَاءِ عَلَى الْقَوَافِلِ مَعْلَناً
يَتَوَقَّعُ التَّرْحَالَ كُلَّ أَوَانِ	أَوَاهُ مَاذَا يَفْعَلُ السَّارِي الَّذِي
دَيْراً وَعَصْرُكَ غَيْرُ طَبِيعِكَ فَإِنْ	انْهَضَ فَخَمْرُكَ لَا تَنَاسِبُ هَاهُنَا
أَوْ لَمْ يَدْخُلِ لِلْعَقْلِ مِنْ سُلْطَانِ	سَيِّانَ كَانَ الْقَلْبُ عَبْدًا طَائِعاً
وَطَوِيلَةً وَكَثِيرَةً الْأَشْجَانِ	فَالدَّرْبُ يَا هَذَا الْمَسَافِرُ صَعْبَةً

(٥٤)

خَمَدَتْ لَوَاعِجُهَا عَلَى الْأَغْصَانِ	نَفْسِي يُؤْجِجُ نَارَ وَرَدَتِكَ الَّتِي
فَانْظُرْ لِأَثَارِي مَدَى الْبُسْتَانِ	لَمْ يَهْدَأِ الْبُسْتَانُ مِنْذُ أَتَيْتُهُ
وَهَتَّكَتْ لِلْبُسْطَاءِ سِرَّ الْحَانِ	أَيَقِظْتُ قَلْبَ الْعَارِفِينَ بِصَدْرِهِمْ
وَمَلَأَتْ أَنْفُسَهُمْ بِرَشْحِ دِنَانِي	وَوَهَبْتُ لِلْجِيلِينَ ذَوْقَ لَهْيِهِمْ
أَطْلَقْتُ فِي الْحَرَمِ الشَّرِيفِ لِسَانِي	أَنَا أَعْجَمِي الْحَبِّ إِلَّا أَنَّنِي
مَزَقَّتْهُ بِاللَّحْنِ مِنَ الْحَانِي	كَمْ ثَوْبٍ إِحْرَامٍ عَلَى مَتَضَرِّعِ

متلَطِّخٌ قَلْبِي بِنَظَرَةٍ عَادِلٍ بِسَهَامِ سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ رِمَانِي
 فِي الشَّامِ أَمْ فِي الْكُوفَةِ النَّزْدُ الَّذِي كَانَا عَلَى شَقَّتِهِ يَخْتَصِمَانِ
 أَخْشَى يَكُونُ كِلَاهُمَا مَتَعَثِرًا فَالْنَّزْدُ هَذَا مَالَهُ شَقَّانِ
 لَمْ تَعْجِبُونَ لِمُسْلِمٍ مَتَحَرِّقٍ وَرَدَاؤُهُ قَطْعٌ مِنَ الْأَحْزَانِ
 فَقَرُّ الْجُنَيْدِ وَمَلَكُ سِنَجَارٍ بِهِ وَجُنُونٌ طَيْفُورِ الطَّلِيْقِ الْعَانِي
 بِالرُّغْمِ مِمَّا قُلْتُ قَبَحِي ظَاهِرٌ تَأْذَى بِهِ عَيْنَاكَ حِينَ تَرَانِي

(٥٥)

هَذَا الْهَلَالُ بِصَدْقِهِ يَتَسَامَى أَبْدَأُ يَرِيدُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
 لَوْلَا تَجَاوُزُهُ لِكُلِّ وَجْوهِهِ مَا كَانَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ إِمَامَا
 لَا تَفْتَحُ الْأَنْسَامُ بُزْعَمَ وَرْدَةٍ بِلَهَاءٍ عَنْ شَمْسِ الصَّبَاحِ تَحِيدُ
 طَهَّرُ الْعَيُونِ هُوَ الْحَقِيقَةُ كُلُّهَا وَالْقَلْبُ فِي حِضْنِ الْعَيُونِ مَرِيدُ
 هَذِي الشَّقَائِقُ تَحْرِقُ الْقَلْبَ ارْتَمَتْ فِي الْحَقْلِ مَا احْتَمَلَتْ سَيُوفَ سَنَابِلِهِ
 كَوَقَائِعِ (الغوري) و(أبيك) ^(١) عَطَلَا وَنَشِيدِ (خسرو) فِي قُلُوبِ بِلَابِلِهِ

(٥٦)

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ كُنْ يَقْظًا فَدَرْزُكَ فِي السَّمَاءِ لَا تَرْمِ نَفْسَكَ خَلْفَ هَذَا الضُّبْحِ أَوْ ذَاكَ الْمَسَاءِ
 الَّدَّزْبُ ذَلِكَ مَالَهُ زَمَنٌ لِيَأْسَفَ رَكْبُهُ وَمَنْ أَلَّذِي يَدْرِي وَيَعْرِفُ أَيْنَ تَنْشَبُ حَرْبُهُ
 لَا سِرٌّ يَنْبِضُ فِي التَّسْكُوعِ وَالتَّمْثُلِ وَالْيَقِينِ فَوْقَ الْمَوَاحِرِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْكَنَائِسِ أَجْمَعِينَ

(١) هو قطب الدين أبيك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى
 سلالات سلطنة دلهي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم
 الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه الشمس .

اللولؤ الفردُ الَّذِي قد نَدَّ عن صدرِ المَحَارَةِ
مجلأه في دَمْعِ الصَّبَاحِ وليس في خِدَعِ الحضَارَةِ
القرمزِي الخُلْدُ لا يحتاج مسحوقاً يباغِ
والعازفُ الموهوبُ لا يرضى بالألحان الرُّعَاغِ
ألحانُ هذا العصر يلزمها الكثير من الذُكَا
إذ طالما الصَّوْتُ الَّذِي في السرِّ يخطىء في الغِنَاءِ

(٥٧)

يَمَّمْتُ مدرسةَ الأسود رأيتها جارت عليها الحادثات فأصبحت
ما للقوافل من يقود ركابها من أين للعصفور ذوقُ نشيده
لأهٍ لأنفاس مَضَتْ وكأنها وهي التي أذكت لهيبَ جماله
في ليلِ دهشته هناك وَوَجِدِهِ هل دهشة أخرى وَوَجِدُ آخر
جُرَحي تألَّق كالبروق بليهم وليعلم الغرباء ليست فجأة
تبكي أباطرة الرُّمَانِ الذَّاهِبِ مرعى لخرفانٍ ووكرٍ ثعالِبِ
بحوارِ موسى في رحابِ الله والجمع ساءِ والمردُّ لاهِ
طيفٌ ومرٌّ بذلك البُستانِ وهي التي رَوَّته بالألحانِ
ظلماتُ تاريخٍ يَكُرُّ نَفْسَهُ يروي حقيقته ويملاً كَأْسَهُ
ليروا حقيقةَ هذه الحسناءِ ثمراتُ هذا السَّيرِ في الصَّحراءِ

(٥٨)

أَتَذْكُرُ البيتَ الَّذِي قد قاله سلمان^(١) ذاك الشاعرُ الحرُّ الأمين
(سيظلُّ) مفتوحاً أمامَ العاملين)
البحثُ يلزمه مواهبُ باشقِ وفؤادُ ليثٍ لا يخاف جروحاً

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي
(إقبال) .

من غير معرفة وغير قراءة
دغ عَنْكَ طاووساً يتيه وبلبلاً
السُرُّ ليس بنغمسة وبصورة
يجدُ الشجاع طريقه مفتوحاً
يَشْدُو فليس السُرُّ في الاثنينِ
السُرُّ في سَمْعِ ورقة عينِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليس يقوى على القَلَنْدَرِ دهرُ
سرُّه ليس في العلوم ولكن
هي ترمي لَصَقْلٍ عَقْلٍ وفكرِ
هو درَبٌ بذاته مُسْتَقْلِلٌ
هو عند الصُّعَابِ عيسى وموسى
هو لِلسُرِّ والبصيرة روحُ
هو سكرانٌ بالفضيلة سارِ
مُطْلَقُ الشُّكْرِ في الحقيقة حالُ
الذي يقتضي التجرُّدَ شيءٌ
نظرةُ النَّفْيِ لِلْقَلَنْدَرِ سيفُ
واحدٌ من جنودِها الحقُّ يُغْنِي
وإذا المرءُ كان صاحبَ قلبِ

قلْبُه تحت عَرْشِهِ مُسْتَقَرُّه
علمُه بالتجرُّدِ الحقُّ سرُّه ؟
وهو يرمي لَصَوْنِ عَيْنِ وَقَلْبِ
وهي بحثٌ على مجرَّدِ دَرْبِ
وهي للنَّاسِ فيلسوفٌ وقاضِ
وهي ليست سِوَى أَقَاوِيلِ ماضِ
وهي سكرانةٌ بِخَمْرِ الرَّذِيلَةِ
ليس فيه رذيلةٌ وفضيلةُ
ليس سِيَّانٍ والذي يقتضيها
طَبَعَتُهُ الذَّاتُ الَّتِي يقتضيها
عن جيوشِ تخافَ وَهَمَ الْفَنَاءِ
كَسَّرَتْ عَيْنُهُ مَرَايَا السَّمَاءِ

(٦٠)

وقف الجميعُ يعارضون ندائي
ذهبوا مع الصَّحراءِ خَلْفَ جنونهم
حمداً لِمَنْ رَجِمَ العبادُ فَأَسَدِلْتُ
وبقيتُ وحدي مرةً أخرى وَقَدْ
فقهائونا وقفوا بصوتِ واحدٍ

لم يُجْمِعُوا إِلَّا على إقصائي
وبقيتُ مجنوناً بلا صحراءِ
أستارُ كعبتنا بوجهِ صياحي
طافتُ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحِي
دونِي وما حاروا بأيِّ جوابِ

لا مثل أفلاطون بين حضوره
كانت رجال الفكر تَبْضُ جِراً
نفساً إذا القرآن ما انتفعت به
إن كنت من وهم بشيء مفرج
في خمير أورئة شعاع ذائب

(٦١)

وغيايه والسلب والإيجاب
وحمة أوحث بها الأعراف
لا الكشف ينفعها ولا الكشف
تأسى فإني في السفينة تغرق
بالرغم من أقدارها يتألق

عجبا من مغامرات ذكي
لم تزل حوله المواجد حتى
كيف ناحت حمامة الأيك قربي
إنني مدرك إلى أين يمضي
قيل إن الأتراك بالشعر أدرى
(لا يكون القوي جاز ضعيف
ما طفوس المساجد اليوم ؟ ظلم
ما سلوك الكنائس اليوم ؟ سوق
في ردائي الذي تمرق سر
لا يليق الجنون بالعصر هذا
أضغ النفس في البحار وغامز
وأقم بين ضجسة وتلو
هل لمثلي من الفضاء نصيب
جئت للأرض ؟ أم تخلقت منها ؟
كم تعزرت في متاهات ذاتي
بين نفسي من الخصام وبينني
قصة الحب ألف نفس ولون
تارة أملاً الحياة وصلاً

جعل الوجد والتعقل دربا
تركته في ساحة الحب نهبا
ثم كانت عذولة ورقية
مخفل يربك الضمير خطية
فاقرئوهم من شعر إقبال بيتا
كل ما في يديه لولا وليت
وانتهاك لحرمة الساجدين
لوجوه الرهبان والسالكين
من بقايا الأسرار يكشف بعدي
ليس عصراً لذي جنون ووجد
ثم غصن في البحار واعثر عليها
ليس من شاطئ يقود إليها
من تراني أنا وما جنسي ؟
قفصي الكون ؟ أم نهاية نفسي ؟
وكأنني في أرض ذاتي دخیل
سهر دائم وليل طويل
وغنائي أشد نقشاً ولونا
تارة أطلب الفراق لأفنى

الْيَقِينُ الْيَقِينُ جَلْسَةُ حَبِّ
سَوْءُهُ أَنْ تَقُومَ لِلَّهِ شُكْرًا
كَعْبَةُ الْعُزْبِ أَطْلَقَتْ كُلَّ لَحْنٍ
كَيْفَ تَسْمُو حَضَارَةً لَيْسَ فِيهَا
صَوْتُ قِيَارَتِي الَّتِي سَمِعُوهَا
شَهِدَ الْغَرْبُ أَنَّي غَزَنُوبِي
أَيُّهِيْمُ الْفَوَاذُ فِي كُلِّ حَسَنِ
رُغْمِ أَنَّ الزَّمَانَ لِلْقَلْبِ غِلٌّ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الَّذِي يَشْتَكِينِي
لَا تَخَفْ مِنْ صِرَاحَتِي فِي حَدِيثِي
طَيْرَانُ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ كَهَذَا
لَيْسَ يَعْنِي إِنْ كَانَ جِذُّكَ بَازًا
أَوْ لِلْمُسْلِمِ الَّذِي بَاتَ رَسْمًا
سَأَلُونِي فَقُلْتُ : يَوْجَدُ ، قَالُوا :
لَا يَبَالِي الدَّرُوشُ عُسْرَ طَرِيقِ
سَأَلَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ بِصِيرًا
إِنَّهَا الذَّاتُ عِنْدَمَا تَتَجَلَّى
إِنَّهَا نَفْسُهَا حِجَابٌ إِلَهٍ
تَصِلُ الذَّاتُ قَابَ قَوْسَيْنِ لَكِنْ
كُلُّ شَيْءٍ هُنَاكَ تُغْرِبُ عَنْهُ
صَنَمُ الْعَيْنِ كُلُّ لَوْنٍ تَرَاهُ

مِنْ خَلِيلٍ بِنَارٍ نَمْرُودَ يُنْسِكُ
وَقَصَّارَاهُ أَنْ تَلُودَ بِنَفْسِكَ
طَافَتْ الْفَرَسُ وَالْمَغُولُ عَلَيْهِ
حَرَمٌ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ لَكِنَّ لَحْنِي حِجَازِي
حِينَ جَرَّعْتَهُ مَصِيرَ إِيَّازٍ^(١)
أَمْ يُغْنِي لَوْحَدِهِ فِي الزَّحَامِ
لَا يَذُلُّ الزَّمَانُ قَلْبَ هُمَامٍ
لَا تَلْمُئِنِي فَأَنْتَ تَفْضُخُ عَيْنَكَ
إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
مَالِكَ الْيَوْمِ فِي السَّمَاءِ اجْتِيَازُ
أَنَّكَ الْيَوْمَ بِالْوَرَاثَةِ بَازُ
شَغَلَّتْهُ عَنِ الْحَيَاةِ جُدُودُهُ
أَيْنَ سُلْطَانُهُ وَأَيْنَ وَجُودُهُ
وَيَرَى الْعُسْرَ عَوْنَهُ وَنَصِيرَهُ
فَسَلَاخُ الدَّرُوشِ نَوْرُ الْبَصِيرَةِ
تَنْعُمُ النَّاسُ فِي ظِلَالِ النَّبُوءِ
عِنْدَمَا تَأْخُذُ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ
لَا تَرَى نَفْسَهَا بِعَرْشٍ وَكَرْسِي
صَرَخَةُ الْفَجْرِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِي
يَجْعَلُ الْكَوْنَ هَيْكَلًا لِلْعُقُولِ

(١) كما قصَّ الغزنوي ضغائر إِيَّاز التي تنبضُ إغراءً هكذا فعل إقبال بضغائر أوروپية فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .

إنَّ الحسَنَ الَّذِي يُمْكِنُ لِلْمَقْصُودِ أَنْ يَزْلُزَلَهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ كَعْبَةً لِلْقُلُوبِ .

مُنْكَرٌ أَنْتَ أَنْ تَكُونَ خَلِيلاً
فِيهِ هَذَا الْمُحِبُّ يَغْبِثُ سُكْرًا
لَمْ تَزِدْهُ الشُّبَاكَ إِلَّا حُبُورًا
عِلْمُ رَازِي تَهَوُّزٌ وَانْحِدَازٌ
قِمَّةُ الشُّكْرِ وَالْمَحَبَّةِ تَبْدُو
أَيْنَ مَنْ أَطْلَقَ الْحَيَاةَ بِعَقْلِي ؟
هُوَ فِي عُزْلَةِ الْفُؤَادِ مَقِيمٌ
أَنَا لَا أَرْكَبُ الْهُوَادِجَ هَذِي
أَرْشِدُ الرِّكَبَ لِلطَّرِيقِ وَأَمْضِي
حَطَبُ الْمَوْقِدِ الْغَلِيظِ مُمْلٌ
أَنَا لَا أَمْنَحُ الْحَصَادَ لِحَقْلِ
قَدْ تَنَفَّسْتُ لَيْسَ مِنْ نَارِ قَلْبِي
شَعْلَةُ الْفِكْرِ لِلطَّرِيقِ ضِيَاءٌ
أَرْضُنَا هَذِهِ لَطُفُورِكَ تَهْفُو
قَلْبُكَ الْمَطْمَئِنَّ قَبْضَةً نَوْرٍ
عَنْ يَدِ اللَّهِ طَزَتْ لَا عَنْ غِبَاءٍ
وَلَكَ الْحُوزُ وَالْمَلَائِكُ صَيِّدٌ
أَثَرِي مَا لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيبٌ
دُمُهُمْ كَانَ لِلشُّعُوبِ مَنَارًا
ذَاكَ أَنَّ الضُّلُوعَ خَارَتْ قُؤَاهَا
سَجَدَاتُ رَتِيبةً فِي خَمُولٍ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الْمَشَابِرُ يَرْجُو
كُنْ وَحِيدًا وَوَحْدِ اللَّهِ وَاكْشِفْ
كُنْ كَمَا الْمَوْجُ كُلُّ حِينٍ تَرَاهُ
انْتَزِعْ مِنْ يَدَيْهِ ثَوْبَكَ وَارْجِعْ

فِي صُرَاخِ الصَّبَاحِ بَعْدَ الْأَقُولِ
بِحَبَالِ الصَّيْنِدِ الَّتِي أَوْقَعْتَهُ
وَكَأَنَّ الشُّبَاكَ قَدْ أَطْلَقْتَهُ
وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ عِلْمُ الْقَلَنْدَرِ
فِي السُّلُوكِ الَّذِي يَمُتُّ لِحَيْدَرِ
أَيْنَ ذَاكَ الَّذِي أَبَادَ حَصَادِي
وَسْوَالي الْوَحِيدُ أَيْنَ فُؤَادِي ؟
أَنَا لَا أَمْتَطِي الرِّكَابَ دَلِيلًا
لَسْتُ عَمَّا يُفْتَشُونَ بِدِيلًا
وَأَنَا رَغْبَتِي بِحَرَقِ الدَّقَاقِ
عَمَلِي الْفَرْدُ وَالْوَحِيدُ احْتِرَاقِي
نَفْسًا بَارِدًا أَهْجَ رِمَادَا
وَدَلِيلٌ لِسِهِ وَلَيْسَ مُرَادَا
أَنْتَ بَرَهَانُهَا وَأَنْتَ هُدَاهَا
مَنْحَتْ أَغْنَى السَّمَاءِ مَدَاهَا
أَنْتَ شَاهِدُهُ وَأَنْتَ رَسُولُهُ
ذَاكَ دِينَ وَلَيْسَ شَعْرًا أَقُولُهُ
مِنْ جَنُونَ الْحَبِّ الَّذِي أَطْلَقُوهُ
ثُمَّ هُمْ فِي ظِلَامِهِمْ أَهْرَقُوهُ
لَمْ يَعُدْ بَيْنَهَا لَهَيْبٌ يَصُولُ
وَصَفُوفٌ مُعْوجَةٌ وَذُهُولُ
ثَوْبٌ تَقْوَاهُ كُنْ نَسِيجَ حَيَاتِكَ
سِخْرَ الْوَانِنَا بِقُوَّةِ ذَاتِكَ
يَدْرُسُ الشَّاطِئُ الَّذِي يَتَغَيَّرُ
لَا تَغْرُنْكَ الْإِقَامَةُ فِيهِ

النَّدى شَفَّ عَنْ صُدُورٍ وَرَوْدٍ فَوَّرَ الْخَضِرَةَ النَّسِيمُ صَبَاحاً أَحْمَرَاؤُ الشَّقِيقِ صُورَةً نَارٍ شَعْلَةُ الْعَقْلِ لِلْمَسَافِرِ عَوْنٌ مَا هُوَ الْعَقْلُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا وَضَجِجُ الطَّرِيقِ مَنْ فَعَلَ قَلْبٍ	لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْخِلَاعَةِ كُفَاءُ فَوْرَةٌ مَا لَهَا هُنَالِكَ دِفَاءُ ضَاعَ فِي غَمْرَةِ الْحَيَاةِ فَوَادُهُ وَالَّذِي يُلْهِبُ الطَّرِيقَ مُرَادُهُ نَارَ مَصْبَاحِنَا بِهَذَا الطَّرِيقِ لَيْسَ لِلْعَقْلِ مِنْهُ غَيْرَ بَرِيقِ
--	--



القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفه مؤمن شاعر ، وقفه خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفه خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الإسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةً للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوّ في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراءة في النية ، وثبات على الحق ، وإعلاناً للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر - والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوي في الجو ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعون ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظير في الأصوات ، والهمات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكاز الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح
الصَّادِق إلا هذا الأذان الصَّادِق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا
الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلاً إيماناً و يقيناً
بأنَّ الأُمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود -
لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ
الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره
الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان
والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في
جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء ، وأنَّ الآثار التي تخلفها
الأجيال ، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب
لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر
الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ
الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص^(١) - والحب هو
أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت - إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو
تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه
سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي
المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في
الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي
حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والشُّرور ونشوة الخمر ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب ، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالة لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌّ وترحال ، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه ، هو الذي أطلق قيثار الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب - الحب - أصبحت مصنوعات سطحية من لون ، أو قزم ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، إنّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفّاق حنون للبشر ، فإذا فاقت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، وإذا تجرّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت » .

ويقول في عقيدة مؤمن ، ودلال شاعرٍ محب : « إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنّ الإنسان في تكوينه وخلفه قبضةً من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدرًا لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجد الإنسان ؟ » .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكّر أنّه هنديّ النجار ، وأنّه من إحدى بيوتات « البراهمة »^(١) ، ويتذكّر أنّه أمام أثر إسلاميّ عربيّ صميمٍ

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سيرو » أسلم جده الأعلى قبل منتي سنة .

قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام - كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقة بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « إن المسلم حيّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة ! » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق - العصر الجاهلي - بالرحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب

وتحت ظلال السيوف منذراً بالتوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب
التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله .

ويقبل على المسجد يتحدث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها
المسجد العظيم ! عن سرّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب
الذي يقضي فيه نهاره ، والرقّة التي يمضي فيها ليله ، صوّرت للعالم مقامه
الرفيع ، وتفكيره الشامي ، ومسرّاته وأشواقه ، وتواضعه ودلاله .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموّه ، وأخلاقه ، وسيرته في
العالم ، فيقول : « إنّ يد المؤمن هي جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلابةٌ ،
فتّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلّق بأخلاق
الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ
جليلةٌ ، ألقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ،
قويٌّ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنّ إيمانه هو النقطة
الدائرة التي بدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطمسٌ ومجازٌ ، إنّ الغاية
التي يصل إليها العقل ، ولبّ لباب الإيمان والحبّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها
وقوتها .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول :
« يا مثابة هواة الفنّ ! ويا مقصد رواد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد
سمت بك أرض الأندلس ، وتقديست في أعين المسلمين ، إنّك فريدٌ في الفنّ
والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك
الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق
واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادةٌ ،
وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق
والغرب ، وكانوا أصحاب عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذةٍ ، يوم كانت أوربة تتسكع
في الجهل المطبق ، والظلام الحالِك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمالاً شرقيّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز .

ثم يخاطب إسبانيا - الأندلس الإسلامي المغصوب - فيتغنّى بأرضها التي تطاولت السماء سموّاً ورفعة ، ويتوجع على أنّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوّق إلى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فحدثت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحزّر الفكر الأوربي ، وتحركت سفبته في يسر وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتياً بلذّة التجديد^(١) ، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقاً ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخض بحوادثٍ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهّن بالمستقبل » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً للذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنّها لا تزال محجوبة عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحث ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنّ جنونها » .

ثم يعود مرّة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلّ حياة لا تجديد

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إِنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إِنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بئازٍ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء .

ويختتم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةً حكيمةً مأثورة ، مبنيةً على تجاربٍ واسعة ، ودراساتٍ عميقة ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إِنَّ كُلَّ مَأْثَرَةٍ وَكُلَّ إِنْتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلُّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدَمْ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للأدب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا^(١) ؟

(نُظِمَتْ فِي مَسْجِدِ قَرْطَبَةِ)

إِنَّ هَذَا الصَّرْخَةَ الْيَوْمَ الَّتِي تَفْضُحُ أَمْرِي
صَرْخَةُ الْقَلْبِ الَّتِي خَبَّأْتُهَا طِيلَةً عُنْوَ
صَحْبَةً الْأَطْهَارِ نَوْرٌ وَرَضَا اللَّهُ حُبُّور
وَشَقِيقُ الرُّوضِ كَاسَاتٌ عَلَى النَّهْرِ تَدُور
مَاهِنًا يُمْكِنُ أَنْ أَذْكَرَ وَغَنَاءَ الْمَسِيرِ
وَوُضُوئِي لِصَلَاتِي مَنْ دَمِ الْقَلْبِ الْكَسِيرِ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

مع مَنْ يَمْشِي الَّذِي يَمْشِي عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ
 وَأَنَا إِلَّا رَجَائِي لِيَسَ لِي فِيهِ رَفِيقٌ
 أَيْكُونُ الْقَضْرُ عُنِّي وَأَنَا أَكْرَهُ لَوْنَهُ
 أَنْتَ ذَاكَ الْعُشُّ وَالْغُصْنُ الَّذِي يَشْتُرُ كَوْنَهُ
 أَنْتَ مَنْ أَطْلَقْتَ مَنْ صَدْرِي صِرَاحَ الْفَجْرِ بَعَثَا
 لِي مِنَ التَّوْحِيدِ نَارٌ تُلْهِسُ الْعَالَمَ بِحُثَا
 بِكَ أَنْفَاسِي تَغْنِي لَكَ تَغْدُو وَتَرْوُخُ
 ذَاتِ شَجَسٍ وَحَمَّاسٍ وَنَدُوبٍ وَجُورُخِ
 أَمَلِي أَنْتَ وَشُغْلِي طَلْبِي أَنْتَ التَّوْحِيدُ
 وَأَنَا هَذَا نَصِييِي غَيْرَ هَذَا لَا أُرِيدُ
 عِنْدَمَا تَخْطُرُ قَرِيبِي تَصْبِحُ الصَّحْرَاءُ بَحْرًا
 وَإِذَا لَمْ تَكُ فِي الْبُسْتَانِ فَالْبُسْتَانُ صَحْرًا
 أَنْتَ مَرَّةً أُخْرَى وَلَوْ جَرَعَةً كَسَاسٍ
 عَلَّ أَنْ أَخْرَجَ يَوْمًا مَنْ طَوَافِي حَوْلَ نَفْسِي
 أَنَا مِنْهَا فِي خَمَارٍ كَيْفَ لِي أَشْرَبُ مِنْهَا
 كُلُّ حَانَنَاتِ الْوَرَى حَطْمَتْهَا فِي الْبَحْثِ عَنْهَا
 أَيُّهَا السَّاقِي مَتَى تَنْظُرُ لِي عَيْنُ حَنَّانِكَ
 وَمَتَى الْجَمْهُورُ بِالْأَقْدَاحِ تَرْوِي مَنْ دِنَانِكَ
 خَلَقْتَكَ اللَّهُمَّ هَذَا لَمْ يَسْذُقْ ذَوْقَ فَتُونِي
 وَأَنَا، إِنْ لَمْ تَبْدُلْهُ يَبْدُلْهُ جَنُونِي
 مَا هَسُو الْعَارِ الَّذِي يَلْحَقُ هَذَا الْفِيلَسُوفَ
 وَهُوَ بِالسَّرِّ الَّذِي خَبَّأَتْهُ أَنْتَ يَطُوفُ ١٩

نَسَمَةُ الْأَسْحَارِ الَّذِي نَفَحَتْهُ اللَّهُ الْخَيْزُرُ

فِي نَسِيجِ الرُّوحِ يَجْسِرُهَا كُنُشُخٍ فِي الضُّمِيرِ
يَصْبِحُ الرِّاعِي كَمُوسَى بِتَعَالِيهِ شُعَيْبِ
﴿ لَا تَخَفْ ﴾ سَيْفٌ فَخَذَهَا وَفِي وَحْيٍ دُونَ رَبِّ

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصة في قرطبة)

(١)

ضِيَاءُ الصُّبْحِ بَعْدَ اللَّيْلِ آتٍ (وَمِنْ هَذَيْنِ كُلُّ الْحَادِثَاتِ)
هَمَّا فِي السَّهْرِ خَيْطٌ مِنْ حَرِيرٍ تَلَوَّنَ بِالْحَيَاةِ وَبِالْمَمَاتِ
هَمَّا إِيقَاعُ أَغْنِيَةِ الْحِجَابِ وَلَحْنُ الْحَقِّ فِي هَذَا الرُّحَابِ
عَلَى وَتَرِ الْخُلُودِ لَهُمْ نَشَاطٌ مُلِمٌّ بِالْقَرَارِ وَبِالْجَوَابِ
وَعِنْدَهُمَا بِكُلِّ النَّاسِ عِلْمٌ هَمَّا حَجَرُ الْمَحَكِّ لِكُلِّ شَغَبِ
فَلَا تَفْخَرْ بِقَلْبِكَ دُونَ زَيْفٍ وَجَرَّبَ مِثْلَمَا جَرَّيْتُ قَلْبِي
فَإِنْ هُوَ كَانَ زَيْفُكَ مِثْلَ زَيْفِي وَلَمْ يَكْ لِي وَلَا لَكَ أَيْ قِيَمَةٌ
فَعَيْدُكَ مِثْلُ عَيْدِي عَيْدُ مَوْتٍ وَحَقُّكَ مِثْلُ حَقِّي فِي الْوَلِيمَةِ
وَمَا الْمَعْنَى لِيَوْمِكَ أَوْ لِيَوْمِي بَلَا لَيْلٍ يَكُونُ وَلَا نَهَارٍ
إِذَا عَبَرَ الثُّبُوغُ بِأَرْضِ قَوْمٍ تَوَلَّى مِثْلَ زَوِيعةِ الْغُبَارِ
حِكَايَةً كَوْنَنَا وَهَمٌّ وَظَنٌّ وَهَذَا كُلُّ أَطْوَارِ الْحِكَايَةِ
مِنَ الْعَدَمِ الْبَدَايَةُ أَخْرَجْتَنَا وَتَرَمِينَا إِلَى الْعَدَمِ النَّهَايَةِ

(٢)

الْمَوْتُ لَا يَنْمَحُو رَجَاءَ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْوَجُودِ
الْحِسْبُ فِي دِمْهِمِ تَلَوَّنَ بِالثَّبَاتِ وَبِالْخُلُودِ

مهما يكن جريانُ هذا العصرِ جِّاراً عنيفاً
 فالحبُّ يَجْرُفُه ولكنَّ سِيلَه يَنْدُو لطيفاً
 الأملُ والغدُ ليسَ وَجْهَتُنَا التي نسعى إليها
 الحبُّ أزمَنَةٌ بلا أسماءَ نُطَلِّقُه عليها
 ما الحبُّ ؟ ما هو ؟ إنَّه وثباتُ أوقاتِ الصِّفا
 في نفحةِ الوحيِ الأمينِ على فؤادِ المصطفى
 ما الحبُّ ؟ سكرةٌ وردةٌ خَلَعَ الجمالَ عذارها
 لعسبِ النَّسيمِ بها عليه فقطعتُ أزارها
 الحبُّ في ساحِ الجيوشِ هو المَقْدَمُ والنَّبِيه
 والحبُّ في الحَرَمِ الشَّريفِ هو المَشْرِعُ والفقيه
 أسألُ به متسكِّعاً خَلَفَ الهِوَادِجَ والقوافلَ
 بين الألفِ مِنَ المنازلِ والألفِ مِنَ المراحلِ
 الحبُّ ليسَ مَغْنِيّاً الحبُّ إِبْداعُ الأغاني
 أُنارُه نورُ الحياةِ وقوسُه نارُ المعاني

مسجد قرطبة

(٣) و(٤) و(٥) و(٦)

قصرُ التَّاريخِ ومسجدُه ما أروعَ ما صَنَعَتْ يَدُه
 لِلْقَوْمِ بِصَدْرِ حكايتِه صوتُ ما زال يُرَدِّدُه
 ظمأً لا رِيَّ لهُ وبِهِ طَلِبُ الظَّمآنِ وَمَقْصِدُه
 يزدادُ بِرؤيتِه ولهاً وَيُرِيدُ يَقُومُ فَيَقْعِدُه
 وكأنَّ عِلائِقَ زيتِه خَفَقَاتُ القُلُوبِ وَمَعْقِدُه
 فِي الصَّخْرِ فنونُ سرائِرنا بلطائفنا نَعْمَ يَدُه

لِيَهْنِجَ رَيْنُنْ جَوَانِبَهُ بِأَنْيَسِنَ الرُّوحِ نَزْوُدُهُ
يَا ظِلَّ الْعَرْبِ ودوخته من ذا تَارِيخُكَ يَجْعَلُهُ
بِكَ أَضْحَتْ تَرْبَةً أَنْدَلِسَ حَسْرَمًا فِي الْغَرْبِ نَمُجْدُهُ
لَا نَدَّ لَهُ فِي سَوْدَدِهِ إِلَّا الْإِيْمَانُ وَسَوْدَدُهُ
عَرِبِيَّ اللَّحْنِ حَجَازِيَّ رَوْحِ الْإِسْلَامِ تُخَلِّدُهُ
يَمْنِيَّ الْعِطْرِ تَهَبُّ بِهِ أَنْسَامُ الشَّامِ وَتُخَشِّدُهُ
نَظَرَاتُ ظِلَائِكَ لَا عِبَةَ بِسَهَامِ الْحَبِّ نَكْبُذُهُ
أَنَا مِنْ كَفَّارِ الْهِنْدِ وَفِي نَظَرَاتِي مَا لَا تَجَعَلُهُ
وَحِمَاسَةً أَغْنِيَنِي هَذَا مِنْ لَحْنِ قَلْبِكَ يُنْشِدُهُ
وَصَلَاةُ الْحَبِّ عَلَى شَفَتِي (وَعَلَى خَدَيْكَ تَوْرُدُهُ)
الْفَتْنَةُ وَجْهُكَ يَوْقِدُهَا وَأَنَا أَشْرَحُ مَا تُوقِدُهُ
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرٌ وَحَيَاةُ الْقَلْبِ تَوْحِيدُهُ
لَوْ كُلُّ رِيَّاحٍ فِي الدُّنْيَا اجْتَمَعَتْ لَا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يُحْكِيكَ جَمَالًا وَجَلَالًا رَجُلٌ لِلَّهِ تَعْبُدُهُ
وَحِمَاسُ ضَحَاهِ وَوَجْدُ مَسَاهِ وَمَا يَخْفِيهِ لَهُ غَدُهُ
وَمَسْرُوتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَتَوَاضُعُهُ وَتَوَوُّدُهُ
عَذْبُ الْكَلِمَاتِ خَفِيفُ الرُّوحِ رَقِيقُ الْقَلْبِ مُسَهِّدُهُ
أَبْدِيَّ الْحَبِّ نَقِيَّ الْعَرْبِ مَصُونُ الْعِرْضِ مَهْنَدُهُ
وَعَلَى يَسَدِهِ اللَّهُ يَدٌ بِلَطِيفِ الْقُدْرَةِ تَغْضُدُهُ
الْعَالِمُ قَصْرُ خِلَافَتِهِ وَسَمَاءُ الْعَالَمِ مَغْبَدُهُ
سِرُّ الْكُونِيْنَ بِنَظَرَتِهِ وَعَنِ الْكُونِيْنَ تَجَرُّدُهُ
وَسِرَابُ الْعُضْرِ بِنُورِ الدِّينِ وَنَارِ الْحَبِّ يُبَدِّدُهُ
هُوَ أَوَّلُ سِرٍّ فِي الدُّنْيَا وَرَجَاءُ الْكُونِ وَمَقْصِدُهُ
هُوَ مِثْلُكَ شَاغِلَ عَالَمِهِ بِقَدِيمِ الْحُسْنِ يُجَدِّدُهُ

كنخيل الشام وأغمدها شَمَخَتْ فِي الْمَسْجِدِ أَعْمَدُهُ
تَتَأَلَّقُ زَرْقَةً قَبَّتَهُ وَتَقِيمُ اللَّيْلَ وَتُقْعِسُهُ
وَتَنْهَضُهَا فِي وَخْدَتِهَا كَالطُّورِ كَوَاهُ تَنْهَضُ
بَعَثَتْ جَبْرِيلَ مِنْائِزُهَا بِجَمَالٍ أَنْتَ مُحَمَّدُهُ
نَادَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى لَشُهُودِ هَذَا مَشْهَدُهُ

(٧)

إِنَّ أَرْضاً أَنْتَ فِيهَا لِسَمَاءٍ لِلْعُيُونِ
كَيْفَ لَمْ يَسْمَعْ أَذَاناً أَهْلُهَا مُنْذُ قُرُونِ
لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ أُسْرِيَ مَوْكِبُ الْحَبِّ الْغَضُوبِ
لَيْتَ شَعْرِي مَا يَرَى الْآنَ وَفِي أَيِّ الدُّرُوبِ
هَيْجَ الْأَلْمَسَانُ حَوْلَ الدِّينِ إِصْلَاحاً عَرِيقاً !
بَسَدَ الْأَسْرَارِ لَمْ يَتْرَكْ لَهَا بَيْتاً عَتِيقاً
أَصْبَحَتْ مِنْهُ هَبَاءٌ عَصْمَةُ الْبَابِ الْعَجُوزِ
وَأَفَاقُ الْفِكْرِ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً لَا يَجُوزُ
مَنْذُ أَنْ ثَارَتْ فَرَنْسَا بِبَدَا الْغَرْبِ الْعِرَاقَا
لَمْ تَعُدْ تُبْصَرُ فِيهِ بَعْدَهَا إِلَّا ارْتَبَاكَا
هِيَ ذِي رُومَا الَّتِي شَاخَتْ عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ
تَحْتَسِي خَمِراً جَدِيداً مَعَهَا الْبَابَا نَدِيمِ
فِي فَوَادِ الْمُتْلِمِ الْيَوْمَ كَهَذَا الْغَلِيَانِ
هُوَ سِرُّ اللَّهِ عَنِ تَبْيَانِهِ كُلِّ اللِّسَانِ
فَارْقُبُوا مِنْ ذَلِكَ الْوَائِبِ فِي بَحْرِ الْقَضَاءِ
وَارْقُبُوا الْكُؤُوبَ الَّذِي يَخْتَارُهُ مَاءُ السَّمَاءِ

تَمِيلُ سَحَابَةُ الْوَادِي فَتَحْكِي فِيهِ غَطَاسَا
 رَمَتْهَا الشَّمْسُ بِالْيَاقُوتِ أَكْدَاسَا فَأَكْدَاسَا
 وَأَغْنِيَةُ ابْنَةِ الْفَلَاحِ تُطْرِبُ رُغْمَ رَكَّتْهَا
 بِرَقَّتْهَا إِذَا غَنَّتْ وَأَهْتَهَا وَأَنْتَهَا
 كَأَنَّ غَنَاءَهَا فِيضٌ يُقْلُّ سَفِينَةُ الْقَلْبِ
 تَغَازِلُ نَهْرَ قُرْطُبَةَ الَّذِي يَذْخِرُ بِالْحَبِّ
 هُنَالِكَ يَزْتَعُ السَّارِي هُنَالِكَ تَضَخُّ الْوَرَقُ
 كَأَنَّ النَّهْرَ تَارِيخٌ يَغْنِي فَوْقَهُ الشَّرْقُ
 نَعَمْ ، مَا زَالَ عَالَمُهُ الْجَدِيدُ يَحْوَطُهُ الْقَدْرُ
 وَمِثْلِي لَيْسَ يُعْجِزُهُ عَلَى إِدْرَاكِهِ نَظَرُ
 وَلَوْ هَتَكْتُ أَسْتَارِي وَأَسْفَرْتُ وَجْهَهُ أَفْكَارِي
 لَكُلِّ الْغَرْبِ أَنْ يَحْمِلَ مَا غَنَّتْهُ أَوْتَارِي
 حَيَاةٌ لَيْسَ فِيهَا ثَوْرَةٌ مَوْتُ لَطَالِبُهَا
 وَهَلْ لِحَيَاتِنَا فَكْرٌ يَكُونُ لغيرِ غَالِبِهَا
 وَبَدَأُ الْفِكْرَ بَدَأْتُ أَهْلُ الْإِحْرَارِ لِلْخَطَرِ
 وَشَعْبٌ وَاثِقُ الْخَطَوَاتِ سَيْفٌ فِي يَدِ الْقَدْرِ
 إِذَا الْآثَارُ جَوْهَرْنَا أَبْنَاهُ عَابَهَا النَّقْصُ
 وَإِنْ لَمْ تَأْخُذِ الْأَنْغَامَ عَنَّا أَضْحَكَ الرِّقْصُ

صرخة «المعتمد»^(١) في السجن

تَكَادُ صرخةُ قلبي عند حَنَجَرَتِي تشقُّ من كَتَمِهَا قلبي وتنطلقُ
كأنَّهَا جَمْرَةٌ فِيهِ بَلا شَرِّ قلبي بها دون كلِّ الناسِ يحترقُ
كذلك تفعلُ بالحرِّ الحَيَاةُ إذا أرادَ شيئاً وحالتُ دُونَهُ الطُّرُقُ
أليسَ عاراً على الأحرارِ يسجنُهُمْ مع العبيدِ دَعِي جَيْشُهُ الحَمَقُ
لعلَّ فولاذَ سيفي صَبِغَ ثَانِيَةً غَلاً لكفِي التي لم يَنْتَهِهَا فَرَقُ
لا أَشْمَتَ اللهُ بالأقدارِ حاسِدَنَا فليسَ شيءٌ من الأقدارِ يُسْتَبَقُ

(١) المعتمد بن عبَّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .

وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى^(١)

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة
عبد الرحمن الأول التي وردت في نفع الطيب ٥٤ / ٣ وقد عُرِست
النخلة في مدينة الزُّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقرئ) .

تبدّت لنا وسط الرُّصافة نخلةٌ	تناءث بأرضي الغَرْبِ عن بلدِ النُّخلِ
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنَّوى	وطولِ اكتئابي عن بنيٍّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنتَ فيها غريبةٌ	فمثلك في الإقصاء والمُتأى مثلي
سقتك غواصي المُرْنِ في المُتأى الذي	يسُخِّح ويستمرّي السَّماكِينِ بالوَبَلِ

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورٌ عيني
أنت فرح قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترغزعت في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذٌ صبري في غربتي
وأنت نَفَذٌ صبرك في غربتك
أيمكن أن تؤتني ثمارك في الأرض الغربية
عسى أن يكونَ ندى الصُّباحِ هو الذي يسقيك .

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك أثرنا
نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربةً مثلنا وما زلتُ في التَّطَوُّفِ ألقى على المدى وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى وما من حياةٍ للذي أنْفَ الرَّدَى إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تَأَلُّقاً وما ضَرَّنا مُلْكُ تركناه خلفنا سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرنا إذا نَفَبَتْ أجسادنا من دماننا ستذْكُرنا الدُّنيا وتندُبنا الورى يقال هنا صلَّتْ وضجَّتْ قلوبُهم	وفي الشَّامِ من أمثالنا عَدَدُ الرَّمْلِ زماناً غريبَ الوجه مختلفَ الشَّكْلِ مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي وهل يقدح الزُّند الشرارَ من الوحل وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ وحاشا لأهلِ الجُودِ توصمُ بالبُخلِ فمنزلُنا رِيَّانُ من عَدَقِ البَذْلِ وتطلَّب من آثارنا كعبةَ الفضلِ هنا انتبذت أرواحها رسلُ النُّخلِ
---	---

إسبانيا

(كُتِبَتْ فِي إِسبَانِيَا سَاعَةَ مَغَادِرَتِهَا)

صَوْتُ الْمَنَائِرِ فِي نَسِيمِكَ يَرْقُدُ وَصَدَاهُ فِي أَرْوَاحِنَا يَتَرَدَّدُ
يَا تَوْءَمَ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ تَطَوَّقَتْ بِكَ رُكْعٌ مِنْ عَاكِفِينَ وَسُجَّدُ
سِيمَاكِ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ عَلَى الثَّرَى طَرَبٌ يَفُوحُ وَنَفْثَةٌ تَتَجَدَّدُ

تَحْكِي النُّجُومُ أَسْنَةً لِرِمَاحِهِمْ بِإِزَائِهَا لَيْلٌ يَقُومُ وَيَقْعُدُ
مَلُؤُوا وَمِثْلَكَ بِالْخِيَامِ وَلَمْ تَنْزِلْ أَوْتَادُهَا بِنَسِيمِهِمْ تَتَأَوَّدُ
إِنْ تَسْأَلِ الْحَسَنَاءُ عَنْ حُنَائِهِمْ فَتَخِيبُ يُنْصِفُهَا دَمِي الْمَتَوَرَّدُ
يَا طَالَمَا سَفَكْتَ هُنَاكَ دِمَاؤُنَا ظُلْمًا وَنَحْنُ الْمَشْفُقُونَ الْعُسُودُ

مَا كَانَ صَقَرُ قَرِيشٍ غَيْرَ مُوَحَّدٍ عَجَبًا أَمَا فِي الْمُسْلِمِينَ مُوَحَّدُ
خَمَدَتْ حَقِيقَتُنَا وَزَالَ لَهْيُنَا وَبَرِيقُ قَرْطَبَةَ الشُّرَيْدُ مَخْلَدُ
وَوَقَفْتُ لَا نَوْمِي خَمَدْتُ وَلَا الشُّرَى أَتَكَبَّدُ الْجَرْحَ الَّذِي أَتَكَبَّدُ
عَانَيْتُ مُشْهَدَهُمْ وَقُلْتُ وَقِيلَ لِي سَيِّانُ قَوْلٍ فِي الْعِزَاءِ وَمَشْهَدُ

سُتْهِتِكَ الْأَسْتَارُ عَنْ سَيْنَانِنَا وَتُبَاحُ أَسْرَارِ لَنَا وَتُبَدَّدُ
وَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَقُومُ بِهَتِكِهَا لِلنَّاسِ أَوَّلَ مُصْلِحٍ يَتَحَمَّدُ

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد - القائد الشاب - بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »^(١) ، فيشير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافئ الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبيراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لا تُهزم ، وإرادة لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ إِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْفُتُوحُ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الأولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » ، فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالاً غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بيهبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهم الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردى في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دم عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليه إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلتها ، وقد قدمنا لتزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جذب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر - العرب - بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلت من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقدف في قلوب الناس رعبتها ، وهيتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف ^(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المخلص - وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ يَحْدِلْ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] ^(٢) .

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظِمَتْ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ »

حملوا عَنَاءَ الْعَالَمِينَ وَسَارُوا
وَالنُّورَ فِي نَظَرَاتِهِمْ وَالنَّارَ
وَتَرَا جَعَتْ لَخَطَاهُمْ الْأَنْهَارَ
وَالْعِشْقَ فِي أَرْوَاحِهِمْ إِعْصَارَ
عِلْمٍ عَلَى الذَّارِينَ لَا يَنْهَارُ
وَإِذَا تَقَحَّصَ فَالْجِرَاحُ غِبَارُ
وَمَطَامِخُ الْهَمِّ الْكِبَارِ كِبَارُ
تَرْجُو رَجَاءَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
وَتَضِجُ لَيْلَ نَهَارٍ فِي الْبُسْتَانِ
سَكَّانَهَا وَجَعَلَتْهُمْ أَفْذَاذَا
وَجَعَلَتْ أَعْرَابِيَّهِمْ أَسْتَاذَا
عَزَّتْ وَطَلَبَتْهَا مَذَاقُ النَّارِ
كَلَّتْ مِنَ التُّرْحَالِ وَالتُّسْيَارِ
هُوَ لِلْبَصِيرَةِ بَابُهَا الْمَفْتُوحُ
يَتَوَسَّلُونَ كَمَا تَوَسَّلَ نُوْحُ
وَهُمْ وَأَنْتَ الْفَرْدَ لَا تَتَغَيَّرُ
وَالنَّاسُ مِنْهَا مُوسِرٌ أَوْ مُعْسِرُ
إِلَّا ظَنُّونَ السَّوَاهِمَ الْمَقُولُ
سَكْرَانٌ مِنْ مَاضٍ وَمِنْ مُسْتَقْبَلِ

هَذَا الْكُمَاةَ عِبَادُكَ الْأَخْيَارُ
أَصْحَابُ سِرِّكَ وَالسِّيَادَةُ طَبْعُهُمْ
فَعَلْتَ كَمُوسَى فِي الْبَحَارِ عَصِيَّتُهُمْ
الْبَخْرُ حَبَّةُ خَرْدَلٍ فِي كَفِّهِمْ
عَزَفُوا عَنِ الذَّارِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ
نَيْلُ الشَّهَادَةِ لِلْمَوْحِدِ مَطْمَحُ
لَا سَبِيَّ غَانِيَةٍ وَسَلْبُ خَزَانَةِ
كُلِّ الْعِبَادِ عَلَى اخْتِلَافِ عُرُوقِهِمْ
تَرْجُو مِنَ الْعَرَبِيِّ لَوْنَ دِمَائِهِ
رَبَّاهُ أَنْتَ بَعَثْتَ مِنْ صَحْرَائِهِمْ
وَمَلَأْتَ صَدْرَ الصُّبْحِ مِنْ آهَاتِهِمْ
طَوَتْ الْحَيَاةُ الدَّهْرَ تَنْشُدُ طُلُبَةَ
وَبُرُوحِهِمْ عَثَرَتْ عَلَيْهَا بَعْدَمَا
الْمَوْتُ لَيْسَ نَهَايَةً فِي عَيْنِهِمْ
رَبَّاهُ ! فَابْعَثْ مُسْلِمِينَ أَعَزَّةَ
لِتَغْيِرَاتِ الْعَضْرِ مِنْ ثَوَرَاتِهِ
رَبَّاهُ ! أَنْتَ هُوَ الْحَقِيقَةُ كُلُّهَا
الدَّهْرُ مَلِكٌ يَدِيكَ لَيْسَ لِأَهْلِهِ
يَتَنَازَعُونَ عَلَى تَفَهُُّمِ عَالَمِ

« لينين » أمام الله^(١)

يا من نرى فسي النفس والآفاق من آياته
الحق : أنك خالداً حيٌ يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك أن يكون على يقين
والعقل يخرج مرغماً عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرتة السريعة
ما كنت تُسزله من الأنعام في خلد الطبيعة
سيان رصاد النجوم ومن تسوغل في النبات
وقفوا على مصادهم والكل ينقصه الثبات
اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
أني - وتعلم - لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عتمة تدور

(١) علّق الأستاذ المُلُوحِي على القصيدة بقوله : يهّم القارئ أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص ٧٣ :

هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطيء من يرى فيها تغيراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير .. فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوئ الرأسمالية .

ويجب أن نقول إن هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرّاعد الذي كلّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكرو فن عدد ٣٢ ص ٧٩ وما بعدها .

كُنَّا هُنَاكَ مَكْبَلِينَ بِكُلِّ أَغْلَالٍ اللَّيَالِي
أَيَّامَ أَنْتَ تَصَوِّرُ الْأَزْمَانَ فِيهِ عَلَى التَّوَالِي
قَلْبِي يَمْرُقُ فِيهِ سَوْأَلٌ فِيهِ فَائِذْنَ بِالسَّوَالِ
تَرْكُتُهُ خَوْفًا مِنْ عَوَاقِبِهِ أَبَاطِرُهُ الْجِدَالِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ طُولُ الْعُنْرِ يَرْمِينِي شَرِيدًا
وَبِشْرُنِي تَحْتَ السَّمَاءِ أَسَى وَيَتْرَكْنِي وَحِيدًا
هَذَا الَّذِي أَلْقَى بِأَيَّامِي حُطَامًا فِي الْوَهَادِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ مَغْرُوسًا كَشُوكٍ فِي فُوَادِي
هَذَا السَّوَالُ عَنِ الْأَنَامِ وَلَنْ أَجُورَ عَلَى الْأَنَامِ
وَأَنَا تَضَايِقْنِي مِرَاقِبَةُ الطَّرِيقَةِ فِي الْكَلَامِ
فَالْمَرَّةُ لَمَّا تَعَصَّفُ الْأَفْكَارُ فِي أَرْجَاءِ رُوحِهِ
لَا يَسْتَطِيعُ تَخْيُّرَ الْكَلِمَاتِ تَخْرُجُ مِنْ جُروحِهِ
[مَنْ كَانَ آدَمُ حِينَ كَانَ الطَّيْنُ صَلْصَالًا عَلَيْهِ
مَنْ كَانَ سَيِّدُهُ سَوْأَلٌ لَا أَوْجَهَهُ إِلَيْهِ]
إِيَّاكَ يَعْجِدُ - لَا أَظُنُّ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ -
عَاصِرُتُهُ أَيَّامَ كَانَ السَّيِّدُ أَفْيُونَ الشُّعُوبِ
عَاصِرُتُهُ مَتَرْنُحًا بِهِيَ أَكْلُ الصَّنَمِ الْقَبِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ الَّتِي ائْتَمَرَتْ عَلَى الشَّرْقِ الْجَرِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ الَّتِي تَبْدُو مَنْسَارًا لِلْحَيَاةِ
وَالْحَقُّ أَنَّ النَّبْعَ فِي ظِلْمَاتِهَا نَبْعُ الْمَمَاتِ
تَاهَتْ بِأَبْنِيَةِ الْمَصَارِفِ فَوْقَ أَبْنِيَةِ الْكُنَائِسِ
وَأَنْتَ لِهَيْكِلِهَا الْجَدِيدِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ النَّفْسَائِسِ
قَالُوا نَجَارَاتُ تَدَارُ وَكُلُّ مَا فِيهَا قَمَارِ
وَمَصَادِفَاتُ تَجْعَلُ الْبُلْدَانَ فِي جَيْبِ الْكِبَارِ
أَيُّ السِّيَاسَةِ وَالْحُكُومَةِ وَالْكُنَيْسَةِ وَالسَّمَاءِ

رفعوا مساواةً فقال وأشرربوا حُبَّ الدماء
 العُزِّي والفقر المبادل والبطالة والفساد
 آياتُ أوربَّة التي انتشرت بأنحاء البلاد
 أسفلاً لشعبٍ كاملاً ردَّ المحبَّة للسماء
 حصرت روائعه بما أوحث إليه الكهـرباء
 لم يبقَ بعد حكومة الآلات معنى للقلوب
 كان الحنان ملاذناً فمَحَتْهُ من بين الشعوب
 ويرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم
 سيبددون ويفرعون على الهزيمة سنهم
 حاناتهم وقعت بما نصبوه من تلك الشباك
 فإذا شيوخُ الشكر مما يشربون بلا حراك
 الحمرة الملقاة فوق وجوههم عند المساء
 آثارُ خمرة زائفة وخضاب زور لا دماء
 رباه أنت القادر الحق الرحيم العادل
 من ذاق من مرَّ المعيشة ما يذوق العاقل
 الراسماليون مركبهم يُعزبدُ في بحارك
 فتى تُقرُّقه وتأخذ من مظالمهم بشارك

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لبنين »

الفكرُ حرٌّ لا يُرَدُّ جِماحُه والحبُّ لا ماوى له يُؤويه
 رياه ! لوحتك التي لم تكتمل جارت على السرِّ الذي تطويه
 كهان خلقك في صفوف طُفاتهم يَفْقُون للبطاء بالمرصاد
 محنٌ صباح مساء لا معنى لها إلا لجوءُ النَّاسِ للإلحاد
 فقراؤهم من بؤسهم في سكرة والأغنياء من الرِّفاه سُكاري
 عبدٌ يلمُّ من الشُّوارع خبزه عوزاً ، وعبدٌ يُطعمُ الأقمارا
 هل تَسْلَمُ الحكماءُ والفقهاءُ من طمعٍ تاجج في النفوس وقيدُه
 أم تَسْلَمُ الآراءُ من لعناته هذي عطاياه ، وتلك عبيدُه
 يرعونَ كلَّ ضغينةٍ لبائهم والحبُّ من ألم الشَّقَاءِ يصيحُ
 سبحانك اللهمَّ فالحبُّ الذي يأسو جراح البائسين جريحُ
 ذاتُ الحياة الحبُّ جوهرُ سرِّها والحبُّ جوهرُ حياة الذاتِ
 أسفاً لهذا السيف يخبطُ سرَّه في الغمدِ بين الذُّلِّ والآهاتِ

« أوامر الله للملائكة »

قوموا إلى كوني الغريق وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
 أيذلون مساجدي بقصورهم جوراً على خلقي وهم أجبرائي

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا
قولوا لحائريهم تبدّل أمركم
قوموا إلى ضعفائهم وهبؤهم
وامحوا من الماضي جميع ذبوله
وخذوا من العذل الأخير لأرضهم
وتقلّبوا بالنّار في الحقل الذي
لم هذه الحُجُب التي تلهو بهم
لا تتركوا في الأرض سترًا مسبلًا
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقين بلجّة الأوهام
لله قد شرع الشّجود وما عدا
جوسوا الكنائس والمساجد لا
أنا غير راضٍ عن رخام أبيضٍ تلقى به سوّد القلوبِ مراحا
وابنوا من الطّين المعابد علّ أن يَجِدَ السّكينة عابدي المسكين
يتنافسون بنفسيها

فيهم ولا تأسوا على أسرارهِ
فاستبدلوا بزّد اليقين بنارهِ
ما يجعلُ العُصفورَ يضرعُ بازا
لا تتركوا للجامدين مفازا
سيفاً يقيمُ بحدّه الإصلاحا
تجدونه لا يشبعُ الفلاحا
وتحولُ بينَ الخلقِ والخلّاقِ
أرخاه كاهنهم على أرزاقِي
هذا، مؤامرةٌ مع الأصنام
أرى لكنيسةً ولمسجدٍ مصباحا
أنا غير راضٍ عن رخام أبيضٍ تلقى به سوّد القلوبِ مراحا
وابنوا من الطّين المعابد علّ أن يَجِدَ السّكينة عابدي المسكين
وبرقيشها والطّينُ لا يهديه إلا الطّينُ

فتشتُ في هذي الحضارة كلّها
فتداركوا الشّرقَ الذي يرنو لها
في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها
وصميمٌ ذاتك في حوارِ إلهها
آثارُ دروشةِ القلندر لم تُعدْ
في كبرياءِ الفقرِ صونٌ ذواتنا

لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير
وليلُ شاعرهِ بصوتِ نكير
تهديمٌ صرّحَ الذات في الإسلام
وحوارِ موسى ليس محضَ كلام
سراً ودروشةِ القلندر تاجُهُ
والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُهُ

في أرض فلسطين

تحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالريح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ التَّسِيمُ عالياً بليلاً ، وهفت أوراق النَّخِيلِ مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرُّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافي^(١) منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنّت .

وطاب المكان والزَّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته^(١) .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمنله ، ويتغنّى به ، وقد حلّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طلّه التّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتّى ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورة إبراهيمية جديدة ، إلى كاسر أصنام يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز - معقل الإسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلَّى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون » .

ثم يستعرض العالم الإسلامي - وقد عرف شرقه وغربه وعربييه وعجميه - فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة ، وقلة البضاعة^(١) في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية - بمعناها

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدوره .

الواسع - محرومةً من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعته في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرة فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضيء على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل - بعد توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » ، ويناجي ربه ويقول : « إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركة قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر (١) .

فلينظر العالم العربي إلى أي معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أي راية ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمدية التي التف حولها أبو بكر وعمر (٢) .

« فلسطين » في أرض

كُتبت أكثر هذه الأبيات في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي .

من الفقر أن تأتي وفاضك فارغاً وقد طُفَّت في تلك الرياض جميعها (٣)
« سعدي »

نزلت بريّة الوادي بذي سلم والشمس ترتع بين البان والعلم

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسرتا قد عدت فارغ اليد من تحف الدنيا لهذه البلد

انظر البستان (١ : ١٦) .

يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقمِ
تَقْهَمُ القلبُ منها أَلْفَ مُقْتَحِمِ
حمراءُ زرقاءُ من وردٍ ومن عَنَمِ
وأومضَ البرقُ في الظُّلُماءِ من إضمِ
مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
يموجُ فيها بما في الخزُّ من عَمَمِ
يذوي ، هنا بضِعُ أشلاءِ من الخِيمِ
وعَضَّ من لَغَبٍ نضوٍ على لُجَمِ
فإن رضيتَ بسكرها هنا أقمِ
سَلُوهُ ، ويهيج الوَجْدُ بالشَّبَمِ

وفاحَ رِيحُ صباحٍ من مواجدها
بنظرةٍ لجمال الوادي واحدةٍ
وللمساءِ سحابٌ من غلائلها
أَلَقَتْ براقِعَ مجلاها على إضمِ
نقيَّةُ الخدِّ سعفُ النخلِ مشرقةُ
والزَّمَلِ كالخزفي في أرجاءِ كاظمَةِ
هنا بقيَّةُ أطلالٍ ، هنا لهبُ
كم خَلَفَ ليلَى ركابٌ من هنا عبرتْ
هُمُ أقاموا سكارى هاهنا زمناً
يرى هنا من ناثٍ عنه أحبُّهُ

(٢)

عندي ، ومن ذا الذي يُضغِي إلى كلمي
وزناً زماناً تعاطى سكرةَ القَدَمِ
بغزنويٍّ جسيديٍّ غير منهزمِ
أمام (سومنات) مبعوثٌ من الحَرَمِ
يُرَجِّجِي ، ولا في غناءِ الفرسِ من نَغَمِ
وهل هنالك محمودٌ من العَجَمِ
قلبٌ ، ولم يلقه خالٍ ولم يَهَمِ
وحسنٌ دجلةٌ في محرابهم صنمي
وهم سلالَةُ أهلِ الحبِّ والتَّيَمِ
بغيرِ حبٍّ وهل للشعبِ من قِيَمِ
وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسينِ رُمي
كم ضَرَجَ الحبُّ فيهما من فؤادِ كمي

خمرُ الحياةِ كمثلِ الشَّمِّ عاقبةُ
صياحٍ وجوٍّ جديدٌ لا يقيمُ له
أما لمعتريكِ الأيَّامِ من طَمَعِ
عبادِ (سومنات) تخشى أن يحَرِّمَها
لا في لهيبِ تراثِ العُرُبِ من رَصَدِ
هل في الحجازِ حسينٌ من بني مُضَرِ
ألا يهيمُ على وجهِ الفُراتِ لهم
أحسنُ دجلةٍ لم يفتنُ سرائرهم
أما لهم من بقايا الحبِّ باقيةُ
أستغفرُ الله هل للدينِ من قِيَمِ
بالحبِّ قدَّم إبراهيمَ واحده
فسل حُنيناً وبدراً عن حروبهما

في آية^(١) الخلق أنت السرُّ لا أحدُ ولو تجلَّيت ما أبقيت من عصم
لأجل معنالك ما تلقى وما لقيت قوافل القوم في الوديان والأكم

رهباننا انقطعت عنا بأديرة وكلُّ منقطع في الذير عنك عيى
لا يرتضي القوم عن حاناتهم بدلاً بالرغم من أن ساقى الناشئين ظمي

أنا - وفي غزلياني التي اشتهرت بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالِفِ الْقَدَمِ -
حكايتي البحث عن قوم هنا عُدِمَتْ أخبارهم وهنا سادوا على الأمم

لِلشُّوكِ كَالْوَرْدِ حَظٌّ مِنْ نَسَائِمِكُمْ ونسمةُ الصبح للريحان والسلم
أنا أعينُ على وردٍ بلا جدلٍ كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

هذا الغناء الذي ماج الرجاء به تسيل أنفاسه من مُهْجَتِي ودُمِي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارهم وتروى من أكفهم

فلا تدع لهياج القلب فرصته فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفتني بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللُّوحُ أنت وما في اللُّوحِ من قَدَرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

(١) يبدو أن إقبالاً في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عز وجل ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .

ويرى تشيشتي أن الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لو تنطق القبة الزرقاء ما كذبت بأنها ذرة في بحرِ العرم

لك الجلال الذي لم تبقر روعته من ملك سينجار إلا عبرة الندم
لولا جمالك ما ذاق الجنيد نوى ولا أهيل على طيفور بالثهم
نذاك لا تعرف الأنساب نفحته يا من غمرت جميع الناس بالكرم
إن لم تكن نصب عيني في الصلاة فلا قامت على الزور في محرابها قدمي

مذاهب الفكر من بحث الغياب وهت ومشهد الحب من وثب الحضور دمي
بالزغم من ثورة للشمس ساطعة ما زالت الأرض في بحر من الظلم

(٥)

أنا - وتعرف أيامي التي سلفت وما تحملت من كذي ومن سامي -
ما كنت أعرف أن العلم مضية وأنه سبب الأطماع والنهم

هزرت كل نخيل الفكر ما سقطت علي غير عراجين من الهرم
لقد تيقظ وجداني الذي عصفت به مقالات موشور ومُنْتَقِم

الفكر من حيث تأتبه أبو لهب وكله كله مكر من الأمم
والحب حيث يكون المصطفى يده وكله كله من مقلتيه نبي

أخذت عنه فنون الحب فاغتنموا مذاهب الحب في شعري وفي حكمي

نهاية الحب أحلى من بدايته وربما صَحَّتْ الأجسام بالسَّقَمِ

وليس أغربُ منه عند مُبتَدَأ وليس أعجَبُ منه عند مُخْتَمِ
إذا رماك فما للقلبِ من حِيلٍ وإنْ جُرِحَتْ فجرَحَ غيرُ ملتَمِ

يا سائلي عن فراقِي بعد ليلتنا وعن حظوظي من البلوى وعن قِسْمِي
فراقه رغبةٌ في القلبِ محرقةٌ وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءٌ فمي
أهلُ الوصالِ لهم قلبٌ بلا طَلَبِ وأيُّ معنَى لقلبٍ غيرِ مُضْطَرَمِ
وهل لقطرة ماءٍ مجدُّ تسميةٍ إلا إذا نُبِذَتْ من عجمة الدَّيَمِ

حاولتُ لما تجلَّى أنْ أشاهده وسوَّلتُ لي نفسي هتَكَةَ الحُرَمِ
بالزُّغم من أن طرفي في الهوى وقعَ أغضيتُ لَمَّا تجلَّى خشيةَ الدَّهَمِ

الفراشة واليراعة

قال الفراشُ لنفسه لَمَّا رأى رَقَصَ اليراعَ على المِدَادِ الأسودِ
كَمْ في حياتِكَ من غبيٍّ أحمقٍ ما ذاقَ تَصْلِيَةً بنارِ المَوْقِدِ
سمِعَ اليراعُ كلامَه فأجابَه حاشا لأمثالي بمثلِكَ تقتدي
حمداً لرَبِّي ما خُلِفْتُ فراشةً بجناحها وسمُ العبيد الرُّقْدِ
أنا لست أستجدي سواي تسوِّلاً أنا في فؤادي جُذوتي وتوقُّدي

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أَبْنِيَّ ! لَحْنُ الدَّاتِ فِي أَعْمَاقِنَا
أَبْنِيَّ ! لَيْلُ الشَّعْبِ لَيْسَ يَضِيئُهُ
أَبْنِيَّ ! قَوْلُكَ : كَانَ آدَمَ جَدُّنَا
فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ أَلْفُ حَقِيقَةٍ
أَبْنِيَّ ! لَنْ يَصِلَ الْغُرَابُ لَعُنَّا
هَذَا الشَّوَاهِينُ الَّتِي يَلْهُو بِهَا
أَبْنِيَّ ! صَانَ اللَّهُ وَجْهَكَ عَالِيَا
إِيَّاكَ أَنْ يَأْتِيَ لِقَبْرِي زَائِرٌ
إِقْبَالَ مَا رَضِيَ التَّرَهُّبَ سِيرَةً
أَبْنِيَّ ! لَيْسَ بُنْيَّ إِلَّا مَنْ رَوَى

بَاقٍ يَنْدُلُّ عَلَى خُلُودِ حَيَاتِهِ
إِلَّا تَصَلِّيْهِ بِشَعْلَةِ ذَاتِهِ
مَلِكًا لِهَذَا الْأَرْضِ قَوْلُ نَبِيِّ
وَمِنَ التَّأَلُّقِ أَلْفُ نَوْعٍ فِيهِ
مَهْمَا اسْتَطَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَوَاهُ
أَبْنَاءُ سَيِّدِهِ الَّذِي رَأَاهُ
مَا فِي زَمَانِكَ مَنْ يَصُونُ حَيَاءَهُ
وَيَقُولُ لِي جَاوِيدُ يَبْذُلُ مَاءَهُ
لِنَقَاءِ فِكْرَتِهِ وَخَضْبِ فَوَادِهِ
بِوَصِيَّتِي هَذَا جَمِيعَ بِلَادِهِ

تسول

صَاحَ فِي الْحَانَةِ سَكِيرٌ ظَرِيفٌ
أَيْكُكُمْ يَخْرُجُ عَنْ بَرَزَتِهِ
أَيْكُكُمْ يُضْبَحُ غُرِيَانٌ لِكُنِي
كَأْسُهُ حَمْرَاءُ فِي لَوْنِ الشَّقِيقِ
كُلُّ مَا فِي قَضْرِهِ جَمْعُهُ
لَيْسَ مَنْ يَسْرِقُ فِي جَنْحِ الدُّجَى
كَمْ بِذَاكَ الْحَقْلِ مِنْ فَلَاحَةٍ
بَلَّغُوهُمْ أَنَّنِي قَلْتُ لَكُمْ

إِنَّمَا السُّلْطَانُ شَحَّاذٌ جَلِيفٌ
طَمَعًا فِي ذَلِكَ التَّاجِ الصَّلِيفِ
يَرْتَدِي فِي الْقَضْرِ ثَوْبًا مِنْ ذَهَبٍ
وَعَلَيْهَا مِنْ دَمِ النَّاسِ حَبَبٌ
بِقَرَارٍ مُجْعَفٍ إِثَرَ قَرَارٍ
مِثْلَ مَنْ يَسْرِقُ فِي وَضْعِ النَّهَازِ
شَعَذُوا مِنْهَا طَعَامًا لِلدَّجَاجِ
إِنَّمَا الشَّحَّاذُ مِنْ سَرِّ الْخِرَاجِ

المُلاّ والفردوس

أنا أيضاً كنتُ لكن ما تحمّلتُ الشُّكوت
 كنتُ مِنْ شِدَّةِ غِيظِي أتمنّى أن أموت
 كنتُ إذْ بَشَّرتِ الحَجَّابُ بالفردوسِ (مُلاّ)
 فتقدّمتُ أنادي : عفوك اللهم كلاً
 ليس للمُلاّ اهتمامٌ بمغائيبك وحمورك
 هو سكرانٌ ، نعم سكرانٌ ، مِنْ غيرِ خمورك
 ما درى مِنْ لُجَّةِ الذُّوقِ سوى قِيلَ وقال
 يَخَسِبُ الدِّينَ الَّذِي أنزلتَ تاريخَ جدال
 أنا لا أرضى لنفسي أن أرى عبيدي جناناً
 كيفَ ترضاهُ زعيماً وهو لا يُخَيِّنُ شأننا
 لم يُعْذِ يابسهُ إنسانٌ بملاك المنقَر
 فإذا ما جاء يوماً قيلَ قد جاء المكفّر
 لا يرى في خَلْقِكَ المسكينَ إلّاهُ مُطيعاً
 كيفَ ترضى عن غبي كَفَّرَ الناسَ جميعاً
 ليس في الفردوسِ ذكرٌ لكهوفٍ وصوامع
 إنّما الفردوسُ فيضُ الحبِّ مِنْ صَدْرِ الجوامع

الدِّينُ والسِّياسة

عندي لرهبةِ الكنائسِ طُرْفَةٌ فهلَمَّ نَضَحَكَ للحياة قليلاً
 بُيُوتُ لأعداءِ الملوكِ وأصبحت للطامعينَ من الملوكِ سبيلاً

رَأْسُ الْكَنِيسَةِ فِي الْوَدَاعَةِ غَارِقٌ
تَنُوي الْمَضِيَّ فَيَسْتَبْدُ أَمَامَهَا
هَذَا التَّنَاقُضُ كَيْفَ أَمَكْنَ دَمَجُهُ
مَا لِلْقُصُورِ وَلِلْكَنَائِسِ حِيلَةٌ
فَصَلُّوا عَنِ الدِّينِ السِّيَاسَةِ بَعْدَمَا
وَتَطَاوَلَ الْبَابَا فَقِيلَ لَهُ : اسْتَخِرْ
وَتَلَقَّتِ الشَّعْبُ الْجَرِيحُ فَلَمْ يَجِزْ
كَانَتْ مَصَالِحَ رَاهِبٍ وَمَتَوَّجٍ
ثَنِيَّةٌ لَمْ تُبْنِ دَرْباً صَاحِبِ
هِيَ فِي الْيَسَارِ وَفِي الْيَمِينِ مَقِيمَةٌ
هِيَ لَعْنَةُ الدُّنْيَا كَمَا أَفْضَى لَنَا
لَنْ تَعْرِفَ النَّاسُ السَّلَامَةَ سَاعَةً
أَبْدَافُ مَرْقَعَةِ الْجُنَيْدِ لَوَخْدِهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَرْدَشِيرُ صِرَاحَةً

الأرض لله (١)

الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ يَنْبِثُهُ
وَالْغَيْمُ مِنْ لُجَجِ الْأَمْوَاجِ يَرْفَعُهُ
يَسُوقُ لِلزَّهْرِ أَنْسَاماً تَهَيَّجُهَا
لِلشَّمْسِ مِنْ نُورِهِ طَوْقٌ يَزِينُهَا

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْمَغِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقل لصاحبِ تاجِ يدَّعيه له أفقْ فإنَّكَ مسكينُ المساكينِ
مالي ومالكُ من هذا الثَّرابِ سوى ضجيجِ حينِ نُؤلِّي عنه في حينِ
الأرضُ لله يعطيها أحبَّه والحُبُّ عاقِبَةُ الغرِّ الميامينِ

رسالة إلى شاب

سَجَّادُكَ العَجَمِيُّ هَذَا والأُنثَاثُ الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي !
ماذا تفيدك ثروةٌ حصَّلْتَهَا في مثل أبهة الملوكِ بذلتَهَا
أبكي لأجلك يا عزيزي !
هل دُقَّتْ يوماً غِبْطَةُ الإيْمَانِ أو بأسِ حيدرٍ أو رضا سلمانِ
أرحم شبابك يا عزيزي !
سلعُ الحضارة لا تقاسُ بذاتِكَا أنظُنْهَا ثَمناً لكلِّ حياتِكَا
أخطأتِ جدًّا يا عزيزي !
المؤمنُ الصديقُ سيُدُّ ساعته ورقِيُّ عالمه رقيُّ قناعته
فاعرِفْ مكانَكَ يا عزيزي !
لو دَبَّ روحُ النُّسرِ في قلبِ الشَّبابِ لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابِ
إيَّاكَ تياسُ يا عزيزي !
باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته المؤمنُ الصديقُ برهانُ الإلهِ سريرتُه
فاربأُ بنفسِكَ يا عزيزي !
يا أيُّها الشَّاهينُ عُنْكَ ليس في قصرِ الملوكِ لو كنتَ شاهينِ الجبالِ حقيقةً ما أَمْسَكَوكِ
فازجِعْ لِعُنْكَ يا عزيزي !

نصيحة

قال للبازِ الفتى نسراً عجوزاً أنت في الجوّ كما شئتَ تجوزُ
لي رموزُ كنتُ قد حصّلتُها من شبّابي فاغتنمُ هذي الرُّموزُ
لا تقلْ أصلي وفصلي أبداً قيمةُ الشّاهينِ في أخلاقِه
إنّما الشّاهينِ من يخرُقُه دُمهُ الشّخصيُّ في أعماقِه
فسوءُ التّدريبِ روحُ الشُّؤدِ لا تضَيِّغُه سدىً هذا الكلامُ
سترى قيمته يا ولدي ! حين تنقضُ على فرخِ الحمامِ
ما أرينا فرحةً أمتعُ من فرحةِ المنقضِ من أفقِ السّماءِ
فرخُ والله لا يعدّله فرخُ ، حتى ولا سفكُ الدّماءِ !

شقائق النعمان في الغاب^(١)

لَمَنِ السّماءُ تزيّنتْ بِلألي والذّيْرُ من أهلِ الصّبايةِ خالِ
أشقيّةُ النّعمانِ هل تجدين في تلك البراري من يرُقُّ لحالي

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال .
وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنى يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء
كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدّم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك يبنّدها البستان على
ضفافه .

قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنّ هذه النار
الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها
ضبيعت معها .

ولهيب دائم دين الشقيق دمه من ذاك يسري في العروق
إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ،
وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدف واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابة صدرها قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرت نائيةً وتهتُ مسافراً فتعالي تَقْتَسِمِ الهمومَ تعالي
وعلام أيتها الشقيقة سيرنا وإلام هذا الكدُ في الترحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانها وشتاتُ بالك في الجبال وبالي
سيناء أنتِ ونار واديهما أنا وأنا تجليها وأنتِ جبالي
من ذلك الغَوَاصُ أخرجَ دُرّاً من بين أوصالٍ ومن أحوالٍ !
هل كان مخفياً فرام ظهوره أم فرحةً بتفوقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةً منه وتفضحُ سرّه في الحال !
شاهدتُ زوبعةً تشنُّ لموجةٍ فسألتها فاستغربتُ لسؤالي
قالت : ألا تبكي لشورة موجةٍ لم تلطم الشطَّ الغبيّ السّالي
اتعيقُها تلك الرُّمالُ أمامها وأنا أجرُّ إلى السّماءِ رمالي

آلامَ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ والشمسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِهِ وحماسه لك يا بنَ آدمَ يا كبيرَ الآلِ

قطعة

إقبال غنى أمامَ الرّوض أغنيةً رشيقةً هيّجت في الرّوض شكواه
ما كنتُ كالزّهر زهنُ الرّيح عالمه إن شاء مرّقه أو شاء أبقاه
أمشي ويمشي جنوني في الطريقِ معي ولا يمزّق ثوبي غير حُمّاه

كتاب السَّاقِي

(١)

نَثَرَ الرَّبِيعَ عَلَى الْفَلَاحِ يَدَهُ وَأَطْلَقَ عَسْكَرَهُ
وَتَحَوَّلَ الْوَادِي إِلَى حَانَ فَقَامَ وَأَسْكَرَهُ
السُّورُ وَالنُّسْرَيْنِ يُفْسِكُ بِالسَّالَكِ وَبِالْقُدُودِ
فِي صَبَغَةِ الْوَانِهَا مِنْ كُلِّ مَا خَلَعَ الْوُجُودِ
وَشَقَائِقُ النُّعْمَانِ تَرْقُصُ فِي الْوِشَاحِ الْأَحْمَرِ
مَا بَيْنَ بَسْمَةِ أَبِيضٍ يَرْنُو وَغَمَزَةِ أَسْمَرِ
وَتَرَى السَّمَاءَ مِنَ السُّرُورِ تَكَادُ تَنْقُطُ فِي الْفَجَاجِ
وَنَدَى النِّسِيمِ خِلَالِ زُرْقَتِهَا تَكْسُرُ كَالرُّجَاجِ
وَتَدْفُقُ الدَّمَ فِي الْحَجَرِ وَمَضَى يَكَابِدُ مَا هَجَرَ
وَالْقُبَرَاتُ تَرْكُنُ فِي الْأَعْشَاشِ أَغْلَالُ الشَّجَرِ

أَهْ لِهَذَا الْجَدُولِ الْمُحْزُونِ يَقْفُزُ فِي الْوَهَادِ
لَا يَشْتَكِي ضَيْقَ الْحَيَاةِ وَلَا يَمَلُّ مِنَ الْجَهَادِ
يَسَابُ ، يَرْقُدُ ، يَسْتَقِرُّ ، يَهِيْجُ ، يَضْحَكُ ، يَلْتَوِي
يُرْوِي الْجُلُوسَ عَلَى الضُّفَافِ وَبِالْتَمَرِ يُرْتَوِي
وَإِذَا تَجَمَّعَتِ الصُّخُورُ عَلَيْهِ شَتَّتَ حَزْبَهَا
وَاخْتَارَ مِنْ ثَغَرَاتِهَا دَرِيًّا وَمَرَّقَ قَلْبَهَا
يَا أَيُّهَا السَّاقِي فَهَاتِ مِنَ الْكُؤُوسِ مِنَ الدُّنَانِ
لَا تُنْخَنِ الْقَلْبَ الْجَرِيحَ وَأَنْتَ أَجْدَرُ بِالْحَنَانِ

هذي الشَّقَائِقُ جَوَقَةٌ بالسَّرِّ تَرْقُصُ فِي الطَّرِيقِ
دَعْنِي أَبْشُدُ خَمْرَتِي أَسْفَأُ عَلَى الْكَاسِ الْعَتِيقِ
مَا كُلُّ مَا دَارَ الشَّقِيَاءُ بِهِ تَدُورُ بِهِ الْقُلُوبُ
أَنَا أَطْلُبُ الْخَمْرَ الَّتِي كَانَتْ تُشَقُّ لَهَا الْجُيُوبُ
كَانَتْ تَفِيضُ كَأَبَةٍ كَالْوَزْدِ يَذْبُلُ فِي الْخُدُودِ
فَتُرُّ إِشْكَالَاتِنَا وَتَذِيغُ أَسْرَارِ الْخُلُودِ
أَيُّهَا السَّاقِي هُنَّكَ الْأَسْتِثَارُ
عُمُرُنَا الْبِاقِي جَلِوَةُ الْأَسْرَارِ
لِلذَّةِ التَّلْحِيحِ لَيْسَ فِي الْأَوْتَارِ
يَضْرَعُ الشَّاهِرِينَ أَصْفَرَ الْأَطْيَازِ

(٢)

بَدَّلْتَ أَنْغَامَ الزَّمَانِ وَنُوطَةَ الْعَزْفِ الْبَلِيدِ
وَتَدَاخَلْتَ آلَائِهِ وَتَمَرَّدَ النَّعْمُ الْجَدِيدِ
فَسَرَّحَ لِلْفَزِ الْإِنْكَلِيزِ وَلِلَّذِي عَرَى غُرُورَهُ
وَلَأَن ذَاتَ السَّرِّ يَغْكُسُ مِنْ زُجْجِ الصَّيْنِ نَوْرَهُ
هُوَذَا عَلَى مَرَأَى وَسْنَعِ الْكَوْنِ يَرْقُصُ فِي الْمَرَايَا
وَيَجِيْشُ فِي (آلْبُونْد) يَلْمَعُ فِي رُؤُوسِ الْهِمَلَايَا
فَرِحَ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَلْفِظُ كُلَّ سُلْطَانٍ مَهِيْنِ
وَتُعْلِمُ الشَّعْبَ الْمَكْبُولَ كَيْفَ يَأْخُذُ بِالْيَمِينِ
فَرِحَ لِأَنَّ الرُّأْسِمَالَ يَنَالُ مِنْهُ جُنُودُ طُورِهِ
وَلَأَنَّهُ كَالسَّاحِرِ الْمَفْضُوحِ بَعْدَ أَدَاءِ دَوْرِهِ

لَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ تِلْكَ وَذَلِكَ الشَّعْبُ الْعَرَاءُ
نَزَلَتْ عَلَى سِينَاءَ صَعَقْتُهَا فَلَمَلَمَهَا حِرَاءُ
مَا مُسْلِمًا مَنْ يَسْأَلُ التَّوْحِيدَ يَضْطُّقِلْ فَاسَّه
لِيُحْطِّمْ الْأَصْنَامَ أَجْمَعَهَا وَيَتْرَكَ نَفْسَهُ
نَفْسٌ أَقَامَ لِأَجْلِهَا مَا شَاءَ مِنْ أَصْنَامِهِ
وَيَرِيدُهَا صَنِمًا يَرَاغِبُ إِلَى إِسْلَامِهِ
هَذَا هُوَ الصَّنَمُ الَّذِي شَيْطَانُهُ عَقْلُ الْعَلِيمِ
خُذَائِهِ أَهْلُ الطَّرِيقِ كِتَابُهُ الْعِلْمُ الْأَلِيمُ
أَسْفَسًا لِحَقٍّ يَتْرَكَ الطَّاغُوتَ يُوَدِّعُهُ صُرُوحَهُ
وَيَرَى الْفَقِيرَ يَكَادُ يَلْفِظُ فِي خِصَمِّ الْجَهْلِ رُوحَهُ
كَلِمَاتُهُ هَذَا الْمُبَشِّرُ تَجْذِبُ الْقُلُوبَ الْغَرِيرَ
لَكِنَّ ذَوْقَ الْحَبِّ يَنْقُضُهَا وَيَنْقُضُهَا الْكَثِيرُ
وَلَهُ مَوَاعِظُهُ يَنْظُمُهَا بِدَقَّةٍ مِنْطَقَهُ
لَكِنَّهَا سُرْعَانِ مَا تَخْفَى بِعُقْدَةٍ رَوْنَقَهُ
حَتَّى الْمَرِيدُ فَوَادُهُ بِقِيودِ سُبْحَتِهِ أَسِيرُ
حَبَّاتٍ فَخَّ أَوْقَعَتْهُ وَكَوَانِ شَاهِينَا يَطِيرُ
هَذَا الْمُنَافِرُ كَيْفَ يَرْجِعُ مَنْ ظَنُّوا الْإِرْتِقَاءُ
هُوَ نَفْسُهُ مَا عَادَ يَعْرِفُ مَا الْفَنَاءُ وَمَا الْبَقَاءُ
خَمَسَتْ حَقِيقَتُهُ وَنَارُ الْحَبِّ نَاهَتْ فِي فَوَادِهِ
فَإِذَا هُوَ الْمَتَحَرِّقُ الْمَجْنُونُ يَشْحَطُ فِي رَمَادِهِ

(٣)

قُلُوبُ الْقَوْمِ مَا عَرَفَتْ كُلُّدَةً خَمْرُكَ الْبَسَاقِي

(أَدْرُ كَأْساً وَنَاوِلَهَا أَلَا يَا أَيُّهَا السَّاقِي (١)
رَمَادِي ذُرُّ أَجْنَحَةً بِيَابِ السَّرِّ تَكْطُطُ
وَمِمَّا مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا لَهَا مِنْ حَبْنَا حَطُّ
بِوَدِّي أَنْ أَرَى شَيْخاً يَغْيُرُ وَضَعْنَا هَذَا
يَقُومُ وَيَجْعَلُ التَّلْمِيزَ لِلْأَسْتَاذِ أَسْتَاذَا
يَخَافُ الْبَازُ عَصْفُوراً يُقْلَمُ ظُفْرُ مَخْلَبِهِ
فَآتِ شَبَابَنَا نَوْرًا تَفِيضُ عَلَى الشُّيُوخِ بِهِ
وَحُلَّصْهُمْ بِمَا تَخْتَارُ مِنْ قَيْدِ الْعَبْدِ وَدَيْئَةٍ
وَلَوْ أَلْقَيْتَهُمْ حَطْباً بَنِيرَانِ الْوَجُودِ
تَصَرَّفَ بِالْجَنُونِ لَهُمْ وَفَجَّرَهُ بِهِمْ شُعْبَا
فَلَيْسُوا شَعْبَةً مِنْهُ إِذَا لَمْ يَسْقُطُوا تَعْبَا
شَبَابٌ لَا يَلِيقُ بِهِمْ مِثَالُ الْجَمْرِ فِي ضَرْمَةٍ
كَقَلْبِ الْمَرْتَضَى بِأَسَا وَكَالصُّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
بِظُلِّ جَمَالِكَ الرَّيَّانِ أَوْ رَقِّ شِعْبُنَا الْيَبْسُ
وَلَمَّا أَنْ بَخَلْتُ بِهِ تَوَقَّفَ ذَلِكَ النَّفْسُ
أَسْهَمَكَ لَمْ يَعِدْ يَقْوَى عَلَى تَجْرِيحِ أَمْثَالِي
أَمْ الرِّكْبُ الَّذِي تَرْمِيهِ أَصْبَحَ فَارَغَ الْبَالِ
سَأَلْتُكَ هَذِهِ الْحَسَنَاءُ تُطْلِقُهَا مِنْ الْخَنْدَرِ
لِيَعْرِفَ غُدْلِي مَعْنَى لَهَيْبِ الْعِشْقِ فِي صَدْرِي
بِشَعْرِي ضَغْ لَهُمْ شَرَكَا وَهَاتِ الْحَبَّ مِنْ سَلْبِي

(١) ذكر العلامة السوداني في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .

انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص ٣ .

وخَلَّ حُسَامَكَ الهنديَّ يَجْرُحُ كُلَّ ذِي قَلْبٍ	مرادي رشف أسرارٍ
تَوَوَّلَ راحَةَ اليأسِ	وإلا قَلْبُكَ لِلطَّلَابِ
مَا أَخْفِيهِ فِي نَفْسِي	رَكِبْنَا الْبَحْرَ فِي فَلَكَ
بِأَعْيُنِهِ صَنَعْنَاهُ	فَأَجْرَى الرِّيحُ عاصِفَةً
وَعَكَسَ الرِّيحَ أَجْرَاهُ	ذو ثُ عَيْنَايَ مَن أَرْقِ
عَلَى قَلْبِي طَوَى جَنْبِي	وهذا الدَّمْعُ فِي عَيْنِي
طَلَّ مِنْ نَدَى قَلْبِي	

* * *

وَوَثْبِي فِي طُمُوحَاتِي	خُشُوعِي فِي عَذَابَاتِي
الَّتِي أَحْمُو بِهَا ذَاتِي	وَنُوعُ طَرْفَتِي هَذِي
وَنَفْسِي وَهِيَ مَرَاتِي	وَفَكْرِي وَهُوَ بُسْتَانُ
وَجَيْشُ ظَنُونِهَا الْعَاتِي	وَحِضْنُ يَقِينِهَا الْمُضْنِي
تَضِجُ بِهِ عَرَكَاتِي	وَقَلْبِي وَهُوَ مِيدَانُ
نَصِيصِي مِنْ مُعَانَاتِي	وَدُرُوشَتِي الَّتِي تَبْدُو
وَتَمَزُّجُهَا بِأَهَاتِي	سَأَلْتُكَ أَنْ تَعْتَقَهَا
بِمُوكِبِ جِيلِنَا الْآتِي	وَتَسْقِيَهَا لِقَا فَلَتي

(٤)

وَثْبَةٌ بَعْدَ وَثْبَةٍ فِي الْحَيَاةِ	إِنَّهُ الْبَحْرُ دَائِمُ الْحَرَكَاتِ
وَاحِدًا فِي تَمْوُجَاتِ الدَّوَاتِ	ذَاكَ بَحْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ تَجَلَّى
وَالَّذِي يَحْتَوِي جَنُونَ الدُّخَانِ	اللَّهِيبُ الَّذِي تَأَجَّجَ فِينَا
وَهُوَ رَاضٍ عَنْ كُلِّ مَا يَصْنَعَانِ	يَرْفُضُ الْمُكْثَ بَيْنَ مَاءٍ وَطِينِ
إِنَّهُ قَاطِنٌ وَسَارٍ بِلَانِ	مَا الَّذِي يَطْلُبُ اللَّهِيبُ بِهِذَا
حَذَرِ الْمَوْتِ فِي شِبَاكَ الْمَعَانِي	فِي فِرَارٍ إِلَى السَّمَاءِ تَرَاهُ

إِنَّهَا الْوَحْدَةُ الَّتِي كَبَلَتْهَا
رُغْمَ كُلِّ التَّعَدُّدِيَّةِ تَبْقَى
إِنَّ أَعْيَادَ مَعْبَدِ الْعَصْرِ هَذَا
وَلِسُومَنَّا كُلِّ عَصْرِ وَجُودُ
نَحْنُ فِي ظِلِّهِ مَعاً وَاخْتِلَافِي
وَاللَّهِيبُ الَّذِي تَأْجَجَ فِينَا
حَلَقَاتُ اللَّهِيبِ نَحْنُ وَلَكِنْ
فِي بَسْرُوقٍ وَفِي نَجُومٍ مُشْعٍ
فِي غِيَاظٍ وَفِي رِيَاظٍ مُقِيمٍ
لَا يَعْيبُ زَهْرَكَ الْمُفْتَحَ شُوكِي
لَيْتَ شِغْرِي يَفِيدُ كَيْدَكَ هَذَا؟
هُوَ ذَا يَنْشِفُ الْجِبَالَ بِحَزْمٍ
هُوَ حِيناً تَرَاهُ بَازِئاً وَحِيناً
وَهُوَ حِيناً حَمَامَةٌ دُونَ عُشٍّ

حَلَقَاتُ التَّعَدُّدِيَّةِ هَذِي
وَحْدَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ مُحَاذِي
ذَاتُ أَعْيَادِهِ الْقَدِيمَةِ سَنَةٌ^(١)
إِنَّ سُومَنَّا لَا يُكَسِّرُ نَخْتَهُ
عَنْكَ يَا أَنْتَ كَاخْتِلَافِكَ عَنِّي
خَلَقَ الْحَادِثَاتِ مِنْكَ وَمَنِّي
هُوَ فِي قَلْبِهَا يَظَلُّ وَحِيداً
تَسْبُكُ النَّبْرَ نَارُهُ وَالْحَدِيدُ
كُلُّ مَا فَاضَ فِيهِمَا فَاضَ عَنْهُ
كُلُّ شُوكِي وَكُلُّ زَهْرِكَ مِنْهُ
لَيْتَ شِعْرِي عَرَفْتُ مَا هُوَ كَيْدُهُ
هُوَ ذَا الْخُورُ وَالْمَلَانِكُ صَيْنُهُ
حَجَّالاً فِي دِمَائِهِ يَتَشَخَّطُ
فِي شِبَاكِ حَيَالِهِ تَتَخَبَّطُ

(٥)

الرَّاحَةُ الْكُبْرَى بِقَلْبِكَ وَالسَّكِينَةُ خُذَعَتَانِ
فَالْكُونُ ذَرَاتٌ يَهْيِجُهَا بِرَقِصَتِهِ الرَّزْمَانُ
وَقَوَافِلُ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَفَاقِ تَضْرِبُ بِالْأُفُوفِ
وَتَرْوِحُ تُنْمَعُنُ فِي التَّجَدُّدِ لَا تَفْكَرُ بِالْوُقُوفِ
السَّيْرُ مَعْنَاهَا الْعَمِيقُ بِهِ تَجُولُ بِهِ تَصُولُ
فَدَعِ الْوُصُولَ لِمَنْ يَرِيدُ فَلَيْسَ مَطْلَبُنَا الْوُصُولُ

(١) اهتم إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي
في ترجمته النثرية) .

تَوَقُّقٌ إِلَى الطَّيْرَانِ يَتَرَكُ سَرَّهَا يَنْفُطَّرُ
وَتَحْسُّ رَاحَةَ صَدْرِهَا فِي وَثْبَةٍ لَا تَفْتُرُ
وَتَحِلُّ ، تَغْقِدُ مَا تَحِلُّ ، تُقِيمُ تَهْدِمُ مَا تُقِيمُ
فِرْدَوْسُهَا أَنْ تَسْمَرَ وَرَوْحُهَا السَّيْرُ الْمُقِيمُ
وَإِذَا ابْتَدَاهَا الْمَوْتُ وَهُوَ النَّدْفُ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ
وَمِنَ الْعَسِيرِ كَفَاحُهُ تَمْضِي إِلَيْهِ فِي ثَبَاتٍ
وَيَذْوَقُهَا الثَّنَوِيُّ تَنْقَسِمُ اثْنَتَيْنِ إِلَى النَّزَالِ
وَتَرْوَحُ تُخْشِدُ فِي الشُّهُولِ تَعُودُ تُخْشِدُ فِي الْجِبَالِ
كَالْغُصْنِ إِنْ جَرَّدَتْهُ مِنْ سَكْرَةِ الدُّنْيَا صَحَا
وَازْدَادَ فِي وَقْتِ الرِّبَاعِ تَنْوُورًا وَتَفْتَحَا
لَا شَيْءَ أَسْرَعَ مِنْ تَذَاوُكِهَا لَمَّا أَفْسَدَتْ مِنْهَا
الْوَقْتُ سَلْسَلَةً وَكُلُّ جِهَاتِهِ يَضْطَرُّ عَنْهَا
شَفْتَانِ فِي فَمِهَا أَزَلَّ إِلَى أَبْسَدِ
السُّوْقَاتِ بَيْنَهُمَا كَالنَّفْسِ فِي الْجَسَدِ !

(٦)

مَوْجَةُ الْأَنْفَاسِ سَيْفٌ جَعَلَتْهُ الذَّاتُ حَدًّا
طَلَبَتْ ذَاتُكَ شَيْئًا نِيلُهُ يَضْعُوبٌ جَدًّا
هَذِهِ ذَاتُ شَرِيذٍ هَذِهِ ذَاتُ مُقِيمٍ
إِنَّهَا الْيَقْظَةُ وَالْعُزْلَةُ وَالسُّرُّ الْحَمِيمِ
إِنَّهَا الذَّاتُ سُؤَالٌ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَدَلِّ
مِثْلَمَا الشُّوقُ إِلَى الْعُزْلَةِ فِي وَقْتِ التَّجَلِّيِ
إِنَّهُ الْبَحْرُ الَّذِي تَحْمُلُهُ قَطْرَةٌ مَاءٍ
وَهِيَ فِي الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ
وُلِدَتْ مِنْكَ وَمُنِّي فَأُضْعَفَاهَا كِلَانَا

وَأَنَا أَزْهِقُ ظَنِّي هُوَ مِنْ أَيْنَ اجْتَلَانَا
 أَزَلَّيْسَاتِي وَزَائِي أَبْدِيَّاتِي أَمَامَ
 وَأَنَا رُغَمَ غِبَائِي طَامَحْ نَحْوَ التَّمَامِ
 إِنَّهَا الذَّاتُ الَّتِي تَمُخَّرُ فِي بَحْرِ الْحَيَاةِ
 فَتُغَاغِي لَطِمَاتِ وَتُقَاسِي لَطِمَاتِ
 عِنْدَمَا تَطْمَنِّحُ أَنْ تَقْلِبَ آمَالَ الشَّبَابِ
 تَتَخَفِّي وَتَدِيرُ اللَّحْظَ مَنْ تَحْتَ النَّقَابِ
 فَتَرَى الصَّخْرَ تَرَاباً صَعِقاً مِمَّا تُدِيرُ
 وَتَرَى الْعَالَمَ وَجْداً يَتَمَنَّى لَوْ يَطِيرُ
 إِنَّهَا الْبَدْءُ جَمِيعاً إِنَّهَا ذَاكَ الْغُبَارِ
 إِنَّهَا فِي الْبَدْرِ أَضْوَاءُ وَفِي الصَّخْرِ شُرَارُ
 إِنَّهَا فِي ظُلْمَةِ النُّجُورِ إِذَا شَعَّ النَّهَارُ
 مَا لَهَا أَعْلَى وَأَدْنَى مَا لَهَا جَارٌ وَدَارُ
 مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَيَمِينٍ وَيَسَارِ
 لَمْ تَزَلْ حُلْفَ كَفَاحٍ وَانْقِلَابِ وَانْتِصَارِ
 أَحْرَقْتَ آدَمَ لَمَّا جَسَّدْتَهُ لِلْقَضَاءِ
 فَإِذَا آدَمُ لَحْنٌ وَإِذَا الذَّاتُ جِذَاءُ
 وَإِذَا فِي بَوْبِ الْعَيْنِ انْطَبَاعَاتُ السَّمَاءِ
 قُبْحُ السَّلَامَةِ أَنَّهَا فِي عَيْنِ صَاحِبِهَا قَذَى
 وَالْعُمْرُ حَرْبُ الذَّاتِ فَالشَّرَفُ الرَّفِيعُ أَوْ الْأَذَى
 الذَّاتُ عِنْدَ تَجَاهِلِ الْأَهْوَاءِ مَرْمُهَا الْأَكِيدُ
 وَتَجَاهُلُ الْأَهْوَاءِ دَرْبُ الذَّاتِ وَالْخَيْرُ السُّوْحِيدُ
 (محمود) تَرْفَعُ رَأْسَهُ ذَاتُ تَسْوُفٍ جَنَدُهُ
 وَ (إِسْكَاز) عِنْدَ النَّاسِ مِلءُ الْأَرْضِ مِمَّا عِنْدَهُ

لما أراد الغَزَنَوِيُّ يحطُّمَ الصنمَ الكبيرَ^(١)
جاءوا إليه بكلِّ أصنافِ الجواهر والحريزِ
فرمى بما جمعوه في بحرٍ وبَدَّدَهُ جميعاً
وأجابَ جئتُ لِكَيْ أَحطِّمَهُ وَلَيْسَ لِكَيْ أُبيعَهُ
فَلأنَّ أَسْمَى هَادِمَ الأصنامِ خيرٌ في السُّلوكِ
مَنْ أنَّ أَسْمَى بِائِعَ الأصنامِ مِنْ يَبْنِي المُلوكِ
لَيْسَ الشُّجُودُ تَهْدِيلُ الكَتِفَيْنِ مَنْ فَزَطِ القُعودُ
مَا كَانَ يَغْنِي عَنْ سَجُودٍ آخِرٍ فَهُوَ الشُّجُودُ
مِنْ هَذِهِ الأصواتِ والألوانِ عَالَمُنَا خَلِيطُ
وَجَلُّ يَطَارِدُهُ الفَنَاءُ مِنَ المُحِيطِ إِلَى المُحِيطِ
أَصْنَامُ السَّوَانِ وَأَصْوَاتُ تِلْكَ الكَوْنِ لَمَّا
أَسْفَأَ عَلَى سَمْعٍ وَعَيْنٍ أَلْفَا عُمِيأً وَصُمًّا
الْأَمْرُ مَرَحَلَةٌ وَدَرْبُ الْذَاتِ تَذَخَّرُ بِالمَرَا حِلِ
مَا أَبْعَدَ الْجُزُرِ الَّتِي تَغْرِيكَ عَنْ تِلْكَ السَّوَاحِلِ
يَا أَنْتَ نَارُكَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مَوْقِدِ هَذَا لَهْيُهُ
ضَاعَتْ شَرَارُكَ الَّتِي كَانَتْ بَنَظَرَتِهَا تَهْيِيهِ

عَبْدُكَ الْعَالَمُ فَأَمْرٌ	فَهُوَ لَا يَهْرُبُ مِنْكَ
غَيْرِ الْمَوْقِفِ وَانْظُرْ	إِنَّهُ يَضُدُّ عَنْكَ
أَمْضٍ لَا تَرْكُنْ لشيءٍ	وَانْضُ عَنْ كَوْنِكَ هَوْلُهُ
لَهْثَةُ الرَّاكِنِ مِنْ	سُرْعَةِ مَا يَبْصُرُ حَوْلَهُ
ظَاهِرُ الْعَالَمِ سَحَرٌ	وَعَصَا مُوسَى ثَبَاتُكَ

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همة محمود .

أَسَدُ اللَّهِ الَّذِي يَقْتَنُصُ الْعَالَمَ ذَاتَكَ
 جَوْهَرُ الْكَوْنِ قَدِيمٌ فَكُرِّكَ الْكَشْفُ الْجَدِيدُ
 أَيْنَ كَفْتُ تَنْظِمُ الْجَوْهَرَ فِي سِلْكٍ فَرِيدٍ
 إِلَيْهَا الْمُسْلِمُ فَارْقُبْ نَظْرَةَ الدُّنْيَا إِلَيْكَ
 فِي مِلَاءٍ مِنْ رَجَاءٍ يُغْفِقُ الْعَزْمُ عَلَيْكَ
 إِنَّ لَلْأَمَادِ شَغْلًا حَوْلَ أَقْطَارِ الْوُجُودِ
 عِنْدَمَا تَكْشِفُ عَنْ ذَاتِكَ تُدْعَى لِلشُّجُودِ
 لَسْتُ فِيمَا قَلْتَهُ أَشْرَحُ لِلْعَالَمِ قَدْرَكَ
 فَأَنَا حَاوِلْتُ حَتَّى الْآنَ أَنْ تَفْتَحَ صَدْرَكَ
 مَرْقَى الْكَلِمَةِ ضَيْقٌ عَنِ مَعَانٍ نَقْفِهَا
 نَحْنُ مِرَاةٌ مَعَانٍ كَدَرُ الْكَلِمَةِ فِيهَا
 زَفَرْتِي تُضْرِمُ صَدْرِي وَأَنَا بَيْنَ الشُّيُوفِ
 غَيْرَ أَنَّ الْقَوْلَ مِنْ خَشْيَتِهِ يَرْجُو الْوُقُوفِ
 أَنَا مِنْ كَثْرَةِ مَا حَلَقْتُ أَلْهَيْتُ النَّوَاحِي
 فَلَوْ اجْتَزَتْ قَلِيلًا أَحْرَقَ النَّوْرُ جَنَاحِي

الزَّمن

شُغْلَةُ الْعُمُرِ مِنْ لَهَيْبِ الثَّوَانِي
 عَذْكَ الطَّغَمُ فِي جِبَالَةِ أَمْسٍ
 يَزُقُّبُ النَّاسُ طَالِعًا ذَا خِيَالٍ
 وَأَنَا ذَلِكَ الْخِيَالُ وَلَكِنْ
 يَسْقُطُ الْعَالَمُ الْجَدِيدُ بِكَأْسِي
 سُبْحُ الْقَوْمِ لَعَبَةٌ فِي يَدِيهِمْ
 أَشْعَلَتْهَا تَغْيِيرَاتُ الزَّمَانِ
 فَرَقَّقَ يَوْمَكَ الْمُتَمَنِّي
 وَيَخُوضُونَ فِي جَمِيعِ الْأَمَانِي
 يَضَعُبُ الْيَوْمَ شَرْحَ تِلْكَ الْمَعَانِي
 قَطْرَةُ قَطْرَةٍ كَرَشَحِ الدُّنَانِ
 أَنَا سُبْحَتِي لِيَالِي زَمَانِي

كُلَّ حَبَاتِهَا عَرَفْتُ وَلَكِنْ
وَلِكُلِّ طَرِيقَةٍ وَسَلْوَكُ
مَرَّةً أَجْعَلُ الْأَعْنَةَ سَوَاطِ
لَكَ مِنْ حَفْلَةِ اللَّقَاءِ نَصِيبُ
لَيْسَ مِنْ عَادَتِي أَخْبِيءُ كَأْساً
بَدءُ هَذَا التَّعَرُّجَاتِ عَسِيرُ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِرَاصِدٍ فِي غُرُورِ
إِنَّ عَيْناً خَيْرَةً بِقُؤَاهَا
شَفَقُ الْأَفْقِ ذَاكَ نَهْرُ دِمَاءِ
وَانْتَظِرْ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ وَقَهْقَرَهُ

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الْجَرِيئَةُ عَرَّتْ
إِنَّ عُشّاً هِيَ الصَّوَاعِقُ فِيهِ
إِنَّهَا الرِّيحُ وَالْفَضَاءُ جَمِيعاً
كَانَ جُنْدُ الْقَضَاءِ لِلْمَوْتِ ذِعْراً
وَإِذَا أَنْتَ جِئْتَ بِالسَّيْفِ طِفْلاً
ذَهَبَ الْعَالَمُ الْقَدِيمُ قَتِيلاً
قَامَرَ الْإِنْكِلِيزَ حَتَّى تَوَلَّوْا
إِنَّ هَذَا الصُّوفِيَّ يَحْمِلُ نَاراً
مَلَأَ اللَّهُ دَرْبَهُ بِمَعَانٍ

لَا أَسْوِي بَيْنَ الْجَمِيعِ بِشَانِي
بَعْضُهَا فَارَسِي وَأُخْرَى حِصَانِي
مَرَّةً أَجْعَلُ السَّيَاطِ عَنَانِي
فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فَلَسْتَ بِجَانِ
لِنَدِيمٍ عَلَى كِرَامَةِ حَانِي
وَهِيَ لَيْسَتْ تَعَرُّجَاتِ جَبَانِ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِمَقْتَفٍ فِي هَوَانِ
غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ لِحَمْلِ سِنَانِ
فَتَحْمَلُ نَهْرَ الدِّمَاءِ وَعَانِ
حَاكَتِ اللَّغْزَ ذَاكَ أُسْطُورَتَانِ

سُلْطَاتِ الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَبَدَّةِ
لَيْسَ صَعْباً لِمِثْلِهَا أَنْ تَهْدَهُ
إِنَّهَا الْبَحْرُ وَالسَّفِينَةُ عِنْدَهُ
فَإِذَا بِالْقَضَاءِ يَقْتُلُ جُنْدَهُ
أَمْسَكَ الطُّفْلُ لِلْجَمَالِ فِرْنْدَهُ
أَتَرَى يَسْلُمُ الْمُقَاتِلُ بَعْدَهُ
وَكَذَا الدَّهْرُ لَا يَقَامِرُ وَحْدَهُ
لَا تَبَالِي بِرِيحِ تِلْكَ الشُّكُوكِ
عَلِمْتُ قَلْبَهُ سَلْوَكِ الْمُلُوكِ

آدمُ يُغادرُ جَنَّةَ عَدْنَ والملائكة تودِّعه

أَنْتَ مَوْهوبٌ وَإِلَّا	لَمْ نَجِزْ لِلْغَزْرِ حَلًّا
كُنْتَ مِنْ طِينٍ وَيَبْدُو	أَنَّ ذَاكَ الطِّينَ وَلَّى
كَانَتْ التَّفَخُّةُ مِنْهُ	زُبْقًا فِي السَّرِّ حَلًّا
وَيَقُولُونَ تَرَابٌ	قَلَّ عَسَى هَذَا وَعَلَّ
وَمَسَّ النُّكْتَةُ هَذَا	أَحْمَلُ الْعَالَمِ كُلًّا
كَلِفٌ بِالْحُسْنِ حَتَّى	أَنْتَ فِي الْحُلَمِ تَصَلَّى
لَكَ فِي الْحُلَمِ نَعِيمٌ	يَغْمُرُ الْيَقْظَةَ ظِلًّا
دَمْعُكَ الصُّبْحَ لَدَيْنَا	يَمْلَأُ الْجَنَّةَ طَلًّا
يَطْلُبُ الرُّوضِ لِيَسْقِي	زَهْرَهُ مِمَّا تَمَلَّى
فَاكْشِفِ الْأَسْرَارَ وَارْقُصْ	تَسْرُقُصِ الْجَوْفَةَ دَلًّا
إِنَّمَا الدُّنْيَا بَكَاءٌ	وَعِنَاءٌ لِيَسَّ إِلَّا

روح الأرض تستقبل آدم

فَأَتَى الْأَرْضَ فَقَالَتْ	إِنَّهُ آدَمُ جَاءَ
أَنْتَ يَا آدَمُ فَاعْلَمْ	كُنْتَ مِنْ طِينٍ وَمَاءَ
حَوْلِكَ الْعَالَمُ فَاَنْظُرْ	وَتَمَعَّنْ فِي السَّمَاءِ
وَوَرَاءَ الْحُجُبِ حُسْنٌ	فَتَأْمَلْ مَا وَرَاءَ
لَا تَكُنْ نَافِدًا صَبِرْ	وَاحْتَمِلْ وَهَمَّ الشَّقَاءِ
ضِجَّةُ الْعَالَمِ هَذَا	حَرْبُ خُوفٍ وَرَجَاءِ
لَكَ مَا فِي الْكَوْنِ مُلْكٌ	مِنْ بَحَارٍ وَفَضَاءِ

هذه الشُّخْبُ جميعاً هذه اليُّنْدُ العَراء

(٢)

كنتَ من وجه ملائِك في اندهاشِ وفساءِ
فَخُذِ المِرآةَ وانظُر فيك أسرارَ القضاءِ
نظراتِ ذاتِ مغزى أطلقَتْ سسرَ البقاءِ
وشراتِ صرخ يتعالى في السَّماءِ

(٣)

إنَّ ضوءَ الشَّمْسِ هذا من شراراتِك ضاءِ
عالمٌ أنتَ جديدهُ أنت والكُونُ سواءِ
أنتَ فردوسُكَ ذاتِ مالها قَطُّ انتهاءِ
جسدهُ ؟ لا ليس هذا جسداً هذا جزاءِ
أيُّها الزَّهرَةُ فانظُر كيفَ تمضي في العطاءِ

(٤)

كلُّ أوتارِك تبكي أيُّها العودُ الشَّريدِ
كلُّ ميراثِك حبٌّ فتخيَّر ما تريدِ
سيِّدُ الأسرارِ في المعبدِ من وقتِ بعيدِ
تنفَسُ الذَّاتُ وتبلى ثم تُبدي وتُعيدِ
ثمَّ في غير كثيرٍ تمتطي كلَّ جسديدهِ

قطعة

خطاي كمثُل نسيم الصُّباح تُبْطِئ حيناً وتُسرع حيناً
أنا شوكتي إبرةٌ للورودِ ترقعُ ما انقَدَّ عبر السِّينِ

بدأبي كَسَوْتُ ثِيَابَ الْحَرِيرِ هَذَا الشَّقَائِقَ وَالْيَاسَمِينَا

الْمُرْشِدُ وَالْمُرِيدُ

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده
أسئلة نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه
(المثنوي) وهو يوردها بنصّها بالفارسية .

قَالَ إِقْبَالَ لِرُومِيٍّ يَا إِمَامَ الْعَاشِقِينَ
لَمْ يَزَلْ يَمْلَأُ سَمْعِي ذَلِكَ الْقَوْلُ الْمِيْنِ
وَتَرُ الْعُودَ وَقَشْرُ الْعُودِ وَالْعُودُ سَجُونُ
عِنْدَمَا تَبْسُ فِيهِ يَبْسُ اللَّحْنُ السَّدْفِيْنُ
عَصْرُنَا الشَّوَانِ هَذَا تَنْتَشِي مِنْهُ الظُّنُونُ
رَقِصَةُ الْأَجْسَادِ لَا تَمْحُو أَسَى الْقَلْبِ الْحَزِيْنِ
مَبْدَأُ الْعَالَمِ يَا أَسْتَسَاذُ مَا شَاؤُوا يَكُونُ
لَيْسَ فِي قَلْبِ حُضُورٍ أَوْ بِوَجْدَانٍ يَقِيْنِ
كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ سِرًّا ذَلِكَ الصَّسْدُرُ الْمُهِينِ
رَدًّا لِلصَّدْبِقِ مَا يَرُوي عَنْ السُّوْحِي الْأَمِيْنِ
كَيْفَ جَرَّتْهُ إِلَى الْأَوْهَامِ قِيَارَةُ طِيْنِ
رُغْمَ مَا أَنْفَقَهُ لِلْمَجْدِ مَنْ كَذَّ الْقُرُونُ
قَالَ رُومِيٍّ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ لَحْنٍ وَطَنِيْنِ
إِنَّ فَرْقَ الْإِسْتِمَاعِ الْحَقُّ سَلَطَانُ الْفَنُونِ
كَالْعَصَافِيْسِرِ وَلَيْسَتْ كُلُّهَا تَأْكُلُ تِيْنِ
قَالَ : طَوَّفْتُ لِأَجْلِ الْعِلْمِ فِي شَرْقٍ وَغَرْبِ

وَأَنَا الْآنَ وَحِيدٌ وَالْأَسَى يَمْلَأُ قَلْبِي
 قَالَ : هَذَا طَبِّ كَفْ لَيْسَ أَمَلًا لِعِلَاجِكَ
 جَعَلْتُ مِنْكَ مَرِيضًا فِي فِرَاشٍ مِنْ لَجَاجِكَ
 اسْأَلِ الْأُمَّ عِلَاجًا مِنْ عَقَاقِيرِ الْأَمَانِ
 إِنَّ نَصَفَ الطَّبِّ مِنْ عِلْمٍ وَنَصَفًا مِنْ حَنَانٍ
 قَالَ يَا مَنْ شَرَحْتَ نَظْرَتَهُ ضِيقَ فُؤَادِي !
 أَمَلِي أَنَّهُمْ مَا تَفَهُهُمْ مِنْ أَمْرِ الْجَهَادِ
 قَالَ : مَنْ سَوَّى لَكَ الْأَصْنَامَ سَوَّى لَكَ فِئَاثَهُ
 وَبِأَحْجَارِ الْحَبِيبِ يَضْرِبُ الْحَاقِقُ كَأْسَهُ^(١)
 لَا تَقُلْ لَيْتَ وَلَوْلَا مَا عَلَيَّ هُمُكَ بِأَسْرُ
 أَنْتَ يَا هَذَا الَّذِي يَجْرُحُ فِي الدَّهْرِ وَيَأْسُو
 قَالَ : حَوْرُ الْعَرْبِ أَلْقَتْ فِتْنَ الشَّرْقِ شَبَاحًا
 صَرَعَتْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا تَرَى فِيهِ حِرَاكًا
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمَ ! اخْذْ ظَاهِرًا يَطْغَى عَلَيْكَ
 عِنْدَمَا تَفْرِكُهَا الْفُضَّةَ انْظُرْ لِيَدِيكَ
 قَالَ : يَا رُومِي ! وَسِخْرُ الْإِنْكِلِيزِيِّ إِلَّا مَا
 يَأْخُذُ الطَّالِبَ لِحِمَا ثُمَّ يَرْمِيهِ عِظَامًا
 قَالَ : كَالْعَصْفُورِ إِنْ لَمْ يُكْمِلِ الرِّيشَ وَطَارَ
 هَجَمَ الْقُطُّ عَلَيْهِ وَرَمَاهُ لِلصُّغَارِ
 قَالَ : إِنَّ السَّيِّئِينَ وَالْقَوْمِيَّةَ الْيَوْمَ صَرَاعُ

(١) فِي الْمَثْنَوِي (كَسْر زَجَاجَةِ الْحَبِيبِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِحَجَرِ الْحَبِيبِ) وَمَعْنَاهُ كَمَا شَرَحَهُ
 د . كَفَافِي : إِنَّهُ لَاحِقُ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَمِيتَ إِنْسَانًا آخَرَ فَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَمِيتُ سِوَاهُ
 كَانَ ذَلِكَ بِفَعْلٍ مُبَاشَرٍ أَوْ بِأَمْرٍ وَاجِبِ الْإِتْبَاعِ مِمَّا نَصَّتْ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ .
 انْظُرْ تَرْجُمَةَ د . كَفَافِي لِلْمَثْنَوِي ص ٦١٣ .

أَنْتَ هَلْ تَدْرِي بِمَاذَا يَنْتَهِي هَذَا النَّزَاعُ
 قَالَ : مَا فِي اللَّيْلِ لِلزَّائِفِ وَالْمَحْضَرِ عِيَاذُ
 وَدَلِيلُ الذَّهَبِ الْخَالِصِ إِشْرَاقُ النَّهَارِ
 قَالَ يَا شَيْخُ ! بِمَاذَا أَمَلَا الدَّرْبَ الْقَصِيرَ
 وَبِأَيِّ الْأَمْرِ أَغْنَى بَعِيَانِ أَمْ بَصِيرَ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ مَا هَذَا الَّذِي لَيْسَ يَبِينُ
 إِنْ تَكُنْ تُبْصِرُ يَعْنِي أَنْتَ إِنْسَانٌ مَبِينُ
 يَمَلَأُ الْمُهْجَةَ حَقُّ وَحَبِيبُ دَامِغُ
 مَا عَدَا ذَلِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ جَوْزُ فَارُغُ
 قَالَ : يَا مَنْ مَلَأَ الشَّرْقَ بِمَا يَحْيِي الْقُلُوبَ
 مَا الَّذِي يَغْصِفُ بِالشَّرْقِ وَمَسَادَا الشُّعُوبِ
 قَالَ : مَا أَعْرِفُ شَعْباً مَاتَ إِلَّا مَاتَ لَمَّا
 حَسِبَ الْأَحْجَارُ بَخُوراً وَظَنَّ الشُّهُدَا سُمّاً
 قَالَ : يَا شَيْخُ ! وَهَذَا الْمُسْلِمُ الضَّائِعُ كَوْنُهُ
 دُمُهُ أَصْبَحَ ثُلْجاً عَطْرُهُ غَابَ وَلَوْنُهُ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَعْباً
 وَرَجَا الْقُلُوبِ لَا تَجَسَّرُوا أَنْ تَجْرَحَ قُلُوباً
 قَالَ : يَا أَسْتَاذُ ! إِنَّ الشُّوقَ وَالْحَقَّ أَقُولُ
 كَسَدَتْ فَالْيَبِيعُ أَيُّ الْيَبِيعِ يَحْظَى بِالْقَبُولِ
 قَالَ : أَذْهَبَ وَاشْتَرَى الْحَيْرَةَ بِالعَقْلِ الطَّنِينِ^(١)
 إِنَّهُ وَهْمٌ وَظَنٌّ وَهِيَ حَقٌّ وَيَقِينُ
 قَالَ : جِيرَانِي جَمِيعاً نَدَمَاءُ لِسَلَامِيرِ

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفاي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يوليّه ظهره »

وأنا فوق حصيري حاسرُ الرأس فقير
 قال : كن خادماً حراً قلبه دون حدود
 لا تكن في مجلس السلطان من بعض القرود
 إن تكن عبداً لإنسانٍ له قلبٌ كبير
 هو خيرٌ من طوافٍ بين ندمان الأمير
 قال : يا هذا الذي يُنهم في وجد الكبار !
 ضمتُ من قلة علمي بين جبرٍ واختيار
 قال : يا إقبال ! ما الشاهين ؟ يبدو كالغراب
 ريشه يُضبحُ تاجاً ريشُ هذا للغراب
 يطلب الموتى غرابٌ ظفُّه عيبٌ عليه
 وترى الشاهين يمضي أكله صنعٌ يديه
 قال : ماذا يأمل الإسلام من هذا السلوك
 ألقي نرضى بفقرٍ أم إلى طيش الملوك
 قال رومي : جنة الإسلام في ظل الشيوف
 ليس ما نطلبه الرهبان من أمِن الكهوف
 قال : يا أستاذ ! كيف الخوض في ماء وطين
 أين ما يوقظ قلبي وهو في صذري سجين
 قال : لا تمشُخْ كنعشٍ فوراء النعش كَفُ
 وتواضع كحصانٍ أينما شاء يخفُ
 قال : يا أستاذ ! أين البعث من ضعفٍ يقيني
 وأنا أجهلُ ما أجهلُ من أسرار ديني
 قال : ما أنت وهذا ابعث النفس بذاتك
 ثم سل نفسك ماذا إنَّها ربُّ حياتك
 قال : يا أستاذ ! إنَّ الذات تمضي في السماء
 تحملُ الظلمة والثُّور على حِدٍّ سواء

مع هذا غابَ عنها
 هي مِنْ فَقْدِ التَّجَلِّي
 في ازدهارٍ وانھیارٍ
 هي مما افترسَتْه
 قال رومي : ليس إلا الحبُّ أهلاً للعراكِ
 لكن الموضع (مِنْ يوقعه بين الشباكِ)
 قال : يا أستاذ ! قل لي
 أنت للإسلام شمسٌ
 قال رومي : كلُّ حبٍّ
 لا تكن بُزْعَمَ وردٍ
 كن على حبِّك فحاً
 واسترِ البُزْعَمَ واضرب
 قال : يا أستاذ ! ما الحربُ التي تملأُ جنبك
 أنا ما جنتك إلا
 هو ذا قلبي بِصَدْرِي
 بين كدٍّ وخمولٍ
 قال : يا إقبال ! لَسْنَا
 أنا لسي مثلك قلبٌ
 إنَّما القلبُ سماءٌ
 ولله ربُّ حواءِ
 ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربٌ تسلكه
 مُنتهى الحكمة أن تبحثَ عَمَّن يملكه
 قال : يا أستاذ ! فكري
 وأنا في الأرض هذي
 لِمَ نسترشد بالمُضِلِّحِ لا بِمُضِلِّحِ أهله ؟

ولَمَّا العَارِفُ بِالذِّينِ بغيرِ الذِّينِ أبله
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبير :
فسي سماء الله يسري مَنْ على الأرض يسير
قال : يا أستاذ ! لا أنصِرُ في الدُّزبِ منارا
أين مَنْ يَقْدَحُ للحكمة فسي صدري نارا
قال : يوري العلمَ نارا يابسُ الخبز الحلال
والذي يأكل كدَّ النَّاسِ يُفنيه الضَّلَالُ
قال : يا أستاذ ! إنَّ العصر يستدعي النَّزال
ولهيبَ الشَّعر يخبو وقده دون اعتزال
قال : يا إقبال ! لنا نقصدُ العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي توضيح الخلطة شهدا
بدد العزلة واذهب من قطيع لقطيع
تشتري النَّاسُ فراء ليس من أجل الربيع
قال : أين الهند ضاعث لا لهيب لا ضياء
ورجال القلب فيها تُعساء أشقياء
قال : يا إقبال ! هذي النَّاس لا تعرف روحا
أجل الدمعة هذي وكفى اليوم جروحا
يلفظ الحقُّ بعيداً جَسَداً ما فيه قلب
إنَّ ربَّ النَّاسِ حيٌّ وهو للأحياء ربُّ
كلُّ ما في الشَّعر هذا مَنْ صُراخ وصياح
ليس ما يُذهش أن يذهب أدراج الرِّيح

جبريلُ والشَّيْطانُ

التقى سيّدنا جبريلُ إبليسَ الرَّجِيمَ
 قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخسلُ القديم !؟
 ما جرى في عالم الألوَانِ والعُطَرِ الجديّدِ
 قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدٌ
 قال : ما زالَ حديثُ القومِ في الحضرةِ خلُقُك
 أولاً يُمكن أن يُزقَعَ في الجلبابِ خزقُك
 قال : هيهاتَ ولكنّ لستَ تدري ما أسرُّ
 هو في الظاهرِ يُشقي وهو في الحقِّ يُسرُّ
 قدحُ السرِّ الذي أشكرني منه تكسّر
 ورجوعي لأعالي بعد سُكري يتعسّر
 أنا حتّى لا أطيّقُ العيشَ في تلكِ الأعالي
 أنتَ للرّحمةِ حالٌ وأنا اللّعنَةُ حالي
 ذلكَ العالمُ ما معناه من غيرِ أوابذٍ؟
 إنّه الموتُ الذي تُعرفُ لولا ما أكابذُ
 فإذا كنتَ حياةً بقنوطي للوجود
 أتري الواجبَ أبقي في قنوطي أم أعود
 قال : لكنّ عندما استكففتَ كبراً أن تطيعه
 نالك العارُ ونال الملاء الأعلى جميعه
 صارَ شغلَ الملاء الأعلى أمامَ الله خوفه
 يهدرُ الدُّغُرُ عليه تملأ الرّعدةُ جوفه
 قال : يا جبريل لكنّ جراتي سرُّ البقاء
 وهبثُ للحمى المسنون شوقاً للنماء

أنت في الشاطئ ترنو لصراعات المواقف
 أنا أم أنت الذي تَصْفُفه تلك العواصف
 عندما تَغْصِفُ ريحي لُجْجَ البحر الجليّة
 لا يسرى إلياس والخضرُ من الواقع حبله
 فإذا أمكن يوماً تسألُ الله تعالى
 فأننا أرجو أن تسأله هذا السؤال
 دُمُ مَنْ ذاك الذي خَضَّبَ تاريخ ابن آدم^(١)
 دُمُ مَنْ هذا (دمي أم دُمُه أم دُمُ آدم)
 صاغني الله تعالى شوكة تجرح قلبه
 أنت لا تُتَقِنُ إلا النَّفْسِي والإثبات قرينة

قطعة

بالأمر أوصى مُرشدُ أصحابه
 أغلى وأثمنُ من بحور لآلىء
 بوصية سبحان ربك من وهب
 ياليتها كُتِبَتْ بماء من ذهب
 سُمُّ يُسَمِّمُ ذاته وإرادته
 في خمير أوروبا لشعب كامل
 تمحو مواهبه تُبِيدُ كرامته
 تفني بنيه بالتسكع خلفها

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشیطان بشوكة الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبحِ للأفلاكِ يوماً لاجيئاً
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحيئاً
سُحَّرَ المَريخُ ممّا قاله نجمُ الصُّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحيئاً أو غير صاحِ
تدركُ الأقدارُ ما تفعلُ في هذا الظُّلَامِ
وأرى الخيرَ لساوَمته في أن تنامَ
قالت الرُّهرة : أفُ غَيِّروا الموضوعَ هذا
تُنْفِقُ اللَّيلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيم نهتمُّ لهذي الذِّرة العَمِيَاءُ قولوا
فأجاب البدرُ هذا النجمَ في الأرضِ يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو وهو يبدو في النُّهارِ
روحُه سرُّ الليالي قلبُه قَطْبُ المِدارِ
وهو لو أدرك معنَى سهرِ الليلِ وذائقه
جاز أطباقَ الثُّريا وأرى الله طَبَاقَه
إنَّه في صَدْرِهِ يستر نوراً باهراً
وهو أطلقه لهم يوقِ نجماً ساهراً
فعلا صَوْتُ أَذانٍ بينما همُ في جِدالِ
يا لها صرخةٌ وعِظٌ صدَّغَتْ قَلْبَ الجبالِ

قطعة

رُغِمَ ما يوجد في رِگة شعري من عُيوب

ربما تبلغ يوماً كلماتي للقلوب
 ما على الشارع لوم كيفما قال وعبر
 أنا تغنيني عن الشعر نداء (الله أكبر)
 أنا تغنيني إذا أخفقت في كشف النوايا^(١)
 صلوات وتراتيل بهاتيك الروايات
 مغشور الجانب هذا دينهم لا يستطيع
 عرفوا النفس ولما نظروا في الله ضاعوا
 وعباد الجانب الآخر عمال مناجم
 هم عن اللاهوت أغراب وفي البحث أعاجم

الحب

من شهيد الحب الذي زعموه
 سمة العشق لا تتأخ لشعب
 في هياج الفؤاد للحب سر
 إنما الفزنوي صنو إياز
 روج الحب سوق كل حكيم
 هي لولا تدخل الحب فيها
 رجل الحب لا يذل لشيء
 ليس يحتاج أو يخاف ملكاً
 تاج إسكندر الشهير مناع
 أنا أبني الرجال بالفقر هذا

ابحثوا عنه في جميع الفجاج
 دون شعب ولا تبأخ لراجي
 كهياج الفراش حول السراج
 إن يكن قلبه بغير هياج
 حاك آراءه به للرواج
 لعبة من لآلئ من زجاج
 مستقل الفؤاد حر المزاج
 إنما الخوف مظهر الاحتياج
 وأنا الفقير والتدروش تاجي
 وهو ينسي مدينة من زجاج

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لِي يَقُولَ : محالٌ أن يعيق الظلامُ شُغْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ فأنزِ باللهيب ليلَ الحياةِ

إلى جاويد^(١)

لَتَكُنْ لِقَلْبِكَ يَا بَنِيَّ مَكَانَةً	في موطن الحبِّ البعيدِ النَّائي
كُنْ فِي أَمَاسِيهِ وَفِي أَسْمَارِهِ	نَغْمًا يُجَدِّدُ حَرْقَةَ التُّدْمَاءِ
وَعِي الْفؤَادِ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَمِنْ	وَهَبْتُكَ إِثَّاهِ يَدُ الرَّحْمَنِ
أَخْرَجْتَ مِنْ صَدْرِ الْوَرُودِ حَدِيثَهَا	وَنَزَعْتَ صَمْتَ شَفَائِقِ التُّعْمَانِ
إِيَّاكَ يَوْمًا أَنْ تَدِينَنَّ لِصَانِعِ	فِي لَيْلِ أَوْرَبِيَةِ يَصُوعُ زُجَاجَا
صُغْ مِنْ تَرَابِ الْهِنْدِ كَاسَكَ وَافْتَخِزْ	وَارْفَعْ بِلَادَكَ فَوْقَ رَأْسِكَ تَاجَا
أَبْنِيَّ عَرَجُونَ بِدَالِيَةِ (أَنَا)	أَيَّاكَ شَعْرِي هَذِهِ أَعْنَابِي
مِنْ هَذِهِ الْأَعْنََابِ أَعْصِرْ خَمْرَةَ	حَمْرَاءَ تُلْهَبُ بِالْحَيَاةِ شَبَابِي
أَنَا عَيْشَةُ الْأَمْرَاءِ لَمْ أَلْبِهِ لَهَا	أَنَا عِشْتُ دُرُوشًا مَعَ الْفُقَرَاءِ
فَادْخُلْ سَجَلَ الْفَقْرِ بِاسْمِكَ إِنَّهُ	فَخَرُ النَّبِيِّ وَسَيِّدُ الْأَسْمَاءِ

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّينِ مِنْ يَدِ فِيلَسُوفٍ محلُّ الشَّمْسِ مِنْ كَيْدِ السَّمَاءِ

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

له في كل يوم وهمٌ بحثٍ أنا في ظلّ بيتي أم غريبٌ
 أنا في ظلّ بيتي أم غريبٌ قد استوحشتُ من جبلٍ ووادٍ
 قد استوحشتُ من جبلٍ ووادٍ أضعتُ على رسومِ القومِ عُمرِي
 أضعتُ على رسومِ القومِ عُمرِي تعجّبُ جثث من أين (ابن سينا)
 تعجّبُ جثث من أين (ابن سينا) أرافقُ في طريقي كلّ سارٍ
 أرافقُ في طريقي كلّ سارٍ ولم أر في طريقي مستعدّاً
 ولم أر في طريقي مستعدّاً يكونُ من الصّباح إلى المساء
 يكونُ من الصّباح إلى المساء وهل سفري بعيدٌ أم قريب؟
 وهل سفري بعيدٌ أم قريب؟ فأينَ تراه يستتر الحبيبُ
 فأينَ تراه يستتر الحبيبُ أفششُ عن بصيرِ الرؤسومِ
 أفششُ عن بصيرِ الرؤسومِ وساءلني ستذهب أين (رومي)
 وساءلني ستذهب أين (رومي) وأعطيه نصيباً من طريقي^(١)
 وأعطيه نصيباً من طريقي^(١) يكونُ إلى نهايته رفيقي
 يكونُ إلى نهايته رفيقي

رسالة من أوربة

الاعتصامُ بجبلِ الحسنِ ضيّعنا في الليل من بحثنا عن شاطئِ البصرِ
 وللبصيرة بحرٌ عاصفٌ حظيت من قعره غطسةُ الروميِّ بالدُّررِ
 أنا لقافلةِ الرُّوميِّ متّبعٌ وهل لقافلةِ الروميِّ من أثرِ
 هبّ عصرنا مثوياً آخرأً فلقد جارت رسالةُ أوربة على البشرِ
 طريقُ حُرّيةِ الأحرارِ مُظلمةٌ تضيئها شعلَةُ الروميِّ بالشَّررِ
 تضيئها شعلَةُ الروميِّ بالشَّررِ

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يَرعى العُلَى أنفًا كظبي (خوتان)^(١) يَرعى نبتةَ الجودي
ولا يجوزُ له بل لا يليقُ به أكلُ الشَّعير ورعي العشبِ والعودِ
هُم يُضْحَكُونَ بالمُفْتَاتِ من كَلٍّ وَيَخْضَعُونَ لمن ناوَاهُمُ الشَّانَا
ومن تَخَلَّقَ بالقرآنِ مَجْدُهُ وأصْبَحَتْ نَفْسُهُ لِلنَّاسِ قَرَانَا

على قبر نابليون

التَّوَقُّ لِلْفِعْلِ سيفُ الخالدين به تشقُّ في جُبَّةِ الأسرار أقدار
وقبل مولد نابليون خاضَ به إسكندرُ الأرضَ أمصاراً فأمصار
جبال (آلوند) هدَّتْها حماسُهُ وأطلَقَتْ سَيْلُ تيمورلنك تيارا
تصير صرخةُ أهلِ الله صَرْخَتَهُ إذا أصْرَتْ على الإيمانِ إصرارا
والتَّوَقُّ لحظته لا تستمرُّ فإنَّ لم تغتنمِ نَيْلَهُ في وقته غارا
وقام يشار ليلُ القَبْرِ منك له لا يستقرُّ إلى أن يأخذ الثَّارَا
(مسيرنا نحو وادِ الصَّمتِ لذَّته أن تملأَ القُبَّةَ الزرقاءَ آثارا)^(٢)

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها طباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (١)

نشأط جديد وفكر جديد صَبَا شعْبُهُ أن يردَّ الصُّبَا نشأط جديد وفكر جديد يصوغان من حجرٍ لؤلؤاً تأملت روما وقد جددت فقلتُ : أيَّ ربِّ ماذا أرى حياة تُقرُّ عيونَ الشُّيوخ فيا للتَّجَلِّي الذي هاهنا وهل تستطيعُ رؤوس الرُّهور أن تتوارى بفصل الرِّبيع سماؤك يا نعمةَ الثَّائرينَ وروحك تنتظرُ العازفينَ	يثيرُهما أَمَلُ الثَّائرينَ إلى مجدٍ أَمَّتْهُ الغابرِ وهذان معجزةُ القادر وتاجاً لحاضره الرُّاهر بتجديدها حيرةَ الناظر وهذا الهُدَى خطأ أم صواب وتذكي الطُّموحَ بصدرِ الشَّباب ويالللحماسةِ ماذا تُذيع أن تتوارى بفصل الرِّبيع تهرُّ أغانيك أقطارها فَمَنْ سيهيِّجُ أوتارها
---	---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة . وفي قصيدة نالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :

بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .

وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها :

(جثة الحبشة) مايلي :

وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن

عدد ٣٢ ص ٧٤ - ٧٥ .

ومن ذا الذي صاغَ هذا الجمال وباركَ بالحبِّ تلكَ النفوس
هو الحرُّ ذو النظراتِ التي بها تقتدي نظراتُ الشُّموس

سؤال

قال درويشٌ أبي يسألُ الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقرَ والعيشَ المحالاً
لكن اللهم قل لي أنتَ أرسلتَ الملائك؟
ليقيموا سلطنةَ الأوغاد في ظلِّ سمائك

إلى فلاح البنجاب

أيها الفلاح ما سرُّ الحياة؟ ما الذي يَكُتمه هذا المداز
أنت فيها منذُ آلاف السنين خلفَ محراثٍ يُعطيك الغبار
خمدت نارك في الطين الذي علقست أكوامه في نعلك
قل لمن أذن في هذا الصُّباح أرني الله الذي في فعلك
لم يقل للناس حيٍّ للفلاح إنما حيٍّ على الفلاح قال
هو يدعوهم إلى مآذبه أنت أرسلتَ لها كلَّ السَّلال
كيف ترضى أن يكونوا هكذا وهمُ مثلك من حماة طين
إنَّ تبغ الخضر لا يبلغه وجلٌ من ظلماتِ المعتدين
ليس يُجدي الهَمُّ في شيء إذا لم تَضَعْ ذاتك تحت التجربة
حطَّم الأصنام يوماً واحداً لا تخف مبعدها أن تخربة
حطَّم الأوثان أوثان العروق واهدم الأصنام أصنام القبائل

وانضُ أغلالَ التقاليد التي تتعنى خلفها من غير طائل
لا تقل أنشدُ في الدين الخلاص وامنح الكهانَ روحانيَّة
إنَّ دينَ الله في الدين الذي يهبُ الإنسانَ وحدانيَّة
أحفظ القلبَ الذي تحملُه لا تدعُه تحتَ أقدام العباد
الذي يزرعُه في صَدْرِهِ يجدُ المتعة أيامَ الحصاد

نادر شاه ملك الأفغان

في حضور الحقِّ كان الحَدَثُ الفرْدُ الكبير
غيمَةً تحملُ في أعماقها روحَ الرُّهُور
رأتِ الفردوسَ في الدَّرب فقالتُ للسماء^(١)
أه ما أجملَ هذا هاهنا نلقى الدُّلاء
فأجابتها وقالت نترك الهند لقابل
أدركي عشياً جديداً ظمئاً في أرضِ كابل
وعسى نادرُ يأتي ليرى هذي الحقائق
علَّه يغفلُ بالدَّمع جراحاتِ الشَّقائِق^(٢)

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرَي (١)

كلُّ شيءٍ حولنا يَسْلُبنا مجدنا حتى سَجَّاجيدُ الصَّلَاةِ (٢)
أنا لا أَسْتَأْ أن تَزْمُقْنَا شِزْراً أَعْيُنُ أولادِ الطِفْأَة
يَلِيَتْ أُنُوبُنَا أَجْمَعُهَا جَبَّةُ الشَّيْخِ وَجَلْبَابُ الأَمِيرِ
ما الَّذِي أَفْعَلُهُ فِي وَحْدَتِي ما الَّذِي يَفْعَلُ إِيْمَانِي الكَسِيرِ

وصية « خوش حال خان » (٣)

يا أمة الأفغان شَدُّوا بَعْضَكُمْ بعضاً وَكونوا سَادَةً الأفغانِ
ما شَاهَدَتْ عَيْنَايَ أَجْمَلَ مَنْظِراً كَجَمَالِ صَيَّادِيكُمْ الفَتِيانِ
يرمون في بحر السَّمَاءِ شِبَاكَهُمْ (صَيْدُ النُّجُومِ رِيَاضَةُ الشُّجْعَانِ)
أَطْفَالُ كوهستان وَعَدُّ مَفْعَمٍ متَوَائِبُ فِي قَلْبِ كوهستانِ
ليسوا أَقْلٌ مِنَ المغُولِ شِجَاعَةً ليسوا بِأَدْنَى مِنْهُمْ فِي شَانِ
أنا (خوش حال) أَحَبُّ قَبْرًا إِنْ أُمْتُ فَوْقَ الجِبَالِ مَمْرَدَ البُنْيَانِ
لا رِيحَ تَصْفَعُهُ بَنْقِ خَامِلٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ خِيُولُ مَغْلَسْتَانِ
ما تَبَقَّى غَيْرُ جَمْرِ هَامِدٍ يَتَخَفَّى تَحْتَ أَكْوَامِ الرَّمَادِ

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء يبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

من المهم أن نذكر أن إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنگ زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عقوية تنبثق من الداخل .

أَيُّ رِيحٍ فَوْقَهُ لَوْ عَصَفَتْ
 غَطَّتِ الرِّيحُ بُخَارِي كُلِّهَا
 (وَتَطَلَّغْتُ لِنَفْسِي فَإِذَا
 بَيْنَمَا أَنْدُبُ حَظِّي فَجَاءَ
 وَإِذَا مَرَقْدُ تِيمُورْلُنْكَ قَدْ
 كَانَ نُورًا أَيْضًا فِي صُفْرَةٍ
 قَالَ لِي : يَا أَيُّهَا الْبَاكِي أَنَا
 إِنَّ بَابَ اللَّهِ مَفْتُوحٌ وَإِنْ
 أَنْتَ مِنْ أَبْنَاءِ طُورَانَ وَإِنْ
 فَهِيَ الذَّاتُ لَهِيئًا آخَرًا
 أَنَا حَظُّكَ بِهِذِينَ الْجِيُوشَ
 جَعَلْتُ مِنْهُ حَدِيثًا لِلْعِبَادِ
 وَسَمِرَقَنْدَ بَلِيلَ قَاتِمِ
 أَنَا فَصٌّ مَالَهُ مِنْ خَاتِمِ ^(١)
 زَلَزَلْتُ أَرْضَ سَمِرَقَنْدَ السَّمَاءِ
 بِدَدَ اللَّيْلِ بِسَيْفٍ مِنْ ضِيَاءِ
 كَضِيَاءِ الشَّمْسِ مِنْ قَبْلِ الْأُفُولِ
 رُوحُ تِيمُورْلُنْكَ فَاسْمَعْ مَا أَقُولُ
 سَدَّتِ الْأَيَّامُ أَبْوَابَ التَّنَزُّ
 فَرَّقَتْ أَبْنَاءَ طُورَانَ الْبَشَرِ
 وَيَرِيقًا ثَانِيًا مِنْ مَقْلَتِكَ
 لِسَمٍّ لَا تَخْلُفْنِي فِي أَمْتِكَ



الحالة النفسية والظرف

الرَّأْيُ بَعْدَ شِجَاعَةِ الشَّجْعَانِ
 إِنْ كُنْتَ يَقْظَانًا فَأَنْتَ مَظْمُرُ
 كُلِّ الْحَيَاةِ عَلَى اخْتِلَافِ ظُرُوفِهَا
 فِي كُلِّ وَقْتٍ لِلْمَسَافِرِ جِدَّةُ
 كَلِمَاتُنَا مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَخْتَلِفْ
 فِي سَجْدَةِ الْجَنْدِيِّ نَلْمَحُ غِبْطَةً
 هُوَ مُسْلِمٌ لَكِنْ وَهَذَا مُسْلِمٌ
 لِلنَّشْرِ كَالشَّاهِينَ جَمًّا وَاحِدًا
 هِيَ أَوَّلُ وَهُوَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
 وَالْحَالُ خَيْرُ ذَخَائِرِ الْإِنْسَانِ
 ظِلٌّ تَوَلَّفَهُ ظُرُوفُ الْحَالِ
 وَمَنَازِلُ الْقَلْبِ الْمَقِيمِ خَوَالِ
 لَا فِي مَعَانِيهَا وَلَا فِي لَفْظِهَا
 لَيْسَتْ كَسَجْدَةِ نَاسِكٍ فِي وَعْظِهَا
 مَا زَادَ عَنْ قِرَائِهِ قِرَائُهُ
 لَكِنْ لِكُلِّ مِنْهُمَا طَيْرَانُهُ

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربمَّا أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إِنَّ المعريَّ لم يكن أبداً
 يقالُ : كان نباتياً بمذهبه
 شوى له مرةً مستهزئٌ حَجَلاً
 لكنَّ شيخَ اللُّزوميَّات حين رأى
 وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفتَ
 لو كنتَ بازاً لأعطوك الدَّجاجَ فِدَى
 لم تُلقِ بالكِ للاديانِ إذ وَعَظْتَ
 اللهُ سَحَرٌ للاقوى خلائقه
 ليأكل اللحم لا يلوي على دينِ
 وليس يقتاتُ إلا من يدِ الطينِ
 يريد يلقاهُ فيما اختار مُزْتَبِكا
 شناعة الشيخ ألقى فوقه وبكى
 يداك حتَّى دَخَلَتِ النَّارَ بالسَّيخِ
 وما لجأتِ إلى شَجْبي وتوبيخي
 وللطبيعةِ إذ قالت لطالبها
 وقدَّر الموت للمستضعفين بها

سينما

أيمودُ آزُرُ مرةً أخرى
 أصنامُها في صَدْرِ صالِتها
 ما كان يُنْحَتُ قَبْلُ من صنم
 صاغت لنا الدُّنيا لنعبدها
 ما كان فَنّاً فَتُّهُ أبداً
 فتفحَّصِ السِّينما الَّتِي ظَهَرَتْ
 هو صاغَ أصناماً لعالمه
 وتصوغُ صالِتها لعالمنا
 ما في زوايا المعبدينِ سوى
 إن لم يَلِ التَّوحيْدُ أمرهما
 ويذيعُ في السِّينما معانيه
 عادت له بِرَواجِ ماضيه
 جاءت تُريدُ تبيُّعه فينا
 وثناً وصاغَ لِغَضْرِهِ الدُّنيا
 ما كان غيرَ طَقُوسِ أوْثانِ
 هي في الحقيقةِ ثوبُهُ الثَّاني
 ما صاغَ من طينٍ وفخارٍ
 أصنامُها من مارجِ الثَّارِ
 هذا الرَّمادِ وذلكَ الطِّينِ
 لم يتركها شرفاً لمِسْكِينِ

إلى جماعة « بيرزاده »^(١) في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحٍ مجددٍ^(٢)
وعلى الثرابِ من الضريحِ تألقُ
لا غرورَ للأسرارِ تلمعُ هاهنا
من ردِّ جاهنكير عن يده وما
هذا المكانُ من الوجودِ ضريحه
الهندُ تعرف أرضها وسماؤها
هو أحمدُ المختارِ للمحنِ التي
لما وقفتُ على ضريحِ مُجددٍ
فشكوتُ دروشةَ الزمانِ له وما
فأجاب : طرفك ليس يبصرُ قلتُ : لا
من أين ألتمس البصائرِ إنني
فأجابني ذهبَ الذين عرفتْهم
لا تكثرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ
أرني قلنسوةَ لَدَويشٍ لهم
ذهبوا مع الفقهاء خلف ملوكهم

ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
غبطته في قَصْرِ السَّماءِ جواري
فهاهنا توارى صاحبُ الأسرارِ
ذلتُ عماثته لوصمةِ عارٍ
وهنا يقيمُ معلّمُ الأحرارِ
كيف افتداها من جحيمِ النارِ
نالتُ شريعةَ أحمدَ المختارِ
دار الحديثِ عن الزَّمانِ الدائرِ
ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
هو مبصرٌ لكن يغيّرُ نفوذِ
أصبحت في عيني كالمنبوذِ
لم يبقَ سرٌّ في دمِ البنجابِ
مجنونةٌ ولو ارتدى جلبابي
لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولاً أدوارنا في لعبة التَّيجانِ

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا

دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى المادّيين .

(٢) يريد به إقبال مجدّد الألف الثاني الشيخ السُّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا يبدق هذا اختيار الأعبى الشيطان
إنَّ البيادق إنَّ أعاقَت نفسها دلَّت على شاهٍ بلا سلطان

التَّجَرُّد

ليس التَّجَرُّدُ أن تقيمَ على الطَّوى وقواكَ خائِرةً وبيئتكَ مُقدِّمَ
فَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يطيحُ بأهله وَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارة مسلمٌ فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

الذَّات

لا تَرْضَيْنَ فِضَّةً بِالذَّاتِ أو ذهباً ولا تبغِ بِشَرارِ ذلكِ اللُّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفت للفرس أقواله الأستارَ والحُجبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُهُ فلا تكنِ وَقِحاً إنَّ رمتَه طلباً)^(١)

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهرُ إذ يفارقها صباحاً عَزَلَتْهُ من ذهبِ الحريرِ فصار للذَّنيا وشاحاً
والكَوْنُ مُغْتَبِطٌ بما جَلَبَ الفراقُ من التَّسْلِي

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

منرنحُ في صمته نشوانُ من مُتَعِ التَّجَلِّي
هل تعرف الأنهار والأفلاك أسرار التشوُّف
هل يرتوون من الفراق ويكتوون من التلهُّف
أنا قمتني قلقُ الفراقِ سواء مالي من مُنى
هو في الصِّميم من الثُّرابِ وما الثُّرابُ سوى أنا

الدير

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُختلِّ
مضى الذين إذا قالوا لميَّتهم قن ، قامَ فيهم بإذنِ الله واجتازا
فما الذي بعدهم في الدير تفعله جماعةٌ بمذاقِ الدير كَفَّارُ
أخذمةً لقبورِ القوم ما برحوا أم أنهم لقبورِ القوم حُفَّارُ

شكوى الشيطان

قال إبليسُ الرَّجِيمُ يشتكي الله تعالى
ما لنَجَلِ الطَّيْنِ هذا فوقَ ناري يتعالى
هُوَ ذا آدمَ بعدي هُوَ ذا كَومِ الثُّرابِ
واهنُ الرُّوحِ كيرُ الكَرشِ موفورُ الثَّيابِ
عقله في الأوج لکن قلبه يلفظُ روحه
ما لقلبي غيرك اللهم لو تأسو جروحه
كلما يجعلُ منه الشرق معيارَ النجاسة
لا تبالي حكماً الغرب أن ترفع رأسه

حورُ فردوسِكَ تخشى عالمَ الفردوسِ يُقْفِرُ
 جثثُكَ اللهمَّ بِالْحُجَّةِ كِي تَرْضَى وتغْفِرُ
 فسَرَ الغربُ السَّديمَ قراطيني تَزَكِي لِسُجُودِي
 لم يعدْ من بعده في الأرض معنى لوجودي

دم في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ الشَّوْءِ من رجلٍ إنْ كَانَ فِيهِ دَمٌ وَنَامُوسُ
 وارغبْ عن المحرومِ من دمه فالغَيْرُ مِنْ كَفَيْهِ مِثْوَسُ
 رجلٌ يحرِّكُ قلبه دُمُهُ لا الفَقْرُ يُخْزِنُهُ ولا الجودُ
 إِيَّاكَ مَنْ لَمْ يَهْدِهِمْ دُمُهُمْ سودُ الدِّمَاءِ عقولُهُمْ سودُ

الطيران

تشكَّتِ التينةُ للعصفورِ من معبدِ الألوانِ والعُطُورِ
 قالتْ له : يا أَيُّهَا المغرَّدُ حتَّى متى يكفرُ هذا المعبُدُ
 لو أنَّ لي أجنحةً وعَوْنًا أغرقتُ بالجمالِ هذا الكونا
 أجابها العصفورُ في وداعة إجابةً في منتهى البراعة
 قال لها : أَيُّهَا المسكينةُ كيف تطيرين وأنت تينة
 قولُكَ لا يَنِمُّ عن غباءٍ وإنَّما يدعو إلى الرِّثاءِ
 اتدَّعين الظُّلَمَ في عينِ العدلِ وأنتِ أحرى من أريثُ بالعدلِ
 الطَّيرانِ سرُّنا المحجوبُ لا يستطيعُ نيلُكَ مجذوبُ

معلم المدرسة

أمام روح التلاميذ التي اختنقت بيني المعلم هذا صرخ فخر
الحق ما قال كاغاني^(١) ويسحرني ما قال من بيت شعر بدّ أشعاري
(إذا الجدار أمام الشمس ترفعه فلن ترى نورها في باحة الدار)

الفيلسوف

يعرف الفيلسوف كيف يطير وهو في العلم غاية في البراعة
جسد فارغ وعلم غزير لو أضافوا إليه روح الشجاعة
يزمّم النسر في السماء دوائر كالشواهين والطيور الحرائر^(٢)
لا تغرنك المظاهر هذي فهو يخفي نقيضها في السرائر
هي تقتات من إوز وبط وهو يقتات جيفة وفطيسة
أي معنى له إذا حرموه متعة الانقضاء فوق الفريسة

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنّ قيمته تتجلى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبة ما إذا سيقبلي على شيء لها أم لا .

(١) الشَّاهِين

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ذلك العالمُ الذي زعموه أنا نَجَلُ الصَّحراءِ والرُّهْدُ ديني أَجْهَلُ الرُّهَرِ والنَّسِيمِ وما في ورجالُ البُستانِ تغري ولكن أين مجدي إذا شقيتُ لجوعٍ بافتراسي أصونُ عزَّةً وجهي كلُّ طيرٍ له من الأرض عَشٌّ كيف بيني قلندر الطَّيرِ عَشاً	ثم القَيْتُ كلَّ شيءٍ ورائي ليس يقتاتُ غيرَ حَبٍّ وماءٍ وهما في سَجِيَّتِي ودمائي لوعةُ العندليبِ عند المساءِ ليس تُغري منشأً في العَراءِ وأذلتُ حمامةً كبريائي وأروِّي حماستي وإبائي وأنا هاهنا حليف مضاي وهو الفَرْدُ في رحابِ السَّماءِ
---	---

-
- (١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
- الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
- ١ - لا يبي لنفسه عَشاً يعني أنه درويش .
 - ٢ - يطير إلى الأعالي .
 - ٣ - ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهد .
 - ٤ - لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
- وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر (١)

أنا فانوسي الذي أمْلِكُه شمعةٌ في قصعةٍ من خَزَفٍ
 إن أقمْتُ الليلَ ذابْتُ وإذا هَبَّتِ الرِّيحُ عليها تنطفي
 ما الَّذي يفعَلُه سيّدنا بالمصاييح التي حول المزار
 ثمَّ ما معنَى مزارٍ وضريح وسنورٍ وعطُورٍ وجمّار
 يا إلهي كم لنا من كعبةٍ كم لنا من صنمٍ في الحرم
 وفقاعاتٍ قبابٍ فوقهم جعلتنا ضحكةً للأمم
 ليس ما يعطى لهذي الأولياء من ندورٍ باسمهم إلَّا رَبا
 المرابي دائماً مختبئٌ ووليُّ القوم في القبر اختبا
 أنراهم سلكوا كالأولياء إنَّما هم أولياء بالوراثه
 ملأ الغربانُ أوكار التُّسور خلَّصَ اللهُ من القوم تراثه

آخر وصايا هارون

قال الرَّشيد لابنه يوصيه : ها أنذا اختَصِرْتُ
 ستمُرُّ بعدي أنت فسي هذا الطَّريق كما مررتُ
 أبنيَّ إنَّ الموتَ نورٌ في عيُونِ المؤمنين

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدة ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الذَّير) .
 وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّور هذا لا تشاهدُه عيونُ الكافرين

إلى عالمِ نفس

دغ عنك فكرَكَ فالإعصار جرَّارٌ وليس تجدي ببحر الذَّات أفكارُ
وأين أنتَ بهذا البحر من جُزرٍ صغيرة ما أتاها قطُّ بحارُ
إن لم تشقَّ كموسى ثوبَ لُجَّتِها فحطَّك الصَّمْتُ إن وافتاك إعصارُ

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)^(١) في المِرْصاد واقفةٌ مَكْرُ الثَّعالبِ يَفْري قوَّةَ الأسدِ
لا بدَّ تسقطُ أوربة إذا نَضِجَتْ في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

الأسدُ والبغلة

قالَ للبغلةِ يوماً أسدٌ أنتِ حقاً لكِ سرٌّ من أبوكِ
فأجابته ألا تَعْرِفُنْسي أنا خالي فخرُ إصطبلِ الملوكِ

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصييين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة (١)

ألا ترثني لعصفورٍ عن الطَّيْران قد مُنعا
إذا استخفى وحاول أن يطيرَ لوخده وقعا
يحاولُ أن يكون فؤاده بيتاً لجبريل
وليس له من الطَّيْران غير القال والقيـل
هل العصفورُ بين الشوك كالعصفور في الجنّة
بربك هذه حرّيةٌ في الفكر أم جنّة
فقل لمفكّر حرّ أضلّ الفكر وجدانه
تعالى الله أن يلهم ما يُبطل قرآنه
وهل يهدم مجد الشَّعب غير الفكرة الحرّة
وهذي الفكرة البلهاء سيّدها (أبو مرّه)

النَّسرُ والنَّملة

قالت النَّملة للنَّسر الذي مرَّ يوماً ما على وادي النَّمْل
أنت ترعى في بساتين النُّجوم وأنا في شقوة العيش المُذل
قال : لكن أنا لا أبحث عن مؤني مثلك في هذا الثُّراب
لست ألقى نظرةً حتّى ولا للسّموات التي فوق السَّحاب

• • •

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي
كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين
الأحرار . والمفكر الحر : هو الذي يفكر ويتحدث في حرية في موضوع الدين) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
محمد إقبال عند رجال الفكر والدعوة	١٣
محمد إقبال - حياته - شخصيته - فكره - فلسفته	١٧
أسرته وولادته	١٩
نشأته ودراسه	١٩
نبوغه في الشعر	٢٠
رحلاته	٢٣
وفاته	٢٤
آثاره في الشعر والنثر	٢٥
العوامل التي كونت شخصيته	٢٧
الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال	٤٣
فكر محمد إقبال	٦٣
فلسفة إقبال	٧٦
تفسير اصطلاحات في الديوان	٨٣
الديوان الأول : صلصلة الجرس	٨٧
النشيد الإسلامي	٩١
الشكوى وجواب الشكوى (حديث الروح)	٩٣
جواب الشكوى	١٠١
الديوان الثاني : الأسرار والرموز	١١١
محتوى الديوان	١١٥
خلاصة المقدمة التي كتبها محمد إقبال للديوان	١١٧

الصفحة	الموضوع
١١٩	خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون
١٢٠	دوام الذات أو الشخصية
١٢١	تربية الذات
١٢٥	القسم الأول : أسرار إثبات الذات
١٢٧	تمهيد
١٣٣	نظام العالم وتسلسل حياة أعيان الكون
١٣٦	حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها
١٣٨	الذات تتحكم بالمحبة والعشق
١٤١	الذات تضعف بالسؤال
١٤٣	الذات تسخر قوى العالم الظاهرة والباطنة
١٤٤	نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة
١٤٧	آراء أفلاطون وأثرها في تصوّف المسلمين وآدابهم
١٤٨	في حقيقة الشعر وانسلاخ الآداب الإسلامية
١٥٣	مراحل التربية الذاتية
١٥٣	المرحلة الأولى : الطاعة
١٥٤	المرحلة الثانية : ضبط النفس
١٥٥	المرحلة الثالثة : النيابة الإلهية
١٦٠	فتى مرو وبغي الأعداء
١٦٢	قصة الطائر الذي أجهده العطش
١٦٣	قصة الألماس والفحم
١٦٤	قصة الشيخ والبرهمي
١٦٧	حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
١٦٩	نصيحة مير نجاة لمسلمي الهند
١٧٤	الوقت سيف
١٧٧	دعاء
١٨١	القسم الثاني : رموز نفي الذات

الصفحة	الموضوع
١٨٣	محتوى الديوان
١٨٧	تمهيد : مهداة إلى الأمة الإسلامية
١٩٠	في معنى ارتباط الفرد والأمة
١٩٢	الملة تنشأ من إخلاص الأفراد
١٩٥	أركان الأمة الإسلامية
١٩٥	الركن الأول : التوحيد
١٩٧	التوحيد دواء العلل الخبيثة
١٩٩	محاورة السهم والسيف
٢٠٠	قصة السلطان عالمكير والأسد
٢٠٢	الركن الثاني : الرسالة
٢٠٤	مقصود الرسالة المحمدية
٢٠٥	قصة أبي عبيد وجابان
٢٠٦	قصة السلطان مراد والعمّار
٢٠٧	الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد
٢١٠	الوطن ليس أساس الأمة
٢١١	الأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية
٢١٤	شريعة الأمة المحمدية القرآن
٢١٦	التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد
٢١٨	كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي
٢٢٠	حسن سيرة الأمة من التأدب بالأداب المحمدية
٢٢٢	مركز الأمة الإسلامية البيت المحرم
٢٢٥	مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره
٢٢٨	توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم
٢٣٠	كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد
٢٣٣	بقاء نوع الإنسان بالأمومة
٢٣٥	سيدة النساء فاطمة الزهراء

الصفحة	الموضوع
٢٣٦	خطاب إلى المرأة المسلمة
٢٣٧	خلاصته مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص
٢٤٤	شكوى إلى من أرسل رحمة للعالمين
٢٤٩	الديوان الثالث : رسالة الشرق
٢٥٢	محتوى الديوان
٢٥٣	مقدمة محمد إقبال
٢٦١	القسم الأول : شقائق الطور
٢٧٥	القسم الثاني : أفكار
٣٠٥	القسم الثالث : الخمر الباقية (غزليات)
٣٢٣	القسم الرابع : نقش الإفرنج
٣٣٧	القسم الخامس : رقائق
٣٤١	اللمعات
٣٦٩	الديوان الرابع : زبور العجم
٣٧١	محتوى الديوان
٣٧٣	تمهيد
٤٠١	الخاتمة
٤٠٣	الديوان الخامس : جناح جبريل
٤٠٦	محتوى الديوان
٤٠٧	القسم الأول
٤٢١	القسم الثاني
٤٦٩	القسم الثالث - في مسجد قرطبة
٤٨٣	النخلة الأولى
٤٨٥	إسبانيا
٤٨٦	دعاء طارق
٤٩٠	لينين أمام الله
٤٩٣	الملائكة تغني

الموضوع	الصفحة
أوامر الله للملائكة	٤٩٣
في أرض فلسطين	٤٩٥
الفراشة والبراعة	٥٠٣
وصية إقبال لولده جاويد	٥٠٤
تسول	٥٠٤
الملا والفردوس	٥٠٥
الدين والسياسة	٥٠٥
الأرض لله	٥٠٦
رسالة إلى شاب	٥٠٧
نصيحة	٥٠٨
شقائق النعمان في الغاب	٥٠٨
كتاب الساقى	٥١٠
الزمن	٥١٩
آدم يغادر جنة عدن	٥٢١
روح الأرض تستقبل آدم	٥٢١
المرشد والمريد	٥٢٣
جبريل والشيطان	٥٢٩
الأذان	٥٣١
الحب	٥٣٢
رسالة نجم	٥٣٣
إلى جاويد	٥٣٣
الدين والفلسفة	٥٣٣
رسالة من أوربة	٥٣٤
على قبر نابليون	٥٣٥
موسوليني	٥٣٦
سؤال	٥٣٧

الصفحة	الموضوع
٥٣٧	إلى فلاح البنجاب
٥٣٨	نادر شاه ملك الأفغان
٥٣٩	حلم تترّي
٥٣٩	وصية خوش حال خان
٥٤٠	الحالة النفسية والظرف
٥٤١	أبو العلاء المعري - سينما
٥٤٢	إلى جماعة بيرزاده في البنجاب - سياسة
٥٤٣	التجدد - الذات - فراق
٥٤٤	الدير - شكوى الشيطان
٥٤٥	دم في الشرايين - الطيران
٥٤٦	معلم المدرسة - الفيلسوف
٥٤٧	الشاهين
٥٤٨	المريد الثائر - آخر وصايا هارون
٥٤٩	إلى عالم النفس - أوربة - الأسد والبغلة
٥٥٠	فكرة حرة - النسر والنملة
٥٥١	فهرس الموضوعات

دِيَوَان

محمّد اقبال

إعتماد
سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

دار ابن كثير
(دمشق - بيروت)





دیوان

مجله ادبیات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة

1428 هـ - 2007 م

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 24×17

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - حلب - سوني - جدة ابن مسينا - بناء الجبلي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تليفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



الدِّيَّوَانُ السَّادِسُ

ضَرْبُ الْكَلِيمِ
ضَرْبُ كَلِيمٍ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور عبد الوهَّاب عزام

هذا الديوان الثالث^(١) لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦ م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاوز ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكليم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملة أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملة ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ شديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمّاه إقبال « ضرب الكليم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارئ يقدّر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

محتوى الديوان

قسّم الشاعر هذا الديوان على ستة أقسام ، وقَدّم قبلها قطعتين وقصيدة :
القطعة الأولى أبيات قدّم بها الديوان إلى أمير ولاية بهوفال حميد الله خان ،
والثانية يُخاطب فيها القراء ، والقصيدة سمّاها تمهيداً .

وهذه أقسام الديوان الستة :

القسم الأول : الإسلام والمسلمون .

القسم الثاني : التعليم والتربية .

القسم الثالث : المرأة .

القسم الرابع : آداب الفنون الجميلة .

القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب .

القسم السادس : أفكار محراب حبل الأفغاني .

وهذه الأقسام مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة ، لا تتجاوز العشرة
إلا قليلاً .

والقسم الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسماً تختلف أقسامها أوزاناً
وقوافي ، ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية .

وقد نقل هذا الديوان من الأردوية إلى العربي شعراً الأستاذ الدكتور
عبد الوهاب عزام ، وكتب الأستاذ غلام أحمد برويز لهذا الديوان كلمات قيمة
يعرّف فيها هذا الديوان ، يقول فيها :

« هذا الديوان الذي نقدم إلى القراء ترجمته ، سماه العلامة إقبال « ضرب
كليم » ووصفه بأنه (إيذان العصر الحاضر بالحرب) وأرى أنّ هذا الوصف
لا يخصّ ضرب الكليم ، بل يشمل جانباً كبيراً من رسالة إقبال العظيمة ، فنحن
إذا قسمنا رسالة إقبال انقسمت إلى قسمين خطيرين :

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويريكوها في حباله « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشرعية اليهود المعنّية بالصور والأشكال ، كذلك عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، ويشير الحياة للإسلام القرآني .



والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجهها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذا يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلَّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد ، وحدَّ حدوداً ، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدِّ هذه الحدود وهذه المقاصد ، والحدود لا تتبدل ، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا ينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته إمكانات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكّنات وتجلّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامّة ، لا تحدّها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(ج) ثم فلاح النوع الإنسانيّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يُتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعاش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدره المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثّل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتجلّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة - التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل - قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيّةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلُّ واحد في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلمات قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحاد ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوجدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسهم منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيئ الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائيد لتحقيق هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أنَّ في كلِّ ستوة من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دَلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أنَّ أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلّت له هذه الحقيقة : إنّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

والى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في الشحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥ م : « سنقتل حضارتكم أنفسها بخنجرها . لا يثبت العش على حصن رطب ضعيف مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذّر الناس عاتمة الأمم الإسلامية خاصة من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .



وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية^(١) ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجه عام ، وهي : أنّ شعر إقبال حافل بكلمات معينة ، عربية وفارسية ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذ لا يتأتى لأحد أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملماً بحدود تلك المصطلحات الخاصة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردخُر ، وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو «خودي = الذاتية» . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالاً أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ «خودي» ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة «خودي» سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمَّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في «ضرب الكلم» يتحتم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمة موجزة قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى «أنا» حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أُمم العالم الإجابة عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلّا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو «أنا») وَهْمٌ وخدعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حجاب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمة دائبة في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة «خودي» ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخص جميع الموجودات كلاً على حدة ، حتى أن الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورة للحياة الفردية التي بها تتشكّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أن الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و « التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أن أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أن المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكانها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت - الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكل عمل يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أن كل عمل يؤدي إلى إضعافها شر .

وبيّن إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأمانى هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمع على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبط النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتم التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلى بأكمل وجه في الذات الإلهية الجامعة لصفات متضادة متعادلة للغاية .

وإذا تمّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوّ المحل ، وانعدام شاغله أولاً) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه - الحال التي تسمّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و « غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

میان امتان و الامقام است كه آن امت دوکیتی را امام است
نیاسا بد زکار آفرینش كه خواب و خستگی بروی حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنها أمة نبطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« بياغان عندليبي خوش صفيري براغان جره بازي زودكبري
 أمير أو سلطانسي فقيري فقير أو به درويش أميري
 (إنها في البساتين عندليب حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع
 الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها
 أمير على الرغم من كونه درويشاً)^(١) .

﴿ لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية
 الآداب بجامعة القاهرة) .

فَطَرُهُ الْحُرُّ لَا تُطِيقُ مُقَاماً فَاثْلَفَ السَّيْرَ دَائِباً كَالنَّسِيمِ
أَلْفُ عَيْنٍ تَشَقُّ صَخْرَكَ فَاضْرَبْ بَعْدَ غَوْصِي فِي (الذَّاتِ) ضَرْبَ الْكَلِيمِ

إلى القارئ

إذا لم تُصب في الحياة النظر فليس زجاجك كُفءَ الحجر^(١)
كفاحٌ شديدٌ ، وضربٌ شديد فلا ترجُ في الحرب عَزَفَ الوتر
مَعِينُ الحياة دمَاءُ القلوب ولحنُ الدُّمَاءِ لا المِياهِ الفِطَر^(٢)

(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المِياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إِنَّ الفطرة لحن دم ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المِياه .

تمهيد

(١)

يَقْظَةُ « الذات » لا أراها بِذَيْرٍ لا ولا تُجْتَلَى لَدَى الْمُحْصَرِابِ
 إِنَّ رَوْحَ الشُّعُوبِ فِي الشَّرْقِ غَافٍ مِنْ سُمُومِ التَّرْيَاقِ ، رَهْنُ غِيَابِ^(١)
 إِنَّ تَضَيُّقَ الْجِهَادِ فِي الْأَرْضِ ذَرْعاً فَحَرَامٌ مَسْرَاكُ فَوْقَ السَّحَابِ^(٢)
 لَيْسَ مِنْ خِيفَةِ الْمَمَاتِ نَجَاةٌ إِنْ تَرَّ (الذات) هَيْكَلًا مِنْ تَرَابِ^(٣)
 لَيْسَ يُخْفِي صُرُوفَهُ الدَّهْرُ لَكِنْ لَكَ قَلْبٌ وَنَاطِرٌ فِي حِجَابِ
 قَدْ مُنِحْتُ الْهَشِيمَ فِي آسِيَا إِذْ أَنَّ نَارِي حَدِيدَةٌ فِي التَّهَابِ^(٤)

(٢)

ذَنْبُ إِقْبَالِ الْبَيَانِ وَإِنْ كَانَ شِبْهَ الزَّمَانِ نَزَرَ الْوَصَالِ^(٥)
 هَاجَ أَنْغَامُهُ عَكُوفاً عَلَى الْخَشْخَاشِ مَوْتًى ، إِلَى طَلَابِ الْمَعَالِي
 فَمَهِيضُ الْجَنَاحِ أَلْفُ دَارٍ قَدْ رَنَا الْيَوْمَ لِلْفَضَاءِ الْعَالِيِ^(٦)
 فَعَدَاهُ التَّغْرِيدُ فِي الْأَسْحَارِ وَحِينٌ وَمُتَعَةً الْأَبْصَارِ^(٧)

(١) الترياق : الأفيون .

(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .

(٣) يرى إقبال أنَّ الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .

(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفسادها وإعدادها للحياة .

(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .

(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفق حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .

(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .

القسم الأول
الإسلام والمُسلمون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصبح

إِنَّا لَنَجْهَلُ مَطْلَعَ الصُّبْحِ الَّذِي يُدْعَى بِیَوْمٍ أَوْ غَدٍ فِي الْأَزْمَنِ
لَكُنَّمَا الصَّبْحُ الَّذِي ارْتَجَّتْ لَهُ ظُلَمُ الْعَوَالِمِ ، مِنْ أَذَانِ الْمُؤْمِنِ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١)

مُسْتَسْرٌّ فِي الذَّاتِ مَعْنَى بَعِيدٌ	سَرُّهُ	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
سَيْفُ الذَّاتِ قَاطِعٌ غَيْرُ نَابٍ	شَحْدُهُ	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
عَصَرْنَا يَتَغْيِي خَلِيلًا حَطُومًا	وُثْنُهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٢)
إِنَّ دُنْيَاكَ مَوْثَنٌ لَا تَصْدُقُ	زُورُهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
فِي مَتَاعِ الْغُرُورِ تَسْعَى وَتَبْغِي	رَبْحُهُ !	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَا أَسِيرَ الْخَسَارِ وَالرَّبْحِ يَنْسَى	نَفْسُهُ !	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مَالُ دُنْيَاكَ وَالْبَنُونَ خِدَاعٌ	كُلُّهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
هِيَ أَصْنَامٌ وَاهِمٌ قَدْ بَرَاهَا	وَهْمُهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
حَبَسَ الْعَقْلَ فِي مَكَانٍ وَوَقَّتِ	كَفَرُهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
لَا زَمَانَ وَلَا مَانَ فَحَطَّمْ	غَلُّهُ .	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .

(٢) الوُثْنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر^(١)

من القرآن قد تركوا المساعي إلى (التقدير) ردّوا كلّ سُنْبي
وبالقرآن قد ملكوا الثُّرَيَّا وكان زَماعُهُم قَدراً خَفِيًّا
تبذّلت الضمائر في إسمار فما كسر هو صَارَ لَهُم رَضِيًّا

المعراج^(٢)

وذَرَّةٌ طارَ فيها الشُّوقُ صاعدةٌ تُغَيِّرُ في عَرَصاتِ الشَّمْسِ والقَمَرِ
يارِفَقَّةَ المَرَجِ ! تلقى الصقرَ مُقدِّمةً دُرَّاجَةً تملأُ الأنفاسَ من شرَرِ
المسلمِ السَّهْمِ ، والأفلاكُ غايَتُهُ سرائِرُ الرُّوحِ في المعراجِ فاذْكُرْ^(٣)
جهلَتَ **﴿ والنجم ﴾** أسراراً فلا عجبُ ما زال مثلكَ محتاجاً إلى القمرِ^(٤)

-
- (١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحقُّ أنّ العبودية بدلت النفوس ، فأروا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .
- (٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس فانتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .
- (٣) يريد أن في المعراج سرُّ الروح . وهو رمز إلى أنّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .
- (٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجبياً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه .

إلى سيد مصاب بالفلسفة

لو لم تُؤَلَّ « ذَاتَكَ » النسياناً
أصداًف (هيكلي) من الخوالي
فكيف صاحِ تُحكِّمُ الحياةَ
وطَلَبُ الإنسانِ للثباتِ
يُحوِّلُ الدُّجى إلى الإشراقِ
وإنني في الأصلِ سُومَناتي
وأنست من أولادِ هاشمسيٍّ
في عَصَبِي فلسفةُ الأشياءِ
أحاط إقبالٌ بها تفصيلاً
عاقبةُ العقلِ إلى شتاتٍ
ونَغْمَةُ الأفكارِ دونَ صَوْتِ
الدِّينِ في حياتنا تقويمِ
(قلبك فاربط بالهُدَى المحمديِّ
إنَّ تَكُ بالطريقِ غيرِ داري

لَمْ تَحْمِلَنْ زُنَّارَ (بَرَجَسَانَا)^(١)
طَلَسْمُهُ جَمِيعُهُ خِيَالِي
وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟
وقصدُهُ دستورُ ذي الحياةِ ؟
أذُنُ مؤمِنٍ نَسِداً الآفاقِ
إلى مَناءِ سَلَفِي واللاتِ^(٢)
وطيئتي من نسلِ بَرَهْمِيٍّ
قد مُزِجَتْ بطيئتي ومائي
وإن يكنِ عِرفانُهُ قليلاً
فلسفةُ بُعدٍ من الحياةِ
للذَّةِ الأعمالِ حادي الموتِ
الدِّينِ أحمدٌ وإبراهيمُ
« أبا عليٍّ » اتركَنْ يابنَ عليٍّ
فالقُرشيُّ اتَّبَعَهُ لا البخاريُّ^(٣)

-
- (١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .
- (٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .
- (٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقيين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاح عِلَّ الذي رأيتَ ربيعاً هو في أعين خريف الزَّمان
سالك النَّهْجِ اِكْلَ حينِ شُؤُونٍ لا تفكّر في الربح والخسران
رُبَّ ما خَلَقَهُ بِدنياك أَوْجاً هو أرض لعالم غاب ثاب

اضمحلال المسلمين

إِنَّ كانَ ذا الذَّهَبِ الذي يَفْضِي الحوائِجَ في الدُّنْى
فالفقرُ صاحِ مُيَسَّرُ ما لا يُسَّرُهُ الغِنَى
شُبَّانُ قومي لو تحلَّوا بالشَّجاعة ديدنا
لم تُلَفَّ صَغَلَكتي أَقلَّ من الملوِك تَصَوُّنا
الأمر ليس كما زعمتَ وقد وصفتَ المؤمنا
فزعمتَ أَنَّ طمَاحه من قِلَّةِ المالِ انثنى
إِنْ كانَ في الدُّنيا بدا لي جوهرٌ فيه سَنا
فَمِنْ التَّصْغُلِ قَدَ بدا لا بالخزائن والقُنَى

العلم والعشق

قَالَ لي العِلْمُ غُروراً : إِنَّمَا العِشْقُ جَنُونُ
قَالَ لي العِشْقُ مَجِيئاً : إِنَّمَا العِلْمُ ظَنِينُ
لا تَكُنْ مَوْسَ كِتَابِ يا أَسِيراً لِلظَّنُونِ
فَمِنْ العِشْقِ شُهُودُ وَمِنْ العِلْمِ حِجابُ
مِنْ لَهيبِ العِشْقِ ثارثُ ثُورَةٌ فِي الكائِناتِ

وشهوود (السذات) للعشيق ، وللعلم الصفات
 ومن العشيق ثبات وعلمنا سؤل جلي
 علمنا سؤل جلي وعشقا خافي الجواب
 معجزات العشيق ملك وعشقه فقير ودين
 وعيشد العشيق أدنا هم لسه عرش مكيين
 ومن العشيق زمان ومكان ومكين^(١)
 إنما العشيق يقين وبسه يفتح باب
 ألفة المنزل في شرع من الحبيب حرام
 خطير البحر حلال راحة السرب حرام
 خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام^(٢)
 علمنا نسل كتاب عشقنا أم الكتاب

اجتهاد

حكمة الدين كما قد زعموا علّمث في الهند من أيّ طريق؟
 ما بها لذة سعي دائب لا ولا فيها من الفكر العميق
 أين منهم جرأة العقل لدى مخفلي بهفو إلى الفكر مشوق
 آه للتقليد والأسر بما ألفوه وزوال التحقيق

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردني .

بَدَّلُوا الْقُرْآنَ لَا أَنْفُسَهُمْ كَمْ فَقِيهٍ مُبَعَّدٍ مِنْ تَوْفِيقٍ^(١)
وَكَفَى الْقُرْآنَ نَقْصاً أَنَّهُ مَا هَدَى الْمُؤْمِنَ مِنْهَا جَ الرَّقِيقِ^(٢)

شكر وشكوى

لَكَ الْحَمْدُ إِنِّي عَبْدٌ جَهْلٌ وَلَكِنْ وُصِّلْتُ بِسِرِّ الْغِيُوبِ
مَنْخَتُ الْقُلُوبِ هِيَاماً جَدِيداً أَثَرْتُ الْبُعِيدَ بِهِ وَالْقَرِيبِ
وَمِنْ حَزٍّ شَدَوِي يُرَى فِي الْخَرِيفِ طَرُوباً بِصَحْبَتِي الْعَنْدَلِيبِ
وَلَكِنْ خُلِقْتُ بِأَرْضٍ بِهَا نَفُوسُ الْعَبِيدِ بِرِقِّ تَطِيبِ

الذكر والفكر

ذَاكَ لِلْسَّالِكِ الطَّمُوحِ مَقَام نَزَلْتُ فِيهِ «عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ»^(٣)
وَمَقَامِ التَّفَكِيرِ قَوْلُ ابْنِ سِينَا وَمَقَامُ الْعَطَّارِ بِالذِّكْرِ ضَاءً^(٤)
وَلِذِكْرِ «سَبْحَانَ رَبِّي» وَالْفَكْرِ يُقَيِّسُ الزَّمَانَ وَالْأَرْجَاءَ^(٥)

-
- (١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفافاً من تكاليفه .
- (٢) يعني أن الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .
- (٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .
- (٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .
- (٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغل بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عَلَيْكَ مَقَامُ آدَمَ فِي الْوَرَى فَالْنَفْسُ مَا تَالَ الْإِلَهَ وَصَالُهَا^(١)
مَا فِي أَذَانِكَ مِنْ صَبَاحِي دَعْوَةٍ أَوْ فِي الصَّلَاةِ جَمَالُهَا وَجَلَالُهَا

(٢) القدر

رَبِّمَا يَبْلُغُ اللَّثِيمُ مُنَاهُ وَيُنَالُ الْكَرِيمَ ضِيمُ الزَّمَانِ
عَلَّ فِي مَنْطِقِ الْقَضَاءِ خِفَاءُ وَيُرَى دُونَ مَنْطِقِي فِي الْعِيَانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذِي الْحَقِيقَةِ طُرّاً وَجَلَاهَا التَّارِيخُ كُلَّ أَوَانِ
نَحْوَ مَسْعَى الْأَقْوَامِ يَرْنُو الْقَضَاءُ نَظَرَةً كَالْحُسَامِ فِيهَا مَضَاءُ

التوحيد

قُوَّةٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَارَ التَّوْحِيدُ عِلْمَ الْكَلَامِ
رَدَّهُ فِي الْفِعَالِ غَيْرَ مُضِيِّ جَهَلْنَا الْيَوْمَ مَا لَنَا مِنْ مَقَامِ
قَائِدَ الْجَيْشِ ! قَدْ رَأَيْتُ غُمُوداً مِنْ « هُوَ اللَّهُ » مَا بِهَا مِنْ حُسَامِ^(٣)

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أدخلت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقة لا جدال فيها ، هي أنَّ عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

ما درى الشيخُ أنَّ توحيدَ فكرٍ دونِ فعلٍ ، يُعدُّ لغوَ كلامٍ^(١)
يا إماماً لركعةٍ كيف تدري في الوَرَى ما إمامةُ الأَقوم ؟

العلمُ والدين^(٢)

العلم يخلق إبراهيم موثقه إذا تراه نديمَ القلبِ والنَّظيرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما يُدْلا ما مُحدثٌ وقديمٌ قولٌ ذي بصرِ
ما يُحسنُ المرجُ تريبَ الزُّهورِ إذا لم تَشْرِكِ النَّسَمَاتُ الطَّلَّ في الزَّهرِ
العلم إن لم يُضِفْ نَجوى الكليمِ إلى رأي الحكيمِ فما للعلم من قَدَرِ

المسلمُ الهندي

قال البَرْهَمَنُ : خائنٌ أوطانه والإنكليزُ تقول : هذا مجتدي
ونُبُوَّةُ البَنَجَابِ قالت : كافر مستمسكٌ بقديمه لا يهتدي^(٣)
أَيَّانَ صَوْتُ الحَقِّ يعلو هاهنا ؟ ويلٌ لقلبي في الصُّراعِ المُجهدِ^(٤)

-
- (١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .
(٢) العلم وحده عاجز مُضِل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيم ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلل والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما في تربية الزهر .
(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .
(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف^(١)

أيها المسلم تَذْري اليومَ ما
هو مصراعٌ من البيت الذي
وأرى مصراعَه الثانيَ في
أنتَ يا مسلمٌ - إن تظفر به -
قيمةُ الفولاذ والعُضْب الذَّكَر
مضمَّرٌ فيه من التَّوْحِيدِ سِرٌّ
سيفٌ قَفَّرَ تحتويهِ كَفٌّ حُرٌّ
خالدٌ أو حيدرٌ يومَ المَكْر^(٢)

الجهاد^(٣)

الشيخُ أَفتَى أَنَّهُ عَصَرُ القلمِ
أما دَرى الشيخُ بأنَّ وعظَه
فما ترى السِّلَاحَ كَفٌّ مسلمٍ
مَنْ قلبُه يهابُ مَوْتَ كافرٍ
فعلَّمَنُ تركَ الجهادِ طاغياً
أما ترى الغربَ بدا مُدَجَّجاً
يا مُفتياً على الكنيسِ مُشفقاً
الحربُ في المشرقِ شُرٌّ داهمٌ
ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممِ
في مسجدٍ قد صار من لَغْوِ الكَلِمِ ؟
بل قلبُه من لَذَّةِ الموتِ حُرِمِ
فكيف ميتةُ الشَّهيدِ يَغْتَنِمُ^(٤) ؟
مِنْ كَفِّهِ يَسِيلُ في العالمِ دَمٌ
ليحفظَ الباطلَ في عِرْزِ عَمَمٍ ؟
قد حارَ في أحكامِهِ أولو الفَهَمِ
والحربُ في المغربِ شُرٌّ لا جَرَمِ

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إِنْ يَتَّبِعِ الْحَقُّ فَكَيْفَ حَاسِبُ الْمَسْئَلَةِ لَمْ لَا الْفِرْنَجِ ذَلِكَ الْحَكَمُ ؟

القوة والدين

كَمْ أَصَابَ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْأَرْكَانِ
وَيَقُولُ التَّارِيخُ فِي كُلِّ عَصَرٍ :
هِيَ سَيْلٌ غُثَاوُهُ الْفَقْرُ وَالْعِلْمُ
وَهِيَ سُمٌّْ بَغِيرُ دِينٍ . وَبِالذِّينِ
ضِيٍّ مِنْ إِنْكَدَرٍ وَمِنْ جَنْكِيْزٍ
خَطَرٌ فَزَرَطُ قُوَّةٍ لِعَزِيْزٍ
وَمَا أَثَلَّ الْوَرَى مِنْ كَنْزٍ
دَوَاءٌ لِكُلِّ سُوءٍ نَجِيْزٍ

الفقر (١)

الفقر يمضي بلا سلاح في حومة الحرب كالزُّجُوم

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتمح كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما
هو مصراع من البيت الذي
وأرى مصراعه الثنائي في
وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

في حومة الحرب كالزُّجُوم
الفقر يمضي بلا سلاح
وقوله في قطعة « السلطان » :

لنعم فالف مقام و شان
وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمِرُّ عَلَيْكَ مِنْ فَقْرٍ مَسْنَأً
فيطبع منك سيفاً للمنايا =

وكلُّ ضَرْبٍ لَهُ سَدِيدٌ إِنَّ ثَارَ مَنْ قَلْبِهِ السَّلِيمُ
 حَمَاسُهُ قَسَمٌ كُلُّ عَصْرِ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ وَالْكَلِيمِ
 يَا غَيْرَةَ الْفَقْرِ أَنْجَدِينَا وَاهْدِي إِلَى نَهْجِكَ الْقَوِيمِ
 عِبَادَةُ الْغَرَبِ جَمْعُ مَالٍ تَنْخَرُ فِي رُوحِهِ السَّقِيمِ

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملكٍ مقامُ فقرٍ ، ولكن تؤثر الذلَّ مذعناً ما احتبالي
 وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

وما إن ذلَّ قومٌ قد أعدوا حماس العشق والفقر الغيورُ
 ويتبين للقارئ من التأمل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارئ من كلام الشاعر : أنَّ الفقر الذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيتها عاملة مقدمة لا يطفئها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئِلَ يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدَّق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني أن لا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشقُ والشكر ما أباحا أن أضبطَ النفسَ في همومي
فمُقعدة الكرم لم تُفكح إلا بمَنَوحٍ من النسيم^(١)

الإسلام

إنَّ نارَ « الذات » ، والنورُ لديها هي للإسلام رُوحٌ مستنير^(٢)
إنَّ نارَ « الذات » ، فاقبس من لظاها في حياة الخلق نورٌ وسُفور
هي تقويمٌ وجودٌ وهي أضلُّ للتَّجَلِّي أخفِيَتْ خَلْفَ سُتُور
إنَّ قَلَى الغربِ منَ الإسلام لفظاً فله اسمٌ آخرُ : الفقرُ الغيور^(٣)

الحياة الأبدية^(٤)

صَدَفٌ لنا هذه الحياة ، وذاتنا كالقطر من نِيسان في الصدفات^(٥)
ما قيمة الصَّدَف الذي لا يستطيع يُحيل قطراتٍ إلى دُرّات
إنَّ صانَتِ الذاتُ المتينةَ نفسها أعِيَتْ على الأيام كلَّ مَمات

(١) كرمُ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنسيم تفتح بهما نفسه .

(٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .

(٣) إنَّ نعر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .

(٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .

(٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتطبق عليها حتى تتحوَّل دُرّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذات قطرةً من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفة القطرة دُرّة .

السلطان^(١)

تَعَلَّمْ ؛ فَأَلَفُ مَقَامَ وَشَانِ
إِذَا انْجَلَتْ (الذَّاتُ) فِي قَهْرِهَا
وَتَوَزَنَ فِي ذَا الْمَقَامِ الْقُوَى
وَأَنَّكَ فِي ذَا الْمَقَامِ عَظِيمٌ
وَمَا ذَاكَ بَغْيٌ وَقَهْرٌ وَلَكِنْ
فَمَا يَسْتَطَاعُ بِقَهْرِ وَبَغْيٍ
وَأَعْيَاكَ فِي الدَّهْرِ حِفْظُ لِفَقْرٍ
وَكَانَ عَلَى الدِّينِ سِيَمَا سَجُودِ
وَكَانَ عَلَى الشَّمْسِ مِنْهُ سَنَاءُ
لِفَقْرٍ بَدَأَ فِيهِ رُوحَ الْقُرْآنِ
فَهَذَا مَقَامٌ لِمَلِكِ الزَّمَانِ
قُوَى مُؤْمِنٍ تُبْتَلَى بِامْتِحَانِ
وَضَلُّ مَنْ اللَّهُ فِي ذَا الْمَكَانِ
هُوَ الْعَشَقُ وَالْوَجْدُ مِلءُ الْجَنَانِ
عَلَى الْأَرْضِ حِفْظُ الْوَرَى فِي أَمَانِ
فَأَصْبَحَتْ فِي الرِّقِّ خِدَنَ الْهَوَانِ
تُبَارِي الْكَوَاكِبَ مِلءُ الْعِيَانِ
فَهَلْ فِي نَجُومِكَ مِنْهُ مَعَانِ ؟

إِلَى الصُّوفِيِّ

تَسْرِ عَيْنَاكَ دُنْيَا الْمَعْجَزَاتِ
وَمِنْ دُنْيَا الْخِيَالِ عَجَبَتْ ، فَاعْجَبْ
تَبْسِذُهَا بِنَظَرَةٍ غَيْرِ رَاحِ
وَفِي عَيْنِي دُنْيَا الْحَادِثَاتِ
لِدُنْيَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ
وَكَمْ تَدْعُوكَ دُنْيَا الْمُمَكِّنَاتِ

(١) السلطان الحق هو أحد شؤون الفقر ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلي « الذات » - ذات
الفقير - بالتسلط . وليس السلطان طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في
رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صریح الفرنج

- ١ -

مِنْ تَجَلَّى الْفَرَنْجِ نَلَتْ وَجُوداً فَهَمُّ مِنْكَ هَيْكَلًا قَدْ أَقَامُوا
وَمِنْ (الذات) هَيْكَلُ التُّزْبِ خَالٍ أَنْتَ غِمْدٌ مُذَهَّبٌ لَا حَسَامُ

- ٢ -

وَوَجُودُ الْإِلَهِ عِنْدَكَ رَيْبٌ وَأَرَى الرِّيبَ فِي وَجُودِكَ أَنْتَا
إِنَّمَا الْكَوْنُ جَوْهَرُ (الذات) يُجَلَّى فَانْظُرْنِ أَيَّ جَوْهَرٍ قَدْ دَفْتَا

التصوُّف (١)

إِنَّ عِلْمَ اللَّاهُوتِ فِي مَلَكُوتٍ لَيْسَ لِلدِّينِ آسِيَا - لَيْسَ شَيْئًا
وَقِيَامُ الْأَسْحَارِ فِي طُولٍ وَجَدَ لَيْسَ لِلذَّاتِ رَاعِيًا - لَيْسَ شَيْئًا
ذَلِكَ الْعَقْلُ صَاعِدًا لِلثَّرِيَا لَيْسَ بِالْوَجْدِ سَارِيًا - لَيْسَ شَيْئًا
يَنْطِقُ الْعَقْلُ « لَا إِلَهَ » وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْقَلْبِ مُسْلِمًا - لَيْسَ شَيْئًا^(٢)
كَلِمَاتِي خَوَافِقُ وَسْنَا الْإِصْبَاحَ لَمْ يَيْدُ خَافِقًا - لَيْسَ شَيْئًا

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بوحدة الأفكار تحياً أمةً ودونها الإلهام يُلقَى ملحداً^(١)
لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوى لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدى
يا عابداً ليس لديه قوةٌ اذهب إلى كهفٍ وسبح واعبدا
وهات إسلاماً به تصوّف إلى الردى والذلّ واليأس هدى
للشيخ في الهند أجزت سجدّةً فحسب الإسلام حُرّاً سيّداً

قطعة (٢)

ما القلب مات ، قلبٌ فأحيي ذا السرميما
يمحو الفسّاد داءً في أمم قديما
بحرّك في سُكونٍ سُحّر أم أنيما؟
لا وحشٍ أو هياجاً أو ساحلاً لطيمما
وفي السماء سرٌّ لستَ به عليمما
ما هاج طرفُ نجمٍ منك فتى كليما
رمى نسيّداً صبحي أباءك الهشيمما^(٣)
شِرةً أكنّت في طيتي قديمما
دنيا غداً وأمسي يُبصرها عليمما

(١) بغير توحيد الأفكار تعمّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان بصير إلحاداً .

(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم آيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .

(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإغصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَنْ حَازَ مِثْلِي عَيْنًا جَرِيئَةً هَجُومًا

الدُّنْيَا (١)

كَذَاكُمْ بَدَا لِي بِوَقْلَمُونَ وَقَلْبْتُ فِي الْمَلَكُوتِ النَّظْرُ
فَهَذَا هِلَالٌ ، وَهَذِي نَجُومٌ وَهَذَا عَقِيْقٌ وَهَذَا حَجَرٌ
وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ أَعْمَلْتُهَا فَأَوْحَتْ إِلَيَّ صَحِيْحَ الْخَبَرِ
فَهَذَا نَرَابٌ وَتِلْكَ سَمَاءٌ وَذَلِكَ طَوْدٌ وَهَذَا نَهْرٌ
وَلَا أَكْتُمُ الْحَقَّ : أَنْتَ وَجُودٌ وَلَا شَيْءَ مَا سَاحَ فِيهِ الْبَصَرُ

الصَّلَاةُ (٢)

تَلَوْنُ فِي كُلِّ ثَوْبٍ مَنَاءٌ وَشَابَ بَنُو الدَّهْرِ وَهِيَ فِتَاءُ
فَهَذَا السُّجُودُ الَّذِي تَجْتَوِيهِ بِهِ مِنْ أَلُوفِ السُّجُودِ نَجَاةٌ (٣)

(١) أَنَا كَذَلِكَ أَبْصُرُ دُنْيَا الْأَلْوَانِ الَّتِي تُشَبِّهُ بِوَقْلَمُونَ ، وَأَعْرِفُ الْهِلَالَ وَالنَّجْمَ وَالسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ . . إلخ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ وَجُودٌ حَقٌّ ، وَمَا عَدَاهُ لَيْسَ شَيْئًا .

(٢) الْأَصْنَامُ لَمْ تَنْقُطْ عِبَادَتُهَا ، فَلَا تَزَالُ تَظْهَرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتُعْبَدُ ضُرُوبُ الْعِبَادَاتِ . فَاعْلَمْ أَنَّ سُجُودَ الصَّلَاةِ الَّذِي يَثْقُلُ عَلَيْكَ يَنْجِيكَ مِنْ آلَافِ السُّجُودِ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ .

(٣) تَجْتَوِيهِ : تَكْرَهُهُ .

(١) الوحي

ليس هذا العقل ذو الوهم من حرياً بالإمامة
فحياة الظن والتخمين ضعف وسقامه
ليس في فكرك نور أو إلى السعي استقامه
كيف يجلو في حياة ذلك الليل ظلامه ؟
إن لغز الحسن والقبح ليعي ذا الفهامه
حين لا تجلسو الحياة السر منها مستهامه

هزيمة

خلا الصوفي من حرق وكذ شراب (ألت) معذرة البطالة^(٢)
وفر إلى ترهبه فقيه يرى في الشرع معترك البسالة^(٣)
إذا خشي الرجال وغى حياة فتلك هي الهزيمة لا محالة

العقل والقلب

سيطر العقل على الكون أميراً وطوى الأفلاك والأرض مسيراً
ذا جلال يخضع الكون له غير قلب ثار بالعقل جسوراً

(١) العقل ظن وتخمين ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك

الحسن والقبح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .

(٢) يوم « ألت » أو عهد « ألت » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف :

١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألت » يتعلل به ، ويعتذر لبطالته .

(٣) لما رأى الفقيه أن الشرع جهاد وكفاح فؤ إلى الترهّب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفي سُكْرُ الحال وطريقُ الفقيه سُكْرُ المقال
ونشيد الشُّعر المرجَّع مَيِّت خامدُ اللَّحن لم يُشَبَّ بجمال
بين نومٍ وبقظةٍ غيرُ صاحٍ بين سُكر الأفكار والبَلال
وبنفسٍ مجاهدٍ لا أراءٍ فيه سُكرُ الأعمال لا الأقوال

(١) القبر

لا يجد القلندرُ راحةً وإن ثوى بقبره تحت الثُّرى
سكنةُ الأفلاك في الضُّريح لا فساحةُ الأفلاك أو طولُ الثُّرى

(٢) همّة القلندر

يقول للزمان ذلك الفتى : امض إلى حيث يسير المؤمن
مالك في معركي مِن طاقةٍ حذارٍ من قلندرٍ لا يُدعن

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيد به رغبة أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُدِيمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .

وسُمِّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .
وقد رأى المترجم أن يبقى اللفظ في الترجمة لأنه عَلِمَ في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نسب إليه ، فقال : القلندر والقلندري .

إذا طغى اليمُّ فهَيْبَا أقدمنْ ما حاجتي مَلاحه والسُّفن
لقد محَا سحرَك تكبيرِي فهل تقوى على جحوده يا وَهِن ؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندر وقاهرٌ أيَّامه لا يُقهر

الفلسفة

ليس يَخفى على القلندر فكرٌ ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفياً^(١)
أنا عندي بكلِّ حالِك خُبْرٌ فبهذا الطريق سرْتُ ملياً
لا يقيم الحكيمُ في شَرَك اللف ظ ولا بالحروف كان حفيّاً
ليس همُّ الغوّاص أصدافَ بحرٍ يتغني الغائصون دُرّاً بهيّا
إنَّ في حلقة المجانين عقلاً في شرارٍ يرى لهيّا مضياً^(٢)
إن أغلى من الجواهر ، معنى صدّق القلبُ سرّه مطويّا
فلسفاتٌ ما سَطرت بدم القلب مَوَاتٌ أو للمات تُهيّا

رجال الله

إنَّما الحرُّ من يُجيد ضراباً لا الذي حربُهُ تدور هُراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجاً ذا سناء ، وخرقةً وقَباء^(٣)

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيّا عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصوفية لابسي الخرقه ، وفيها فقه العلماء لابسي القباء .

من خفايا ثرابهم أخذ الدهر شراراً فصاغ منه ذكاء
 فطرة حرة تعاف الدنيا من طواف الأصنام عاشت براء
 أنت في الكفر والتدين جمعاً وثني تقدس الأهواء^(١)

الكافر والمؤمن^(٢)

أمس عند البحر قال الخضر لي قولاً أعية^(٣)
 تبتغي الترياق من سُم فرنج تقيبه ؟
 فخذن قولاً سديداً هو بالسيف شبيه
 ذا مضاء وضياء خبرة الصيقل فيه :
 إنما الكافر حيران له الأفاق تيه
 وأرى المؤمن كوناً تاهت الأفاق فيه

-
- (١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .
 (٢) يكرر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إن المؤمن مسيطر على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضل فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإن غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
 والفكرة مأخوذة من مشنوي جلال الدين الرُّومي . فقد قصَّ المشنوي قصة افتقاد حليلة الرسول في طفولته وطلبها إياه والهة ، وأن جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الأفاق ، فهذه الأفاق تتيه فيه .
 (٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلُّ نَوَى في مَحْبَسٍ من صُنْعِهِ : سَيَّارُ إفرنج وثابتٌ مشرقٌ^(١)
والشَّيْخُ في حَرَمٍ وَحَبْرٌ كَنِيسَةٌ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السِّيَاسَةِ في شِرَاكِ قَدِيمِهِمُ والشُّعْرُ أَقْلَسُ في خَيَالٍ مُغْلَقِ
من لي بمهديٍّ له نَظَرٌ يَزْلُزُّ عَالَمَ الأفكار ، غيرَ ممخِرِقِ

المؤمن

- ١ -

في الدُّنْيَا

مع الصَّخْبِ لَئِنْ كَمَسَ الحَرِيرُ بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ^(٢)
حَدِيدٌ إِذَا مَا طَغَى بِاطْلُ جَرِيءٍ لَدَى المَغْرَكِ ، المؤمنُ
من الطَّيْنِ ، لكنَّ عَلَى الطَّيْنِ يَسْمُو وَيَأْبَى عَلَى الفَلَكِ ، المؤمنُ
وَمَا هُمُّهُ صَيْدٌ طَيْرٍ وَلَكِنْ يَصِيدُ مِنَ المَلَكِ ، المؤمنُ

- ٢ -

في الجَنَّةِ

تَقُولُ المَلَائِكُ فِي غِبْطَةٍ : حَيِّبٌ إِلَى قَلْبِنَا ، المؤمنُ

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السَّيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والروئي الكاف التي قبلها .

وللحور شكوى إلى ربّها : سريعٌ إلى هجرنا ، المؤمن

محمد علي الباب^(١)

مفيضاً في مقالات	أجاب (الباب) في حفل
بإعراب (السّموات)	وفات الشيخ توفيق
فلاقوه بسمات	سرت في الحفل غلطته
وفاتكم مقاماتي	فقال (الباب) : لم تذرُوا
في حبسٍ وإعنات	ثوى القرآن بالإعراب
بنحريرٍ لآيات	وإن إمامتي جاءت

القدر^(٢)

الخالق وإبليس

ليس عنه من مَحيد	إبليس : يا إلهاً أمره كُن
بَعْدُ أو حَسود	لَمْ يُصَبْ آدمٌ مني
ومكان في حدود	ويلٌ غرٌّ ، مِنْ زمان
أمرك أو كيف أحيد	كيف استكبر عن

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلهن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إن بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كان في علمك أني حائدٌ عن ذا السجود

الخالق : هل عرفت السرَّ هذا قبلَ أو بعدَ الجحود ؟
إيليس : بعدُ ! يا مَنْ مِنْ تَجَلِّيهِ كمالاتُ الوجود
(الخالقُ ناظرًا إلى الملائكة)

خِصَّةُ الفطرة فيه علَّمْتُهُ ذاكَ عذرا
قال : ما شئتَ سجودي أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سَمَى اختياراً فيه جِبرا
إنَّه سَمَى رَماداً شُعلةً فيه وجمرا

أين روح محمد !^(١)

أرى المَلَّةَ البيضاء بُدِّدَ نظْمُها فمسلُكُك انظر حاله ، أين يذهب ؟
وليس ببحر العرب لَذَّةُ ثَوْرَةٍ وفي الصَّدر موجُّ غاله ، أين يذهب ؟
ولا رَكْبٌ للحادي ولا زادٌ عنده وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب ؟
فبيِّن لنا الأسرارَ روح محمد ! حفيظٌ لآيٍ ، ياله ، أين يذهب ؟

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمَّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌّ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافي هائلة . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أين يذهب .

مدنية الإسلام

حياة المسلم أعرف في بياني كمالُ العقل فيها والجنون^(١)
 سناً كالصُّبح مغربه طُلوعٌ وحيدٌ ، كالزَّمان له شؤون
 ولا كالعصر ، خلوٌّ من حياءٍ ولا فيها من الماضي فتون
 حياةٌ بالحقائق في قرارٍ وليست ما يُطلِسِم أفلاطون^(٢)
 عناصرُها يؤلِّفُها جَمالٌ تمثِّل فيه جبريلُ الأمين
 وحسنُ الخلق من عُجمٍ لديها ونارُ العُرب فيها والشُّجون

الإمامة^(٣)

أتسألني : الإمامةُ ما مداها؟ جَبَاك الله مثلي بالخفايا
 إمامُ العصر حقاً من تراه فتسألم ما تشاهدُ في البرايا
 بمرآة الممات يريك وجهَ الـ حبيب فتجتوي عيشَ الدُّنايا

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فعياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذَّة لا نظير لها ، ولكنَّها كالزَّمان في شؤونٍ متعددة ، وهي قائمةٌ على الحقائق ، وجامعةٌ عناصر الجمال والقوَّة .

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال مَن ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعرك التخلّف عن كمالٍ فينفخُ فيك مشوبَ السّجايَا^(١)
يُمِرُّ عليك مِنْ فقرٍ وَسَنًا فيطبّعُ منك سيفاً للمنايا
فُتُون المَلَّةِ البيضاء إمامٌ كأنَّ المسلمين به سبايا^(٢)

الفقر والترهّب^(٣)

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقيرُ عندك كالترهّب يظهر
شَتَانٌ ، فانظر ، بين خلوة راهبٍ وشِراعٍ فقيرٍ في عُبابٍ يمخُر
في الروح والأبدان يبغي جلوةً فنهاية الإيمان (ذاتٌ) تبهر^(٤)
هو صيرفي الكائنات وجوده فعن الفناء أو البقاء يخبر^(٥)
فاسأله عما ترتثيه أعالِمُ أم موج رائحة ولون يزخر ؟
لما أضاع المسلمون على المدى ذا الفقر - لما ضاع هذا الجواهر
لم يبق فيهم من سليمان ولا سلمانَ دولةً عِزّةً لا تُقهر

-
- (١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .
 - (٢) فتنة الملة الإسلامية إمامٌ يمكّن أصحاب السُلطان من إذلال المسلمين .
 - (٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .
 - (٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .
 - (٥) هذا الفقر يتقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة (١)

متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلّت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم : ما فيك صدر
ومزقتُ الجيوبَ وأنتَ خالٍ
أقبلُ القولَ وافتح عينَ قلبٍ
وما إن ذلَّ قومٌ قد أعدوا

تقلُّ الدهرَ منها في حُبور
طموح ما أراه بالصُّبور
بفلسفة معقّدة الشُّطور
على موسى وفرعون وطور^(٢)
لأنفاس بها حرُّ النشور
جنوني - لا ألومك - في قصور^(٣)
ولا تكُ مُهذراً عند البصير
حماس العشق والفقر الغيور

التسليم والرضا

على كل غصن تبين أن النبات مشوقٌ لِرَخبِ الفضاء
فما قرّ في ظلمة التراب حبّ
جنونُ النشوء به والنماء
فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
فلا تبغ في فطرة ترك سعي
وأهل النماء فضاءً فسيح
وما ضاق مُلك الإله ، فسيحوا

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إنني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليّ لا عليك .

نكتة التوحيد^(١)

إِنَّ سِرَّ التَّوْحِيدِ طَوْعُ بَيَانِي شِدَّتْ فِي الرَّأْسِ مَوْثُنَا ، مَا اِحْتِيَالِي ؟^(٢)
 رَمَزُ شَوْقٍ بِلَا إِلَهٍ خَفِيٍّ لَيْسَ فِي الْفَقْهِ بَيْنَا ، مَا اِحْتِيَالِي ؟
 كَمْ سُرُورٍ فِي حَرْبٍ حَقٌّ وَزُورٍ لَسْتُ فِي الْحَرْبِ مَطْعَنَا ، مَا اِحْتِيَالِي ؟^(٣)
 كَمْ تُجَلِّي الْأَفَاقَ نَظْرُهُ حَرٌّ حَجَبَ الرِّقِّ أَعْيَنَا ، مَا اِحْتِيَالِي ؟
 أَيُّ مُلْكٍ مَقَامُ فَقْرٍ ! وَلَكِنْ تَوَثَّرَ الذِّلُّ مُذْعِنًا ، مَا اِحْتِيَالِي ؟

الإلهام والحرية

إِنَّ لِلْخُسْرِ مُلْهَمًا نَظَائِرَاتِ تَحْفِزُ الْقَوْلَ وَالْفِعَالَ بِنَارِ
 حَسْرَةِ أَنْفَاسِهِ يَشِيعُ بِرَوْضِي فَتَرَى الرُّوضِ مُزْهَرًا مِنْ شَرَارِ
 يَهْبُ الْعَنْدَلِيبُ سِيرَةً بَازٍ كَيْفَ حَالَتْ طِبَائِعُ الْأَطْيَارِ ؟
 يَنْحُ الْمُجْتَنِدِينَ شَوْكَةً جَمٍّ عَارَفُ النَّفْسِ وَالْهُ الْأَسْحَارِ^(٤)
 وَوَقَى اللَّهَ حِكْمَةً لِسَدِّيلِ مِثْلَ جَنْكِيْزٍ طَالِعٍ بِالذَّمَارِ^(٥)

(١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .

(٢) يمكن أن يبين سِرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبدًا للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كله ، بتخانته ، ونحوهما .

(٣) كَمْ سُرُورٍ فِي مَجَاهِدَةِ الْبَاطِلِ بِالْحَقِّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ .

(٤) جَم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .

(٥) يريد أن حكمة الذليل تدمر الأمم كفارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم (١)

تحير الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل : وثورة وسرورِ النفس والحزن
ومشكِلُ لك أَنَّ الخمر من قدح : أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكْن (٢)
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمرٌ بدا في رَمَادٍ منه للْفَطْنِ

« لاهور » و « كراجي » (٣)

قد تولى الله عبْدُ : مسلّمٌ ما أمرا
هو بالموت إلى عا : لَم روح سافرا
كيف تَفدون شهيداً : لخلود آثرا
دُمه من حَرَمِ أعلى : وأغلى جوهر (٤)
آه للمسلم غفلان : نَسِيّاً ما درى :
سرٌّ ﴿ لا تدع مع الله : إلهاً آخر (٥)﴾

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ،
والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(٢) الزكن : الفطنة .

(٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول
صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن
رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير
مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من
العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(٤) يعني : أن كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(٥) الآية : ﴿ فَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُوَّةُ (١)

ولستُ المحذِّثُ والفقيهُ	ولا الوليُّ ولا المجدِّدُ
لا علم عندي بالنُّبُوَّةِ	كيف توصف أو تحدِّدُ
لكن إلى الإسلام في الأيام	لي نظيرٌ مسدَّدُ
أوحى إليَّ بسرُّه الفلكُ	المحيطُ فلا أفنِّدُ
فرايت في ظلمات هـ	هذا العصر ذا الحقِّ المؤيَّدُ :
عنسدي حشيش المسلمين	نبوَّةٌ فيهم تجدُّ
ما إن لسيدها دعوة	للأس والمجد المخلَّدُ

الإنسان

ذا طَلَسْمُ الكَوْنِ والعَدَمِ	سُمِّي الإنسانُ من قَدَمِ
هو سرُّ الله جلُّ فلا	يحتويه الوصفُ في كَلَمِ
إنَّ هذا الدهرَ من أزلٍ	من سفارٍ باء بالسَّقمِ
ومضى الإنسانُ سيرتَه	لم يُصَبِّ بالسَّعَفِ والهَرَمِ
وإليك السرُّ أعلنه	إن تَسْغِه غيَرٌ مَتَّهَمِ :
ما بدا روحاً ولا بدنأ	ذلِكَ الإنسانُ للفَهَمِ

« مكة » و « جنينا »

كم حديثٍ عن الشُّعوب سمعنا وحدةً الناس حُجِّبت عن عيانِ

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكف عن الجهاد .

حكمة الغرب فُرقة النَّاس والإسـ سلامٌ فيه توخُّدُ العُمَـرانِ
ومقالٍ من مَكَّة لجنيوا قد وعاه اللبيبُ في كلِّ آن :
خبريني اليقين : هل عصبة الأفـ سوام خيرٌ أو عصبة الإنسان ؟

يا شيخَ الحرم

ودَّع الخبـوة يا شيخَ الحرم واسمعنْ في الفجر منِّي ذا النغمِ
يحفظُ اللهُ لك الفتیان في حُكم نفسٍ ، واشتعالٍ في الهممِ
هُم عن الغرب زجاجاً أخذوا علَّمَنهم صدمة الصَّخِرِ الأصمِ
طُـول ذلُّ أظلم القلبُ به أدركَ الحيرانَ في هذي الظُّلمِ
في جنوني منك أسرارٌ بدتْ فاجزني يا شيخُ عن هذا اللَّـمِ^(١)

المهدي^(٢)

أرى الأقوامَ تَمضي في حياة على قدر التخيل في الحياةِ
فمَجذوبُ الفرنج على خيالٍ من المهدي قاد إلى النجاةِ^(٣)

(١) يعني : أن نشوته ووليه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشيها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنَّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفع الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلم عن الإنسان الكامل .

فإن تنفر من المهدي ينفز غزال المسك من هذي الفلاة^(١)
 إذا ما الحي من جهل تردى باكفان وأغرق في سبات
 أسلم ذا الجهول إلى الردى أم تمرق عنه أثواب الممات ؟

المؤمن

إن للمؤمن العجيب الشان كل حين جديد شان وإن
 هو في قوله السديد وفي الفعل على الله واضح البرهان
 فيه قدسية إلى جبروت ومن القهر فيه والغفران
 إن تؤلف هذي العناصر كان المسلم المستعلي على الحدثنان
 هو ترب سما يجاور جبريل ويأبى الحلول في الأوطان
 لست تدري بسرّه فتراه قارئاً وهو صورة القرآن
 فيه عزم على القضاء دليل وهو في العالمين كالميزان^(٢)
 هو برد الندى بقلب شقيق وبقلب البحار كالطوفان^(٣)
 ليله والنهار لحن حياة في انسجام كسورة الرحمن
 إن فكري مطالع لنجوم نجمك أعرف طلوعه في بياني^(٤)

(١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .

(٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إن عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإن رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إن ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .

(٣) هو تارة كالندى يبرد قلب الشقائق ، وتارة كالموج الهائج في البحر .

(٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوابع النجوم هلم أدلك على أسباب السعادة ، فإن فكري يطلع نجوماً صادقة تدل على السعد والنحس .

المُسلم البنّجايي^(١)

مجدّد في كل حين مذهبا يحلّ في مرحلة ليركبا
 في حلبة التحقيق نكسر وإذا قامره داع غويّ غلبا
 جالة التأويل إن تُنصب له هوى من العُشّ إليها مُعجبا

الحُرّية^(٢)

ألا مَنْ يطيق اليوم نُصحاً لمسلم وحرية الأفكار من ربه أمر
 من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ فموثّن أفرنج به الزور والسحر
 وإن شئت فالقرآن تأويل لأعب فجدّد لنا شرعاً يلائمه العصر
 رأيتُ بأرض الهند أيّ عجيبة فإسلامها عبد ومسلمها حرّ

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هذي الحضارة ما تديّن قلبها فأخوة الإفرنج بالعصبات
 فلئن تنصّر برهميٍّ لم يزل للإنكليز إليه نظرة عات
 ولو أنّهم قد أسلموا لم يرفقوا بالمسلم المنكود من إعنات^(٣)

-
- (١) عُرف أهل البنّجاب بكثرة النحل والدعوات المبتدعة .
 (٢) ينمى إقبال في هذه الأبيات على من يدعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام
 وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .
 (٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا^(١)

لو لم تسر في ظلام الثرب نابتة ما نشت في فضاء الثور أغصانا
تقضي الحياة بـ « لا » في البدء نافية وفي النهاية « إلا » تكمل الشانا
إن لم تجيء بعدها « إلا » مثبتة كانت على الموت « لا » في الدهر عنوانا
إن أمة روحها لم يمض معتزماً عن « لا » فقد آذنت بالهلك إيدانا

إلى أمراء العرب^(٢)

هل يُسعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقهُ مخاطباً أمراء العرب في أدب
من أمة قبل كلِّ النَّاس قد أخذت بحكمة فاعانتها على الثوب :
إخاء مصطفويٍّ دون تفرقة وهجر كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤها من أحمدِ العربِ كانت أمة العرب

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محو وإثبات ، أو هدم وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيئ وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبين فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربية عامة والروس الشيوعيين خاصة .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينمى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلهية^(١)

قيدَ القضاء ترى أم قيدَ أحكام
في كلِّ حين ترى التقديرَ في غير
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها
والمؤمن الحرُّ لا شيء يقيدُه
ما أعجزت هذه أرباب أفهام
رهينها بين لذات وآلام^(٢)
من القضاء قيود ذات أحكام
لكن لخالفه في قيد أحكام

الموت^(٣)

في اللحد أيضاً يبقى
إن يك قلبٌ حيّاً
هذي النجوم تمضي
واللذات فيها راح
إن من جسماً موت
فللوجود قُطْبُ
الغيباب والحضور
فالقلب لا صبور
كشَّـرٍ يطير
ففي أبـدٍ سُـرور
واحتجب الظهور
منـالـه عسير

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها ، وأما المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحي لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ^(١)

إِنْ تَحُلْ دُنْيَا فَلَمْ تَفُنْ أَرْضٌ وَسَمَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
 مِنْ « أَنَا الْحَقُّ » انطوى فيك قلب وَمَضَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ^(٢)
 لَا تُرْغِ مِمَّا تَرَى ؛ لِفَرْنَجٍ سِيمِيَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ^(٣)

(١) في هذه الأبيات يشر إقبال بالمستقبل الوضأ على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تتسب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .

القسم الثاني

التَّعْلِيمُ وَالتَّحْرِيبُ

المقصود (١)

اسبنوزا :

ييصر العاقلُ الحياةَ وليست غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ

أفلاطون :

ييصر الموتُ عاقلٌ . فحياةٌ كشرارٍ بجنجٍ ليلٍ يشبُّ
ما إلى الموت والحياة التفاتٌ مقصدُ الذات رؤية الذات حسب^(٢)

إنسان هذا العصر

حُرِّمَ العُشْقُ وللعقل به نَكَزَاتُ كشجاعٍ يثأرُ^(٣)
تَبَعَ العقلُ شُروداً سادراً ما هدى العقلَ لديه بصرُ
لم يسافر في دُنَى أفكاره وعلى الأفلاك دام السَّفَرُ
هو من حكمته في شَرِّكَ غَابَ عنه نفعُه والضررُ
من شُعاعِ الشَّمْسِ في قبضته ما به ليلُ حياةٍ يُسفرُ !

-
- (١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتِبَت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
(٢) هذا رأي إقبال .
(٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أُمَمُ الشَّرْقِ

كَيْفَ تُجَلِّى حَقَائِقُ لَعْيُونِ عَمِيثٌ بِالْخُضُوعِ وَالتَّقْلِيدِ
كَيْفَ يُحْبِي الْفَرْنَجُ عُزْباً وَفُزْساً بَفَنَسُونِ تَسِيرُ نَحْوَ اللُّهُودِ

التَّنْبِيْهُ (١)

نَظَرَ الْمُنْجَمُ فِي جِيبَاكَ نَجُومَهُ لَكِنْ مَقَامُ الذَّاتِ عَنْهُ يُسْتَرُ
مَنْ يَدْرِ أَنَّ الذَّاتَ أَرْفَعُ مَنْزَلاً عَرَفَ الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ لَا يُقْهَرُ (٢)
وَجَمِيلَ أَنْظَارٍ يَرَى وَقَبِيحَهَا وَحِلَالَ قَلْبٍ وَالْمَحْزَمِ يُبْصَرُ

مُصْلِحُو الشَّرْقِ (٣)

يَنْسَتُ فَلَا أَرْجِي فِي أَنْاسٍ لَهُمْ فَنٌّ كَفَنُ السَّامِرِيِّ (٤)

(١) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَنْمَى إِقْبَالٌ أَيْضاً عَلَى الْإِنْسَانِ اِهْتِمَامُهُ بِعَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَإِهْمَالُهُ نَفْسَهُ ، وَيَقُولُ : إِنَّ تَقْوِيَةَ الذَّاتِ وَتَقْدِيرَهَا يَعْينُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَيُبْصِرُهُ الْجَمِيلَ وَالْقَبِيحَ فِي الْبَصِيرَةِ ، وَالْحِلَالَ وَالْحَرَامَ ، حِلَالَ الْقَلْبِ وَحَرَامَهُ (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمَفْتُونُ) .

(٢) أَرْفَعُ مَنْزَلاً مِنَ الْفَلَكَ .

(٣) يَأْخُذُ الشَّاعِرُ عَلَى مُصْلِحِي الشَّرْقِ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا لِلنَّاسِ شَيْئاً ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمْسِكُوا بِالسَّنَنِ الصَّالِحَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَا أَخَذُوا بِالسَّنَنِ الْحَدِيثَةِ .

(٤) السَّامِرِيُّ : الَّذِي صَنَعَ لِقَوْمِ مُوسَى عَجَلاً مِنَ الذَّهَبِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ، فَتُهُ سَحَرٌ وَضَلَالٌ .

سُقاةً في رُبوع الشرق طافوا على التُّدْماء بالقَدَح الخليّ
سحابٌ ما حوى برقاً قديماً وليس لديه من برقي فتّي

الحضارة الغربية

أرى تثقيفَ إفرننج فسادَ القلب والنَّظر
فَروحُ حضارةٍ لهم خَلَتْ مِنْ عَقَّةِ الوَطَر
إذا ما الروح جانبها جمالُ الصَّفْو والطُّهر
فأين جمالُ وجدانٍ ولطفُ الدُّوقِ والفَكْر

أسرار ظاهرة^(١)

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ من حديدٍ يُصاغُ فيهم شبابٌ
أين منك الأفلاكُ ؟ إنَّك حُرٌّ وهي قَهْرٌ ذهابها والإيابُ
ما اصطخاب الأمواج ؟ لذة سعيٍ واللالِي يصوغها الوَهَّابُ
ليس يهوى الشاهينُ مِنْ طولٍ خَفَقَ يا أخا العزم لا ينلُكَ التُّرابُ

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : مَنْ ملك الحديد ملك كل شيء . فأجاب إقبال :
من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه
الآيات .

وصية السلطان تيبو^(١)

طاويي البيداء شوقاً ! أقبلن
لا ! وإن سار بليلى محملاً
جدول الماء ! تقدّم مُسرِعاً
لا تحز في مصنم الكون وسر
يا مُذيب الحفل ! لا تقبل له
كل قلب ذلّ للعقل فقد
وَحَد الحق وثنى باطل

لا تعرّج ، منزلاً لا تقبلن^(٢)
فامض شوقاً ، محملاً لا تقبلن
واغدُ نَهراً ، ساحلاً لا تقبلن
في البرايا ، ضللاً لا تقبلن
حُرقة ، كن مشعلاً ، لا تقبلن
قال ربي أزلّا : لا تقبلن
فشوب حق باطلاً لا تقبلن

قطعة

إلى عَصَبَاتِ الْعَرَبِ مَا أَنْتَ مُنْتَمٍ وَلَسْتُ بِهِنْدِيٍّ وَلَا أَنَا أَعْجَمِي

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولاً إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقي بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣ هـ .

وهو عند إقبال ممن تتجلّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه . وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :

يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلي ، وإلى الماضي والتقدّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يفضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلاً وساحلاً ... إلخ .

فقد علّمتني (الذات) تحليقَ نافرٍ
 بعينك أني كافرٌ غير مسلمٍ
 فدينك تعدادٌ لأنفاسٍ مُحجَمٍ
 تبدّلتُ فالتبديل في الشرع حكمةٌ
 فلست أرى في بيدك اليومَ جنةً
 إذا حاد عن نار الحياة منغمٌ
 يمرُّ على الدارين غيرَ محوّمٍ
 وأنت بعيني كافر غير مسلمٍ
 وديني إحراقٌ لأنفاسٍ مُقَدِّمٍ^(١)
 فليس يُطبق الظبيُّ شرعةَ ضيغمٍ^(٢)
 تشبُّ بهذا العقل نَارَ التَّقَدُّمِ^(٣)
 فموتٌ شعوبٍ لحنٌ هذا المنغمِ^(٤)

اليقظة

خَدْنُ حَقٍّ تَبَّهَتْ فِيهِ (ذات)
 نظراتٌ لديه تُشرقُ فيها
 إيه عبدَ الآفاق ! كيف تداني
 أنت في البرِّ قاعدٌ عن طِلابٍ
 كالحسام المصمِّم البراقِ
 ما انطوى في الذرات من إشراقٍ
 رجل الله صاحب الآفاقِ
 وهو في البحر محرم الأعماقِ

تربية الذات

رَبِّ « الذات » بالرعاية تُبصرُ (كفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا^(٥)

-
- (١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .
 - (٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .
 - (٣) يرمز إلى هيام مجنون ليلي في البيداء . والمجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .
 - (٤) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدها فهي مميتة للهمم .
 - (٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إِنَّ سِرَّ الْكَلِيمِ فِي الدَّهْرِ بَيْدٌ وَشُعَيْبٌ وَالرَّعْيُ لَيْلٌ نَهَارًا^(١)

حرية الفكر

بحرية الأفكار هُلك جماعة إذا لم يكن فيها تَدَبُّرٌ عَالِمٌ
فحرية الأفكار في رأس جاهلٍ طريقٌ لِرَدِّ النَّاسِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ

حياة الذات

إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْفَقِيرُ مَمْلُوكٌ تَرَى طُغْرًا أَوْ سَنْجَرًا لَا يَشَاكُلُ^(٢)
إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْبَحَارُ ضَحَاضِحٌ إِنَّ الذَّاتُ حَيَّتْ فَالْحَزُونُ مُخَاوِلٌ
تَرَى فِي الْحَيَاةِ الْوَحْشَ قَاهِرَ لَجَّةٍ وَفِي مَوْتِهِ مَوْجُ الشَّرَابِ سِلَاسِلٌ

حكومة^(٣)

يَرْضَى الْمُرِيدُونَ قَوْلَ حَقٍّ لَيْسُوا عَنِ الْحَقِّ بِالْعُنَاةِ
وَالشَّيْخُ قَوْلَ الْفَقِيرِ يَقْلِي وَلَيْسَ لِلْحَقِّ بِالْمُؤَاتِي
قَدْ قَعَدَتْ أُمَّةٌ وَبَاءَتْ فِي حَلْبَةِ السَّعْيِ بِالْخَزَاةِ
إِنْ شَغَلْتَ عَقْلَهَا بِبَحْثٍ فَلَسَفَةُ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ

(١) يعني فسحة البقاء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .

(٢) طغور وسنجر من ملوك السلاجقة .

(٣) بمعنى حكم .

دستورُ ذا السديرِ ليس فيه للخمير والشُّرب من ثَبَاتٍ^(١)
لكنما راحُهُ نصيب لأمة حُسرة السَّمات
الشَّهْدُ عند الشباب فيها المرُّ من مورد الحياة

المدرسة الهندية

إقبال أقصر ، هنا لا تُعرف الذات فما لمدرسة هذي المقالات
الخير ألا تُرى في عين قُبرة من البُزاة مقامات وحالات
فلحظة الحرِّ عام للدليل فكم تبطىء السَّير بالعُبدان أوقات
ولحظة الحرِّ من خلد رسالته ولحظة العبد من مَوْتِ فُجاءات
وفكرة الحرِّ من حق منورة وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حيَّة ماثلة والعبد من غيره تأتي الكرامات
حسب المُقيّد تعليمًا وتربية تصويره ولحونٌ والنباتات^(٢)

التربية

فرقُ علمٍ وحياةٍ ليس فيه مِنْ خفاء
هو في الرأس ذكاء وهي في القلب ذكاء^(٣)
قدرة في العلم تبدو ومتساع وثراء

(١) يكني عن الدنيا بالذَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .

(٢) يعني : حسب الدليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .

(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضِّلٌ أَنْ لَيْسَ فِيهِ فِي خُطَا السَّيْرِ اهْتِدَاءُ
وَأُولُو الْأَبْصَارِ نَزَرُ وَأُولُو الْعِلْمِ زُهَاءُ
لَيْسَ بِدَعَا أَنْ كَأْسًا لَكَ مِنْ رَاحِ خَلَاءِ
مَا طَرِيقُ الشَّيْخِ فِي الْمَكْتَبِ لِلْقَلْبِ ضِيَاءُ^(١)
كَيْفَ بِالْكَبْرِيتِ إِشْعَا لُ سِرَاجِ الْكَهْرِبَاءِ؟

الحسن والقبیح^(٢)

إِنَّ لِلْفِكْرِ طُلُوعاً وَغُرُوباً كَنُجُومِ سَابِحَاتٍ فِي الْعَوَالِي
عَالَمُ الذَّاتِ بِهِ عُلُوٌّ وَسُفْلٌ وَاعْتِرَاكُ الْقَبْحِ فِيهِ وَالْجَمَالِ
فِي اعْتِلَاءِ الذَّاتِ مَا يَبْدُو جَمِيلٌ وَقَبِيحٌ مَا بَدَأَ فِي الْاِسْتِفَالِ

موت الذات

مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْغَرْبِ ظِلَامٌ وَبِمَوْتِ الذَّاتِ فِي الشَّرْقِ جَذَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْعُرْبِ خَمُودٌ وَلَدَى الْعُجَمِ عُرُوقٌ وَعِظَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْهِنْدِ جَنَاحٌ هَيْضٌ فِي الْأَقْفَاصِ وَالْعَشُّ حَرَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ يُعْرِي مُسْلِمًا مِنْ ثِيَابِ سَادَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٣)

(١) المكتب - المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بمعناها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبیح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول :
ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفاسف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرٌ أولي المدارس في ازدحام بأفكارٍ كما امتلأ القفيزُ
وهذا العصرُ ماضي في هواه جميلاً من قبيح لا يميزُ
ففي جنّات قلبك أخل بيتاً عسى يشوي به ضيفٌ عزيز^(١)

العصرُ الحاضر

فأين يُصيب المرء ناصجَ فكرةٍ وأجواء هذا العصر لا تُضجُ الثمر
مدارسُ فيها كلُّ عقلٍ محرّرٌ ولكن بها الأفكارُ عِقْدٌ قد انتثر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ وعبدَ عقلَ الشرقَ فوضى من الفكر

طالب العلم^(٢)

الله يحبوكِ علماً بمائنجاتِ العُبابِ
فإنَّ بحسركَ رهوٌ ما يُبتلى باضطرابِ
لن تستطيع فراغاً في السُّفر من أبوابِ

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فأنت قاري كتابٍ ولستَ أهلكَ كتاب

امتحان^(١)

قال نهرُ الطَّودِ يوماً للحجر : بسقوطٍ وانتكاسٍ تفتخرا !
أنت للاقْدَامِ والغَمِّ لَقَى وأنا يشتاقني بحرٌ وبر
لم تُدْهِدْهُ من جدارِ مرَّةٍ كيف تُدرى أزجاجُ أم حجر ؟

المدرسة^(٢)

مَلِكُ الموتِ عصرُنا يتوقَّى كلَّ نفسٍ بفكرةٍ في المعاش
يَرْجُفُ القلبُ مِنْ كفاحِ حياةٍ وهي مَوْتُ لِمُشْفِقٍ من هِراش
أبعدَ الدرسِ عن جِجَاك جُنُوناً صاحَ بالعقل : لا تَلْذُ بِنِقَاش^(٣)
عينُ صقرٍ مُنَحَّتْها وعليها وضعَ الرقُّ نظرةَ الخَفَّاش
حجبتَ دونك المدارسَ سرّاً هو في البیدِ والزَّواسخِ فاش

(١) في الآيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء - يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيل إلى المعاش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليفة .

وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها ! .

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه^(١)

أي قدرٍ لهذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد
ليس إلا للذي البصيرة يبدو سرٌّ معنًى بـ (لا إله) بعيد
أرسل الفكر أسهماً في سماء وحوى الشمس بالخيال المديد
طاهر الطين في الترهّب لكن لذة الإثم نُصب طَرْفٍ حديد

الأساتذة

إن كان تربيةً الياقوت مقصداً فما شعاع رمته الشمس حيران^(٢)
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللروايات عمّ الأرض إذعان
كانت جديراً بقود العصر أدمغة يقودها العصر ما فيهن نُكران

قطعة

يبلغ المنزل سارٍ لا ينام مُسرج عَيْنَ هزبرٍ في الظلام
إنّما للعبد تُمنى راحة ليس للحرّ على الأرض حمام

- (١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً ، وأنه كان ضرورة عفاً ، ولكن كان يتشوّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها » .
- (٢) يقول الطبيعيون القدماء : إنّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قد أزاغَ العينَ في الغرب سناً لك من صاحبٍ ﴿ ما زاغ ﴾ إمام^(١)
 ذاكُمُ الحفلُ الذي أكُوسه كنجوم ، لمحَّةٌ فيه المُقام
 أعمَتِ الأسفارُ حسّاً فالصُّبا لم تعطرَ لك من روضٍ مشام^(٢)

الدين والتعليم

قد عرفنا قدرَ أشياخِ الحرَم كلُّ دعوى دون إخلاصٍ سَقَم
 ولتعليمِ النصارى نغمٌ ليس من دينٍ وخلقٍ ذا النِّعم
 تكتبُ الذُّلَّ على أقدارها أمةٌ بالذات فيها لا تُهَم
 ربما تَغْفِرُ للفرد ولا تغفِرُ الفطرةَ أمام الأمم

إلى جاوید^(٣)

- ١ -

حَرَبٌ على الأديان ذا الزمانُ مرَّكِبٌ في طبعه الكفرانُ

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كَفَى ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ المكوف على الكتب أمات الحسن . فالصُّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاوید ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاوید نامه » الديوان الخالد .
 والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامي الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاوید ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُدَّةُ أَهْلِ اللَّهِ - فَاطْلُبْنَهَا -
لَكِنَّهُ « الْحَقُّ » عَصْرُ سَحَرٍ
عَيْنُ الْحَيَاةِ مَاؤُهَا نَضُوبٌ
مَنْ كَانَ فِي نَظَرَتِهِمْ سِهَامٌ
لَكِنَّمَا الدَّارُ الَّتِي سَرَّاجٌ
إِنْ تَكُ (لَا إِلَهَ) فِي ضَمِيرِ
عُشُوكَ فَوْقَ (الذَّاتِ) أَحْكَمْنَهُ
الْأَدْمِيَّ يَا بَنِيَّ بِحَرٍّ
مِنْ حَبَّةٍ تَرَى الْوَفَّ حَبٌّ
لَا تَغْفَلْنَ فَلَاتَ حِينَ لَغَبٍ

أَرْفَعُ مِمَّا شَيْدَ السُّلْطَانُ
السُّحَرُ فِي أُمُورِهِ مِيزَانُ
فَأَيْنَ رَاحَ اللَّيْلُ وَالسَّرِيحَانُ
مِنْهُمْ خِلَا الْكِتَابِ وَالِدِيَّوَانُ
أَنْتَ لَهَا مَذَاقُهَا عِرْفَانُ^(١)
فَالْغَرْبُ مِنْ تَعْلِيمِهِ أَمَانُ
ثُمَّ اطْرَبْنَ مَا شَاءَتِ الْأَغْصَانُ
فِي كُلِّ قَطْرَةٍ بِهِ طُوفَانُ
إِمَّا جَفَا رَاحَتَهُ الدَّهْقَانُ
الْعِلْمَ حَصَّلَ وَاسْتَهَنَ بِالصَّغْبِ

- ٢ -

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدْرِ حُرٌّ قَلْبُ
إِنْ يَنْشَطِ الْغَزَالُ فِي ذِكَاءِ
مَاءِ الْحَيَاةِ هَاهُنَا قَرِيبٌ
فِي غَيْرَةٍ أَرَى طَرِيقَ حَقِّ

لَمْ تَنْضَجِ الْحَيَاةُ فِي هُمَامِ
لَمْ يَظْفَرِ الصَّيَادُ بِالْمَرَامِ^(٢)
طَرِيقُهُ حَرَارَةُ الْإِقْدَامِ^(٣)
الْفَقْرُ بِالْغَيْرَةِ فِي تَمَامِ

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يَصَادُ الصَّيْدُ حِينَ يَغْفَلُ ، أَوْ يَطْئُ . فَإِنْ كَانَ يَقْطَعُ وَثَابًا لَا يَظْفَرُ بِهِ الصَّيَادُ .
فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

مَنْ تَحْمِلُ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِّبُكَ الْمَظَالِمُ
(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكُدُّ ، وشِدَّةُ الْعَطَشِ . كما قال في رسالة المشرق :

غَصْنُ الْحَيَاةِ نَسْدِي مِنْ ظَمْنَا فِي الطَّلَابِ

يا قرة الأعين مستحيل
ليس المقال في الأنام نزرأ
وإنما بين الوري متاعي
وصدق أقوال بها تراني
موهبة الخلاق لا تُراث
لنور عينيه يقول نصحاً
أبوّتي ليست بذات بال
لباشق ضراعة الحمام^(١)
كم أنوري عندهم وجامي^(٢)
نواح حال في دجى الظلام
في نظر الدنيا من الكرام
نباهة الذكر على الأيام
ما أجمل المقال من نظامي^(٣)
في حلبة السبق إلى المعالي

- ٣ -

عبء على المؤمن ذي الليالي
ولا أرى نشوان في كفاح
فإن تكن ذا همّة فأقدم
الأدمي منه في صفات
هذا المقام للبغاث خف
تضيء عين العقل من سناء
سطوة (محمود) تُصيب فيه
فذاك في دنيائك إسرافيل
الدين والدولة فعل هازي
فليس إلا كلم نوازي
وابتغ فقراً أصله حجازي^(٤)
كالله مستغن بلا إعواز
فإنما هذا مقام البازي
ما بابن سينا كُحلت والرازي
إن لم يكن طبعك من إياز^(٥)
من نفخات الناي في اشمزاز^(٦)

- (١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .
- (٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .
- (٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .
- (٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .
- (٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلामه إياز يشيع ذكرهما في الأدب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .
- (٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظرته المثيرة الليالي ساريةً بالكون في ارتجاز
وصاحب الفقر الغيور هذا بلا سلاح في الزمان غارِ
إمارة المؤمن فيه سرُّ عطيةً الموهَّاب هذا الفقر

القسم الثالث

المرأة

الرَّجُلُ الْإِفْرَنْجِي

كم حكيم قد تمنى حله مشكل المرأة في هذي الحياة
لا تلنها في فساد شائع شهدت بالطهر كل النيرات
عشرة الإفرنج نهج مفسد جهل الحمقى طباع المحصنات

سؤال

إلى عالم الغرب من أسلست له الروم والهند يُزجى سؤال :
كمال معاشره عندكم حيال النساء وعطل الرجال ؟^(١)

حجاب

أرى فلکاً كل حين للون ولم تنض دنياك هذا الإهاب
ولا فرق ما بين عرس وعرس فذي في نقاب وذا في نقاب^(٢)
ولم يزل الناس رهناً حجاب ومن برزت ذاته من حجاب ؟

(١) الحيال : الخلو من الحمل .

(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أن الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَصَحَّ الْعَصْرَ جِنَّةً بِالسُّفُورِ نُورُ عَيْنٍ وَظُلْمَةٌ فِي الصُّدُورِ
 إِنْ تَجُزَّ مَتَعَةُ الْعَيُونِ مَدَاهَا كَانَ فِيهَا الشَّتَاتُ فِي التَّفْكِيرِ
 قَطْرَةُ الْمَاءِ لَا تُحَوِّلُ دُرّاً دُونَ أَصْدَافِهَا بِقَاعِ الْبَحُورِ
 تُمْسِكُ الذَّاتُ نَفْسَهَا حِينَ تَخْلُو لَا خِلَاءَ بِمَسْجِدٍ أَوْ دِيُورِ

المرأة

إِنَّمَسَا الْمَرْأَةُ لَوْنٌ فِي رَسُومِ الْكَائِنَاتِ
 لَحْنُهَا يَنْفُثُ نَارَ الْوَجْدِ فِي صَدْرِ الْحَيَاةِ
 ذَلَسَكَ الطَّيْنُ تَعَالَى فَوْقَ أَوْجِ النَّيَّسِرَاتِ
 إِنَّهَا دَرَجٌ لِيَدَيْهَا كَسَلٌ دُرٌّ مِنْ صَفَاتِ
 مَا لِأَفْلَاطُونٍ تَرْوِي مِنْ قَضَايَا مَعْضَلَاتِ
 وَهَوٍ مِنْهَا كَشَرَارٍ مِنْ ذَكَايِ الْجَمَرَاتِ^(١)

حرية النساء

قَضِيَّةُ عَصْرِ لَسْتُ فِيهَا بِفَيَصِلُ وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ الشَّهْدِ وَالشَّمِّ أَفْرِقُ
 وَمَا نَفْعُ أَقْوَالٍ تَزِيدُ مَلَامَتِي وَقَبْلًا بَنُو التَّمْدِينِ عَنِّي تَفَرَّقُوا
 يَبِينُ هَذَا السَّرُّ وَجِدَانُ مَرَأَةٍ وَيَعْجِزُ عَنْهُ فِي الرُّجَالِ الْمُحَقِّقُ

(١) يعني : أن المرأة لا تتغلف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحرية النِّسوانِ أجملُ زينةً أم الجيدُ بالدرِّ الثمينِ يطوقُ^(١)

حصانة المرأة

في الصُّدرِ حقٌّ ليس يُدركه من حاز بردَ دُمائه عَصَبُ
حفظُ الأنوثة في يدي رجلٍ لا العلمُ يحفظها ولا الحُجبُ
إن غاب هذا الحقُّ عن أمم فكسوفُ شمسٍ فيهمُ كَثَبُ

المرأة والتعليم

مَوْتُ الأمومة إن رامت حضارتهم فالموْتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إن يجعل المرأة التعليمُ لا امرأة فالعلمُ مَوْتُ يراه صاحبُ القلبِ
إن تحرمت الفتاة الدينَ مدرسة فالعلمُ والفرُّ موْتُ العشق والحبِّ^(٢)

المرأة

بغيره يتجلَّى جوهرُ امرأةٍ ووحدَه يتجلَّى جوهرُ الرَّجلِ
حرارةُ الشُّوقِ سرٌّ في بلابلها كيانها لذَّةُ التخليق كالشُّعلِ

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل

عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .

(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت

عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

من هذه النار أسرارُ الحياة بَدَتِ والخلقُ والموتُ منها في وغى زَجَلِ
كذلكم في فؤادي للنساء أَسَى لكنَّها عقدةٌ أعيثُ على الحيل^(١)

(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحد في هذا .

القسم الرابع
الأدب والفنون

الدِّينُ والفنُّ

الدِّينُ والفنُّ والتدبير والمُخَطَّبُ والشعر والنثر والتحرير والكتبُ
كلُّ يُحيط بمكنونٍ يَضُرُّ به ؛ في صدره يتواري جوهرٌ عَجَبُ
ومن ضميرٍ سليلِ الطَّيْنِ مَطْلَعُهَا لكن لها من وراء الزُّهر مضطربٌ^(١)
إن تحفظِ « الذات » هذي فالحياءُ بها أو لم تطقِ ذاك فهي السَّحر والكذبُ^(٢)
كم أمةٌ تحت هذي الشمسِ قد خَزِيتْ إذ جانب الذاتُ فيها الدِّينُ والأدبُ

التخليق

جِدَّةُ الدُّنْيَا بتجديدِ الفِكرِ ليست الدُّنْيَا بصخرٍ ومَدَرُ
هَمَّةُ الغائصِ في « الذات » لها من غديرِ الماءِ بحرٌ قد زَخَرُ
قاهرُ الأيَّامِ من أنفاسه هي أعمارُ خلودٍ في الدَّهرِ
ريحُ أصحابٍ من اليدِ أتت لا عَجِيبٌ إن بدا خِذْنُ سَفَرِ^(٣)

(١) سليل الطين : الإنسان .

(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .

(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعٍ له ، يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنُون

واهنُ البيت شاعرٌ وفقيهُ وطوى البيدَ - ويحه - المجنونُ
 في طمّاح الجنون أيّ كمالٍ حين تعدو البيداء منه فنونُ^(١)
 فله في الدروس أيضاً مجالُ ليس وقفاً على الفيافي الجنون

إلى شعره

ليّ من فعلك شكوى : همتَ في حُبِّ الطلوعِ
 شِغْتِ عن قلبي فالأسـ رارُ عن قلبي تشيغِ
 لا تكنْ مثلَ شرارِ نددُ عن نارٍ يضيغِ
 والتمس خلوةً صدرِ فيه من نارٍ ضلوعِ

مسجدُ «باريس»

يا نظري لا يخدعَنَّك فُتّه للزّور هذا الحرّمُ المغرّبُ
 وليس هذا حرّماً لكنّه عند الفرنج للغرام ملعّبُ
 قد أخفت الإفرنج رُوحَ مَوثنٍ في صورةٍ من حرّم تُكذّبُ^(٢)
 إنّ الذي شيد هذا موثناً دمشقُ من عُدوانه تخربُ

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضرة فنونه ، وفيه إشارة إلى مجنون ليلي .

(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب^(١)

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً من العقل الإلهي القويم
وليس يُريق ماءً الوجه ذلاً على عتبات محبوبٍ غريم
محا التقليد في روح قديم وأحيا الروح في جسدٍ قديم

البصيرة

الربيعُ النضيرُ ملأَ الفضاء وجيوشُ الشقيق في الصحراء
وشبابٌ ومتعةٌ وسُرورٌ ودلالٌ ونشوةٌ بالفتاء^(٢)
وعيونُ النجوم في حلك الليل وسبح الأفلاك في الدماء^(٣)
وعروسُ الهلال في هودج الليل تهادى بموكبٍ للقاء
وتبدّي ذكاء في رونق الضبح وصمتُ الأفلاك في ذا الرؤاء
سرح العين ، لا تكلفُ أجراً لا يباغُ الجمالُ في ذا الفضاء

مسجدُ قُوَّة الإسلام^(٤)

تملاً صدري همومُ مفؤودٍ لم يبق إلا اذكّارُ مفقودٍ^(٥)

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث ، فهو مزاج من القلب والعقل . وهو يجدد الروح في صور قديمة ، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة . (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال . - رياض المنزل - دار السيد راس مسعود) .

(٢) الفتاء : الشباب .

(٣) الدماء : البحر .

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي ، هدمت بعض جدره .

(٥) المفؤود : حزين الفؤاد .

قد خمدت « لا إله » لا حُرَقُ
 في الخلق كلُّ العيون تنكرني
 مِنْ صَخْرِكَ المسلمونَ في خَجَلٍ
 فإنَّما كُفءٌ ما تمثلهُ
 جلالُ تكيِّره لذي أُذُنٍ
 وما صلاتي بقلب ذي حُرَقٍ
 ولا أذاني جلالٌ مقتدرٍ
 ولا تجلسُ ثواءَ ملحودٍ
 أعيا إيازاً مقامُ محمودٍ^(١)
 لجوهرٍ كالرُّجَّاجِ معدودٍ^(٢)
 صلاة حُرِّ ريبٍ توحيدٍ
 فيه وغي هالكٍ وموجودٍ
 ولا دُعائي دعاءُ معمودٍ
 فكيف نرضى سجودَ رعيدي

مشرح

تضيء حريمَ وجودك ذاتك
 لها فوق أوجِ الثُّريَّا مقام
 أمِن « ذات » غيرك تعمُر قلباً
 فلا تبعثنَ وُثنها بعد موتٍ
 كمال المحاكاة أنت تَفنِّي
 كيف بها وسرورُ حياتك
 جُلِيتَ بها وتجلَّت صفاتك
 معاذ الإله ! تُرى أين ذاتك ؟
 فتحيًا منأتك فيها ولائتك^(٣)
 فيكفيك همُّ الحياة مماتك^(٤)

-
- (١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .
 (٢) لجوهرهم الضعيف كالرُّجَّاج .
 (٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .
 (٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً
 فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل^(١)

- ١ -

تنادي أشعتها في ضجر	ذكاء وتجمعُ منها النَشْر ^(٢)
عجبتُ لدنيا نهارٍ وليلٍ	عجبتُ عجبتُ لدنيا الغير
إلامَ الهيامُ بهذا الفضاء	وجورُ الزَّمانِ بكنٍّ استمر
فلا دَعَة في اتقادِ برملي	تَلالاً ذَرأتُه كالشُّرر
ولا دَعَة في دوامِ طوافي	طوافِ الصِّبا في رياض الزَّهر
تجمَّعنَ في صدري المستنير	ودعنَ البداةَ ودعنَ الحضَر

- ٢ -

تداعى الأشعةُ من كلِّ صوبٍ	إلى الشمس تبغي لديها قرارا
وصاحت : تعذّر في الغرب نورٌ	دُخانُ المصانع يكسوه قارا
وفي الشرق قلبٌ بصيرٌ ولكن	كعالم غيبٍ بصمتٍ نواري
أنوارُ العوالم ! لا تهجُرنا	إلى نور صدركِ آوى الحَيارى ^(٣)

- ٣ -

شُعاعُ جريءٍ له نظرةٌ	كنظرة حوراء تغزو الضمير
ولا يستقرُّ على حالةٍ	ترى زئبقاً في ضياءٍ يَمُوز
يقول : أضيءُ على الشرق حتى	أرى ذرَّةَ كشمسٍ تَنبُز

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس ينبت من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بياسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تيأسي ، فكل ليلٍ إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المتشتر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام
ففيها من الشرق آماله
تضيء بها أعين الثيرين
وكم عاش في أرضها غائص
فأعوز أعواده عازف
ينام البرهمن في سدة
ومسلمها خذن محرابه
فلا يحزننك من الشرق نوم
قضت فطرة الله أن تبدلي

فأوقظ نواصيا للنشور
« وإقبالها » بالذموع مطير
حصاها يلوح كدر منير
يرى كالضاحح ليج البحور
وكانت تهيج الجوى في الصدور
لدى مؤنن والزمان يسير
ينوح ومن قدر يستجير
وفي الغرب لا ترهبن الشرور^(١)
يليل الظلام صباح الشفور

أمل (٢)

لست من أجناد حرب
بيد أني في صروف الدهر
عُدَّتْني ذكر وفكر
لست أدري أهو شعر
إن عبد الحق يُزهِى
من جلال ظل فكر
ليس دون الكفر إن لم
أن يُسرى بالحاضر المش

لا ولا رب لــــواء
رُبِّتْ في اللقاء
وهيأام وغناء
أم سـواء ذا العطشاء^(٢)
فسي محيأاه ضياء
الكون منه في امتلاء
يسك كفراً ذا البلاء
هـود للحر سبأ^(٣)

(١) الخطاب للشمس .

(٢) كتب في بهوبال - رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٣) هو يدري أنه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر .

(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحر ما يراه ، فيقيد به فكره وعمله . فالحر =

لا تذب غمًّا فكم في الدهر ——— أدوارٌ وضوء
كم نجوم حادّثاتٍ سوف تجلوها السّماء

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرها شوقُ الظُّهور يثورُ في ذرّاتها
إنّ صاحبَ النظراتِ شوقٌ بصيرة تبذلّ الأيسامُ في جَلّواتها^(١)
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أنباء من خضعوا لها ساداتها
من ذي البصيرة لي جنون ثائر عرفت به الذّراتُ طيَّ فلاتها^(٢)
هذي البصيرة لا تيسر لامرئٍ تخزي القلوبُ بنفسه وسماتها

إلى أهل الفن^(٣)

رأيت الكواكبَ لمحاتٍ نورٍ وذاتك بالعشق رهنُ خلودٍ

= لا يقيد ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدُّنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في

نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن

الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات »

صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة .

وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد

غير خاضعة لهذا العالم . والروح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر

على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كل لون ففقت من اللون كل القيود
وغيبه ذاتك ذكر وفكر ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت السروح آلام رق ففتك عبد رهين سجون
وإن عرفت قدرها كنت حقاً على الجن والإنس رب الجنود

قطعة

ثائر الموج كم لدى البحر دُر وعلى الساحل الصموت غناء^(١)
في شراري سنا البروق ولكن رطبة العود هذه القصباء^(٢)
ولك الوقت والتصرف فيه ليس يا غرُّ ! للنجوم غناء
قد رأينا عجيبة من جنون فيه رفو لما يشق القضاء^(٣)
إنما الكامل الخلاعة شهيم دون من الكروم فيه إنشاء^(٤)
وإلى اليوم حانة الشرق فيها خمرة للشعور منها جلاء^(٥)
يثس المبصرون من أمم الغد رب ففيها بواطن سوداء

-
- (١) الدُر في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغناء ، فالحياة جد وكد ، لا سكون .
(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرطب لا تشتعل .
(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاء ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً الطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاء وقدراً في هذا الكون .
(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .
(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنت تحت الشمس تمضي كشرارٍ لست تدري ما مقاماتُ الوجودِ
ليس في فُتْك للذات بناءً ويلُ تصويرٍ وشِدٍ وقصيدُ
ليس في المكتب والحانة إلا درسُ إفناء به الذات تبيدُ
ليست شعري هل تعلمت وجوداً لحياةٍ ودوامٍ وخلودِ

الغناء

صاح من أين لناي نشوة؟ صوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حي؟
صاح ما القلبُ؟ ومن أين له قوةٌ سكرى تحدث كلَّ شيءٍ
ولماذا نظرة منه سرت مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تخت كَي^(١)
ولماذا ذلك السرُّ له : من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيٍّ^(٢)
ولماذا كلُّ حينٍ مبدلٌ وارتدت زُمراً تهفو إليَّ
ولماذا صاحبُ القلبِ ازدري ملكَ رومٍ ومُنَى شامٍ وريَّ
إنَّ وعي للقلب رمزاً مطربٌ طويَّ الفنِّ له أسرع طيٍّ^(٣)

(١) كي : كيكاموس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .

(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .

(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والندى

النسيم :

لم أرقَ في فلك النجوم وإنني في شقْ أثواب الأزاهر أعملُ
وأسيرُ عن وطني غريباً مجبراً في مسمعي شدوُ البلابل يثقلُ
قل لي ، فقد أعطيت سرَّ كليهما ، المرجُ أم فلكُ الكواكب أجملُ^(١)

الندى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه لرأيتَه سرَّ الكواكب يحملُ^(٢)

أهرام مصر^(٣)

شادت الفطرة كُثباناً لها في سُكونٍ من يباب قد وقَد
رَوَّعَ الأفلاكَ فيه هرمٌ أيُّ كفٍّ صَوَّرتَ هذا الأبد !
من إسارِ الكون حرَّزَ صنعةً صائدُ ذو الفن أم صيداً يعدُّ^(٤)

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبيات أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاكِ باني الهرم كُثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليفة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليفة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قد رأى ذو بصرٍ سرَّ الذات وجلا الفنُ لعينٍ جَنَّتْ^(١)
ما به الذات ولا الكون يُرى فهو من جهدٍ حياة في نِجاةٍ^(٢)
تعسَّ الكافرُ مَنْ أصنامُه من حُطامٍ لمناةٍ واللاتِ^(٣)
هالكٌ صلَّى عليه فُتُّه في ظلام اللحد يرنو للحياة^(٤)

إقبال

قال للرومي^(٥) في الخلدِ سنائي : لا يزالُ الشرقُ بالتقليدِ يُوسَّرُ
قالَ منصور : ولكنْ قد سمعنا أن سرَّ الذات أفساه قلندرُ

الفنُّ الجميلة

نظراتُ الآفاق مُتعةٌ عيني سرَّحو العَيْنَ يا أولي الأبصارِ

-
- (١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
 - (٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
 - (٣) المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .
 - (٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
 - (٥) جلال الدين الرومي أكبرُ شعراء الصُّوفية ، ومجدُّ الدين السنائي طليعةُ شعراء الصُّوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسينُ بن منصور الحلَّاج الصُّوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلَّاج : قد ظهر مجذوب أفسى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ : مَا نَظَرْتُ لَا تَجْلِسِي كَوَامِنَ الْأَسْرَارِ^(١)
 مَقْصِدُ الْفَنِّ فِي الْحَيَاةِ لَهَيْبٌ أَبَدِيٌّ فَمَا وَمِصْصُ الشَّرَارِ؟^(٢)
 قَطَرُ نَيْسَانَ ! مَا اللَّالِيءُ إِنْ لَمْ تَتَلَاطَمْ بِهَا قُلُوبُ الْبَحَارِ^(٣)
 مَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ فِي الشُّعْرِ وَاللَّحْنِ إِذَا مَا أَذَوَى سَنَا الْأَزْهَارِ^(٤)
 لَيْسَ إِلَّا الْأَعْجَازُ يَحْيِي فَنًّا لَيْسَ ضَرْبُ الْكَلِيمِ فِيهِ ، عَوَارِي^(٥)

صُبْحُ الْمَرْجِ^(٦)

الرَّهْرَة :

وَأَفَدَ الْأَفْلَاكَ ! هَلْ خِلْتِ بَعِيدًا مُوْطِنِي ؟ لَا إِنَّهُ غَيْرُ بَعِيدِ
 النَّدَى :

مَنْ يَطِرُ مَا بَيْنَ أَرْضٍ وَسَمَاءٍ يَتَيَّنُّ أَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدِ

- (١) إِنْ لَمْ تَنْفِذْ نَظَرَاتُ صَاحِبِ الْفَنِّ إِلَى حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ؛ فَمَا هِيَ بِمَجْدِيَّة .
- (٢) الْفَنُّ يَصَوِّرُ لَهَيْبَ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ، فَلَا قِيَمَةَ لِلْفَنِّ الَّذِي يَخْرُجُ شَرَارًا لَا يَلْبِثُ أَنْ يُطْفَأَ .
- (٣) قَطَرُ الْمَطَرِ فِي نَيْسَانَ يُخَلِّقُ مِنْهُ الدَّرُّ فِي الصَّدْفِ . يَقُولُ الشَّاعِرُ : يَا قَطَرُ نَيْسَانَ ! مَا قِيَمَةُ الدَّرِّ الَّذِي لَا يَضْطَرِبُ لَهُ قَلْبُ الْبَحْرِ . يَعْنِي : أَنْ بَدَائِعَ الْفَنِّ يَنْبَغِي أَنْ يَجِيْشَ لَهَا قَلْبُ الْعَالَمِ .
- (٤) إِنْ كَانَ نَسِيمُ الصَّبْحِ الْمَتَمَثِّلُ فِي إِتْشَادِ الشَّاعِرِ وَلَحْنِ الْمَغْنِيِّ يَذْبُلُ الرَّهْرَ فِي الرَّوْضَةِ وَلَا يَنْضَرُّهُ فَأَيُّ نَسِيمٍ هُوَ ؟ !
- (٥) حَيَاةُ الْأُمَمِ بِالْإِعْجَازِ ، فَالْفَنُّ الَّذِي لَا إِعْجَازَ فِيهِ عَارِيَّةٌ لَا دَوَامَ لَهَا .
- (٦) خِلَاصَةٌ مَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ غَيْرَ غَافِلٍ عَنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، كَضَوْءِ الصُّبْحِ يُغْشَى السُّهُولَ وَالْجِبَالَ وَلَكِنَّهُ مُوَصَّلٌ بِالْفَلَكِ ، وَعَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لَيْسَا مُتَبَاعِدَيْنِ كَمَا قَالَ النَّدَى : إِنَّ الطَّيْرَانَ يُعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ بِعِيدَةٍ مِنَ السَّمَاءِ .

الصُّبْح :

أقبلن في الرّوض كالصُّبح رقيقاً ليس يؤذي وطؤه قطر الندى
واحضن الأجيال واليّد ولكن من غرا الأفلاك لا تحلّ يدا

الحاقاني (١)

ذا صاحب تحفة العراقيّن ذو القلب يراه قرّة العين
تنشئ لفكره الشّتور الحُجبُ جميعها تُنير
يجتاز بعالم المعاني لا يسمع قول : ﴿ كُنْ تَرْنِي ﴾^(٢)
فأسأله بذلك الثّراب والدّهْرُ يجيشُ في عُباب^(٣)
ذا محرم عالم الثّواب كم دلّ بموجز الخطاب^(٤) :

(١) شاعرٌ فارسيّ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢ هـ . وله من الكتب « تحفة العراقيّن » .

سجل فيها ما رأى في العراقيّن العربي والعجمي حينما مرّ بهما في طريق الحجّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومة اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .

وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعِلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشّرقي وهو مشتقٌّ من الأوزان العربيّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أولها :

يا مَنْ لعبت به شمولٌ ما الطّف هذه الشّائل

وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيد في شعرنا مثلاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .

(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ كُنْ تَرْنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ كُنْ تَرْنِي ﴾ .

(٣) أسأله عن هذا العالم الأرضي وعن حوادث الدّهْر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي أسأل عنه .

(٤) المحرم : المطلع على السرّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربيّة وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« ناهيك بشرُّ هذا العالم إيليسُ ثوى ومات آدم »^(١)

(٢) الرُّومي

ما زال طَرْفُكَ فِي خَلْطٍ وَفِي سِنَةٍ وَعَنْكَ ذَاتُكَ فِي الْأَسْرَارِ لَمْ تَزَلْ
وَلَمْ تَزَلْ فِي صَلَاةٍ لَا قِيَامَ لَهَا وَبِالضَّرَاعَةِ عَزَّ الرُّوحُ لَمْ تَصِلْ^(٣)
وَمِزْهَرُ «الذَّاتِ» أَوْتَارٌ مَقْطَعَةٌ مَازَلْتَ عَنْ نِعْمَةِ الرُّومِيِّ فِي شُغْلٍ

(٤) الجَدَّة

إِنْ صَدَقَتْ نَفْسُكَ فِي الدَّهْرِ النَّظَرُ تُنَوِّرُ الْأَفْلَاكَ مِنْكَ فِي الْبُكَزِ
وَتَسْتَضِيءُ الشَّمْسُ مِنْكَ بِالشَّرْرِ وَيَنْجَلِي قَدْرُكَ فِي سِيَمَا الْقَمَرِ
وَالْبَحْرُ يَلْقَى مِنْكَ مَوْجاً ذَا دُرٍّ وَتَسْتَحْيِي إِعْجَازَ صُنْعِكَ الْفِطْرِ^(٥)

(١) حسبك تعريفاً بهذا العالم أنَّ آدم مات ، وبقي إيليس أي : بقيت نزعات الشرِّ في هذا العالم . فهو عالمٌ محنٌ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قِيَامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والضَّرَاعَةِ (ناز ونياز) أي : الخضوع والسَّيَادَةِ ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قِيَامٍ . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنَّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخَّرٌ لك .

(٥) تستحي الخليفة من صنعك المعجز ، نراه أحسن منها .

تخذت أفكار الورى مرآتك فكيف لا تبلغ حتى ذاتك^(١)

مرزا بيدل^(٢)

ذي سماء و جبال و فجاج ذاك حق أم عيون في اعوجاج ؟
فرق الآراء إثبات ونفي أهى دنيا أم خداع في الحجاج ؟
عقدة قد حلها بيدل حقاً أعجزت من قبله كل علاج :
« ما بدا ذا المراج لو في القلب وسع » بان لون الخمر من ضيق الرجاج »

الجلال والجمال^(٣)

حسبي كمالات من حيدر وكفاك من أفلاطن الإدراك

(١) إنك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .
(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعر صوفي له ديوان كبير يغلب فيه التعمق وتكثر الدقائق .

وقد أعجب إقبال بفكرة في بيت لبديل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أن هذا العالم الحسي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النشر :

« لو اتسع القلب ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدة ضيق الزجاج » .
(٣) الشاعر من المعجبين بالقوة ، الداعين إليها ، وهو يدعي هنا الإجمال بغير جلال ، يرى الكمال في شجاعة علي لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالاً . وقد تخيل الشعراء أن انحناء السماء في رأي العين سجود . والنغمة التي لا قوة فيها نفخة ضائعة ، بل لا يحب أن يجازى إلا بنار شديدة الالتهاب .

وأرى جمالاً في بهاء أن تُرى في سجدةٍ للقوّة الأفلاكُ
ولنغمةٍ من دون نارٍ نفخةً ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن وهما جنةٌ ولهيها دراكُ

المصوّر (١)

قلد الغربَ فنُّ عُجمٍ وهندٍ عمّ هذي البلادَ موتُ الخيالِ
شَفَنِي الغمُّ أن بهزادَ عصري يُفقدُ الشرقَ بهجةَ الأزالِ (٢)
يا خبيراً بفنِّه فيه تمّت صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم ترى من خليقةٍ وتربها أَرنا الذاتَ فوق هذي المجالي

الغناء الحلال (٣)

تفتح القلبَ نغمةً من غناء أيّ فتحٍ والقلبُ رهنُ هُمودِ ؟
في صدور الأفلاكِ لحنٌ خفيٌّ صاهرٌ حرّه نجومُ الوجودِ

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوّر وكلّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظهرَ ذاته فيما يصوّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصوّر فارسيّ مشهور نبغ أيام الدولة الصفوية ، والشاعر يغمّ لأن بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلّ لحنٍ يحلُّ إن كان فيه قوة الذات وحرقة الحياة ، ويخرّم إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟ وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النجوم ، وتبرئ الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . إلخ . والنغمة الحيّة التي يُحلّها فقهاء الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ الناسَ منه خوفٌ وغمٌ إيازُ يسمو إلى محمود^(١)
 تيه هذي النجوم يفنى ولكن أنت تبقى ونعمة التوحيد^(٢)
 قد أحلت شريعة الذات لحناً لم يزل في انتظار شادٍ مجيد^(٣)

الغناء الحرام

ما بذكرى من التصوف وجدٌ أو برأيي ثوابهم والعذابُ
 قَرَّبَ الله مذهبي من فقيهٍ عُرِفَتْ عنه سُنَّةٌ وكتابُ :
 « إن سَرَتْ في اللحون دعوة موتٍ حَرُمَ النايُ عندنا والربابُ »^(٤)

النافورة

لا يُطَيِّني مَسِيرُ النَّهْرِ مطرداً مُسائراً تُربِّه جنباً إلى جنبٍ
 دع ذاك ، وانظرْ إلى نافورةٍ بَسَقَتْ تُصَعِّدُ الماءَ منها قوةُ القلبِ^(٥)

-
- (١) السلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .
 (٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .
 (٣) اللحن الذي أحلته شريعة الذات ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .
 (٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .
 (٥) لا يُعجب الشاعر بالنهر يسائر الأرض ، بل يُعجب بنافورة قوية تغلف الماء عالياً في الهواء .

الشاعر (١)

في غابة الشرق نائيً يبتغي نفساً يا شاعرَ الشرق هل في صدرك النَّفسُ؟
 من كانَ في ذاته من رقةٍ خورٍ فقلْ له من لُحونِ العُجمِ يحترسُ
 إنّاؤها من زجاجٍ كان أو خزفٍ اجعل بخمرِكَ سيفاً لمعه قَبَسُ
 لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها مجدُّ بغيرِ الجلال المرُّ يلتَمَسُ
 طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ كلُّ آونةٍ لا قَرَبَ اللهُ للعشاقِ ما التمسوا

شعر العجم

كم بشعر العُجم من سِخرٍ ولكن منه سيفُ الذَّاتِ ذو حدٍّ قليلٍ
 صمْتُ طيرِ الصُّبحِ أولى من غناء إن سرى باللَّحنِ في الرِّوضِ ذبولُ
 ليس ضرباً ما يشقُّ الطَّودَ لكن ليس منه عرشُ برويز يميلُ^(٢)
 يَنجُثُ العصرُ أيا إقبالاً ! صخراً فاحذرنُ من كلِّ ما يُبدي الوذيلُ^(٣)

(١) ينفرُ إقبالُ من شعر الرِّخاوة والذَّلة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرِّقة والترف .

ولا بدُّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجةٍ أو صراحية ، ينبغي أن تكون محرقة . وليس لشوق الشاعر غايةً ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجليّ جديد .

(٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .

(٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرأة . والشَّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرأة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلُّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركز إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تَحِيلُهُمْ جَنَازَةً كُلَّ عَشَقٍ وَظَلَمَةٌ فَكْرَهُمَ لِلْحَيِّ قَبْرُ
وَمَوْتُهُمْ بِهِ نَفْسُ الْمَنَايَا وَلَيْسَ لِفَنِّهِمَ بِالْعَيْشِ خُبْرُ^(١)
يُنِيمُ الرُّوحَ فِي إِيقَاضِ جَسْمٍ وَدُونَ الْمَجْدِ يُسَدِّلُ مِنْهُ سِتْرُ
يُسَخِّرُ لِلْأَنْوَةِ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ قَصَصٌ وَتَصَوِيرٌ وَشِعْرُ^(٢)

الرَّجُلُ الْعَظِيمُ

هُوَ فِي الْحُبِّ عَمِيقٌ وَهُوَ فِي الْبُغْضِ عَمِيقٌ
قَهْرُهُ فَرُوقُ عِبَادِ اللَّهِ بَسْرٌ وَشَفِيقٌ
نَشَاتُهُ ظَلَمَةُ التَّقْلِيدِ بِالنَّاسِ تَحِيْقٌ
غَيْرَ أَنَّ الطَّبْعَ بِالْإِلَابِ سَدَاعَ وَالْخَلْقَ خَلِيقٌ
هُوَ فِي الْمَجْمَعِ خَالٍ وَمِنْ الْحَشْدِ طَلِيقٌ
مِثْلُ شَمْعِ الْحَفْلِ ؛ فِي الْحَفْلِ وَحِيدٌ وَرَفِيقٌ^(٣)
مِثْلُ شَمْسِ الصُّبْحِ ؛ فَكْرٌ فِيهِ نُورٌ وَبَرِيقٌ
لَفْظُهُ حَرٌّ يَسِيرُ لَكِنْ الْمَعْنَى دَقِيقٌ
نَظَرٌ فِيهِ سَدِيدٌ عَنْ بَنِي الْعَصْرِ سَحِيقٌ

(١) الموشن : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخِّر كل شيءٍ للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليس يدري أيُّ حالٍ فيه أشياخُ الطريقِ

عالمٌ جديد^(١)

مَنْ كَانَ حَيَّ القلبَ في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميره
تجلو له رؤياه كوناً مُحدثاً بدعِ المثالِ يروقه تصويره
فإذا جلا صوتُ الأذانِ منامه شادَ الذي في حلمه تعيره
ولهيكلُ الدُّنيا الجديدةِ طينه هذا الضئيلُ ، وروحها تكبيره

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني من الخلاقِ موهبةٌ لكنَّ للفنَّ في الفنَّانِ إجهاداً
من حُرقةٍ في دمِ الباني ، مشيدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زُوناتُ بهزادا^(٢)
ما جوهرٌ يتجلَّى دونَ مجاهدةٍ من ومضةِ الفأسِ نارت دارُ فرهادا

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .

وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشئٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُّمى ، يضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقَا

دَلَّ عَلَى بَرْدِ دَمِ الْمُغْنِي لَحْنٌ لَهُ الْوَجْوه لَا تُنِيرُ^(١)
 أَنْفَاسُ زَامِرٍ سُمُومٌ لَحْنٍ إِنْ كَانَ لَمْ يَطْهُرْ بِهِ ضَمِيرُ^(٢)
 بِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ فِي رِيَاضٍ مِنَ الشَّقِيقِ شَاقِنِي الْمَسِيرُ
 فَمَا مَرَرْتُ بَيْنَهَا بِمَرْجٍ شَقَّتْ بِهِ جُيُوبَهَا الزُّهُورُ^(٣)

لَذَّةُ النَّظَرِ

أَيُّ ذَاتٍ حَوَى فَتَى الصِّينِ مَنْ قَا لَ لَجْلَادِهِ أَمَامَ الْجِمَامِ :
 مَنْظَرٌ رَائِقٌ ، تَمَهَّلْ ، تَمَهَّلْ لَأَرَى لِحْظَةً وَمِیْضَ الْخُسَامِ^(٤)

الشَّعْرُ

لَمْ أَدْرِ سِرَّ الشَّعْرِ إِلَّا نَكْنَةً سَبَرُ الشُّعُوبِ تُبَيِّنُهَا تَفْصِيلاً

-
- (١) اللَّحْنُ الَّذِي لَا تُنِيرُ لَهُ وَجْوه السَّامِعِينَ دَلِيلٌ عَلَى بَرْدِ نَفْسِ الْمُغْنِي ، وَخمود عاطفته .
 (٢) لَا بَدْءَ لِلْمَطْرِبِ مِنْ طَهَارَةِ الضَّمِيرِ لِتَكُونِ الْحَانَةِ صَدَى الضَّمِيرِ الطَّاهِرِ ، وَإِلَّا فَأَنْفَاسُهُ فِي
 اللَّحْنِ سَمٌّ لِلْسَامِعِينَ .
 (٣) زُهور الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَمْ يَهْجِ بِهَا الطَّرِبُ فَتَمَزَّقَ جُيُوبُهَا كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَغْلِبُهُ الطَّرِبُ مِنْ
 حَزَنِ أَوْ فَرَحٍ - يَعْنِي : لَمْ يَظْهَرْ الْمَطْرِبُونَ أَسْرَارَ النَّفْسِ ، وَيَبْدُو مَكْنُونُ الضَّمِيرِ
 الْإِنْسَانِي ، وَلَا تَزَالُ « الذَّاتُ » مُحْجُوبَةً .
 (٤) رَجُلٌ صِينِيٌّ قَامَ أَمَامَ الْجِلَادِ وَالسَّيْفِ مَصْلَتٌ فَلَمْ يَشْغَلْهُ هَذَا الْمَقَامُ عَنِ الْإِعْجَابِ
 بِوَمِیْضِ السَّيْفِ ، فَقَالَ لِلْجِلَادِ : أَمْهَلْنِي لِأَمْتَعِ النَّفْسَ بِهَذَا الْمَنْظَرِ . فَهَذَا يَعْجَبُ بِهِ
 إِقْبَالَ أَيِّ إِعْجَابٍ ، وَيَرَى فِيهِ ذَاتًا كَامِلَةً .

الشَّعْرُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ رِسَالَةٌ أَبَدِيَّةٌ لَا تَقْبَلُ التَّبْدِيلَا
إِنْ كَانَ مِنْ جَبْرِيلَ فِيهِ نَغْمَةٌ أَوْ كَانَ فِيهِ نَفْخُ إِسْرَافِيلَا^(١)

الرَّقْصُ وَالْمُوسِيقَا

إِنَّ لِلشَّعْرِ بِهَجَةً ضَاءَ مِنْهَا رَوْحُ جَبْرِيلَ وَالرَّجِيمُ اللَّعِينُ
وَمِنَ الْمَوْسِيقَا ابْتِهَاجٌ شَوْقٌ وَكَذَا الرَّقْصِ نَشْوَةٌ وَفُتُونُ
قَدْ سَمِعْنَا فِي الصُّيْنِ قَوْلَ حَكِيمٍ فِيهِ أَفْشَى مَخَبَّاتِ الْفَنُونِ :
إِنَّ لِلْمَوْسِيقَا مِنَ الشَّعْرِ رُوحاً وَمِنَ الرَّقْصِ جِسْمُهَا فِي الْعَيُونِ

ضَبْطُ النَّفْسِ

دَابُّ أَهْلِ الزَّمَانِ شَكَايُ الزَّمَانِ لَيْسَ لِلْحَرِّ آهَةٌ فِي طِعَانِ
قَدْ أَسْرَّ النُّجَايُ إِلَيَّ عَلِيمٌ مِنْ شِيُوخِ الْقُلُوبِ وَالْعِرْفَانِ :
إِنَّ كَظَمَ النُّوَّاحِ شَيْمَةً لَيْثٌ وَمِنَ النَّوْحِ شَيْمَةُ الثُّغْلَانِ

الرَّقْصُ

دَغْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ رَقْصاً بِجَسُومٍ إِنَّ رَقْصَ الرُّوحِ مِنْ ضَرْبِ الْكَلِيمِ
فَبِهَذَا الرَّقْصِ سُلْطَانٌ وَفَقْرٌ وَبِذَاكَ الرَّقْصِ هَمٌّ لَا يَرِيمُ

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبدية إن كان جميلاً هادياً ، كنفحات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صمقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .

القسم الخامس

سياسيّاتُ المشرقِ والمغربِ

انقلاب

أبمشرقٍ أو مغربٍ نارُ الحياة ونورُها
فهنّا تموتُ ذواتُها وهناك ماتَ ضميرُها
وأرى القلوبَ لشورةٍ ملءُ البلادِ زفيرُها
فلعلّ دنياكَ القديمةَ للمماتِ مَسيرُها

تملُّق^(١)

جهلتُ أمورَ الناسِ غيرَ مجربٍ ولكنَّ ربَّ القلبِ للغيبِ يشهدُ
فقلْ لوزيرٍ ما بدا لك مادحاً فذائك دُستورٌ وعهدٌ مجدّدُ
إذا قال : صقرُ الليلِ لليومِ مادحٌ فهل ذاك حقٌّ أو دهانٌ يردّدُ^(٢)

المناصب^(٣)

سحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد همتَ عبْرَاتها

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً .
ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام
الاستقلال الداخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السابقة .

فلعلَّ منصِبكَ الرفيع مباركٌ فالذاتُ مِنْ جَرَّاءِ حانَ مماتُها
هذي القضيةُ معضِلٌ إخفاؤها وضَحَّتْ لِكُلِّ مفكِّرٍ آياتُها :
« لا شِرْكَ في حكمٍ لعبِدٍ إنَّما شُرِيتْ عقولُهُمْ وخابَ شُرَاتُها »^(١)

أوربة واليهود^(٢)

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيذٌ وظلمةٌ صدرٍ لها القلبُ يَقلِّي
دخانُ المصانع في الغربِ داجٍ فسواديه ليس بأهلِ التَّجَلِّي
رايتُ حضارتَه في احتضارٍ تموتُ اعتباطاً ، وما الموتُ يُملِّي^(٣)
فليس غريباً تولِّي اليهود كنائسَه بعد هذا التَّولِّي

عبودية الأنفس^(٤)

ليس يخلو زمانٌ شعبٍ ذليلٍ من عليمٍ وشاعرٍ وحكيمٍ
فرَّقَتْهم مذاهبُ القَوْلِ لكنَّ جَمَعَ الآراءَ مقصدٌ في الصِّميمِ :

(١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظم .
شُرِيت : بيعت ، والشراة : البائعون .

(٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهدْ حرب فلسطين ولم يَرِ تسلُّطَ اليهود على أوربة
 وأمريكا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارِفٍ خبير .

(٣) تموت في شبابها ، والموت يمهِّل .

(٤) لا تخلو الأممُ الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتى إلى غاية
 واحدة ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجايها الإقدام حتى
 ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويل في القول تحيِّلٌ لهذا المقصد .

« عَلِّمُوا اللَّيْثَ جَفْلَةَ الظُّبْيِ وَامْحُوا قِصَصَ الْأَسَدِ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ ^(١) »
 هُمُّهُمْ غِبْطَةُ السَّرَقَيْنِ بَرْقٌ كُلُّ تَأْوِيلِهِمْ خِدَاعٌ عَلِيمٌ

الرُّؤْسُ الشُّيُوعِيُونَ

إِنَّ سَيْرَ الْقَضَاءِ جِدُّ عَجِيبٍ أَيْ سِرٌّ حَوَى ضَمِيرُ الزَّمَانِ
 لَيْسَ يَأْلُو الصَّلِيبَ سِرًّا قَبِيلٌ كَانَ يَرْجُو النِّجَاةَ بِالصُّلْبَانِ
 أَمَرَ الْوَحْيُ مُلْحَدِي الرُّؤْسِ « هُدُوا مَا أَقَامَ الْقُسُوسُ مِنْ أَوْثَانٍ »

اليَوْمُ وَالْغَدُ

مَنْ عَدَاهُ لِيَوْمِهِ فِي جِهَادٍ نَوْرُ نَفْسٍ وَشُعْلَةٌ فِي الْكُبُودِ
 مَالَهُ الْحَقُّ فِي مَتَاعٍ وَهُمْ يَسْتَسِرُّونَ فِي الْغَدِ الْمَوْعُودِ
 لَيْسَ أَهْلًا لِمَعْرَكِ الْغَدِ مَنْ فِي سِيرِهِ (الْيَوْمُ) لَيْسَ بِالْمَعْدُودِ

المَشْرِقُ

جَيْبُ الشَّقَائِقِ مِنْ شَدَوِي غَدَا مِرْقَاً وَنَسْمَةُ الصُّبْحِ رَوْضاً تَطْلُبُ الْآثَا ^(٢)

-
- (١) فِي هَذَا الْبَيْتِ مَقْصِدُ الْقَائِلِينَ الْمَذْكُورِينَ فِي الْبَيِّنَاتِ السَّابِقِينَ .
 (٢) أَنَا شَدَوْتُ حَتَّى مِرْقَتْ شَقَائِقُ النِّعْمَانِ جَيُوبَهَا وَجَدَاً ، وَنَسِيمُ الصُّبْحِ لَا يَزَالُ يَطْلُبُ
 رَوْضاً يَنْضُرُ أَزْهَارَهُ .

ما «مصطفى» أو «رضا» جُلّي حقيقتها فالروح في الشرق جسماً تطلب الآنا^(١)
 وحق ذاتي عقابٌ غير أن لها ذا العصر جذعاً وحبلاً يطلب الآنا^(٢)

سياسةُ الإفرنج

يا ربّ نيك في غربِ سياسته وما تعبد إلا الهامَ والرؤسا^(٣)
 خلقت إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومن ترابٍ أقامت ألف إبليسا

العبيد

تعلمت بين الغرب والشرق حكمة أراها لأهل الرق أجدى الفوائد :
 فلا مُلك أو فقر أو ديناً وحكمة يؤسس إلا فوق صخر العقائد
 فإما خلا منها ضمير جماعة فأفعالٌ رعيدي وأقوالٌ هامد

إلى أهل مصر

من أبي الهول أتني نكتة وأبو الهول طوى السر القديم^(٤)

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدنأ تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحق العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صليبي .

(٣) الروس : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأس إنسان على جسم أسد .

بَدَلْتُ سَيْرَ شعوب جملةً قوّة لم يَجْفُها العقلُ الحكيم
طَبَعُها في كُلِّ عصرٍ مائلٌ يُبدِلُ الشكلَ وَيَبْقَى في الصَّمِيم
فهى طَوْرًا في حُسام المصطفى وهى طَوْرًا في عصا موسى الكليم

الحَبْشَة

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عَقَبَانُ أوردّة بغير علم في جيفة الأحباش أيّ سَم !
قد آنَ لِلْمَيْتَةِ أَنْ تَجِيفَا
حضارةٌ تكمَلُ بِالسَّمْحَزاةِ وعيشُ أقوامٍ على الغارات
وكلُّ ذئبٍ طارِدٌ خروفا
وجهُ الكنيسةِ اكتسى شَنارًا روما أراقست ماءه نهارة
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفاً^(١)

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السّاسة^(٢)

عليكم بِالْبَرِّهِمَنْ فاربكوه بأشراكِ السياسة والحبالِ

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشاعر في هذه الأبيات عملَ السّاسة بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلّها من الدّين ، ولاسيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصّ العرب الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حماية الدّين . . إلخ .

ثمّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرّوض لأنّ نَفْسَهُ يشعل الحقائق ؛ أي : يثير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

وأصحابَ الرِّزَّانِيرِ اطردوهم
وذلكم الصُّبُورُ على الرزايا
فروحٌ محمدٍ منه اسلبوه
وفي العَرَبِ اقذفوا في كلِّ فكرٍ
بأرض العُزْبِ للإسلام كيدوا
وفي الأفغان بالذِّينِ اعتصامٌ
عليكم بالفقيه فأنخرجوه
وقوَّاماً على الحرِّمِ اسلبوهم
غَزَالَ المسك من خَتَنِ أثيروا
وإقبالٌ له شَذُوْ مثير
من المَرَجِ اطردوا هذا المغني

من الدَّيرِ القديم بالاحتِبالِ
ومَن هو بالمنايا لا ييالي^(١)
لتعملَ فيه أحداثُ الليالي
من الإفرنج ألوانَ الخيالِ
لُسرِعَ في الحجاز إلى الرُّوالِ
وليس علاجُ هذا بالمحالِ
من الأرض المنيعَةِ والجبالِ
لهم سُنناً تحيدُ عن الضَّلالِ^(٢)
وخلُّوا الأرض من هذي الغوالي^(٣)
به زَهَر الشقائق في اشتعال
لتحموا الناس عن هذا المقال

جماعةُ الأممِ الشَّرْقِيَّةِ^(٤)

سُخِّرَ الماء والهواءُ مسخَّر
جبروتُ الفرنج غَرَّتْهُ رؤيا
إن جنّيوا للشرق طهرانُ صارت

ليس يدعأُ إن القضاء تغيَّر
علَّها غيرَ ما رآه تُعبَّر
فلعلَّ التبديلَ للأرض يُقدَّر

(١) ذلكم الصبور . . إلخ . يعني : المسلم .

(٢) يريد بقوَّام الحرِّم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرِّم وغيره .

(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تِنٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتَّصل به .

ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .

(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إنني لَغَوَّاصُ المعاني فِطْرَةً لكُنْني بَحْرَ السِّياسَةِ أَحْذَرُ
ما إن يُحِبُّ الدَّهْرُ مُلْكَاً خالِداً ولو أنَّ فيه من الرُّؤى ما يَسْحَرُ
فَرهاذُ أبْقَى الدَّهْرُ نَحْتَ صَخوره لم يَبْقَ من برويز مُلْكٌ يُؤَثَّرُ

الجمهورية

بدا السِّرُّ في قولَةٍ من أريبٍ وما كان من قَبْلِهِ يُعْلَنُ^(١) :
نظامُ الجماهير حُكْمٌ به تُعْلَذُ العِبادُ ولا تُوزَنُ

أوربة وسورية

أهدت الشَّامَ إلى الغرب نبيّاً هو عَفٌّ ومُواسٍ وصَبُور
ومن الغرب إلى الشام هدايا من قمارٍ ونساءٍ وخمُور

من مُوسوليني

(إلى أُنْداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يَأبى من مُسولينَ جُرْمَهُ وأخيارُ أوربة عليَّ غِضابُ

(١) سيظهر .

كَلَانَا بِآلَاتِ التَّمْدُّنِ آخِذٌ أَتَنْقِمُ أَفْعَالَ الثِّيُوفِ حِرَابُ
 وَقَدْ نَقَمُوا مِنِّي غَرَامَ تَمْلِكِ أَمَا ثَارَ مِنْهُمْ بِالضُّعَافِ ضِرَابُ
 لِمَنْ شَعْبَذَاتُ الْحَكْمِ تُبْقِي مَمَالِكَا وَلَا مُلْكًا أَوْ مَلِكًا بِهِنَّ يُصَابُ
 أَيْتَفُخُ فِي الْأَعْوَادِ أَبْنَاءُ قَيْصِرِ وَيُجَبِّي إِلَيْكُمْ عَامِرٌ وَيَبَابُ^(١)
 نَهَبْتُمْ خِيَامَ الْبَدْوِ وَالزَّرْعَ وَالْقُرَى وَكَمْ كَانَ مِنْكُمْ لِلْعُرُوشِ نِهَابُ
 قَصَدْنَا مِنَ التَّمْدِينِ قِتْلًا وَغَارَةً أَلَمْ تُسْكِمُوا فَخْرًا وَيَوْمِي عَابُ ؟

شكوى

مُسْتَقْبَلُ الْهِنْدِ مَنْ يَدْرِي ؟ وَمَا بَرِّحَتْ يَا وَيْحَهَا ، دَرَّةٌ فِي النَّجَاحِ تُرْتَهَنُ^(٢)
 دِمَقَانُهَا مِنْ ظِلَامِ اللَّحْدِ مَطْرَحُ وَلَمْ يَزَلْ مِرْقَاً تَحْتَ الثَّرَى الْكَفَنُ
 الْجِسْمُ وَالرُّوحُ لِلْبَاغِيْنَ قَدْ رُهِنَا لَمْ يَبْقَ فِي أَرْضِهَا دَارٌ وَلَا سَكَنُ
 رَضِيَتْ رَقًّا لِأَوْرَثَةٍ بَلَا أَنْفِ فَمَنْكَ شَكَاوِي لَا مِنْهَا ، وَبِي حَزَنُ

انتداب

مَلِكُ الْحَضَارَةِ أَيْنَ يُحْتَمِ سِيرُهُ ؟ فِي عَصْرِنَا هَذَا السُّؤَالُ يَسِيرُ :
 فِي حَيْثُ لَا خَمْرٌ وَلَا قَمَرٌ وَلَا ضَيْقُ الثِّيَابِ عَلَى النِّسَاءِ يَجُورُ
 وَالرُّوحُ فِي بَدَنِ قَوِيٍّ خَافِقُ لَكِنْ عَلَى سَنَنِ الْجَدُودِ يَسِيرُ
 حَيْثُ الْمَدَارِسُ غَائِضٌ يَنْبِغُهَا وَابْنُ الْبِدَاوَةِ فِي الذِّكَاةِ جَسُورُ

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحَارَى .

(٢) كَانَ الْإِنْكَلِيزِيُّ يَقُولُونَ : إِنَّ الْهِنْدَ أَمْنٌ دَرَّةٌ فِي تَاجِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ .

يُفتي جهابذة الفرنجة أنما هذي البقاغ من التمدن بُور^(١)

السِّياسة اللادينية

ما الحق مخفٍ عن فؤادي سرّه فلقد جانني الله قلباً مُبصراً
فسياسة اللادينِ عندي خِسةٌ مات الضميرُ بها وإبليسُ افتري^(٢)
لما قلّى حكمُ الفرنج كنيسةً ساسوا كشيطانٍ بلا قيدٍ جرى
شَرِهَتْ لأموالِ العباد كنيسةً فإذا الخميس سفيرُها بين الوري^(٣)

شبكة التمدن

أمانتها علّت عن كلّ ريبٍ وإقبالٌ مُقَرٌّ دون نكيرٍ
فأوربة نصيرةٌ كلّ شعبٍ تشكّي الدهر من ظلمٍ وضُرٍّ
كراماتُ القساوسِ أن أضاووا سراجُ الكهْرُبَاءِ بكلِّ فكرٍ
ولكن من فلسطينَ بقلبي وللشّام الكسيرة حَبْرٌ جَمِرٍ
وتلكم عُقدةٌ ليست لحلٍّ تُلاقني كلّ تدييرٍ يُفسرٍ
من الترك الجُفَاءِ نَجوا فلاقوا بأشراكِ التمدنِ شَرٌّ أَسْرٍ^(٤)

(١) حينما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدن ، فأرسلوا إليها ملك التمدن باسم الانتداب .

(٢) إبليس افتراها .

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) في هذا استهزاء : إن أوربة ادّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرٍّ أسر .

نصيحة

قال لُرْدُ من الفرنج لنجل
أظلمُ الظلم للمساكين إعلامُ
إنَّ للملك سِرُّه فاكْتُمْنِه :
وبحمض التَّعليم فاغمِس نفوساً
أينَ منه الإكسيرُ ؟ هذا محيلُ

ابغِ مَرأى يدومُ فيه المراد^(١)
خِرَافو شريعة الآساد^(٢)
لا تَرُم بالسُّيوفِ قهرَ العباد
ثمَّ صُغ طينها وفاق المُرَاد
جَبَلُ التُّبْرِ كومةٌ مِنْ رَمَاد

قرصان وإسكندر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانُ
فقد صيرتُ وُسْعَ البحر ضيقاً

أو التصميمُ من سيفي العتيق^(٣)
بما أمعنتُ في قطع الطَّريق

القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم توفَّقْ
فإنَّ القتل دأبي لا أماري

أيجملُ بالفتى فضحُ الرِّفيقِ ؟
كذاك القتلُ دأبك يا صديقي

تصوّل ، وُصِّلْتُ في بحرٍ عميق
كلانا اليوم قرصانُ : بيرُ

-
- (١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحد .
(٢) أظلمُ الظلم أن تعلم الغنم سيرة الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبة الأمم^(١)

مِسْكِينَةٌ مِنْذُ زَمَانٍ تُحْتَضِرُ لَا فَاةَ مِقُولِي بِسَيِّءِ الْحَبَرِ^(٢)
وَمُسُونُهَا مُحْتَمٌّ لَكُنَّمَا يَدْعُو الْقُسُوسُ أَنْ يَزُولَ ذَا الْخَطَرِ
عَجُوزُ أَوْرَبَةُ يَجُوزُ عَيْشُهَا عَلَى رُقَى إِبْلِيسَ أَيَّاماً أُخَرِ^(٣)

الشَّامُ وفِلَسْطِين

مَرَحَى لِحَانَاتِ الْفَرَنْجِ فَقَدْ مَلَأَتْ بِهِنَّ زَجَاجَهَا حَلَبُ
إِنْ فِي فِلَسْطِينِ الْيَهُودُ رَجَتْ فَلْيَأْخُذَنَّ إِسْبَانِيَا الْعَرَبُ
لِلْإِنْكَلِيزِ مَقَاصِدٌ خَفِيَتْ مَا إِنْ يُرَادُ الشَّهْدُ وَالرَّطَبُ^(٤)

أُثْمَةُ السِّيَاسَةِ

مَا رَجَائِي بِسَاسَةِ قَدِ اسْقُومَا وَإِلَى الْأَرْضِ أَخْلَدُوا إِدْرَاكََا
نَظَرَاتٌ إِلَى ذُبَابٍ وَنَمَلٍ فَهَسُمُ الْعَنْكَبُوتُ مَدَّتْ شِبَاكََا
حَبَّذَا الرِّكْبُ قَدْ هَدَاهُ أَمِيرٌ ذُو مِرَامٍ تُجَاوِزُ الْأَفْلَاكََا

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .

(٢) يعني لا أودُّ أَنْ أَخْبِرَ بِمَوْتِهَا .

(٣) الظاهر أَنَّ الشَّاعِرَ نَظَّمَ هَذِهِ الْبَيَّاتِ حِينَ مَا كَانَتْ عَصْبَةُ الْأُمَمِ فِي آخِرِ سَنَوَاتِهَا .

(٤) بِلَادُ الْعَرَبِ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ فِي الْهِنْدِ بِالنَّخْلِ ، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ لَيْسَ قَصْدُ السِّيَاسَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ مَا تَعْلَنُ مِنْ عِمْرَانِ الْبِلَادِ بَلْ لَهَا مَقَاصِدٌ خَفِيَّةٌ .

نزعات العبودية

بأسباب سُقَمِ الشُّعُوبِ خَفَاءَ يَقْصُرُ فِي شَرْحِهِنَّ الْبَيَانُ :
بشِرعِ الْأَسْوَدِ إِمَامُ الْعَبِيدِ يَرَى دَائِمًا حِكْمَةَ الثُّعْلَبَانِ^(١)
كَلِيمُ الْإِلَهِ يُرَى لَعْنَةً عَلَى قَوْمِهِ فِي خُطُوبِ الزُّمَانِ
إِذَا كَانَ فِي السِّرِّ هَذَا الْكَلِيمُ لِقُتُورَةِ فِرْعَوْنَ طَوْعَ الْبَنَانِ

صلاة العبيد^(٢)

قَالَ بَعْدَ الصَّلَاةِ حَلَفُ جِهَادٍ : كَمْ يَطِيلُ الصَّلَاةُ فَيَكْمُ إِمَامُ
مَا دَرَى ذَاكُمُ الْمُجَاهِدُ الْمُؤْمِنُ الْغُرَّ صَلَاةُ الْعَبِيدِ كَيْفَ تُقَامُ
كَمْ لَدَى الْحُرِّ فِي الْحَيَاةِ كَفَاحُ غَيْرَةُ الْحُرِّ لِلشُّعُوبِ قِوَامُ
حُرْمِ الْعَبْدِ حَرْفَةُ الْكَدِّ عَجْزًا فَعَلَى وَقْتِهِ الْمُضَيُّ حَرَامُ
لَا تَعَجَّبْ إِذَا أَطَالَ سَجُودًا مَا لَدَيْهِ سِوَى الشُّجُودِ مَرَامُ
رَبِّ وَقَفَى أُمَّةُ الْهِنْدِ يَوْمًا لِسَجُودٍ تَحِيًّا بِهِ الْأَقْوَامُ

(١) أسباب مرض الأمم أئمةً أذلةً ، يرون في شريعة الأسود فلسفة الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثعالبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمام الصلوة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلوة إمامكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فلسطين

لا يزال الزمان يَصَلَى بنارٍ لم تزل في حَشَاكَ دُونَ خُمُودٍ^(١)
لا دواءَ بِلَنَدَنٍ أو جَنِيوَا بوريدِ الفرنجِ كَفُّ اليهوْدِ^(٢)
ومن الرقِّ للشعوبِ نِجاةٌ قوَّةُ الذَّاتِ وازدهارُ الوجودِ

الشَّرق والغربُ

علَّةُ الشَّرقِ ذِلَّةٌ واقتداءً ونظامُ الجمهورِ في الغربِ داءُ
مَرَضُ القلبِ والبصيرةِ فاشٍ ما بشرقي ولا بغربِ شفاءِ

نزعات التسلُّطِ (إصلاحات)

أرى رحمةَ الصَّيَادِ سِتْرًا لقهره ولم يُجِدْ فينا ذا الصَّفيْرِ المجدِّدِ^(٣)
وقد زَيْنَ الأَقْصاصَ بِالزَّهْرِ ذابلاً لعلَّ أَسِيرًا لِلإِسَارِ يُغَرِّدُ

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الداخلي ، يقول :

ما يزال الصَّيَادُ قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرققه أن تجدد له غناء . وإنما هُتِّه أن يرضى الأسير فهو يزِينُ الأَقْصاصَ بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .

القسم السادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم
بجبالهم ، وحميتهم الإسلامية ، وقد تخيّل الشاعر أنَّ شاعراً
(محراب غل) أنشأ هذا الشعر الذي في الصفحات التالية ، بيّن
عمّا في نفوس هؤلاء النَّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر
(إقبال) .

- ١ -

يا جبالي أَيْانَ عَنْكَ الْمَسِيرُ وترابُ الأَباءِ هَذي الصُّخُورُ
لا زهُورٌ ولا صَدَى عَنذَلِيبٍ فِيكِ مِنْذُ الْأَزَالِ تَأوي الصُّقُورُ
جَتَّي فِيكِ مَخْرَمٌ وَشِعَابٌ ماؤُكِ الثُّورُ ، وَالثُّرابُ الْعِيبُ
لَنْ يَكُونَ الشَّاهِينُ عَبْدَ بُغَاثٍ الْحَفِظُ الْأَبْدانِ رُوحِي أَيْبُ
خَلْعَةُ الْإِنْكَلِيزِ أَمْ سُخْقُ ثُوبٍ إِيهِ فَقْرِي الْغُيُورُ ! ماذا تُشِيرُ؟

- ٢ -

تَنافَرُ النَّاسُ دائِمٌ أَبَدًا لَسْتُ وَلَا أَنْتَ الْقَضَاءُ فَضَّلُهُ
فِي الذَّاتِ عُصْنٌ ، لِلزَّمانِ ذَا أَمَلٍ دَوَاؤُهُ فِي الْجُرُوحِ أَرْسَلُهُ
تَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ وَاحِدًا بَطْلًا إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ « لا شَرِيكَ لَهُ »

- ٣ -

يَجُوزُ أَنْ تُبَدَّلَ أَنْتَ ، لَا تَحُلُ بِدَعْوَةٍ أَنَّ الْقَضَاءَ يُبَدَّلُ
إِذَا سَرَى فِي ذَاتِكَ انْقِلَابُهَا فَجَائِزُ أَنَّ الْقَضَاءَ يُبَدَّلُ
يَبْغِي الشَّرَابَ وَالْفِنَاءَ إِذْ تَرَى رَسْمَ « الشُّقَاةِ » وَالْإِنَاءَ يُبَدَّلُ
تَدْعُو بِتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ جَاهِدًا وَدَعْوَتِي أَنَّ الرَّجَاءَ يُبَدَّلُ

- ٤ -

وَمَا فَلَكَ جَائِزٌ فِي السَّيْرِ وَمَاذَا ذِكَاءٌ وَمَاذَا الْقَمَزُ؟
أَرَى رَكْبَهَا جَاهِدًا فِي الْمَسِيرِ وَأَقْعَدَهَا طَوْلَ هَذَا الشَّقَرِ
سَيَكُنْدُرُ زَمْجَرَ كَالرَّعْدِ حِينًا وَعِنْدَكَ يَا مَوْتُ صِدْقُ الْخَبَرِ
وَعَائِلٌ بِدِهْلِي يَسِدَا نَادِرٍ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ حَكِي فَاخْتَصِرُ^(١)

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلِي ، وتوفي سنة ١١٦٠ هـ .

وتبقى الجبال وأفغانها
تذلل الحوائج صيد الرجال
إن الذات أئدها فقرها
قوام الشعوب بحر فقير
لك الملك والحكم رب القدر
تري الليث كالثعلب المحقر
فعندي وعندك ملك البشر
إلى سدة الملك ما إن نظر

- ٥ -

مدارس ثم ضوضاء ولهو
وسم الحر هذا ليس علماً
وما أدب وفلسفة غناء
تحكم في الطبيعة رب فن
فرب الفن من بركات فن
وذلك إن يشأ قطرت عليه
وغم دام في العيش الوفير
إذا كان الجدا كف الشعير^(١)
قوام الفن في جهد المسير^(٢)
يضيء الليل كالصباح المنير
يطوع لحكمه كل العسير
آية الشمس كالطل النضير^(٣)

- ٦ -

عالم التجديد إن يظفر بحر
لا تدغ ذاتك بالتقليد لغوا
بارك التجديد قوماً ليس فيهم
خشيتي أن غي التجديد في الشرق
موجد من حوله طاف الزمان
جوهراً فرداً فحطه بصوان
غير حفل الأمس ، ذكرى وعيان^(٤)
على التقليد للغرب دهان

- ٧ -

تبذل الأقوام في البلدان
في الروم والشام وهندستان

-
- (١) العلم الذي جدواه كف من شعير ؛ أي : متاع قليل ، ليس علماً ولكن سماً للأحرار .
(٢) الفن بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) رب الفن إن شاء قطرت عليه آية الشمس (أي شعاعها) كالندى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركة لقوم لا يذكرون ، ولا يرون إلا صور الماضي .

يابن الجبالِ هُبْ لِلزَّمانِ وأذركنْ ذاتك بالعرفانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ذا موسمٍ وماءه عُبَابُ وعَسجداً يُنبِستُ ذا الترابُ
من لم يروْ زرعَه احتسابُ فكيف يُدعى الغرُّ بالدهقانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ما لم يهْجُ في مَوْجِه الزخارِ فأئِي بحرٍ ذاك في البحارِ؟
ما ليسَ فيه ثورَةُ الإعصارِ فكيف يُدعى عاصفَ الأكوانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

من اهتدى ونفسه أصابا مقلَّباً في طينه الترابا
فحرثُ ذا العبدِ الذي قد طابا يُفدى بكلِّ الجاهِ والسلطانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

جهلُك هذا ما بهِ مِنْ عارٍ قد صيِّرَ الجهلُ من الفخارِ
كم عالِمٍ فاضلٍ مماري متاجرٍ بالذِّين والإيمانِ
ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

- ٨ -

يدَّعي الزاعُ أنَّ ريشك قُبِح ويقول الخفَّاش : أعمى جهول
ما رُدَّال البُغاث يا صقْرُ ! تدري في عَنانِ السَّماءِ كيفَ تصول
كيف تدري بحالِ طائرٍ عزم كلُّه في المطارِ عَيْنٌ تجول

لا يُسَفِّ العَشْقُ دَابَّ الهوسِ بذبذبٍ بازيلاً لا تَقْسِرِ
 رَبِّ رَوْضٍ حَالٍ حَتَّى لِيَرَى عَنْدَلِبٌ عَشَّه كَالْمَحِيسِ
 مُزْمَعُ الْأَسْفَارِ لَا يَبْغِي صَدَى مَنْ أَذَانٍ بِرَحِيلِ الْغَلَسِ
 أَثَرِي قَافِلَةُ الْمَوْجِ لَهَا فِي مَسِيرِ حَاجَةٍ بِالْجَرَسِ
 خَدَعُ الْعَيْنِ فَتَى مَدْرَسَةٍ قَبَدَتْ فِيهِ حَيَاةُ الْآنَسِ
 وَهُوَ مَيِّتٌ وَمِنَ الْغَرْبِ اجْتَذَى مَا سَرَى فِي صَدْرِهِ مِنْ نَفْسِ
 إِنْ تُرِدَ تَرْبِيَةَ الْقَلْبِ فَمِنْ نَظَرِ الْمُؤْمِنِ شَزْراً فَاقْبِسْ

سَوَادُ عَيُونٍ عَثَرَتْهُ فَتَى حَلِيفُ طَهَارَةٍ وَفَتَى ضِرَابِ
 يُرَى فِي السَّلَمِ ظِيماً ذَا جَمَالٍ وَفِي يَوْمِ الْكَرِيهَةِ لَيْثَ غَابِ
 بِهِ نَارٌ تُحَرِّقُ كُلَّ شَيْءٍ وَحَسْبُ الْغَابِ مِنْ شَرِّ الثَّقَابِ
 حَبَاهُ اللَّهُ أَبْهَةً وَمُلْكاً بِفَقْرِ حَيْدَرِيٍّ وَاحْتِسَابِ
 سَبِيلُ التَّاجِ حَسَرُ الرَّاسِ عَنْهُ فَلَا تَنْظُرْ إِلَيْهِ بَارْتِيَابِ^(١)

فِي بَارِحَاتِكَ لِأَلَاتٍ أَنْوَارُهُ يَسْطِيعُ نُوراً ذَا السَّرَاجِ الْخَابِي^(٢)
 يَشْكُو الضَّعِيفُ مِنَ الزَّمَانِ صُرُوفَهُ وَالْحَرْفُ فِيهِ بِاسْمٍ لِحَرَابِ
 مِنْ صَوْتِ طَيْرِ الصُّبْحِ يَدْهَشُ ذَا الْفَتَى أَتَرَاهُ أَهْلَ تَطَاعِنِي وَضِرَابِ

(١) وهو حاسر الرأس ولكنه طموح إلى التاج ، أو هو في همته وعزته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهل لأن يضيء مرة أخرى ،
 يعني : الإسلام .

حذري لأنك في طباع طفولة والغرب تاجرٌ سُكَّرٍ وجُلاب^(١)

- ١٢ -

هَوَتْ فِي الْفَسْحِ رَجُلَاهُ ^(٢)	بِلا دِينَ وَلَا تِينِ
« لَا غِلَابَ إِلَّا مُسَوِّ	دَوَاءُ الْعَاجِزِ الْمَغْلُوبِ
رَجَعَتْ فِي الْغَرْبِ عَيْنَاهُ	وَصِيَّادُ الْمَعَانِي مَا
غَزَالُ الْمِسْكِ خَلَاهُ ^(٣)	فَضَاءٌ مَسْوِيْقٌ لَكِنْ
بَسَمَعَ الْعَيْنِ أَوَاهُ ^(٤)	يَقْشَرُ ذَاتَهُ سَخَسَرًا
عَلَى الْأَمْوَاهِ تَلْقَاهُ	فَهَذَا السَّرْفَرُ أَحْسَنُهُ
سَحَّ وَالْأَلْوَانِ مَعْنَاهُ ^(٥)	وَدِيرُ الْكُفُونِ ، زُونُ الرِّيبِ
وَذُو الْإِيمَانِ مَوْلَاهُ	عَلَى الْكُفَّارِ مُسْتَوِلِ
أَمِيرًا حِينَ يَغْشَاهُ	إِمَامَ الْمَسْجِدِ ! اْمْتَنَعُهُ
وَلَمْ تُعْجِبْهُ تَقْشَوَاهُ ^(٦)	زَوَى الْمَحْرَابِ حَاجِبَهُ

- ١٣ -

دُنْيَاكَ فِي عَيْنِي شَيْءٌ آخِرُ أَنَّى لِعَيْنِكَ - لَيْتَ شَعْرِي - تَظْهَرُ

- (١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافُّ على تجارتها .
- (٢) يشير إلى مصطفى كمال وأتباعه سياسةً لا دينيةً ، واتخاذ الحروف اللاتينية للغة التركية .
- (٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاء لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .
- (٤) الأواه : المتعبَّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .
- (٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنام من الألوان والروائح ، يستعبد الكفر ، ولكنه مسخرٌ للمؤمن .
- (٦) تخيل زاوية المحراب تقطياً لصلاة أمير ليس فيها معنى الصلاة .

ماذا التقلبُ في عقول شبابنا في كلِّ صدرٍ قد تبدَّى محشرُ
 شيخُ المساجدِ ما دُعَاؤُك سُخْرَةً أبه الحياةُ بلا جهادٍ تظفَرُ^(١)
 ما « الذات » يُرجى في رِباطِ خَلْقِها هل للشرارِ من الرَّمادِ تَسْفَرُ^(٢)

- ١٤ -

كلُّ عشقٍ دونَ إقدامِ هوى ويدُ الله بعشقٍ مخطِر
 ويلتا مِن ترفٍ! أين فتى تَخِذَ الأهوالَ زاد السَّفرِ
 خلوةُ الأطوادِ ليست وحشةً يَعْرِفُ « النَّفس » بها ذو البَصَرِ

- ١٥ -

علمُ فقرٍ لسالكٍ غيرُ صَغْبِ حَدَّثَ الناسَ عن هُداةِ الضميرِ
 لا يكونُ الفولاذُ جوهرَ سيفٍ إنَّ يكنُ في الطباعِ منه حريرُ
 إنَّ قهرَ الإلهِ فقرٌ ذليلٌ وسبيلُ السُّلطانِ فقرٌ غَيورُ
 قد سباكَ الفرنجُ نفساً ولكن أنت يا مؤمنُ البشيرِ النذيرُ^(٣)

- ١٦ -

مَوْتُ الشُّعوبِ بُعْدها عَنِ جَذَبَاتِ المَسْرُكِرِ
 وَالذَّاتُ إِذَا رُكِزَتْ فَلِلْمَعَالِي تُرْكَزِ
 فَقَرُّ تَرَاهُ شَاكِيَاً جَوْرَ الزَّمَانِ اللَّحْزِ
 بَاقٍ عَلَيْهِ مَسْحَةٌ مِنْ اجْتِدَاءِ الْكَزْرِ
 وَلَمْ يَزَلْ مُيَسَّرَاً لِلْبِرِّ فَعِلْ الْمَعْجَزِ
 أَنْ يَجْعَلَ الصُّخُورَ كَالذَّرَاتِ غَيْرَ مُعْجَزِ^(٤)

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عاتقة .

(٢) الرِّبَاط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .

(٣) جاء هذا المصراع في الأصل بالفارسية .

(٤) لا يحول دون همة الحرِّ شيء من عالم المادَّة فهو يحيل الصُّخور ذراتٍ ، فلا تكون في =

فَأَيْنَ يَا مُؤْمِنُ أَنْتَ الْيَوْمَ لِمَ تُبَرِّزُ
مَا فِي جِهَادٍ لَذَّةً جَنُرُكَ فِيهِ مُعْزِي^(١)
يَا شَفْسُ مِنْ سُرَادِقِ الْمَشْرِقِ رَقِ هَيْكَا فَاِبْرُزِي
وَإِكْسِي جِبَالِي حُلَّةً تُزْمِي بِلَوْنِ الْقُرْمُزِ

- ١٧ -

إِنْ يَكُنْ فِي الْأَلُوفِ رَبُّ يَقِينٍ نَفَخَ النَّارَ فِي شَبَابٍ وَثِينٍ
رَبِّمَا تَنْشَى الصَّحَارَى فَقِيرًا يَخْلُقُ الدَّرَّ مِنْ حَصَى فِي الْجِيُوبِ^(٢)
بِيرَاعٍ لَكَ أَكْتَبَنْ لَكَ حَقًّا لَمْ يَخْطُ الْجَبِينُ رَبُّ الْغِيُوبِ^(٣)
ذَا الْفَضَاءِ الَّذِي يُسَمَّى سَمَاءً لَيْسَ شَيْئًا لَدَى الْعُقَابِ النَّجِيبِ
هُوَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ يُدْعَى سَمَاءً وَهُوَ أَرْضٌ تَحْتَ الْجَنَاحِ الْهَبِيبِ

- ١٨ -

أَيُّ قَوْلٍ لَشِيرِشَاهٍ رَشِيدٍ فِي اخْتِلَافِ الْقَبِيلِ ذَلِّ الْعَبِيدِ^(٤)
خَلَعُوا ثَوْبَ أُمَّةٍ جَمَعْتَهُمْ وَازْدَهَوْا بِالْوَزِيرِ وَالْمَحْسُودِ^(٥)
ذَهَبَ الَّذِينَ فِي الْجِبَالِ شَمَاعًا كُلُّ حَزْبٍ لِلْبُدْهِ فِي سَجُودِ^(٦)
حَرَمٍ فِيهِ حُرْمَةُ اللَّاتِ تَرَعَى فَجَبَاكَ الْمَوْلَى بِضَرْبِ سَدِيدِ^(٧)

= طريقه عقبات .

- (١) ليس في الجهاد لذة ما لم تكن فيه حرارة الإيمان . وجمُرُ المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .
- (٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .
- (٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .
- (٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .
- (٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .
- (٦) اللبد : الصنم .
- (٧) هذا حرم ولكن فيه أصنام . فالله يوفقك لضرب تكسر في الأصنام ، كما كسر الرسول =

ليس الذي يُدرك الألوانَ بالبصرِ بل مُغْتَنٍ عن ضياءِ الشَّمسِ والقَمَرِ^(١)
يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلةً تقدَّمتُ . ليس هذا مُنتهى السَّفَرِ
وحانةُ الغُربِ للصَّادي مفتحةً ما الشُّكرُ فيها بعلمِ العصرِ بالتُّكْرِ
لك المماتُ بهذا الشُّكرِ مُستترٌ إن لم يكن فيك للتَّوحيدِ مِنْ شَرَرِ^(٢)
هل يَسْمَعُنَّ بنو الخانات موعظتي في شملةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرٍ؟^(٣)

مقاصدُ الفِطْرةِ العلياءِ يحفظُها مَنْ عاش في البيدِ أو في الطُّودِ إنساناً
يراقبُ السَّحَرَ في التمدينِ يُطله في فقره أودَعَ الخلاقُ سلطاناً
للحُسنِ واللُّطفِ صاغَ الروضُ بلبله وتُشَيِّءُ البيدُ للإقدامِ عِقباناً
يا شيخُ كم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةً لكنَّ في البيدِ فاروقاً وسلَّماناً^(٤)
هل يعرفُ الدَّهرُ للإسلامِ مِنْ شَبِّهِ في نشوةٍ تتحدَّى السَّيفَ غضباناً



= أصنام الكعبة .

- (١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .
(٢) لا ضير في أن تأخذ علومَ العصرِ وتنتشي بها ، ولكنَّ الهلاكَ فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتَّوحيد .
(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولِي وأنا في ثيابِ خشنوةٍ ، لست ملكاً ولا أميراً .
(٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .

الدِّيَّانُ السَّابِعُ

رِسَالَةُ الْخُلُودِ
جَاوِيدِنَامَه

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدُّكْتُورُ حَسِينُ مَجِيْبِ الْمَصْرِيِّ

يعتبرُ هذا الديوانُ التُّحفَةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢ م ، وإنَّه يُبرزُ قوَى الشاعر الفكريَّة وذراها الرفيعة ، وفيه توريَّةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الديوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصَّة دانتى الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أن تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّوميِّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثم يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليله جلالَ الدين الرُّومي إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم الأول يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الرُّوميُّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرةٍ يأكلُ ويشربُ في تأملٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثه مع الرُّوميِّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافة الشرقيَّة والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملاً الماديَّات ، بينما الغرب قد ركز على الماديَّات مهملاً الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّوميِّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعر إلى وادي جرغميد ، حيث يرى الشاعرُ كتب البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربع شخصيات ، فتعاليمُ بوذه تُشرحُ على لسان فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليمُ المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشاعرُ بعد ذلك إلى « عطار » حيث يقابل جمالَ الدين الأفغاني^(١) وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدّم الرُّومِيَّ الشاعرَ على أنه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغاني ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاء التي ترتكبها أممُ الشرقِ خاصَّةً الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشرق والغرب ، ويبينُ أنَّ إنقاذَ وخلصَ الجنس البشريَّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تراوج العقل بالعشق .

ويحكى سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنهر الحيّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلَّا » فقد اقتصرَت وظيفتُه على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشاعرُ في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّومِيَّ الشاعرَ إلى إقليمٍ يقعُ مباشرةً تحت نهر ، حيث يقيم فرعون وكتشز ، ويقدمُ فرعونُ الاعتذارات ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحذُرُ الآخرين كي يكونوا أكثرَ حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّومِيَّ بين « الأثوقراطية »^(٢) والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المريخ » حيث يقابلُ فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المريخ مشكلةَ القضاء والقَدَر ، وفي رأي الحكيم أنه من

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريين » أصدره والشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

الممكن بالنسبة للإنسان أن يغيّر قدره ، والإنسان يجب أن يحاول أن يحرص على السيطرة التامة على القدرة .

وفي القسم الخامس ينتقل الشاعر إلى كوكب « المشتري » حيث يتقابل مع الشاعر غالب^(١) والصوفي منصور الحلاج^(٢) وغيرهم ، ويناقش معهم فلسفة الحياة والموت ، بينما تستمر هذه المحادثة يظهر الشيطان على مسرح الأحداث ، ووصف الشيطان هنا رائع ، ويحتاج إلى دراسة مفصلة .

وفي القسم السادس يصل الشاعر إلى كوكب « زحل » ، حيث يقابل أرواح المتهمين بالخيانة العظمى ضدّ أوطانهم : مير جعفر من البنغال ، ومير صادق من الدكن ، والاثنان في قارب يكافحان دونما أمل ضدّ عاصفة مثيرّة في بحر من الدماء ، وفي تلك اللحظة .

وفي القسم السابع يصل الشاعر إلى « ما وراء الأفلاك » ، وأول من يقابل يقابل نيتشه ، الذي ظلّ طوال حياته يحاول البحث عن الله ، لكنّه فشل ، لأنّه اعتمد أساساً على العقل الذي لا يؤدّي إلى شيء . وبعد نيتشه يطير الشاعر إلى قصر عبد الصمد حاكم بنجاب ، ثم يقابل أخيراً الشاعر الشيخ سيد علي همداني ، والشاعر غنيّ من كشمير ، ويشير بعد ذلك إلى بيع البريطانيين لكشمير .

(١) هو ميرزا أسد الله غالب (١٧٩٧م - ١٨٦٩م) كان من أعظم شعراء الأردوية ، قد سبقت ترجمته في الديوان الثالث « رسالة الخلود » .

(٢) هو الحسين بن منصور أبو مغيث ، كان من عظام فلاسفة الإسلام ، وكبار الصوفيين الزمّاد ، أصله من البيضاء بفارس ، عاش في خلوات الصوفية لاسيّما مع الجنيد وسهل التستري ، اُتهم بالزندقة والقول بالحلول ، فحكم عليه ، وسجن ثماني سنوات ثم عُدّب وصُلِب عام ٣٠٩هـ / ٩٢٢م له كتب كثيرة ، لم يبق منها إلّا « كتاب الطواسين » في شرح مذهبه الذي أنشأ في التصوف ، وأثار حوله الجدل ، فقدّمه البعض وكفّره آخرون .

ويقابلُ الشاعرُ كذلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعر الهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوتَ الإلهيَّ المقدَّسَ يوضحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يكمنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي القسم الثامن الذي هو الأخير يخاطب فيه الشاعرُ الشَّبابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحهم بتجنُّب الرفقة الشرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاح المستمر .

وقد نَقَلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدِّم الآن إلى القراء هذا الديوان في عنوانه الأصل الَّذي سَمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالة الخلود) توريةً إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم .



مُنَاجَاة

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَا السَّرَابِ
شَوْقُهُ لِلْخَلِّ نَارٌ تَضْطَرِمُ
عَالِمٌ يَحْوِيهِ مِنْ مَاءٍ وَطِينِ
تَضُمْتُ الدَّامَاءَ وَالْبِيدَا مَعًا
وَذُكَاءَ وَسَمَاءَ حَوْلَهَا
النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ عِدَّةُ
مِثْلُنَا الْمَسْكِينُ أَمْسَى كُلُّ نَجْمٍ
مَا أَعَدَّ الرُّكْبُ زَادًا لِلرَّحِيلِ
صِيدْنَا الدُّنْيَا وَنَحْنُ الصَّائِدُونَ
نَحْتُ فِي الشُّكُوى وَمَا مِنْ مُسْتَجِيبِ
شَاهَدْتُ عَيْنَايَ يَوْمًا أَشْرَقَا
مِنْ جُفُولِ النُّجْمِ فِي الدُّنْيَا ظَهَرَ
مَا لَدَيْنَا مِثْلَ هَذَا الْمُعْجَبِ
إِنْ أُنَارَ الرُّوْحُ وَمَضَّ مِنْ سَنَاهِ

لَا يَنِي عَنْ نَوْحِهِ شَبَهَ الرِّبَابِ^(١)
رَقَّتِ الشُّكُوى وَمِنْهَا كَمْ عِلْمِ
وَالَهُ فِي الصَّدْرِ خَفَاقُ الْوَتِينِ؟^(٢)
وَكَذَا طَوْدٌ وَبَدْرٌ لَغَلَعَا^(٣)
كُلُّهَا فِي الْوَفْرِ تَشْكُو سَمْعَهَا^(٤)
كُلُّ نَجْمٍ أَوْحَشَتْهُ وَخَدَعَا^(٥)
ضَلَّ فِي الزَّرْقَاءِ مَغْشِيًا بِهِمْ^(٦)
أَوْ مِنْ تَيْهِ وَمِنْ لَيْلٍ طَوِيلِ
أَوْ أُسَارَى مَا تَرَاهُمْ يَذْكُرُونَ
أَيْنَ لِلْإِنْسَانِ خِلٌّ أَوْ حَبِيبِ
فِي ضِيَاءِ كُلِّ شَيْءٍ أَغْرَقَا
بِرَهَةً يَبْدُو وَلَكِنْ مَا اسْتَقَرَّ^(٧)
مَالَهُ ظَهَرَ وَلَا مِنْ مَغْرِبِ^(٨)
أَصْبَحَ الصَّوْتُ كُلُّونٍ إِذْ تَرَاهِ

(١) لَا يَنِي : لَا يَضْعَفُ ، وَلَا يَفْتَرُ .

(٢) الْوَتِينُ : عِرْقٌ فِي الْقَلْبِ وَالْمَرَادُ هُنَا الْقَلْبُ .

(٣) الدَّامَاءُ : الْبَحْرُ . وَالْبِيدَاءُ : الصَّحْرَاءُ . وَالطَّوْدُ : الْجَبَلُ . وَلَعَلَّ : لَمَعَ وَتَلَأَلَ .

(٤) ذُكَاءُ : الشَّمْسُ . وَالْوَفْرُ : ثَقُلُ السَّمْعِ أَوْ ذَهَابُهُ .

(٥) الْعِدَّةُ : الْجَمَاعَةُ .

(٦) الزَّرْقَاءُ : السَّمَاءُ .

(٧) جُفُولٌ : نَدُوٌّ وَشُرْدٌ .

(٨) الْمُعْجَبُ : الَّذِي يَثِيرُ الْعَجَبَ .

بِذَدِّ الْغَيْبِ نَبُورٌ قَدْ بَدَا
 يَا إِلَهِي مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ هَبْنِي
 آيَةَ التَّسْخِيرِ فَيَمَنْ أَنْزَلْتَ
 (عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ) سِرٌّ مِنْ دَرَاهِ
 مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْذَا تَضَطَّفِي
 قَدْ رَشَقْتَ الصَّدْرَ مِنَّا بِالسَّهَامِ
 لَكَ وَجْهٌ هُوَ قَرَأَنِي وَدِينِي
 لَوْ رَمَتْ أَلْفَ شِعَاعٍ شَمْسُنَا
 قَيْدُ هَذَا الْعَصْرِ قَيْدٌ مِنْ نُهْيِ
 وَيَمُرُّ الدَّهْرُ مِنْ عَمْرِ الْوُجُودِ
 أَنْتَ مَا لَمْ تَفْلَحِ الْأَرْضَ الْجَدِيدَةَ
 إِنْ نَمَّا مِنْ ذَلِكَ الطَّيْنِ الْمَهِينِ
 أَنْتَ بَلَدٌ مَرَّ بِي فِي مَخْدَعِي

وَعَلَى الدَّهْرِ سَيَقِي سَرْمَدًا^(١)
 إِنَّ يَوْمِي مُزْمَهَرٌ فَلْتُغْنِنِي^(٢)
 هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَيَمَنْ حَيَّرْتَ^(٣)
 أَسْكُرْتُ مِنْ خَمْرِهَا أَوْ مِنْ سَقَاهُ^(٤)
 فَلْيَلِوْ بُخْتُ بِالسَّرِّ الْخَفِيِّ^(٥)
 حَرْفٌ ﴿ادْعُونِي﴾، لِمَنْ هَذَا الْكَلَامُ؟^(٦)
 أَتَضُرُّ؟ وَعَلَى رُوحِي الْحَزِينِ
 مَا رَأَتْ فِي الشَّمْسِ نَقْصًا عَيْنُنَا
 أَيْنَ رُوحٌ لِي تَنَاهَى صَبْرُهَا^(٧)
 كَيْ نَرَى رُوحًا وَمَا فِيهَا خُمُودِ
 لَمْ تَنْلِ مَا كُنْتَ تَبْغِي مِنْ رَغِيبةٍ^(٨)
 قَلْبُ إِنْسَانٍ فَذَا كَنْزٌ ثَمِينٌ
 ظَلَمَةَ الرُّوحِ تَأْمَلُهَا مَعِي

(١) السَّرمَدُ : الدائم .

(٢) از مَهر اليَوم : اشتدَّ برده .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسماء ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أنَّ هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .

(٥) اصطفني : اختار .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] أي : اعبدوني أُنِيبكم .

(٧) التَّهْيُ : العقل . وتناهى : بلغ النهاية .

(٨) فَلَاحِ الْأَرْضِ : شقها ليزرعها . والرغيبية : الأمر المطلوب .

لَمْ نُنْزِ عَنْ هَشِيمٍ شِعْلَةً
عِشْتُ مَا قَدْ عِشْتُ لَكِنْ فِي الْفِرَاقِ
افْتَحَنْ كُلَّ بَابٍ لِي هُنَالِكَ
هَآكَ صَدْرِي فِيهِ أَشْعِلْ لَهَا
نَحْ تِلْكَ النَّارَ عَوْدِي أَوْ قَدْ
أَجِجِ النَّارَ بِكَاسِي خَمْرَةٍ
قَدْ طَلَبْنَاكَ وَمَا تَبَدُّو لَنَا
وَعَنِ السِّرِّ أَمِطْ سِتْرًا خَفَاهُ
دَوْخُ فَكْرِي لَا يُرْجَى مِنْ ثَمَرِ
قَدْ وَهَبْتُ الْعَقْلَ فَا مَنَحْنِي الْجَنُونَ
إِنَّمَا لِلْعِلْمِ فِي الْفِكْرِ الْمَقَامُ
وَإِذَا الْعِلْمُ عَنِ الْعِشْقِ انْفَرَدُ
فِيهِ سِخْرُ السَّامِرِيِّ ظَاهِرُ
بِالتَّجَلِّي عَالَمُ الْقَوْمِ اهْتَدَى
عِشْنَا لَوْلَا التَّجَلِّي سَقَمْنَا
هَذِهِ الدُّنْيَا بِهَا بَحْرٌ وَبَرُ

- (١) مزرقي الرواق : السماء .
(٢) يريد بالطين نفسه ؛ لأنه إنسان خلق من طين . والتَّجِي : صاحب السر . والملائكة :
الملائكة .
(٣) خفاه : أخفاه .
(٤) الدوخ : جمع دوخة وهي الشجرة العظيمة .
(٥) بعد أن ذهب موسى لميقات ربه ، تحيَّين رجلٌ يسمى السَّامِرِي غيبته ، وأخذ من بني
إسرائيل حلي نساءهم ، وألقاها في النار ؛ ليسبك منها عجلًا ، وجعله بحيث يكون له
صوت كالخوار ، وخدع بني إسرائيل بقوله : هذا إلهكم وإله موسى .

فإلى الدار فؤاداً ضلّ رد
من ترابي ما نما إلا الكلام
إنني في الكون ذيكاً الغريب
ريثما كالشمس يطوى بالغروب
من غدي والأمس إنني مُنطلق
أنت نور خالد نحن الشرار
قل لمن ما ماز موتاً من حياه
جاء آفاقاً وليس بالضبور
إنني الفاني فهب أنت البقاء
يا إلهي هب فعالي والكلام
ليس من دنيائي هناك الخطاب
إنني بحر سكوني لا يليق
وعلى الساحل دُنيا تستقر
قد ينسئ من شيوخ الأقدمين
وعلى الفتيان يسر ما أقول

فلقمة البدر إليه فلتغد^(١)
وكلام الهجر يخلو من ختام
من بعيد فلتقل إنني قريب
فكل صوب وشمال وجنوب
وراء كل نجم استبق^(٢)
ولنا الأنفاس عمر مستعار
أي عبد غار من صنع الإله^(٣)
لم يسر بغياب أو حضور^(٤)
وأنا الأرض أسكنني السماء
كل خير ، ومسيرى للأمام
لا ولا تلك السما هذا الكتاب
أين من غاص على قاعي العميق^(٥)
وترى في البحر موجات تفر
ولدي عن غدي قول مبین
وليكن كل عميق كالضحول^(٦)

(١) فلقة البدر بكسر الفاء : القطعة منه .

(٢) استبق : تسابق .

(٣) ماز الشيء : فرزه عن غيره .

(٤) جاب البلاد : قطعها .

(٥) غاص على اللؤلؤ : غطس يستخرجه .

(٦) الضحول : جمع ضحل ، وهو الماء لا عمق له .

تمهيدٌ سماويٌّ

في اليوم الأول لِلْخَلْقِ ، تشبي
لِلْخُضُورِ لَذَّةٌ أَوْ لِلْغِيَابِ
كَانَ لِلْأَنْفَاسِ خِيْطٌ فَانْقَطَعَ
حَيْثُمَا تَمَضَى تُشَاهِدُ قَائِلًا
عَلِّمُوا الْأَنْجَمَ طُرّاً سَبْرَهَا
هَذِهِ الشَّمْسُ أَقَامَتْ خِيْمَةً
أَوَّلُ الْإِصْبَاحِ فِي الْأَفَقِ انْتَبَهَتْ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ أَرْضٌ قَاحِلَةٌ
الْجِبَالُ لَيْسَ فِيهَا مِنْ نَهْرٍ
مَا شَدَّتْ فِي الْغُضَنِ طَيْرٌ بِالْغَنَاءِ
التَّجَلَّى غَابَ عَنْ بَحْرِ وَبَرٍ
فِي رَيْبٍ مَا بَدَتْ مِنْ خُضْرَةٍ
لَمْ تَلِكِ الْأَرْضَ مَزْرُقُ الْفَلَكَ
وَفَضَائِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ ضَرِيرٍ
قَدْ يَطْوُلُ التُّرْبُ طَوْدًا فِي السَّمَاءِ
فَلْتَعِشِي مِثْلَمَا عَاشَ الْجَمِيلُ
فَاعْتَرَى الْأَرْضَ مِنَ اللَّوْمِ الْخَجَلُ

وَبِهَا قَدْ خُلِقَ الْكَوْنُ الْعُجَابُ
بَنَتْ الْحَيْرَةَ صَرْحًا مَا انْصَدَعَ^(١)
بَعْدَ شَوْقٍ : لَسْتُ مِثْلِي يَا فُلَا^(٢)
مَنْحُومًا فِي السَّمَاءِ نُورَهَا^(٣)
زَانَهَا التَّبَرُّ رَسُومًا جَمَّةً
وَرَأَى الْكَوْنَ وَلِيدًا فَاغْتَنَقَ
لَا تَمُرُّ فِي ثَرَاهَا قَافِلَةٌ
وَالْفِيَا فِي تَحْتَ غَيْمٍ مَا انْهَمَزَ
لَا وَلَا فِي الْمَرْجِ سِرْبٌ مِنْ ظِبَاءِ
وَلَهَا الثَّوْبُ دَخَانٌ وَانْتَشَرَ
وَانْطَوَتْ تَحْتَ الثَّرَى فِي غَبْرَةٍ
« مَا رَأَتْ عَيْنٌ كَهَذَا هَيْتَ لَكَ ! »^(٤)
لَكَ نُورٌ مِنْ سِرَاجِي أَيُّ نُورٍ
لَا يَضَاهِي فَلَكَا أَوْ أَنْجُمًا^(٥)
أَوْ فَمُوتِي مِنْ شَنَارٍ لِلذَّلِيلِ^(٦)
بَعْدَ حَزْنٍ وَضِياعٍ لِلْأَمَلِ

(١) الصرح : كلُّ بناء عال .

(٢) يا فُلَا : ترخيم يا فُلَان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعال .

(٥) التُّرْبُ : التراب . وَالطَّوْدُ : الجبل .

(٦) الشَّنَارُ : العيب والعار .

وَمَنْ الظُّلْمَةُ أَضْوَاهَا الْأَلَمُ
يَا أَمِيناً لَسْتَ تَدْرِي مَا الْخَبَرُ
الْتَّهَارُ نَسْرُهُ مِنْ مُغْتَسِرِكَ
نُورُ هَذَا الضُّبْحِ مِنْ شَمْسٍ جَرِيحٍ
نُورُ تِلْكَ الرُّوحِ مَاضٍ فِي سَفَرٍ
مِنْ كِتَابِ الرُّوحِ أَسْقَطَتْ « الْمَنَى »
يَمْلِكُ الْعَقْلُ مِنَ الدُّنْيَا الْعَنَانِ
يَهْدِي الْفِكْرُ وَمِنْ غَيْرِ الدَّلِيلِ
يَا لَسَهُ تَرْباً يَطِيرُ كَالْمَلَكِ
يَخْزُ الزَّرْقَاءُ جِسْمٌ فِي الْمَسِيرِ
ثُوبٌ دُنْيَانَا مَحَا عَنْهُ الْوَضَرُ
وَرَقِيقُ الدِّينِ سَقَاكَ الدِّمَاءُ
تَسْتَنِيرُ عَيْنُهُ بِالْكَائِنَاتِ
مَنْ تَلَطَّى عَشْقُهُ مِنْ حُسْنِ ذَاتِ

وَنَدَاءٌ جَاءَ مِنْ فَوْقِ الْقِمَمِ^(١)
أَيَّ بَاسٍ؟ ذَاتَكَ امْتَنَحَهَا النَّظَرُ
لَيْسَ مِنْ نُورِ أَتَانَا مِنْ فَلَكِ^(٢)
مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ أَنْوَارُ لِرُوحِ
يَسْبِقُ الشَّمْسَ شُعَاعاً وَالْقَمَرَ
وَهِيَ تَبْدِي مِنْ ثَرَاكَ ذَا السَّنَا^(٣)
وَلِهَذَا الْعِشْقِ غَزْوُ اللَّامِكَانِ
عَيْنُهُ يَقْطِي وَفَاقَتْ جِبْرِئِيلُ
وَلَهُ يَبْدُو رِبَاطاً ذَا الْفَلَكِ^(٤)
إِبْرَةً قَدْ خَرَقَتْ ثُوبَ الْحَرِيرِ
فَضَّلَهُ فِي عَيْنِهَا نُورُ الْبَصَرِ^(٥)
وَهُوَ كَالْمِهْمَازِ فِي جَنْبِ الْقَضَاءِ^(٦)
لَتَرَى الذَّاتَ تَجَلَّتْ فِي الصِّفَاتِ
سَيِّداً أَضْحَى لِكُلِّ الْكَائِنَاتِ^(٧)



-
- (١) أضواها : أضعفها .
(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .
(٣) السنا : النور .
(٤) الرباط : مبنى لتزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .
(٥) الوضر : الوسخ .
(٦) رقيق الدين : الملحد .
(٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة^(١)

ويوماً تبهر المصلصال نورياً بأنوار
ويوماً تُضْبِغُ الأرضُ سما من نجم أقدار
خيال المرءِ ظمآنٌ ، سيولُ الدهرِ ترويه
ويوماً خارجَ الأفلاكِ في أمنٍ ستلقيه
وفي معنى لإنسانٍ تأمل أنت ثم اسأل
ويوماً بَعْدَ تطويعِ سِنْمَسِي ذلك الأكمل
ويعلو منه شأنٌ لم يكن في أمسه شيئاً
ويوماً أنت لا تلقاهُ عند الله مَرْضِيّاً

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوحُ روحُ جلال الدين الرومي ، وتتناولُ بالشَّرحِ سرَّ المعراج
شُعْلَةٌ لِلْعِشْقِ شَبَّتْ فِي الْمَدِينَةِ ضَجَّةٌ لِلْقَوْمِ تَطْوِيهَا دَفِينَةُ
تَنْشُدُ الْخُلُوءَ فِي طَوْدِ أَشَمِ أَوْ عَلَى السَّاحِلِ مِنْ بَحْرِ خِصَمِ^(٢)
مَا وَجَدْتُ لِي حَمِيماً مَرَّةً فَقَصَّذْتُ الْبَحْرَ أَلْقِي نَظْرَةً
وَرَأَيْتُ الْبَحْرَ فِي وَقْتِ الْغُرُوبِ زُرْقَةً فِيهَا يَوَاقِيتُ تَذُوبُ
لِلضَّرِيرِ وَاهِبُ نَوْرِ الْبَصَرِ لِلْمَسَاءِ مَكْسَبُ لَوْنِ السَّحَرِ
ثُمَّ نَاجَيْتُ طَوِيلًا مُهْجَتِي وَطَلَبْتُ فِي خِيَالِي مُنْتَهَى^(٣)

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسيُّ أصلاً ، ولا يستعملُ إلا رباعياً ،

غير أنَّ الفرس يستعملونه ثمانياً . وقد أوردناه ثمانياً كما ورد في هذا الشعر الفارسي .

(٢) الطودُ الأشم : الجبلُ المرتفع . البحرُ الخِصَمُ : العظيمُ الواسع .

(٣) المُهْجَةُ : دَمُ القلب . والمرادُ به هنا القلب .

إنني الفاني ومالي من خلود وأنا حي ومثلي في اللحد
ظامي والتبع عن ثغري بعيد فإذا بي منشئ هذا الشيد

غزل

افتح الثغر لذة الشهد اطلب أظهر الخد روضة الوزد اطلب
هذه الكأس في يدي وباخرى شعره ، إن رقصة الوجد اطلب^(١)
في دلال تقول قم أنت عنا قل وكز ، فقرة القند اطلب^(٢)
أنت يا عقل فانصرف عن هذاء أنت يا عشق صحوة الجد اطلب^(٣)
إن تلك الحياة كالسبل تمضي وأنا الحوت لجة المد اطلب^(٤)
ذاك فرعون أزمض النفس جوراً نور موسى بليلة البرد اطلب^(٥)
طاف في الليل شيخنا بسراج قال إنني مؤجل العود اطلب^(٦)
ورفاق كرهت منهم خصالاً رستم لي وسيد الأسد اطلب^(٧)

(١) يريد برقص الوجد رقص المولوية ، وهم أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أن الرقص والسماع مما يشير في القلوب لوعة العشق الإلهي . وسنصف رقصهم تفصيلاً في الصفحات الأخيرة من الكتاب .

(٢) القند : السكر .

(٣) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .

(٤) اللجة : معظم الماء . والمد : ارتفاع ماء البحر .

(٥) ذكرنا ليلة البرد هنا لأن موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح بزئده فما أخرج الزند نارا غير أنه شاهد نارا من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا عَلَيَّ أَلَا يَكْرِهْتُمْ أَيْقِينَ أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٦) العود : العودة وجعلناها مؤجلة للمبالغة .

(٧) رستم : بطل الأساطير الفارسية المشتهر بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو علي كرم الله وجهه .

كم بحثنا ، وأي شيء وجدنا
قلت إنني برغم ذا الفقد أطلبُ

فوق ماء أغبر الموجُ نام
إنَّ منها اللَّيْلُ شيئاً قد سَرَقَ
روحُ « رومي » مرَّقت كلَّ الشُّتور
إنَّه شَمْسُ الضُّحَى في طَلَعَتِهِ
وينور سمرمديّ قذ أضاء
شفتاه فيهما سرُّ الوجود
إنَّ هذا القَسْوَلُ مرآةٌ تدلَّت
غَيْرُ موجودٍ وموجودٌ ؟ أجنبي
قال لي الموجودُ ما يبغي الظهور
لِلوُجودِ زينةٌ تُدعى « أنا »
ألقوا يومَ « أَلَسْتُ » مجمعا
إن تكن حياً أو الميتَ الدفين
شاهداً فلتتخذهُ من شعور

غابتِ الشَّمْسُ وفي الأفقِ الظلام
يَشْهَدُ الكوكبُ بالثُّور ائتلق
ولها من خَلْفِ أطوادِ ظُهور^(١)
وشبابُ شيبه ، في مِيعَتِهِ^(٢)
من حُبورِ الخُلْدِ غطاءُ الرِّداء^(٣)
فكُ عنه القَوْلُ فكأ للقيود
وهو عَلِمَ فيه نارٌ قد تجلَّت
غيرُ محمودٍ ومحمودٌ ؟ أجنبي
فالوجودُ يقتضي هذا الظُّهور
رغبةً في الذاتِ برهانٌ لنا^(٤)
« أينَ مَنْ يَشْهَدُ ؟ » قالوها معا^(٥)
أو تجذُّ بالروحِ سل عن ذا الأمين^(٦)
أو عيونٍ مالها إلّاكَ نور

(١) رومي : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .

(٢) مِيعَةُ الشباب : أوَّلُهُ .

(٣) السَّرمديّ : الخالد . والحُبورُ : الشُّرور .

(٤) أنا هنا بمعنى الذات أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كُليَّة في واقع الأمر ، وتجلِّي الحياة في الفرد ليس إلّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارة الإسلام .

(٥) يُكثِّرُ شعراءُ التصوُّف من الفرس ذكرَ يومِ « أَلَسْتُ » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٦) المراد بهذا الأمين : الشَّاهد .

واجعل الثاني شعور الآخرين
ولتكن ذاتُ الإله خيرَ شاهد
أنتَ إنْ واجهتَ ذِيكَ الضَّياءَ
الحياةُ هي للذاتِ الوصول
لم تلائمَ مؤمناً قطَّ الصُّفات
ما هو المعراجُ ؟ مرجأةُ شاهد
شاهدٌ عدلٌ وممّا قاله
ما لإنسانٍ ثباتٌ في الحضور
ذرةٌ لا تلقى من هذا اللّهبِ
أنْ تزيدَ الثُّورَ فيكَ ذاكَ أخلَقُ
جسمَكَ الباليَ جذدٌ بالصُّقال

شاهد الذاتِ بعينِ الآخرين
ولها نورٌ به ذاتاً فشاهد
نلتَ طولاً سرمدياً للبقاء
وهي ذاتٌ ليس يُخفيها سُدول^(١)
ما اختيارُ المصطفى إلا لِذاتٍ
واختبارٌ ، وتراه عينُ شاهد
عيشنا البستانُ أزهارٌ له
أو هو الكاملُ لا يشكو القُصور^(٢)
ثم صُنهُ مثلُ تذكّارِ الحبيب
أنْ تضاهيه بشمسٍ ذاكَ اليَقُ
واختبرْ ذاتك عِشْ فالعمرُ طال

ليس بالمحمودِ إلا ذو الوجود

عيشنا لولاهُ ما يعلو الوقود^(٣)

قلت كيفَ نحنُ نمضي قصدنا الحقَّ
وبعيدُ أمرٍ عن أمرنا
قلت والسُّلطانُ إمّا كانَ لك
انتظر يوماً تعرّى الكائنات
لجبالٍ ومياهٍ كيفَ ذا الشقَّ^(٤)
والزَّمانُ شَصَّه في حلقنا^(٥)
لاستطعتَ اليومَ تحطيمَ الفلّك^(٦)
والغبارُ طالَ من ذيلِ الجهات

(١) السُّدول : جمع سدل ، وهو الستر . واللام في للذات بمعنى إلى .

(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي عنده كالحكم العيني . ونقيضه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيب عن نفسه ، ويستطيع مشاهدتها .

(٣) الوقود : النار وأثقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرّق متبدد .

(٤) الحق : هو الله جل وعلا .

(٥) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

(٦) إمّا : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

الأقسل لا ترى والأكثر
قوله ﴿إلا بسلطان﴾ تذكّر
بـولادٍ أيّهـسـذا الألمعي
بولادٍ أنت قد تمضي بعيدا
ليس من ماء وطين ذا السولاذ
ذاك من جبر وذا بالاختيار
بالبكاء ذاك وذا بالابتسام
ذا مكوّن ، سيره في الكائنات
ذا لليل ولصبح حاجته
مولدٌ للطفل بطناً قد فطر
ودليل العالمين في الأذان

مولدٌ للروح حلّت جسمنا

زلزل الدنيا فماجئت حولنا

قلت لمولد معنى لا أراه
إنما دنياك غيب أو حضور
ولذات ذوبها فسي جلوة
جلوة للذات في نور الصفات
عقلها الدافع نحو الجلوة
والى العالم هذا العقل جاء

قال شأن من شؤون الحياة
ثابت هذا وللشأنى المرور
وتراها جمعت في خلوة
لكن الخلوة من نور لذات
عشقها الماضي بها للخلوة
كي يحلّ اللغز من طين وماء

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يَتَمَشَرُ لَيْلٍ وَالْإِنسَانُ إِذَا اسْتَقَرَّ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآتُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .

(٢) الولاد : الولادة . والألمعي : الذكي الحصيف .

(٣) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

كلّ جلمود له أضحى أديبا
عنه تألف ذوقاً للنظر
يزهّب السّير فيمضي كالضّرير
حيث كان العقل فوق القوّة
أمره شيئاً فشيئاً ينتظم
ما درى العشق شهوراً من سنين
ويشقّ العقل شقّاً في الجبل
ومنّ العشق جبالاً كالهشيم
إنّما العشق يبات اللّامكان
ليس يقوى العشق من ربح وماء
خيبراً نال بخبز من شعير
رأس نمرود بلا ضرب حطّم
إنّه في الرّوح ، في العين البصر
والرّماد العشق والعشق الضّررم
وهو سلطان وبرهان مبين
أمسنا والغد وهو اللّازمان
من إلّه الكون ذاتاً يطلب

ثمّ أمسى البرق والغيم الخطيبا
لا كعربيد جريء في الغرر^(١)
نملة أنت تراه إذ يسير
أمّ من يهوى وثيد الخطوة^(٢)
فمتى أمرّ له يوماً يتم
لا ولا حتّى قريباً من شطون^(٣)
أو حواليه يطوف في مهل
وقلوب كالشموك إذ تغم^(٤)
والممات دون قبر للعيان^(٥)
لا ولا من قوّة للأقوياء^(٦)
شقّ ذلك البدر المنير
جيش فرعون بلا حرب هزم^(٧)
كامن فيها وها منها انتشر
يفضلّ الدّين ومن علم أهم
وله قد عقر الكون الجبين
مادنا أو شطّ وهو اللامكان
وله الكون جواد يُزكّب

(١) العربيد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصّوفي . والغرر : التعرّض للهلاك .

(٢) أمّ : قصد . والويد : البطيء .

(٣) الشّطون : البعيد .

(٤) الشموك : الأسماك .

(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .

(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .

(٧) حطم بمعنى حطّم .

منه يبدو ما لقلبٍ من مقام
 يهْبُ العشَّاقُ ربِّاً نَفْسُهُم
 عاشقٌ أنت ؟ على اللاصوبِ أقدم
 أنت يا من أنت ميتٌ في الحفير
 لك لحنٌ مُطربٌ في المسمَعِ
 المكانَ والزَّمانَ اذْكَبْنِ
 اشْحَذِ الأذنَ واشْحَذِ عينكما
 « من بسمع منه صوتُ النملِ مرّاً
 تحرقُ النظرةُ لي كلَّ السُّتورِ

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ هَذَاكَ النَّظَرِ

فَبِهِ مَنْ كَانَ يَهْوَى قَدْ غَمَرِ

كُلُّ هَذَا الْجِسْمِ فَاضْهَرِ فِي النَّظَرِ

فَعَلَيْكَ وَعَلَيْكَ بِالنَّظَرِ^(٥)

مِنْ سَمَوَاتٍ تَخَافُ ! لَا تَخَفِ
 الزَّمانُ وَالْمَكَانُ فَلتَشَاهِذِ
 نَظَرٌ مِنْ جَلُوءِ إِمَّا سَبَقِ
 حَبَّةٌ فِي جَوْفِ طِينٍ مَظْلَمِ
 وَهِيَ لَا تَدْرِي قَرِيباً أَنَّهَا
 وَسُوءَةُ الدُّنْيَا تَخَافُ ! لَا تَخَفِ^(٦)
 فِيهِمَا حَالاً لِرُوحٍ أَنْتَ وَاجِذِ
 فَاخْتِلَافُ الْغَدِ وَالْأَمْسِ انْبِثِقِ
 لَا تَرَى غُلُوبَ الْفَضَاءِ الْأَعْظَمِ
 قَدْ تَمَدَّدُ فِي السَّمَاءِ غَصَنَهَا

(١) الصُّوب : الجهة .

(٢) الحفير : القبر .

(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .

(٤) هذا البيتُ للشاعر الفارسي جلال الدين الرُّومي .

(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .

(٦) الوسعة : الاتساع .

ولها الجوهرُ نغرقُ للنماء

ومقامٌ ، وهما أيضاً سواء^(١)

قلتُ إنّ الجسمَ للأرواحِ مخمِلٌ أبصرِ الرُّوحَ وعن جسمٍ فَمِل^(٢)
إنّما الجسمُ تعلقُ الرُّوحِ حال قولُك المحمِلُ زوراً ومحال
ما هي الرُّوحُ ؟ احتراقٌ بالوجيب وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرَّحيب^(٣)
واعتيادُ اللونِ والريحِ والجسد والمَقَامُ في الجهاتِ بالعدد^(٤)
القريبُ والبعيدُ في الضمير إنّما المعراجُ تغييرُ الشُّعور
في الشُّعورِ ذاكُ من جذبٍ وشوق خلُصنَ الذّاتُ من تحتِ وفوق

ليسَ هذا الجسمُ للرُّوحِ النّظير

والثّرابُ مانعاً من أنْ نظيراً^(٥)

« زروان » وهو روحُ الزّمانِ والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي^(٦)

دبّ في روحي فتورٌ من كلامه زئبقُ ذرّاتٍ جسمي من أمام^(٧)

(١) النماء : النمو ، يقول : إنّ الحبة هي جوهرها .

(٢) المحمِل : شقّان على البعير يُحمَل فيهما العدلان .

(٣) الوجيب : خفّقان القلب .

(٤) المقصود بتلك الجهات الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .

(٥) الثراب هنا هو مادة جسم الإنسان .

(٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمان المطلق . وعند بعض المجوس : الذين

يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنّ هذين الإلهين ظهرا

من زروان ، ويُعرفون بالزروانيّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .

(٧) يعني بقوله : إنّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَغْتَةً شَاهَدْتُ بَيْنَ الْخَافِقِينَ
مَلَكٌ يَهْبِطُ مِنْ هَذَا الْغَمَامِ
هَذِهِ كَاللَّيْلِ وَالْآخَرَى مُنِيرُهُ
فِي الْجَنَاحِ حَمْرَةٌ أَوْ صَفْرَةٌ
فِي طَبَاعٍ مِنْهُ سَرَبٌ لِلْخَيَالِ
فَتَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي سَمَاءِ
قَالَ زُرَّوَانُ أَنَا الدُّنْيَا فَهَزْتُ
كُلَّ تَسْدِيرٍ بِتَقْدِيرٍ رَأَيْتُهُ
إِنَّ بِي لِلزَّهْرِ فِي الْعُصْنِ الثَّمَاءِ
تُضْبِحُ الْحَبَّةُ إِنْ طَرَتْ الْعُصُونَا
وَأَنَا مِنْ لِي الْعِتَابُ وَالْخِطَابِ
الْحَيَاءُ وَالْمَمَاتُ وَالنُّشُورُ
فِي يَدِي الْإِنْسَانُ بَلْ كُلُّ الْمَلَائِكِ
مَا قَطَفْتُ مِنْ وَرُودٍ فَهُوَ لِي
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَسِيرٌ فِي طَلْسَمِي
« لِي مَعَ اللَّهِ » حَدِيثٌ مِنْ وَعَاهِ
إِنْ أَرَدْتُ لِي رَحِيلًا مِنْ هِنَالِكِ

السَّمَاءِ فِي غَمَامٍ كَاللَّجِينِ^(١)
طَلَعَتْهُ فِي الْبَيَاضِ وَالْقَتَامِ^(٢)
هَاهُمَا يَقْظَى وَوَسْنَى كَالضَّرِيرَةِ^(٣)
وَلَجِينُ أَزْهَرْتُهُ خُضْرَةٌ^(٤)
بَيْنَ أَرْضٍ وَنَجُومٍ فِي انْتِقَالِ^(٥)
لِجَنَاحَيْهِ جَدِيدٌ مِنْ فُضَاءِ
وَأَنَا مِنْ قَدْ ظَهَرْتُ وَاخْتَفَيْتِ
كُلَّ حَيٍّ فِي شِبَاكِي قَدْ حَمَلْتُهُ
وَلِنْتُكَ الطَّيْرُ فِي الْوَكْرِ الْغَنَاءِ
وَبِفِضْيِ الْوَضْلِ نَالَ الْعَاشِقُونَ
أُظْمِئَ الظَّامِي وَآتَى بِالشَّرَابِ
وَأَنَا النَّارُ وَجَنَاتٌ وَخُورُ
وَبَنِي عَالَمٍ مِنْ فِيهِ هَالِكُ^(٦)
أَمْ مَا لِنَظَرِيكَ يَنْجَلِي
وَتَشِبْخُ فِي زَفِيرٍ مِنْ فَعْمِي
سَرَى الْمَغْمُورُ فِي لُبْسٍ وَعَاهِ^(٧)
« لِي مَعَ اللَّهِ » اذْكُرَنَّ فِي فُؤَادِكَ

(١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الغضة .

(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقنام : السواد ، والظلام .

(٣) وسنى : نائمة .

(٤) أزهر المصباح : أضواءه .

(٥) سرب سرياً : مضى في الأرض على وجهه .

(٦) الملائك : الملائكة .

(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لِي مِنْ رُؤْيَيْهِ قَدْ نَسِيتُ عَالَمِي مِنْ قُدْرَتِهِ
عَالِماً آخَرَ أَبَدِي يَأْتِرِي أَوْ كَأَنَّ عَالَمِي قَدْ غَيَّرَا
بَيْنَ الْوَانِ وَرِيحٍ قَدْ قَضَيْتُ وَإِلَى دُنْيَا الْكَوْنِ قَدْ مَضَيْتُ^(١)
وَأَنَا عَنْ عَالَمِي هَذَا انْقَطَعْتُ عَالِماً آخَرَ إِنِّي قَدْ مَلَكَتُ
لِضِّيَاعِ عَالَمِي إِنِّي حَزِنْتُ مِنْ تُرَابِي غَيْرِهِ مَا قَدْ وَجَدْتُ
خَفْتُ جَسْمِي ، ذَاكَ رُوحِي مَا اسْتَقَرَّ وَبِقَلْبِي زَادَ نُورٌ لِلْبَصَرِ
وَالْخَفَايَا مَا عَلَيْهَا مِنْ حِجَابٍ وَالتُّجُومُ لَحْنُهَا لَحْنٌ عُجَابٍ

زَمْزَمَةُ^(٢) التُّجُومِ

عَقْلُكَ الْحَاصِلَ كَانَ لِلْحَيَاةِ لَكَ عَشَقٌ هُوَ سِرُّ الْكَائِنَاتِ
فَتَعَالَ ، أَنْتِ يَا هَذَا التُّرَابِ مَرْحَباً وَلْتَمَضِ فِي دُنْيَا الْجِهَاتِ
وَعَلَيْكَ الْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةُ الْحَسِ نَاءٌ كَانَا فِي شَدِيدٍ مِنْ نِزَاعِ
رَغْبَةٍ فِي نَظَرَةٍ مِنْكَ أَثَارَتْ مَا أَثَارَتْ مِنْ تَجَلِّيِ الْمَعْجَزَاتِ^(٣)
وَطَرِيقٌ لِلْحَبِيبِ ، كَمْ جَدِيدٍ وَجَدِيدٍ فِيهِ يَبْدُو لِلتَّجَلِّيِ
إِنَّمَا هَذَا الْحَنِينُ لِلْوَحِيدِ فِي قُلُوبِ الْعَاشِقِينَ الشَّيْقَاتِ^(٤)
الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا الصَّفَاءُ الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا النَّمَاءُ

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .

(٢) الزَمْزَمَةُ : التَّرْتُّمُ ، أَوْ التَّكَلُّمُ بِصَوْتٍ خَفِيِّ . وَقَدْ أَثَرْنَا أَنْ نَتَرْجِمَ هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ عَلَى نَسْفِهَا فِي أَصْلِهَا .

(٣) الزُّهْرَةُ : كَوَكَبٌ مَعْرُوفٌ وَقَدْ سَكَنْتِ الْهَاءَ فِيهَا لِنُضْرُورَةِ الشَّعْرِ . يَقُولُ الشَّاعِرُ : إِنَّ رَغْبَةَ الْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةَ فِي نَظَرَةٍ مِنْكَ إِلَيْهِمَا وَهُمَا الْمُتَنَافِسَانِ عَلَيْكَ ، مِمَّا أَثَارَ هَذَا التَّجَلِّيَ .

(٤) الشَّيْقُ : الْمَشْتَاقُ .

خطو سريعاً ولتَسِرْ حَتَّى الْفَنَاءِ^(١)
 مَا فَلَهُ رَجَعَ الصَّبَاحُ ، اِمْتَحَنَ
 حَمِيرًا بِحَانٍ ، جَرَّةَ الرَّاحِ اِمْتَحَنَ^(٢)
 لَدُنْ فَرَسٍ ، يَأْلِفُونَ الطَّعْمَ حَلَوًا
 مَا ، طَعِمَ هَذَا الْعَشَقِ مَرًّا ، اِمْنَحَنَ
 رَأً وَهُوَ طَامٍ فِي عُرَامٍ وَاحْتِدَامٍ^(٣)
 مَرَّ مِنْ حَدُورِ السَّهْلِ نَهْرًا ، اِمْنَحَنَ^(٤)
 لَكَ لَيْسَ إِلَّا مِنْ غُثَاءٍ ، فَاغْلَمَنَ
 مِنْ مُغْدَمٍ رَفَعَ النَّدَاءُ ، فَاغْلَمَنَ^(٥)
 عَزًّا ، وَهَذَا الْمُلْكُ لِلْإِسْكَندَرِ
 مِ اللَّهِ ، لَكِنَّ ذَاكَ سِخْرُ السَّامِرِ
 كُنَّ الْمُلُوكُ بِالْجِيُوشِ قَتْلُهُمْ
 يَبْغُونَ بِالْهَيْجَاءِ حُكْمَ الْجَائِرِ^(٦)
 نَ عَالَمَيْنِ ، وَالْأَوَامُ بُغْيَةً
 لَكِنَّ لَذَاكَ كَانَ عَنفُ الْقَاهِرِ^(٧)

الحياءُ مُلْكُ رَبِّي ، بَاعِدِ الْ
 غَزْلُ إِنَّ شَاقَ مِنْكَ النَّفْسُ يُو
 شُخْنَةَ السُّلْطَانِ يَبْدُو ثَمَّ خَد
 فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ بَلْ وَهَذَا
 مَوْلَاءُ يَطْلُبُونَ الْخُلُودَ دُونَ
 كِي يَمُورَ الْبَحْرِ بِالْأَمْوَاجِ مَوْ
 مَتَعَةً لِلسَّيْلِ يَجْرِي بِالْهَدِيدِ
 الْفَقِيرُ كَانَ نَارًا كُلُّ مُدٍ
 الْمُلُوكُ حَنْبُهُمْ فِي بَطْشِهِمْ
 إِنَّ لِلصُّوْفِيِّ عَزًّا يَالَهُ
 إِنَّ لِلصُّوْفِيِّ جَذْبًا مِنْ كُلِّ
 يُقْتَلُ الصُّوْفِيُّ بِالْعَيْنَيْنِ لَ
 ذَاكَ يَبْغِي السَّلَامَ وَالصُّلْحَ وَهُمْ
 ذَا وَذَاكَ يَالِ لَعْمَرِي يَفْتَحَا
 وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ لَيْلَى

- (١) النماء : التَّمَوُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .
 (٢) الشُّخْنَةُ : مَنْ يَقُومُ لِلْإِسْكَانِ بِضَيْطِ الْبَيْدِ . وَالْخَمِيرُ : مَنْ يُدْمِنُ شَرْبَ الْخَمْرِ . وَالرَّاحُ :
 الْخَمْرُ .
 (٣) يَمُورُ : يَضْطَرِبُ . الطَّامِي : الْمَمْتَلِيءُ الْجَائِشُ . الْعَارِمُ : الْعَنَفُ وَالشَّدَّةُ . وَالْإِسْكَانُ
 بِهَذَا الْمَعْنَى .
 (٤) الْهَدِيرُ : صَوْتُ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ . وَالْحَدُورُ : الْمَكَانُ يَنْحَدِرُ مِنْهُ .
 (٥) الْغُثَاءُ : مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنَ الْقَشِّ وَالْيَابِسِ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ . يَقُولُ : إِنَّ لِلْفَقِيرِ نَارًا
 تَحْرِقُ الْمَلِكَ قَشًّا وَصَوْتُ الْفُقَرَاءِ إِذَا ارْتَفَعَ بِالشُّكْوَى قَوْضُ مَلِكِ الْمُلُوكِ .
 (٦) الْهَيْجَاءُ : الْحَرْبُ .
 (٧) أَيُّ أَنَّ الصُّوْفِيَّ وَالْمَلِكَ كُلَّ مَنِهَا لَهْ عَالَمٌ يَفْتَحُهُ ، وَإِنْ اخْتَلَفَ هَذَانِ الْعَالَمَانِ ، وَكَيْفِيَّةُ =

فتعالَ وتقدّم ، قبضة الصوفي قدّم ، مسدّ ذي القرنين حطّم
أحي ما كان لموسى من رسو م ، ليس هذا السحر غير المين ، حطّم^(١)

= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .
(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين
الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنّه كان نبياً . وسمي ذا
القرنين لأنه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي صغيرتان ،
أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمّي ذا القرنين لقرنين
على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلمح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من
قائل : ﴿ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يُجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .

القسم الأول

فَلَاكُ الْقَمَرِ

فلک القمر

إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي وَالسَّمَاءُ الثَّرِيَّا مَا وَرَثْنَا وَالضُّيَاءُ
 كُلُّ مَا لِلنَّاطِرَيْنِ قَدْ بَدَا بَعِيُونَ لَصَفِيٍّ فَاقْصِدَا
 لَا تَسِرْ مِثْلَ الْغَرِيبِ فِي دِيَارِكَ لَا تَخَفْ مِنْ غُرْبَةٍ مَرَّتْ بِبَالِكَ
 إِنَّ مِنْكَ الْقَوْلَ كُلُّ يَمْتَثِلِ وَيَأْمُرُ أَوْ يَنْهِي قَدْ عَمِلِ
 عَالِمٌ لِلْعَيْنِ وَالْأَذِنِ الصَّنَمِ وَالرَّدَى مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا اخْتَرَمَ^(١)
 أَشْبَهَ الْمَجْنُونِ فِي وَادِي الطَّلَبِ كُنْ كإِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمٍ وَكَبُ^(٢)
 إِنَّ طَوَيْتَ الْأَرْضَ طَيًّا وَالسَّمَاءَ عَالَمِيكَ اطْوِ عَلَى حَدِّ سَوَاءِ
 غَيْرَهَا سَبْعاً مِنْ اللَّهِ أَطْلُبَنَّ كَمْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ تَسْأَلُنَّ^(٣)
 خَارِجَ الذَّاتِ بِشَطِّ الْكُوثرِ لَا تَرَى خَيْرًا وَشَرًّا يَنْبَرِي^(٤)
 لَوْ بَكَفُ الذَّاتِ عَنْ بَحْثِ أَمَانِ كَانَ هَذَا الْقَبْرِ خَيْرًا مِنْ جَنَانِ
 وَتَمُوتُ الرُّوحُ مِنْ طُولِ الْمَقَامِ
 أَيُّهَا الرَّاحِلُ ، فَاْمْضِ لِلْأَمَامِ
 وَمَعَ النَّجْمِ تَطْيِبُ سَفَرُكَ حَبَّذَا مِنْ غَيْرِ وَقَفٍ رَحْلُكَ
 حِينَ كَانَتْ فِي الْفَضَاءِ وَطَاتِي مَا عَلَا الْقَبْتُ تَخَبَتْ نَظْرَتِي

(١) اخترمه الموت : أخذه .

(٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولهه العشق حتى اختلط عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق الإلهي . ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه وحطَّم أصنامهم .

(٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرة من الأزمنة والأمكنة .

(٤) انبرى : تعرض .

هذه الغبراء قنديل الليالي وعلى رأسي ظلي قد بدا لي
واقتربت في صُعودي واقتربت وعلى البدر جبالاً قد رأيت
قولة « الرومي » : بدد كل شك وترسم ما تراه للفلك^(١)
يتعد البدر ولكن تالفه منزلاً في نهجنا ذا نعرفه^(٢)

ليله والصُّبح فيه ما يُرى

فيه غيران لأعجاب الوري^(٣)

يا لصمت ولرعب في الجبل ظهره الأخدود والجوف اشتعل
فتأمل « خافطين » و« يلدرم » والدخان فوق نار تضطرم^(٤)
ما زكا عشب يتلك الأرض قط لا ولا طير جناحاً قد بسط
الجهام ، والرياح العاصفات ناشبت حرباً لها تلك الموات^(٥)
عالم ما فيه من لون وصوت لا حياة فيه أو آثار موت
ليس في بطن له أصل الحياة لا ولا في الصلب مبرر الحاديات
وسليل لذكاء ذا الوجود لانقلاب قط ما كان الولود^(٦)
قولة : « الرومي » : تابع خطوتك وعلى ما نلت شذذ قبضتك
ما اختفى يفضل فيه ما ظهر ولدينا فيه كان المستقر
يا ذكي اللب كل ما حصل فسمعيك احتجته والمقل^(٧)
تظهر الدنيا لعين باصرة إنها الميزان وهي النساظرة

(١) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسم الدار : نظر إلى آثارها وتأملها .

(٢) المنزل : مكان النزول . والتَّهَج : الطريق .

(٣) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والوري : الناس .

(٤) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .

(٥) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .

(٦) ذكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .

(٧) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجن الشيء : جذبه إليه .

أَيْنَمَا يَخْمَلُكَ مَوْلَانَا انْطَلِقْ لَا تَفَكِّرْ فِي سِوَاهُ وَاصْطَفِقْ^(١)
 ثُمَّ شُدَّ الْكَفَّ مِنْي فِي مَهْلٍ
 وَإِلَى غَارٍ حَيْثُ قَدْ وَصَلَ

الحكيم الهندي الذي آثر الخلوة في غارٍ من غير أن القمر

ويسميه أهل الهند « صديق الناس كافة »

كضربٍ قادني هذا الرِّفِيقُ	ودخلتُ ذلك الكهفَ العميقَ
من ظلامٍ فيه ذا بدرٍ ملولٍ	تحملُ المصباحَ شمسٌ للدُّخُولِ !
وعذابي طال في وهمي وظنِّي	وكانَ الْعَقْلُ مِنْي مَاتَ عَنِّي
وَمَضَيْتُ وَاللُّصُوصُ فِي الْكَمِينِ	مَا بَقِيَ الصَّدْقُ أَوْ بَرْدُ الْيَقِينِ
جلوةٌ لاحت لعيني في جلاء	ظَهَرَ الصُّبْحُ وَلَمْ تَبْزُغْ ذُكَاءُ ^(٢)
هذه الأحجارُ عبَادُ الصَّنَمِ	أَرْضُ جَنْ نَخْلُهَا مِثْلُ الْأَكَمِ ^(٣)
كَانَ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ ذَا الْمَقَامِ	أَوْ خِيَالِي يَتَهَادَى فِي الْمَنَامِ ^(٤)
النَّسِيمُ مِثْلُ خَمِرٍ تُسَكَّرُ	وَالظَّلَالُ وَمَضَى نُورٌ تُظْهَرُ
مَا رَأَيْتُ قُبَّةً مِنْ لَازَوْرَدٍ	لَا وَلَا فِي الْأَفْقِ مِنَ الْوَاوِنِ وَرِدِ ^(٥)
مَا أَقَامَ الثُّورُ فِي أَسْرِ الظَّلَامِ	وَأَمَحَى صُبْحٌ وَلَيْلٌ مِنْ قَتَامِ ^(٦)

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفيق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذُكَاءُ : الشمس .

(٣) الأكَم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللَّازَوْرَد : حجر تشبه زرقته زرقه السماء .

(٦) الْقَتَام : السواد والظلام .

وحكيمُ الهندِ في ظلِّ جلس
جِسمَهُ الوهنانَ عَرَى كَلَّه
وعلى الإنسانِ من طينٍ مفضَّل
لا يُعَدُّ الوَقْتُ إِياماً تمرُّ
قال للروميِّ من هذا الرَّفيق ؟
عينُهُ في الكُخلِ نورٌ لِلْغَلَسِ^(١)
حيَةً بيضاءَ تسعى حَوْلَهُ
صورةُ تلكِ الدُّنَى ممَّا تَخِيلُ^(٢)
والزَّمانُ لا يَفِيدُ أو يَضُرُّ
مِنَةُ الدُّنْيَا بعينِهِ البَريق !

الرُّومِيُّ^(٣)

إنَّهُ الجَوَّالُ في وادي الطَّلَب
غِرَّةٌ مِنْهَا لهُ رَأْيٌ سَدِيد
كَأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَتْ قَوْمَ السَّمَاءِ
كَالعُقَابِ صَيْدُهُ لِلنِّيَرَيْنِ
كَلَّمَ الْأَرْضَ كَمَنْ نَشَى بَدَنَ
لِدُخَانٍ مِنْهُ نَارٌ فِي صَعُودِ
نَاخٍ كَالنَّايِ لِفِرْطِ الْاِشْتِياقِ
لست أدري السِّرَّ في صَلَصالِهِ
والمَقَامَ ، والذي في مَنْزِلِهِ
يُشْبِهُ السَّيَّارَ في السَّيْرِ اضْطَرَبَ
وعلى عَيْبٍ لهُ إِنِّي شَهِيدُ^(٤)
فِكْرُهُ يَبْغِي إلَى الْوَحْيِ انْتِمَاءُ
فِي السَّمَاءِ طَوْفُهُ بِالْخَافِقَيْنِ^(٥)
وَالْجَنَانُ عِنْدَهُ بَيْتُ الْوَثْنِ^(٦)
وَرَأَيْتُ الْكَبِيرِيَاءَ فِي سَجُودِ
وَقَتِيلٌ فِي الْوِصَالِ وَالْفِرَاقِ

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

(٤) الغِرَّةُ : الغفلة وعدم التجربة .

(٥) النِّيْرَانُ : الشمسُ ، والقمر . والخافقان : المشرق والمغرب .

(٦) نَشَى : سكر . والدَّن : جرَّة الخمر . والفرس يشبهون الحساء بالوثن أي الصنم في الحسن .

جهان دوست

ما لِرَبِّ الكونِ لونٌ ، وهوَ لون
أيُّ ربِّ أيُّ إنسانٍ وكَوْنُ ؟

الروميُّ

إنَّما الإنسانُ سَيْفٌ لِّلإلهِ ذلكَ الكَوْنُ مَنْ قَدْ تراه
شاهدَ الشَّرْقِ الإلهَ وَخَدَهُ وأشاحَ الغَرْبُ عَنْهُ خَدَهُ^(١)
أَنْ تَصرى اللهَ بعينيكِ التَّقاة أَنْ تَرى الذَّاتَ ولا سِتَرَ الحِياة^(٢)
وإنَّ العَبْدُ مِنَ الدُّنْيا انعتق رحمةَ الرَّحْمَنِ بالعَبْدِ اسْتَحَقَّ
إِنْ غَفَلَتْ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ قَدَرِ
فارقِ الصَّلَصالَ رُوحَ ذو شَرَرِ

جهان دوست

فِي طَلَسَمِ لِلوُجُودِ والعَدَمِ ذلكَ الشَّرْقُ بِسَرِّ ما أَلَمَ
ما لَنَا أَهْلَ السَّما إِلا النَّظَرُ فِي غَدٍ لِلشَّرْقِ تحقِيقُ الوَطَرِ
شاهَدَتْ عيني على رأسِ الجبلِ مَلَكاً مِنْ قُبَّةِ الزُّرقا نَزَلَ
كَانَ مِنْ عَيْنِهِ ذوقٌ لِلنَّظَرِ وهوَ بالعَيْنينِ دُنيانا عَمَرَ
قَلْتُ سَرّاً عَنْ صَفِيٍّ لا تَكُنْ أَرْضُنا كَيفَ تَراها اذْكَرَنَّ
حُسْنُ نَجمِ لاحَ فِي أَفُقٍ عَشِيقَتا فِي قَلِيبِ السَّحَرِ قَلْباً قَدْ رَمِيتا^(٣)

(١) أشاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .

(٢) التقاة : التقوى .

(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي نكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان كانا يُعلِّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنَّهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين في بئر . كما قيل : إنَّهما مثالٌ لرجل اتقى ربَّه ، واقترب منه ، ثم أضله الشيطان .

قال يَبْدُو الآنَ هذا المَشْرِقُ شَمْسُهُ الأُخْرَى عليه تُشْرِقُ
يَظْهَرُ اليَاقُوتُ من صَخِرِ الطَّرِيقِ يوسُفُ يَخْرُجُ من جُبِّ عميقٍ^(١)
ويولِّي عن ديارٍ من كَفَزٍ ليرى عن ذلك الكُفْرِ المَفَزِ^(٢)
حَبَّذا شَعْبٌ بِروحٍ قد خَفَقَ ذائِه من طِينِه هذا خُلِقَ
حاملُ العَرْشِ بأعيادٍ فَرِخِ^(٣)

إِنْ رَأَى لِلشَّعْبِ عِيْناً تَنْفَتَحُ

غاصَ شيخُ الهِنْدِ في صَمْتٍ قليلاً فرَأَني تَهْتُ في فَهْمِي مَلُولاً
قال : مَوْتُ العَقْلِ ؟ قلتُ : تَرَكُ فِكْرٍ قال : مَوْتُ القَلْبِ ؟ قلتُ : تَرَكُ ذِكْرٍ
قال : جِسمٌ ؟ قلتُ : تُزِبُّ قد تَراه قال : رُوحٌ ؟ قلتُ : رَمَزٌ لِّلإِلَهِ
قال : وَالإِنْسَانُ ؟ أبَدَى سَرِّه قلتُ : كَوْنٌ ؟ قال : وَجَّةٌ شَطْرَه^(٤)
قال : عِلْمٌ ؟ قلتُ : قَشْرٌ لا يَطِيبُ والدَّلِيلُ ؟ قلتُ : وَجَّةٌ لِلحَبِيبِ
قال : ما دِينُ العِوامِ ؟ : ما سَمِعنا قال : دِينُ العارِفِينَ ؟ : ما رَأينا

طابَ نَفْساً قَرَّ عِيْناً من مَقالي

صَفْوَةٌ من حِكْمَةِ أَلْفَى بِيالي^(٥)

(١) الجُبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثره أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم ليكون مدعين أن الذئب أكله . وجاءت قافلة ، فلما أدلوا الدلو في الجب تعلق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(٢) في الأصل إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وما جاء عنه في سورة الأنعام وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ أَخَذَ أَصْنَامًا ۖ إِلَهًا ۖ إِنَّكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٣) حامل العرش : أحد الملائكة الذين يحملون العرش .

(٤) الشطر : الجهة والناحية . وشطره منصوب على الظرفية .

(٥) صفوة الشيء : خلاصته وخياره . والبال : القلب .

تسع كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليس يُخْفِي عَالَمٌ ذَاتَ الْإِلَهِ
غَائِصاً مَا رَدَّ رَسْمٌ فِي الْمِيَاهِ

أَنْتَ إِنْ فِي غَيْرِ ذِي الدُّنْيَا وَلِذَتْ
بَشَابٍ غَيْرِ هَذَا قَدْ نَعِمْتَ

بَعْدَ مَوْتِ رَبَّنَا ، وَهُوَ الْحَيَاةُ
لَا يُحَسُّ الْعَبْدُ شَيْئاً بِالْوَفَاةِ
نَحْنُ طَيْرٌ بِجَنَاحٍ لَا تَطِيرُ
عَلَّمْنَا بِالْمَوْتِ مَقْطُوعُ النَّظِيرِ

إِنَّمَا الْوَقْتُ سَمَامٌ فِي الشَّهَادِ^(١)
رَحْمَةٌ فِي قَهْرٍ قَهَّارِ الْعِبَادِ
وَيَلُوحُ قَهْرُهُ فِي كُلِّ صَوْبٍ
رَحْمَةٌ فِيهِ مَضَتْ مِنْ غَيْرِ أَوْبٍ

إِنَّمَا الْمَوْتُ كَفُورٌ يَا حَكِيمَ

(١) السَّمَامُ وَالشَّهَادُ : جَمْعُ سَمٍّ وَشَهْدٍ .

أَنْتَ إِنْ جَاهَدْتَ أَمْوَاتاً مُلِيمًا^(١)
 وَمَعَ النَّفْسِ التَّقَى فِي قِتَالِ
 بِأَلِهِ اللَّيْثُ الْهَضُورُ وَالْغَزَالُ^(٢)

كَافِرٌ صَاحِي الْفَوَادِ ذُو صَنَمٍ
 يَفْضُلُ الْمُؤْمِنَ نَامًا فِي الْحَرَمِ

عَمِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْ غَيْرَ السَّدَادِ
 لَا تَرَى الشَّنْفَ اللَّيَالِي فِي سَوَادِ
 صَحْبَةٍ لِلْحَبِّ وَالطَّيْنِ النَّمَاءِ
 صَحْبَةُ الْإِنْسَانِ وَالطَّيْنِ الشَّقَاءِ
 يَرْضَى الْحَبُّ مِنَ الطَّيْنِ الْعَذَابِ
 لِيَرَى النُّورَ كَتَبَرٍ فِي أَنْكَابِ
 قَدْ سَأَلْتُ الْوَرْدَ ذَا الصُّدْرِ الْجَرِيحِ
 أَيُّ حَسَنِ لَكَ مِنْ طِينٍ وَرِيحٍ ؟
 فَأَجَابَ : يَا حَكِيمًا مَا شَعَزَ
 بِخُمُودِ الْبَرْقِ هَلْ يَأْتِي الْخَبَزُ !
 رَوْحُنَا فِي الْجِسْمِ جَذْبٌ وَأَنْجَذَابِ
 مِنْكَ مَا يَخْفَى لَدَيْنَا كَالسَّرَابِ^(٣)

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : المعلوم .

(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .

(٣) يقول : إِنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي
 أما جذبنا فظاهر .

تَجَلَّى سُروش^(١)

أوصد العارف باباً للكلام
إنَّه بالشَّوقِ والسَّوْقِ انجَذَبَ
بالحضورِ مِنْهُ ذراتُ كطور
في أساطير الليالي غائبة
شعرُها المِغْطَارُ حتَّى خَضِرَها
وهي في سُكْرِ التَّجَلِّي أغرقت
ولديها دارُ مصباحِ الخيال
فيه تبدو كلُّ ألوانِ الشُّكُول
قلتُ للزُّومِي بالسِّرِّ العليم
قال : « ذا الجسمُ لُجَيْنٌ يَلْمَعُ
ثُمَّ حَنُّ الشَّوْقِ فيه لِلظُّهور
ومن الغُربةِ كان ذا نَصِيبِ

أُسْكِرْتُهُ الذَّاتُ لا تِلْكَ المُدام
في وجودٍ من شهودٍ قد وَقَبُ^(٢)
أو فلا نورٍ ولا حتَّى ظُهور^(٣)
كوكبُ مِنْهُ الظَّلامُ حَالِيَّة^(٤)
والشُّهوبُ نورُها مِنْ نُورِها^(٥)
وتَغَنَّتْ ما بكأسِ أُسْكِرْتِ
فلكأُ كم دَارَ في الدَّهرِ الطُّوالِ^(٦)
نَمِرٌ يَفْرِسُ أو صَقْرٌ يَجُولُ^(٧)
اكشفِ الأسرارَ ، لي فهمٌ سقيم
وهو في فكرِ الإله يَنْبُعُ
فاتى الدُّنيا خَلَّتْ مِنْ كُلِّ نُورٍ
كلُّنا يا صاحٍ في الدُّنيا غَرِيبُ^(٨)

(١) سروش : اسمُ ملكٍ في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتق من : سراوشا ، بمعنى السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواح في الآخرة .

(٢) وقب : دخل .

(٣) الطور : الجبل .

(٤) الغائبة : المرأة التي يغيبها حسنُها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلي .

(٥) المِغْطَارُ : من تعود أن يتعمَّد نفسه بالعطر . والشُّهوب : جمع سَهْب ، وهو السَّهْلُ المنبسط .

(٦) مصباح الخيال : مصباحٌ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباحٌ يُدار حوله ستار فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .

(٧) الشُّكُول : جمع شكل . وفرس النمر : افترس .

(٨) يا صاحٍ : بمعنى يا صاحبي .

عرفوه بِسُروش ، كالملائك أبعدَ الحسنَ وقد أدنى كذلك
 فتحَ البرعوم منّا بالنّدى وبأنفاسٍ رماداً أوقداً^(١)
 منه الحانٌ لأوتارِ القريض وشقوقُ السّترِ بالبيتِ الأريض^(٢)
 ثمَّ غَنَّى فَشَهِدْتُ عالِماً
 أَسْمَعُ الألحانَ جمرأَ مُضَرَّماً

لحنُ سُروش

أخشى عليك ركوبَ بحرٍ من سَراب
 وكما وَلِدْتَ العُمرَ تطوي في الحجاب^(٣)
 لِلْفَخْرِ كحلٌّ عن جفوني أغسله
 فأرى مصيرَ الشَّغْبِ في هذا الكتاب^(٤)
 في كلِّ صَوْبٍ انطواءٌ لاح لي
 لِلْبُزُقِ كَانَ الموتُ في جوفِ السَّحاب
 في الغَرْبِ كُنْتُ وَقَلَمًا عيني رأيت
 مَنْ كَانَ ذا لحنٍ تجافى عن حِسَاب
 دُنْيَاكَ فامْلِكْ إِنْ أَرَدْتَ الْقُرْبَ لَكَ
 الروضَ خُذْ يَا عطّره في الماءِ ذاب^(٥)

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تتفتح .

(٢) الستر هنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .

(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعده عجباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .

(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .

(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من ماثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر =

مَا أَنْتَ إِلَّا لِلْفَنَاءِ بِأَزَاهِدَا
 أَنْسَيْتَ طُوفَانَا تَوَارَى فِي الْحَبَابِ^(١)
 اللَّحْنَ تَسْمَعُ مَا تَرَى مِنْ مُطَرِّبِ
 حُورِيَّةٍ قَدْ غُرِبَتْ تُبْكِي الرِّبَابِ

الرحيل إلى وادي يرغميد المسمَّى عند الملائكة وادي الطواسين^(٢)

قَوْلُهُ لِلطَّامِنِينَ السَّلَسِيلِ	إِنَّمَا الرُّومِيُّ لِلْعَشَقِ الدَّلِيلِ
قَوْلُ « اللَّهُ هُوَ » حَبَاهَا حَزَّ جَمْرٍ ^(٣)	قَالَ : « إِنَّ النَّارَ إِنْ كَانَتْ بِشَعْرِ
كَانَ لَأَفْلَاكِ مِنْهَا نَفْضَةٌ	نَغْمَةٌ مِنْهَا الْهَشِيمُ رَوْضَةٌ
وَبِهَا الْمُلْكُ الْفَقِيرُ وَاجِدٌ	وَعَلَى الْحَقِّ الْعَلِيِّ شَاهِدٌ
ثُمَّ يَصْحُو الْقَلْبُ كَالرُّوحِ الْأَمِينِ ^(٤)	وَبِهَا دَفَنُ الدِّمَاءِ فِي الْوَتِينِ
سَارِقُ الْقَلْبِ وَإِبْلِيسُ النَّظَرِ	نَازِمُ الْأَشْعَارِ بِالسَّخْرِ اشْتَهَزَ
رُوحُهُ مِنْ سِخْرِ قَوْلٍ جَرَّدَهُ	شَاعِرُ الْهِنْدِ الْإِلَهَ أَيْدَهُ
وَضُرُوبَ الْكُفْرِ حَتَّى الْأَنْقِيَاءِ ^(٥)	عَلَّمُوا الشُّغْرَ أَفَانِينَ الْغِنَاءِ

= فِي مَاءِ الْوَرْدِ .

(١) الْحَبَابُ : الْفَقَاقِيعُ الَّتِي تَعْلُو الْمَاءَ وَالشَّرَابَ .

(٢) الطَّوَّاسِينُ : جَمْعُ ط . س ، وَهُمَا حُرَفَانِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ قُرْآنِيَّةٍ ، وَهِيَ : التَّمَلُّ ، وَالشَّعْرَاءُ ، وَالْقَصَصُ . وَلِلْحَلَّاجِ كِتَابُ الطَّوَّاسِينِ . وَقَدْ جَعَلَ إِقْبَالَ هَذَا الْأَسْمِ اسْمًا لِلْمَكَانِ الَّذِي تَتَجَلَّى فِيهِ صِفَاتُ الْأَنْبِيَاءِ .

(٣) حَبَاهُ : حَبَا فَلَانًا كَذَا وَيَكْذَا : أَعْطَاهُ .

(٤) الْوَتِينُ : عَرَقُ فِي الْقَلْبِ . وَالرُّوحُ الْأَمِينُ : جِبْرِيلُ .

(٥) الْأَفَانِينَ : الْأَسَالِيبُ وَالْأَجْنَاسُ . وَالضُّرُوبُ : الْأَنْوَاعُ وَالْأَشْكَالُ .

لفظهم ما فيه شيء من ألم إن خيراً من لحون أفسدت
يبحث الشاعر طوعاً بالسليقة ليس إلا القلب في صدر الشعوب
نقش الشكر وناز عالما

في الأنام يُخلق الروح السيوا

ورث الشاعر من ثم النبيا

قلت : هات القول في تلك النبوة قال : « أقوام لها آياتها
الصخور أنطق أنفاسها أصلنا في العنق منا طهرت
إنها صوت دوي في الكائنات ما لشمس أطلعتها من زوال
رحمة الله نراها قولاً إن عقل الكل حتى إن ملكته
يرغميد امض وأسرغ في السرى

في جدار من صخور بالقمر

للطواسين أطل منك النظر

يعرف الشوق الطريق لا الدليل ويطنر بجناح جبرئيل

(١) أضغت الرؤيا : أتى بها ملتبسة .

(٢) الحطيب : الكثير الحطب .

(٣) الروح : جبريل .

(٤) في الأصل : أن سورة النجم ، والنور ، والنزاعات من شفة النبوة .

(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .

(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

الْبَعِيدُ عِنْدَهُ كَالْخُطَوَتَيْنِ فِي الْمَقَامِ يَشْتَكِي مَنْ فَرَطَ أَيْنَ^(١)
 مِثْلُ نَشْوَانٍ قَصَدْتُ ذَا الْجَبَلِ وَرَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ مِنْ قُلُلٍ^(٢)
 أَيُّ قَوْلٍ لِي؟ وَمَا وَضَفِي لَهُ؟ هَذِهِ الْأَنْجُمُ طَافَتْ حَوْلَهُ
 عِنْدَ أَهْلِ الْفَرَشِ ضَاءٌ فِي الضَّمِيرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرْشِ فِي الْجَفْنِ الْبَصِيرِ
 عَيْنَا وَالْقَلْبَ رَبُّ قَدْ حَبَانَا لَا كُتْنَاهُ السَّرَّ فِي الدُّنْيَا هَدَانَا
 سَرَّ دُنْيَانَا سَأْبِدِي مَنْ سُدِلَ^(٣)
 وَحَدِيثِي عَنْ طَوَاسِينِ الرُّسُلِ

طَاسِينِ جَوْتَامَا بُودَا^(٤) نَوْبَةُ الرَّاقِصَةِ اللَّعُوبِ

جَوْتَامَا

الشَّمُولُ وَالْحَيِيبُ ، لَيْسَ شَيْئَا^(٥)
 بَلْ وَحَوْرٌ فِي الْجَنَانِ ، لَيْسَ شَيْئَا
 كُلُّ مَا أَنْتَ تَرَاهُ سَوْفَ يَفْنَى

-
- (١) فرط الأين : شدة التعب .
 (٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .
 (٣) السُّدِلُ : السُّرُّ .
 (٤) التزمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة ترد في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافية موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .
 (٥) الشَّمُول : الخمر .

الْفَلا وَالشَّاطِئَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً^(١)
 عَلَّمَ غَرْبٌ حَكْمَةً لِلْمَشْرِيقِ
 مَعْبُدٌ وَالطَّائِفَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً^(٢)
 ذَاتَكَ اذْكُرْ وَاَمْضِ وَاغْبُزْ
 أَنْتَ هَذَا ، الْعَالَمَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً
 هُذَبَ عَيْنِي لِي طَرِيقاً شُقُّهَا
 كُلُّ مَا فِيهَا عِرَانِي ، لَيْسَ شَيْئاً
 دَعَاكَ مَنْ غِيبَ فَمَا وَهَمُ شَيْءٍ
 لَا تَكُونُ أَوْ تَكُونُ ، ذَاكَ شَيْءٌ^(٣)
 لَا تَكُونُ جَنَّةٌ كَالْجَنَّةِ
 لَوْ أَمَلِ الْجِنَانِ ، ذَاكَ شَيْءٌ^(٤)
 رَاحَةَ الرُّوحِ طَلَبْتَ ، مَا تَسَاوَى !
 فِي حَبِيبٍ دَمَعْتَانِ ، ذَاكَ شَيْءٌ
 نَظَرَةٌ وَالْعَيْنُ سَكْرَتِي وَالتَّغْنِي
 يَا لِهَذَا مِنْ حُسَانٍ ، مِنْهُ شَيْءٌ^(٥)
 كَانَ خَيْرًا فِي الْمَعَانِي ، ذَاكَ شَيْءٌ

-
- (١) الْفَلا : جميع فلاة وهي الصحراء الواسعة .
 (٢) ذَكَرْنَا الطَّائِفَ بِالْمَعْبُدِ فِي الْمَثْنَى مَعَ إِرَادَةِ الْجَمْعِ (الْمُرْجَم) .
 (٣) كَانَ هُنَا تَامَةً .
 (٤) يَرِيدُ الشَّاعِرُ لِيَقُولَ : إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مَاوِيً لِلْمُتَّقِينَ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى عَمَلِ الصَّالِحَاتِ .
 (٥) الْحُسَانُ : الْحَسَنُ .

الراقصة

لا تَزِدْ أَحْزَانَ قَلْبِي مَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارٍ
 زِدْ جَمَالَ الشُّعْرِ ثَنِيًّا ، يَا لَهُ لَيْلُ السَّرَارِ^(١)
 فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ مِنِّي ، مِنْكَ أَنْوَارُ التَّجَلِّي
 فَأَذَقْتُ الشَّمْسَ وَالْبَذْرَ مَرِيرَ الْإِنْتِظَارِ
 إِنَّ ذَوَاقَ الْحُضُورِ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ عِشْقًا
 يَخْدَعُ الْعِشْقُ فُؤَادًا مِنْ مَنَاهُ فِي الْخُمَارِ^(٢)
 فِي صَفَاءٍ إِنَّ تَرَنَّمْتُ بِلَحْنٍ لِي جَدِيدٍ
 عَادَ طَيْرُ اللَّيْزِ عَوْدَ مَشْنَقِ الدُّيَارِ
 طَبْعِي السَّامِي وَهَبَتْ حُلَّ عَنْ سَاقِي قِيُودِي
 خِرْقَةً هَبَنِي لِتَحْظِيَ بِقَشِيبٍ مِنْ إِزَارِ^(٣)
 أَيُّ مَعْنَى لِلْكَلامِ ؟ وَالصُّخُورُ تَخْتَفِئُ فَأَسْ
 يَحْمِلُ الْعِشْقُ الْجِبَالَ ثُمَّ يَمْضِي فِي انْحِدَارِ^(٤)

طاسين زرادشت^(٥)

أهرمن يختبر زرادشت

مَا خَلَقْتُ مِنْكَ نَايَاتِ الْبُكَاءِ وَرَبِيعِي مِثْلُ شَهْرِ فِي الشِّتَاءِ^(٦)

(١) الثني : كلُّ شيءٍ بعضه على بعض . وليلةُ السَّرَارِ : آخر ليلة في الشهر .

(٢) الخمار : الصُّدَاعُ مِنْ شِدَّةِ الشُّكْرِ .

(٣) الخرقه : ثوب الزاهد . والقشيبُ : الجديد . والإزارُ : الملحفة وكل ما يستر .

(٤) يمضي في انحدار : أن يمضي في سرعة وخفة .

(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر

يسمى أهرمن . وجاء قومه بكتاب يسمى : الأَبَسْتاق .

(٦) النايات : جمع ناي .

أنا في الدنيا أعاني صَوْلَتِكَ بدمائي قد رَسَمْتَ صُورَتَكَ
 إِنَّ مِنْ سِينَاكَ لِلْحَقِّ الْحَيَاةَ
 واليَدُ الْبَيْضَاءُ لِي مِنْهَا الْمَمَاتُ^(١)

أَخَذَ بِالْعَهْدِ مِنْ رَبِّ خَيْلٍ ضَلَّ مِنْ وَفَقَ هَوَى نَفْسٍ عَمِلَ^(٢)
 وَمِزَاجُ الرِّيحِ فِي الْكَاسَاتِ مَمٍّ وَلَهُ الْمِنْشَارُ وَالْدُّودُ النَّعَمُ^(٣)
 إِنَّ نُوحًا لَمْ يَجِدْ غَيْرَ الدُّعَاءِ وَالِدُّعَاءُ كَانَ يَخْلُوا مِنْ غِنَاءِ^(٤)
 اعْتَزَلَ فِي الْغَارِ وَازْحَلَ عَنْ دِيَارِ نَحْوِ أَهْلِ الثُّورِ عَنْ مَخْضِ اخْتِيَارِ
 وَبَعِينَ اجْعَلِ الثَّرْبَ الذَّهَبَ وَيَنْجُواكَ السَّمَاءُ مِنْ لَهَبٍ^(٥)
 كَالْكَلِيمِ فِي الْجِبَالِ كُنْ شَرِيدَا وَاخْتَرِقْ مِمَّا رَأَتْ عَيْنٌ بَعِيدَا^(٦)
 وَتَنَاسَ شَيْمَةً لِلْأَنْبِيَاءِ دَعَاكَ مِنْ فَرْطِ الذِّكَاةِ وَالذَّهَاءِ
 بَيْنَ مَنْ هَانُوا تَهُونُ الْفِطْرَةِ وَالرَّمَادِ فِي الرِّيحِ الْجَمْرَةِ
 الْوَلِيِّ إِنْ شَأَى يَوْمًا نَبِيًّا لِلْهَوَى كَانَ النَّبِيُّ دَاءً عَصِيًّا^(٧)

قُمْ وَفِي عَشِّ انْفِرَادٍ عُزْلَتِكَ
 وَلَتَدْعُ هَذَا التَّجَلِّيَ خَلُوتِكَ

(١) يَلْمُحُ إِلَى طُورِ سِينَاءَ ، وَإِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَّجَ يَيْمَنَّهُ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٢) الْخَيْلُ : الْمَخْبُولُ الَّذِي اخْتَلَطَ عَقْلُهُ .

(٣) الْإِشَارَةُ إِلَى تَعْذِيبِ زَكَرِيَّا بِالْمِنْشَارِ ، وَأَيُّوبَ بِالدُّودِ .

(٤) الْغِنَاءُ : الْكَفَايَةُ .

(٥) الثَّرْبُ : التُّرَابُ ، وَالنَّجْوَى : الْمَسَاوِةُ .

(٦) يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلُ مِنْهَا نَعْلَمُ أَوْ آيَةٌ عَلَى الْنَّارِ هَدًى ﴾ [طه : ٩ و ١٠] .

(٧) شَأَى : سَبَقَ وَكَانَ أَفْضَلَ . وَالذَّاءُ الْعَصِي : هُوَ الَّذِي لَا شِفَاءَ لَهُ .

زرادشت

الضِّيَاءُ الْبَخْرُ وَالشُّطُّ الظُّلُمُ مَا حَوَّثَ سَيْلًا كَمَثَلِي وَازْتَطَمُ^(١)
 فِي فَوَادِي الْمَوْجِ دُفَاعٌ يَمُورُ إِنَّمَا السَّيْلُ عَلَى شَطِّ يَغْيُرُ^(٢)
 صُورَةٌ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ طِلَاءٍ وَإِلَهُ الشَّرِّ رَسَامُ الدِّمَاءِ^(٣)

أظهرِ الذَّاتَ ، فهاتيكِ الحياه

واختبارُ المرءِ ما أدَّتْ يدها

يُنْضِجُ الذَّاتُ التَّرْدِي فِي الْبَلَاءِ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ قَدْ تَمَحَوَ الْحَقَاءُ
 رَجُلٌ لَّهِ رَأْيٌ بِاللَّهِ ذَاتَهُ فِي دِمَاءِ خَرَّ كِي يُنْهِي حَيَاتَهُ
 بِالْذِّمَاءِ الْعِشْقُ يَسْمُو وَيَسُودُ وَلَهُ الْعِيدَانُ مَنْشَارٌ وَعُودُ^(٤)

ففي سبيلِ الله ما يجري يطيب

مرحباً بالصَّدِّ إِنَّ صَدَّ الْحَيِّبِ

لَا تَرَى عَيْنِي التَّجَلِّي وَخَدَهَا تَزْمُقُ الْحُسْنَ عَيُونٌ حَوْلَهَا^(٥)
 خَلْوَةُ الْإِنْسَانِ ؟ وَجَدُ سَعْرَا إِنَّهَا الْبَحْثُ ، وَجَمْعٌ قَدْ يُرَى
 خَلْوَةٌ فِي الْعِشْقِ مِنْ شَأْنِ الْكَلِيمِ إِنْ تَجَلَّى كَانَ كَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ^(٦)
 خَلْوَةٌ أَوْ جَلْوَةٌ فِي الْقَلْبِ وَقَدْ وَمَقَامٌ أَوْ هَمَا حَالٌ وَوَجْدُ^(٧)
 وَيَلْسُوحُ فِيهِمَا الرَّحْمَنُ آيَةً بَدَأَ الْأُولَى وَذِي الْآخِرَى نَهَايَةً

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفَاعُ : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إِنَّ « أهرمن » إله الشر رسمها بالذِّمَاءِ .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكلیم : موسى عليه السلام .

(٧) الْوَقْدُ : النار .

النُّبُوءَاتُ ، كَمَا قُلْتِ ، الْمَلَلُ ، يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ عَشَقٌ إِنْ كَمُلَ
 حَبْذَا رَكُوبٌ وَلِلَّهِ الْمَسِيرُ^(١)
 وَبِسَدْنِيَانَا كَأَرْوَاحٍ نَطِيرُ

طاسين المسيح (رؤيا تولستوي الحكيم)

شَامِعٌ قَدْ ضَمَّ أَنْوَاعَ الْمَمَاتِ	فِيهِ وَإِذَا مَا بِهِ رَفَّ النَّبَاتِ ^(٢)
فِيهِ نَوْرُ الْبَذْرِ قَارٌّ مِنْ غُبَارِ	بِسْمَاءِ الشَّمْسِ ظَمَائِي فَوْقَ نَارِ
وَالْغَدِيرُ زُبُقٌ قَدْ قَارَ فَوْرَهُ	وَهُوَ يَجْرِي دَافِقًا مِثْلَ الْمَجْرَةِ ^(٣)
لَا ارْتِفَاعَ لَا انْخِفَاضَ فِي الطَّرِيقِ	زَاخِرٌ طَامٍ وَذُو مَوْجٍ حَنِيقٍ ^(٤)
صَاحٌ شَابٌّ قَدْ حَوَاهُ الزُّبُقُ	جَازِعًا وَهُوَ يَكَاذُ يَفْرِقُ
مِنْهُ ذَاكَ الْغَيْمُ مَا إِنْ يَقْرُبُ	ظَامِيٌّ ، مِنْ زُبُقٍ هَلْ يَشْرَبُ أ
وَعَلَى الشُّطِّ رَأَيْتُ غَايِنَةً	لِحَظْهَا يَأْسِرُ الْفَ سَارِيَةً ^(٥)
عَلَّمْتُ مِنْ سِخْرِهَا الْعِبَادَ كُفْرًا	شَرُّهَا الْخَيْرُ وَكَانَ الْخَيْرُ شَرًّا
يَا تَرَى مِنْ أَنْتِ قُلْتُ فَلْتَجِيبِي	مَا بُكَاءُ بِلْ وَمَوْصُولُ النَّحِيبِ
« إِنْ فِي عَيْنِي سِخْرُ السَّامِرِي	وَاسْمِي أَفْرَنْكِينَ وَاسْمُ السَّاحِرِ ^(٦)

(١) الرُّكْب : رَكْبَانِ الْخَيْلِ ، أَوْ الْإِبِلِ .

(٢) الشَّامِعُ : الْمُرَادُ بِهِ الْجَبَلُ . وَرَفَّ النَّبَاتُ : اهْتَرَّتْ نَضَارَةٌ .

(٣) الْغَدِيرُ : النَّهْرُ . وَالْمَجْرَةُ : مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ تُشَبِّهُ النَّهْرَ .

(٤) الظَّامِي : الْمَمْتَلِي . وَالْحَنِيقُ : الشَّدِيدُ الْغَضَبِ .

(٥) الْغَايِنَةُ : الْحَسَنَاءُ . وَالسَّارِيَةُ : الْجَمَاعَةُ .

(٦) أَفْرَنْكِينَ : مِنْ فَرَنْكِي فِي الْفَارْسِيَّةِ بِمَعْنَى الْإِفْرَنْجِي فِي الْعَرَبِيَّةِ . وَإِقْبَالُ يَجْسُدُ التَّفَرُّجِ عَلَى أَنَّهُ أَفْسَدُ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُولَى . أَمَّا الْإِنْسَانُ الْمَغْمُورُ فِي مَاءِ النَّهْرِ فَهُوَ رَمَزٌ إِلَى الْخَائِنِ =

الجليدُ فجأةً كانَ الغدير
 رَدَدَ الشَّكْوَى وَمِنْ قَلْبٍ وَجَعُ
 قالت افرنكين « فَكَّرَ فِكْرَةً
 إِنَّمَا عَيْسَى سَرَّاجُ الْكَائِنَاتِ
 أَذْكَرَنَّ بِيْلَاطُوسَ الْمَمْتَقِعِ
 لَذَّةَ الْإِيمَانِ فِي رُوحٍ حُرِمْتَ
 مَا عَرَفْتَ الْوَحْيَ وَالْجِسْمَ اشْتَرَيْتَ
 وَلِذَا فَالْرُوحُ أَمْوَالٌ فَقَذَتْ »

وَمِنْ الْحَسَنَاءِ تَجْرِيحُ الْمَلَامِ
 قَالَ : « مَنْ خَدَعَكَ ، فَالزُّورُ الْجَلِي
 ذُلُّ عَقْلٍ ذُلُّ دِينَ مِنْ فُسُوقِكَ
 الْوُدَادُ مِنْكَ ضُرٌّ خَفِيَّةٌ
 أَنْتَ بِالْمَاءِ وَبِالطَّيْنِ عَقَذْتَ
 حِكْمَةُ الْإِنْسَانِ حَلَّتْ مُشْكَلاتُ
 مَا لَدَى الْمُتَصِفِ قَطُّ أَيُّ رَيْبِ
 الْمَسِيحُ اسْكَنْ الرُّوحَ الْبَدَنُ
 كَانَ فِي قَلْبِ الْفَتَى حَزُّ الْحُسَامِ
 بَاعَ شَيْخٌ أُمَّةً أَوْ بَزْهَمِي
 هَانَ حَتَّى الْعَشْقُ مِنْ سَوْمٍ بِسُوقِكَ^(٦)
 مِنْكَ هَذَا الْحَقْدُ مَوْتُ بَغْتَةٍ
 صَلَاةٌ ، وَالْعَبْدُ مِنْ رَبِّ سَلَبَتْ
 وَبِهَا چَنگیزُ صِرَتْ فِي غَزَاةٍ
 فِي ذُنُوبٍ لَكَ فَاقَتْ كُلَّ ذَنْبِ
 أَنْتَ مَنْ أَدْرَجْتَ مَيْتاً فِي الْكَفَنِ^(٧)

= الذي خَانَ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(١) الْكَسِيرُ : الْمُحْطَمُ .

(٢) وَجَعٌ : بِمَعْنَى تَأَلَّمَ ، وَتَرَضَّ .

(٣) اللَّمَّاحُ : الْمُتَلَالِي . يَقُولُ : إِنَّ نَوْرَهُ يَغْمُرُ الْعَالَمِينَ .

(٤) بِيْلَاطُوسُ : هُوَ مَنْ يَعْتَقِدُ الْمَسِيحِيَّونَ أَنَّهُ الْقَاتِلُ لِنَبِيِّ بَرِيءٍ مِنْ دَمِ الْمَسِيحِ .

(٥) اللَّجِينُ : الْفُضَّةُ .

(٦) الْفُسُوقُ : تَرَكَ أَمْرَ اللَّهِ وَعَصِيَانَهُ . السَّوْمُ : مِنْ سَامِ السَّلْعَةِ ، أَيُّ : عَرْضُهَا وَذِكْرُ

ثَمَنِهَا ، فَكَانَ الْمُنَافِقِينَ يَتَّخِذُونَ الدِّينَ سَلْعَةً لِتِجَارَتِهِمْ .

(٧) يَرِيدُ لِيَقُولَ : إِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْيَا الْمَوْتَى .

ما صنعنا كان من ناسوتِهِ كان ما للقوم من لاهوتِهِ
 بمماتٍ لك نحيًا قاطبةً
 لا تموتي ، لتري ما العاقبة ،^(١)

طاسن محمد (ﷺ) (نياحة أبي جهل في حرم الكعبة)

زارث روح عمرو بن هشام - زعيمُ الجاهلية والنخوة العربية - مكة ، وقد أصبحت بلدُ الإسلام والتوحيد ، وطُهرَ بيتُ الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحُرِّمت عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة^(٢) ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمسَ مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله » .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبحَ الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، فلا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وسمعَ الناسُ يتلون : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسب ، ووطنيٍّ أو شعبيٍّ ، وطاق في الناس ، فلم ير أحدًا يعيرُ أحدًا بأُمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتناول بعربيته ، أو قرشيته ،

(١) قاطبةً : جميعاً .

(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي .

وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلةً في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبد أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتقون حوله ، ويصُدُّون عن رايه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعةً قوميةً ، يتعلّق بها سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أنّ الحياة القديمة قد نُسخَتْ وأبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساس من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيّرت الموازين والقيم ، وتغيّرت عقولُ الناس ونفوسُهم ، وسُمِعَ يُنشدُ في حزنٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاسِ الذي عهدتُهم ولا الدَّارُ بالدَّارِ التي كُنْتُ أعْرِفُ
لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحنُ فيه ضعفاء المسلمين : لأنكر مكّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والضررَ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدَّم والعرق ، ويرى العالمَ كلّهُ في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلّهُ في العرب ، فغيرُهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقُّون مدحاً ،

ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلاً ، لقد كان يرى كل ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسة في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فِراسة في معرفة غايات الإسلام ، ولكنه على بعد نظره وذكاؤه ، لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهلية تُطرد من عاصمتها ومهداها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورثي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوح ، ويقول : « إِنَّ قُلُوبَنَا - معشر الجاهليين - قروحٌ وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة ، وحطَّ من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتِنُوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنَّه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللَّات ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبود مشهور يُرى ويُلَمَس ، وربطها بمعبود غير مشهود لا يُرى ولا يُلمَس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يُرى وجود ؟

أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة سجود لغائب ؟ هل يجذ الإنسان للذة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب ؟ ١٩ .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنه لا يفضل حراً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج

والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم بالثلثيم ، والجميل بالذميم ، وذلك العرب ، وذلك بنو قصي .

إننا لا نشك في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي بحث عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي ، وقد تحقق لدينا أنَّ سلمان مزدكي ، وأنَّ ابن عبد الله خُدرع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتي الهاشمي قيمته وشرفه ، لقد أصمته هذه الصلاة التي يصلِّيها ، هل لعجمي أصل عدناني ، وهل لأعجمي نطق عربي ولهجة مصرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمد وحياً ، بكلامكم البليغ السَّاحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بينك من هؤلاء الضُّبابة ، أغرَّ عليهم ، وعكَّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجازاً نخلي خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرحيل ، فلا تعجَّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما ^(١) .

واليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرنا ناراً تَلَطَّتْ مِنْ مُحَمَّد	فسراج الكعبة الوضاء أحمَد
وَبِهْلُكِ الرُّومِ أَوْ كَسْرِي تَغْنَى	سَلَبَ الْفَتِيانَ طُرّاً مِنْ يَدَيْنَا
ساحرٌ والقولُ منه ساحرٌ	ويقولُ « لا إله » كافرٌ !
ويساطُ ديسنِ آباء طَوَى	وأذاقَ ما عبدناه التَّوى ^(٢)
حَطَّمِ اللَّاتَ فَكَانَتْ كَالْفُتَات	مِنْهُ فَلتَقْصِرْ كُلَّ الْكَائِنَات ^(٣)

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، صفحة ١٦٩ - ١٧٤ .

(٢) التَّوى : الهلاك .

(٣) الفتات : كسرة الشيء بعد أن يتفتت .

ناطَ مِنْهُ الْقَلْبُ بِالْغَيْبِ الْكَئِينِ وَمَا الْحَاضِرُ بِالسَّخِرِ الْمُبِينِ^(١)
وَيَعِيبُ الْمَرْءَ لِلْغَيْبِ النَّظَرُ أَيْنَ شَيْءٌ لَيْسَ يَبْدُو لِلْبَصَرِ^(٢)
الضَّرِيرُ مَنْ لَغَيْبٍ يَسْجُدُ يَا لِهَذَا الدِّينِ أَعْمَى يُتَعَدُّ
مَا الشُّجُودُ وَلِرَبِّ لَا يُحَدِّدُ
الصَّلَاةُ مَا ارْتَضَاهَا قَطُّ عَبْدٌ !

فِي فَرِيضٍ بَتَّ أَصْلًا لِلنَّسَبِ يَا لَدِينٍ مَنَكْرٌ فَضَّلَ الْعَرَبُ^(٣)
الْوَضِيعُ كَالرَّفِيعِ عِنْدَهُ لِلْخَوَانِ فَهَوَ يَدْعُو عَبْدَهُ^(٤)
مَا دَرَى فَضْلًا لِأَحْرَارِ الْعَرَبِ وَدَّ أَحْبَاشٍ غِلَظٍ قَدْ خَطَبَ^(٥)
وَلَحْمِ الْقَوْمِ بِالشُّودِ اجْتِمَاعُ يَا لِعَمْرِي عَرْثًا هَذَا مُضَاغُ
الْمَسَاوَاةُ أَرَاهَا أَعْجَمِيَّةَ دَانَ سَلْمَانَ بَدِينِ الْمَزْدَكِيَّةِ^(٦)
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَخْدُوعٌ بِهِ فَأَذَاقَ الْعُرْبَ مِنْ تَخْرِيهِ
وَبَنِي هَاشِمٍ جَافَى قَوْمُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي ظِلَامٍ عَيْنُهُمْ !
أَيْنَ مِنْ عَدْنَانَ أَصْلُ الْأَعْجَمِيِّ أَيْنَ مِنْ سَخْبَانَ صَنْتُ الْأَنْكَمِ^(٧)
لِخَوَاصِّ الْعُرْبِ عَيْنٌ لَا تُرَى قَمَ زَهِيرٌ شَقٌّ مَرْكُومِ الثَّرَى^(٨)

(١) الكئين : المستور .

(٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .

(٣) بت : قطع .

(٤) الخوان : ما يوضع عليه الطعام .

(٥) خطب الود : طلبه .

(٦) لم يكن الصحابي الجليل سلمان الفارسي على الديانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنه توهم أن النبي ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أن أبا جهل من الكافرين .

(٧) سخبان مضرب المثال في الفصاحة عن العرب .

(٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خيرُ الدَّلِيلِ

قُمْ وِحْطُمِ سِخْرَ لَحْنِ جِبْرِئِيلِ

قُلْ وَحَدَّثْنَا طَوِيلًا يَا حَجَزَ ! مَا رَأَيْنَا مِنْهُ ؟ وَاصْدُقْنَا الْخَبَرَ

قَابِلَ الْأَعْدَارِ أَنْتَ يَا هَبْلَ عَنْكَ ذُو مَنْ دِينُنَا مَا إِنْ عَقَلَ

رَأْسُهُمُ الْقِيْلَ لَذْئِبٍ أَوْ هَضُورَ وَلِيكُنْ فِي نَخْلِهِمْ مُرُّ الثُّمُورِ^(١)

صَرَصَرًا وَاجْعَلْ هَوَاءَ الْبَادِيَةِ إِنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

لَا تُدُومِي ، لَا تَرِيْمِي يَا مَنَاةَ أَنْتُمَا فِينَا قُلُوبٌ خَافِقَاتُ^(٢)

تَسْكُنَانِ بَيْنَ جَفْنَيْنَا الْجِدَاقَا

مَهْلَةً إِنْ كُنْتَ أَزْمَعَتِ الْفِرَاقَا^(٣)

= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظكم منه . وما حال الحول حتى يُبعث النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والثُمور : جمع تمر .

(٢) اللَّاتُ ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدُها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الجِدَاق : جمع حَذَقَة ، وهي معظم سواد العين . والشُّطْرُ الثاني من البيت مما اقتبسه إقبال عن شاعرٍ عربي .

القسم الثاني

فَالْكَ عُمَارِد

ساعة مع السيّد جمال الدين الأفغاني^(١)

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومرّيته الروحي والفكري - الشيخ جلال الدين الرومي - في سياحة روحية فكرية ، ومَرَّ في جولاته - الخيالية - بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرجالات ، وتحدّث معهم في مسائل كثيرة .

ومَرَّ في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدميّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثّلت فيه الدُّنيا بسهولة ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلة من المدنية والصناعة الإنسانية ، وأعجَبَ الشاعر جمال الطبيعة ، ورقة الهواء ، وخريف الماء في هدوء الصَّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرُّوميّ ، فقال وقد قرَّع أذنه صوتٌ عذبٌ رقيق : ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟

قال الرُّوميّ : إنه منزل الصُّلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدمٌ يوماً أو يومين ، لمّا هبط من الجنة ، قد شَهِدَ هذا المكانُ زفرائه وأثاته في السَّحر ، وبلَّث دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيد ، وأبي يزيد ،

(١) هو جمال الدين الأفغاني ، ذلك المصلح الدِّيني ، والسياسي ، والاجتماعي ، ورجل الفكر الحرّ والأدب العالي ، ومن له الرِّيادة في دعوته إلى الحقِّ ومكافحته للباطل . وكان الدَّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلامي بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدَّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيم الأثر ، واسع النفوذ ، دائب العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨ م .

فلنقم ولنشرع لنذكر الصلاة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذّة الروح ، ونعمة الخشوع التي حُرمتها في العالم المادي .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلين يُصلّيان ، أحدهما أفغانِيّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغانِيّ ، يصلي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الروميّ : إنّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلّا كثيراً من عقدي والغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبّت بدعوته الثائرة الحياة في الأموات والجمادات ، وأما الزعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدّامي ، والفكر المحلّق السّامي ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير ، إنّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوء المكان والزّمان ، وشخصية الإمام ، وجمال القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس ، وتذيب القلوب ، وتعلو بها صيحة التكبير ، والنهليل في القبور ، وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتّضح بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد إقبال يحكي قصّته ، قال : « قمتُ بعد الصلاة ، وقبّلتُ يده في أدبٍ ومحبة وقد قدّمني أستاذنا الروميّ إلى السيد ، وقال : إنّه جوالّ جواب في الآفاق ، لا يستقرّ في مكان ، ويخمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ، ولم يخضع لأحد ، فيعيش حرّاً طليقاً » .

وأقبل عليّ السيّد جمال الدين ، فقال : حدّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأئمة التي خلقت لتسخير العالم

معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدِّين والوطن ، لقد ضَعُفَ الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأملَ من سيطرة الدِّين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراك والإيرانيون سُكاري بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةً كيدها ودهاثها ، أصبح الشُّرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشُّبوعِيَّةُ بيهجة الدِّين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألُّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً :
إنَّ الباقعةَ الأوربيَّةَ هو الذي علَّمَ أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكِنَّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشَّامَ والعراقِ ، فتحرَّزَ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يمتدُّ كلُّ بلدٍ وطنه ، وكلُّ أرضٍ أرضه ، إن كنتَ تميز بين « الجميل » و« القبيح » فلا تربطَ نفسك وقلبك بالتراب والحجارة والقرميد ، إنَّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمةَ نفسه ، إنَّ الذي عرفَ « الله » وآمنَ به ، لم يسمع هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات ، إنَّ الحشيش ينبتُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنَّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنَّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يابى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبس في « التراب »^(١) اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحَفَنَةَ من التُّراب ، التي نسمِّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و« إيران » و« اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسناتها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث أن تتحرّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إنّ فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي ! فإنّ مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحقّ بالباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله ، إنّ الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الغيبيّة ، وذهبوا يبحثون عن الرّوح في « المعدة » إنّ الرّوح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكنّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إنّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وُحدة الأجسام والبطون ، إنّما يقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس .

إنّ الملوكة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرها مظلمٌ خاوي ، ليس فيها قلبٌ خفّاق ، إنّها كالنحلة تجلس على كلّ زهرة ، وتشرّب منها الرّضاب ، وتغادرها إلى زهرة أخرى ، وتبقى هذه الرّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنها أوراق بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك الملوكة تستحوذ على الشعوب والأفراد ، وتمتصّ منها دمائها ، وتركها أجساداً هامدة .

إنّ « الملوكة » و « الشيوعية » تلتقيان على الشرّ والنّهاية ، والقلق والسّامة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »^(١) ، وعند الملوكة « خراج » ، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة الرّجّاج ، إنّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنّ ، والملوكة تنزع الرّوح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كليهما غارقتين في المادّة ، وجسمهما قويّ ناضر ، وقلبيهما مظلمٌ فاجر .

(١) يعني : تجرّد من العقائد ، والمواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وإد والمسلمين في وإد ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلَّتْهم عن النَّبِيِّ ﷺ إِنَّ المسلم اليوم لا يؤسِّس حياته ، ولا ينظِّم مجتمعه على مبادئ القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدِّين والدنيا ، لقد ثلَّ عَرْش قيصِر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربَّع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليها ، وبذلك تغيَّر نظره إلى الحياة ، وتغيَّر منهج تفكيره .

لقد حطَّمت « القيصريَّة والكسروية » مُثُل المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا ، عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية والوطنية » فلا تعودى إليها ، ولا تطوفي حولها مرَّةً ثانية . إِنَّ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرَّحمة والشِّدَّة ، فاقبسي من الشرق ديانتَه وروحانيته ، لقد أصبحت دياناتُ الإفرنج وديانتُهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودى إليها مرَّةً ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكملين مهمَّتَكَ ، وتُتمين رحلتك العظيمة ، إِنَّكَ تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبחי له عن أساسٍ مُحْكَم ، وليس هو إلا الدينُ والعقيدةُ .

لقد محوت يا روسيا ! أساطيرَ الأولين أسطورةً أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورةً ، وما أدراك ما القرآن ؟ إِنَّه نعيٌّ للملوكية والشُّخْرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياءٌ للصعلوك ، وبشرى للملوك ، إِنَّه يذمُّ الذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا يتفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرم الربا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولَّد من الربا إلا الشرورُ والفتن ، والقساوةُ والضَّراوة ؟ إِنَّ اكْتِسَابَ الرِّزْقِ مِنَ الْأَرْضِ جَائِزٌ ، فكلُّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقه ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعيبتهم . إنَّ المبدأ الذي يقرّره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلّها كنفس واحدة^(١) .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أؤمنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهر ومستترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرت تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أن تنظري إلى العالم بنور القرآن نظراً جديداً^(٢) .

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

الترابُ كلُّ مخلوقٍ شأى	وتجليّه جلياً قذ رأى ^(٣)
أبكانَ أم يكونُ سقطتي	والوجودُ قنصتُ أحبولني ^(٤)
أنا في الزرقاء لي شقاً شققْتُ	إنني منها وإياها ملكْتُ ^(٥)
أفؤادي في حنوّ عانقت	أم أراها منه في الصّدر ارتمت

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٌ وَاحِدٌ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني التّدي ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) شأى : تفوّق على غيره .

(٤) السّقطة : المرأة من الوقوع والتردي . وقنص : اصطاد . والأحولة : المصيدة .

(٥) الزرقاء : السماء .

ما الذي يخفى وما شيءٌ ظَهَرَ
 في سماءٍ غيرها طيراً خَفَقَتْ
 عالمٌ بالبرِّ والدَّاءِ مُنْعَمٌ
 عالمٌ من بَعْضِ أَرْماءٍ ظَهَرَ
 ما عَلَيْهِ صُورَةُ لُوحِ الوجودِ
 قُلْتُ لِلرُّومِيِّ يَا حَسَنَ الْيَبَابِ
 أَيْنَ آثَارُ الْحَيَاةِ هَاهُنَا ؟
 قَالَ لِي « هَذَا مَقَامُ الْأَوْلِيَاءِ
 آدَمُ عَنْ خُلْدِهِ حِينَ ازْتَحَلَّ
 ورأى هَذَا الْفَضَاءَ زَفَرَتَهُ
 زَائِرُوهُ مِنْ خَوَاصِّ الْكُتَلِ
 بِوَسْعِيدٍ وَالْفَضِيلِ بَيْنَهُمْ
 لَسْتُ أَدْرِي كُنْهَ مَا تَحْتَ الْبَصَرِ
 فَرَأَيْتُ عَالِماً مَا إِنْ رَأَيْتُ
 مِنْ ثَرَانَا إِنَّهُ خَيْرٌ وَأَقْدَمُ ^(١)
 لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ مِنْ أَثَرِ ^(٢)
 لَيْسَ لِلْفِطْرَةِ مِنْ نَقْدٍ حَدِيدِ ^(٣)
 فِي الْجِبَالِ حَبْذَا هَذَرُ الْعُبَابِ ^(٤)
 وَالْأَذَانُ فَاضٌ مِنْهُ سَمْعُنَا ! ^(٥)
 أَرْضُنَا وَالْأَرْضُ فِي فِيءِ الْإِخَاءِ ^(٦)
 ذَلِكَ الْعَالَمُ يَوْمًا فِيهِ حَلٌّ
 وَبِفَجْرِ وَهُوَ يَشْكُو ، رَنَّتُهُ ^(٧)
 كُلُّهُمْ فِي قَوْمِهِ هَذَا الْعَلِيِّ
 بَايَزِيدُ وَالْجُنَيْدُ عِنْدَهُمْ ^(٨)

(١) الدَّاءُ : البحر .

(٢) الْأَرْمَاءُ : جمع رمي ، هو السَّحَابَةُ الصَّغِيرَةُ .

(٣) النِّقْدُ الْحَدِيدُ : النِّقْدُ الشَّدِيدُ الْحَادِ .

(٤) الْيَبَابُ : الْخَرَابُ . وَالْعُبَابُ : الْمَوْجُ .

(٥) يَعْجَبُ الشَّاعِرُ لَوْجُودِهِ فِي أَرْضِ خَرَابٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَسْمَعُ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ .

(٦) الْغَيَاءُ : الْغَلُّ .

(٧) الرَّنَّةُ : الصَّوْتُ ، أَوْ صَوْتُ الْقَوْسِ .

(٨) أَبُو سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْخَيْرِ مِنْ مَشَاهِيرِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ . وَمِنْ أَذَاعُوا بَيْنَ النَّاسِ فِي خِرَاسَانَ نَظْرِيَّةَ وَحْدَةِ الْوُجُودِ . وَلَهُ رِبَاعِيَّاتٌ يَعْبُرُ فِيهَا عَنْ مَذْهَبِهِ الصُّوفِيِّ وَهُوَ رَقِيقُ الْمَعَانِي أَصِيلُ الشَّاعِرِيَّةِ . وَالْفَضِيلُ شَيْخُ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ كَانَ فِي الْحَدِيثِ ثِقَةً ، أَخَذَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ الشَّافِعِيُّ . وَهُوَ فِي عِدَادِ زُهَادِ الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ وَفَاتِهِ عَامَ ١٨٧ هـ وَبَايَزِيدُ أَوْ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ أَوَّلُ صُوفِيٍّ نَسَبَتْ إِلَيْهِ الشُّطْحَاتُ ، وَأَرَادَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ غُلُوهَ فِي شُطْحَاتِهِ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٦١ هـ . أَمَّا الْجُنَيْدُ فَصُوفِيٌّ بَغْدَادِيٌّ مَرْمُوقٌ الْمُتَزَلَّةُ مِنْ أَهْلِ الصَّحْوِ لَا أَهْلَ الشُّكْرِ ، أَيُّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ غِلَاةٍ =

قُمْ مَعِيَ كَيْمَا نَصْلِي رَكَعَتَيْنِ
وَنَذَابُ بَرَهَةِ أَوْ بَرَهَتَيْنِ *

إِنَّمَا الرُّومِيُّ دُومًا فِي الْحُضُورِ مَشْرِقُ الطَّلَعَةِ ذَوْقًا فِي الشُّرُورِ
قَالَ : « إِنَّ الشَّرْقَ قَطٌّ مَا وَلَدُ مَثَلُ هَذَيْنِ فَقَدْ حَلَّ الْعُقْدُ
سَيِّدُ السَّادَاتِ مَوْلَانَا جَمَالُ مِنْهُ يَحْيَى الطَّيْنِ وَالصَّخْرُ الْمَقَالُ
وَرِئِيسُ الثُّرَكَ مَنْ يُدْعَى حَلِيمَا كَانَ فِي فِكْرٍ وَفِي جَاهٍ عَظِيمَا
مَعَ هَذَيْنِ الصَّلَاةُ طَاعَةٌ
وَجَزَاءُ مَنْ يُصَلِّي جَنَّةٌ

سُورَةُ النَّجْمِ تَلَاهَا شَيْخُنَا غَمَرُ الصَّحَرَاءِ صَفَتْ هَاهُنَا
وَيَثِيرُ اللَّحْنُ وَجَدًا فِي الْخَلِيلِ وَكَذَا فِي عَمَقِ رُوحِ جَبْرِئِيلِ
وَيَذُودُ الصَّبْرُ عَنْ قَلْبِ صَبُورِ يَرْفَعُ « إِلَّا اللَّهُ » مِنْ كُلِّ الْقُبُورِ
يَهَبُ النَّارُ دَخَانَ الرَّفْرِ وَلِدَاوُدَ ضِرَامُ السَّكْرَةِ
وَبِذَا اللَّحْنُ الظُّهُورُ لِلْغِيَابِ وَارْتِفَاعُ الشُّرِّ عَنْ أُمِّ الْكِتَابِ
وَالصَّلَاةُ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ نَهَضَتْ وَيَدْبُهُ فِي خَشْوَعٍ قَدْ لَثَمَتْ
قَالَ « هَذِي ذَرَّةٌ تَطْوِي الْفَلَكَ عَالَمٌ مِنْ حُرْقَةٍ فِيهَا اعْتَرَكُ ^(١)
ذَاتُهَا مِنْهَا تَلَقَّتْ نَظْرَةً لَمْ تَهَبْ قَلْبًا وَكَانَتْ حُرَّةً
وَحَيْثُ فِي الْوُجُودِ سِيرُهَا زَنْدُهُ رُودٌ إِنَّنِي سَمَّيْتُهَا ^(٢)

= المتصوِّفة ، ويعبُدُ أَوَّلَ المتكلمين في التوحيد ببغداد ، وكانت وفاته عام ٢٩٧ هـ .

- (١) اعترك : اختلج واضطرب .
(٢) زنده رود في الفارسية بمعنى النهر الحي ، وهو اسمُ نهرٍ عظيم يجري بمدينة أصفهان في إيران . ولكن الشاعر أخذ عن الشاعر الألماني كوته في منظومة له بعنوان « نشيد محمد » وقد عرفها إقبال وترجمها ، وفيه يشبه الشاعر الألماني روح النبوة بالنهر المتدفق المزبد ، كما قال المستشرق الإيطالي باوزاني .

الأفغانيُّ

زنده رود ، تِلْكَ دَنِيَانَا تَكَلَّمْ أَرْضَنَا صِفْ أَوْ سَمَانَا أَنْتَ أَغْلَمْ
يَا تُرَايِيًّا سَمَاوِيَّ الْبَصَرِ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَنْهَا مَا الْخَبَرُ؟

زنده رود

أُمَّةٌ قَدْ دَوَّخَتْ كُلَّ الْأُمَمِ فِيهَا فِكْرُ الدِّينِ وَالْأَوْطَانِ عَمِ
وَتَمُوتُ الرُّوحُ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ بِأَسْهَاهَا مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ الْمَبِينِ
الْفِرَنْجُ الْمُسْلِمِينَ أَشْكُرُوا وَيَشْصُ فِي الْخُلُوقِ جَرَّروا^(١)
مَنْ تُفَوِّذِ الْغَزْبِ فِي الشَّرْقِ الْخَرَابِ وَالشُّيُوعُ لَانْحِطَاطِ الدِّينِ بَابِ

الأفغانيُّ

الدِّينِ وَالْوَطَنِ

مَكْرٌ لَوْرِدِ الْغَزْبِ كَمْ أَعْيَا الْفَطَنُ فَطَنَ الْقَوْمَ بِمَعْنَى لِلْوَطَنِ^(٢)
مَرْكَزاً يَبْغِي وَأَنْتَ فِي النِّفَاقِ أَنْسَ حَتَّى الشَّامِ ، دَغْ أَمْرَ الْعِرَاقِ
أَنْتَ إِنْ أَذْرَكْتَ مَا خَيْرٌ وَشَرٌ فَلْتَفُكْ عَنْكَ قَيْدُ مَنْ حَجَرِ^(٣)
مَا هُوَ الدِّينُ ؟ الْقِيَامُ مِنْ ثَرَى ذَاتَهُ الْقَلْبُ الطَّهْورُ كِي يَرَى
« اللَّهُ هُوَ » مَنْ قَالَهَا قَوْلًا يَجُودُ لَمْ تَعُدْ تَحْوِيهِ هَاتِيكَ الْحُدُودُ^(٤)

(١) الشَّصْ : حديدة معقوفة يُصَادُ بِهَا السَّمَكُ حِينَ يَتَعَلَّقُ مِنْ فَمِهِ . يَقُولُ إِقْبَالُ : إِنَّ الْأَوْرَبِينَ خَدَعُوا الْعَرَبَ ، وَالْفَرَسَ ، وَالتَّرِكَ ، وَجَذَبُوهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا يَجْذِبُ الصَّيَّادُ السَّمَكَ .

(٢) فَطَنَ : فَهَمَ .

(٣) يَرِيدُ بِالْحَجَرِ الْمَنَازِلَ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْمَدَنُ .

(٤) يَجُودُ : يَحْسَنُ .

قَسَّةٌ فِي الْأَرْضِ قَامَتْ مِنْ تُرَابٍ وَيَلُ رُوحٌ فِي التُّرَابِ مِنْ تَبَابٍ^(١)
يُخْلِقُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ لَوْنُهُ كَالْوَزْدِ مِنْ مَاءٍ مَعِينٍ^(٢)
بَشَرٌ لِلْإِنْسَانِ فِي الطِّينِ الدَّوَامِ إِنَّ بِهِ لِمِ يَغْلُ ذِيَاكَ الْمَقَامِ
يَا حَكِيمُ ، الرُّوحُ تَسْمُو عَنْ جِهَاتٍ ضَاقَ حَرٌّ بِقِيُودِ مُثْقَلَاتٍ

مِنْ ظِلَامِ الْأَرْضِ حَرٌّ قَدْ يَتَوَزُّ

مَا كَفَارٍ فَعَلْتَ تِلْكَ الصَّقُوزِ !

قَبْضَةُ الطِّينِ تَسْمِيهَا الْوِطْنِ دَعَاكَ مِنْ مِضَرَ وَفُزَسٍ وَالْيَمَنِ^(٣)
بَيْنَ أَوْطَانٍ وَقَوْمٍ نَسَبَةٍ إِنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا نَبْتَةٌ
أَنْتَ إِنْ أَمَعَنْتَ فِي هَذَا النَّظَرِ دَقَّةً أَذْرَكْتَ دَقَّتْ كَالشَّعَرِ
فَمَنْ الشَّرْقِ ذُكَاءٌ تَطْلُعُ بِاجْتِرَاءٍ وَتَجَلُّ تَنْطُعِ^(٤)
فِي عَذَابٍ وَاصِبٍ مِنْ نَارِ قَلْبٍ عِنْدَ فَكِّ الْقَيْدِ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ^(٥)
بِالتَّجَلِّيِ أَسْكِرَتْ فِي شَرْقِهَا أَفْقاً مَا أَفْلَنْتَ مِنْ غَرْوِهَا

مِنْهُمَا قَدْ قَطَعْتَ أَصْلَ السَّبَبِ

إِنَّهَا لِلشَّرْقِ لَكُنْ فِي النَّسَبِ^(٦) !

الشُّيُوعِيَّةُ وَالرَّأْسَمَالِيَّةُ

صَاحِبُ « الْمَالِ » سَلِيلٌ لِلْخَلِيلِ وَبِلَا جَنْبِيلٍ أَضْحَى كَالرَّسُولِ^(٧)

(١) التَّبَابُ : الْهَلَاكُ وَالْخَرَابُ .

(٢) الْمَعِينُ : الْجَارِي .

(٣) الْفَرْسُ هُنَا بِمَعْنَى بِلَادِ الْفَرْسِ .

(٤) ذُكَاءٌ : الشَّمْسُ .

(٥) الْوَاصِبُ : الدَّائِمُ .

(٦) يَقُولُ : إِنَّ الشَّمْسَ قَطَعْتَ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

(٧) يَرِيدُ كَارْلَ مَارْكَسَ صَاحِبَ كِتَابِ رَأْسِ الْمَالِ .

مبطلٌ ، في الرِّينِ حقاً يُضمَرُ مؤمنُ القلبِ بعقلِ كافرٍ
 إنَّ أهلَ الغربِ أفلاكاً أضاعوا طلبوا الرُّوحَ بيطنٍ حينَ جاعوا !
 ما استمدَّ الرُّوحُ حسناً من جَسَدٍ وعلى الجِسمِ الشُّيعيُّ اغتمدَ
 قولُه في كُفْرِهِ هذا المُبينَ ليس إلا في مساواةِ البُطونِ
 في صميمِ القلبِ ذِيكَ الإخاءِ
 ما احتوى أصلاً له طينٌ وماءٌ^(١)

الجسومُ بالثَّراءِ سُمِّنَتْ والشُّدورُ من قلوبٍ جُرِدَتْ^(٢)
 يالَهُ الرُّبُورُ يرعى وردَهُ ثم يمضي ، نالَ مِنْهُ شَهْدَهُ
 إنَّ غُضْنَ الوَرْدِ هذا حُسْنُهُ وَلِهُ البُلْبُلُ هذا لَخْنُهُ^(٣)
 عَنْ جِمالٍ راقٍ فَلَتَطَوَّ النَّظَرُ اقْصِدِ المعنى وَدَعْ عَنْكَ الصُّورَ
 أن تَرى لِلْقَلْبِ موتاً يَضْعُبُ
 أن تَسْمِيَ الطِّينَ وَرْدًا يَكْرُبُ^(٤)

يَمْلِكُ الْإِنْشَاءُ الرُّوحَ نَدَّ صَبْرُهَا تَخْدَعُ النَّاسَ وَيَبْدُو كُفْرُهَا^(٥)
 لهما العيشُ الخَروجُ والخَراجُ حَجَرانِ ، والورى هذا الرُّجَاجُ^(٦)
 هذه ديناً وعِلْماً حَطَمَتْ تِلْكَ رُوحاً ورغيفاً حَرَمَتْ
 لهما في الماءِ والطِّينِ الغَرَقُ أَظْلَمَ الْقَلْبُ وذو الجِسمِ اثْتَلَقَ
 والحياةُ الاحتراقُ والعَمَلُ

(١) يقول : إنَّ الإخاء في الروح لا في الجسد .

(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .

(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبِلَ يَغشَى الوردة ، ويعني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذات الإلهية .

(٤) كل في الفارسية يفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، ولبغاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للتقيضين . ويكرب : يثير الحزن .

(٥) يتحدث الشاعر عن الشيوعية والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .

(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

وَالشُّوَيْدَاءُ لَتَلْقَى فِي الْوَحْلِ^(١)

سعيد حليم باشا^(٢) الشرق والغرب

إِنَّ فِي الْغَرْبِ الذُّكَا أَوَّلُ الْحَيَاةِ وَالْهُوَى فِي الشَّرْقِ سُرُّ الْكَائِنَاتِ
وَبِعَشْقِي يَنْغَرِفُ اللَّهُ الذُّكَا وَلِعَشْقِي بِالذُّكَا ذَا الْعَلَاءِ
وَإِذَا الْعِشْقُ الذُّكَا صَادِقاً عَالِماً آخَرَ قَطْعاً حَقّاً
أَنْهَضَ الْعَالَمَ الثَّانِي اضْنَعَنْ بِالذُّكَا ذَلِكَ الْعِشْقُ امْرُجَنْ
لِلْفِرْنَجِ شَعْلَةً قَدْ بُلِّلَتْ قَلْبُهُمْ مَاتَ وَعَيْنٌ فَتَحَتْ
جُرِّحُوا لَكِنْ بَحْدٌ سَيَفْهَمُ يَا لَهُمْ صَرْعَى كَمِثْلِ صَنِدْهُمْ^(٣)
نَشْوَةٌ مِنْ كَرَمِهِمْ لَا تَطْلُبُنْ جِدَّةً مِنْ عَضْرِهِمْ لَا تَأْمَلُنْ^(٤)
لِلْحَيَاةِ النَّارُ فَلْتُشْعَلْ بِنَارِكَ

اضْنَعِ الْعَالَمَ وَازْفَعْ مِنْ مَنَارِكَ

و « كَمَالُ » حِينَ نَادَى بِالْجَدِيدِ قَالَ : إِنَّ الْمَخَوَ لِلْعَهْدِ الْعَهْدِ^(٥)
لَيْسَ لِلْكَعْبَةِ تَجْدِيدُ الْحَيَاةِ إِنَّ أَتَى الْكَعْبَةَ غَرْبِي بِلَاثِ !
مَا تَعْنَى الثَّرْكُ مَا قَالُوا نَشِيدَا بَلْ قَدِيمُ الْغَرْبِ سَمَوُهُ الْجَدِيدَا

(١) الشُّوَيْدَاءُ : حَبَّةُ الْقَلْبِ .

(٢) هو سعيد حليم باشا الصدر الأعظم الذي قتل عام ١٩٢١ في روما . ولقد قَرَضَ إجلاله حتى على خصومه لِسَدَادِ رَأْيِهِ ، ورجاحة عقله . والجامعُ بينه وبين الأفغاني أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا صَاحِبُ نَزْعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ .

(٣) الصَّيْدُ : مَا يَصَادُ .

(٤) الْكَرْمُ : شَجَرُ الْعَنْبِ .

(٥) كَمَالُ هو مصطفى كمال أو كمال أتاتورك رائد تركيا الحديثة . والعهد : القديم .

نَفْسٌ آخَرُ فِيهِمْ مَا خَفَقَ
وَأَفَقُوا الْعَالَمَ هَذَا لَا جَرَمَ
فِي الصَّمِيمِ طُرْفَةً لِلْكَائِنَاتِ
إِنَّ حَيَّ الْقَلْبِ خَلَّاقَ الدُّهُورِ
مُسْلِمًا إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ مُنِيرِ
كَمْ دُنَى تَظْهَرُ فِيهِ مِنْ سُتُورِ
إِنَّ دُنْيَا مِنْهُ تَكْفِي عَضْرَبًا
يُؤْمِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
وَإِذَا دُنْيَاهُ رُئِيتْ ثَوْبَهَا
عَالَمٌ فِي الْقَلْبِ مِنْهُمْ مَا انْبَثَقَ
فِيهِ ذَابُوا شَمْعَةً تَحْتَ الضَّرَمِ^(١)
لَمْ تَكُنْ تَقْيِيدَ تَقْوِيمِ الْحَيَاةِ^(٢)
وَمَنْ التَّقْلِيدَ كَانَ ذَا التُّفُورِ
فِي الْكِتَابِ انْظُرْ وَفِي هَذَا الضَّمِيرِ^(٣)
وَالْعُصُورُ مَرُّهَا تَلَسُّو الْعُصُورِ
إِنْ عَقَلْتَ أَنْتَ فَاجْعَلْهَا لَنَا
كُلُّ دُنْيَا يَزِيدُهَا مِثْلُ ثَوْبِهِ
قَدَّمَ الْقُرْآنُ دُنْيَا غَيْرَهَا^(٤)

زنده رود

زورقِ نَخْنُ بِلا هَدْيِ جَرِي
عَالَمُ الْقُرْآنِ أَيْنَ؟ مَنْ دَرِي

الأفغاني

عَالَمٌ فِي صَدْرِنَا هَذَا اخْتَفَى
لَيْسَ فِيهِ أَيُّ لَوْنٍ أَوْ دِمَاءٍ
فِي انْتِظَارِ « قُمْ » لِلْإِنْسَانِ غَفَا
مَا لْغَرْبِ مَا لَدَيْهِ مِنْ بَهَاءٍ

(١) الضَّرَمُ : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .

(٢) الطَّرْفَةُ : الشيء العجيبُ النادر .

(٣) الْكِتَابُ : الْقُرْآنُ .

(٤) رَتَّ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ : جعله رثًا أي غير صالح .

ليس فيه من ملوك أو عبيد مثل قلب في خلوة من حدود^(١)
 عالم الحُسن ، ومن فيض النظر بذره ألقى بقلب من عُمَر^(٢)
 سرمدي في أحداث تدوم محكمات فيه تهدي من يروم^(٣)
 لا يهاب باطن فيه التعير وله الظاهر دوماً في التطور
 بين جنبيك ، عليك بالنظر
 محكمات ، ألق سمعاً للخبر^(٤)

مُحكّماتُ العالمِ القرآنيِّ خلافةُ الإنسان

أثرُ العشق بدا في العالمين ويرى في المرء مناً رأي عَيْن
 ليس سرُّ العشق من دنيا الرّحم ما إلى سام وحام يختكم^(٥)
 كوكب ، ما من شروق أو غروب لا ولا يذري شمالاً من جنوب
 قول ﴿إني جاعل﴾ تقديره بين أرضي وسمما تفسيره^(٦)

-
- (١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .
 (٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آية قرآنية ، وهو بهم يقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .
 (٣) السرمدي : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .
 (٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .
 (٥) الرّحم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السامي ، وكذلك حام وهو أبو الشودان .
 (٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

الحياة مِنْهُ كَانَتْ وَالرَّدى
الإمام وَالصَّلَاةُ وَالْحَرَمُ
غِيَّةُ يُمسي رُوبداً ذا الحضور
مِنْهُ كَانَ اغْتِبَارُ الكائنات
ياله بحرّاً بلا شطّ يضور
إنما الإنسانُ دُنيا قَدْ وَسِغَ
وتجلّى فإذا نورُ السَّماءِ
نورُ دُنيانا وناراً أَوْجَدَا
والمِدَادُ وَالكِتَابُ وَالْقَلَمُ
مُلْكُهُ ما فِيهِ حَدٌّ أَوْ تُغُوزُ
واعْتِدالٌ فِيهِ قاسُ الْمُمكنات
قلبه قد أَعْرَقَتْ فِيهِ الدُّهورُ
هذه الدُّنيا لَهُ لَمْ تَسِغْ
واختلَى يوماً فَجِرايِلُ نائي^(١)

وعن الأفلاكِ أَعلى قَدَرَهُ

والحميدُ مَنْ تَغْنى شُكْرَهُ

ما الحياةُ يا بصيرٌ هل فَهَمْنَا
يَرْبِطُ الجَنسَيْنِ مَوْصُولُ الصَّلَاتِ
تُشْعِلُ المِراةُ نيرانَ الحياةِ
أَضْرَمَتْ فِي الرُّوحِ مِنْها نارَنا
ممكّناتُ العِيشِ مِنْها فِي الضَّميرِ
إِنْ يَغِيبُ عَنْ هَذِهِ النَّارِ الشَّرَرُ
ما لنا مِنْ قِيميّةٍ ، مِنْها لنا
أَنْ تُرى اثْنينِ ، وَفَرَدٌ مِنْ عَشِيقَتِنا
يَزْهُمُ شَوْقَ تِلْكَ الكائِناتِ^(٢)
طَبَعُها لَوْحٌ لِأَسْرارِ الحياةِ^(٣)
جَوْهرٌ فِيها أُنْمٌ خَلَقَنا
وَبَثَّ العِيشِ فِي وَهْجِ الشُّعُورِ^(٤)
لَمْ يُلَخِجْ جِسمٌ وَروحٌ لِلنَّظَرِ
رَسَمَتِنا وَأَجادَتْ رَسَمَنا

إِنْ حَبَاكَ اللهُ عَقْلاً لِلتَّفَكُّرِ

طَهَّرَ النَفْسَ بِتَقْدِيرِ لَهَا انْظُرْ

أَفْسَدَ الإِيمانُ فِيكَ عَضْرَنا يَكْشِفُ السَّرَّ الخَفِيِّ قَوْلُنا

= فَعَلَمُونَ ﴿ [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطانٌ عليها ، وسينصرف في موادها ليجعلها ملائمةً لحاجاته .

(١) يقول : إنَّ جبريل لم يقتحم عليه عزلته .

(٢) الجنسان : المراد بهما الرجل والمرأة .

(٣) اللوح : ما يكتب فيه .

(٤) الوهج : اشتعال النار .

في الجسوم الخلقُ نارٌ تَنَقِّذُ
 مَنْ يَنْلُ مِنْ هَذِهِ النَّارِ النَّصِيْبَا
 إِنَّهُ ذُو الرَّأْيِ فِيمَا قَدْ عَمِلَ
 مُدَّةً فِي الْغَارِ ظِلُّ الْمُصْطَفَى
 رَسَمْنَا قَدْ أَغْرَقُوا فِي مُهْجَتِهِ
 وَعَلَى إِنْكَارِ رَبِّ إِنْ قَدْزْنَا
 لَوْ أَنَارَتْ فِيكَ رَوْحٌ كَالْكَلِيمِ
 فَالْخِيَالُ فِيكَ تَحْيِي عِزْلَةً

ثم تأتي بعد بحثٍ ضالَّة^(٢)

من مقاماتٍ لنا علمٌ وَشَوْقٌ
 بِهِجَةً لِلْعِلْمِ تَحْقِيقٌ دَقِيقٌ
 صَاحِبُ التَّحْقِيقِ رَامَ الْمُتَجَلِّي
 عَيْنُ مُوسَى رُؤْيَا الدُّنْيَا أَرَادَتْ
 ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ إِنَّهَا الْمَعْنَى الدَّقِيقُ
 إِنْ تُلَخَّ لِلْعَيْنِ أَثَارُ الْحَيَاةِ
 هَذِهِ الْآفَاقُ بِالْعَيْنِ أَرْمُقُنْ

لهما فيما جرى لِلْقَوْمِ حَقٌّ
 مَتْعَةٌ لِلْعُشْقِ خَلْقٌ قَدْ يَلِيْقُ
 صَاحِبُ الْخَلْقِ بِذَاتٍ يَخْتَلِي
 وَإِلَيْهَا رَغْبَةُ التَّحْقِيقِ سَاقَتْ
 وَلَتَضِيعَ فِيهِ فِذَا الْبَحْرُ الْعَمِيقُ^(٣)
 تَسْتَمِدُّ النُّبْعَ جَوْفَ الْكَائِنَاتِ
 وَتَجَلِّي رَبُّهَا لَا تَطْلُبُنْ

(١) اغْتَمَلَ : عَمِلَ عملاً يتعلّق به دون سواه . والمبتكر : المجدّد لا يقلّد غيره .

(٢) الضَّالَّة : الناقصة الضائعة التي لا يعرف لها صاحب . والمراد هنا ما يراد معرفته .

(٣) الشاعر يريد قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَّوْا لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة . وفي شعرٍ لجلال الدين الرُّومِي : أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْوُجُودِ مِنَ الْعَدَمِ ، وَالرُّؤْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَا ظَهَرَ وَخُلِقَ .

خلوة تحفظ كل من صنع
جوهرأ في خاتم كانت لمع^(١)

الحكمُ الإلهيُّ

إنَّ عبدَ الله لا يبغي المقاما ماله عبدٌ ولا كانَ الغلاما
إنَّه حرٌّ وذو نفسٍ زكيَّة مُلكه هذا من المولى عطيَّة^(٢)
دينه والعُزفُ من ربِّ كريم خلوة والمؤ من ربِّ عظيم
جازَ عقلٌ في الغرورِ حدَّه وله النفعُ تمنى وخدَّه^(٣)
خيرُ كلِّ النَّاسِ يبغي وحيَّ ربِّي ويرى الخيرَ نداءً كي يلبِّي
ويكونُ السُّلمُ أو حتَّى المصاف لا يراعي منصفٌ بل لا يخاف^(٤)
وإذا الإنسانُ أضحى أمرا كانَ لِلْمُسْكِينِ حتماً قاهرا

ومنَ القَهَرِ صُدُورُ أيِّ أمر

ولغير الله أمرٌ مخضٌ كُفِر

أمرٌ بالأمرِ زكَّى عقله من قوايين بنى حصناً له
إنَّ صفراً في ذُرَى جوٍّ يطير صعوة في أمره قد يستشير^(٥)
قهره القانون ، مفقودُ البصيرة يضعُ الإثمَ في العينِ الضَّريرة^(٦)

(١) يقول : إنَّ الخلوة تحمي كلَّ من أوجد شيئاً ، وهي فصٌّ من الجواهر لخاتمه .

(٢) الزكية : الطاهرة .

(٣) جاز : تجاوز .

(٤) المصاف : الموقف في القتال .

(٥) الذُّرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصَّعوة : أنثى الصَّع وهو عصفور صغير .

(٦) الإثم : الكحل .

صاحب الأرض البدين ، كان شِرْعَه

والتَّحِيلُ زَارِعٌ مَا اقْتَاتَ رَزَعَه^(١)

بشَسَ مَا فِي الْغَرْبِ حَقًّا حُكْمُهُمْ^(٢) ويزيدُ الميتَ موتاً صُوْرُهُمْ^(٢)
يسحرون ، خَذَعُ دَهْرٍ خَذَعُهُمْ^(٣) من شعوبِ الأرضِ كان نَزْدُهُمْ^(٣)
يَسْرِقُونَ ، ذَا ثَرِيٍّ ذَاكَ كَادِح^(٤) بالعداءِ بعضُهُم للبعضِ كاشِخُ^(٤)
يَكْشِفُ السَّرَّ جَلِيًّا قَوْلُنَا سلعةٌ نحنُ وَهُمْ تُجَارُنَا
جَفَنُهُمْ فِي الْمَالِ حُبًّا قَدْ جَمَدَ كُلُّ أُمَّ آدَمَاءِ ثَقُلُ الْوَلَدُ^(٥)
وِيلَهُمْ ! خَوْفًا عَلَى حُلُوِّ الثَّمَرِ يُخْرِجُونَ الْمَاءَ مِنْ جِذْعِ الشَّجَرِ !
وَلَكَيْلًا يَبِيعُ الْعُودَ الرِّينَا فِي الْبَطُونِ قَتَلُوا حَتَّى الْجَنِينَا
عِنْدَهُمْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ كَثْرَةٌ كُلُّ مَا حَصَلَتْ مِنْهُمْ غَبْرَةٌ

يَا أَسِيرًا كَانَ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ

الْكِتَابَ اقْرَأ ، وَعُدْ مِنْ أَسْرِهِمْ^(٦)

الأَرْضُ مِلْكُ اللَّهِ

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ لَامْتَلَاكَ الْأَرْضُ فِي حَرْبٍ وَضَرْبٍ
كَمُرُوسٍ وَلَهَا كُنَّا الرُّجَالَا سَحَرْتُنَا ، قَطُّ مَا نَلْنَا الْوَصَالَا

(١) البدين : السمين . والشَّرْعَةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذهُ قوتاً .

(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليعث من في القبور .

(٣) النرد : شيءٌ معروفٌ يلعب به مع تحريك قطعٍ من العاج على لوحٍ من الخشب .

(٤) كَشِخَ لَهُ بِالْعِدَاوَةِ : أَضْمَرَهَا لَهُ .

(٥) جمدت العين : قل دمعها ، أو انقطع . وآدَه الحمل : أثقله .

(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضَمَنْتُ كُلَّ خِداَعٍ دَلَّهَا فِي هَوَاهَا إِنَّنَا لَسْنَا لَهَا^(١)
أَيُّ شَيْءٍ رُمْتَ مِنْ ذَاكَ الْحَجَرِ إِنَّهُ الْبَاقِي وَأَنْتَ فِي سَفَرٍ^(٢)
وَعَنِ الْيَقْظَانِ مَنْ نَامَ افْتَرَقَ وَمَعَ السَّيَّارِ ضِدًّا مَا اتَّفَقَ^(٣)
هَذِهِ الْأَرْضُ مَنْحَنَاهَا مَتَاعَا مِنْ شَرَاهَا مَنَحَةً يَوْمًا وَيَاعَا^(٤)
مَالِكَ الْأَرْضِ إِلَيْكَ الْقَوْلُ عَنْهَا اتَّخِذْ رِزْقًا وَقَبْرًا ثُمَّ دَغَهَا^(٥)
وَالْأَمَ لَيْتَ شِعْرِي تَبْقِيَانِ قَدْ تَظَلُّ وَتَغِيبُ عَنْ عَيَانِ^(٦)
طُفْ بِأَفْلَاكِ السَّمَاءِ كَالْعُقَابِ كُنْ طَهُورًا وَاجْتَنِبْ رِجْسَ الثَّرَابِ^(٧)

إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي ، ذَاكَ ظَاهِر

كُلُّ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا فَهُوَ كَافِر

لَمْ أَقْلُ دَغَ عَنْكَ هَاتِيكَ الدِّيَارَا عَالِمًا تَمْلِكُ مِنْ حَسَنِ أَنْسَارَا
أَرْفَعُنَّ عَنْ جَوْهَرِ الْأَرْضِ الثَّرَابَا التَّقَطُ حَبَّ النُّجُومِ طُرُ عُقَابَا
فِي الْجِبَالِ اضْرِبْ بِفَاسٍ صَخْرَهَا وَبِنُصُورٍ مِنْكَ أَوْقِدْ نَارَهَا
وَطَرِيقُ آزَرَ فَلْتَجْتَنِبْهَا وَكَمَا تَهْوَى لَكَ الدُّنْيَا أَقْمِهَا^(٨)
بِالْجَمَالِ لَا تَصِلْ قَلْبًا سَقِيمَا أَعْطِهَا قَلْبًا لَهَا كَانَ الْحَرِيمَا^(٩)

(١) الدَّلَّ : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .

(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياء وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .

(٣) السَّيَّار هو الكوكب السيار ، وضدَّه الكوكب الثابت .

(٤) شَرَى الشَّيْءَ : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشتري .

(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقك ، وتحفر فيها قبرك .

(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .

(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرَّجْس : القذر .

(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِذْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۗ اللَّهُ إِلَٰهِي ۖ أَرَأَيْتَ إِنْ أَرَاكَ فِي سَلَٰلٍ مُّسِينًا ۖ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٩) الحریم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيطُ بتلك الأرض وتلزمُ حمايتها وحمايته .

أَمُوتُ ؟ مَا لَنَا مَالٌ وَقَبْرُ أَنْضِيعُ ؟ وَلَنَا أَهْلٌ وَوَفْرُ^(١)
 « لَا إِلَهَ » وَلَهَا الْقَلْبُ اتَّسَعَ عَالِمًا فِي الذَّاتِ إِنْسَانٌ جَمَعَ
 كَيْفَ فَقْرُ الْجُوعِ أَوْ فَقْرُ الْعُرَاةِ
 حُكْمُ سُلْطَانٍ ، فَدَعِ ذِكْرَ الْعُفَاةِ^(٢) !

(١) الوفّر : الكثير من المال .

(٢) يقول : إِنَّ الْفَقْرَ هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ . وَالْعُفَاةُ : السَّائِلُونَ وَالْفُقَرَاءُ . وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الرُّهَاءُ .

القسم الثالث

فَلَاكُ زُحَلٍ

الحكمةُ خيرٌ كثير

قَالَ رَبِّي إِنَّهَا الْخَيْرُ الْكَثِيرُ
 وَلِحَرْفٍ وَهَبَ الْعِلْمُ الْجَنَاحَ
 وَالْإِلَى الْأَفْلَاقِ عِلْمٌ قَدْ طَلَعَ
 لِلْوُجُودِ ، مَا يَرَى تَفْسِيرَهُ
 لِلصَّحَارَى قَالَ جُودِي بِالْحَبَابِ
 عَيْنُهُ دَوْمًا عَلَى مَا قَدْ جَرَى
 كَنْبِي ، رِيَّهُ إِمَّا ذَكَرَ
 وَيَغْيِرُ الْقَلْبَ عِلْمٌ كَانَ شَرًّا
 مِنْ دُخَانِ عَالَمٍ أَضْحَى كَفِيفًا
 الْفَيَافِي وَالرِّيَاضُ النَّاضِرَاتِ
 صَدْرُ أَهْلِ الْغَرْبِ يُضَيِّنُهُ اللَّهَابُ
 نَكُسُوا الْأَوْضَاعَ فِي أَيَّامِنَا
 إِنَّ تَجِدُهُ فَاغْتَنِمَهُ يَا بَصِيرُ^(١)
 لِلخَسِيسِ رَوْنَقَ الْغَالِي أَتَاحَا^(٢)
 نَظْرَةً مِنْ مُقَلَّةِ الشَّمْسِ اقْتَلَعُ
 وَالْمَصِيرُ لِلوَرَى تَقْدِيرُهُ^(٣)
 لِلْبَحَارِ قَالَ مُوجِي بِالسَّرَابِ^(٤)
 أَصْلَ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ كِي يَرَى
 وَيَقْطَعِ الْفِكْرَ عَنْ رَبِّ كَفَزُ^(٥)
 نُورُهُ الظُّلُمَاءُ بِحَرٍّ ضَلَّ بَرًّا
 وَالزَّبِيعُ فِيهِ قَدْ أَمْسَى الْخَرِيفَا^(٦)
 وَالْجِبَالُ هَدَمَتْهَا الطَّائِرَاتُ
 لَذَّةَ لِلسَّطَوِ وَالْغَزْوِ اسْتَطَابُوا^(٧)
 نَهَبُوا الْأَمْوَالَ مِنْ أَقْوَامِنَا

(١) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أتاح : هَيَّا .

(٣) أي أن ما يراه العلم ، ويحكم به ، هو وحده ما يفسر الوجود .

(٤) الْحَبَابُ : النفاخات على سطح الماء . والسَّرَابُ : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء .

(٥) إِمَّا : تتألف من إن الشرطية وما الزائدة .

(٦) الكفيف : الأعمى . أي أن المتصاعد من الدخان والغاز يعمي العيون .

(٧) اللهاب : مصدر من لهبت النار أي اشتعلت .

واستمدُّوا بَطْشَ إبْلِيسَ الرَّجِيمِ تُضْهِحُ الْأَنْوَارُ نَاراً بِالْجَحِيمِ^(١)
 قَتْلُهُ مَا زَالَ كَالْأَمْرِ الصُّعُوبِ إِنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي عُمُقِ الْقُلُوبِ^(٢)
 كَانَ أَوْلَى مُؤْمِناً أَنْ تَجْعَلَهُ وَبَسِيفٍ لِلْكِتَابِ تَقْتُلُهُ^(٣)
 مَا جَلَالُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ جَمَالٍ ! أَيُّ هَجَرٍ ذَاكَ يَخْلُو مِنْ وَصَالٍ !
 عَلَّمْنَا بِالْعِشْقِ عِلْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَغْيِرُ الْعِشْقُ عِلْمُ الْكَافِرِينَ
 جُثَّةٌ عِلْمٌ لَنَا مَا لَمْ نُحِبْ وَلَنَا الْعَقْلُ كَسْهُمْ لَمْ يُصِبْ
 هَبْ عِيُونَ الْعُمَى نوراً تَشْهَدُهُ
 وَاهِدٍ لِلْإِيمَانِ مِنْ تَبَّتْ يَدُهُ^(٤)

زنده رود

محكماتٌ لي أُنَتَ في الكتابِ عَالَمٌ مَا زَالَ يَطْوِي فِي الْحِجَابِ^(٥)
 النَّقَابُ عَنْ جِيْنٍ مَا رَفَعَ وَلِمَاذَا مِنْ فُؤَادٍ مَا طَلَعَ
 وَلَدَيْنَا عَالَمٌ فِيهِ الدَّيْبُ لِلْبَلَى ، وَالنُّومِ فِيهِ لِلشُّعُوبِ
 فِي التَّارِ خَمَدَتْ نَارُ الْغِلَابِ أَلَمَنْ أَسْلَمَ مَوْتُ وَالْكِتَابِ^(٦)

سعيد حلیم باشا

إِنَّ دِينَ الْحَقِّ كَالْكَفْرِ الضُّرَاحِ إِنَّ تَرَدَّى الشَّيْخُ فِي الْكُفْرِ الْمَبَاحِ^(٧)

(١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .

(٢) الصُّعُوبُ : الصَّعْبُ . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .

(٣) الكتاب : القرآن .

(٤) يقول : هب عيون العميان بصرأ لرؤية الله بقلوبهم : ومن تبت يداه هو أبو لهب . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] .

(٥) الكتاب : القرآن .

(٦) غالبه غلاباً بمعنى قاهره .

(٧) الضُّرَاح : الخالص . وتردَّى في الشيء : سقط .

طَلْنَا يَبْدُو كبحرٍ عندنا وَيُرَى فِي الْبَحْرِ هَذَا طَلْنَا (١)
 مِنْ أَعَاجِبِ لِمَنْ بَاعَ الْكِتَابَا كَمْ تَعَالَى صَوْتُ جِبْرِيلَ انتحابا
 فِي السَّمَاءِ لَمْ تَشْفُهُ جَوْلَةً عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ قَوْلُهُ (٢)
 مَا نَصِيحاً نَالَ مِنْ دِينِ النَّبِيِّ فِي ظِلَامٍ لَصِياعِ الْكَوْكَبِ
 وَضَرِيرُ الْقَلْبِ يَهْذِي فِي النُّفَاقِ نَعْمَةُ الْأُمَّةِ مِنْهُ فِي الشَّقَاقِ (٣)
 مَكْتَبٌ ، شَيْخٌ ، وَأَسْرَارُ الْكِتَابِ أَكْمَهُ وَالشَّمْسُ كُنْهًا لَا تَحَابِي (٤)

دِينٌ مَنْ يَكْفُرُ تَدِيرُ الْجِهَادِ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَيْخٌ فِي الْفَسَادِ

« رَجُلٌ اللَّهُ لِلدُّنْيَا الرُّوحَ كَانَا » قُلْ لِمَنْ فِي عِزَّةِ الرُّكْنِ اسْتَكَانَا !
 أَنْتَ يَا مَنْ لِلْحَيَاةِ الْفَكْرُ مِنْكََا وَثَبَاتُ الشَّعْبِ قَوْلٌ قِيلَ عَنْكََا
 حَفِظْتُ قَوْلَ اللَّهِ كَانَ دَبْدُنُكَ نَشْرُهُ فِي النَّاسِ كَانَ مَذْهَبُكَ
 أَزْفَعَ الرَّأْسَ تَكَلَّمْ يَا كَلِيمَ مَنْ يَدِينُكَ يَضْدُرُّ الْأَمْرُ الْعَظِيمَ
 عَنْ بِيَاضِ الشَّعْبِ حَدَّثْنَا طَوِيلَا وَلَتَذَكَّرُ بِالْفَلَا ظِيماً جَمِيلَا (٥)

أَنْتَ حَقّاً مُسْتَتِيرٌ مِنْ مُحَمَّذٍ

وَضَعْنَا الْحَالِي فَصْفَهُ ، أَيْنَ نَوْجُذُ !

مَا اسْتَمَدَّ رَجُلُ اللَّهِ الْبَشَرُ وَاسْتَمَدَّ مِنْ إِلَهٍ قَدْ غَفَرَ

(١) الطَّلُّ : النَّدى .

(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .

(٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردد في الضلال ، ويتحير في طريقه ، وكلام هذا الشيخ يوقع الناس في الحيرة والخلاف .

(٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .

(٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ﴾ [طه : ٢٢]

وبيضاء ؛ أي : مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

كُلُّ يَوْمٍ سَعِدَتْ رَوْحُ بِقَرْبِهِ كُلُّ يَوْمٍ كَانَ فِي شَأْنِ كَرْبِهِ
 مُؤْمِناً أَوْقَفَ عَلَى السِّرِّ الْخَفِيِّ « كُلُّ يَوْمٍ » مُدَّةً بِالشَّرْحِ الْجَلِيِّ^(١)
 مَا لِرَكْبٍ نَزَلَ إِلَّا الْحَرَمُ فِي قُلُوبٍ مِنْهُمْ اللَّهُ الْحَكَمُ
 وَطَرِيقاً آخِراً مَا إِنْ ذَكَرْتَ
 نَظَرَةً أُخْرَى لَهُمْ مَا إِنْ عَرَفْتَ

الأفغاني

مَنْ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى نِلْتَ النِّصْبَا ؟ كَانَ دِينُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا غَرِيباً^(٢)
 إِنَّهُ قَوْلٌ مِنَ الْأَقْوَالِ بِكَزْ مَا عَنِ الْفَقْرِ قَطُّ أَهْلُ ذِكْرِ
 عَنْهُ مَشْغُولٌ بِبَحْثِ حَقِيقَةِ نَدْرَةُ الْآيَاتِ كَانَتْ غُرْبَةً^(٣)
 إِنَّهَا فِي كُلِّ عَصْرِ تَخْتَلِفُ أَفْهَمَنْ مَا أَقُولُ يَا ثَقِيفُ^(٤)
 أَمْنَحِ الْقُرْآنَ مَنْ فِكْرٍ مَزِيدَا وَكَمَا شِئْتَ افْتَتِحْ عَصراً جَدِيدَا
 عَنْ كِتَابِ اللَّهِ مَنْ زَاغَ السُّنَارَا فِيهِ أَهْلُ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْحَيَارَى^(٥)
 هَوْلَاءِ الرُّؤُوسُ شَيْئاً أَبْدَعُوا أَوْجَدُوا الْخُبْرَ وَدِيناً ضَيَّعُوا

- (١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هِيَ فِي شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفنقر إليه كل من فيهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .
- (٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين المُتَمَسِّكين بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقبل الأيام بين قوم غريباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديث آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .
- (٣) الحُقْبَةُ : المدة من الدهر ، لا وقت لها .
- (٤) الثَّقِيفُ : الحاذق الفطن .
- (٥) زاح : أزاح .

بِاللِّسَانِ الْحَقِّ قُلْ وَانْظُرْ بِعَيْنٍ
أَبْلَغَ مِنَ الْقَوْمِ مِنِّي لَفْظَتَيْنِ

رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا

إِنَّ لِلْقُرْآنِ قَصْداً آخِراً
قَلْبُهُ مَا فِيهِ نَارٌ تَسْتَعِزُ
ثَمَرَ الْقُرْآنِ عَبْدٌ مَا أَكَلُ
قِصْراً أَفْنَى وَكِسْرَى حَطْماً
دَوْحَةُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَاسْتَوَتْ
وَمِنْ الْمُلْكِ اخْتِلَافُ النَّظَرَةِ

وَاخْتِلَافُ الْعُرْفِ بِلِ الْفِكْرَةِ

أَنْتَ أَرْسَيْتَ الْأَسَاسَ الْمُخْتَلِفُ
نَحْنُ فِي الْمَاضِي هَدَمْنَا الْكِسْرَوِيَّةَ
كِي تُنِيرَ الْيَوْمَ مِصْبَاحَ الضَّمِيرِ
وَلْتُنَبِّئْتَ قَدَمَيْكَ فِي الْمَصَافِ
هَذِهِ الدُّنْيَا الْعَجُوزُ قَدْ أَرَادَتْ
ثُمَّ وَلَّ الْوَجْهَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ
شَعْلَةً أُخْرَى بِرُوحٍ تُوقَدُ

وَمِنْ الْمَاضِي قُلُوباً تَقْتَطِفُ
أَنْتَ قَوَّضْتَ بِنَاءَ الْقَبْضَرِيَّةِ
عِبْرَةً مِمَّا اتَّخَذَ عَبْرَ الْعُصُورِ
حَوْلَ أَصْنَامِ حَذَارٍ مِنْ طَوَافِ (٢)
شَعْبَهَا شَيْخاً وَمِنْ شَيْخِ أَفَادَتْ (٣)
كَيْفَ تَنْسُو يَوْمَ مَاضٍ مُغْرِقِ (٤)
وَلَكَ الْعَصْرَ الْجَدِيدُ تُوجَدُ

(١) الذُّهَاق : الممتلئة .

(٢) المَصَاف : موقف القتال .

(٣) أَفَاد : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .

(٤) وَلَّ : وجه . الْمُغْرِق : العريق في الكرم . يريد ليقول : إنَّ بين الرُّوس والشرق
صلات تاريخية مجيدة .

إِنَّ دِينَ الْغَرْبِ قَدْ أَمْسَى زَمِيمًا لَا تَشَاهِدُ ذَلِكَ الدَّيْرَ الْقَدِيمَا ^(١)
وَتَلَلْتَ الْحَاكِمِينَ الْيَوْمَ تَلًّا أَتُرَكُّنَ « لَا » وَلْتَيْمُمَ نَحْوَ « إِلَّا » ^(٢)
إِنَّ « لَا » ضَمِنَ كَلَامٍ كَانَ نَفِيًّا أَنْتَ بِالْإِبْبَاتِ خُذْ دَوْمًا لَنْحِيَا ^(٣)

وَإِذَا شِئْتَ نَظَامَ الْعَالَمِ

فَلْيَكُنْ فَوْقَ الْأَسَاسِ الْمُخْتَمِ

وَمَنْ التَّارِيخِ تَمْخُو كُلَّ بَابٍ فَاقْبِسِ الْأَنْوَارَ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ
مَنْ يَقُولُ مَاتَ كَسَرَى مَاتَ قَيْصَرٌ؟ بَيْنَ سَوْدٍ بِالْيَدِ الْبِيضَاءِ بَشَرٌ؟ ^(٤)
دَعَاكَ مِنْ هَذَا التَّجَلِّيِ لِلشَّيَاطِثِ أَتَرَكَ الْغَرْبَ وَأَذْرَكَ كُنْهَ ذَاتِ ^(٥)
وَيَمَكِّرِ الْغَرْبِ إِنْ كُنْتَ الْخَيْرَا لَا تُقْلِدْ ثَعْلَبًا بَلْ كُنْ هَضُورًا ^(٦)
أَمَلُ الثَّغْلَبِ فِي الدُّنْيَا طَعَامٌ قَوْلُ أَسَدِ اللَّهِ « حُرٌّ أَوْ حِمَامٌ » ^(٧)
يُضْبِحُ الثَّعْلَبُ ذِيكَ الْأَسَدِ دُونَ قِرَآنٍ ، وَمُلْكٍ مَا اسْتَنْدَ
فَقَرُّهُ مُلْكٌ وَذِكْرُهُ ثُمَّ فِكْرٌ وَاهِبُ الْفِكْرِ الْكَمَالُ كَانَ ذِكْرٌ
كَانَ تَهْذِيبًا لِأَشْوَاقٍ وَذَوْقٍ إِنَّهُ فِي الرُّوحِ ، لَمْ يُوجَدْ يَخْلُقُ
فِي الصُّدُورِ مِنْهُ نَارٌ تَلْتَهَبُ وَأَجِيجُ النَّارِ لَمَّا تَسْتَطِيبُ ^(٨)

يَا شَهِيداً فِي هَوَى الْفِكْرِ الْجَمِيلِ

ذَا تَجَلَّى الْفِكْرِ فِي قَوْلٍ طَوِيلِ

(١) الرميم : العظم البالي .

(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لَا » و « إِلَّا » إلى « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

(٣) دوماً : دائماً .

(٤) السود : العرب .

(٥) الشيات : الألوان .

(٦) الهصور : الأسد .

(٧) الحِمَام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .

(٨) أجيح النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

ما هو القرآن ؟ هَلْكَ الظالمينا
أهلُ حِرْصٍ أي خَيْرِ حَقَّقُوا
ليس من هذا الرِّبَا إلا الفِتْنُ
يَجْعَلُ الإنسانَ صَخْرِيَّ الفؤادِ
عن منالِ رِزْقِ أرضٍ ما امتناع !
الأمينُ العَبْدُ والرحمنُ مالِكُ
الملوكُ نَكَّسُوا لِهَرَارِيهِ
والخلاصَ كانَ للمُسْتَعْبِدِينَا^(١)
﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ﴾^(٢)
من دَرَى ما لذَّةُ القِرْصِ الحَسَنُ ؟
أو كَلِيتِ أذْرَدَ وَسْطَ المَصَادِ^(٣)
مُلْكُ رَبِّ وهِيَ لِلْعَبْدِ المَتَاعُ
كُلُّ شَيْءٍ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ هَالِكُ^(٤)
والقُرَى من ظَلَمهم في الذِّلِّ غَايَةُ^(٥)

خَبَرْنَا والماءُ تحوي مائِدُهُ

إِنَّمَا النَّاسُ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ^(٦)

صورةُ القرآنَ لما أَظْهَرَتْ
وأقولُ ما بقلبي يُضْمَرُ
مِثْبَةُ الرَّحْمَنِ يَخْفَى وَهُوَ ظَاهِرُ
وَلِغَزْبٍ فِيهِ أَقْدَاؤُ وَشَرْقُ
قال جُذْ بِالرُّوحِ جُذْ لِلْمُسْلِمِ
أَنْتَ يَا مَنْ ذَلِكَ الشَّرْعُ اتَّخَذْتَا
صُوراً أُخْرَى سِوَاهَا أُبْطَلَتْ
اكتسابُ ذاك ؟ شَيْءٌ آخَرُ ؟
دائِمٌ حَيٌّ وَمِنْطِيقٌ يُجَاهَرُ^(٧)
كُنْ سَرِيعَ الفَهْمِ أَسْرِعِ مِثْلَ بَرْقِ
فوقَ ما تحتاجُ طَوْعاً قَدَمُ
في كتابِ اللَّهِ نوراً لَوِ رَأَيْتَا

(١) الهلك : الهلاك .

(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ وَمِمَّا يُنْفِقُونَ شَيْءٌ فَلَا يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٣) الأردد : من ذهب أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .

(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] .

(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .

(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٧) المنطيق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَرَفْتَ مَا تَعَالَى وَانْحَدَزَ

فِي الْحَيَاةِ وَفَهِنْتَ مَا الْقَدَزَ

مَا مَعَ السَّاقِي حَوَانَا الْمَخْفَلُ مِعَزَفُ الْقِرَآنِ دَوْمَا يَهْدُلُ^(١)
لَوْ خَلَا عَزَفٌ لَدَيْنَا مِنْ أَثَرِ فِي السَّمَاءِ لَا سْتَمَعْنَا لِلْوَتْرِ
ذَكَرُ رَبِّي عَنْ شُعُوبٍ فِي غِنَى لَزِمَانٍ وَمَكَانٍ مَا انْتَشَى^(٢)
أَيَنْ مِنْ ذِكْرِ لِرَبِّي مِنْ ذَكَرِ مَا لِرُومٍ مَا لِشَامٍ مِنْ خَبَرِ^(٣)
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَنَّا حَمْلَهُ لَا سْتَطَاعَ لِسَوَانَا نَقْلَهُ^(٤)
ذَلِكَ التَّقْلِيدُ فِينَا قَدْ رَأَيْتُ رِغْدَةً لِلرُّوحِ فِي جِسْمِي وَجَدْتُ^(٥)
فِي غِدِّ قَدْ يُخْرِمُونَ ذِكْرَهُ
وَيَقْلِبُ الْغَيْرَ يَلْقَى نَارَهُ

جلال الدين الرومي

يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إِنَّمَا الرُّومِيُّ فِي جَذْبٍ تَفَجَّرَ وَعَرَفْتُ الْقَوْلَ فِيهِ كَيْفَ أَثَرُ
صَعْدَ الرُّفْرَةَ نَاراً لِلْكَبُودِ سَكَبَ الدَّمْعَ دِمَاءَ لِلشَّهِيدِ^(٦)
بِالسَّهَامِ رَاشِقٌ قَلْبَ الرُّجَالِ سَيِّدُ الْأَفْغَانِ خُصَّ بِالْمَقَالِ^(٧)

(١) المِعَزَفُ : آلة الطرب . وَهْدَلُ الْحَمَامُ : صَوْتُ .

(٢) يقول : إِنَّ ذَكَرَ اللَّهِ لَيْسَ خَاصّاً بِشُعْبٍ خَاصٍّ ، وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَى زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ .

(٣) يريد ليقول : إِنَّ ذَكَرَ اللَّهِ مُتَفَصِّلٌ عَنْ ذَاكَرِهِ ، وَلَا صِلَةَ لَهُ بِالْمَكَانِيَةِ .

(٤) غرضُ الشَّاعِرِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْصُ بِذِكْرِهِ قَوْمًا بَعِيْنَهُمْ .

(٥) يَمِيبُ التَّقْلِيدُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ .

(٦) الْكَبُودُ : جَمْعُ كَبَدٍ .

(٧) الْمُرَادُ بِسَيِّدِ الْأَفْغَانِ السَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِي .

« حمرة للأفق ضغها في الوتين وسموط الحق أمسك باليمين^(١)
 بالمنى الأرواح سيل ذو زبذ إنما اليأس لها موث الأبد
 وأشار ثم قال « زنده رود فليكن بالشعر ناراً ذا الوجود
 ناقة من أينها ضاقت خطاها آدها الحمل وأن من حذاها^(٢)
 امتحان الطاهرين بالبلاء فلنزد في طول جهد الظماء^(٣)
 وعن النسل ابتعد مثل الكليم كالخليل فلتسز نحو الضريم^(٤)

من حبيب نعمة ماجت بطيب
 أمة تسكن داراً للحنسب

غزل زنده رود

ليس زهر في الرياض بالمقيم أبداً إنه يمضي كامواج التسيم أبداً
 أين معنى ما وجدنا بغد بحث يا تروى مكتب يبقى وحان كالعقيم أبداً
 ومن الذات تعلم أنت حرفاً واخترق تغد الخانقاه ناراً للكليم أبداً^(٥)

- (١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والسموط : حبال تتدلى من السرج .
- (٢) الأين : التعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنى لها . يقول : إن غناء من يسوق الناقة يبني أن يصبح أنبأ بعد تعب ناقته .
- (٣) الظماء : جمع ظامىء . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .
- (٤) الضريم : الحريق وهو هنا نار إبراهيم عليه السلام . والشاعر يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذه في النيل ليلقيه بالساحل .
- (٥) الخانقاه : مبنئ يقيم فيه المتصوفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزاً للمعرفة .

لا تَحَدَّثْ عَنْ صَفَاءِ مَنْ بِخَانِقَاهُ سَكَنُ وَسِخَ الشَّعْرِ تَرَاهُ وَالْأَدِيمُ أَبْدَا^(١)
كَمْ بِيوتٍ شَيَّدُوها وَسَطَ بَيْتٍ وَاحِدٍ لَا يَثِيرُ الْقَلْبُ رِيأً لِلْمُقِيمِ أَبْدَا^(٢)
لَيْسَ خَطْباً أَنْ يَضِيقَ بِالنَّدَامَى مَجْلِسِي إِنَّهُ أَلَّا تَرَى كَأْسَ النَّدِيمِ أَبْدَا !

(١) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبةً منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ (أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .

(٢) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إنَّ الموحِّدين لهم جميعاً فكرةً واحدةً لا ريب فيها ، وهو يَعْجُبُ لانقسام القَوْمِ فرقاً وطوائف .

فلك الزهرة

يَخْجُبُ النُّورَ بَدَا بَيْنَ السَّحَابِ مِنْ فِضَاءِ الصَّفِيقِ مِنْ حِجَابِ^(١)
 وَاجْهُونَا بِالسُّتُورِ عُلِّقَتْ لِلتَّجَلِّيِ كُلُّ نَارٍ أَخْمَدَتْ
 كَيْ تَزِيدَ النَّارُ فِي الْقَلْبِ اشْتَعَالَا وَتَرَى غُضْنًا وَبِالْأَثْمَارِ طَالَا
 وَبِوَقْدٍ مِنْهُ فِي وَرْدٍ دِمَاءُ زُبْقًا بِالرَّقْصِ مِنْهُ كَانَ مَاءُ
 هَكَذَا مِنْ تُزْبِهَا الْأَرْوَاحُ قَامَتْ وَبِمَا لَا تَشْهَدُ الْعَيْنَانُ لَادَتْ^(٢)
 وَالطَّرِيقُ يَحْتَوِي مَوْتًا وَخَشْرًا فِيهِ لَكِنْ زَوَّدُوا بِالنَّارِ سَفَرًا^(٣)
 فِي الْفِضَاءِ دَارَ مُزْرَقُ الْفَلَكَ هَابِطٌ يعلو وما يعلو انْسَبَكَ^(٤)
 وَهِيَ إِبْرَاهِيمُ أَوْ ذَاكَ الْحَرِيمِ كَالذَّبِيحِ ، فِي الْفِدَاءِ لَا يُلُومُ^(٥)
 السَّمَوَاتُ وَهَذِي خَيْبَرُ لَا يُجْنِدُ الطَّغْنُ إِلَّا حَيْدَرُ^(٦)

(١) الصفيق : ضد الرقيق .

(٢) التُّزْب : التراب .

(٣) السُّفَر : المسافرون . يقول : إِنَّ النَّارَ كَانَتْ زَادًا لَهُمْ .

(٤) انْسَبَكَ الذَّهَبُ : ذُوبَ وَأَفْرَغَ فِي قَالِبٍ . وبذلك يشبه انخفاض واستواء ما ارتفع .

(٥) الذبيح : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .

(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي لفتح أحد الحصون وكان عليُّ أرمداً . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمداً بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن معه . وشدَّ عليُّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهمز اليهود إلى حصنهم وبارزه يهودي آخر وضربه ضربة شديدة حطمت ثرسه . فتناول كرم الله وجهه باباً عند الحصن يُتْرَسُ به عن نفسه . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طَهَّرَ الرُّوحَ الصُّرَاغُ الْمُسْتَمِرُّ إِنَّهَا تَجْرِي بِهِ أَوْ تَسْتَقِرُّ
وهي في نورٍ على نورٍ تَطِيرُ وَلَدَيْهَا الصَّيْدُ جَبْرِيلُ وَخُورٌ^(١)
ثمَّ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ يَضْحَى النَّصِيَا

لمقام « عبده » تَمْسِي الرَّقِيَا^(٢)

فِي مَقَامِي لَسْتُ أَدْرِي أَيْنَ كُنْتُ إِنِّي عَنْ كُلِّ خُلَانِي نَائِتُ
تَعْدَمُ الْحَرْبُ بِصَدْرِي عَسْكَرَا مِنْ لَهُ عَيْنٌ كَعَيْنِي قَدْ يَرَى
مَنْ دَرَى مَا الْحَرْبُ فِي كَفْرِ وَدِينِ وَخَذَهَا نَفْسِي كَزِينِ الْعَابِدِينَ^(٣)
أَيُّ مَعْنَى لِلطَّرِيقِ وَالْمَقَامِ ؟ إِنَّ شَكْوَايَ السَّرَاجُ فِي الظَّلَامِ^(٤)
أَهْلَكَ إِلَيَّ الشُّيُوخَ وَالشُّبَابَا هَاكَ شَيْخًا وَاحِدًا جَارَ الْعُبَابَا^(٥)
قَدْ رَفَعْتُ الشَّرَّ وَالشَّرَّ انْطَوَى أَرْهَبُ الْوَصَلَ وَتَبْكِينِي النَّوَى^(٦)
الْوَصَالُ آخِرُ الشُّوقِ ! الْحَذَرُ ! مَا لَشَكْوَى وَزَفِيرٍ مِنْ أَثَرِ !
سَالِكٌ مَا إِنْ رَأَى مَثَنَ الطَّرِيقِ مِنْ فَرَاغٍ إِنْ يَكُنْ غَيْرَ الْمُفِيقِ^(٧)

(١) الصيد : ما يصاد .

(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] . أي
ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبتته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من
العجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ ﴾
[النجم : ١٠] ؛ أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى النبي ولم يذكر
الموحي تفخيماً لشأنه .

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين رضي الله
عنه ، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقة السر ، والحلم ،
والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانت وفاته عام ٩٤ هـ .

(٤) السراج : المصباح .

(٥) اليَمُّ : البحر . والعُبَابُ : العوج .

(٦) النَّوَى : البعاد .

(٧) الْفَرَاغُ هنا هو : سكون النفس .

إِنَّ لِي قَلْباً وَمَنْ ذَوْقِ النَّظَرِ عالماً يَشْتاقُ ، بالشَّوقِ اسْتَعَزَّ^(١)
 إِنَّمَا الرُّومِي بِرُوحِي تِلْكَ أَغْلَمُ قَالَ يَا مَنْ عَالِماً تَبْغِي تَسَلَّمُ
 فِي يَمِينِ الْعِشْقِ نَخْنُ وَهُوَ يَلْعَبُ فتَأَمَّلْ ، يَحْتَوِينَا أَيُّ كَوْكَبِ^(٢)
 عَالِمٌ وَالْأَسُّ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ مِنْ سَوَادِ الْمِنْكِ يَبْدُو فِي كِسَاءِ^(٣)
 وَبِعَيْنٍ مَرَّقَتْ كُلَّ الْحُجُبِ انْظُرْنَ وَاخْتَرِقْ كُلَّ السُّحُبِ
 سَتَرِي الْأَرْبَابَ حَتْمًا كُلَّهَا وَأَنَا أَغْلَمُ حَقًّا حَالَهَا
 (بَعْلٌ وَمَرْدُوحٌ وَيَعُوقُ وَنَسْرٌ وَفَسْرٌ رَمِ خَنْ وَلَاثٌ وَمَنَاةٌ وَعَسْرٌ وَعَسْرٌ)
 إِنَّهَا لِلْبَعْثِ تَأْتِي بِالذَّلِيلِ
 فَالزَّمَانُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ خَلِيلِ^(٤)

عودة الجاهلية

مرَّ شاعرُ الإسلام - في بعض زياراته الرُّوحيةِ وسياحاته الفكريةِ - بوادٍ ،
 اجتمعت فيه الآلهةُ القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتت أصنامها
 وتمائيلها ، وبنّت عليها هياكلَ ومعابد ، وعكفَ عليها السدنة والكهّان ، وتغنّى
 بها الشعراءُ والأدباء ، وكان مَجْمَعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ
 مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التَّبابعة ،
 والأدواء من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

(١) استعرت النار : اشتعلت .

(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزُّهرة .

(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .

(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيمُ الخليل عليه السلام
 محطّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسي ، فلتنطق كُلُّ وَاوٍ
 ضَمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إله الوضل ، وذلك ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم إنهم أشكالٌ واللوان ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلد حية ولوaha حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمديّ ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، وولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحب بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنَّ إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمنَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقة أملٍ لاحت بعد مدَّة ، ونفحة هبَّت من أرضٍ حكمتها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعْل - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغني في طرب ومرح ، ويقول : « إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنَّح له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنَّه لا يرنح إلا إلى المحسوس المشهود .

حيّا الله الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ؛ التي أتاحها لنا الدهاء الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وضيَّعُوا ذَلِكَ الدِّينَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، وَالَّذِي بَعَثَ فِيهِمُ الْإِيمَانَ
وَالْيَقِينَ .

إِنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ الْحَرَّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْحُدُودَ وَالْجِهَاتِ ، وَلَا يَعْبُدُ غَيْرَ
الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَصْبَحَ يُؤْمِنُ بِالْوَطَنِ ، وَيَقْدِّسُهُ ،
وَيَعْبُدُهُ ، وَيَقَاتِلُ فِي سَبِيلِهِ ، وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ ، وَيَهْجُرُهُ وَيَتَنَاسَاهُ .

لَقَدْ خَضَعَ الْمُسْلِمُونَ لِنُفُوزِ الْغُرَبِيِّينَ وَمَجْدِهِمْ ، وَأَصْبَحَ شِيُوخُهُمُ الْكِبَارُ
وَعُلَمَاؤُهُمُ الْعِظَامُ يَتَقَلَّدُونَ شِعَارَهُمْ ، وَيَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ ، فَلَنَسْتَبَشِّرُ وَلَنَنْتَهِزُ هَذِهِ
الْفُرْصَةَ .

لَقَدْ عَادَ إِلَيْنَا الشَّبَابُ ، وَحُقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُرَ ، فَقَدْ انْهَزَمَ الدِّينُ ، وَانْتَصَرَتْ
الْوَطَنِيَّةُ وَالْجَنَسِيَّةُ . إِنَّ الْمَصْبَاحَ الَّذِي أَنْارَهُ مُحَمَّدٌ ، تَأَلَّبَ عَلَيْهِ مَنَّةُ « أَبِي لَهَبٍ »
يُطْفِئُونَهُ ، إِنَّا لَا نَزَالُ نَسْمَعُ صَوْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَكِنَّهُ صَوْتُ يَصْدُرُ عَنْ
الشَّفَتَيْنِ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنِ الْقَلْبِ ، وَكُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْقَلْبِ سَيَغِيبُ عَنِ الْفَمِ .

لَقَدْ أَعَادَ سِحْرُ الْغَرْبِ دَوْلَةَ إِلَهِ الشَّرِّ وَالظُّلْمَةِ ، وَشَبَابَهُ ، وَأَصْبَحَ الدِّينُ الْإِلَهِيُّ
مَهْدَدًا ، فَطُوبَى لَنَا وَإِخْوَتِنَا الَّذِينَ قَطَعُوا الرِّجَاءَ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَاعْتَكَفُوا فِي
الْخُلُوتِ وَالْمَغَارَاتِ .

لَقَدْ كَانَ عِبَادُنَا أَحْرَارًا ، لَهُمُ التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ ، وَالْحُرِيَّةُ الْكَامِلَةُ فِي
حَيَاتِهِمْ ، لَمْ نَتَقْلَهُمْ بِعِبَادَةٍ وَطَاعَةٍ ، وَإِنَّمَا طَلَبْنَا مِنْهُمْ رُكْعَةً لَا سَجُودَ فِيهَا ، وَقَدْ
أَثَرْنَا فِيهِمُ الْعَاطِفَةَ الدِّينِيَّةَ بِالْأَنَاشِيدِ وَالْأَغَانِي ، فَلَمْ نَكُنْ صَلَاتُهُمْ إِلَّا مَكَاءً ،
وَتَصَدِيَّةً ، وَنَعْمَةً ، وَأَغْنِيَةً ، وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي صَلَاةٍ لَا غَنَاءَ فِيهَا ، وَلَا مُوسِيقَا ؟ !

إِنَّ النَّاسَ لَا يَبْدُوْنَ بِمُفَضِّلِينَ عِبَادَةَ طَاغُوتٍ مُشْهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ إِلَهٍ غَائِبٍ ، وَرَبِّ
لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ ^(١) .

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ - ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظلمَ الغَيْمُ وَلِلرَّيحِ الْخُفُوقُ	في الظَّلامِ تَفْقِدُ الثَّوَرُ الْبُرُوقُ (١)
الرياحُ البحرُ فيها قد تَعَلَّقُ	شَقَّتِ الثَّوْبَ بِدُرٍّ كَمْ تَأَلَّقُ
لا يرى شَطْطٌ وَمَوْجٌ يَهْدُرُ	ما على صَنِعِ الرِّيحِ يَقْدِرُ (٢)
وَمَعَ الرُّومِيُّ فِي بَحْرِ السَّوَادِ	حُلُمًا كُنَّا بِسُودَاءِ الْقَوَادِ (٣)
إِنَّهُ الْمِسْفَارُ لَكِنْ لَمْ أَسَافِرْ	وعلى هذا رَأَيْ غَيْرُ صَائِرِ (٤)
عَاجِزًا قُلْتُ كَلَامًا كُرِرَا	«عَالِمًا آخَرَ عَيْنِي لَا تَرَى»
وَإِذَا لِلْعَيْنِ أَطْوَادُ تَلُوحُ	وَعْدِيرٌ فِي مَرْوَجٍ وَهِيَ قَيْحُ (٥)
وَإِذَا فِي النَّجْدِ وَالسَّهْلِ الرَّيِّعُ	وَالنَّسِيمُ يَا لَهُ مِسْكَاً يَضُوعُ (٦)
وَلَنَا الطَّيْرُ تَغْتَنِّتُ بِالْجَوَى	وَالنَّيَابِيعُ وَعُشْبٌ مَا اسْتَوَى (٧)
ذَاكَ قَبْضٌ مِنْهُ لِلْجِسْمِ الْبَقَاءُ	وَلَعَيْنِ الرُّوحِ فِي الْجِسْمِ الْجَلَاءُ
وَمِنْ الطُّودِ نَظَرْتُ نَظْرَةً	لَأَرَى الدُّنْيَا تَرْفُ نَظْرَةً (٨)
وَاسْتَوَى الْوَادِي وَمَدَّ جَانِبِيهِ	إِنَّ مَاءَ الْخَضِرِ مَشْتَاقٌ إِلَيْهِ (٩)

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هَدَرَ البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الرومِيُّ : هو جلال الدين الرومِي ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبه .

(٤) المسفارُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النهر . والقيح : الواسعة .

(٦) النجد : ما ارتفع من الأرض . وضاع المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلالاً نضرة .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر

عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلة تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة

وهو ينبوع في أرض بعيدة تسمى دار الظلمات . ومن نَهَلَ نَهْلَةً منه ضَمِنَ أن يكون من

المخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنه خيطٌ من =

كلُّ رَبٍّ فِيهِ مِنْ ذَاكَ الزَّمَنُ ذَاكَ مِنْ أَرْبَابِ عُزْبٍ أَوْ عِرَاقٍ
وَسَلِيلُ الشَّمْسِ صَهْرٌ لِلْقَمَرِ وَاحِدٌ يَخْتَالُ بِالسَّيْفِ الْحُسَامِ
كُلُّهُمْ يَرْتَاغُ مِنْ ذِكْرِ الْجَمِيلِ « إِنَّمَا الْمَرْءُ مِنَ الْمَوْلَى هَرَبٌ »
« وَكَأَنَّ الْعَقْلَ مِنْهُ أَوْمَضَا ظُلٌّ يَسْتَحْسِنُ مَا كَانَ الْقَدِيمَا
وَيَجِدُ الْوَهْمُ فِي هَذَا الزَّمَانِ ثُمَّ غَنَى بَعْلٌ مِنْ فَرْطِ الطَّرَبِ
سَرَّنا أَفْشَاهُ عِنْدَ كُلِّ رَبٍّ ^(٦)

أَغْنِيَةُ بَعْلٍ

مَرْقُ الْمَرْءِ السُّتَارَ الْأَزْرَقَا مَا اسْتَطَاعَ رُبُّهُ أَنْ يَرْمُقَا ^(٧)

= فضة . فشرب منه ، وتلفت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولما الحياة هذا
ذكر متردّد في الشعر الفارسي الصوفي على أنه رمزٌ للحقيقة .

(١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسّمام : السموم .

(٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .

(٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها .

ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .

(٤) أومض البرق : ومض ولمع .

(٥) يجد : يصبح جديداً .

(٦) بعل : اسم إله عند الساميين .

(٧) رmqه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَوْجَةٌ لِلْفِكْرِ تَغْشَى قَلْبَهُ مَوْجَةٌ أُخْرَى لَهَا أَنْ تَفْرَقَا^(١)
 رَوْحُهُ بِالْحَسَنِ أَمْسَتْ فِي قَرَارِ مَنِةَ الْمَاضِي عَسَى أَنْ تَصْدَقَا^(٢)
 نَحْنُ حَابُونَ بِعِلْمٍ فَلْيَعِشْ عَالَمٌ أَحْيَا بِعِلْمٍ مَشْرِقَا^(٣)
 إِلَهِمَا الْأَرِيبَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

قِفْ تَأْمَلْ وَخُذْ قَدْ شَتَّتْ وَ ﴿ أَلَسْتَ ﴾ عِنْدَ قَوْمٍ أُبْطِلَتْ^(٤)
 حُطَمَتْ كَأَنَّ بِأَيْدِي ثُلَّةٍ خَمَرُ جِبْرَائِيلَ مِنْهَا أُسْكِرَتْ^(٥)
 كُلُّ حَرْفٍ فِي قِيودِ مِنْ حُدُودِ وَضَلَّةً بِاللَّهِ مِنْهُ صُدَّعَتْ
 سَوْدُدُ الْأَسْلَافِ بَرْدٌ فِي دِمَاءِ وَزَنَانِيرُ الشُّبُوحِ شُوْهِدَتْ^(٦)
 إِلَهِمَا الْأَرِيبَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

بَعْدَ دَفْرِ عَادَ يَوْمٌ لِلطَّرَبِ أَصْبَحَ الدِّينَ صَرِيحاً لِلنَّسَبِ^(٧)

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كل مجموعة منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقة في الرّوي ، ويتلو كل قسم بيتاً مستقلاً يُكَرَّرُ . وقد التزمنا في الترجمة روي هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . وَتَفْرَقُ : يخاف .

(٢) المنية : الأمل .

(٣) الحايي : واجد الحياة . وكأنَّ هذا الإله يدعو بطول البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرق بعلمه .

(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْتَ ثَقُلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكانه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقرنا بوحدانيتك .

(٥) الثَّلَّةُ : الجماعة من الناس .

(٦) الزَّنَانِيرُ : جمع زُنَّار . وهو ما يُشَدُّ به النصراني وسطه .

(٧) يقول : إِنَّ العنصرية طغت على الدِّين .

لا تفكر في سراج المصطفى أحمَد الشُّعْلَة فيه « بولهب »^(١)
« لا إله » في لسان ناطق عن فؤاد شُرِّدَتْ يا لِلْعَجَبِ !
إنَّ سِخْرَ الْعَرْبِ أَحْيَا أَهْرَمَنْ^(٢) وَجْهَ يَوْمِ اللَّهِ مَنْ لَيْلٍ شَحَبَ
أَيْهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ
دِينُكَ الْقَيْدُ تَحَرَّزْ مِنْ قِيُود عَبْدُنَا قَدْ كَانَ حُرّاً فِي عَبِيد
وعليه كسي نَشَقُّ فِي صَلَاة رَكَعَتَيْنِ نَبْتَغِي ، مَا مِنْ سُجُود
إنَّمَا النِّعْمَةُ تُعْلِي جَذْبَةً مَا الصَّلَاةُ وَهِيَ تَخْلُو مِنْ نَشِيد
إنَّ خَيْراً مِنْ إِلَهٍ قَدْ تَوَارَى ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَبْدُو فِي الشُّهُود
أَيْهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

الغوصُ في بَحْرِ الزُّهْرَةِ ومشاهدةُ رُوحِ كَتَشْنَرِ وَفِرْعَوْنَ

مَيَّزَ الرُّومِيُّ ذَكَرٌ لِلْجَمِيلِ ضَرْبُهُ يُشْبِهُ ضَرْباً لِلْخَلِيلِ
غَزْلاً قَالَ وَبِالسُّكْرِ اتَّقَدْ كُلُّ رَبِّ فِي خَشْوَةٍ قَدْ سَجَدَ

غزل

« حصن ما يمضي ويأتي بالنظر ، ذاك أولى انْهَضَنْ خذْ بِأَفْكَارٍ أُخْرَ ، ذاك أولى
ناقاة الأيام أوساقاً لعشوق حُمَّلَتْ ازْحَلَنْ فِي الْمَسَاءِ وَالسَّحَرِ ، ذاك أولى^(٣) »

(١) السَّراج : المصباح . وبولهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .

(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .

(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقلُّ أبياتها عن سبعة عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالزديف ، وهو كلمة أو كلامٌ يَكوَّرُ بعد كلِّ =

قَالَ شَيْخٌ مَا لِدُنْيَانَا أَسَاسٌ مُّحْكَمٌ
 أَنْتَ بِالتَّوَكُّلِ أَنْتَسَاهَا وَلَوْ حَاولَتْه
 قَلْتُ فِي قَلْبِي مَنَاءٌ وَكَثِيرٌ غَيْرُهَا
 قَالَ « فَاَنْهَضْ مُسْرِعاً وَاقْدَمْ إِلَيَّا
 الْجِبَالُ وَهِيَ مِنْ مُوسَى خَلَّتْ
 خَلْفَهَا قَدْ لَاحَ بَحْرُ الْجَوْهَرِ
 أَيُّ بَاسٍ مِنْ عُبَابٍ أَوْ أَنِّي
 إِنَّ فِي هَذَا مَقَامٌ مِنْ تَجَبُّرٍ
 ذَاكَ شَرِيفِي وَذَا مِنْ أَهْلِ غَرْبٍ
 وَعَصَا مُوسَى عَلَى هَذَا تَهَاوَتْ
 مِثْلُ فِرْعَوْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ
 يَعْرِفَانِ الطَّغَمَ مَرّاً لِلرَّدَى
 سِرٌّ وَرَائِي يَا بَنِي لَا تَخَفْ
 وَكَمُوسَى الْبَحْرِ إِنْ سِي فَالِقُ
 شَقٌّ مِنْهُ الْبَحْرُ صَدْرًا كَالضُّيَاءِ
 قَاعُهُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ قَدْ خَلَا

يَنْبَغِي عَمَّا بِهَا قَطَعُ النَّظَرِ ، ذَاكَ أَوَّلِي
 قُلْ وَجُودِي لَيْسَ عِنْدِي ذَا خَطَرُ ذَاكَ أَوَّلِي ^(١)
 قَالَ فِي الْمَعْبَدِ حَطْمُ ذَا الْحَجَرِ ، ذَاكَ أَوَّلِي
 بَنِي تَمَسَّكَ لَا تَدْعُنِي يَا بَنِي
 بِالتَّلُوجِ مِنْ لُجَيْنِ أَضْبَحَتْ ^(٢)
 وَانْجَلَى بِالْجَوْفِ لَا بِالْمَظْهَرِ
 قَرَّ عَيْنًا بِسُكُونِ مَرْمَدِي ^(٣)
 وَوَجُودُ كُلِّ مَا قَدْ غَابَ أَنْكَرُ
 مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ فِي حَرْبٍ وَضَرْبٍ ^(٤)
 وَالرَّفِيقَ مَدِيَّةُ الدَّزْوِيشِ غَالَتْ ^(٥)
 ظَامِنَانِ بَيْنَ أَمْوَاجِ تَشْوَرِ
 مَوْتُ جِبَارِ كَأَيَاتِ بَدَا ^(٦)
 هَاكَ كَفِّي فَمَا قَلْبٌ وَجَفَ ^(٧)
 فِيهِ يَخْوِيكَ فَوَادٍ خَافَقُ
 أَهْوَاءُ كَانَ يَسْدُو مِثْلَ مَاءِ
 إِنَّهُ وَادِي الظَّلَامِ فِي الْفَلَا

= بَيْتٌ تُلْتَزِمٌ قَبْلَهُ قَافِيَةٌ مُوَحَّدَةٌ . وَقَدْ احْتَفَظْنَا فِي التَّرْجُمَةِ بِقَافِيَةِ الْأَصْلِ . وَالْأَوَسَاقُ :

جَمْعُ وَشَقٍّ ، وَهُوَ حَنْطُ الْبَعِيرِ .

(١) الْخَطَرُ : الْأَهْمِيَّةُ وَارْتِفَاعُ الْقَدْرِ .

(٢) اللَّجَيْنِ : الْفُضَّةُ .

(٣) الْأَتْيِ : السَّيْلُ . وَالسَّرْمَدِي : الدَّائِمُ .

(٤) الْحَقُّ هُنَا هُوَ اللَّهُ .

(٥) الْمَدِيَّةُ : السَّكِينُ . وَغَالَهُ : أَهْلَكَهُ .

(٦) يَقُولُ : إِنَّ هَلَاكَ الْجِبَارِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .

(٧) وَجَفَ الْقَلْبُ : اضْطَرَبَ .

وَمَنْ الْقُرْآنَ طَهَ الشَّيْخُ يَتْلُو فَإِذَا الْقَمَرَاءُ جَوْفَ الْبَحْرِ يَجْلُو^(١)
وَنَقَّتْ عَنْهَا الْجِبَالُ ثَوْبَهَا رَجُلَانِ حَائِرَانِ بَيْنَهَا
لَمْ تَشَاهِذْ وَجَهَ شَيْخِي مَرَّةً بَعْضُهَا أَلْقَى لِبَعْضٍ نَظْرَةً
قَالَ فَرَعُونُ أَيجري الْبَحْرُ نُورًا ! أَصْبَاحُ مِلاءَ عَيْنِي أَمْ طُهُورُ !

الروميُّ

الْخَفِي مِنْهُ وَضَّاحُ الْجَلَاءِ وَالْيَدُ الْبِيضَاءُ أَضْلُ لِلضِّيَاءِ^(٢)

فرعون

أَوْ عَقْلِي أَوْ دِينِي قَدْ فَقَدْتُ وَنَظَرْتُ وَالضِّيَاءَ مَا عَرَفْتُ
أَمْنَحُونِي نَظْرَةً يَا مَنْ مَلَكَتُمْ وَهَبُونِي لَفْتَةً يَا مَنْ ظَلَمْتُمْ^(٣)
يَسْ مِنْ حَرْصٍ لَهُمْ أَعْمَى الْبَصَائِرُ يُخْرِجُونَ التَّبَرَّ مِنْ جَوْفِ الْمَقَابِرِ^(٤)
ذَلِكَ التَّمَالُ فِي دَارِ الْعَجَائِبِ صَمْتُهِ يَرَوِي لَنَا كُلَّ الْغَرَائِبِ
جَاءَنَا عَنْ غَاصِبِينَ بِالْخَبَرِ عَيْنَ عَمِيَانٍ أُنَارَ بِالْبَصَرِ
مَا يَرِيدُونَ لَنَا غَيْرَ الشُّقَاقِ وَالْأَسَاسُ أَحْكَمُوهُ بِالْثَّقَاقِ
وَلِهَذَا دَبَّ فِي الْحَكَمِ الْخَوَرُ وَالْفَسَادُ ، وَتَفَشَّى كُلُّ شَرٍّ^(٥)

لَوْ بَدَا مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ لِي

لَا لَتَمَسْتُ مِنْهُ قَلْبَ الْعَاقِلِ

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكان جوف البحر يُظهر نور القمر .
(٢) يلوح إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَجْتَ بِرَبِّكَ مِنْ غَيْرِ مَوْءَاةٍ لَكَ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .

(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنفيين عن آثار الفراعنة .

(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّؤْيَى

إِنَّ نُورَ الرُّوحِ لِلْحُكَمِ الْفَلَاحِ وَالْيَدُ الْبِيضَا بِهَا الْمُلْكُ الْمُبَاخِ
حَاكِمٌ يَقْوَى بِضَعْفٍ مِنْ حُكْمِ وَبِحَرَمَانٍ لِكُلِّ مَنْ حُرْمِ
يَلْبَسُ التَّاجَ بِجَمْعٍ لِلْخِرَاجِ وَرَجَالِ الصَّخْرِ كَانُوا مِنْ رُجَاخِ
الْمَغِيرُ مَنْ لَهُ جَيْشٌ وَقَيْدُ حَاكِمٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا مَنْ يَصُدُّ

اللورد كتشنر^(١)

إِنَّ لِلْغَرْبِيِّ قَصْداً قَدْ ظَهَرَ وَلَأَجْلِ التَّبْرِ كَمْ قَبْرِ حَقَرِ
إِنَّ تَارِيخاً لِمَضَرَ وَالْكَلِيمِ مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ فِي سِفْرِ قَدِيمِ^(٢)
إِنَّمَا بِالْعِلْمِ لِلسَّرِّ الظُّهُورِ حِكْمَةٌ وَالبَحْثُ ، أَوْ شَيْءٌ حَقِيرِ^(٣)

فِرْعَوْن

بِالْعُلُومِ كَشَفُوا عَنَّا الْحَجَرَ
كَانَ لِلْمَهْدِيِّ قَبْرٌ ، مَا الْخَبَرُ ؟

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتنناهي في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حَقَّقَ من ذلك بغيته ، أمعن في التشفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليدرك بثأر القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاء الله له أن يذوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أن هَوَتْ به السفينة إلى قاع اليم .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إِنَّ الْحِكْمَةَ بِلَا بَحْثٍ تُعَدُّ شَيْئاً حَقِيراً .

ظهورُ دَرُوشِ السُّودان

هو ذا في الماءِ برقٌ بأُتْلَقُ ثُمَّ يعلو الموجُ حتَّى يَنْدَفِقُ
وَمِنْ الْفِرْدَوْسِ ضَاعَ نَفْعُ عَطَرٍ لَاحَ بِالرُّوحِ لَنَا دَرُوشُ مِضْرُ^(١)
إِنَّ مِنْهَا الدُّرُّ فِي الْقَاعِ اسْتَقَرَّ « كَشَنَرُ » فِي صَدْرِهِ ذَابَ الْحَجَرُ^(٢)
قَالَ « كَشَنَرُ انْظُرَنَّ يَا فَهْمُ إِنَّمَا هَذَا تَرَابِي يَنْتَقِمُ^(٣)
مَا جَبَاكَ اللَّهُ مِنْ قَبْرِ يَضُمُّكَ بَلْ رُمِيتَ بَيْنَ أَمْوَاجِ تَطْمُكُ^(٤) »
ثُمَّ ضَاعَ فِي اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالرِّفِيرُ مِنْ حَشَاهُ يَخْرِقُ
قَالَ « هَبِّي أَنْتِ يَا رُوحَ الْعَرَبِ قَلْدِي الْأَسْلَافَ فِي مَاضِي الْحَقْبِ^(٥)
يَا فَوَادُ ! ابْنَ السُّعُودِ ، فَيَصِلُ كَلِّكُمْ مِثْلَ الدُّخَانِ يَرْفُلُ^(٦)
أَوْقِدُوا فِي الصَّدْرِ نَاراً أُخْمِدَتْ أَرْجِعُوا أَيَّامَ دُنْيَا ضِيَعَتْ
وَادِي الْبَطْحَاءِ أَنْجِبْ خَالِدَا نَشْتَهِي التَّوْحِيدَ فِيكَ غَرْدَا
أُمَّةَ الْإِيمَانِ ، يَا سَوْدَ الْجُلُودِ مِنْكُمْ أَسْتَأْذِنُ عِطْرًا لِلْخُلُودِ^(٧)
فَالْإِلَامَ تَجْهَلُونَ سَبَرَكُم وَتَوَلُّونَ سِوَاكُمْ أَمْرَكُم
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَخَافُونَ الْبَلَاءَ

- (١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفح : فاح .
- (٢) كشنر هو اللورد كشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستمر : التهب .
- (٣) الفهم : السريع الفهم .
- (٤) طم الماء : غمر .
- (٥) الحقب : جمع حقبه : وهي السنة والمدة من الزمان لا وقت لها .
- (٦) فواد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفى عام ١٩٣٣ .
- (٧) السود : هم العرب . واستأذن : شئ .

البلاءُ كَانَ لِلْمَرْءِ الصَّفَاءُ^(١)

قد سَكَنَّا يَشْرِباً وَالْحَبُّ نَجْدًا أَيْنَ يَا حَادِي حُدَاءَ هَرَّ وَجْدًا^(٢)
 دِيْمَةٌ تَهْمِي وَأَرْضٌ خُضِرَتْ فَكَأَنَّ الْخَطَّوَاتِ أَنْقَلَتْ^(٣)
 الْفِرَاقُ وَهُوَ يُضْنِي طَوِيلَ امْضِ فِي أَرْضٍ بِهَا عُشْبٌ قَلِيلَ
 نَشْوَةُ النَّاقَةِ عُشْبٌ ، لِي حَبِيبَ لَكَ حَبْلٌ ، وَلَمَنْ أَهْوَى قُلُوبُ^(٤)
 جَعَلُوا لِلْمَاءِ فِي الصَّحْرَا سَبِيلَا فِي الْجِبَالِ بَلَّلَ الْمَاءُ النَّخِيلَا
 وَتَالَتْ فِي الثَّلَالِ ظَلِيلَتَانِ فَتَأْمَلْ ، كَيْفَ مِنْهَا تَهْطِلَانِ
 تَرَشَفَانِ مِنْ مِيَاكِ النَّبْعِ قَطْرَا تَرْمُقَانِ مَنْ بَتَلَكَ الْأَرْضُ مُرَا
 وَمِنْ الْمَاءِ الرُّمَالُ كَالْحَرِيرِ هَانَ فِيهَا كُلُّ سَيْرٍ لِلْبَعِيرِ^(٥)
 مِثْلُ رِيَشَاتِ السَّمَانَةِ الْغَمَامِ أَرْهَبَ الْغَيْثُ فَقَدْ شَطَّ الْمَقَامِ^(٦)

قد سَكَنَّا يَشْرِباً وَالْحَبُّ نَجْدًا
 أَيْنَ يَا حَادِي حُدَاءَ هَرَّ وَجْدًا

- (١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيِّ قال فيه : (أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياءِ ثم الأمثلُ فالأمثلُ إلى أن قال : فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) .
- (٢) يشرب : المدينة المنورة . والحَبُّ : الحبيب . والحادي : مَنْ يسوق الإبل . ويغني لها .
- (٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضِرَ الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إِنَّ المطرَ يُنبِتُ العشبَ في الأرض ، فيصبح سَيْرُ الإبلِ في الأرض المعشبة صعباً .
- (٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إِنَّ الناقةَ تجد في العشبِ لذَّتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .
- (٥) هان : سهل .
- (٦) السماناة : مفرد السَّمَانِي ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشطَّ : بَعُدَ .

القسم الرابع
فَلَاكُ الْمَرِيخِ

أَهْلُ الْمَرِيخِ

تَحْتَ هَذَا الْمَاءِ عَيْنِي أَطْبَقْتُ ثُمَّ عَنِّي الذَّاتُ مَنِّي أُبْعِدْتُ
نَحْوَ دُنْيَا طَابَ لِي أَنْ أَرْحَلَ وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ بُدِّلَا
شَمْسُنَا فِي الْأَفْقِ مِنْهَا أَشْرَقَتْ وَلَهَا لَيْلًا وَصَبْحًا أَوْجَدَتْ
فَإِذَا بِالْجِسْمِ رَوْحًا يَجْهَلُ عَنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يُفْصَلُ
رَوْحُنَا كُلٌّ لِهَيْبٍ تُخِمِدُ إِنَّهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ تُشْعِدُ
لَمْ تَشِخْ ، وَالْيَوْمُ مَرٌّ كَالطَّيْورِ إِنَّ لَلْأَيَّامِ مِنْهَا أَلْفَ نُورٍ^(١)
هَذِهِ الْأَيَّامُ مِنْهَا كَمْ تَوَالَتْ

الدُّنْيَى مِنْهَا وَلَوْلَاهَا لَزَالَتْ^(٢)

ذَلِكَ الْمَرْصَدُ فِي مَرَجٍ سَمَقَ الثَّرِيَا قَدْ يَصْنِدُ بِالْوَهَقِ^(٣)
الْقَبَابُ الْخَضِرُ لَأَحَثَ أَشْهَدُ عَالَمٌ هَذَا لَدَيْنَا أَسْوَدُ
لَا تَسَاعٍ مَا أَرَى حَدًّا طَلَبْتُ فِي فِضَاءٍ لِلسَّمَاءِ كَمْ نَظَرْتُ
قَالَ شَيْخُ الرُّومِ وَهُوَ مَرَشْدِي أَنْتَ فِي الْمَرِيخِ فَاسْمَعِ وَأَشْهَدِ
مِثْلُ دِيَانَا لَهُ لَوْنٌ وَرِيحٌ فِيهِ بِلْدَانٌ وَبُيُوتَانٌ وَسُوحٌ^(٤)
وَكَأَهْلُ الْغَرْبِ فِيهِ مَنْ سَكَنَ سَبَقُونَا كُلَّنَا فِي كُلِّ فَنٍ

(١) شاخ : صارَ شيخاً .

(٢) الدُّنْيَى : جمع دنيا .

(٣) سَمَقَ : ارتفع . الْوَهَقُ : حبلٌ في طرفه أنشودة يطرح في عنق الذَّابَّةِ حتى تؤخذ .

والشاعر يشبه المنظار الطويل الذي تشاهد به النجوم في المرصد بِالْوَهَقِ .

(٤) السُّوحُ : جمع ساحة . وَالرَّيِّحُ : الريح .

قَهَرُوا حَتَّى الزَّمَانَ وَالْمَكَانَا
 إِنَّ وَعِرَاءَ فِي الْعَقُولِ مَهْدُوا
 قَلْبُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالطَّيْنِ الْمُقَيَّدُ
 كَانَ بِالطَّيْنِ لِقَلْبٍ مَنَزَلُ
 تَهَبُ الرُّوحُ الْخُمَارَ وَالسُّرُورَا
 الوجودُ عِنْدَنَا فِي مَظْهَرَيْنِ
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ طَيْرٌ فِي قَفَصِ
 وَإِذَا مَا جَاءَ يَوْمٌ لِلْفِرَاقِ
 بِالْمَنُونِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ يُخْبِرُ
 رُوحُهُمْ بِالْجِسْمِ مَا إِنَّ رَبِّيْوَه
 اندماج الجسم في النَّفْسِ الْفَنَاءِ
 وَكَأَنِّي قُلْتُ مَا لَا يُفْهَمُ
 فِي عِلْمِ الْفَضَا كُلِّ شَأْنَا^(١)
 الْخَفَايَا فِي الْفَضَاءِ شَاهَدُوا
 وَهَنًا الْجِسْمُ بِالْقَلْبِ الْمُصَفَّدُ^(٢)
 كُلُّ مَا شَاءَ يَبْنِي يَفْعَلُ
 تَمْنَحُ الْغَيْبَ لَجِسْمٍ وَالْحُضُورَا^(٣)
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ مَا لَاحَتْ لِعَيْنِ
 سَاكِنُ الْمَرِيخِ عَنْ فِكْرِي نَكْصَ^(٤)
 أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ حَيًّا بِاخْتِرَاقِ
 وَيَقَالُ بَعْدَ يَوْمٍ سَوْفَ تُقْبَرُ^(٥)
 وَلِهَذَا جِسْمُهُمْ لَمْ يَأْلُفُوهُ^(٦)
 وَمِنَ الدُّنْيَا فِرَارٌ وَانْطَوَاءُ^(٧)
 لَكَ رُوحٌ وَبِجِسْمٍ تُحْكَمُ !

بِرَهْمَةٍ لَا غَيْرَ تَبْقَى هَاهُنَا

لَمْ يُشَاهِدْ مِثْلَ هَذَا غَيْرُنَا

(١) شَأْنٌ : سَبَقَ .

(٢) صَفَدَ : قَبَدَ .

(٣) الْخُمَارُ : صِدَاعُ الْسُكْرِ وَالْمُرَادُ هُنَا السُّكْرُ .

(٤) الْفِكْرِي : إِعْمَالُ الْخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ .

(٥) الْمَنُونُ : الْمَوْتُ .

(٦) رَبِيهِ : رَبَاهُ .

(٧) يَقُولُ : إِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالْانْطَوَاءَ عَلَى النَّفْسِ مَوْتُ كِدَامَاجِ الْجِسْمِ فِي النَّفْسِ .

ظهور فلک المریخ من المرصد

- ذَاكَ شَيْخُ الْعِلْمِ بِالثَّلْجِ التَّحَى
كَشِيوْخِ الْعَرَبِ فِي الْفِكْرِ السَّبُوحِ
وَهُوَ هُمْ بِقَوَامٍ مِثْلَ سُرُو
وَعَلَى عِلْمٍ بِمَعْنَى لِلطَّرِيقِ
وَكُورِدِ كَانَ قَدْ أَلْقَى الْكِمَا
« قَالِبُ الطِّينِ أَسِيرُ الْكِيفِ وَالْكَمِ
وَأَطَارَ الثَّرَبِ ، رِيشٌ مَا تَبَثَّ
عَقْلُهُ وَالْقَوْلُ كَالْمَاءِ النَّمِيرِ
كَانَ حُلْمًا مَا أَرَى أَمْ كَانَ مِخْرَا
قَالَ « فِي عَهْدِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
- مَمْسِيًّا كَانَ بِعِلْمٍ مَصْبَحًا^(١)
كَنْصَارَى الْغَرْبِ فِي لُبْسِ الْمُسُوحِ^(٢)
مَشْرِقُ الْوَجْهِ كَأَتْرَاكِ يَمُرُو^(٣)
لَمَعَتْ عَيْنَاهُ بِالْفِكْرِ الْعَمِيقِ
قَالَ كَالْخِيَامِ وَالطُّوسِي كَلَامًا^(٤)
وَهُوَ فِي « تَحْتَ » وَ« فَوْقَ » لَمْ يُقَمَّ
جَوْهَرَ السَّيَارِ أَعْطَى مَا تَبَثَّ^(٥)
مِنْهُمَا شَاهَدْتُ عَرْضَ الْمُسْتَحِيرِ^(٦)
سَاكِنُ الْمَرِيخِ هَذَا قَالَ شِغْرَا
بَيْنَنَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّفَا

- (١) أَمْسَى وَأَصْبَحَ : دَخَلَ فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ .
(٢) الْفَرَسُ السَّبُوحُ : السَّرِيعُ . وَالْمَسُوحُ : جَمْعُ مَسَحَ بِالْكَسْرِ وَهُوَ الْكِسَاءُ مِنْ شَعْرِ ، كُتُوبُ الرُّهْبَانِ .
(٣) الْهَيْمُ : الشَّيْخُ الْفَانِي . وَمَرُو : عَاصِمَةُ خِرَاسَانَ بِإِيرَانَ . وَالْأَتْرَاكِ مُضْرَبُ الْمَثَلِ فِي الْحَسَنِ عِنْدَ شُعْرَاءِ الْفَرَسِ .
(٤) الْخِيَامُ : هُوَ الْعَالَمُ الْفَلَكَي الْمَفْكُورُ عَمَرُ الْخِيَامِ صَاحِبُ الرُّبَاعِيَّاتِ الْمَشْهُورَةِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ . وَالطُّوسِي هُوَ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِي مِنْ أَهْلِ هَذَا الْقَرْنِ . وَلَهُ الْمَوْلاَفَاتُ فِي الْمَنْطِقِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْأَخْلَاقِ ، وَالْعَقَائِدِ . وَلَهُ شَهْرَةٌ مُسْتَفِيزَةٌ بِحَذَقِهِ فِي عِلْمِ الْفَلَكَ . وَقَدْ ارْتَقَى هَذَا الْعِلْمُ بِفَضْلِ مِنْهُ ، وَأُسِّسَ هُوَ لَكُمْ مَرَصِدًا فِي مَدِينَةِ مَرَاغَةِ كَانَ نَصِيرُ الدِّينِ يَرَأْسُ الْعَمَلِ فِيهِ .
(٥) الثَّرَبُ : التُّرَابُ . يَقُولُ : إِنَّهُ أَطَارَ التُّرَابَ وَمَا لِلتُّرَابِ رِيشٌ وَلَا جَنَاحَ لِيُطِيرَ ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالثَّابِتَةِ .
(٦) الْمَاءُ النَّمِيرِ : الْمَاءُ الْكَثِيرُ . وَالْمُسْتَحِيرُ : الطَّرِيقُ الْمَعْتَرِضُ لَا يَدْرِي أَيْنَ مَنَافَذَهُ . وَاعْتَرَاضُهُ يَثِيرُ الْحَيْرَةَ .

هذه الدُّنيا بعقلٍ أبصرا ورأى الإنسانُ ماذا دبَّرا
الجنَّاحُ في سمواتٍ بسَطَ في الحجازِ وسَطَ بيداءٍ هَبَطَ^(١)
ما رأى في الخافقين قَدْ رُقِمَ في كتابٍ كان أبهى مِنْ إِرَمَ^(٢)
فارساً شاهدتها والغَرْبُ رُزَّتْ أرضَ مِصرَ جَبَّتْها في الهند كُنْتُ^(٣)
وعن الأرضِ تَيَقَّنْتُ الخَبَرَ وَيَخْشِرُ وَيَبْرُ لي سَفَرُ^(٤)
وعراكُ المرءِ في الدُّنيا رَعِينَا
وهو حقّاً لَيْسَ يدري ما لدينا^(٥)

الرُّومِيُّ

من سماءٍ كُنْتُ من أرضٍ رفيقي ثملٌ ما ذقْتُ طعاماً للرَّحِيقِ^(١)
رجلٌ نَجْدٌ يُسَمَّى زنده رودا خَرَّ سكرًا إذ رأى هذا الوُجودا^(٢)
أرضُكم هذي إليها قد وصلنا نحنُ في الدُّنيا وَلَكِنَّا خرجنا
التَّجَلَّى نَحْنُ عنه الباحثونا والدَّلِيلُ أَنْتَ نَرْضَى أنْ تُكُونَا

-
- (١) البيداء : الصحراء .
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْأُيْمَانِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إِنَّ إِرَمَ ذاتِ العماد مدينةٌ عظيمةٌ قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الياقوت والزُّبَرْجَد .
(٣) جاب البلاد : قطعها .
(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .
(٥) رمى : راقب .
(٦) الرَّحِيقُ : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .
(٧) النَجْدُ : الشُّجاع . خَرَّ : سقط .

حكيمُ المِريخ

مرغدين تلك أرضُ برخيا فرز مرز بالشُرور الأمرُ
 ولديه في الجنانِ الحاضرُ^(٢) قال : أنت هانيءٌ كالعادة
 طالما ألزمتَ سيرَ الجادةِ^(٣) عالمٌ ، ما أنت فيه يُفْضَلُ
 يجعلُ الجنةَ زهراً يذُبُلُ^(٤) وعلا حتى على تلك الجنانِ
 إنَّه فوقَ الزَّمانِ والمكانِ أيراه الله ؟ إنسي ما دَرَيْتَ !
 مثلهُ حرّاً وحَقِّي ما رأيتُ^(٥) قد خلا حتى من الربِّ الدَّخيلِ
 ليسَ فيه من كتابٍ أو رسولٍ ! ليسَ فيه من طوافٍ أو سُجودِ
 لا ولا فيه السُّعاءِ لِلْحَمِيدِ قالَ فانهض دبرنَّ خدعتك
 اذهبنَّ فيه أفرغ صَورتك^(٦) ما بهذا السُّخرِ أغوي جَدُّنا
 فالإلهُ عالمٌ أعطى لنا إنَّه من فَضْلِ ربِّ العالمينا
 امضِ فيه وتأمَّلْ مَرغَدينا

- (١) برخيا : اسم الجد الذي يتخيله إقبال لسكان المريخ . ولم يُلَقَّ سمعاً إلى وسومة الشيطان .
- (٢) فرز مرز : اسم يتخيله الشاعر كمرغدين .
- (٣) الجادة : وسط الطريق : وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .
- (٤) يحدثه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنه ربيعٌ دائم ، وكأنَّ الجنةَ قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعاناً ما تذبل .
- (٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقومات الشعر وسماته .
- (٦) هذا كلام برخيا .

التَّجَوُّالُ فِي مَدِينَةِ مَرْغَدِينَ

البناء في السَّماء كان طولا
ساكنوها قولهم مثل الشَّهاد
ما بتحصيل وكسَد فِكْرُهُمْ
من أَرَادَ المِلْحَ في نورٍ وَجَدَ
العلومُ والفنونُ تَخْدُمُ
إِنَّمَا الدُّيْنَارُ كَانَ كالصَّنمِ
آلَةُ الشَّيْطَانِ لَمْ تَقْهَر طَبِيعَهُ
إِنَّ لِلْفَلَاحِ مَصْبَاحاً أَنَارَا
آمناً يَروِي نباتاً يَمْلِكُكُ
هاهنا ما لَاحَ جَنديٌّ لِرائي
مرغدينُ ليس فيها من قَلَمٍ
ليس في الشُّوقِ نِداءٌ من تَبْطَلُ

في السُّمُو ما عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَا
زَانَهُم حُسْنٌ وَطِيبٌ فِي القَوَادِ^(١)
سُرُّ تِلْكَ الشَّمْسِ أَفْشَى عِلْمُهُمْ
مِثْلُ مِلْحٍ مِنْ بَحَارٍ يُسْتَمَذُّ
وَأَزَنُهَا بِالنُّضَارِ مِنْ هُمٍ؟^(٢)
أَبْعَدُوا الْأَصْنَامَ عَنْ هَذَا الْحَرَمِ
مَا الدِّخَانُ فِي السَّمَوَاتِ الْوَسِيعَةِ^(٣)
مَالِكاً لَمْ يَخْشَ حَتَّى إِنَّ أَغَارَا
مَالَهُ فِي مِلْكِهِ مِنْ يُشْرِكُهُ
لَا وَلَا مِنْ عَاشٍ مِنْ مِصْرَ الدَّمَاءِ
فِرْيَةً لِلْخَادِعِينَ قَدْ رَقَمَ^(٤)
لَا وَلَا فِي الْأَذْنِ نَوْحٌ مِنْ تَسْوَلِ^(٥)

حَكِيمُ الْمِرْيَخِ

لَا مَكَانَ هَاهُنَا لِلْسَّائِلِينَ
وَالْعَبِيدُ لَا تُرَى وَالْمَالِكِينَ

(١) الشَّهاد : جمع شَهِد .

(٢) النُّضَار : الذَّهَب .

(٣) يقول : إِنَّ الآلَةَ شَيْطَانٌ لَا تَقْهَر الطَّبِيعَةَ ، وَدِخَانُهَا لَا يَغْكُرُ صَفْوُ السَّمَاءِ الْوَاسِعَةِ .

(٤) الفِرْيَةُ : الكَذِبُ وَاجْتِلَافُهُ . وَرَقَمَ : كَتَبَ .

(٥) تَبْطَلُ : تَعَطَّلُ ، وَلَمْ يَتَعَمَّلْ .

زنده رود

بقضاء الله هذا من حُرِّمٍ وبأمر الله ذاك من حُكِّمٍ
إنما التقديرُ لله المقلَّدُ ليس من تذييرِ إنسانٍ مُدَبَّرُ

حكيمُ المريح

القضاءُ إن عَدِمْتَ خَيْرَهُ من إله الكونِ فاطلبْ غَيْرَهُ^(١)
سُؤالِ الله كُنْ أنتَ الجديراً يملكُ الله الكثيرَ والكثيراً^(٢)
كلُّ مالِ الذاتِ في قومٍ هَدَرَ إنَّهم لَمْ يُذِرْكَوا معنى القَدَرِ^(٣)
رمزُه حرفانِ ، هلْ أَدْرَكْتَهُ « إنْ تَغَيَّرَتْ فَقَدْ غَيَّرْتَهُ »
كُنْ تراباً لِتَطِيرَ في الهواءِ حجراً كُنْ بِكَ تحطيمُ الإناءِ !
أنتَ طَلٌّ ؟ فالسقوطُ فَوْقَ زَهَرٍ أنتَ بحرٌ ؟ فالخلودُ كلُّ دَهَرٍ^(٤)
قد صَنَعْتَ لَكَ دوماً أَنْتَ لاتا ما بُتَّ ، فَلتَعَلَّمْكَ الثَّبَاتَا
أنتَ ما لم تَرَفُضِ الإيمانَ نَفْسُكَ عالمَ الأفكارِ فيه كانَ حَبْسُكَ
قد ينالُ المالُ مَنْ يَلْقَى التَّعَبَ وعديمُ الأئينِ مَوْفُورُ النَّسَبِ^(٥)
كانَ هذا أصلَ دينٍ يا غريرِ !؟ فليزدِ في فَقْرِهِ هذا الفَقِيرُ^(٦)

(١) القضاء : ما يقدِّره الله للإنسان .

(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدرأ آخر ، وكأنَّه بذلك يستطيع اختيار قدرٍ يوافقه .

(٣) هدر الدَّم : ذهب باطلاً ليس فيه قَوْدٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غير نفع .

(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .

(٥) الأئين : التعب . والنَّسَب : المال .

(٦) الغرير : من لا تجربة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقر ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسله أو توفره على عمله .

أَيُّ دِينٍ ! وإلى نوم دعاكا فاطللت النُّومَ لا تبدي حَرَكا
أَفَسِحْرٌ ذاك أم دِينٌ لَكَا
نشوة الأفيون تمحو وَغَيْكَا ؟

أَعْلِمْتَ أَنْتَ مِنْ أَيْنَ النُّهَى هذه الحوراء أين طينها
قوة في الفكر كانت للحكيم طاقة بالذكر كانت للكليم
ذلك القلبُ عليه ما خَطَرَ وجميعُ المُعْجِزَاتِ مِنْ فَطَرَ^(١)
أفصَحَ أَنْتَ ؟ ما هذا بِقَوْلِكَ تُنْجِزُ الأَعْمَالَ ؟ لكن ما بِحَوْلِكَ^(٢)
كلُّ هذا كَانَ فيضاً للربيعِ أو ربيعِ فطرة الله البديعِ
ما الحياة ؟ مَعْدَنٌ للجواهرِ الأَمِينُ أَنْتَ ، مُلْكُ الآخِرِ^(٣)
يَشْرُفُ الإنسانُ بالطَّبْعِ الجوادِ خدمةُ الخلقِ لَهُ كلُّ المُرادِ
تِلْكَ كَانَتْ شِمةً للأنبياء

تاجرٌ مِنْ نَالَ ربحاً كالجزاء^(٤) !

هكذا تِلْكَ الرِّياحُ والمَطَرُ والبساتينُ وكلُّ ذي ثَمَرٍ
أَتَقُولُ مَا لَدَيْنَا مُلْكُنَا ؟ ! يملكُ الملكُ جميعاً رَبُّنَا
كلُّ أرضٍ أرضُ رَبِّي فاشْهَدُوا في الكتابِ قَوْلُهُ ﴿ لا تفسدوا ﴾^(٥)
سَلَّمَ المرءُ لإِبْلِيسَ القِيَادَا إِنَّمَا إبليسُ مِنْ يَسْعَى فَسَادَا

(١) فطر : أوجد .

(٢) الحول : القدرة . يقول : إِنَّ الفصاحة ليست للفصيح ولكنها هبة من الله . وكذلك الشأن في القدرة على إنجاز العمل .

(٣) المعدن : المنجم . يقول : إن الإنسان أمين على هذا المنجم والله صاحبه .

(٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .

(٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُتَحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَنْ أَمِينٌ مُنْجِزٌ أَعْمَالَهُ ؟
 قَدْ أَخَذْتَ أَنْتَ شَيْئاً غَيْرَ مِلْكِكَ
 اْمْلِكَنَّ الشَّيْءَ فِيهِ رَاغِبَا
 إِنَّ مُلْكَ اللَّهِ هَذَا فَلَترَدَّه
 ولماذا اليوم نشكو فقرنا ؟
 كُلُّ مَنْ طِيناً وَمَاءً لَازَماً
 منزلٌ ذا أَمٍ طَرِيقٌ ؟ مَا عَرَفْنَا
 جوهرٌ هذا لَكِنْ إِنْ مَلَكْتَهُ
 لَيْتَنِيهِ اللَّهُ رَدَّ مَالَهُ
 يا لعمري ليس هذا شأنُ مِلْكِكَ !
 أو فحاطبٌ مِنْكَ نَفْساً عَاتِيَا^(١)
 كي تَحُلَّ أَنْتَ فِي الْأَعْمَالِ عُقْدَهُ
 ما لربِّ الكونِ قُلْتُمْ : ذَا لَنَا !
 كَأْسُهُ بِالصَّخْرِ طَوْعاً حَطَّماً
 كلُّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدُو لَوْ نَظَرْنَا
 والحصى إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَفِّ دُسْتَهُ^(٢)

قِصَّةُ فِتَاةِ الْمَرِيخِ الَّتِي ادَّعَتِ التُّبُوَّةَ

بِقُصُورٍ وَيَسُوحٍ قَدْ مَرَزْنَا
 مِنْ رَجَالٍ وَنِسَاءٍ فِيهِ حَشْدٌ
 وَأَنَارَ وَجْهَهَا مِنْ غَيْرِ رُوحٍ
 لَفْظُهَا صَلْدٌ وَعَيْنٌ مَا جَرَتْ
 الشَّبَابَ قَلْبُهَا مَا إِنْ سَعَزَ
 وَعَنِ الْعِشْقِ أَتَدْرِي مَا الْخَبَرُ ؟
 هَكَذَا قَالَ الْحَكِيمُ شَيْخُنَا
 جَانِبَ الْأَسْوَارِ مَيِّدَانَا رَأَيْنَا
 وَفِتَاةً ، وَلَهَا كَالْبَنَانِ قَدْ
 وَالْكَلَامُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ وُضُوحٍ
 بَهْجَةِ الْأَمَالِ قَطُّ مَا دَرَتْ
 وَلَهَا الْمَرَاةُ لَا تُبْذِي الصُّورَ^(٣)
 صَغُورٌ وَالْعِشْقُ شَاهِينٌ كَسَرَ^(٤)
 « هَذِهِ الْحَسَنَاءُ لَيْسَتْ مِنْ هُنَا »

(١) يقول : إذا لم تكن مالكا لشيء من حقك أن تملكه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .

(٢) يقول : إذا ملكك الجوهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حققت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأنت متعة وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجوهر حقاً إلا إذا كان لك .

(٣) سَعَرَ النَّارَ : أوقدها .

(٤) الصُّعُورُ : أنثى الصَّعُور ، وهو عصفورٌ صغير . والشَّاهِين : طائر من جنس الصقر . وَكَسَرَ : ضَمَّ جَنَاحِيهِ لِيَنْقَضَ عَلَى فَرِيستِهِ .

فَزُرْمَزُرُ فِي حَدِيثٍ قَدْ صَدَقَ « مِنْ بِلَادِ الْغَرْبِ إِلَيْهَا سَرَقُ
لَقِنَ الْحَسَنَاءُ أَسْرَارَ الثُّبُوءِ ثُمَّ فِي الْعَالَمِ أَلْقَاهَا بِقُوَّةِ !
مِنْ سَمَائِي قَدْ هَبَطْتُ الْيَوْمَ قَالَتْ دَعَوَتِي فِي آخِرِ الْإِيمَانِ كَانَتْ
عَنْ نِسَاءٍ وَرَجَالٍ مَا تَقُولُ وَصَرِيحُ الْقَوْلِ مَا عَافَ الْخَجُولُ !
سَأَقُولُ مَا الْمَصِيرُ مَا الْقَدَرُ ،
بِلِسَانٍ تَفْهَمُونَهُ يَا بَشَرُ »

رسالة نبيّة المريخ

يَا نِسَاءَ ، أَنْتِ يَا أُمِّي الْجَلِيلَةَ قُلْنَ لِي حَتَّامَ عَيْشِي كَالْحَلِيلَةِ (١)
عَيْشُهَا مَا كَانَ إِلَّا ظُلْمُهَا إِنَّمَا الْحَزْمَانُ فِي الدُّنْيَا لَهَا
إِنَّا بِالْمَشِطِ نُزْخِي شَعْرَنَا فِي الرِّجَالِ قَدْ وَجَدْنَا صَيْدَنَا
الرِّجَالُ صَائِدُونَ ، حَذَرُكُنْ ! وَلَاجِلِ الصَّيْدِ دَارُوا حَوْلَكُنْ (٢)
وَإِذَا أَبْدَوْا هِيَاماً مَآكِرُونَا وَبِشَوْقٍ وَشُجُونٍ خَادَعُونَا
كَافِرُونَ ، وَيُقِيمُونَ الْحَرَمَ وَلَكِنْ فِيهِ أَلْوَانُ الْأَلَمِ (٣)
وَعَلَى الْعَيْشِ إِذَا تَمَّ اتِّفَاقُ فَالْوَصَالُ السُّمُّ وَالشَّهْدُ الْفِرَاقُ (٤)
الْأَفَاعِي ؟ مَنْ تُطِيقُ لَدَغَهُمْ لَا تُرْفَنَ فِي السُّمِّاءِ سُمَّهُمْ (٥)

(١) الحليّة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ،
وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبوّج فتاة الغرب وصراحة تعبيرها عن مبادئ المرأة
المنحرفة التي تفضل الخليل على الخليل .

(٢) حذركن : احذرن .

(٣) الحرّم هنا : بيت الزوجية .

(٤) الاتفاق على العيش : الاتفاق على الحياة الزوجية .

(٥) يشبه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كُلُّ أُمَّ سَوْفَ تَضَوَّى فِي ذُبُونِ

طَابَ عَيْشٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ حَلِيلٍ^(١)

إِنَّ هَذَا الْوَحْيَ يَأْتِينِي تَبَاعًا طَابَ لِي الْإِيمَانُ عُمْقًا وَاتِّسَاعًا
عَصَرْنَا أَبَدِي لَنَا إِعْجَازَ فَنٍ الْجَنِينُ قَدْ نَرَى فِي طَيِّ بَطْنِ
فَلَدَيْكَ أَنْتَ مِنْ حَقْلِ الْحَيَاةِ مَا أَرَدْتَ مِنْ بَنِي أَوْ بَنَاتِ
إِنْ وَجَدْتَ غَيْرَ مَرْغُوبٍ لَدَيْكَ كَانَ دِينًا قَتْلُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
إِنَّ هَذَا الْعَصَرَ تَتْلُوهُ الْعُصُورُ وَلَا سِرَارٍ وَأَسْرَارٍ ظُهُورُ
فَالْجَنِينَ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدِيمٍ مَا رَأَى قَطُّ ظِلَامًا فِي الرَّحِمِ
فَلَيْمَتْ ! يَبْدُو كَشَيْطَانٍ مَرِيدٍ حَيَوَانًا كَانَ فِي الْعَهْدِ الْعَهِيدِ^(٢)
لِلوُرُودِ الْحُمْرِ مِنْ أَرْضِ طُلُوعِ لِلنَّدَى مَا هَمَّهَا قَطُّ الْوُقُوعُ !
وَحْدَهُ سِرُّ الْحَيَاةِ قَدْ ظَهَرَ مَا لَدَيْهِ مِضْرِبُ هَذَا الْوَتْرِ^(٣)
دَعَاكَ مِنْ غَيْثِ الرَّبِيعِ يَا مَحَازَ وَلَتُمْتَ ظِمَانٌ تَطْوِيكَ الْبَحَازُ^(٤)
غَالِبِي مَا النَّاسُ قَدْ سَمَوْهُ فِطْرَةً وَالْفَتَاةُ فَلَتَكُنْ مِنْ بَعْدُ حُرَّةً

بِافْتِرَاقِ الْجَسَدَيْنِ وَخُسْدِي

كِي تُصَانِي ، عَنْ رَجَالٍ فَابْعُدِي^(٥)

(١) ضوي : ضَغَفَ وَنَحَلَ . يقول : إِنَّ المرأةَ إِذَا وَلَدَتْ اعْتَرَاهَا الضَّغْفُ وَالذُّبُولُ .

والحليل : الزوج .

(٢) المرید : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً .

والعهيد : القديم .

(٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سِرَّ الحياة وتزويرِ سِلِّ الأنعام من غير

عازفٍ .

(٤) المحار : صَدَفُ اللؤلؤ . وفي عقيدة القدماء أَنَّ مَطَرَ الرَّبِيعِ إِذَا سَقَطَ فِي الْمَحَارَةِ تَكُونُ

اللؤلؤ بها .

(٥) يبالغ الشاعرُ في التهكم فيقول : إِنَّ افتراق المرأة عن الرجل في الحياة الزوجية دينٌ

التوحيد عندها ! لأنَّ تلازمَ الجسدَيْنِ أو الشخصَيْنِ في الزواج يعدُّ ثنويةً لا توحيداً !! .

الرُّومِيُّ

مَذْهَبُ الْعَصْرِ الْجَدِيدِ ! قِفْ لِنَتَنَظَّرَ يَا لِعَمْرِي كُلُّهُمْ بِاللَّهِ يَكْفُرُ
إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَرَعٌ لِلْحَيَاةِ فِي الْحَيَاةِ مَا لَنَا دِينَ سِوَاهُ^(١)
وَهِيَ فِي الظَّاهِرِ نَارٌ تَخْرُقُ وَبِنُورِ اللَّهِ قَاعٌ يُشْرِقُ
نَارُهُ قَدْ أَوْجَدَتْ كُلَّ الْفُنُونِ كُلُّ فَنٍّ كَانَ مِنْ فَرْطِ الْجُنُونِ !
إِنَّ عِشْقاً بَوَّاءَ الْعِلْيَاءِ دِينَا
ذَلِكَ السَّيِّئُ فَخُذْ عَنْ عَاشِقِينَا^(٢)

-
- (١) المراد بهذا العشق عشق الصُّوفِيَّةِ للذَّاتِ الإلهية .
(٢) العلياء : المكان العالي وكلُّ ما علا من شيء . والمعنى : أَنَّ الْعِشْقَ الْإِلَهِيَّ يَسْمُو
بِالذِّينِ . والعاشقون : عاشقو الذَّاتِ الإلهية .

القسم الخامس
فَتَاكَ الْمُشْتَرِي

أرواحُ الحلاج^(١) وغالب^(٢) وقُرّة العينِ الطاهرة^(٣)

لم تجد لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدوام وإلى الأبد

قلبي المجنونَ إني قد فدّيتَ كلَّ يومٍ منه صحراءَ وجذتَ^(٤)
إن بلغتُ منزلاً لي قال قُمْ القويُّ بحرّه كوبٌ يَضُمُّ^(٥)
ما لآياتِ إِرَبِّ الكونِ آخِرُ ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافر؟
الحكيمُ من يرى شيئاً ويَحُبُّو والعليمُ ما يراهُ سوف يَزبُو^(٦)

(١) الحلاج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصوفي المعروف بشدّة الغلو والتطرّف في نزعاته الصوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان منطوياً على نفسه . بل كان يصيحُ في الأسواق ، وهو في حالة من الجذبة والطرب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، وأنهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فضلِب عام ٣٠٩ هـ .

(٢) غالب : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظم بالفارسية والأوردية ، ويسمّ شعره ببعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكّر عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩ م .

(٣) الطاهرة : شاعرة إيرانية تُعرَف كذلك بقرة العين . وقد شايعت من يسمّى « الباب » في حركة دينية تُعدّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢ م . وشهرتها بشدّة الجراة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى الشفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبه بمجنون ليلى ؛ الذي دلهه الحبُّ ، فهم على وجهه في القفار .

(٥) المنزلُ هنا : مكانُ نزولِ المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العالم . والعليم هو الصوفي . وتخبو النار : تخدم وتنظف . ويربو :

يزيد .

الحَكِيمُ طَبِيقُ فَرْقٍ مَا اخْتَبَرَ
 الْحَكِيمُ الطَّيْنُ بِالْكَفَّيْنِ جَسًا
 لِلْعَلِيمِ كَانَ مِيزَانُ النَّظَرِ^(١)
 وَالْعَلِيمُ مَسَّ تِلْكَ الرُّوحَ مَسًا
 التَّجَلِّي كَانَ هَذَا مِنْ رَأَى

غَيْرَ أَنَّ ذَاكَ فِي ذَاتِ طَوَاةٍ

عن جديدٍ مِنْ تَجَلٍّ قَدْ بَحَثَتْ
 كُلُّ هَذَا كَانَ فِضًّا مِنْ طُهُورٍ
 وَصَلًا مِنْ بَعْدِ أَنْ طَالَ الرَّجِيلُ
 ذَلِكَ الْعَالَمُ لِلتَّزْبِ الْمَقَرِّ
 كَرُمِهِ مَا فِيهِ مِنْ كَاسٍ لَنَا
 كَانَ جَوْفُ اللَّيْلِ بِالْقَمَرَاءِ ظَهَرًا
 فِي السَّمَاءِ تِلْكَ عَيْنِي تَنْسَرِبُ
 دَخَلْتَنِي هِيئَةً مِمَّا أَرَى
 هَذِهِ أَرْوَاحُ طُهُورٍ تَظْهَرُ
 تَرْتَدِي ثَوْبًا جَمِيلًا أَحْمَرًا
 مِنْ « أَلَسْتُ » هَزَّهَا فَرْطُ اضْطِرَابٍ
 « النَّزَمُ الذَّاتُ » بِهَا الرُّومِي حَبَانِي
 مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الشُّوقِ فَاَنْظُرْ
 طَفَتْ بِالْأَفْلَاكِ مِثْلَ النَّايِ نُخْتُ
 أَلْهَبَ الرُّوحَ بِمَسٍّ مِنْ سَعِيرٍ^(٢)
 وَبِشَطِّ الْمُشْتَرِي كَانَ الشُّرُولُ^(٣)
 حَوْلَهُ شَاهِدْتُ أَقْمَارًا تُمُرُ^(٤)
 أَرْضُهُ مَا أَخْرَجَتْ قَطُّ الْمُنَى
 مَا عَرَفْنَا جَوْهَ بَزْدًا وَحَرًّا^(٥)
 وَأَرَى الْكُوكَبَ مِنْي يَفْتَرِبُ
 مَا أَرَاهُ كُلَّ شَيْءٍ غَيْرًا
 قَلْبُهَا بِالنَّارِ دُنْيَا يَضْهَرُ
 وَجْهَهَا ، وَالْقَلْبُ نَارٌ ، نَوْرًا
 سَكِرْتُ ، مِنْ لَحْنِهَا رَشْفُ الشَّرَابِ^(٦)
 « عِشْ بِأَنْفَاسٍ لِمَنْ غَنَّى الْأَغَانِي »
 وَعَلَى تِلْكَ الْحُمَيَّا أَيْنَ تَغْشُرُ

(١) المراد بالفن أصول العلم .

(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .

(٣) يريد بمن وصلًا : العالم والصوفي .

(٤) الثَّرِبُ : التراب . ومن أسماء الدنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .

(٥) القمرء : نور القمر .

(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿

[الأعراف : ١٧٢] .

قِرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ وَغَالِبٌ حَرَمُ الْأَرْوَاحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبٍ^(١)
لَحْنُهُمْ رَوْحاً يُمَدُّ بِالثَّبَاتِ
نَاوَهُمْ مِنْ جَوْفِ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ

لحنُ الحلاج

مِنْ تَرَابِي لِي لَهَيْبٌ مَا رَأَيْتُهُ مِثْلُ هَذَاكَ التَّجَلِّي مَا طَلَبْتُهُ
نَظَرْتِي أَمَعَنْتَ فِي ذَاتِي طَوِيلًا فَتَنَ الدُّنْيَا حَبِيبِي مَا شَهِدْتُهُ أ
ذَاكَ شِعْرٌ أَيْنَ مِنْهُ مِلْكٌ جَمٌّ غَيْرُ مَقْتُولٍ بِعَشْقٍ مَا نَسَبْتُهُ^(٢)
عَقَلْنَا إِنْ كَانَ يَغْزُو أَيُّ بَأْسٍ ؟ عَشَقْنَا هَذَا وَحِيدًا مَا عَرَفْتُهُ
الطَّرِيقَ وَالْمَقَامَ لَسْتُ تَدْرِي أَيُّ لَحْنٍ لِسُلَيْمَى مَا سَمِعْتُهُ

(١) قِرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ اسمان للطاهرة والحلاج . وجلب : لفظ وصاح وضع .
والجالب : اسم الفاعل من جلب ولكن المراد هو ضجيج الأرواح لا ضجة الحرَم .

(٢) جَمٌّ أَوْ جَفَشِيْدٌ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ فِي الْعَهْدِ الْأَسْطُورِيِّ ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِعَظَمَتِهِ ، وَاتَّسَاعِ
مُلْكِهِ . وَيُرِيدُ الشَّعْرَ بِالشَّطْرِ الثَّانِي مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَهُوَ لِشَاعِرٍ يُسَمَّى نَظِيرِي عَاشٍ فِي
الْهِنْدِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِيْرَانِ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ١٦١٢ م .

وَهَذَا الشَّاعِرُ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَمُتْ عِشْقًا لَيْسَ مَيِّتًا . وَهُوَ يَذْكُرُنَا بِتَرْيِيدِ شُعْرَاءِ الصُّوفِيَةِ
لِهَذَا الْمَعْنَى ، وَمِنْهُمْ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ عَمْرُ بْنُ الْفَارُضِ الْقَائِلُ :

هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَةَ مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلُ
وَعِشْتُ خَالِيًا فَالْحُسْبُ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ

وَقِيلَ فِي شَرْحِ هَذَا : إِنَّ الْمَوْتَ فِي الْحُبِّ عِنْدَهُ حَيَاةٌ تَفْضُلُ الْحَبِيبَ بِهَا عَلَى الْعَاشِقِ .
وَالْوَفَاءُ لِلْحَبِيبِ بِالْوَفَاةِ . وَالْمَوْتُ فِيهِ حَيَاةٌ . وَالْمَيِّتُ خَارِجٌ عَنْ دَعْوَى قُدْرَتِهِ ، وَهَذَا
مَا يَظْهَرُ أَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ . وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ مَاتَ الْمَوْتُ الْاِخْتِيَارِيُّ قَبْلَ الْمَوْتِ
الْاِضْطِرَارِيِّ . وَعَلَيْهِ فَمَوْتُهُ حَيَاةٌ لِانْكَشَافِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَةِ الْأَزَلِيَّةِ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ
شَاعِرٌ آخَرُ :

وَلَكِنْ لَدَيَّ الْمَوْتُ فِيهِ صَبَابَةٌ حَيَاةٌ لِمَنْ أَهْوَى عَلَيَّ بِهَا فَضْلُ

صَفْ لَنَا الثُّونَ وَبَيِّنْ كَيْفَ صَيَّدَهُ لَا تَقُلْ لِي زُورُقٌ مَا إِنَّ رَكْبَتَهُ^(١)
 إِنَّ شَيْخِي قَالَ لِي : لَوْلَا صِغَابٌ صَادَفْتَنِي فِي طَرِيقِي مَا سَلَكَتُهُ !
 أَرَشَفُ الصَّهْبَاءِ فِي حَشْدِ النَّدَامَى
 قُلْ لَنَا شَيْخُ النَّضَالِ مَا اجْتَنَبْتَهُ^(٢)

لحن غالب

السَّمَاءُ مِثْلَمَا شِئْنَا نُدِيرُ والقضاء الكأسَ أَرْوَتْنا نُدِيرُ^(٣)
 شِخْنَةُ السُّلْطَانِ نَحْنُ مَا رَهْبْنَا لِلنَّوَالِ كَفْنَا مِنَّا نُدِيرُ^(٤)
 الْكَلِيمُ لَمْ يَنْلُ جَوَاباً لِلْخَلِيلِ وَجْهَنَا كُنَّا نُدِيرُ^(٥)
 سَارِقَ الْبُسْتَانِ مَاذَا أَنْتَ تَبْغِي سَلَّةٌ قَدْ أَفْرَعَتْ إِنَّا نُدِيرُ^(٦)
 نَحْنُ فِي رِفْقِ طَيُورِ الرُّوضِ صَبْحاً نَحْوَ أَعْشَاشِ لَهَا كُنَّا نُدِيرُ^(٧)

(١) الثُّون : الحوت .

(٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصوفية دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصل الفارسي .

(٣) أدار الكأس : قَدَّمَهَا بالتناوب إلى جماعة الشاربين . وكلمة ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .

(٤) الشُّخْنَةُ : مَنْ يَضْبُطُ الْبَلَدَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ . والنَّوَال : المطاء . وإدارة الكف للنوال كناية عن رفضه .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصوفية في معانيهم الرمزية . فهو يقول : إِنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَى مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ إِبْرَاهِيمَ ضَيْفًا .

(٦) يقول : إِنَّ السَّارِقَ إِذَا أُنْعِمَ سَلَّتْهُ بِشَمَارٍ سَرَقَهَا مِنَ الْبُسْتَانِ أَفْرَغْنَا تِلْكَ السَّلَّةَ مِمَّا فِيهَا ، فعاد بها فارغة .

(٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهُ عَنِيفٌ مَعَ الْعَنِيفِ ، رَفِيقٌ مَعَ الرَّفِيقِ .

حَيْدَرٌ جَدُّ لَنَا ، لَا تَعْجَبُوا نَحْوَ غَرْبِ شَمْسِنَا إِنَّا نُدِيرُ^(١)

لَحْنُ الطَّاهِرَةِ

« آه لَوْ كَانَ اللَّقَاءُ بِالْعُيُونِ

لَكَشَفْتُ لَكَ مَكْنُونَ الشُّجُونِ^(٢)

كَيْ أَرَاكَ مِثْلَ أَنْسَامِ الصَّبَا

بِالذِّبَارِ طُفْتُ تَوَاقَ الْحَيْنِ^(٣)

مِنْ نَوَاكٍ فِي عَيْونِي ذَابَ قَلْبِي

مَنْ رَأَى بَحْرًا جَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ^(٤)

إِنَّ لِلرُّوحِ شُفُوفًا خَاطَهَا

بِهَوَاكَ مِخِيطُ الْقَلْبِ الْحَزِينِ^(٥)

طُفْتُ بِالْقَلْبِ طَوِيلًا لَمْ أَجِدْ

غَيْرَ مَنْ أَهْوَى ، وَيَخْفَى بِالْكُمُونِ^(٦)

وَجَدْتُ مَنْ يَغْشَقُ بِالْقَلْبِ الصَّدِيعَ تِلْكَ رُوحِي مِنْهُ فِي الْحُزْنِ الْوَجِيعِ^(٧)

مَشْكَلَاتٌ لِي تَوَارَتْ قَدْ بَدَتْ كُلُّ فِكْرِي كُلُّ ظَنِّي أَطْبَقْتُ^(٨)

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٢) الشُّجُونُ : الأحزان .

(٣) الأنسام : جمع نَسَم ، وهو نفْسُ الرِّيحِ إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .

(٤) النوى : البعاد .

(٥) الشُّفُوفُ : جمعُ شِف ، وهو الثُّوبُ الرقيق الذي يُشْتَفُّ ما تحته . والمِخِيطُ : الإبرة .

(٦) كَمَرْتُ كُمُونًا : توارى .

(٧) الصَّدِيعُ : المضدوع ، أي المشقوق . الْوَجِيعُ : المؤلم .

(٨) أطبق الشيء : غطاه .

بَخَرُ فِكْرِي فِيهِ مَوْجٌ مُضْطَرِبٌ شَطُّهُ مِنْ عَضْفٍ هُوَ جَاءَ خَرِبٌ^(١)
 لَا تَضِيغُ مِنْ زَمَانٍ مُدَّةً إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَحُلَّ عُقْدَةٌ^(٢)
 وَإِلَامٌ أَنْتَ لِلْفِكْرِ الْأَسِيرِ
 وَمِنْ الْبَلْبَالِ فَلْيَخْلُ الضَّمِيرُ^(٣)

زنده رود يعرضُ مشكلاته على الأرواح

عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعُدْنَا ؟
 مِنْ جَنَّاتِ الْخُلْدِ هَلْ طَوْعاً خَرَجْنَا ؟

الحلّاج

مَنْ رَأَى خَيْراً وَشَرّاً بِالْجَنَانِ مَا اسْتَقَرَّتْ مِنْهُ رُوحٌ بِالْجِنَانِ^(٤)
 جَنَّةُ الزَّاهِدِ حُورٌ أَوْ غَلَامٌ جَنَّةُ الْأَحْرَارِ فِي سَيْرٍ دَوَامٍ^(٥)

(١) الهوجاء : الريح التي تطلع البيوت .

(٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .

(٣) إلَام : أي وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصُّدْرِ .

(٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنّات .

(٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصوفية من الفرس الذين يتحكمون بالزاهد في شعرهم

الرمزي الذي يحتمل معنيين أحدهما قريب غير مقصود والآخر بعيد هو المقصود .

وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إنّ العاشق الإلهي ، أو الصوفي يتلقى الحقيقة إلهاماً من

ربه ، ونوراً يشرق به قلبه ، ولا حاجة به إلى ترديد النظر في العلم ؛ لأنّ القلب عنده

مصدر المعرفة . أما الزاهد أو غير الصوفي الذي يأخذ بظاهر النص ولا يتجاوز القشور

إلى اللباب فهو يعتمد على العقل وحده مصدراً للمعرفة . ومن ثمّ كان الخلاف بين

الصوفيّة وغيرهم . وهم يبالغون في التحسين والتقييع محاولين البلاغة ، وكلامهم غير

محمول على ظاهره . ويدعون إلى التحرُّر من قيود من يَعَجِز في نظرهم عن إدراك =

جَنَّةُ الرَّاهِدِ نَوْمٌ فِي التَّبَطُّلِ جَنَّةُ الْعَاشِقِ فِي الْكَوْنِ التَّائُلِ^(١)
 حَشْرٌ مِنْ يَزْهَدُ شَيْءٌ لِلْقَبُورِ إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ صُبْحٌ لِلتُّشُورِ^(٢)
 وَأَسَاسُ الْعِلْمِ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءٌ مَا لِعُشَّاقٍ عَلَى هَذَا اتِّكَاءٌ^(٣)
 يُرْهَبُ الْعِلْمَ مِنَ الْكَوْنِ الْجَلَالِ يُغْرِقُ الْعِشْقُ الرُّوَاءَ وَالْجَمَالَ
 مَا مَضَى لِلْعِلْمِ أَوْ مَا قَدْ حَضَرَ وَالِى الْآتِي مِنَ الْعِشْقِ النَّظَرِ
 مَذْهَبٌ لِلْعِلْمِ كَانَ وَهُوَ جَبَرٌ مَا لَدَيْهِ كُلُّهُ جَبْرٌ وَصَبَرٌ
 يَا لِهَذَا الْعِشْقِ مِنْ حُرٍّ غَيُورٍ وَيَرَى الْكَوْنَ بِعَيْنِي لِلْجَسُورِ
 عِشْقُنَا مَعْنَى الشُّكَاةِ مَا درى دَمْعُهُ فِي نَشْوَةِ لَمَّا جَرَى
 كَانَ مَجْبُوراً وَحُرّاً قَلْبُنَا لَيْسَ مِنْ أَجْفَانِ حُورٍ سَهْمُنَا^(٤)
 الْفِرَاقُ كَانَ نَاراً فِي الْفُؤَادِ رَوْحُنَا يَحُلُّو لَهَا مَرُّ الْبُعَادِ
 وَبِلا وَخَزٍ وَحَرٌّ كَيْفَ تَحْيَا قَفْتُ عَلَى نَارٍ كَوْتُ سَاقِيكَ كَيْتَا
 الْحَيَاةُ هَكَذَا ، تَقْدِيرُ ذَاتِكَ وَهُوَ تَعْمِيرٌ لَهَا ، سِزْ فِي حَيَاتِكَ
 ذَرَّةٌ لِلشُّوقِ شَمْسٌ حَاسِدَةٌ صَدْرُهَا فِيهِ السَّمَاءُ رَاقِدَةٌ
 إِنَّ يَكُنْ لِلشُّوقِ فِي الدُّنْيَا الْهُجُومُ
 يَمْنَحُ الْخُلْدَ لِفَانٍ لَا يَدُومُ

= الحقيقة ، ولا يُذكرها إلا القلب العامر بعشق الذات الإلهية .

(١) التَّبَطُّلُ : التَّعَطُّلُ عَنِ الْعَمَلِ ، وَالشَّاعِرُ يَرْمِزُ إِلَى ضَرُورَةِ التَّائُلِ فِي الْكَوْنِ لِأَنَّهُ مَظْهَرٌ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ . وَشَعْرُ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الْفَرَسِ خُصُوصاً زَاخِرٌ يُمَثِّلُ تِلْكَ الرَّمُوزَ الَّتِي تَجِدُ مِبَالِغَاتُهَا مَسَاحُغاً فِي ذَوَقِهِمْ .

(٢) نَشْرُ اللَّهِ الْمَوْتَى نَشْراً وَنَشُوراً : أَحْيَاوَهُمْ .

(٣) يَشِيرُ إِقْبَالَ إِلَى مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ رَغْبَةً فِي ثَوَابِهِ وَرَهْبَةً مِنْ عِقَابِهِ ، وَيَقُولُ إِنَّ الصُّوفِيَّ يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَحِبُّهُ لِمَجْرَدِ الْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ .

(٤) يَقُولُ : إِنَّ قَلْبَنَا كَانَ حُرّاً مَعَ خُضُوعِهِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ سَهْماً ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عَيُونِ الْحُورِ الْعَيْنِ .

زندہ رود

بالرَدَى والعيشِ تقدیرُ جرى
ذلكَ التَّقْدِيرُ مِنَّا مَنْ دَرَى^(١)

الحلاج

مَنْ لَهُ التَّقْدِيرُ سَهْمٌ مُدَدَا يَفْرَعُ الشَّيْطَانُ مِنْهُ وَالرَّدَى^(٢)
كَانَ جَبْرًا دِينَ أَصْحَابِ الْهَمَمِ وَالْقَوَى عِنْدَ رَجَالٍ فِي الْقِمَمِ^(٣)
الْحَصِيفُ زَادَ فِي عَقْلِ يَجْبِرِ وَالْغَرِيرُ مِنْهُ فِي أَعْمَاقِ قَبْرِ^(٤)
خَالِدٌ بِالْجَبْرِ هَذَا عَالِمَا أَسْنَا جَبْرٌ لَنَا قَدْ هَدَمَا^(٥)
الرُّضَا مِنْ شَأْنِ ذِيكَ الْبَطْلِ وَهُوَ ثَوْبٌ فِيهِ فَسَلٌ مَا رَفَلَ^(٦)
وَلَمَوْلَانَا عَرَفْتَ مَا الْمَقَامُ

فَلْيَشْنَفْ أَذْنِيكَ ذَا الْكَلَامِ

وَالْمَجُوسِيُّ زَمَانَ بَايَزِيدَ مَهْتِدٍ قَالَ لَهُ جِدُّ سَعِيدِ
يَا أَخِي كُنْ كَمَثَلِي مُؤْمِنَا لِتَكُونَ لِلنَّجَاةِ ضَامِنَا
إِنَّمَا الْإِيمَانُ هَذَا يَامُرِيدَ وَهُوَ إِيْمَانٌ يَرَاهُ بَايَزِيدَ
فَأَنَا عَنْ حَمَلِ ذَاكَ أَضْعُفُ
وَبِرُوحِي وَهِيَ تُعْبِي يَغْنُفُ

(١) التقدير : قضاء الله .

(٢) يريد بالسَّهْمِ السِّلَاحَ الذي يتسلَّحُ به ، وهو الْقَدَرُ الذي يَفْرَعُ الشَّيْطَانُ والموت .

(٣) المرادُ بِرَجَالٍ فِي الْقِمَمِ رَجَالٌ فِي أَوْجِ الْعِظَمَةِ وَعُلُوِّ الْقَدْرِ .

(٤) الحَصِيفُ : العَاقِلُ . وَالْغَرِيرُ : مَنْ لَا تَجَرِبَةَ لَهُ .

(٥) الْأَسَ : الْأَسَاسُ .

(٦) الْفَسَلُ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا مَرُوءَةَ لَهُ . وَرَفَلَ : جَرَّ ذَيْلَهُ وَتَبَخَّرَ .

غَيْرُ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ مَا لَدَيْنَا وَجَمِيعاً سَلَّمُوا ؟ لَا مَا رَأَيْنَا
 أَنْتَ قُلْتَ : كُلُّ شَيْءٍ بِالْقَدَرِ وَهُوَ قَيَّدٌ ، يَا تُرَى أَيْنَ الْمَفْرِ
 قَدْ أَسَاتِ الْفَهْمِ يَا هَذَا كَثِيرَا مَا رَأَيْتَ الذَّاتَ وَاللَّهَ الْقَدِيرَا^(١)
 بِالذُّعَاءِ الْمَرءُ كَانَ مُؤْمِنَا « لَكَ نَحْنُ يَا إِلَهِي كُنْ لَنَا »
 وَقَضَاءُ اللَّهِ كَانَ عَزْمُهُ
 سَهْمُهُ فِي الْحَرْبِ كَانَ سَهْمُهُ^(٢)

زندہ رود

فِتْنَةٌ هَا قَدْ أَثَارَ الْغَافِلُونَ هُوَ ذَا الْمَصْلُوبُ يَبْدُو لِلْعُيُونِ^(٣)
 الْوُجُودُ وَهُوَ سِرٌّ قَدْ عَرَفْنَا أَيُّ ذَنْبٍ قُلْ لَنَا كُنْتَ اجْتَرَحْتَ^(٤)

الحلاج

إِنَّ فِي صَدْرِي لَصُوراً لِلنُّشُورِ هُوَذَا شَعْبٌ مَضَى نَحْوَ الْقُبُورِ^(٥)
 مُؤْمِنُونَ يُشَبِّهُونَ الْكَافِرِينَ مُسْلِمُونَ وَلِذَاتٍ مُنْكَرُونَا
 قَوْلُهُمْ : الرُّوحُ شَيْءٌ بَاطِلٌ قِيَدَتْ بِالطَّيْنِ وَهُوَ زَائِلٌ

(١) رَأَيْتَ هُنَا بِمَعْنَى رَأَيْتَ بِالْقَلْبِ لَا بِالْعَيْنِ .

(٢) أَيُّ أَنْ عَزَمَهُ كَانَ قَدَرًا ، وَسَهْمُهُ سَهْمُ اللَّهِ .

(٣) بِشِيرُ إِقْبَالٍ مِنْ طَرَفٍ خَفِيَ إِلَى صَلْبِ الْحَلَّاجِ .

(٤) اجْتَرَحَ الذَّنْبَ : ارْتَكَبَهُ .

(٥) الصُّورُ : الْقُرُونُ يَنْفَخُ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ سَبَبًا لِعُودِ الصُّورِ وَالْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَامِهَا .

الْحَيَاةُ أَشْعَلَتْ مِنْ نَارِ ذَاتِي مَيِّتاً بَصَّرْتُ أَسْرَارَ الْحَيَاةِ^(١)
 عَالَمٌ مِنْ ذَاتِهِمْ مَا يَصْنَعُونَ رَقَّةً بِالْعُنْفِ كَانُوا يَمْزِجُونَا
 أَيْنَ تَبْدُو الذَّاتُ أَوْ أَيْنَ اخْتَفَتْ الْعَيُونُ قَطُّ هَذَا مَا رَأَتْ
 يَشْتُرُ النِّيرَانَ سِتْراً نَوْرُهَا بِالتَّجَلِّيِ الْكَوْنَ يُدِي طَوْرُهَا
 قَلْبُنَا بِالذَّاتِ كَمْ كَانَ الْحَفِيَّا مَا وَنَى عَنْ ذِكْرِهَا ذِكْراً خَفِيًّا^(٢)
 مِنْ لَظَاهَا كُلُّ مَعْدُومِ النَّصِيبِ مَاتَ عَنْ نَفْسٍ لَهُ مِثْلَ الْغَرِيبِ^(٣)
 نَارُ فُزْسٍ نَارُ هِنْدٍ هَلْ عَرَفْتَا أَنْتَ وَصَافاً لَهَا مَا إِنْ رَأَيْتَا
 نَارُهَا وَالتُّورَ إِنِّي قَدْ وَصَفْتُ يَا أُنَيْسَ الْقَلْبِ هَذَا مَا اجْتَرَحْتُ
 مَا فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ فَاخْذِرِ
 وَدَعَاوَتِ مَيِّتاً لِلْمَخْشَرِ

الطَّاهِرَةُ

مِنْ دُنُوبٍ وَخَطَايَا لِلْفَلَاةِ قَدْ بَدَا مَا لَمْ يَكُنْ ، مِنْ كَائِنَاتٍ
 إِنَّ فَرْطَ الشُّوقِ سِتْراً مَرَّقَا وَعَنِ الْعَيْنِ الْقَدِيمِ فَرَّقَا
 نَالَ مِنْ عُودٍ وَمِنْ حَبْلِ نَصِيْبِهِ لَمْ يَعْذُ حَيًّا وَقَدْ وَافَى حَبِيْبِهِ^(٤)
 بِالتَّجَلِّيِ بَيْنَنَا مَا قَدْ ظَهَرَ لَا تَنْظُرْ أَنَّهُ الدُّنْيَا هَجَرَ
 عَضْرُهُ كَانَ ضَمِيراً وَهُوَ فِيهِ
 عَزْلَةٌ مَهْمَا تَكُنْ لَا تَخْتَوِيهِ

(١) بَصَّرَهُ الْأَمْرَ : عَرَفَهُ إِيَّاه .

(٢) الْحَفِيَّ : الْبَرُّ اللَّطِيف .

(٣) اللَّظَى : النَّارُ ، أَوْ لَهَبُهَا .

(٤) وَافَى : أَتَى .

زندہ رود

أَنْتَ يَا مَنْ جَهَدَ بَحْثَ قَدِ الْفِتْنَةِ اشْرَحَنَّ لِي بَيْتاً أَنْتَ قُلْتَنِي
« مِنْ رَمَادٍ قَبْضَةٌ قُمْرِيَّةٌ ، قَفَصُ اللَّوْنِ الْهَزَارُ
يَا شَكَاةَ فَلْتَجِييَ : أَيْسَنَ رَمَزٌ لِفَوَادٍ فِيهِ نَارٌ »^(١)

غالب

يشتكي النيران في القلب الذئف وشكاة عن شكاة تختلف^(٢)
أحرق القمري منها في اللهب وبدا البلب في الثوب القشيب^(٣)
وتضم الموت في حزن الحياة فحياة ، أو لها شأن الممات^(٤)
يا للون كان منه سيفر ماني أو زوال اللون مسلوب المعاني^(٥)
أفتدري ما للون من مقام ؟ ونصيب القلب مقدار الهيام^(٦)
أنت باللون تعال ، أو فيسر^(٧)
كي ترى آثار قلب يستعز

(١) يقول المستشرق الإيطالي باوزاني : إن هذا البيت ترجمة لإقبال عن بيت بالأوردية لغالب يكتنف الغموض معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جذيرة بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأى شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدا » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الذئف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أن الشكاة إما حياة أو موت .

(٥) السفر : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرسم . وارثرنگ عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجذ القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدم باللون أو امضي بدونه .

زنده رود

ألفُ دُنْيَا فِي الْفَضَاءِ الْأَزْرَقِ
وَبِهَا كُلُّ نَبِيٍّ مَتَّقِي

غالب

أَنْظُرَنَّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ كَمْ دُنْيَى تَأْتِي لَنَا مِنْذُ الْقِدَمِ^(١)
نَحْنُ دُنْيَا فِي الْوُجُودِ إِنْ رَأَيْنَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قَدْ رَأَيْنَا

زنده رود

وَضُحِ الْقَوْلِ فِلَانِي مَا فَهَمْتُ

غالب

أَنَا إِنْ زِدْتُكَ تَوْضِيحاً غَلِطْتُ

زنده رود

لَا يَفِيدُ قَوْلُ أَصْحَابِ الْجَنَانِ^(٢)

غالب

مَشْكُلُ قَوْلٍ دَقِيقٍ فِي اللِّسَانِ^(٣)

(١) الدُّنْيَى : جمع دُنْيَا .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اَشْتَعَلْتَ أَنْتَ مِنْ نَارِ الطَّلَبِ
لَفْظَةً مَا قُلْتُهَا يَا لِلْعَجَبِ

غالب

إِنْ خَلَقْنَا وَقَضَاءَ ابْتِدَاءِ^(١)
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ أَنْتَهَاءَ

زنده رود

المعاني عاجزٌ عَنْ فَهْمِهَا
لَكَ نَارٌ؟ قُمْ وَأَخْرِقْنَا بِهَا

غالب

أَنْتَ يَا مَنْ تُبَصِّرُ الْأَشْعَارَ مِثْلِي وَعَلَيْهَا لِلْكَلامِ أَيُّ فَضْلٍ
أَمْرَاءُ الشَّعْرِ زَانُوا جَمْعَهُمْ وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ لَيْسَتْ عَنْدهُمْ
لَيْسَ مَا تَبْغِيهِ مِنِّي غَيْرَ كُفْرٍ إِنَّهُ كُفْرٌ وَرَاءَ كُلِّ شَيْعِرٍ

الحلاج

وَإِذَا أَبْصَرْتَ دُنْيَا لِلشَّيَاطِينِ فَالْمُنَى فِي أَرْضِهَا مِثْلُ النَّبَاتِ^(٢)

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ أَلَيْسَ خَلْقُ فَسْوَيْ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۖ ﴾ [الأعلى : ٢-٣] .

(٢) الشَّيَاطِينُ : الألوان .

إِنَّ نُورَ الْمُضْطَفَى فِيهِ الْبَهَاءُ أَوْ رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا مَا تَشَاءُ

زنده رود

النَّبِيُّ الْمُضْطَفَى مَا أَمَرُهُ جَوْهَرٌ ، أَفْصَحَ أَجِبَ مَا سِرُّهُ
فِي الْوُجُودِ آدَمِي أَوْ جَوْهَرٌ ؟ تَارَةً يَخْفَى وَأُخْرَى يَظْهَرُ

الحلاج

عَفَرَ الْعَالَمُ خَدًّا عِنْدَهُ نَفْسَهُ سَمَى النَّبِيَّ «عَبْدَهُ»
«عَبْدَهُ» فَهَمَّا لَدَيْكَ تَبَهَّرُ إِنَّهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ الْجَوْهَرُ^(١)
لَيْسَ مِنْ عُرْبٍ وَلَيْسَ الْأَعْجَمَا آدَمٌ بَلْ كَانَ مِنْهُ الْأَقْدَمَا^(٢)
«عَبْدَهُ» قَدْ شَكَّلْتَ هَذَا الْقَدْرَ بِالْفَيَافِي الْخَضْبُ مِنْهَا قَدْ ظَهَرَ^(٣)
أَخِيَّتِ الْأَرْوَاحَ وَهِيَ تَقْتُلُ وَالرُّجَاجُ ، وَهِيَ صَخْرٌ يَنْقُلُ
غَيْرُ «عَبْدٍ» «عَبْدَهُ» فَلَتَعْتَبِرُ وَلَهَا طَالَ انْتِظَارُ الْمُتَنَظِّرِ^(٤)
عَبْدُهُ الدَّهْرُ وَكَانَ الدَّهْرُ مِنْهَا كُلُّنَا لَوْنٌ وَيَنَائِي اللَّوْنُ عَنْهَا
وَلَهَا الْبَدْءُ وَمِنْ غَيْرِ انْتِهَاء مَا لَدَيْهَا مِثْلُ صُبْحٍ أَوْ مَسَاءٍ
مَا دَرَى الْإِنْسَانُ قَطُّ سِرَّهَا سِرُّ «إِلَّا اللَّهُ» كَانَ ذِكْرُهَا
لَا إِلَهَ السَّيْفُ وَهِيَ حِدَّةُ وَلَتَصْرُخُ وَلَتَقُلُ «هُوَ عَبْدُهُ»
«عَبْدُهُ» كُنْهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ «عَبْدُهُ» فِيهَا مَعَانٍ مَغْلَقَاتِ

(١) بهر : غلب .

(٢) فِي الْأَصْلِ الْأَعْجَمُ وَهُوَ الَّذِي فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ وَعَدَمُ فَصَاحَةٍ . وَالْمُرَادُ الْأَعْجَمِي أَيِ غَيْرِ الْعَرَبِيِّ .

(٣) الْفَيَافِي : جَمْعُ فَيَاءٍ ، وَهِيَ الْأَرْضُ لَا مَاءَ فِيهَا .

(٤) اعْتَبِرْ : نَظَرَ فِي الشَّيْءِ وَاخْتَبَرَهُ .

ولهذا الشُّعْرُ معنى ما فهمت قبلَ فهم قولِ ربِّي ﴿ ما رميت ﴾^(١)
 دَعَاكَ من هذا الكلامِ زنده رود
 امضِ وَلْيُغْرِقْكَ ذِيَاكَ الْوُجُودُ

زنده رود

إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَيْءٌ مَا عَرَفْتُهُ
 أَهْوَ لِلرُّؤْيَةِ ذَوْقُ مَا عَهْدْتُهُ ؟

الحلَّاج

هَذِهِ الرُّؤْيَةُ مَعْنَاهَا النَّبِيُّ يَخْكُمُ النَّفْسَ ، بِذَا وَهُوَ الرَّاغِبُ
 أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ عِشْرَ مِثْلِ الرَّسُولِ وَمَنْ الْخَلْقِ سَتَحْظِي بِالْقَبُولِ
 ذَاتَكَ أَنْظَرُ إِنَّ هَذَا رُؤْيِيهِ سِرُّهُ السِّرُّ الْعَظِيمُ سَتَتَهُ

زنده رود

رُؤْيَةُ اللَّهِ أَفْلاكَأَ نَنُزُّ ؟
 وَأَدَارَ الشَّمْسِ فِيهَا وَالْقَمَرُ^(٢)

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ قَلَّمَ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم بيد ربكم ولكن الله قتلهم بنصره إياكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصى ، فإنَّ كفاً من الحصى لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إنَّ كان الرامي من البشر ، ولكنَّ الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي الله الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلاج

صورة الحق بروح اطرَحَن
وإذا كانت بروح صُورَتْهُ
إن جَرَتْ «هُوَ» يا حَظِيطُ مِنْ لِسَانِكَ
ويلُ درويشٍ بفيه قد جَرَتْ
إنَّه لم يُجِرْ حُكْمَ رَبِّه
طلبُ الزُّهدِ تحاشى خييراً
صورة الحق ، هي الدنيا لديكا
ثم في الدنيا إليه انظُرَن^(١)
فلكلِّ العالَمِينَ رؤيته
طافَتِ الأفلاك طوفاً حولَ دَارِكَ^(٢)
ثم ضَمَّ شفتيه أو صَمَت
ما الشعيرُ ؟ حَيْدَرُ في خَرِبِهِ؟^(٣)
راهباً أضحى ، مليكٌ يا ترى ؟^(٤)
والقضاء كالزَّمام في يديكا

القتالُ بُغْيَةُ العَضْرِ المَرِيدِ
ألقها في لوحِ كَفَّارٍ عَنِيذِ

زنده رود

كان في الدنيا لَدَيْنَا رَمِيْهَا
لست أدري كيف كان رَمِيْهَا !

-
- (١) الحق : هو الله تعالى .
(٢) الحَظِيطُ : السعيد الحظ .
(٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدنيا بأقلِّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال .
والشاعر يتهمك بالمصرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .
(٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهمك ثانية بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من يملوك الأرض .

الحلاج

يُحْنِنُ كَانَ لِلْوَجْدِ الرَّهِيْفُ أَمْ يَقْسِرُ كَانَ لِلْقَهْرِ الْعَنِيفُ^(١)
إِنَّ فِي الرُّقَّةِ رَبِّي أَظْهَرُ هِيَ مِنْ عُنْفٍ شَدِيدٍ أَجْدَرُ

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ تَعْرِفُ الْأَسْرَارَ شَرْقَا
بَيْنَ زُهْدٍ هَلْ تَرَى وَالْعِشْقَ فَرْقَا؟

الحلاج

إِنَّمَا الرَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا الْغَرِيبُ
ذَلِكَ الْعَاشِقُ فِي الْعُقْبَى الْغَرِيبُ

زنده رود

إِنْ عَرَفْتَ فَاَنْتِهَاءَ بِالْفَنَاءِ مَنْ سَعِدَ فِي الْفَنَاءِ بِالْبَقَاءِ؟

الحلاج

تُسَكِّرُ الْكَاسُ خَلَّتْ بَعْدَ امْتِلَاءِ وَعَنِ الْعِلْمِ اغْتَرَابُ كَالْفَنَاءِ
فِي الْفَنَاءِ لَكَ شَوْقٌ وَاحْتَدَمَ ذَلِكَ الْمَوْجُودُ لَا يَلْقَى الْعَدَمَ^(٢)

زنده رود

مَنْ عَلَى آدَمَ أَغْلَى قَدْرَهُ لَمْ يَجِدْ فِي قَاعٍ دُنْ خَمْرُهُ^(٣)

(١) الرَّهِيْفُ : الرُّقِيقُ .

(٢) احتدم : اشتد . يقول : أنت في الفناء تطلب شيئاً . والعَدَمُ لا يصادف الشيء الموجود .

(٣) الدُّنْ : جرّة الخمر . ويعلى قدره على قدر آدم : يدعى أنه خير من آدم ، وهذا ما ادعاه =

يعرفُ الأفلاكَ حقّاً طيئناً أينَ نارٌ للمريدِ هاهنا^(١)

الحلاج

أوجزِ الأقوالَ عَنْ شَيْخِ الْفِرَاقِ ذِي الْهَيْامِ وَالنَّجِيعِ فِي الدُّهَاقِ^(٢)
وَجَهْلُنَا ، كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دَرَى وَيَكْفُرُ كُلُّ سِرٍّ أَظْهَرَ
السَّقُوطُ بَعْدَهُ طَابَ الصُّعُودُ بَعْدَ نَقْصِ قَرِّ عَيْنَا مِنْ يَزِيدَ
إِنْ عَشِيقَتَ فِي لَهَيْبٍ فَاخْتَرِقْ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ فَلَسْتَ الْمُخْتَرِقُ !
إِنَّهُ فِي الْعِشْقِ مَنَّا أَقْدَمَ سِرُّهُ مَا لَيْسَ يَدْرِي آدَمُ
إِنَّ لِلتَّقْلِيدِ ثَوْباً ، مَرْقَنَةً
وَأُخِذَ التَّوْحِيدَ عَنْهُ وَافْتَهَمَنَةً

الحلاج

المَقَامُ لَيْسَ فِي طَوْقٍ لَنَا وَنَطِيرُ ، كَانَ ذَا ذَوْقاً لَنَا^(٣)
نَحْنُ دُوماً مَنْ رَأَيْنَا أَوْ خَفَقْنَا مَا لَدَيْنَا مِنْ جَنَاحٍ ، حَسْبُنَا^(٤)

ظهورُ رأسِ أهلِ الفِرَاقِ إبليسَ

وَحَدِيثُ الْحُكَمَاءِ بُرْهَتَانِ الْوُجُودَ وَالْفَنَاءَ تَصْنَعَانِ

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطَّيْنِ هنا هو الإنسان . والمَرِيدُ : الخبيث .

(٢) الْهَيْامُ : الظُّلْمُ . وَالنَّجِيعُ : الدَّمُ . وَالدُّهَاقُ مِنَ الْكُؤُوسِ : الممثلة .

(٣) الطَّوْقُ : الطَّاقَةُ وَالْقُدْرَةُ .

(٤) دُوماً : دائماً . وَحَسْبُنَا : كافينا .

أَضْرَمَ الْعِشْقَ عَلَيْنَا وَأَنْصَرَفَ وَهَبَ الرُّوْيَةَ عَقْلًا ، مَا وَقَفَ
 أَعْمَضُ الْعَيْنَيْنِ حَتَّى أَمْلَكَهُ فِي فَوَادِي طَابَ لِي أَنْ أَسْلُكَهُ
 وَظِلَامُ كُفٍّ مِنْهُ النَّاطِرَانِ فِي الْمَكَانِ وَإِلَى غَيْرِ الْمَكَانِ^(١)
 شَعْلَةٌ لَاحَتْ بَلِيلٍ قَدْ وَقَبَ وَإِذَا مِنْ جَوْفِهَا شَيْخٌ وَثَبَ^(٢)
 وَهُوَ شَيْخٌ يَرْتَدِي سَوْدَ الثِّيَابِ وَالذُّخَانَ لَفَّهُ مِثْلَ السَّحَابِ

قال مولانا أرى شيخَ الفراق

يتلظى والتنجيعُ في الدِّهَاقِ^(٣)

طَالَ مِنْهُ الصَّمْتُ فِي طَوْلِ الْوُجُومِ وَيَرَى الْأَرْوَاحَ وَهِيَ فِي الْجُسُومِ^(٤)
 مَا جَنَّ شَيْخٌ حَكِيمٌ زَاهِدٌ يُشَبِّهُ الرُّهَادَ وَهُوَ الْجَاهِدُ^(٥)
 مَا دَرَى طَبْعٌ لَهُ ذَوْقُ الْوِصَالِ زُهْدُهُ تَرَكُ الْخُلُودِ فِي الْجَمَالِ^(٦)
 وَهُوَ عَنْ هَذَا الْجَمَالِ مَا انْقَطَعَ وَامْتَنَاعٍ عَنْ سَجُودِ مَا صَنَعَ
 قِفْ تَأَمَّلْ بُرْهَةً مَا قَدْ عَرَاهُ ثَابِتاً فِي الْمُسْكَلاتِ كَيْ تَرَاهُ^(٧)

وبه الهيجاءُ ما زالت تَدُورُ

كَمْ نَبِيٍّ قَدْ رَأَى وَهُوَ الْكَفُورُ

مِنْ لَظَاهِ الرُّوحِ فِي جَسْمِي ازْتَعَدَ وَزَفِيرُ الْحُزْنِ مِنْ فِيهِ اصْغَدَ^(٨)
 فَتَحَ الْعَيْنَ وَقَالَ وَاعْتَدَلْ مِثْلُنَا مَنْ كَانَ مِيمُونَ الْعَمَلِ

(١) كُفٍّ بِصُرْه : ذَهَب . النَّاطِرَانِ : الْعَيْنَانِ .

(٢) وَقَبَ الظَّلَامِ : دَخَلَ عَلَى النَّاسِ .

(٣) يَتَلَطَّى : يَتَلَهَّبُ . التَّنْجِيعُ : الدَّمُ . وَالذِّهَاقُ مِنَ الْكُؤُوسِ : الْمَمْتَلِئَةُ .

(٤) الْوُجُومُ : الْحُزْنُ مَعَ الصَّمْتِ .

(٥) الْمَاجِنُ : الَّذِي لَا يَبَالِي مَا صَنَعَ . وَالْجَاهِدُ : الْمَجْدُ .

(٦) الذَّوْقُ : الْإِدْرَاكُ . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ زُهْدَهُ قَطَعَ النَّظَرَ عَنِ الْجَمَالِ الْخَالِدِ .

(٧) عَرَاهُ : اعْتَرَاهُ ، وَغَشِيَهُ .

(٨) اللَّطَى : النَّارُ . اصْغَدَ : صَعِدَ .

انْهَمَكْتُ فِي شُؤْنِي وَاجْتَهَذْتُ
 مَا لَدَيَّ مِنْ مَدَدْتُ مِنْهُ قُوَّةُ
 لَيْسَ عِنْدِي مِنْ حَدِيثٍ أَوْ كِتَابٍ
 كَالْفَقِيهِ غَزَلَ دِينَ مِنْ غَزَلٍ
 مَا عَرَفْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَطْلَبِ
 يَا جَهْلُ ، إِنِّي مَا إِنْ سَجَدْتُ
 لَوْجُودِ اللَّهِ لَسْتُ مُنْكَرًا
 أَجْهَلْتُ كَيْ أَقُولَ مَا وَجَدْتُ
 وَ « نَعَمْ » فِي سِتْرِ « لَا » مَا قَدْ نَطَقْتُ
 آدَمُ مِنْ هَمٍّ نِلْتُ النَّصِييَا
 مِنْ مَرُوجِي نَبَتْ نَارٍ وَنَارٍ
 إِنِّي أَظْهَرْتُ قُبْحِي ، قُمْ بِشَانِكَ
 تِلْكَ نَارِي صَدَّ عَنِّي حَرُّهَا
 أَنْتَ يَا إِنْسَانُ فِي أَسْرِي وَقَعْتُ
 وَهَمَامًا كُنْ وَلَا تَخْشِ الْخُطُوبَا
 دَعَاكَ مِنْ حُلُوي وَمُرِّي وَأَنْسَ مَا بِي

لِلصَّلَاةِ قَلَمًا وَقَتًا وَجَدْتُ^(١)
 إِنَّ وَحْيِي لَا يَمُنُّ بِالنُّبُوَّةِ^(٢)
 وَالْفَقِيهِ مِنْ دَحْرُتٍ فِي الْغَلَابِ^(٣)
 جَعَلَ الْكَعْبَةَ آثَارَ الطَّلَلِ^(٤)
 مَا لِإِبْلِيسَ انْشِقَاقُ الْمَذْهَبِ
 أَرْغُنِي هَذَا عَلَيْهِ قَدْ عَزَفْتُ^(٥)
 أَبْصِرِ الْبَاطِنَ وَاتْرِكْ ظَاهِرًا
 كَيْفَ هَذَا ، إِنَّ رَبِّي قَدْ شَهِدَ^(٦)
 مَا سَكْتُ ، فَأَنَا خَيْرًا صَنَعْتُ
 وَلِذَاكَ عَنْهُ هَذَا الْحَبِيْبَا^(٧)
 بَعْدَ جَنْبٍ قَدْ هَدَاهُ الْإِخْتِيَارُ
 ثُمَّ قُلْتُ : أَنْتَ فَلْتَخْتَرْ لِنَفْسِكَ
 عُقْدَتِي حُلٌّ وَدَبْرُ أَمْرَهَا
 أَنْتَ عَصِيَانَا لِشَيْطَانٍ أَبْخَتَ
 وَلَتَعِشْ يَا مُسْعِدِي عَنِّي غَرِيبَا^(٨)
 لَا تَزِدْنِي مِنْ سَوَادٍ فِي كِتَابِي

- (١) فِي الْأَصْلِ أَنَّهُ مَا وَجَدَ وَقَتًا لِلصَّلَاةِ الْجُمُعَةِ .
 (٢) مَدَدَتْ مِنْهُ قُوَّةُ : أَخَذَتْهَا مِنْهُ . وَالْمَنْ : التَّعْيِيرُ بِالصَّنِيعَةِ .
 (٣) دَحَرَ : طَرَدَ ، وَهَزَمَ . الْغَلَابُ : مِنَ الْغَالِبِ .
 (٤) يَجْرِي إِقْبَالُ عَلَى مَالُوفِ الصُّوفِيَةِ فِي تَهْكِيمِهِمُ الرَّمْزِيَّ بِالزُّهَادِ وَالْفُقَهَاءِ .
 (٥) الْأَرْغَنُ : آلَةٌ يَعْرِفُ عَلَيْهَا .
 (٦) شَهِدَ : رُبِّي .
 (٧) الْحَبِيبُ : هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا .
 (٨) الْهَمَامُ : الْعَظِيمُ الْهَمَّةُ . الْمُسْعِدُ : الْمَوَاسِي وَالْمَعِينُ .

يَرْصُدُ الصَّيَّادُ مَا يَزِمِيهِ حَتْمًا إِنَّ بَدَوْتَ فِي مَصَادِي نِلْتَ سَهْمًا^(١) !
 مَا هَوَى مِنْ طَارَ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ
 يَغْلِبُ الصَّيَّادُ صَيْدُ الذِّكَاءِ^(٢) !

قُلْتُ : « فَاطْرَحِ لِلْفِرَاقِ مَذْهَبًا فِي الطَّلَاقِ لَيْسَ لِي أَنْ أَرْغَبَا^(٣) »
 « الْفِرَاقُ لِلْحَيَاةِ مِثْلَ شَطْرِ نَشْوَةٍ فِي يَوْمِهِ لَيْسَتْ لِخَمْرِ
 الْوِصَالِ بِلِسَانِي مَا ذَكَرْتَ فَهُوَ فِي الْوَضْلِ امْحَى بِي وَامْحَيْتِ^(٤) ! »
 لَفْظُهُ عَنْ نَفْسِهِ كَانَ الْغَرِيبَا ثُمَّ زَادَ الْقَلْبُ بِالْحُزْنِ اللَّهْيَا
 وَتَلَوَّى فِي الدُّخَانِ وَاخْتَلَجَ ثُمَّ ضَلَّ وَهُوَ مِنْهُ فِي الْحَرَجِ^(٥)
 الشَّكَاةُ لِلدُّخَانِ فِي انْسِكَابِ
 تَسْعُدُ الرُّوحُ بِآلَامِ الْعَذَابِ

شكوى إبليس

رَبِّ مَنْ أَخْطَا وَرَبِّ مَنْ أَصَابَا صَحْبَةُ الْإِنْسَانِ لِي كَانَتْ مُصَابَا^(٦)
 ذَلِكَ الْإِنْسَانُ حَكَمِي لَمْ يُخَالِفْ أَغْمَضَ الْعَيْنَ وَذَاتَا لَمْ يُصَادِفْ
 طِينُهُ لَمْ يَذِرْ ذَوْقًا لِلْإِبَاءِ لَا وَلَا مَعْنَى لِنَارِ الْكِبْرِيَاءِ

(١) المصَاد : موضع الصيد .

(٢) الصَّيْدُ : ما يصاد .

(٣) التلميح هنا بحديث للنبي ﷺ ، وهو قوله : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد فناء الصوفي في الذات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضيق كثير الشجر .

(٦) المصَاب : النازلة الشديدة .

ويقول الصَّيْدُ لِلصَّيَادِ خُذْنِي
وَمِنَ الصَّيْدِ ، إِلَهِي ، خَلِّصْنِي
مِنْهُ ذُلِّي ورماني من علائي
وَضَعِيفُ الْعَزْمِ فَجَّحُ الْفِطْرَةِ
وجديرُ بي حصيفٌ ذو نَظَرٍ
دُمِيَّةُ الطَّيْنِ اسْتَرَدَّ مِنْ يَدَيَا
ما هو الإنسان ؟ ضِغْتُ من عُثَاءٍ
لِلْعُثَاءِ وَخَدَهُ كَانَ الْوُجُودُ
أَيُّ شَيْءٍ لِلرُّجَاجِ كَانَ صَهْرُ
مِنْ فتوحِي ها أنا ذا قَدْ سَتِمْتُ
مُنْكَرَ الذَّاتِ أريدُ مِنْكَ فَاْمَنْحْ
وأريدُ طَلِيتِي مِنْ يَغْصِرُ
من يقول : « أَخْرُجَنَّ مِنْ حُضُورِي »

وخضوعُ الْعَبْدِ أَمْرٌ لَمْ يَرْقُنِي^(١)
بخضوعي لك بالأمسِ اذْكُرْنِي
وَيْحَ نَفْسِي واشقائي وابلائي !
وَيَخِرُّ إِنْ ضَرَبْتُ ضَرْبَتِي^(٢)
مَنْ يُجِيلُ الرَّأْيَ فِي كُلِّ الْفِكْرِ^(٣)
لَيْسَ كَالْأَطْفَالِ مَنْ يَغْتَوِ عَيْنًا^(٤)
حَسْبُهُ مَنِّي الشَّرَارُ لِلْفَنَاءِ^(٥)
كُلُّ تِلْكَ النَّارِ عِنْدِي هَلْ تُفِيدُ ؟
أَعْظَمُ الْأَعْمَالِ حَقًّا صَهْرُ صَخَرِ
وإِلَيْكَ لِتَجَازِينِي قَدِمْتُ
رَجُلُ اللَّهِ الطَّرِيقَ نَخْوَهُ افْتَحْ
وَارْتِيعَايَ مِنْهُ حِينَ يَنْظُرُ^(٦)
لا أَسَاوِي عِنْدَهُ حَبَّ الشَّعِيرِ

يا إلهي فَلْتَهَبْ حُرًّا أَبَا

في انهزامي متعةً كَانَتْ لَدَيَا

-
- (١) لم يرقني : لم يعجبني .
(٢) الفج : ما لم ينضج من الثمار . وخر : سقط .
(٣) الحصيف : العاقل الحكيم .
(٤) عتا الشيخ : طعن في السن .
(٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة باليابس بالرطب .
(٦) الطلية : العنق .

القسم السادس

فَإِنَّكَ زُحَل

الأرواحُ الخبيثةُ التي غَدَرَتْ بالوطن ولم تقبلها جهنم

كُلُّ حُرِّ بَوًّا الشَّيْخِ الْمَقَامَا^(١) أَعْلَى الْعَالَمِ زُنَّاراً رَايَتْ^(٢) ؟ بِذِيُولٍ لِنَجُومٍ قَدْ سَرَقَ^(٣) ! خَيْرُهُ مَا كَانَ إِلَّا كُلُّ شَرِّ خَطْوُهُ فِي الْأَرْضِ صَغْبٌ أَشْكِلا^(٤) فَسَمَتْ سُخْطاً لِرَبِّي مِنْ هُنَالِكَ^(٥) مَنَعَتْهَا فِي الْمَدَارِ أَنْ تَحُومَا^(٦) وَهُوَ مِنْ بُخْلِ الشُّمُوسِ فِي الْحَلَكِ^(٧) لَمْ تُعَذِّبْهَا الْجَحِيمُ بِالسَّعِيرِ^(٨) أَزْمَقَ الرُّوحَ لِقُومٍ قَاتِلَانِ وَهُمَا لِلدِّينِ عَاژٌ وَالْوَطَنِ^(٩)	كَانَ لِلْأَحْرَارِ مَوْلَانَا الْإِمَامَا السَّمَاءَ قَالَ يَا مَنْ قَدْ طَوَيْتَ وَكَمَا شَاهَدْتَهُ أَنْتَ انْتَلَقَ وَبِطَيَّةٍ كَالشُّكُونِ عِنْدَ سِيرِ جَسَمِهِ مَاءٌ وَطِيناً شَكَّلا تَضَعُ النَّارَ بَايِدٍ لِلْمَلَائِكِ دِرَّةٌ قَدْ أَوْجَعَتْ تِلْكَ النُّجُومَا عَالَمٌ مِنْهُ التُّفُورُ لِلْفَلَكَ مَا لِأَرْوَاحٍ بِهِ يَوْمَ النُّشُورِ إِنَّ شَيْطَانَيْنِ فِيهِ يَسْكُنَانِ ذَاكَ فِي الْبَنَفَالِ هَذَا فِي الدَّكْنِ
--	--

-
- (١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومِي .
 (٢) الزُّنَّار : ما يشدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .
 (٣) انتَلَقَ : شدَّ وسطه بالمنطقة .
 (٤) أَشْكَلُ الْأَمْرِ : التَّبَسُّ .
 (٥) الْمَلَائِكُ : الْمَلَائِكَةُ ، وَالنَّارُ هُنَا : الصَّاعِقَةُ .
 (٦) الدِّرَّةُ : السُّوطُ .
 (٧) الْحَلَكُ : الْفَلَامُ .
 (٨) يَوْمَ النُّشُورِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَعُودُ فِيهِ الْحَيَاةُ إِلَى الْمَوْتِ . وَالسَّعِيرُ : النَّارُ .
 (٩) مِيرْ جَعْفَرُ : هِنْدِي قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا لِلْبَنَفَالِ تَحْتَ نَفُوذِ الْإِنْجِيلِ ؛ الَّذِينَ تَوَطَّدَتْ =

أَبْغَضًا فِي الْيَاسِ مِنْ نِيلِ الْمُرَادِ الْفَسَادَ قَدْ أَشَاعَا فِي الْبِلَادِ
 أُمَّةٌ كُلُّ الصَّلَاتِ قَطَعَتْ مُلْكُهَا وَالذِّينَ حَتَمًا ضَيَّعَتْ^(١)
 وَبِلَادُ الْهِنْدِ هَلْ أُنْسِيَتْهَا ؟ وَلَهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ مَا لَهَا^(٢)
 فَتَجَلَّىهَا أَنْارَ الْعَالَمَا مَا تَزَالُ أَرْضُهَا تَجْرِي دَمًا
 فِي ثَرَاهَا مَنْ رَمَى بِذَرِّ الْعَبِيدِ ؟ ذَاكَ فِعْلٌ كَانَ مِنْ رُوحٍ مَرِيدِ
 بِرَهْمَةٍ قِفْتَ أَنْتَ فِي هَذَا الْفَضَاءِ
 مَا يَنَالُ الْمَرْءُ شَاهِدًا مِنْ جِزَاءِ

بَحْرُ الدِّمَاءِ

مَا رَأَيْتُ ، وَضْفُهُ يُغْيِي اللِّسْنَ يُرْعِبُ الرُّوحَ وَيُنْسِيهَا الْبَدَنُ^(٣)
 إِنَّهُ بَحْرُ الدِّمَاءِ قَدْ جَرَى فَوْقَهُ رِيحٌ وَأُخْرَى أَضْمَرَ
 يُشْبِهُ الْحَيْتَانَ تَيَّسَنَ يَطْبِيزُ بِجَنَاحِي زُبُقٍ وَالْكَفُّ قَيْرُ^(٤)
 مَوْجُهُ اللَّيْثُ الْهَاصُورُ ذُو الْمَنَاصِلِ مَاتَ رُغْبًا مِنْهُ تَفْسَاخٌ بِسَاحِلِ^(٥)

= أقدائهم ، واستقامت أمورهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم
 البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الذكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور
 المتوفى عام ١٧٩٩ .

- (١) يريد قطع الصلوات بينها وبين غيرها من الأمم .
- (٢) أي لها في كل قلب ما لها من علو المنزلة .
- (٣) اللسن : الفصاحة .
- (٤) التنين : العظيم من الحيات . يقول إن التناين في الجو كالحيثان في البحر وجناحاها
 في لون الزئبق ومخالباها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تُطلى بها
 السفن .
- (٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكان أنياب الأسد
 سيوف .

لَمْ يَنْلِ مِنْهُ الْأَمَانَ الشَّطُّ قَطُ فِي الدِّمَاءِ تِلْكَ أَعْلَامُ تَغَطُّ^(١)
هَذِهِ الْأَمْوَاجُ دَوْمًا فِي نِزَاجٍ تُهْبِطُ الرُّوْقُ مِنْ بَعْدِ ارْتِفَاعِ
فِيهِ يَنْدُو رَجُلَانِ شَاحِبَانِ
أَشْعَثَانِ مِنْ ثِيَابِ عَارِيَانِ

رُوحُ الْهِنْدِ تَظْهَرُ

تِلْكَ بِنْتُ الْحَوْرِ فِي شَقِّ السَّمَاءِ تَرْفَعُ الْبُرُوقُ عَنْ وَجْهِ الضِّيَاءِ
وَلَهَا نَارٌ وَنُورٌ فِي الْجَبِينِ وَسُرُورٌ أَبَدِيٌّ فِي الْعَيُونِ
تَرْتَدِي ثَوْبًا أَرْقًى مِنْ عَمَامٍ نَسَجَتْهُ مِنْ وُرُودٍ فِي الْكِمَامِ^(٢)
مَعَ هَذَا الْحُسْنِ نَاءَتْ بِالْقِيُودِ تَضْدَعُ الشُّكُوى لَهَا قَلْبُ الْحَدِيدِ^(٣)

قال : رُوحُ الْهِنْدِ مَوْلَانَا أَشْهَدَا
نُوحَهَا فِي الْقَلْبِ نَارًا أَوْقَدَا

رُوحُ الْهِنْدِ تَنْوُحُ وَتَنْتَحِبُ

أَيْنَ نُورُ الرُّوحِ فِي مَصْبَاحِهَا مِنْ وَعَى مَجْدًا لَهَا مِنْ أَهْلِهَا
مَنْ عَلَى سِرِّ لَهَا لَمْ يَطْلُعْ اللَّحْنُ مِنْهُ مُشِجٌ نَسْتَمِعُ
وَيَرَى الْمَاضِي بَعِيْنِ جَامِدَةٍ يَخْرِقُ الْقَلْبَ بِنَارِ خَامِدَةٍ
وَقِسْودِي مِنْهُ يُعْيِي ثِقْلُهَا وَشَكَاتِي لَيْسَ يُجْدِي قَوْلُهَا

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .

(٢) الْكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البرعم .

(٣) ناء بالحمل : نهَضَ به مُثَقِّلًا .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » من تقاليد له سجناً بنى
عَيْشُهُ أَلَمَ حَتَّى قَوْمَنَا
طَهَّرَهُ بِالْحُزْنِ أَضْنَى عَضْرَنَا^(١)

دَعَاكَ مِنْ فَقْرٍ بِهِ عُرِّي وَجِبَ حَبَا الْفَقْرُ إِذَا مُلْكَأ وَهَبَ^(٢)
دَعَاكَ مِنْ جَبَرٍ وَصَبَرٍ ، الْحَذَرُ فَلَاهِلِ الْجَبَرِ سُمُّ قَدْ بَدَزَ^(٣)
إِنَّ هَذَا مِنْ يُدِيمُ صَبْرَهُ ذَاكَ مَنْ يَرْضَى وَيَهْوِي جَبْرَهُ
يَا لِفَانِ الظُّلَمِ مُرّاً فِي التَّحْسِي
لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، وَيَحَ نَفْسِي

أَلَيْلِ الْهِنْدِ صَبَحَ قَدْ يَلُوحُ جَعْفَرُ أَوْدَى وَتَحْيَا مِنْهُ رُوحُ^(٤)
إِنَّ قَيْدَ الْجِنِّمْ عَنْهُ قَدْ خَلَعَ وَبِجَنِّمْ آخَسِرِ عَشّاً وَضَغَ
تَارَةً كَانَ أَلُوفاً لِلْكُنَائِسِ وَهُوَ مِنْ فِي الدَّيْرِ أحياناً يُجَانِسُ^(٥)
دِينُهُ مَا كَانَ غَيْرَ الْمُتَجَرِّ عَتَرٌ يَنْدُو كِمِثْلٍ حَيْدَرِ^(٦)
إِنَّهُ عَنْ كُلِّ هَذَا لَا يَحِيدُ طَالَمَا كَانَ لِذُنْيَانَا وَجُودُ^(٧)
وَقَدِيماً لِسَوَى هَذَا سَجَدُ وَطناً فِي عَضْرِنَا مَا قَدْ عَبَدُ
وَعَلَى الدِّينِ لَنَا يَنْدُو حَزِينَا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِثْلُ الْمُلْحِدِينَا
جَعْفَرُ الْأُمَةِ هَذَا مَنْ قَتَلَ مُسْلِماً وَالْقَتْلُ كَانَ مَا فَعَلَ

(١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما
طَهَّرَ وما لم يَطَهَّرْ .

(٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ مِنْ مُلْكِ الملوك .

(٣) الْجَبَرُ وَالصَّبْرُ هُنَا هُمَا الْقَدَرُ وَالْإِسْتِسْلَامُ لَهُ .

(٤) أودى : هلك .

(٥) الألوف : الكثير الألفه . ويشير إلى ولائه للإنجليز . وجانسه : كان من جنسه .

(٦) المتجر : الأتجار .

(٧) يحيد : يعدل وينحرف .

باسمُ ، ما شاق يوماً خِلَّةُ يسمُ الثَّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ؟^(١)
 الشَّقَاقُ بَثُّهُ فِي قَومِهِ واللَّئيمُ شَغْبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ
 الفسادُ فِي بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أضلُّ لَهُ أو كانَ جَعْفَرُ
 جَعْفَرٌ مِنْ رُوحِهِ رَبِّي أَغْنَا
 مِنْ مَثِيلِ جَعْفَرٍ رَبِّي أَجْزَا

صِيحَةُ رَاكِبٍ فِي زورِقِ بَحْرِ الدِّمَاءِ

حائِرٌ بَيْنَ الوجودِ والعَدَمِ وَيَحُفُّ نَفْسِي مِنْ وُجودٍ كَمْ ظَلَمَ
 نَحْنُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ عَبَرْنَا وإلى بابِ الجَحِيمِ قَدْ وَصَلْنَا^(٢)
 ما رَمَتْ هَٰذِينَ حَتَّى بِالشَّرَرِ ما لَنَا كَفٌّ رَمَادٍ فِي الشَّعْرِ^(٣)
 ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ ضِغْثًا أَفْضَلُ
 فَهو أنقى ، فِيهِ نارِي تَشْعَلُ
 فِي السَّمَوَاتِ مَضِينَا مُضْعِدِينَا ورأينا بَغْتَةً تِلْكَ المُنُونَا^(٤)
 قَالَتْ الأَرْوَاحُ : أسرارٌ لَدَيَا حَفِظْ رُوحَ هَٰذِهِ جِسْمٍ فِي يَدَيَا
 إِنَّ رُوحَ الشرِّ شَيْءٌ يُخْفَرُ امضِ عَنِّي ما بِموتٍ تَظْفَرُ^(٥)

- (١) شاقٌ : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يسم الثعبان ولكن عن نابين يمجّان السَّم .
 (٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .
 (٣) أي لم تثر حفنة من الرماد على رؤوسهم .
 (٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .
 (٥) يقول : إن قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحة الأرواح لَيْسَتْ فِي الْجِمامِ

لا يُرِيحُ الموتُ روحاً لِلنَّامِ

يا رِيَّاحُ ، يا محيطاً لِلدِّماءِ أَنْتِ يا غَبْرَاءُ ، يا لَوْنَ السَّماءِ^(١)

يا ذُكَّاءُ ثُمَّ يا بَذْرُ الظَّلَمِ وَالكتابُ وَمَعَ اللَّوْحِ القَلَمِ

يا إلهاً أبيضاً يا لَوَزِدَ عَزَبِ تَمْلُكَانِ عالِماً مِنْ غَيْرِ حَزَبِ!^(٢)

ما لِدُنْيائِنا ابتداءً وانتهاءً

الْعَبْدِ حانَ بِالمولى لِقَاءُ^(٣)

ثُمَّ دَوَى بَغْتَةً صَوْتُ رَهيبِ شَقَّتِ الصَّدْرَ البَحَارُ والشُّهوبُ^(٤)

تِلْكَ أوصالُ الجِسامِ فَكَّكَتِ والصُّخُورُ وهي تَهْوِي فُتَّتْ

والجبال كالسَّحابِ فِي المَرورِ هذه الدُّنيا انْتَهَتْ مِنْ غَيْرِ صُورِ

والبروقُ أضلُّها نارُ الحَفَاءِ عَشَّها تَطْلُبُ فِي بحرِ الدِّماءِ

جاشَتْ الأمواجُ وهي تَسْتَبِقُ فِي الدِّماءِ الطُّورُ كالسَّهْلِ الغَرِقِ^(٥)

لِلنَّجومِ ما بدا أو غابَ عَنْها

لَمْ يَثْرُ أدنى اِهْتِمامِ كانَ مِنْها

(١) الغبراء : الأرض . يا لون السماء : أي : أيتها السماء الزرقاء .

(٢) فِي الأصل أيتها الأصنام البيض والوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع . ويقول : إِنَّ هؤلاء يريدون أن يملكوا العالم بكل يسر وهينة .

(٣) المولى : السيّد .

(٤) الشُّهوب : السهول .

(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تتسابق .

القسم السابع
مَا وَرَاءَ الْأَفْلَاقِ

منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه^(١)

للفناء والبقاء مُعْتَرِكٌ لَيْسَ يَدْرِي الْمَرْءُ سِرًّا لِفَلَكِ^(٢)
 للحياة يَحْمِلُ الْمَوْتَ الرِّسَالَةَ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَعَى لِلْمَوْتِ حَالَةٌ !
 الريح أشْبَهَتْ هَذِي الْحَيَاةَ مَا اسْتَقَرَّتْ ، كُلُّ مَا تَبْغِي الثَّبَاتُ !
 كم دُنَى لي نَاطِرَانِ شَاهِدَا ثُمَّ حَدُّ الْكَائِنَاتِ لِي بَدَا
 كُلُّ دُنْيَا كَانَ فِيهَا نَوْرُهَا قَطُّ مَا إِنْ أَشْبَهَتْهَا غَيْرُهَا^(٣)
 إِنَّ فِيهَا الْوَقْتَ يَجْرِي كَالْبَحَارِ فَهِيَ تَجْرِي أَوْ لَهَا بَعْضُ الْقَرَارِ
 عَامُهَا شَهْرٌ وَحَتَّى بُزْهَةٌ قَلَّةٌ طَوْرًا وَطَوْرًا كَثْرَةٌ^(٤)

عَقَلْنَا فِي عَالَمٍ كَانَ الذِّكْيَا

فِي سِوَاهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْغِيَا

تَغْرُهُ الْقَاصِي بِهِ مَنْ قَدْ ظَهَرَ صَوْتُهُ الْمَحْزُونُ بِالْحَزَنِ انْفَطَرَ
 وَلَهُ الْعَيْنُ كَعَيْنِ لِلْعُقَابِ كَاسَفَ الْوَجْهِ لِأَهْوَالِ الْمُصَابِ^(٥)
 وَالتَّبَارِيحُ تَزِيدُ فِي الْجَنَانِ بَيْتُ شِعْرِ مَا طَوَاهُ عَنْ لِسَانِ^(٦)

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعَدُّ بِحَقٍّ مِنْ أَهَمِّ قَادَةِ الْفِكْرِ الَّذِينَ كَانَ
 لَتَفْكِيرِهِمْ أَثَرٌ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ . وَأَكْثَرَ كُتُبِهِ سِيرُورَةٌ كِتَابٌ بِعَنْوَانِ : « هَكَذَا قَالَ
 زَرَادُشْت » وَإِنْ كَانَ أَشَدُّ مَا كُتِبَ غَمُوضًا . وَقَدْ تَنَاوَلَ الْمَسِيحِيَّةَ بِالنَّقْدِ ، وَاخْتَلَطَ عَقْلُهُ
 قَبْلَ وَفَاتِهِ عَامَ ١٩٠٠ م .

(٢) الْمُعْتَرِكُ : مَوْضِعُ الْعَرَاكِ وَالْقِتَالِ . وَالْمُرَادُ أَنَّ الْفَنَاءَ وَالْبَقَاءَ فِي حَرْبٍ إِلَى الْأَبَدِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ أَنَّ كُلَّ عَالَمٍ لَهُ قَمَرُهُ وَثَرَيَاهُ ، وَهُوَ مُخْتَلَفٌ عَنْ غَيْرِهِ .

(٤) أَيُّ أَنَّ الْقِلَّةَ فِي عَالَمٍ كَثْرَةٌ فِي غَيْرِهِ . وَهَذَا مَطْرُودٌ فِي كُلِّ تِلْكَ الْعَوَالِمِ .

(٥) كَاسَفَ الْوَجْهَ : عَابَسَ مِنْ هَوْلِ الشَّدَائِدِ .

(٦) تَبَارِيحُ الشُّوقِ : تَوَهُّجُهُ . وَالْجَنَانُ : الْقَلْبُ . وَلَمْ يَطُوبِ بَيْتُ شِعْرِ عَنْ لِسَانِهِ : لَا يَكْفِ =

« أجبريلُ أم الله وحوورُ الخُلدِ ؟ تَنساقُ !

تراب أنت في نارٍ لروحٍ وهي تَشْتاقُ »^(١)

قلتُ للروميِّ ذا المجنون مَنْ ؟ قال : في الألمانِ مشهورُ الزَّكْنِ^(٢)
 كانَ يَبْنِي العالمينَ مَوْضِعُهُ وقديمُ اللَّحْنِ مِنْهُ نَسْمَعُهُ
 إِنَّهُ الحَلَّاجُ لَكُنْ أَيْنَ عُوْدُهُ ؟ قال قولاً وسواه لا يُعيدُهُ^(٣)
 وجريءُ القَوْلِ بِرَأَقِ الفِكْرِ قولُهُ السيفُ الفِرْنَجِ قَدْ شَطَرَ
 الجليسُ لَيْسَ يَذْري جَذْبَتَهُ تَخسِبُ المَجْذوبُ جُنَّ نَظَرَتَهُ
 من خُمارِ العِشْقِ معدومو النَّصيبِ نبضُهُ قَدْ أودعوا كَفَّ الطَّيِّبِ^(٤)
 عِنْدَ أَهْلِ الطَّبِّ خَتَلٌ ما وَجَدَ ويلُ مَجْذوبٍ لِإِفْرَنْجٍ وَلِذِ^(٥)
 ابنِ سينا في كلامٍ قالَ أَفْصَدَ أو يَحِبُّ مِنْ شَكَا الأوجاعِ أَرْقَدُ

كانَ حلاجاً بأرضي كالغريبِ

فَرَّ مِنْ قَتْلِ الفَقِيهِ لا الطَّيِّبِ !

الطَّرِيقُ في الفِرْنَجِ مَنْ عَرَفَ ؟ فَعَلَى قِشَارَةٍ دوماً عَرَفَ^(٦)
 الطَّرِيقُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ ضَلَّ في سِيرٍ وفي سِيرٍ وَبَيْلٍ^(٧)
 كانَ ما لَمْ يَجِدْ مِنْ عَدَّةٍ يُنْجِزُ الأَعْمَالَ لَكِنْ وَخَدَهُ
 عاشقٌ لَكِنْ طَوْنُهُ زَفَرَتُهُ سَالِكٌ قَدْ تَيَهَّنَهُ خُطْوَتُهُ^(٨)

= عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .

(٢) الزَّكْنُ : الفطنة والذكاء .

(٣) المود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولاً لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .

(٤) الخمار : الضداع من شدة السكر .

(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .

(٦) دوماً : دائماً .

(٧) السَّير الوبيل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .

(٨) تَيَهَّنَ : أضلَّهُ ، وضَّيَّعَهُ .

حَطَمَ الكاساتِ ذِيكَ الثَّمَلِ
ورأى لَكِنْ بَعَيْنِ الظَّاهِرِ
وانْطِلَاقاً شَاءَ مِنْ طِينِ الْبَدَنِ
ومَقَامٍ لِلإله ما يريد
إِنَّ تِلْكَ الذَّاتِ شَرَحٌ لِلْحَيَاةِ
ظَلٌّ فِي « لا » وَخَذَهَا هَذَا الْعَجِيبُ
عن تجلُّ ما لَدِيهِ مِنْ خَبَرِ
طَلْعَةُ الْإِنْسَانِ رَاقَتْ مِنْهُ عَيْنَا
أَوْ عَنِ النَّاسِ تَرَاهِ رَاغِبَا
لَيْتَهُ مِنْ عَاشٍ فِي عَضْرِ لَأَحْمَدُ
عَقْلُهُ لِلذَّاتِ قَالَ : اسْتَمِرْ
وَتَقَدَّمَ قَدْ دَنَا هَذَا الْمَقَامُ
طَالَ فِيهِ ، وَبِلا حَرْفٍ ، كَلَامُ

الرَّحِيلُ إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ

انْطَلَقْتُ مِنْ حُدُودِ الْكَائِنَاتِ
لَيْسَ فِيهِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارِ
عِنْدَهُ قِنْدِيلٌ إِذْرَاكِي خَمَدُ
عَالِماً وَافَيْتُ يَخْلُو مِنْ جِهَاتِ
لا وَلَا لَيْلٌ أَتَى بَعْدَ النَّهَارِ
هَيْئَةً مِنْهُ كَلَامِي قَدْ جَمَدُ
بِلِسَانِ الطَّيْنِ لِلرُّوحِ الْمَقَالُ ؟!

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السرهندي المتوفى عام ١٥٦٤ م ، ذلك الشوفي الهندي الذي
عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف
الثاني ، وكان ضدَّ غلاة المتصوفة .
والحبور : السرور . والسرمد : الدائم .

طيران الطير في السجن المحال^(١)

عالمًا للروح خُصَّ بالنظر
فَنُورِ الذَّاتِ نَوْرٌ لِلْبَصَرِ
ما الفؤادُ ؟ عالمٌ لا لَوْنَ لَهُ
لَيْسَ فِيهِ الْحَدُّ فَاَنْظُرْ كُلَّهُ
ساكنٌ والسَّيْرُ مِنْهُ فِي ازدياد
كُلِّ حَالٍ كُلُّ فِكْرٍ فِي الْفؤادِ
حَارَ هَذَا الْعَقْلُ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ
سَارَ وَهُوَ لَا يَرَى حَتَّى طَرِيقَهُ
وَالْخِيَالُ غَيْرُهُ عَنْهُ اخْتَلَفَ
ذَاكَ فِي الْجُوزَا وَهَذَا قَدْ أَسَفَ^(٢)
مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذَا فِي السَّمَاءِ
بِجَوَارٍ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ اِزْتَمَى
أَسْرُورُ مَنْ رَأَى يَوْمًا حَبِيبًا
مِنْ سُرُورٍ نَاشِقٍ كَانَ الْقَرِيبَا^(٣)
أَبْقِظِ الْعَيْنَيْنِ أَوْ خُذْ بِالْكَرَى
فَيَدُونِ الشَّمْسِ قَلْبٌ قَدْ يُرَى

فَضَّلَ الدُّنْيَا عَلَى دُنْيَا الْفؤادِ

بِالْقِيَاسِ حِزْتُ فِي شَرْحِ الْمُرَادِ

هَذِهِ دُنْيَاكَ فِيهَا غَيْرُهَا
« كُنْ فَكَانَ » غَيْرُ تِلْكَ نَجَرُهَا^(٤)
وَتَسْدُومُ ، وَبِهَا دَامَ التَّعْيِيرُ
لَا يَرَاهَا الْوَهْمُ ، إِنَّ الْعَيْنَ تَنْظُرُ
وَلَهَا دَوْمًا جَدِيدًا مِنْ كَمَالٍ
كُلَّ يَوْمٍ كَانَ لَوْنٌ مِنْ جَمَالِ^(٥)
لَا تُرَى فِيهَا الشُّمُوسُ وَالْبُدُورُ
تَسْعَةُ الْأَفْلَاكِ فِيهَا مَا يَدُورُ
كُلُّ مَا فِي الْغَيْبِ يَبْدُو فِي سُفُورِ
قَبْلَ أَنْ يَخْفِقَ قَلْبٌ بِالشُّعُورِ
بِلِسَانِي هَلْ أَصِيبُ وَضَفَهَا
يَا لَهَا نَوْرُ الْحَيَاةِ يَا لَهَا !^(٦)
الْجِبَالُ أَنْبَتَتْ حُمْرَ الزُّهُورِ
فِي الرِّيَاضِ النَّهْرُ يَجْرِي بِالْخَرِيرِ

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفص الطير .

(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أنَّ سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشمُّ الريح التي تأتي من محلته .

(٤) النجر : الأصل .

(٥) لون : نوع . وكان هنا تامة .

(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

الْبَرَاعِيمُ زَهَتْ أَلْوَانُهَا نَفْخَةُ الْأَبْرَارِ مِنْهَا كَوْنُهَا^(١)
 اللَّجَيْنُ الْمَاءُ وَالْأَنْسَامُ عَنَبَرُ وَالْقَبَابُ لِلْقُصُورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ^(٢)
 الْخِيَامِ مِنْ يَوَاقِيَتٍ وَتَبَرٍ وَجِبْنُ الْغَيْدِ بِالْمِرَاةِ يُزْرِي
 قَالَ لِي « الرُّومِي » أَسِيرٌ لِلْقِيَاسِ ؟ عَنْكَ دَغْ كُلٌّ اعْتِبَارٌ لِلْحَوَاسِ
 بِالنَّجْلِيِّ الْخَيْرُ كَانَ وَالشُّرُورُ جَنَّةٌ كَانَتْ كَمَا كَانَ السَّعِيرُ
 الْقُصُورُ كَالزَّبْيِ فِي النَّظَرِ أَصْلُهَا الْأَعْمَالُ لَا ذَاكَ الْحَجَرُ !
 مَا تُسَمِّيهِ بِحُورٍ أَوْ بِكَوْثَرٍ لِسُرُورٍ وَلِجَذْبٍ كَانَ مَظْهَرُ
 الْحَيَاةِ ، هَاهُنَا هَذَا النَّظَرُ
 وَسِوَاهُ وَسِوَى قَوْلٍ فَلَذَرُ

قَصْرُ شَرَفِ النِّسَاءِ^(٣)

عُشٌّ يَاقُوتٍ أَرَاهُ فِي عُلاهِ وَمِنْ الشَّمْسِ الْخِرَاجُ قَدْ جَبَاهُ
 ذَاكَ قَصْرٌ ذُو قِيَابٍ عَالِيَاثَ ضَمَّ حُورًا فِي ثِيَابِ الْمُخْرِمَاتِ
 رَغْبَةُ الْعِلْمِ وَهَبَتْ سَالِكَا مِنْ لِهَذَا الْقَصْرِ كَانَ مَالِكَا^(٤)

(١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إِنَّ الْأَبْرَارَ نَفَخُوا نَفْخَةً أَوْجَدَتْهَا .

(٢) اللجين : الفضة . والأنسام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .

(٣) شرفُ النساء : حفيذة أحد حكام البنجاب على عهد الإمبراطور المغولي بهادرخان . ويقال : إِنَّهَا أَقَامَتْ فِي قَصْرِهَا مَنْصَةً لَتَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَإِلَى جَانِبِهَا سَيْفٌ . وَكَانَ الْمَصْحَفُ وَالسَيْفُ عَلَى تِلْكَ الْمَنْصَةِ دَائِمًا . وَأَوْصَتْ بِدَفْنِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا مَعَ السَّيْفِ وَالْمَصْحَفِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .

(٤) السَّالِكُ : المرید فی أول عہدہ بالتصوف .

قال « هذي ، عُشُّها البادي هنالك
جوهرٌ ، ما إن حَوَاهُ بحرُنَا
أرضٌ لاهورَ بها أَضَحَّتْ سَمَاءُ
ولما بالذَّوقِ والشَّوْقِ الشُّعُورُ
وهي نورُ الأهل في عبد الصمد
تَقْرَأُ القرآنَ ، نفساً طَهَّرَتْ
تَحْمِلُ الْمُصْحَفَ وَالسَّيْفَ الحُسَامَا
خلوةٌ سيفٌ وقرآنُ الصَّلَاةِ
آخرُ الأنفاسِ وهي تُخْتَضِرُ
ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ عَرَفْتَ الآنَ سِرِّي
قَوَّتَانِ بهما أَيْدُ الثَّبَاتِ
في حياتي ، وجميعاً نُقْبِرُ
قَبْلَ مَوْتِي ذَاكَ مِنْكَ مَطْلَبِي
كُلُّ هَذَا مِنْ كَلَامِي فَلْتَعْمِي

الكتابُ والحُسَامُ حَسْبُنَا

بِهِمَا يَزْدَانُ حَقًّا قَبْرُنَا

وقرُوناً تَخْتِ تَنْبِرُ لِلْقَبَابِ قَدْ تَحْلَى بِالْحُسَامِ وَالْكِتَابِ^(٧)

(١) أَي تَعْنَى الطَيْرُ الَّذِي حَطَّ عَلَى سَطْحِ هَذَا الْقَصْرِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ .

(٢) السَّيْفُ الحُسَامُ : الْقَاطِعُ .

(٣) التَّقَاةُ : التَّقْوَى .

(٤) المصحف في يدها ، وَالسَّيْفُ مَعْلُوقٌ بِخَصَرِهَا .

(٥) الْأَيْدُ : الْقُوَّةُ .

(٦) وَعَى الْكَلَامُ : حَفَظَهُ وَتَدَبَّرَهُ . وَهِيَ تَرْغَبُ إِلَى أَثَمِّهَا أَلَّا تَقِيمَ لَهَا قَبْرًا يَزْدَانُ بِالْقَبَابِ

وَالْقَنَادِيلِ .

(٧) النَّبِيرُ : الذَّهَبُ .

ولنا المَرْقَدُ في دُنْيَا الشَّاتِ عَلَّمَ الْمُؤْمِنَ مَعْنَى الْحَيَاةِ^(١)
نَفْسَهُ الْمُسْلِمُ حَقًّا قَدْ ظَلَمَ فَالْبَسَاطُ مَا طَوَى دَهْرٌ وَضَمَ
وهو في غيرِ الإلهِ فَكَّرَا أَصْبَحَ الثَّغْلَبُ ، كَانَ الْقَسُورَا^(٢)
ولهيبُ القلبِ فيه ما اندلَع أَنْتَ فِي الْبَنَجَابِ تَدْرِي مَا وَقَعَ ؟
مِنْهُ سَيْفٌ وَكِتَابٌ مَا حُمِلَ
ولذا الإسلامُ فيه قَدْ قُتِلَ^(٣)

زيارةُ الأميرِ الكبيرِ سيّد علي همداني ومُلاًّ طاهر غني كشميري^(٤)

حَرَّقَ الْأَضْلَاعَ لِلرُّومِيِّ قَوْلُ آه يَا بَنَجَابُ ! يَا أَرْضاً تُجَلُّ
مِثْلَ خِلَانِي اضْطَرَبْتُ فِي الْجَنَانِ وَمِنْ الهمِّ ذَكَرْتُ مَا عَرَانِي^(٥)
وَإِذَا صَوْتُ لَأَلَامٍ وَخُزْنٍ مِنْ ضِيفَافِ الْكُوْثَرِ الصَّافِي بِأَذْنِي
« وَأَرَدْتُ حَزَقَ نَفْسِي وَلِذَا جَمَعْتُ قَشًا

(١) الشَّاتَات : التفرق .

(٢) الْقَسُورُ : الأسد .

(٣) يقول : إِنَّ طَائِفَةَ السَّيْخِ هِيَ الَّتِي أَبْعَدَتْ الْقُرْآنَ وَالسَّيْفَ عَنِ الْبَنَجَابِ . وَفِي عَقِيدَةِ السَّيْخِ : أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ جَدِيدٌ بِالْإِجْلَالِ وَالتَّقْدِيرِ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنِ دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ ، وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَحَارَبَ السَّيْخُ الْمُسْلِمِينَ .

(٤) الْأَمِيرُ سَيِّدُ عَلِيِّ هَمْدَانِي صُوفِيٌّ مَرْمُوقُ الْمَنْزِلَةِ عَالِي الْقَدْرِ . كَانَ صَاحِبَ مَشُورَةِ أَمِيرِ كَشْمِيرِ ، وَلَدَ فِي هَمْدَانَ ، وَعَاشَ طَوِيلًا ، وَأَفَادَ النَّاسَ بِعِلْمِهِ فِي كَشْمِيرِ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٣٨٥ م . وَمُلاًّ طَاهِرُ غَنِي كَشْمِيرِي ، شَاعِرٌ مِنْ أَهْلِ كَشْمِيرِ ، كَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ١٦٦٩ م . كَانَ وَاسِعَ الْخِيَالِ مِيَالًا فِي شِعْرِهِ إِلَى التَّمَثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَعَلَى فِقْرِهِ وَرَقَّةُ حَالِهِ عُرِفَ بِغَنَى النَّفْسِ ، فَكَانَ اسْمًا عَلَى مَسْمَى .

(٥) عَرَاه : أَصَابَهُ .

ويظنُّ الوردُ أنني في الرياض رُمْتُ عُشًا ^(١)

قال لي الرومي « ما يأتي انظرته
هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعر
إنه النشوان غنى في دوام
سيد السادات من ساد العجم
الغزالي دزمه لما تلقى
في بلاد وهي للخلد النظير
في البلاد ذلك البحر المعين
إنه من شاد إيران الصغيرة
يا بُني ما مضى لا تذكرته
الفقير ، وغناه منه ظاهز
عند هذا السيد العالي المقام
كفه مغمار تقدير العجم ^(٢)
استمد آله فكراً وحققا
مرشد لكل بل نغم المشير
فضله علم وتهذيب ودين ^(٣)
بصفات الخير والحسن الكثيره

عقدة بالعين حل كالحكيم
ثم تلق ما لديه في الصميم ^(٤)

في حضرة أمير همدان

زنده رود

أفهمني سرَّ ربِّي ، أنت تصدق
كلُّ شر في الوجود زينه
ذلك سخر منه لي شك يخامر
يطلب الطاعة والسيطان يخلق !
وابتغي ممّا عملت أحسنه ^(٥)
ما ابتهاجي صاحبي بشن المقامز

- (١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .
(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إنه قورَّ مصير الفرس .
(٣) معن الماء فهو معين : أي جرى .
(٤) ما لديه : أي ما لديه من فضل وصفات حميدة .
(٥) أي : أراد مني ألا أعمل إلا خيراً .

مِنْ تَرَابٍ حُفْنَةٍ ، وَهُوَ الْفَلَكُ
 مَا عَمِلْنَا ، مَا ذَكَّرْنَا ، وَالْأَلَمُ
 كُلُّ مَنْ يَدْرِي عَنِ الذَّاتِ الْخَبَرِ
 حُبُّ إِنْسَانٍ لَشَيْطَانٍ وَيَا لَ
 وَعَلَى الشَّيْطَانِ أَنْتَ فَاخْمِلْنِ
 فَلْتَجَاهِزْ وَلْتَجَالِدْ ، كُنْ وَحِيًّا
 أَطْرِيقُ لَيْتَ شِعْرِي مَا سَلَكَ !
 كَانَ عَضًّا لِلْبَنَانِ مَنْ نَسَدَمُ
 يَخْلُقُ النَّفْعَ لَدَيْهِ مِنْ ضَرَرِ
 هَزَمَهُ الشَّيْطَانُ فِي حَرْبِ جَمَالِ
 كُنْ حُسَامًا وَلْيَكُنْ نِعَمَ الْمَسْنِ
 لَا تَكُنْ فِي الْعَالَمِينَ ذَا الشَّقِيَّا

زندہ رود

كُلُّ إِنْسَانٍ أَخَاهُ يَأْكُلُ
 تَتَلَقَّى الرُّوحُ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ
 شَعْبُهُ بِالْعَقْلِ وَالْحُسْنِ اشْتَهَرَ
 دُخِرْجَتْ كَأْسٌ وَلَكِنْ فِي دِمَاهِ
 مُنْذُ أَنْ ضَيَّعَ مِنْ ذَاتِ نَصِييَا
 ظِلٌّ فِي أَيْدِي سِوَاهِ أَجْرُهُ
 وَمَضَتْ فِي سَبْرِهَا كُلُّ الْقَوَافِلِ
 مَا تَبَتِ الْجَذْبَةُ فِيهِ وَهُوَ عَبْدُ
 لَا تَظُنَّ أَنَّهُ كَانَ الْمَهِينَا
 لَيَعِيشَ الشَّعْبُ شَعْبًا يَقْتُلُ^(١)
 وَيُنْزِلُ الْقَلْبُ أَضْنَاهُ الْكَمْدُ^(٢)
 وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مَعْرُوفُ الْخَبَرِ
 نَاحَ نَابِي لَلْأَلِيمِ مَنْ أَسَاهِ
 كَانَ فِي أَوْطَانِهِ هَذَا الْغَرِيبَا
 وَشَبَاكَ الْغَيْرِ أَرْضِي نَهْرُهُ
 أَفْسَدَ الْأَعْمَالِ شَأْنُ كُلِّ غَافِلِ
 وَلِنَارٍ فِي الْعُرُوقِ كَانَ خَمْدُ^(٣)
 فِي الثَّرَابِ دَائِمًا أَدْلَى الْجَبِينَا^(٤)

إِنَّهُ فِيمَا مَضَى خَاضَ الْحُرُوبَا

وَتَحَدَّى وَهُوَ ذُو الْبَاسِ الْخُطُوبَا

قَمَّةً لِلْفُلُجِ فَاغْمُزْ بِالنَّظَرِ
 وَكُفُوفُ النَّارِ تَبْدُو فِي الشَّجَرِ

(١) فِي الْأَصْلِ أَنَّ الشَّعْبَ يَرَعَى شَعْبًا غَيْرَهُ كَمَا تَرَعَى الْمَاشِيَةُ الْعُشْبَ فِي الْمَرَعَى لِنَعِيشِ .

(٢) يَتَلَقَّى : يَشْتَمَلُ . الْكَمْدُ : أَشَدُّ الْحُزَنِ .

(٣) الْخَمْدُ : الْخُمُودُ .

(٤) الْمَهِينُ : الْحَقِيرُ .

اليواقيتُ حصاهُ في الربيع والثُّرابُ مَاجَ باللَّونِ البَديعِ
والسَّحابُ حولَ أَجْبالٍ يَدُوزُ مِثْلَ قُطْنٍ عِنْدَ نَدَافٍ يَطِيرُ^(١)
ذاك قرصُ الشَّمسِ في بحرٍ غَرَبَ قد رَأَيْتُ اللهَ عني ما اخْتَجَبَ^(٢)
في «نشاطٍ» سِرْتُ في ركبِ النَّسيمِ وتلوثُ شِغَرٍ «مولانا» العَظِيمِ^(٣)
قالَ طَيْرٌ كانَ في أعلى الغُصونِ ما الرِّبيعُ غَيْرَ ذا الشَّيءِ المَهِينِ
نَزَجْسُ يَزْكُو وزَهْرُ أَخْمَرُ بالنَّسيمِ شُقَّ ثوبٌ أَخْضَرُ^(٤)
مِنْ قديمٍ في الجبالِ قَدْ ظَهَرَ نَزَجْسُ في طَهرِهِ فاقَ القَمَرُ
كَمْ رَأَيْنا مِنْ ورودٍ أَيْنَعَتْ كشهابٍ أَرْضنا ما أُنْبَتَتْ^(٥)

بالشَّكَاةِ نَاحَ غَرِيدُ السَّحَرِ فأوارَ الوجودِ في رُوحِي اسْتَعَزَ
ورأَتْ عَيْنايَ مَجْنونَ الطَّرَبِ كَلَّ ما جَمَعْتُ مِنْ صَبْرِي سَلَبَ

امضِ عَنَّا ، دَعَكَ مِنْ نوحِ ثَمَلِ
عن طِلْسَمِ اللَّوْنِ في الأزهارِ مِلِ
قلتُ إِنَّ الطَّلَّ في أوراقٍ وَزَدَ
مَنْ بَكَى في الشَّطِّ غِرٌّ أَوْ خَبِلَ^(٦)

(١) الأَجْبالُ : الجبال . والنَّدافُ : ضارب القطن بالمندف ليرق .

(٢) يقول : إنه شاهد قدرة الله في روعة الطبيعة .

(٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أنشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمته على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إِنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نازُ العِشْقِ الإلهي .

(٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكمام الزهر .

(٥) أينعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذروة التقدُّم في تاريخها .

(٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أَيْنَ ضِغْتُ الرِّيشِ مِنْ تِلْكَ الْأَغَانِي
 عَيْنَ رُوحٍ لَغْنِي تَنْهَمِلُ^(١)
 إِنَّ مَرَزْتَ بِجَنيفٍ يَا صَبَا
 بَلْغِي الْعُضْبَةَ عَنِّي مَا نُقِلُ^(٢)
 يَبْعَ فَلَاحٌ وَتِلْكَ الْأَرْضُ بِيَعْتَ
 وَأَنَاسٌ ، وَلَهُمْ سِغَرٌ مُسْدِلُ^(٣)

أمير همدان

الْشَّرَابُ جِسْمُنَا وَالرُّوحُ جَوْهَرُ مِنْ تَرَابٍ إِنَّهُ لَا شَكَّ أَطْهَرُ ذَلِكَ الْجِزْءُ بِلَا رَيْبٍ أَضْعَا عَادَتِ الرُّوحُ إِلَيْكَ وَهِيَ خَيْرَى فَهِيَ فِي قَيْدٍ وَمِنْ قَيْدٍ تَطِيرُ ! إِنَّ بَذَلْتَ الرُّوحَ نَوْرًا أَشْرَقَتْ مَا هِيَ الرُّوحُ وَمَا عَنْهَا التَّحَلِّي وَبِهَا الطُّورُ الْعَظِيمُ كَيْفَ يُضْهِرُ فِي اللَّيَالِي السُّودِ لَاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبٍ وَالْوُجُودُ ، كَانَ لِلذَّاتِ الْعَطَاءُ^(٤) سِجْنَهُ أَخْلَاهُ مِمَّا قَدْ حَوَاهُ	اسْمَعَنَّ الْقَوْلَ لَا يُنْسَى وَيُذَكَّرُ وَلَا جِلَّ الرُّوحِ جِسْمٌ يُضْهِرُ يَا بَنِي ، مِنْهُ إِنَّ جِزْءًا قَطَعْنَا إِنَّ بَذَلْتَ الرُّوحَ لَكِنْ وَهِيَ سَكْرَى قُلْ أَجْنَبِي أَيْسَ لِلرُّوحِ النَّظِيرُ إِنَّ حَفِظْتَ الرُّوحَ مَيْتًا أَصْبَحَتْ مَا هِيَ الرُّوحُ وَفِي سُكْرِ التَّجَلِّي وَلِرَبِّي قُلْ أَجْنَبِي كَيْفَ تُنْشَرُ بِتَجَلِّي السُّكْرِ أَنْتَ الذَّاتُ تَطْلُبُ إِنَّ فَقَدْتَ الذَّاتَ حَقَّقْتَ الْفَنَاءَ مَنْ رَأَى الذَّاتَ ، وَشَيْئًا مَا رَأَاهُ
--	---

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أَنَّ رُوحٌ غَنَى فِي حَدَادٍ عَلَى أَمْلِهَا .

(٢) العصبية : هي عصبية الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .

(٣) أردنا بالسُّغَرِ المذل : السُّغَرِ الرخيص للغاية .

(٤) الوجود هنا هو وجود الذات .

ذَاكَ نَشْوَانُ التَّجَلِّي ، وَهِيَ مَطْلَبٌ لِسَعَةٍ مِنْ شَهْدِهِ أَخْلَى وَأَطْيَبُ !
 وَتَرَى الرُّوْحَ رِيحاً نَظَرْتُهُ سَجْنُهُ سِجْنٌ تَهْوُلُ رَجَفَتُهُ ^(١)
 يَرْفَعُ الْفَاسَ لِتُخْطِئِمِ الصَّفَاةَ لِنَصِيبٍ قَدْ يَنَالُ مِنْ حَيَاةِ ^(٢)
 تَرَكَ الرُّوْحَ لَتَغْدُو خَلْفَهُ
 وَيَغْيِرَ التَّرَكُ كَانَتْ ضَيْفَهُ

زنده رود

أَنْتَ خَيْرًا ثَمَّ لِي شَرًّا شَرَحْنَا يَا حَكِيمُ غَيْرَ هَذَا لَوْ ذَكَّرْنَا ^(٣)
 وَإِلَى لُبِّ الْمَعَانِي قَدْ هَدَيْتَ كُلَّ أَسْرَارِ الْمُلُوكِ كَمْ وَعَيْتَ
 فَقَرَاءٌ ، حَاكِمٌ يَبْغِي الْخَرَاةَا قُلْ لِمَاذَا مَجَّدُوا عَرْشًا وَتَاجَا ^(٤)

أمير همدان

أَضِلُّ هَذَا الْمُلْكَ فِي شَرْقٍ وَعَرْبٍ ؟ كَانَ إِزْضَاءٌ لِشُعْبٍ أَوْ لِحَزْبٍ
 وَأَقُولُ لَكَ يَا عَالِي الْمَقَامِ لِسَوَى اثْنَيْنِ الْخَرَاةُ كَالْحَرَامِ ^(٥)
 لِأُولَى الْأَمْرِ وَ« مِنْكُمْ » شَأْنُهُمْ فِي الْكِتَابِ قَوْلُهُ بَرَهَانُهُمْ ^(٦)

(١) يشبه الروح بالريح على أَنَّ الريح لا تمن لها .

(٢) الصفاة : الحجر الصَّخْم الصَّلْد .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) أي : نحن فقراء .

(٥) أي : أَنَّ أداء الخراج حرامٌ إلا إلى اثنين .

(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آطِيعُوا اللَّهَ وَآطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أَوْ نَجِيدٍ مِثْلَ رِيحٍ عَاتِيَةٍ جَادَ فِي الْحَرْبِ بِنَفْسٍ غَالِيَةٍ^(١)
 بِالْقِتَالِ يَفْتَحُ الْبُلْدَانَ فَتَحًا وَهِيَ تَمَسُّ مُلْكَهُ إِنْ شَاءَ صَلَاحًا
 فَارِسٍ وَالْهِنْدُ مِمَّا يُشْتَرَى لَا يُنَالُ الْمُلْكُ مِنْ هَذَا الْوَرَى^(٢)
 جَامُ جَمَشِيدِ الْعَجِيبِ وَالنَّفِيسِ أَيَّاعٌ مِثْلَمَا بَاعَتْ كَوْوسَ^(٣)
 الرُّجَاجُ لَكَ مَالٌ إِنْ شَرَيْتَهُ أَيُّ نَفْعٍ لِلرُّجَاجِ إِنْ كَسَرْتَهُ

غني

مَنْ أَفَادَ الْهِنْدَ تَخْطِيمَ الْقَيْوُذِ أَيْكُونُ الصَّيْدُ يَوْمًا كَالصَّيْوُذِ^(٤)
 عَقْلَاءُ يُنْسُبُونَ لِلْبَرَاهِمِ عِنْدَهُمْ قَدْ أُخْجِلَتْ حُمْرُ الْبَرَاغِمِ^(٥)
 مَنْ أُولَى الْعَرْفَانِ أَصْحَابُ النَّظَرِ أَيْ غَرِيبِي رَأَاهُمْ لَمْ يَحْزَ
 أَرْضُنَا كِشْمِيرُ مِنْهَا أَضْلُهُمْ وَبِهَا لَا يَسَوَاهَا نَجْمُهُمْ
 إِنْ حَسِبْتَ الْأَرْضَ تَخْلُو مِنْ شَرِّ قَلْبِكَ افْتَحْ وَأَطْلُ فِيهِ النَّظْرُ^(٦)
 أَصْلُ تِلْكَ النَّارِ أَيْنَ ؟ لَيْتَ شِعْرِي وَنَسِيمٌ لِلرَّبْرِيعِ وَهُوَ يَنْسَرِي^(٧)
 فِي الْجِبَالِ عِنْدَنَا خَفَقَ لَرِيحٍ

(١) النجيد : الشجاع .

(٢) الورى : الناس .

(٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصوفي رمز لقلب المتصوف .

(٤) الصيْدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .

(٥) البراهم : البراهمة .

(٦) الشرر : ما يتطاير من النار .

(٧) سرى : سار عامة الليل .

وبها تختال في لون وريح^(١)

هل عَلِمْتَ أَنَّ يَوْمًا فِي وَلَرٍ
طَالَ فِي الْبَحْرِ بِنَا غُنْفُ الصُّرَاعِ
وَابْنَا أَيَّ ذَلِكَ النَّهْرِ الْقَدِيمِ
يَضْرِبُ الْأَخْجَارَ فِي عَرْضِ الطَّرِيقِ
مَنْ فَتَى فِي كُلِّ أَرْضٍ قَدْ غَلَبَ
إِنَّهُ بِالْعُنْفِ أَبَدَى الْمَخْشَرَا
مَا الصَّوَابُ عِشْنَا فِي حَدٍّ سَاحِلٍ
إِنَّ إِلْفَ الشُّطِّ مَوْتُ لِلْأَبَدِ
مَوْجَةٌ قَالَتْ لِمَوْجَاتٍ أُخَرُ^(٢)
لَوْ حَوَانَا الْبُرُ يَوْمًا فِي اجْتِمَاعِ^(٣) !
مَنْ فِي الْوَادِي وَفِي السَّفْحِ الْهَزِيمِ^(٤)
كَيْ يُزِيلَ شَافَةَ الطُّودِ الْعَتِيقِ^(٥)
أَرْضَعْتَهُ أَلْفَ أُمَّ ثُمَّ شَبَّ
لَمْ يَجْذِ عِنْدَ سَوَانَا الْمَضْدَرَا
فِي الطَّرِيقِ حَطَّ مَا صَخْرًا يُمَاطِلُ^(٦)
يَا مُدِيمَ السَّبْحِ فِي لُجِّ الرِّبْدِ^(٧)

الحياة السير في غورٍ وَتَجِدِ

يُسَعِدُ الْمَوْجَةَ جَزْرٌ بَعْدَ مَدٍّ

أَنْتَ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ مَنْ قَرَأْتَ
الرِّفِيرَ لَكَ هَذَا الْقَلْبُ أَخْرَقَ
النُّوَاخُ لِلطُّيُورِ مِنْ رَجِيعِكَ
وَفَتَحْتَ الرُّفْرَ مِنْ طَبْعِ هُنَاكَ
إِنَّ مِنْكَ الصَّوْتُ أَجْرَاسُ الْقَوَافِلِ
ذَلِكَ الشَّرْقَ الْحَيَاةِ مَنْ وَهَبْتَ
ضَقَّتْ صَدْرًا وَلَدَيْنَا الصَّدْرُ أَضْيَقُ
وَالْوَضُوءُ لِلنَّبَاتِ مِنْ دُمُوعِكَ^(٨)
وَالْمَنَى فِي الرُّوْحِ كَانَتْ مِنْ مُنَاكَ
وَلِكَشْمِيرَ أَرَاكَ غَيْرَ أَمَلٍ

(١) الريح : الرائحة .

(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) الهزيم : صوت الرعد .

(٥) شافة الطود : أصل الجبل .

(٦) أي : أن عيشنا على الساحل ليس صواباً لأنَّ صخر الساحل عقبة في طريقنا . ويمائل : يشبه .

(٧) اللج : معظم الماء .

(٨) الرِّجِيع : كلُّ متردِّد . والمرادُّ هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فِي الصُّدُورِ لَمْ يُمِثْ يَأْسٌ فَوَادَا تَخَتَّ ثُلُجٌ لَمْ يَصِرْ جَنْزٌ رَمَادَا
 قِفْ تَمَهَّلْ لِتَرَى مِنْ غَيْرِ صُورِ كَيْفَ قَامَ الشَّعْبُ مِنْ جَوْفِ الْقُبُورِ
 وَنَاوَةٌ يَا فَتَى لَا تَبْتَئِسْ أَخْضِرَا أَخْرِقْ وَأَخْرِقْ مَا يَيْسُ^(١)
 كَمْ بِلَادٍ تَخَتُّ أَفْلَاكَ السَّمَاءِ أَحْرِقْهَا نَارُ قَلْبِ الْأَشْقِيَاءِ^(٢)
 إِنَّ هَذَا الْمُلْكَ أَوْهَى مِنْ حَبَابِ وَهُوَ بِالْأَنْفَاسِ مَحْتَوٌمُ الْخَرَابِ^(٣)
 إِنَّمَا الشَّعْرُ الْمَصِيرُ قَسْداً وَالشُّعُوبُ قَدْ بَنَى أَوْ دَمَّارَا
 أَنْتَ إِنْ جَرَّخْتَ هَاتِيكَ الْقُلُوبَا لَمْ تَجِدْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ضَرْبَا^(٤)
 الْغِنَاءِ لَكَ مِنْ شَعْرِ تَلَوَّنَتْهُ مَا وَرَاءَ الشَّعْرِ شَعْرٌ أَنْتَ قُلْتَهُ
 جَدِّدِ التَّخْرِيبَ وَالتَّائِيْرَ جَدِّدْ
 رَدِّدِ الْأَلْحَانَ فِي الْجَنَاتِ رَدِّدْ

زنده رود

اغْرِزَنَّ ، نَشْوَةَ الدَّرْوِيشِ هَذِي فَاثْلَفَنَّ
 إِنْ نَضَجَتْ مَلِكٌ جَمَشِيدَ الْعَرِيضِ فَاثْلُكَنَّ^(٥)
 ثُمَّ قَالُوا هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَا هَلْ تَرْضِيهَا ؟
 قُلْتُ لَا ، لَا أَرْضِيهَا ، قِيلَ هَيَّا هَذَا مَنْ
 لَيْسَ فِي الْحَانَاتِ كَفَاءٌ بِالرِّضَا مِنَّا جَدِيدِ

(١) ابتأس : حزن .

(٢) الأشقياء : ضد السعداء .

(٣) الحباب : التفاحات التي تعلو الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .

(٤) الضريب : النظير .

(٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتُمُ الْأَبْطَالِ حَارِبٌ ، وَمَعَ السَّاقِي امْرَحَنُ^(١)
 أَنْتَ يَا زَهْرُ الصَّحَارَى ، قُلْ أَحَقَّقْتَ احْتِرَاقًا^(٢)
 فِي قُلُوبِ لِلْأَنَاسِي ، هَذِهِ النَّارُ اضْرِمَنَّ
 كُنْتُ فِي قَلْبٍ لَهِيئاً ، وَلَهِيئاً فِي دِمَاءِ
 وَإِذَا لَمْ تَقْتَنِغْ بِالْقَوْلِ ذَا الْكُونِ اشْطُرَنَّ
 أَلَاكَ الْعَقْلُ سِرَاجٌ ؟ فِي الطَّرِيقِ سِرٌّ تَقَدَّمُ
 وَلَكَ الْعِشْقُ مُدَامٌ ، فَمَعَ الْحُبُّ اشْرَبَنَّ^(٣)
 فَلَذَّةُ الْقَلْبِ بَدَمِعٍ مِنْ عَيْوَنِي فِي انْسِكَابِ
 مِنْ يَوَاقِيْتِ بَدْخُشَانَ الْفُصُوصِ فَاضْنَعَنَّ^(٤)

حديثٌ مع الشَّاعِرِ الهِنْدِيِّ بَرْتَرِي هَرِي^(٥)

تَسْكُنُ الْحُورُ الْقُصُورَ وَالْخِيَامَا بِشَكَاتِي يُضْبِحُ الْقَلْبُ الضَّرَامَا^(٦)
 هَذِهِ مِنْ خِيَمَةٍ أَبْشَدَتْ جَيْئَنَا أَخْتُهَا مِنْ غَرْفَةٍ أَذَلَّتْ عَيْوَنَا^(٧)
 كُلُّ قَلْبٍ فِي الْجَنَانِ قَدْ وَجَدْتُهُ بِالْأَسَى مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا غَمَرْتُهُ

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .

(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .

(٣) الحب : الحبيب .

(٤) بَدْخُشَانَ : مدينة تشتهر بالياقوت .

(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة

السنسكريتية في الحبِّ والخلق القويم والزهد .

(٦) الضرام : النار .

(٧) أدلت عيونا : نظرت .

قَالَ لِي الشَّيْخُ وَبِسْمَا قَدْ حَجَبَ « أَنْتَ سَحَّارٌ » وَهَنْدِيُّ النَّسَبِ ^(١)
 شَاعِرُ الْهِنْدِ ! وَهَذِي حِرْفَتُهُ تَجْعَلُ الطَّلَّ اللَّالِي نَظَرْتُهُ ^(٢)
 (بَرْتَرِي) يَزْدَانُ بِالْعِلْمِ الْعُجَابِ فَطَرَةٌ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ السَّحَابِ
 بُزْعُهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا رَأَيْنَا دَفَعْتُهُ مِنْكَ أَنْفَامٌ إِلَيْنَا
 إِنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ بِالْغِنَاءِ وَهُوَ بِالْفَقْرِ الْعَظِيمِ ذُو الْعَلَاءِ
 يَرْسُمُ الشَّكْلَ الْبَدِيعَ بِالذِّكَا يُظْهِرُ الدُّنْيَا بِحَرْفٍ مِنْ خَفَاءِ
 أَمَرَ هَذَا الْعَيْشِ يَدْرِي كُلُّهُ وَهُوَ جَمٌّ شِعْرُهُ جَامٌّ لَهُ ^(٣)
 قَدْ عَرَفْنَا فَتَنَهُ فَنَأَى عَلَيْنَا
 وَأَذْنَانَا بَيْنَنَا قَوْلًا طَلِيًّا

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ قُلْتَ قَوْلًا عَبَقَرِيًّا يَغْلَمُ الشَّرْقُ بِهِ سِرًّا خَفِيًّا
 قُلْ ، لِهَذَا الشَّعْرِ مِنْ أَيْنَ اللَّهَبُ أَضْرَمْتُهُ الذَّاتُ أَوْ رَبٌّ وَهَبُ ؟

برتري هري

شَاعِرٌ أَيْنَ يُقِيمُ ، مَنْ عَرَفَ ؟ وَلَهُ بِمِ وَزِيرٌ إِنْ عَرَفَ ^(٤)

(١) السَّحَّارُ : الكثير السحر .

(٢) الطَّلُّ : الندى .

(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبعة .

(٤) اليم : أغلظ أوتار العود . والوزير : أدفها .

قَلْبُهُ فِي الصَّدْرِ وَهَاجُ الْأَوَارِ وَأَمَامَ اللَّهِ مَعْدُومُ الْقَرَارِ^(١)
 وَيَبْحَثُ رَوْحُنَا كَأَنَّا تَطْيِبُ وَطَلَبْنَا ، فَلِذَا الشَّعْرُ اللَّهِيْبُ
 مِنْ كَرُومِ الْقَوْلِ يَا مَنْ قَدْ ثِمَلْنَا مِثْلَ ذِيكَ الْمَقَامِ لَوْ بَلَّغْنَا^(٢)
 وَبَيْتٍ قِيلَ فِي دُنْيَا الْحَجَرِ فِي الْجِنَانِ تُسَبِّحِي ذَاكَ الْحَوَزَ^(٣)

زنده رود

إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ كَانُوا فِي الْعَذَابِ
 أَظْهَرَ السَّرِّ مَنْ خَلْفَ الْحِجَابِ

برتري هري

هَذِهِ الْأَرْبَابُ شَحَّتْ وَهِيَ مِنْ طِينٍ وَصَخْرٍ
 « بَرْتَرِي » كَانَ بَعِيداً عَنْ كَنِيسِ بَلٍّ وَدَيْرِ
 سَجْدَةٍ مِنْ ذَوْقِ أَعْمَالٍ خَلَّتْ لَا خَيْرَ فِيهَا
 عَمَلٌ تِلْكَ الْحَيَاةُ ، وَهُوَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرِّ
 عَالَمٍ أَنْتَ تَرَاهُ لَيْسَ مِنْ آثَارِ رَبِّ
 مِغْزَلٍ بِالْخَيْطِ دَوَّرْتَ وَلَكِنْ لَسْتَ تَذَرِي
 اسْتُجِدْنَ عِنْدَمَا لِلْعَامِلِينَ مِنْ جَزَاءٍ
 مَا لَهُمْ هَذَا النَّعِيمُ وَالْجَحِيمُ غَيْرَ أَجْرٍ^(٤)

(١) وهاج الأوار : متاجع النار .

(٢) لو هنا للتمني .

(٣) استباه : سباه في الحرب .

(٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواء أكان على الخير أم على الشر .

السَّفَرُ إِلَى قَصْرِ سلاطين المَشْرِقِ

نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد^(١)

« بَزْتَرِي » قَدْ هَزَّ رُوحِي بِالنِّدَاءِ أَسْكِرْتَنِي مِنْهُ صَهْبَاءُ الْغِنَاءِ
 قَالَ لِي الرُّومِيُّ « عَيْنُ الْقَلْبِ أَفْضَلُ وَالخُرُوجُ عَنْ إِطَارِ الْفِكْرِ أَمْثَلُ^(٢) »
 بِمَقَرِّ لِلدَّرَاوِيشِ اعْبُرَنَّ وَقَصُوراً لِلسُّلاطِينِ انْظُرَنَّ
 وَمُلُوكُ الشَّرْقِ فِي حَفْلٍ كَعَقْدِ عِزَّةِ الْأَفْغَانِ أَوْ فِرْسِ وَهِنْدِ^(٣)
 « نَادِرُ » النَّحْرِيزُ رَمَزُ الْأَتْحَادِ كَانَ لِلإِسْلَامِ بُشْرَى بِالْوِدَادِ^(٤)
 ثُمَّ « أَبْدَالِي » وَقَدْ كَانَ الْبَطْلُ مَنَحَ الْأَفْغَانَ أَسْأً لِلْعَمَلِ^(٥)
 وَإِمَامُ شُهَدَاءِ الْعَاشِقِينَ شَرَفَ الْأَقْوَامِ كَانَ أَجْمَعِينَ^(٦)

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تأتى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فترى على عرشها عام ١٧٣٦م كان سنياً ، وبذل وسعته في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
 وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . ويعتد مؤسساً لدولة الأفغان .
 أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له الملك في الدكن . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

(٢) الأمثل : الأفضل والأدنى للخير .

(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العقد ، ويقول : إِنَّ عِزَّةَ الْأَفْغَانِ وَالْفِرْسِ وَالْهِنْدِ بِهِمْ . وَأَوْ هُنَا لِلْجَمْعِ .

(٤) التحريز : العاقل الحاذق .

(٥) الأس : الأساس . وفي الأصل : أنه منح الأساس للشعب .

(٦) العاشقون هنا عاشقوا الذات الإلهية من الصوفية .

أَيْنَ مِنْ نُورِ اسْمِهِ نُورُ الْكَوَاكِبِ وَتَرَاهُ عَيْشَنَا هَذَا يُوَاكِبُ^(١)
 إِنَّهُ كَشَفَ سِرَّ الْعَاشِقِ جَادَ بِالرُّوحِ بِشَوْقٍ دَافِقِ^(٢)
 وَبِفَضْلِ مَنْ يَبْذُرُ أَوْ حُنَيْنِ قَدْ حَبَاهُ فَقْرُهُ جَذَبَ الْحُسَيْنِ^(٣)

زَايِلَ السُّلْطَانَ قَصْرًا زَائِلًا

مُلْكُهُ فِي الْهِنْدِ ظَلَّ مَائِلًا^(٤)

نَاقَصَ الْعَقْلَ ، عَجَزَتْ عَنْ كَلَامِي لَيْتَ شِغْرِي كَيْفَ وَصَفِي لِلْمَقَامِ
 يَتَجَلَّى لَهُ رَأْيُ أَفْلَ السَّمَاءِ مَا زَهُمَ لَكِنْ عَجِيبٌ مِنْ ذُكَا
 ذَاكَ قَصْرٌ وَمِنْ الْفَيْرُوزِ بَابِهِ السَّمَاءُ كُلُّهَا تَحْوِي رَحَابَهُ
 فِي السُّمُوقِ مَا لَهُ كَيْفٌ وَكَمْ يَجْعَلُ التَّفَكِيرَ ذَا عَجَزٍ يُذَمُّ
 هَذِهِ الْأَزْهَارُ فِي الْحَسَنِ الْبَدِيعِ صُورَةٌ كَانَتْ تَجَلَّتْ لِلرَّيِّعِ
 وَالنَّبَاتِ وَهُوَ قِيَاضُ الْبَهَاءِ غَيْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ ذَوْقِ النَّمَاءِ
 وَالصَّبَا دَابُّ لَهَا أَنْ تَسْخَرَا تَجْعَلُ الْأَضْفَرَ تَوًّا أَخْمَرًا^(٥)
 دَفَقَ الْمَاءُ وَكَالِدُرٌّ انْتَشَرَ طَائِرُ الْفَرْدَوْسِ غَنَّى فِي الشَّجَرِ
 يَا لِقَصْرِ فِيهِ بِهِوَ قَدْ سَمَقَ ذَرَّةٌ مِنْهُ ذُكَا فِي الْوَهَقِ^(٦)
 سَفَقُهُ كَانَ عَقِيقًا نُضْدَا أَرْضُهُ يَشْمُ ثَمِينٌ مُهْدَا^(٧)
 وَصُفُوفٌ فِيهِ مِنْ قَامَاتٍ حُورٍ وَلِهِنَّ الثُّبُرُ حَلِيٌّ فِي الْخُصُورِ

(١) واكب الركب : سايروهم ، أو ركب معهم .

(٢) كَشَفَ : بمعنى كشف .

(٣) فِي الْأَصْلِ بِنظَرَةٍ مِنْ سَيِّدِ بَدْرٍ وَحْنَيْنِ .

(٤) الْمُرَادُ بِالْقَصْرِ الزَّائِلِ هَذَا الْعَالَمِ .

(٥) اللَّدَابُّ : الْعَادَةُ . يَقُولُ : إِنَّ مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَغْيِّرَ الْأَشْيَاءَ بِالسَّخْرِ .

(٦) سَمَقَ : عَلَا . وَذُكَا : الشَّمْسُ . الْوَهَقُ : حَبْلٌ فِي طَرَفَيْهِ أَنْشُوطَةٌ يَطْرَحُ فِي عُنُقِ الدَّابَّةِ

لِتُؤْخَذَ بِهِ . يَقُولُ : كَأَنَّمَا كُلُّ ذَرَّةٍ فِي هَذَا الْقَصْرِ صَادَتْ الشَّمْسُ بِهَذَا الْحَبْلِ .

(٧) نُضْدُهُ : وَضَعُ بَعْضِهِ عَلَى الْبَعْضِ . وَالْيَشْمُ وَالْيَشْبُ : حَجَرٌ يَشْبُهُ الزَّبْرَجْدُ .

وعلى العرشِ ملوكٌ يَجْلِسُونَا وملوكُ الفُرسِ كانوا يُشْبِهُونَا^(١)
 ذلكَ الرُّوميُّ مرآةَ الأدبِ فرَجَ الغمِّ بما زادَ الطَّرَبَ^(٢)
 « وَمِنَ الْمَشْرِقِ هَذَا شَاعِرُ لستُ أدري ، شاعرٌ أم سَاحِرُ
 فَنَكَّرَهُ دَقَّ وفي الرُّوحِ الأَلَمِ
 شِعْرُهُ فِي الشَّرْقِ قَدْ أَذَكَى الضَّرَمَ »^(٣)

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظِيمَا مِنْ كَلَامِ الفُرسِ أَنشَدَتِ القَوِيَمَا
 نَحْنُ أَهْلُ السَّرِّ قُلُ سَرّاً لَنَا ثُمَّ عَنْ إِيرَانَ حَدَّثَ أَنْبَا^(٤)

زنده رود

نَظَرْتُ إِيرَانَ فِي ذَاتِ مَلِيَا وَهَوَتْ فِي قَاعِ أَشْرَاكِ هَوِيَا^(٥)
 وَقَتِيلُ دَلِّ أَصْنَامِ الْجَمَالِ تُشْبِهُ الْإِفْرَنْجَ فِي خَلْقِ الْكَمَالِ
 فَنَكَّرُهَا فِي مُلْكِهَا أَوْ فِي النِّسَبِ مَدَحُ سَابُورِ وَذَمُّ لِلْعَرَبِ^(٦)

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .

(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرح أو حزن .

(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .

(٤) أنبنا : أنبنا .

(٥) هوى هوياً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحباله .

(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الاكتاف ؛ لأنه في

حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في

التشفي منهم .

يَوْمُهَا خَالٍ ، وَمَنْ كُلِّ الْمَهَامِ الْحَيَاةُ طَلَبَتْهَا فِي الرُّجَامِ^(١)
وَطَنًا رَامَتْ وَذَاتًا لَا تَرَى وَتَنَاسَتْ رُسْتُمًا بَلْ حَيْدَرًا^(٢)

بَاطِلَ الْإِفْرَنْجِ مَا قَدْ حَصَلَتْ

وَلَهَا التَّارِيخُ مِنْهُمْ شَكَّلَتْ

كَانَتْ الشَّيْخُ ، وَفِي عَهْدٍ بَعِيدٍ شَاخِبَ الْوَجْهِ دِمَاءُ مَنْ جَلِيدُ
عُرْفُهَا بِأَلٍ لَهَا دِينَ قَدِيمٍ وَكَذَاكَ الشُّبُحُ وَاللَّيْلُ الْبَهِيمُ^(٣)
كَزُمُهَا مَا فِيهِ أَمْوَاجُ لَخْمِرٍ تُزْبِهَا مَا فِيهِ مِنْ وَهْجٍ لَجْمِرٍ^(٤)
وَمِنْ الصَّحَرَاءِ كَانَ الْمَخْشَرُ فَلَدَيْهَا مِنْهُ عُمْرُ آخَرٍ^(٥)
رَحْمَةُ اللَّهِ وَمَنْ تَخْنَزِهِ فَارِسٌ ظَلَّتْ وَرُومًا أَيْنَ هِيَ^(٦)
مَا مَضَى عَنْ جِسْمِهَا رُوحٌ رُومٍ أَبْغِيرَ الْحَشْرَ مِنْ تُزْبِ تَقُومٍ^(٧)
رَجُلُ الصَّحَرَاءِ رُوحًا قَدْ مَنَحَ وَإِلَى صَحَرَائِهِ عَنْهَا نَزَحُ^(٨)
وَمَحَا مِنْ لَوْحِنَا كُلِّ الْقَدِيمِ جَدَّدَ الْعَصْرَ ، وَلَيْسَ بِالْمَقِيمِ

إِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فَضْلَ الْعَرَبِ

وَمَنْ الْإِفْرَنْجِ ذَابُوا فِي اللَّهَبِ !

-
- (١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
(٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إنَّ كل شيء فيها كان قديماً بالياً حتى ليلاً ونهارها .
(٤) الترب : التراب . والوهج : انتقاد النار .
(٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
(٦) التحنان : الرحمة .
(٧) الرؤوم : الرحيمة . وفي الأصل الطاهرة .
(٨) نزح : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها وإنشاد غزل رقيق^(١)

لِلْحُسَامِ وَالْيَرَاعِ تَجْعَلُ الْكَفَّ الْمَدَارَا
مَنْ جَوَادِ الْجِسْمِ بَعْدُ ، أَنْتَ لَا تَخْشَى الْعِثَارَا^(٢)
الْحُسَامُ وَالْيَرَاعُ مِنْهُمَا فَضْلٌ عَمِيمٌ
يَا أَخِي مَضْذَرُ الثَّوْرِ لَدِينَا كَانَ نَارَا^(٣)
عِنْدَ كِفَارٍ أَجْنَبِي أَيْ خَيْرٍ فِيهِمَا
لَهُمَا بِالَّذِينَ سِغَرٌ يَشْتَرِي حَتَّى الثُّنَارَا^(٤)
عَرَّةُ الَّذِينَ بَعْلَمَ وَبِجَهْلٍ ذَلَّةُ
دَيْنُ جُهَّالٍ كَزَهْرِ الثَّوْرِ قَدْ جَابَ الْقِفَارَا^(٥)
مِثْلُ كَرْبَاسٍ وَإِلَاسٍ يُخِيطُ نِصْفَهُ

(١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .

(٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يَكْبُو من بعد .

(٣) أخِي : تصغير أخ . وهو يقول : إنَّ الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .

(٤) الثُّنَار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالذين غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .

(٥) يقول : إنَّ الدين يعرُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزُّهرة عند الثور الذي يتجول في الصحارى .

ويهوديِّ لكفني نِصفه الثاني استعاراً^(١)

أبدالي

وفتى مُلكاً عظيماً قد أقاما للجبالِ عادَ واختارَ المَقامَا
أضرَمَ النيرانَ في تلكَ الجبال أحرَقَتْهُ ؟ أم شجاعٌ لا يبالي

زنده رود

الشعوبُ بينها صَفَوُ الإخاء إخوةٌ ، في حَزْبِها أو في المِراء^(٢)
وحياةُ الشَّرْقِ كانتَ من حَيَاتِه ابنُه الجنديُّ أمسى من حُمَاتِه !
ذاتُه مِن ذاتِه جهلاً سَلَبَ مالُه مِن مَمَكَناتِ ما حَسَبَ^(٣)
ولهُ قلبٌ وعنه غافِلُ للجسومِ والقلوبِ من فراقٍ فاصِلُ^(٤)
إنما الجَوَّالُ ضلَّ كلَّ غايه روحُه ما إن دَرَّتْ معنى النِّهايَه

(١) الكرياس : ثوب من القطن الأبيض عرقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .

وإقبال يومئذ إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه تورا موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصلاة إلا به .

وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشكر .

(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .

(٣) حسب الشيء : عدّه وأحصاه .

(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يعرف الأفغان حقاً شاعرٌ قالَ ما قد قالَ وهو السَّادِرُ^(١)
 إنَّه كانَ حَكِيمَ شَعْبِهِمْ بذلَ الوُسْعِ يَقْضِدِ طَبَّهُمْ^(٢)
 سرُّ قومٍ قد دراهُ ثمَّ قالَا ما رآه الحقُّ لم يَخْشَ الوَبالَا^(٣)
 فتنى الأفغان لو يلقي البعيرا
 يحملُ الجوهَرَ والدُّرَّ الوفيرا
 ما تملأُ ذلكَ الوُسْقَ الكبيرَا^(٤)
 وأرادَ جُلُجَلَ الهادي الصَّغيرَا^(٥)

أبدالي

إنَّ مِنْ قَلْبٍ لَنَا الطَّنْبُجُ اتَّقَدْ وصَحَّحَا مِنْهُ الثُّرَابُ أَوْ رَقَدْ
 ويموتِ القَلْبُ جِسْمٌ غَيْرَا ودمأُ أمسى النَّضِيجُ أحمرَا^(٦)
 بفسادِ القَلْبِ ما هذا الجَسَدُ؟ وَخَذَهُ كُنْ مَنْ عَلَى القَلْبِ اغْتَمَدَ
 آسِيا جِسْمٌ وَمِنْ مَاءٍ وَطِينِ قَلْبُهَا الْأَفْغَانُ خَفَّاقُ الْوَتِينِ^(٧)
 ولها مِنْهُ الفَسَادُ إِنْ فَسَدَ وانطلاقُ مِنْهُ يَا نِعَمَ المَدَدُ!^(٨)
 بانطلاقِ القَلْبِ فَالجِسْمُ الطَّلِيقُ أَوْ لَرِيحٍ كَانَ بِالْقَشِّ الخُفُوقُ^(٩)

(١) السادر : الذي لا يبالي .

(٢) طَبَّهُمْ : علاجهم من المرض .

(٣) الوبال : سوء العاقبة .

(٤) تملأُ الشيء : تمتع برؤيته . الوُسْقُ : الجحْلُ .

(٥) الجُلُجَل : الجرس الصغير . والهادي : العنق .

(٦) النضيج : العرق .

(٧) الوتين : عرق في القلب .

(٨) المدد : العون .

(٩) يقول : إن الجسم إذا لم يتطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشة إذا اشتدت بها الريح في يوم عاصف .

وله كالجسم بالعُرف القُيود دِينُهُ أَحْيَاءُ وَالْمَوْتُ الْحُقُودُ^(١)

بمقام وَخُدَّةٍ قَدْ عَرَّ دِينَ

ذَلِكَ الشَّغْبُ بِهَا شَغْبٌ يَكُونُ

ذَاتَهُ يَفْقَدُ ذَا الشَّرْقِ الْمُقْلَدُ لَيْتَهُ النَّقَادُ لِلْغَرْبِ الْمُفْنَدُ^(٢)

عَرَّ هَذَا الْغَرْبَ لَا بِالْمَطْرِبَاتِ لَا وَلَا رَقَصِ الْغَوَانِي الْعَارِيَاتِ

لَمْ يَهَبْهُ قَوَّةَ وَزْدِ الْخُدُودِ وَقَصِيرُ الشَّغْرِ أَوْ مَيْسُ الْقُدُودِ^(٣)

مَجْدُهُ مَا كَانَ مِنْ تَرْكِ لِذَيْنِ لَيْسَ مِنْ خَطِّ لَدِيهِ بِالْمَكِينِ^(٤)

الْعِلْمُ وَالْفَنُّونُ سَرَّهُ وَبِمَصْبَاحِ لَدَيْهِ نَوْرُهُ

لَسْتُ بِالشُّوبِ حَكِيمًا كَالْأَعَاظِمِ أَيْضًا الْعِلْمُ مِنْ لُبْسِ الْعِمَائِمِ^(٥)

تُذِرُكَ الْعِلْمَ بِعَقْلِ أَنْتَ مَالِكُ لَا بِشُوبٍ تَسْتَعِيرُ مِنْ هُنَالِكَ^(٦)

لَيْسَ فِي هَذَا السَّبِيلِ غَيْرُ عِلْمٍ مَا عَلَى رَأْسِكَ مِنْ غَيْرِ الْمُهِمِّ

إِنْ مَلَكَتِ الْفِكْرَ هَذَا الْفِكْرُ حَسْبُكَ

كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ مَا يُغْنِيكَ ، طَبْعُكَ

السَّنَاجُ فِي اللَّيَالِي إِنْ أَكَلْتَهُ فَإِلَى الْعِلْمِ السَّبِيلُ قَدْ وَجَدْتَهُ^(٧)

مَنْ رَأَى يَوْمًا حُدُودَ مُلْكٍ مُعَنَّى ؟ يَطْلُبُ الْمَطْلُوبَ مَجْهُودًا وَأَيْنَا^(٨)

(١) الحقوق : الأحقاد .

(٢) فَنَدَهُ : كَذَبَهُ وَخَطَأَ رَأْيَهُ .

(٣) الميس : التبختر .

(٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .

(٥) ضارَه : ضره .

(٦) يريد بهذا الشوب زي أهل الغرب .

(٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكلُ سناج المصباح في الفارسية كناية عن سهر الليالي

في طلب العلم .

(٨) الأين : التعب .

فَقَدْ الْأَتْرَاكَ ذَاتاً بِالْمُدَامِ فَالْفَرَنْجُ أَسْكُرُوهُمْ بِالسُّمَامِ^(١)
 إِنَّ تَرِيَاقَ الْعِرَاقِ مَا لَدَيْهِمْ رَحْمَةً يَا رَبِّ فَاْبْسُطْهَا عَلَيْهِمْ^(٢)
 وَعَيْيِدُ الْغَرْبِ يَبْغُونَ الظُّهُورَا إِنَّهُمْ يُرْضُونَ بِالرَّقْصِ الْغُرُورَا
 رَوْحَهُمْ فِي اللَّهِوَ كَانُوا يَفْقِدُونَا يَضْعُبُ الْعِلْمُ ، بِلَهْوٍ لَنْ يَكُونَا
 يَطْلُبُونَ السَّهْلَ لَكِنْ مِنْ كَسَلٍ طَبْعُهُمْ مَا يَتَغَيَّ سَهْلَ الْعَمَلِ
 الْيَسِيرُ السَّهْلُ لَكِنْ إِنْ طَلَبْنَا
 أَنْتَ رَوْحاً لَكَ مِنْ جِسْمٍ فَقَدْ تَنَا

زنده رود

الْفَرَنْجُ بِالرَّقِيٍّ مَا أَرَادُوا ؟ أَلَفَ فَرْدُوسٍ مِنَ الْأُلْوَانِ شَادُوا^(٣)
 ظَاهِرٌ مِنْهُمْ دِيَاراً حَرَقَا وَالْغَصُونَ بِالْعِشَاشِ مَرَّقَا^(٤)
 ظَاهِرٌ يَبْدُو لِعَيْنٍ لَامِعَا وَهَنَ الْقَلْبُ لِعَيْنٍ خَانِعَا^(٥)
 يَزْلِقُ الْقَلْبُ وَلِلْعَيْنِ النَّظَرُ وَأَمَامَ الْمَعْبَدِ الْخَفَاقُ خَرُ^(٦)
 وَمَصِيرُ الشَّرْقِ هَذَا مَنْ دَرَى ؟ أَيُّ تَدْيِيرٍ وَتَبْغِي مَظْهَرَا

(١) يقول : إن الأتراك سكرُوا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمَامُ : جمع سم .

(٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارة مشهورة مأثورة ، وهي : (يُسَلِّمُ الْمَلْدُوغُ الرُّوحَ قَبْلَ أَنْ يُحْضِرُوا لَهُ التَّرِيَاقَ مِنَ الْعِرَاقِ) .

(٣) شاد البناء : رفعه .

(٤) العِشَاشُ : جمع عش .

(٥) الخانع : الخاضع في ذل .

(٦) الخفاق : القلب .

أبدالي

وعلى تغيير ذاك القادر
 بهلوي ملك قباز ناله
 ومن الدّرانيين كان نادر
 إنه للذّيسن يأسى والوطن
 بطل الهيجاء حقاً والأمير
 من رأى ذاتاً له إنني فدئته
 بهلوي إيران قل أو نادر
 كل معقود لديه حلّه^(١)
 وهو للأفغان ذخراً من يكابر؟
 قاد جيشاً في جبال قذ كمن^(٢)
 والحديد عند قوم والحريز^(٣)
 وازن العَصَر بحذق من هويته
 كم لأهل الغرب من فن سحر
 إن نسيّت الذات كنت من كفر

السُّلطانُ الشهيد

عن بلاد الهند حَدَّثني طويلاً
 مسجدٌ فيها خلا من صوت حشد
 قشها يَفْضُلُ بستاناً جميلاً^(٤)
 ديرها ما فيه نارٌ بغدُ خمد
 روحناً شيئاً سواها ما أذكر^(٥)
 قلبنا حزناً على الهند انْفَطَرُ

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلم عظيم من أعلام تاريخها . وقباز هو كيقباز أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقة .

(٢) يَأْسَى : يَحْزَنُ .

(٣) الهيجاء : الحزب .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) أذكر : ذكر .

حَزْنُهَا قَسَهُ بِأَحْزَانٍ لَنَا لَيْسَ يَدْرِي مَنْ نُحِبُّ حَالَنَا

زنده رود

الْهِنْدُ أَنْكَرُوا قَانُونَ غَرْبِ كُلُّ سِحْرِ رَفَضُوهُ كُلُّ خَلْبِ^(١)
إِنَّ عُزْفَ الْغَيْرِ رَوْحاً يُثْقَلُ مِنْ سَمَاءٍ إِنَّهُ لَا يَنْزِلُ !

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

وَإِذَا الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ خَرَجَ قَلْبُهُ مِنْ رَغْبَةٍ فِيهِ اخْتَلَجَ
لَذَّةُ الْعَصِيَانِ كَانَتْ مُثَعَّتَةً رُؤْيَا الذَّاتِ رَأَاهَا بِهَجَّتُهُ
هَذِهِ الذَّاتُ بِعَصِيَانٍ تُنَالُ وَانْعِدَامُ الذَّاتِ مَعْنَاهُ الْوَبَالُ^(٢)
أَنْتَ فِي أَرْضِي وَفِي دَارِي حَلَلْتَا وَبَعَيْنِ قَبْرِي الْبَالِي مَسَحْتَا
وَعَرَفْتَ حَسَدَ كُلِّ الْكَائِنَاتِ فِي الْجَنُوبِ أَيْنَ آثَارُ الْحَيَاةِ^(٣)

زنده رود

فِي الْجَنُوبِ قَدْ نَثَرْتُ الدَّمْعَ حَبًّا فَاسْكَنْتِ أَرْضَ بِهِ وَزْدَا وَأَبَا^(٤)
نَهْرُ « كَاوِيرِي » يَسِيرُ فِي جُمُوحِهِ وَرَأَيْتُ وَقْدَةً أُخْرَى بِرُوحِهِ^(٥)

(١) الخلب : الخداع .

(٢) الوبال : سوء العاقبة .

(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .

(٤) الأبُّ : المرعى .

(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

قَوْلُكَ الثُّورُ بِهِ ضَاءَتْ قُلُوبُ
عَالِمِ الْأَسْرَارِ دَوْماً مِنْ ظَفَرِ
وَنَشِيدُ الرُّوحِ إِنْ أَنْشَدْتَهُ
عِنْدَ مَوْلَى الْكُلِّ كُنْتَ حَاضِراً
وَعَلَى الْقَوْلِ هُنَاكَ مَا شَجَعْتَ
وَأَنَا مِنْ أَحْرَقْتَنِي نَارُ شِعْرِكَ
قَالَ « بَيْتٌ قَلْتَهُ مَنْ قَالَه ؟
بَيَانٍ لَكَ فِي الرُّوحِ اسْتَعَزَّ
لَكَ دَمْعُ نَارِهِ مِنْهَا أَذُوبُ^(١)
مِنْ عُرُوقِ الْعُودِ أَنْهَاراً حَفَزُ^(٢)
اللَّهِيبِ فِي الْحِشَا أَوْقَدْتَهُ
مِنْ سِوَاهُ كَانَ يَهْدِي سَائِراً
رُؤْيَا بِالرُّوحِ كُلُّ مَا اسْتَطَعْتَ
وَلِسَانِي لَا يَنِي عَنْ ذِكْرِ فِكْرِكَ^(٣)
ضَجَّةُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَهُ
نَهْرَ كَاوِيرِي فَصَفَّ وَازِرِ الْحَبَرِ

زنده رود أنت وهو زنده رود

إِنَّ لِحْنًا مَعَ لَحْنٍ مَا يَجُودُ^(٤)

رسالة السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ إِلَى نَهْرِ كَاوِيرِي

حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْإِسْتِشْهَادِ

إِنَّ هَذَا النَّهْرَ قَدْ سَارَ الْهُوَيْنِي
نَائِحاً بَيْنَ الْجِبَالِ ، كُنْتَ تَغْبِرُ
أَنْتَ مِنْ جِيحُونَ خَيْرٌ وَالْفِرَاتِ
يَا لِأَرْضِي أَنْتَ قَدْ عَانَقْتَهَا
وَدَوَامُ السَّيْرِ مَا أَضْنَاهُ أَيْنَا^(٥)
وَطَرِيقاً لَكَ بِالْأَهْدَابِ تَخْفُزُ !
لِلْجَنُوبِ كُنْتَ وَهَّابِ الْحَيَاةِ
بِرَوَاءِ كَانَ فِيكَ زِنْتَهَا

(١) ضاء : أثار وأشرق .

(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .

(٣) يني : يفترو ويضعف .

(٤) يَجُود : يحسن .

(٥) الأَيْن : التعب .

شِخَتْ لَكِنْ أَنْتَ فَيَاضُ الشَّبَابِ والبهاءُ لك كالسَّحَرِ العُجَابِ
 بِنْتُ مَوْجَاتٍ لَدَيْكَ دُرَّةٌ فلتُثِرْ مَوْجاً عَلَيْكَ طُورَةٌ^(١)
 حُرْقَةُ الْعَيْشِ تَغْنِيهَا نَشِيدَا أَعْلِمْتَ مِنْ لَذَا كَانَ الْبَرِيدَا^(٢)
 إِنَّهُ مِنْ طُفَّتِ حَوْلَ سَطْوَتِهِ لَكَ مَرَاةٌ لَوَجْهِ قُوَّتِهِ^(٣)
 الصَّحَارَى جَنَّةٌ مِنْ قُدْرَتِهِ بَدْمَاهُ كَانَ رَسْمُ صُورَتِهِ
 الْأَمَانِي مِنْ ثَرَاهُ تَقْتَرِبُ مِنْ دِمَاهِ فَيْكَ مَوْجٌ يَضْطَرِبُ
 كَانَ فَعَلًا كُلُّ قَوْلٍ قَالَهُ

لَمْ يَنْسَ ، وَالشُّرْقُ نَامَ لَيْلَهُ

إِنَّا الْأَمْوَاجُ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ إِنَّمَا التَّبْدِيلُ شَأْنُ الْكَائِنَاتِ
 مَا الْحَيَاةُ غَيْرَ تَجْدِيدٍ تَجَدَّدُ عَالِماً تَطْلُبُ فِي شَوْقٍ تَمَهَّدُ
 الذَّهَابُ وَالْمَجْيِئُ مَا هُمَا الْكَيَانُ لِلْوُجُودِ مِنْهُمَا
 الطَّرِيقُ رَاحِلُونَ فِي سَفَرٍ سَفَرٌ يَخْفَى لَكِي يَبْدُو الْحَضَرُ
 النَّيَاقُ وَالصَّحَارَى وَالنَّخِيلُ تِلْكَ أَشْجَاهَا وَأَبْكَاهَا الرَّحِيلُ
 بَرَهَةٌ خَلَّتْ وَرُودُ الرِّوَضِ ضَيْفَا لاختِبَارٍ عُرِّضْتَ حَسَنًا وَعَرَفَا^(٤)
 مَا تَمَّ فِي الرِّوَضِ أَمْ أَفْرَاحُ سُورٍ؟ بَرَعَمَ فِي الْحَضَنِ ، نَعَشٌ لِلرُّهُورِ^(٥)
 أَحْمَرُ الْوَرْدِ لَهُ قُلْتُ اخْتَرِقُ قَالَ سَرِّي مَا عَرَفْتَ يَا لَيْقُ!

مِنْ هَشِيمٍ لِلْوُجُودِ ذَا الْبِنَاءِ

لِلظُّهُورِ حَسْرَةً كَانَ الْجَزَاءُ

مَا مَضَى أَوْ مَا يَكُونُ ، إِمَضٍ عَنْهُ الْمَجْيِئُ لِلْوُجُودِ ، دَعَاكَ مِنْهُ

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشعر النائر .

(٢) البريد : الرسول .

(٣) في الأصل : أنت حامل المرأة لوجه سطوته .

(٤) العرف : الرائحة الذكية .

(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِغْ مِثْلَ الشَّرَارِ إِنْ قَدِمْتَ
وَإِذَا أَشْبَهْتَ شَمْساً فِي الصُّفَاتِ
الرِّيَاضِ اخْرِقْ وَآكَامِ الصَّحَارَى
وَإِذَا عَوَّذْتَ جُرْحَ السَّهْمِ صَدْرَا
السَّكُونُ فِي الْحَيَاةِ لِلثَّبَاتِ

دَبُّنَا وَالْعُرْفُ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ

بِرَهْمَةٍ كَاللَّيْلِ لَا عَاماً كَالشَّاةِ (٣) ا

الْحَيَاةُ بِرِضَاكَ أَخْكَمَتْ
الرَّوْدَى ظَبْيٌ وَهَذَا الْمَرْءُ ضَيْغَمٌ
إِنَّمَا الْكَامِلُ يَحْتَاجُ الْحِمَامَا
وَيَمُوتُ الْعَبْدُ خَوْفاً مِنْ حِمَامٍ
لَكِنِ الْحَرُّ هَذَا شَأْنُهُ ؟
لَيْسَ يُجْرِي ذِكْرُ مَوْتٍ بَتَّةً
دَعَاكَ مِنْ مَوْتِ الْقُبُورِ وَالتُّرَابِ
مَا يُرْجِي مُؤْمِنٌ مِنْ رَبِّهِ
لَطَرِيقِ الشُّوقِ هَذَا الْمَوْتُ غَايَهُ

اَطْلُبْنَ بَيْدراً إِمَاماً مَضِيناً (١)
فَارْتَفِعْ بَيْنَ الشَّمُوسِ الْمَشْرِقَاتِ
وَالسَّمَاءِ أَضْلَى بَقَاعِ الْيَمِّ نَاراً (٢)
فَلْتَعِشْ صَقْراً وَكُنْ فِي الْمَوْتِ صَقْراً
مَا سَأَلْتُ اللَّهَ طَوَلاً فِي حَيَاتِي ا

قَتَلْتِكَ أَخَذَةً قَدْ دُبِّرَتْ (٤)
مِنْ مَقَامَاتِ حِمَامِ الْمَرْءِ فَاعْلَمْ (٥)
كَالشَّوَاهِينِ إِذَا صَادَتْ حِمَاماً (٦)
لَمْ يَكُنْ عِيشٌ لَهُ غَيْرَ الْحَرَامِ ا
رُوحُهُ الْأَخْرَى لَدَيْهِ حَيْنُهُ (٧)
وَيَمُوتُ الْحُرُّ لَكِنْ بَغْتَةً (٨)
إِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَكِنْ فِي التُّرَابِ
مَوْتُ إِطْلَاقٍ لَهُ مِنْ تُرْبِهِ
وَهُوَ لِلتَّكْبِيرِ فِي حَرْبِ نَهَايِهِ

(١) البيدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .

(٢) السماء : جمع سمك .

(٣) أي عش برهمة كالأسد ولا تعيش عاماً كالشاة .

(٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسحر .

(٥) الضيغم : الأسد .

(٦) الكامل : الرجل الكامل . يحتاج : يقهر . الحمام : الموت . الشواهين : جمع

شاهين ، وهو طائر كالصقر .

(٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .

(٨) بتة والبتة : بمعنى لا رجعة فيه .

ليس للمؤمن غير الأطيب أي موتٍ مثل موتِ ابنِ النبي^(١)
 الملوك حاربوا من أجل سلب كالنبي مؤمنٌ في خوضِ حربٍ^(٢)
 وبها يمضي إلى دارِ الحبيب يهجرُ الدنيا لِوَضَلٍ من قريب
 قالَ للقومِ النبيُّ ذو المحامد راهبُ الإسلامِ من كانَ المجاهد^(٣)
 الشهيدُ وخِذَهُ هذا ذِراه
 بدمِ أجْرَاهُ في الحربِ اشْتَرَاهُ

زنده رود يغادرُ الجنةَ العاليةَ وطلبَ حورِ الجنانِ

كأسُ صبري أَضْبَحَتْ بعضَ الفُتات قال لي الرومي قُمْ قَبْلَ الفَوَاتِ^(٤)
 يا حديثَ الشُّوقِ يا جَذْبَ اليقينِ ! يا لإيوانِ على الأسِّ المتينِ^(٥)
 دامي القلبِ إليه قَدْ وَصَلْتُ وعلى أعتابِهِ حُوراً رَأَيْتِ
 قالتِ الحورُ تَعَالَ زِنْدَةُ رُود لك عَذْبُ اللَّحْنِ يشجي ، والوقود^(٦)
 خفقاتُ من ضَجِيجِ حَوْلِنَا زنده رود اجلسِ قليلاً بيننا

-
- (١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .
 (٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .
 (٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .
 (٤) الفتات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفوات : فوات الأوان .
 (٥) يا هنا للتعجب . والأسُّ : الأساس .
 (٦) الوقود : النار .

زنده رود

كُلُّ مَنْ يَغْرِفُ سِرًّا لِلسَّفَرِ يَزْهَبُ الْمَنْزِلَ لِالصَّ الْمَمَرِ^(١)
 الْوَصَالُ مَا أَرَاخَ قَطُّ عَشَقَا بَلْ أَرَاخَ سِرْمَدِي الْحُسْنِ حَقًّا
 وَابْتِدَاءَ عِنْدَ حَسَنَاءِ سُجُود بَانْتِهَاءِ حُطَمَتْ تِلْكَ الْقِيُودِ
 سَادِرٌ مَا كَفَّ يَوْمًا عَنْ رَجِيل وَهُوَ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ ابْنُ السَّبِيلِ^(٢)
 دَيْتُنَا يُثْبِتُهُ مَوْجًا أَسْرَعَا
 مَا أَقَامَ بَلْ أَرَادَ الْمَهْيَعَا^(٣)

حُورُ الْجَنَّةِ

لَكَ دَلٌّ مِثْلَ دَلِّ لِلزَّمانِ
 فَعَلَيْنَا لَا تَضِنَّ بِالْأَغَانِي

غزل زنده رود

أَلِي الْمَرْءُ وَصَلَتْ ؟ لَكَ رَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ وَمِنَ الذَّاتِ فَوَزَتْ أَنْتَ صَحْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ
 شَاخِبَ الْوَجْهَ تَعَلَّقَ بِالْعُصُونِ الطَّلَّ وَازْشُفُ لَكَ شَيْئًا مِنْ نَسِيمِ هَبَّ هَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ
 قَطْرَتَانِ مِنْ دَمَاءِ ذَاكَ مَا سَمَوُهُ مِنْكَأ يَا غَزَالَ الْمَسْكَ مَسْكَأً يَنْكَ عُجْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ^(١)
 إِنَّ عِزَّ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ مِعْيَارٌ لِفَقْرِ الْحَطَامَ مَا طَلَبْتَ الْمُلْكَ وَهَبَّا كَيْفَ تَطْلُبُ

(١) في الأصل : أَنْ رَهْبَةً مِنَ الْمَنْزِلِ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَةٍ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ .

(٢) السَّادِرُ : الَّذِي لَا يَبَالِي بِمَا صَنَعَ ، وَالْمَرَادُ بِهِ : الْعِشْقُ .

(٣) الْمَهْيَعُ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ .

(٤) يَعْتَقِدُ الْقَدَمَاءُ أَنَّ الْمَسْكَ مِنْ دَمِ الْغَزَلَانِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمُتَنَبِّي :

وَإِنْ تَقَوَّ الْأَنْبَاءَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وَالْعَجَبُ : التَّيْبُ وَالْخِيَلَاءُ . وَفِي الْأَصْلِ يَا غَزَالَ الْحَرَمِ فِي الْخَطَا مَاذَا تَطْلُبُ .

وَالْخَطَا : اسْمٌ لَشَمَالِ الصِّينِ ، وَهَذَا الْإِقْلِيمُ يَشْتَهَرُ بِغَزَلَانِ الْمَسْكَ .

عَرَفُوهُ فِي الْوُرُودِ الْحُمْرِ بِالْبِسْتَانِ يَتَدَوُّ لَحْنُنَا الدَّامِي الْحَزِينُ قَدْ قَلَبًا كَيْفَ تَطْلُبُ
مَنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيرٌ زَادَ نُورًا كُلَّ عَيْنٍ لَيْتَ شِعْرِي لِعَمَى الْعَيْنَيْنِ طَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ
زَاهِدُونَ ، رُؤْيَا الدُّنْيَا كِرَامَاتٌ لَنَا
نَظَرَةٌ مِنَّا ، وَمَا يَغْوِيكَ خَلْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ

فِي الْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

مِنْ تَجَلَّى إِلَهِ كَانَتْ جَنَّتُهُ لَا يَرِيحُ الرُّوْحَ إِلَّا رُؤْيَتُهُ
نَحْنُ قَوْمٌ قَدْ جَهَلْنَا أَضْلَانَا نَحْنُ طَيْرٌ وَأَضَعْنَا عُشَّنَا^(١)
عَلَّمْنَا إِنْ كَانَ سَاءَ جَوْهَرَا كَانَ لِلْعَيْنِ الْحِجَابَ الْأَكْبَرَا
وَإِذَا بِالْعِلْمِ حَقَّقْنَا النَّظَرَ فَالسَّبِيلُ وَالذَّلِيلُ يُغْتَبَرُ
وَيُزِيكَ لِلْوُجُودِ قِشْرَهُ وَيَقُولُ سَلْ تَبَيَّنْ سِرَّهُ
رَامَ تَمْهِيدَ الطَّرِيقِ دَائِمَا أَيْقَظَ الشُّوقَ وَكَانَ نَائِمَا
وَهَبَ النَّارَ لِقَلْبٍ وَالْوَجِييَا وَبِجَوْفِ اللَّيْلِ قَدْ أَهْدَى النَّحِيَا^(٢)
إِنَّهُ مَا فَسَّرَ الدُّنْيَا لَنَا عَيْنَنَا رَبِّي وَرَبِّي قَلْبَنَا
وَالِى جَذْبٍ وَشَوْقٍ يَرْفَعُكَ مِثْلَ جَبْرِيلَ أَرَاهُ يُنْدِعُكَ^(٣) !
هَلْ يُتِيحُ الْعِشْقُ يَوْمًا عَزْلَةً إِنَّهُ يَخْشَدُ مِنْهُ مُقْلَةً^(٤) !

كَانَ فِي الْبَدْءِ الرَّفِيقَ وَالطَّرِيقَا

ثُمَّ يَمْضِي بَعْدَ أَنْ يَنْسَى الرَّفِيقَا

عَنْ قُصُورٍ سِزْتُ عَنْ حُورٍ بَعُدْتُ زُورَقِي رُوحِي وَفِي نُورٍ فَقَدْتُ

(١) الطير : الطيور .

(٢) الوجيب : خفقات القلب . والنَّحِيْب : رفع الصوت بالبكاء .

(٣) يندع : يخلق .

(٤) أي إن العشق لا يتيح للعاشق خلوة مع الحبيب .

والغريقَ كُنْتُ فِي هَذَا الْجَمَالِ
وَفَقَدْتُ فِي ضَمِيرِ الْكَائِنَاتِ
إِنَّمَا أَوْتَارُهَا كَانَتْ رَبَابَا
أَسْرَةً نَحْنُ بِهَا نَارٌ وَنُورُ
وَأَمَامَ الرُّوحِ مِرَاةٌ أُقِيمَتْ
وَصَبَاحُ الْيَوْمِ مَلَأَ الْعَيْنِ نُورُ
وَبِأَسْرَارٍ لَهُ رُبِّي بَدَا
وَأَزْدِيَادُ لَا يَحْضُرُ أَنْ يُرَى
رَدَّدَ الْعَبْدُ وَمَوْلَاهُ النَّظَرُ

طَلَبْتُ تِلْكَ الْحَيَاةَ حَيْثُ كَانَتْ

أَيْنَا الصَّيْدُ ؟ رَمَوْزٌ مَا اسْتَبَانَتْ

لَذَةُ الرُّوْيَةِ كَانَتْ فِي جَنَانِي
« أَنْتَ نَوْرَ الْعَالَمِينَ قَدْ وَهَبْنَا
مَا رَأَى الْإِنصَافَ مِنْهَا الْحُرُّ مَرَّةً
غَالِبٌ فِي الْعَيْشِ مَسْرُورٌ طَرِبُ
إِنَّ الْإِسْتِعْمَارَ مِنْهُ كُلُّ نَكْسٍ
وَعِلْمُ الْغَرِبِ نَهْبٌ يُذَكَّرُ

وَمِنْ الْعِشْقِ جَرَّوْتُ فِي لِسَانِي^(٥)
فَإِلَى دُنْيَا الثَّرَى هَلَّا نَظَرْتَا
غَيْرَ شَوْكِ لَمْ يَجِذْ فِي كُلِّ زَهْرَةٍ
وَالْيَالِي عَدَّهَا مَنْ قَدْ غَلِبَ !
يَا لَهُ لَبْلَأٍ يُرِيدُ حَجَبَ شَمْسٍ
وَبِلَا حَيْدَرٍ دَبْرٌ خَيْرٌ^(٦)

(١) الرباب : من آلات الطرب .

(٢) شابه : مزجه .

(٣) يحور : ينقص .

(٤) الحسر : التعب .

(٥) الجنان : القلب .

(٦) المراد ببيذكر أَنَّ هَذَا النَّهْبَ مَعْرُوفٌ لِلنَّاسِ يَذْكُرُونَهُ جَمِيعاً . وإقبال يشير إلى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ .

إِنَّمَا الْمَسْكِينُ قَالٌ : لَا إِلَهَا فَكُرُّهُ نَدٌّ وَمِنْهُ الْعَقْلُ تَاهَا^(١)
 نَحْنُ فِي الدُّنْيَا نَمُوتُ أَرْبَعًا أَذْكَرُنْ مِنْهَا الْمُرَابِّي الْأَجْشَعَا^(٢)
 أَيْلِيْقُ بِكَ هَذَا الْعَالَمُ
 مِنْهُ فِي ذَلِكَ طِيْنٌ أَقْتَمُ^(٣)

نداء الجمالِ الأبدِي

مِنْ جَمِيلٍ وَقَبِيحٍ رَيْنَا مَا الْوَجُودُ هَلْ عَرَفْتَ يَا نَجِيبُ ؟
 كَانَ هَذَا الْخَلْقُ نَشْدَانًا لِعِشْقٍ وَضَجِيجُ مَا يَكُونُ أَوْ غَبْرُ
 الْفَنَاءِ لِلْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ أَنْتَ حَيٌّ ؟ حَنْ شَوْقًا وَاخْلُقْ
 مَا تَرَاهُ لَا يَوَاتِي فَلْتَحْطُمْ كُلُّ حُرٍّ كَانَ مَكْسُورِيًا حَزِينَا
 أَعْلَى الْإِبْدَاعِ أَنْتَ غَيْرُ قَادِرٍ ؟ خَسَطَ نَقْشًا ، إِنَّ هَذَا نَفْسُنَا
 مِنْ جَمَالِ اللَّهِ أَنْ يُلْفَى النَّصِيبُ^(٤) وَالظُّهُورُ بِالْجَمَالِ عِنْدَ خَلْقِ^(٥)
 بِجَمَالٍ عِنْدَنَا يَبْدِي الْأَثَرُ^(٦) إِنَّهَا خَلَقَتْ وَشَوْقٌ لِلْقَاءِ
 كُلُّ أَفْقٍ مِثْلُنَا فَلْتَطْرُقِ عَالَمًا مِنْكَ إِلَيْكَ فَلْتَقْدَمْ^(٧)
 أَنْ حَوَاهُ عَالَمٌ لِسَاخِرِينَا لَسْتَ فِي رَأْيٍ لَدَيْنَا غَيْرَ كَافِرٍ

(١) نَدٌّ : نَفَرٌ وَشَرْدٌ .

(٢) أَي نَمُوتُ أَرْبَعَ مَرَاتٍ . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ الْمُرَابِّي ، وَالْوَالِي ، وَشَيْخُ الطَّرِيقَةِ ، وَالشَّيْخُ .

(٣) الْأَقْتَمُ : الَّذِي يَعْלוهُ اللَّوْنُ الْقَاتِمُ .

(٤) يُلْفَى : يَوْجَدُ .

(٥) النَّشْدَانُ : الْغَلْبُ . وَالْخَلْقُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي بِمَعْنَى النَّاسِ .

(٦) غَبْرٌ : مَضَى .

(٧) يَوَاتِي : يُوَافِقُ .

وعدمت حسنا حتى الأثر مِنْ نَخِيلِ الْعَيْشِ مَا ذُقْتَ الثَّمَرِ
مِنْ رَجَالِ اللَّهِ ؟ كُنْ سَيْفًا حُسَامًا
عَالَمَ التَّقْدِيرِ فَاخْلُقْ ، وَالْمَرَامَا (١) ،

زنده رود

عَالَمُ الْأَلْوَانِ عَنْهُ مَا الْخَبَرِ هَلْ يَعُودُ الْمَاءُ يَجْرِي فِي النَّهْرِ ؟
سِرُّ تَكَرُّرِ عَنِ الدُّنْيَا غَرِيبٍ وَهُوَ فِي طَبْعِ لَهَا أَمْرٌ عَجِيبٌ
لَا تَجُوزُ رَجْعَةً تَحْتَ السَّمَاءِ لَمْ يَقُمْ قَوْمٌ تَلَاشَوْا فِي الْفَنَاءِ
لَا يَقُومُ الشَّعْبُ مِنْ أَعْمَاقِ قَبْرِ
مَا لَهُ مِنْ بَعْدِ قَبْرِ غَيْرِ صَبْرِ

نداء الجمال الأبدي

الْحَيَاةُ أَهِيَ تَكَرُّارُ النَّفْسِ ؟ أَصْلُهَا مِنْ قَوْلِ « يَا حَيُّ » انْبَجَسَ (٢)
إِنَّ قُرْبَ الرُّوحِ مِنْ « إِنِّي قَرِيبٌ » مِنْ حَيَاةِ الْخُلْدِ لِلْمَرْءِ النَّصِيبِ (٣)
يَرْفَعُ التَّوْحِيدُ فَرْدًا بِالتَّقَاةِ يَجْعَلُ الشَّعْبَ أَحَادِيثَ الرُّوَاةِ (٤)

(١) السيف الحسام : القاطع .

(٢) انبجس الماء : تفجر .

(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب علماً وإجابةً لثعاله عن القرب مكاناً . قيل : إِنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَهُ ﷺ : أَقْرَبُ رَبِّنَا فَتَنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدُ فَتَنَادِيهِ ؟ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ . وَالْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ شَرْطُ فِي قَبُولِ الدَّعَاءِ .

(٤) التقاة : التقوى . وأردنا بجعل الشعب أحاديث الرواة أَنَّ هَذَا الشَّعْبَ مَشْهُورٌ عِنْدَ النَّاسِ رَفِيعُ الْقَدْرِ .

وَعَنِ الشُّبْلِيِّ سَمِعْتُ أَوْ أَبِي ذَرٍّ طَغْرُلُ كَانَ لِشُعْبٍ ثُمَّ سَنَجَرُ^(١)
 بِالسَّجْلِيِّ كَانَ لِلْمَرْءِ الثُّبَاتِ إِنَّهُ لِلْفَزْدِ وَالشُّعْبِ الْحَيَاةِ
 وَلَقَدْ نَالَا بِتَوْحِيدٍ كَمَالَا حَقَّقَا هَذَا جَسَلًا ذَا جَمَالَا
 وَهُمَا سَلِمَانُ فِي الْفَقْرِ التَّقِيَّ وَسَلِيمَانُ لَهُ الْمُلْكُ الْعَلِيِّ^(٢)
 ويرى الواحد هذا ، ذاك واحد
 جالس هذا وذاك فلتعاضد

= ويتقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد
 الامتثالي والتقليدي والتعبدية ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد
 الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيد علمي تحقيقي . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة
 الإلهية . وثالثها توحيد الواصلين من الصوفية ، وهو توحيد حالي وكشفي . وعندهم
 أنَّ حال التوحيد وصفٌ لازم لذات الموحَّد ، وللتوحيد نورٌ يكشف الظلمة عن
 الصُّوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً
 له ، ويصبح أشبه شيء بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .

(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث
 الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي
 بغدادي ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادئ التصوف ، وكان
 يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابي جليل مشهور بالزهد والورع ،
 وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع
 في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة
 العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين
 السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام
 ٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ،
 والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى
 للمسلم التقى الذي رفعته تقواه إلى منزلة ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو
 سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له يصرفها
 بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجن جنودٌ وملكٌ عظيم .

انت يا مَنْ « لا إله » قُلْتَ مَرَّةً أيُّ شيءٍ أَلْفُ عَيْنٍ خَلَفَ نَظْرَهُ ؟
ولأهلِ الحقِّ دَعْوَى وَحَدَّثَ وَلَهُمْ قَلْبٌ وَدَوْرٌ أُنْبَعَدَتْ
تُضْبِحُ الذَّرَّةُ شَمْساً بِالنَّظَرِ نَظْرُهُ كُنْ ، وَالْإِلَهُ مَا اسْتَرَّ !
نَظْرُهُ بِاللَّهِ كَيْفَ تَزْدَرِيهَا وَالتَّجَلَّى كَانَ لِلتَّوْحِيدِ فِيهَا

وَإِذَا التَّوْحِيدُ شَعْباً أَسْكُرَا

فَمَكَانُ الشَّعْبِ فِي أَعْلَى الذَّرَى ^(١)

إِنَّ رُوحَ الشَّعْبِ بَيْنَ النَّاسِ كَانَتْ لِلْحُلُولِ قَطُّ جَسَماً مَا أَرَادَتْ
بِاجْتِمَاعِ الْقَوْمِ لِلرُّوحِ الْبَقَاءِ وَالشَّنَاتُ فِيهِ لِلرُّوحِ الْفَنَاءُ ^(٢)
نَظْرُهُ شَرَّدَ بِهَا نَوْمَ اللَّحُودِ عِشْ طَوِيلاً دَعَكَ مِنْ هَذَا الشُّرُودِ ^(٣)

وَخِدَّةُ الْأَفْكَارِ وَالْأَعْمَالِ حَقَّقْ

خَاتَمَ الْمُلْكِ إِلَيْهِ الْيَوْمَ فَاسْبِقْ

زنده رود

مَنْ أَنَا مَنْ أَنْتَ أَيْنَ الْعَالَمُ طَالَ بَعْدُ بَيْنَنَا ! لَا أَعْلَمُ
قُلْ لِمَاذَا كُنْتَ فِي أَسْرِ الْقَدَرِ لَا تَمُوتُ وَأَمُوتُ مَا الْخَبَرُ ؟

نداء الجمالِ الأبدِي

أَنْتَ فِي دُنْيَا الْحُدُودِ الْأَرْبَعِ كُلُّ مَنْ فِيهَا يَلَاقِي مَضْرَعَةً
إِنْ تَرِدْ عِشّاً فَتِلْكَ الذَّاتُ أَسْبَقُ بَعْضُهَا فِي بَعْضِهَا الدُّنْيَا لِتَغْرُقَ ^(٤)
مَنْ أَنَا مِنْ بَعْدُ تَدْرِي بَلْ وَأَنْتَا كَيْفَ فِي دُنْيَاكَ عِشْتَ ثُمَّ مَتَا

(١) الذَّرَى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .

(٢) الشَّنَاتُ : التفريق .

(٣) أَرَدْنَا بِالشُّرُودِ هُنَا مَا أَرَادَ إِقْبَالَ بَعْدِ الْمُرَكِّزَةِ ، أَيِ : الْخُرُوجِ عَلَى الْجَمَاعَةِ .

(٤) أَسْبَقُ هُنَا بِمَعْنَى أَفْضَلُ ، وَقَبْلُ كُلِّ شَيْءٍ .

زنده رود

أَعِذِرِ الْجَاهِلَ بِالْجَهْلِ اغْتَدِرْ وَالنُّقَابَ ازْفَعُهُ عَنِ وَجْهِ الْقَدَرِ
ثَوْرَةٌ لِلرُّوسِ وَالْأَلْمَانِ كَانَتْ خَفَقَةُ الْأَرْوَاحِ فِي الْإِسْلَامِ بَانَتْ
دَبَّرَ الشَّرْقُ وَهَذَا الْغَرْبُ دَبَّرَ قُلْ أَجْنَبِي مَا الَّذِي كَانَ الْمُقَدَّرُ

ظهور تجلي الجلال

بَغْتَةً دُنْيَا لِدَاتِي مَا رَأَيْتُ إِنَّ أَرْضِي وَسَمَائِي قَدْ شَهِدَتْ
غَرِقَتْ دُنْيَايَ فِي نَوْرِ الشَّفَقِ وَعَلَيْهَا الْأَخْمَرُ الْقَانِي انْطَبَقَ
بِالتَّجَلِّي مَا جَ عُنُقُ مُهْنَجَتِي كَالْكَلِيمِ بِالتَّجَلِّي نَشُوتِي^(١)
نُورُهُ أَبَدِي الْخَفِيِّ لِلْعِيَانِ مِنْهُ قَدْ أَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ اللِّسَانِ

مِنْ ضَمِيرِ عَالَمٍ لِلْكَيفِ وَالْكَمِ
أَطْرَبَ السَّامِعِ مَشْبُوبُ النَّفَمِ
« إِنْسَ شَرْقًا لَا تَكُنْ مِنْ سِخْرِ غَرْبِ كَالْأَسِيرِ
فَالْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ مَا هُمَا غَيْرَ النَّقِيرِ^(٢)
عِنْدَ شَيْطَانٍ قُمَرَتْ وَقَفَّذَتْ خَاتَمًا^(٣)
وَلَدَى جَبْرِيلَ رَهْنٌ أَعْسَرَ الْأَمْرَ الْعَسِيرُ !
الْحَيَاءُ زَانَتْ الْجَمْعَ وَصَانَتْ ذَاتَهَا
أَنْتَ فِي الرُّكْبِ وَحِيدًا كُنْ وَوَاقِبْ فِي الْمَسِيرِ^(٤)

(١) الكليم : موسى عليه السلام .

(٢) النقير : النكته في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقايرة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .

(٣) قَمَرٌ : غَلَبَ فِي الْقَمَارِ .

(٤) الرُّكْب : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : سائر ، وركب =

فُقَّتْ شَمْساً فِي ضِيَاءِ تَغْمُرُ الْآفَاقَ نُوراً
عِشْنَ وَكُلَّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ فَاغْمَزَهَا بِنُورِ
كَهَشِيمِ حَمَلَتْهُ بِالْجَنَاحَيْنِ الصَّبَا
انْقَضَتْ أَيَّامُ خُسْرُو ، دَالَ عَصْرُ لِلْجَهِيرِ^(١)
ضَيْقُ كَاسٍ فِي يَدَيْكَ كَانَ لِلْحَانَاتِ عَاراً
ازْتَشَفَ كَاسَ الْحُمَيَّا وَلِتُكُنْ ذَاتَ الْخَرِيرِ^(٢)

= مع الراكبين .

(١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبي ﷺ إليه رسولاً في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .

ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخلق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات التسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطب خاصة .

(٢) الحميا : الخمر . ولإقبال في هذا من كلامه نزعة صوفية جلية ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .

القسم الثامن

كلمة

إلى الجيل الجديد

وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفيماً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظماً إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاً وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصديق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعنديل في حسن صوته^(١) .

إِنَّ تَنْمِيقَ الْكَلَامِ غَيْرُ مُجْدٍ فَالْفَوَاضِلُ مَا احْتَوَاهُ لَيْسَ يُبْدِي

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .
طبع دار ابن كثير بدمشق .

قُلْتُ قَوْلًا مَا عَلَيْهِ مِنْ حِجَابٍ مَا تَبَقَّى مِنْهُ يُنْبِئُو عَنْ كِتَابٍ !
 بِالْكَلَامِ كُلِّ مَعْنَى لِي تَعَقَّدُ وَبِزَيْدِ اللَّبَسِ مِنْ صَوْتٍ تَرَدَّدُ
 نظرتي منها افهمنَّ ما استعزَّزُ^(١)

أَوْ أُنِينِي وَصِدَاءُ فِي السَّحَرِ
 دَرَسَكَ الْأَوَّلَ أَمْ لَقَّنْتَ
 وَنَسِيمُ الْأَمِّ هَذَا عَطَّرَكَ بِالنَّسِيمِ بُرْعُمًا قَدْ فَتَحْتَ
 دَوْلَةُ الْخُلْدِ مِنْهَا نَلَتْهَا فَعَزَزْتَ ، وَبِحُسْنِ صَوْرِكَ
 يَا بُنَيَّ أَنْتَ خُذْ عَنِّي النَّظَرَ عَلَّمْتُكَ « لَا إِلَهَ » قُلْتُهَا
 « لَا إِلَهَ » قُلْ وَمِنْ رُوحٍ عَمِيقٍ وَاحْتَرَقَ مِنْ « لَا إِلَهَ » فِي الشَّرِّ
 إِنَّهَا شَمْسًا وَبَدْرًا قَدْ أَدَارَتْ لِيَكُونَ الْجِسْمُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيقِ^(٢)
 يَا لَهَا حَرْفَيْنِ لَيْسَا فِي الْكَلَامِ شَعْلَةٌ فِي الْقَشِّ وَالْأَطْوَادِ صَارَتْ^(٣)
 بَلْ هُمَا فِي كَفِّ مِضْرَابِ حُسَامِ^(٤)

نَاؤُهَا نَضْرَ مَبِينٌ عَشْرُ بَهَا

إِنَّهَا ضَرْبٌ أَفْذُ مِنْ ضَرْبِهَا

مُؤْمِنٌ دَابُّ لَهُ عَقْدُ التُّطَاقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَدْرِ يَرْضَى وَالنُّفَاقِ !
 وَفِيلْسُ شَعْبَهُ وَالذِّينَ بَاعَا أَخْرَقَ الذَّارَ فَضَاعَتْ وَالْمَتَاعَا
 فِي صَلَاةِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ وَهُمَا كَانَا دَلَالًا فِي الدَّعَاءِ^(٥)
 إِنَّ نَوْرًا مَا تَبَقَّى فِي صَلَاتِهِ وَالتَّجَلَّى قَدْ نَأَى عَنْ كَائِنَاتِهِ
 كُلُّ مَنْ يَغْبُدُ فِي الدُّنْيَا الْخُطَامَا عَشِقَ الْمَالَ كَمَا خَافَ الْحِمَامَا

(١) استعز : اشتعل .

(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطع رائحته .

(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .

(٤) المضراب : الكثير الضرب . والحسام : السيف .

(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنها دلالٌ في دعائه .

ما انتشى ما ذاق شيئاً من حُبُورٍ وكتابُ الدِّينِ في جَوْفِ القُبُورِ^(١)
 ويقولُ ما يظُنُّ اليَومَ حَقاً عن نَبِيِّنَ تَلَقَّيْ ما تَلَقَّيْ
 من بلادِ الفُرسِ هذا ، ذاكَ هِندي « حَكْمُ حَجٍّ وَجِهَادٍ لَيْسَ عِنْدِي »^(٢)
 إِنَّ حَجَّاً وَجِهَاداً وَاجِبَانِ لصلاةٍ أو لصومٍ كالجَنَانِ^(٣)
 إِنَّ رَوْحاً فِي الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ إِنَّ نَأْثَ الشَّعْبِ مُخْتَلُ النِّظَامِ
 ليس للقرآنِ في القلبِ الأثر فيهما الآمالُ خابِتٌ لِلْبُشْرِ^(٤) !

مسلّمٌ عن ذاتِهِ تلكَ انْفَرَدُ

قد طغى الماءُ فيا خضرُ المَدَدِ^(٥) !

سَجْدَةً ، والأَرْضُ منها زُلْزَلَتْ وأرادتْ ، فالشُّمُوسُ أُجْرِيتْ
 والصُّخُورُ إِنْ دَرَّتْ عَنْهَا الحَبْرُ فهي في الجَوِّ دُخَانٌ وَانْتَرُ^(٦)
 ذاكَ عَصْرٌ كان فيه خَفْضُ هامِ دَبَّ ضَعْفُ الشَّيْخِ منه في الحُطَامِ^(٧)
 « ربي الأعلى » أَكَانَتْ عِنْدَنَا ! ذُبُّهُ هَذَاكَ أَوْ ذَنْبٌ لَنَا ؟
 في سَبِيلِ كُلِّنا قد أسرعَا له النَّاقَةُ جَافَتْ مَهْيَعَا^(٨)

صاحبُ القرآنِ ما ذاقَ الطَّلَبُ !

العَجَبُ ثُمَّ العَجَبُ ثُمَّ العَجَبُ

إِنْ يَفْضُلِ اللهُ فَاضِرَ عِلْمُكَ فسيأتي للزَّمانِ غَيْرُكَ

(١) الحبور : البهجة .

(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .

(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .

(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين لم يذكر إقبال اسماً لهما .

(٥) انفرد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الغرق .

والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .

(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .

(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .

(٨) جافت : أبعدت . والمهيع : الطريق الواسع .

لَمْ يَخَفْ عَقْلٌ وَقَلْبٌ لَمْ يَذُبْ
 كُلُّ عِلْمٍ كُلُّ فَرْقٍ كُلُّ دِينٍ
 آسِيا أَرْضُ الشُّمُوسِ الْمُشْرِقَاتِ
 لَا جَدِيدَ جَدِّ لِلْقَلْبِ الْغَرِيرِ
 وَحَوَاهَا ذَلِكَ الدَّيْرُ الْقَدِيمِ
 صَبْدُ شَيْخٍ أَوْ لِسُلْطَانٍ مَلَكٍ
 عَقْلُهَا وَالذِّينُ بَلْ حَتَّى الشَّرَفِ
 فَعَلَى أَفْكَارِهَا كُنْتُ الْمَغْيِرَا
 مَا اسْتَحْتَحَ عَيْنٌ وَغَاصَتْ فِي الْكَذِبِ
 لَا تَكْفُ عَنْ طَوَافٍ حَوْلَ طَبِينِ
 عَيْنُهَا لِلْغَيْرِ ، مَا كَانَتْ لِذَاتِ
 نَلْتُ مِنْهَا الرِّيحُ أَوْ حَبَّ الشَّعِيرِ (١)
 فِي جُمُودٍ وَخُمُودٍ لَا تَرِيمُ (٢)
 فَكَّرُهَا طَبِيٌّ وَلَكِنْ فِي الشَّرْكَ
 مِنْ رِكَابِ « اللُّورد » كَانَتْ فِي طَرَفِ
 وَعَنِ الْأَسْرَارِ مَزَّقْتُ الشُّتُورَا

فَاصَ قَلْبِي بِالذُّمَا مِنْ فَرْطِ جَهْدِي
 ثُمَّ دُنِيَاهَا أَنَا غَيَّرْتُ وَخُدِي

وَيَطْبَعُ الْعَصْرُ قُلْتُ لَفْظَتَيْنِ
 لَفْظَةً تَلَفْتُ أُخْرَى تَلَسَّعُ
 لَفْظَةً كَانَتْ بِمُقْيَاسِ الْفَرْنَجِ
 أَصْلُ هَذِي الذِّكْرُ تِلْكَ بِنْتُ فِكْرٍ
 إِنْسِي نَهَرٌ وَمِنْ تَبَعٍ لِأَصْلِي
 طَبْعُ عَصْرِي ذَاكَ لَمَّا أَنْ تَغْيِرُ
 إِنَّ لِي بَحْرَيْنِ فِي قَارُورَتَيْنِ
 وَالْعَقُولُ فِي شِرَاكِي أَجْمَعُ (٣)
 نَغْمَةٌ سَكْرَى وَمِنْ أَوْتَارِ صَنْجٍ (٤)
 قَدْ وَرِثْتُ ذَا وَهَذَا ، لَسْتُ تَدْرِي (٥)
 إِنَّ فَصْلِي كَانَ فَصْلًا وَهُوَ وَصْلِي (٦)
 وَبَطْبَعُ الْعَصْرِ قُلْتُ لَفْظَتَيْنِ
 لَفْظَةً تَلَفْتُ أُخْرَى تَلَسَّعُ
 لَفْظَةً كَانَتْ بِمُقْيَاسِ الْفَرْنَجِ
 أَصْلُ هَذِي الذِّكْرُ تِلْكَ بِنْتُ فِكْرٍ
 إِنْسِي نَهَرٌ وَمِنْ تَبَعٍ لِأَصْلِي
 طَبْعُ عَصْرِي ذَاكَ لَمَّا أَنْ تَغْيِرُ

(١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشعير ، فكأنه لم يظفر منها بشيء .

(٢) رام : فارق المكان .

(٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقربٍ تلسع ، وهو يشير بذلك من طرفٍ خفي إلى كتابٍ له بالإنجليزية بعنوان « إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام » كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .

(٤) الصنج : معزف ذو أوتار .

(٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .

(٦) يريد بهذا المنيع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيَّرَ الْأَصْدَاءُ صَوْتَ لِي تَحَرَّزْ

ظَمِئَ الْفَتْيَانُ مَا فِي الْكُوبِ قَطْرَةٌ عَقَلُهُمْ نُورٌ ، بِرُوحِ لَيْلِ حَسْرَةٍ
شَكَّهِمْ يَرْزُبُو وَيَجْتَاحُ الْيَقِينَا مَا رَأَوْا شَيْئاً ، وَكَانُوا الْبَائِسِينَا
يُنْكِرُونَ الذَّاتَ ! إِيْمَانٌ يَغْيِرُ ! رَفَعُوا مِنْ تُزْبِهِمْ بُنْيَانَ دَيْرٍ ^(١)
لَيْسَ يَدْرِي الْقَضْدَ مِنْهُ الْمَكْتَبُ أَنْ تَنَاسَى مَا بِقَلْبٍ يُجْذِبُ
وَمِنْ الْأَرْوَاحِ يَمْحُو نُورَ فَطْرِهِ غُضُّهُ مَا كَانَ فِيهِ قَطْرُ زَهْرَةٍ
صَفَّ أَحْجَارَ الْبِنَاءِ لَيْسَ يَدْرِي وَطَبَاعَ الْبَطِّ يَهْدِي لِابْنِ صَفَرٍ
وَعَلَى وَقْدٍ إِذَا لَمْ يَغْتَمِذْ لَذَّةً لِلْوَارِدَاتِ لَمْ يَجِدْ ^(٢)
وَبِهِ شَرْحُ الْمَقَامِ كَانَ غَايَةً لَمْ يَكُنْ حَقًّا سِوَى تَفْسِيرِ آيَةٍ
وَبِنَارِ الْحَسَنِ طَوْعاً فَاخْتَرَقَ عَنْ لَجِينِ لَكَ صُفْرٌ يَنْفَرِقُ ^(٣)

بَادَىءَ بِالْحَسَنِ يُنْهَى بِالْحَضُورِ

آخِرُ الْعِلْمِ أَبْقَى فِي الشُّعُورِ !

كَمْ كِتَابٍ فِيهِ أَغْشِيَتْ الْبَصَرُ خَيْرُ عِلْمٍ مَا عَرَفْتُ بِالنَّظَرِ ^(٤)
إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ صَبُّ خَمْرَةٍ يَا لَهَا مِنْ بَعْدُ رَشْفُ سَكْرَةٍ !
تُطْفِئُ الْمَصْبَاحَ أَنْفَاسُ لِفَجْرِ وَرَدَّةُ الْبِسْتَانِ مِنْهَا كَاسُ خَمْرِ ^(٥)
لَا تُطِلُّ فِي الْقَوْلِ وَاقْنَعْ بِالْفِرَازِ حَوْلَ ذَاتِي كُنْ كَفَرُجَارٍ مَدَازٍ ^(٦)
مَنْكُرُ اللَّهِ لَدَى شَيْخٍ كَفَرُ مَنْكُرُ الذَّاتِ لَدَيَّ مِنْهُ شَرٌّ ^(٧)

(١) التراب : التراب . والبنيان : الجدار .

(٢) الوقد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .

(٣) اللجين : الفضة . والصفر : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .

(٤) أعشاء : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .

(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفىء نور المصباح ، كما يفتح البرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكانها كأس خمر .

(٦) الفرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .

(٧) أي : أن منكر الذات أشدُّ كفرًا ، وأكثر شرًّا من منكر الله .

منكرُ الله بإنكارِ عَجُولٍ ذا عَجُولٍ وظَلُومٍ بَلْ جَهُولٍ
وعلى الإخلاصِ شَدَّدَ قَبْضَتَكَ رهبةَ السُّلْطَانِ جَنْبَ شَيْمَتِكَ^(١)
أَرْضَ عَنِ عَذْلِ الْقَوِي لَا تَبْتَعِذْ فِي غَنَاكَ بَلْ وَفِي الْفَقْرِ اقْتَصِدْ
يَضْعُبُ الْحُكْمُ ؟ حَذَارٍ لَا تَوَوَّلْ وَعَلَى قَلْبِكَ مَصْبَاحاً فَعُولٌ^(٢)
يَحْفَظُ الْأَرْوَاحَ ذِكْرٌ ثُمَّ فِكْرٌ يَحْفَظُ الْجِسْمَ لِنَيْلِكَ النَّفْسِ أَسْرٌ
كُلُّ حَكَمٍ فِي انْخِفَاضٍ وَارْتِفَاعٍ نَالَهُ جِسْماً وَرَوْحاً مِنْ يُرَاعِي
لَذَّةَ لِلْسَّيْرِ غَايَاتِ الشَّفَرِ لَا تَطْرُزْ إِنْ خِطَّتْ بِالْعِشِّ النَّظَرُ^(٣)
وَيَدُورُ الْبَذْرُ يَحْظَى بِالْمَقَامِ مَا الْمَقَامُ عِنْدَهُ غَيْرُ الْحَرَامِ^(٤)
أَنْ تَطْيِرَ ، لِلْحَيَاةِ مَتْعَةً وَالتَّزَامُ الْعِشِّ فِيهَا ضَيْعَةٌ

الْغُرَابُ رَزْقُهُ فِي جَوْفِ قَبْرِ

عِنْدَ شَمْسِ رِزْقُ شَاهِيْنٍ ، وَيَذَرُ

إِنَّ سِرَّ الدِّينِ أَكْلٌ لِلْحَلَالِ وَهُوَ صِدْقٌ وَالتَّمَلُّي لِلْجَمَالِ^(٥)
كُنْ قَوِيًّا وَابْغِ بِالْدِّينِ الْيَقِيْنََا وَارْبِطِ الْقَلْبَ بِرَبِّ الْعَالَمِيْنََا^(٦)
بَعْضُ سِرِّ الدِّينِ مِمَّا لَيْسَ يَظْهَرُ يَا بَنِيَّ اسْمَعْ حَدِيثِي عَنْ مُظَلَّقَرٍ^(٧)

(١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .

(٢) عول عليه : اعتمد عليه .

(٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدَّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .

(٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصُّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .

ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فبمعنى الإقامة .

(٥) التملُّي : التمتع .

(٦) في الأصل : كن صلياً كالماش وأبعد عن نفسك الوسواس .

(٧) مُظَلَّقَرٌ : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهو في أعماله فزُدَ فريد
فرساً كان يُعزُّ كالولَد
أذهمَّ من خيرِ أفراسِ العرب
ولدى المؤمنِ عزٌّ أو نفْسُ
أيِّ وصفٍ ؟ إنَّه خَيْرُ الجياد
في الحُرُوبِ مُشَبَّهٌ لَمَحَ البَصَرُ
عَدُوَّهُ مَوْزُ وفَوْزُ يَوْمَ حُشَر
أشبهَ الإنسانَ فاعتلَّ الجِواد
أحضرَ البيطارُ دَنًّا من شراب
غَضِبَ العامِلُ قالَ لا أريد

في علُوِّ للمقام بايزيد
من حروبٍ خاضَ أَمسى في كَبَدٍ^(١)
ونجيبٌ وكريمٌ في النِّسبِ^(٢)
الكتابُ والحُسامُ والفَرَسُ^(٣)
مَرَّ ريحاً بالغدير والنَّجادِ!^(٤)
أو كريحٍ زَلَزَلَتْ طَوْدَ الحَجَرِ
يَسْحَقُ الحافرُ مِنْهُ كُلَّ صَخَرِ
ذاتِ يومٍ ، قيل أضناه الكُبادُ^(٥)
وسقاه فسانتفى داءُ العَذابِ^(٦)
ذا الجِوادِ ، فالثَّقَى مِنِّي بعيد

نَلْتَ مِنْ رَبِّكَ قَلْباً مُنِخَتَه

مسلّمٌ هذا تَأْمَلُ طَاعَتَه

إنَّما الدِّينُ احتراقٌ في الطَّلَبِ
وبلسونِ عزٍّ وزُدٍّ أو يعطُر
إن رأيتَ الشَّابَّ هذا قَدْ فَقَدَ
وتزيُدُ حُرْقَةً كانت بِصَدْرِي
وأَتوبُ مِنْ زَمَانِي الحاضِرِ

وهو عَشِقٌ ثُمَّ يَتْلُوهُ الأَدَبُ
أدبٌ إنْ غابَ كانَ شَرًّا إضَرَّ^(٧)
فنهاري ضاعَ في لَيْلِ الأَبَدِ
فَلأَيَّامِ النَّبِيِّ كانَ ذِكْرِي
لأَغيبَ في الزَّمانِ الغائِرِ

(١) في كبد : في تعب .

(٢) الأذهم : الأسود . وقد يكون هذا السواد شديداً أو هيناً .

(٣) عز : صار عزيزاً ، ونفس : صار نفيساً . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

(٤) الغدير : النهر . والنجاد : جمع نجد ، هو ما ارتفع من الأرض .

(٥) اعتلَّ : مرض . والكباد : داء الكبد .

(٦) البيطار : طبيب الخيل . دَنُّ الشراب : جَرَّةُ الخمر . انتفى : طرد .

(٧) الإصر : الذنب .

يَسْتُرُ الْمَرْأَةَ زَوْجٌ أَوْ ثَرَابٌ وَالرِّجَالُ حِذْرَهُمْ كَانَ الصُّحَابُ^(١)
تَنْطِقُ الْعَوْرَاءُ ؟ ذَا كُلِّ الْخَطَا كَافِرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ رُبِّي بَرَأ^(٢)
أَنْتَ إِنْسَانٌ ؟ أَخَاكَ فَاخْتَرِمُ لَيْسَ مِنِّيَا غَيْرَ هَذَا مَنْ عَلِمَ^(٣)
نَرِيطُ النَّاسِ جَمِيعاً عُزْوَةٌ مِنْكَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ خُطْوَةٌ ؟
وَلِعَبْدِ الْعَشْقِ مِنْ رَبِّ طَرِيقٍ وَعَلَى الْكَافِرِ وَالْبَرِّ الشَّفِيقِ^(٤)
ضَمَّنَ الدِّينَ وَكَفَرَا قَلْبُكََا وَإِذَا مَا الدِّينُ فَرَّ وَيَلُكَا !

لَيْسَ خَذَا الْقَلْبُ إِلَّا سَجْنُ طِبْنِ

إِنَّ فِيهِ كُلَّ أَفْوٍ كَالْوَضِينِ^(٥)

إِنْ رَأَسْتَ الْقَوْمَ أَوْ صِرْتَ الْغَنِيَا فَعَلَى الْفَقْرِ اخْرِصَنَّ يَا بُنْيَا^(٦)
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ مِنْكَ يَتَّقِذ عَنْ أَبِي خَمْرًا وَرِثْتَ بَلْ وَجَدَ^(٧)
لَا تَوْمُلْ غَيْرَ قَلْبِ ذِي أَلَمٍ ادْعُ رَبًّا وَانْسَ كُلَّ مَنْ حَكَمَ

(١) يقول : إنَّ المرأة يسترها أن تزوج أو تموت . كما يستر الرجل أن يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .

(٣) أي لا يعد إنساناً منّا من تناسى وجوب احترام أخيه في الإنسانية .

(٤) البرُّ : من يطيع الله .

(٥) الوضين : ما انطوى وانثنى .

(٦) الفقر من مقامات الصُّوفية . وهو ليس فقداً الغنى ليس إلا ، بل فقداً الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصُّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاهد بعض الصُّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إنَّ الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك ، والذي استصفى نفسه في فقره تقريباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين ، ويؤثر عن الصوفية قولهم « الفقر فخري » .

(٧) يشبه الفقر بالخمرة الممثلة . والخمر في مصطلح الصُّوفية نشوة العشق الإلهي .

كَمْ حَصِيفٍ وَهُوَ بِالْحَقِّ الْبَصِيرِ غَمَرَتْهُ نِعْمَةٌ فَهُوَ الضَّرِيرُ^(١)
 فِيهَا تَلُكُ الْقُلُوبُ أَضْلَدَتْ ودعاء العبد عنها أَبْعَدَتْ^(٢)
 فِي الْبِلَادِ جُلْتُ أَعْوَاماً طَوَالَا لَغْنِي مَا رَأَيْتُ الدَّمَاعَ سَالَا^(٣)
 أَهْلَ فَقْرٍ مِنْ قَدَيْتُ ، طِبْتُ نَفْسَا
 وَيَلُ مَنْ بِالنُّعْمَةِ الرَّحْمَنَ يَنْسَى

أَتَرَوْمُ الذُّوقَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَتُرِيدُ الشُّوقَ فِيهِمْ وَالْيَقِينَ
 إِنَّ لِلْقُرْآنِ عِلْماً لَيْسَ يُغْرِفُ وَالذُّنُوبُ إِنَّهُمْ أَهْلُ التَّصَوُّفِ !
 الصَّيَاحُ وَالْعَجِيجُ فِي الْخَوَانِقِ أَيْنَ خَمِيرٍ لِحُسْنِ اللَّهِ عَاشِقِ^(٤)
 قَلْدَ الْإِفْرَنْجِ مَنَا الْمَسْلُومَنَا مِنْ سَرَابٍ كَوَثُرَ مَا يَطْلُبُونَا
 وَيَسِرُّ دِينَنَا مَا عِلْمُهُمْ ؟ أَهْلُ حَقْدٍ وَعِدَاءٍ كُلُّهُمْ
 كُلُّ خَيْرٍ لِلْخَوَاصِّ كَالْحَرَامِ مَا رَأَيْتُ الصَّدَقَ إِلَّا فِي الْعَوَامِ
 التَّقِيَّ مِنْ غَوِيٍّ مَيِّزَنَ مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْفَضْلِ اجْلِسَنَ
 إِنَّمَا الشُّرُّ تَقَالِيداً أَلْفَ

سطوة الشاهين طار ، تختلف

رَجُلُ اللَّهِ يُلَوِّحُ بِمِثْلِ بَرْقِ حَطْباً يَجْعَلُ مِنْ غَرْبٍ وَشَرْقِ
 نَحْنُ كُنَّا فِي ظِلَامِ الْكَائِنَاتِ وَهُوَ ذُو حِذْقٍ يَحُلُّ الْمُغْضَلَاتِ
 وَالْكَلِيمُ وَالْمَسِيحُ وَالْخَلِيلُ وَالنَّبِيُّ وَالْكِتَابُ ، جَبْرِئِيلُ^(٥)
 إِنَّ أَهْلَ الْقَلْبِ شَمْسُ الْكَائِنَاتِ نَوْرُهَا وَهَّابٌ هَاتِيكَ الْحَيَاةَ

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أضللت الأرض : صلبت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين .
 والخمير : مدمن الخمر . والمراد به الصوفي .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهي في نورٍ لها قَدْ أحرقتُها
نَحْنُ بالنَّارِ لها أصحابُ قلب
أَنْتَ في عَضْرِ وَلَكِنْ أَيْ عَضْر
قَطُ رُوحٍ سَغَرُ جِسْمٍ أَنْقَصَا
إِنَّ هَذَا مَا دَرَى مَعْنَى الطَّلَبِ
ذوقُ ذاكِ البَحْثِ لَا تَتْرُكُهُ مَدَّةُ
صُخْبَةِ التَّنْذِبِ اللَّيْبِ إِنْ عَدَمْنَا
اجْعَلِ الرُّومِيَّ رَفِيقاً فِي الطَّرِيقِ
يَعْرِفُ الرُّومِيَّ لُبَّاباً مِنْ قُشُورِ
فَسَّرُوهُ مَا دَرَى الْمَعْنَى أَحَدُ
رَقَصَ جِسْمٍ مِنْهُ كَانُوا يَفْهَمُونَا
رَقِصَةُ الْجِسْمِ تَدُورُ بِالتُّرَابِ
رَقِصَةُ الْأَرْوَاحِ عِلْمٌ وَهِيَ حُكْمٌ

ذَلِكَ السُّلْطَانُ بَعْدَ عِلْمَتِكَ
أَوْ فَمَا مَاءٌ وَطِينٌ مِثْلَ شَوْبِ^(١)
غَارِقٌ فِي الْجِسْمِ ، رُوحاً لَيْسَ يَدْرِي
رَجُلُ اللَّهِ لَذَاتِ نَكْصَا^(٢)
وَهُوَ بِالْعَيْنِ يَرَى يَا لِلْعَجَبِ
وَلِتَوَاجِهَ فِي الْحَيَاةِ أَلْفَ عُقْدَةٍ
مَا لَدَيَّْ عَنْ أَبِي هَلَّا أَخَذْنَا
يُنْعِمُ اللَّهُ بِمَشْبُوبِ الْخُفُوقِ^(٣)
فِي الطَّرِيقِ كَانَ مَوْصُولَ الْمَسِيرِ
إِنَّ مَعْنَاهُ غَزَالٌ قَدْ شَرَدَ
رَقِصَةَ الرُّوحِ تَنَاسَى الْغَافِلُونَا
رَقِصَةُ الرُّوحِ لَهَا نَجْمُ السَّحَابِ
وَالِنَا الْأَرْضُ وَالْخَضِرَا تُضَمُّ^(٤)

(١) الشوب : القطعة من العجين . والمراد بها جسم الإنسان .

(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .

(٣) المشبوب : المشتعل .

(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدثنا عن رقص الدراويش

المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣ هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . وجرت عاداتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانة أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلائسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحي حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتفرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم .

جَذْبَةً لِلْفَرْدِ مِنْهَا كَالْكَلِيمِ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ ذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ ^(١)
 إِنَّ هَذَا لَيْسَ سَهْلًا فِي التَّعَلُّمِ وَلَيَغَيِّرَ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ التَّضَرُّمَ ^(٢)
 وَبِنَارِ الْحَرَصِ إِنْ قَلْبًا حَرَقْنَا فَبِرُوحٍ مِنْكَ قَطُّ مَا رَقَصْنَا ^(٣)
 يُضْعِفُ الْإِيمَانَ فِي الْإِنْسَانِ هَمٌّ يَا بَنِيَّ إِنَّهُ نِصْفُ الْهَرَمِ ^(٤)
 هَلْ عَلِمْتَ ؟ الْحَرَصُ فَقْرٌ حَاضِرٌ إِنَّ مَوْلَايَ لَذَاتِ قَاهِرٍ ^(٥)
 بِكَ يَا « جَاوِيدُ » لِي رُوحٌ تَطْيِبُ آهَ لَوْ وَافَاكَ مِنْ هَذَا نَصِيبُ ^(٦)
 لَسَرَحْتُ دِينَ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَأَطْلُتُ لَكَ فِي قَبْرِ دُعَائِي

= وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب ويتزعمهم من عالم
 الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي ، كما يشير الطرب في النفوس والخوف عند
 التائبين ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت
 البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن
 في ارتفاع وانخفاض . والموجُ بَعْدَ هبوطه إلى البحر يعود . وما مثَلُ البحر إلا مثل بني
 الإنسان ، لأنَّهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
 ومن مستطرف ما يروى عن السلطان سليم العثماني ، أنَّه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته
 قونية ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسِّطاً : إِنَّ مَا فِي تِلْكَ
 الْأَرْضِ مِنْ تِلَالٍ وَأَحْجَارٍ وَغَبَارٍ يَرْقُصُ رَقْصَةَ الْمَوْلُودَةِ .

- (١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
- (٢) التضرم : اشتعال النار .
- (٣) حرق : بمعنى أحرق .
- (٤) قال النبي ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
- (٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدٌ
 لمن قهر ذاته .
- (٦) جاويد : اسم ابن إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص
 الروح . ووافاك : بمعنى أتاك .

الدِّيَّانُ الثَّامِنُ

وَالآنَ... مَاذَا نَصْنَعُ؟
يَا أُمَّ الشَّرْقِ ..

بس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نَقْلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
الاستاذ أحمد الفازي

صَلَّاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
أشبح صاوي شعلان المصري

أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيّة ، صاغه على وزنٍ مثنويٍّ مولانا جلال الدّين الرّومي من بحر الرّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦ م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأموّاج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنّا النظّر في هذا الديوان تبّين لنا أنّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط وال جذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلّ بيتٍ فيه قطراتُ الشّوق والحبِّ والاضطراب الرّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدّين الرّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامة وفي هذا الديوان بخاصّة ، موضوع نهضة الشّرق ، يقول : إنّ الشّرق هو الذي هدى الغرب إلى التّقدم والرّقيّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلّفين عنّا في كلّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحيث كانت أوربة غارقة في لَجّة من التعصّب ، والجهل ، والحروب الدّاخلية الدّائمة ، كنا - أهل الشّرق - في أرقى منزلة من منازل العلم ، والفنّ ، والمدنيّة ، والحضارة . وهذا هو الشّرق الذي هدّب الأمم الغربيّة بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبّ وغيرها .

والموضوع الثّاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « إذا أمكن تطهير الفكر في أُمَّة استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو

أمعناً النظر في سيرة الرسول ﷺ المعطرة علمنا أنه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولاً على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجّل ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنه يعني فراغ اليد من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوي في كيان الحقيقة كلها ، بأن كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصططلحت الصوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عما سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنّ البعض أن فقر الصوفية هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : إنَّ الفقر قد يعني ترك الدنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والرُّهْد الغالي ، وإنّما يعني تسخير الدنيا أولاً ، ثم العزّة ، والعقّة ، والاستغناء ، كما سخرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .

وليس من شأن المسلم أن تستعبده مادة الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدرًا ، وأعزُّ مكانًا ، وأنبلُ هدفًا لأنّه له خلافة الأرض ، فالمؤمنُ الفقير - المؤمن الكامل - هو الذي يُزلزلُ بعزمته هذه الكرة المسكونة ببرّها وبحرها ، والفقر التَّيْبِلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللغة الفارسيّة ، فنقله منها الأستاذ
أحمد غازي إلى العربيّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميّ المعروف الشيخ صاوي
شعلان المصري شعراً بالعربيّة ، وهو الآن بين أيديكم .

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبه لمرشده الروحي مولانا جلال الدين الرومي ، مجدد التصوف وإمام الروحانية في عصره ، ثم يلقي الضوء على المكانة العالية التي يحتلها الرومي في نظر الشاعر .

ويركّز في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكل ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرومي ، يقول :

كن مثل إبراهيم في الإيمان	حتى تزيلَ معابد الأوثان
الشعب بيني عزّه بكفاحه	ليشيد مجداً ثابت الأركان
ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا	يوماً تمرّده على الطغيان
ما فوق أرض الله شعب ظافر	يلسوغ آمالٍ ونيلٍ أمانٍ
إلا إذا عقل الجنون وإنما	يحلو جنون الحب للأوطان
المؤمن المقدام يمضي قاهراً	بالعز والإقدام دون توانٍ
وإذا ارتضى للذل أمسى كافراً	بالله أو بكرامة الأوطان
من كان يدري فزق ما ينتابه	فسي دهره من عزّة وهوان
وبأن الاستعمار أسرع بالزدي	للناس في الدنيا من الحداث
وبأن للأحرار بعد فنائهم	عمرًا على الأيام ليس بفاني
وهناك يزقُّ سهمه نحو العلا	ويقيم رايته على كيوان
ثم الجبال تذوب في خطواتها	حتى تفوق الماء في الجريان
كم ثورة للمجد طي ثيابه	كالتار تقذف ثورة البركان
لا يترك الدنيا تعيش وشعبه	فيها قتل الذل والجُزمان
العطر مسترٍ ويسري ظاهراً	كن أنت مثل العطر في البستان
لا تخدعك في الربى ألوانها	كن خالياً فيها من الألوان

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم
فالدِّين إرضاءُ الدَّخِيل وليس
فقلوبهم وجيوبهم وعقولهم
لا تصحبُ في شربِ كاساتِ المنى
لا ترجُ في نُدْماءِ غديرِ نشوةٍ
لا تُفشِ للأنعامِ أسرارَ الأسو
مَنْ شابَ في نسجِ الحَصِيرِ فما له
والذُّبُّ يأكلُ يوسفاً خيرَ له
مرشدُ الأرواحِ مولانا جلال^(١)
مشرقُ الإيمانِ قدسيّ الضَّمير
قد علا منزلةُ الشمسِ مقاماً
قلبه في مُحْكَمِ الذِّكْرِ صفا
لو رأى مرآته بين الملا
رأيه المرسلُ بالعشقِ نَداه
قالَ شيئاً سَمِعْتَهُ فطرني
أممُ الدُّنيا صَحَّتْ بعدِ سبات
وأفاقَ الشُّرْقُ من نومٍ طويل
جَذْبَةٌ وانتَه مِنْ دَفْعِ القَدَرِ
أممُ الغربِ تَبَيَّنَتْ مداها
كُنْ كإبراهيمَ سُكُراً وهَيَّاماً
اجْعَلِ الأصنامَ في الأرضِ هَشِماً
مِنْ ضميرِ الشَّعبِ من إيمانه
هي نورٌ يجتليه المُضِلُّحونا

لم يهتدوا إلَّا إلى الأبدان
مرضاةُ الإلهِ الواحدِ الدِّيَّان
للأجنبيِّ تقوُّبٌ وتفانٍ
إلَّا وفيأ صادقُ الوجودان
ولو أنَّ فيهم قيصِرُ الرُّومان
ولا حديثُ الصَّفْرِ للغُربان
يوماً إلى نسجِ الحريرِ يَدان
من أن يُباعَ لتاجرِ العُبدانِ
شيخنا الروميُّ علويُّ المِثال
وهو في قافلةِ العِشْقِ أمير
ضارباً في مسبحِ النَّجْمِ خِياما
بهدي القرآنِ أضْحَى مُضْحفا
جام (جمشيد) توارى خَجَلا
أشْعَلِ الثَّوْرَةَ في قلبي صداه
وَتَجَلَّى نغماً في فكري
واستبانَتْ كُنْهَ أسرارِ الحياة
يكسِرُ الأغلالَ والقَيْدَ الثقيل
فأزاحَ العِيبَ عنه وانتَصِر
ما اكتوى مثلكَ حيَّ بلظاها
لتصيرِ النَّارِ برِداً وسلاماً
لا تغادرِ هيكلاً منها قديماً
تنبُتُ الثَّوْرَةَ في وُجْدانه
قاصرُ العَقْلِ يسمِّيها جنونا

(١) قد سبقت ترجمته .

إِنَّ قَوْمًا لِلْهَوَىٰ يَسْتَسْلِمُونَ
 لَنْ يَقِيمُوا نَهْضَةً تَمْحُو الْهَوَانَ
 كُلُّ مَنْ تَحْتَ الْفَضَاءِ الْأَزْرَقِ
 ثِقَةُ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ عَتَاذُ
 شِمَةِ الْمُؤْمِنِ عِزٌّ وَثِقَةُ
 بِهِمَا يَسْتَمُو وَيَمْضِي قَاهِرَا
 نَظَرَةُ الْمُؤْمِنِ مَصْبَاحٌ مَنِيرُ
 عِزُّهُ الْوَثَابُ لَا يَخْشَى الصَّعَابَا
 حَوْلَتْ ضَرْبُهُ صُمَّ الصَّفَا
 يَدْرُكُ الْأَمَالَ بِالْفَقْرِ الْغُيُورِ
 وَمَضَى عَازِفٌ نَائِي الْعَاشِقِينَ
 حِينَ أَذْرَكَتِ الْمُنَى فِي صَحْبَتِي
 حَالٌ فِي نَشْوَتِكَ الْعِزُّ الصَّمِيمُ
 كُنْ مِنَ الرِّوَضِ قَرِيبًا نَائِيَا
 بَيْنَ أَلْوَانِ الرِّوَابِيِّ وَأَعْيَا
 كُنْ مَعَ الْكَلِّ عَلَى هَذِي الْإِلَهِ
 قُوَّةُ الرُّوحِ هِيَ السُّحْرُ الْعُجَابُ
 فَلَدِيهِمْ حُبٌّ غَيْرِ اللَّهِ دِينُ
 ذَلِكَ السِّرُّ وَهَذِي الْمَعْرِفَةُ
 مُنْذُ بَدَأَ الْخَلْقُ فِي مَاضِي السَّنِينَا
 حُرِمَتْ أَعْيُنُهُمْ نَوْرَ الْقُلُوبِ
 لَمْ يَرَوْا فِي الْكَوْنِ إِلَّا مَنَظَرَا
 وَإِذَا الْأَبْصَارُ لَمْ تُدْرِكْ هُدَاهَا

لَمْ يَقُمْ فِيهِمْ جَنُونَ ذُو فَنُونَ
 مَا لَهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ مَكَانُ
 لَمْ يُجَاهِذْ فَكَأَن لَمْ يُخْلَقِ
 فَتَوَكَّلْ وَاعْتِزَمْ نَحْوَ الْمُرَادِ
 حَيْثَمَا هُمْ بِأَمْرٍ حَقَّقَهُ
 لَا أَرَى الْيَائِسَ إِلَّا كَافِرَا
 فَهُوَ بِالْخَيْرِ وَبِالشَّرِّ بَصِيرُ
 تَارِكًا مَا عَمَّرَ الظُّلْمُ خَرَابَا
 وَالْجِبَالُ الشُّمُّ قَاعًا صَفْصَفَا
 وَهُوَ لِلْأَجْيَالِ بَعَثٌ وَنُشُورُ
 يُزْسِلُ الْإِلَهَامَ وَالْقَوْلَ الرَّصِينُ
 ثَمَلًا مِنْ خَمَرِهَا فِي حَانَتِي
 لَمْ تَعُدْ تَحْفَلُ بِالْوَهْمِ الْقَدِيمِ
 كَالشُّذَا يَسْرِي خَفِيًّا بِأَدْيَا
 وَمِنَ الْأَلْوَانِ ^(١) طَرَا خَالِيَا
 وَبَدُونَ الْكَلِّ لَا تَرْجُو سِوَاهُ
 أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ عَنْهَا فِي احْتِجَابِ
 وَلِغَيْرِ اللَّهِ ذَلُّوا صَاغِرِينَ
 فِيهِمَا حَيْرَةٌ أَهْلُ الْفَلَسَفَةِ
 لَمْ يَجَاوِزْ فِكْرُهُمْ مَاءَ وَطِينَا
 وَمَعِينُ الْعِشْقِ مِنْهُمْ فِي نُصُوبِ
 أَزْرَقًا أَوْ أَحْمَرًا أَوْ أَصْفَرَا
 مِنْ سَرَاةِ الْقَلْبِ ضَلَّتْ فِي ضَحَاها

فَازَ حَرْزُ جَعَلَ الْحَقُّ مَصِيرَهُ
 مَنْ وَفَى لَهِ رَوْحاً وَدَمًا
 إِنَّ سِرَّ الْأَسَدِ فِي حِضْنِ الْأَجَمِ
 لَيْسَ كُلُّ الْخَلْقِ أَهْلًا لِلْعَهْدِ
 إِنَّ تَعَاطَيْتَ مَعَ الصَّخْبِ الْمُدَامَا
 هَبَهُ كَسْرَى هَبَهُ أَيضاً قَيْصَرَا
 لَوْ غَدَا يَوْمُفُنَا يَوْمًا طَعَامَا
 فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ خَسِيسٍ يَحْتَوِيهِ
 أَهْلُ دُنْيَانَا تَمَادَوْا فِي غُرُورِ
 بَهْرَتِنِي نَكْتَةً مِنْ شَاعِرِ
 ذَاتُ مَعْنَى نَوْرُهُ مُؤْتَلِقُ
 إِنَّهُ الْعَاشِقُ فِي أَهْلِ الْجُحُودِ
 فَهُوَ يَخْكِ مَسْلَمًا بَاتَ يُعَانِي
 قُلْ لِأَهْلِ الْحَقِّ مَا يَشْفِي الْقُلُوبِ
 اقْبَلِ الْهَمَّ وَلَا تَأْكُلْ طَعَامَا
 إِنْ يَكُنْ عَيْشُكَ مِنْ طَوْلِ الْكَذْزِ
 الدَّوَاءُ الْمُرُّ لِلْعَقْلِ الْكَبِيرِ
 خِرْقَةُ الزَّاهِدِ عِبَاءٌ لِلْفَقِيرِ
 وَاسْأَلِ الْأَنْسَامَ فِي الرِّوَضِ النُّضِيرِ
 إِنْ تَكُنْ بَحْرًا قَوِيًّا غَامِرَا
 أَوْ تَكُنْ طَالًا فَعِشْ بَيْنَ الْوُرُودِ
 أَنْتَ فِي الْحَرْبِ نَشِيدٌ مِنْ دِمَاءِ
 إِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ أَرْبَابُ الْوَفَاءِ
 نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي كُلِّ حِينِ
 وَتَأْمَلُ قَطْرَةَ الطَّلِّ النَّدِي

لَمْ يَبْخُ يَوْمًا لِمَخْلُوقٍ ضَمِيرَهُ
 صَانَ عَنْ قَيْدِ سِوَاهِ الْقَدَمَا
 لَا تَعِيهِ فِي مَرَاعِيهَا النَّعَمُ
 لَا تَبْخُ بِالسَّرِّ إِلَّا لِلْأَسْوَدِ
 أَبْعِدِ السَّفْلَةَ عَنْ حَقْلِ النَّدَامَى
 لَنْ تَرَى فِيهِ النَّدِيمَ الْخَيْرَا
 فِي فَمِ الذُّبِّ وَأَفْوَاهِ التَّهَامَا
 وَيَبْخُسُ الْمَالِ يَوْمًا يَشْتَرِيهِ
 لَمْ يِبَالُوا بِمَقَايِيسِ الْأُمُورِ
 بَارِعِ الْفِكْرِ نَقِيَّ الْخَاطِرِ
 كَادَتْ الرُّوحُ بِهِ تَخْتَرِقُ
 لَمْ تَزِدْ أَسْمَاعُهُمْ غَيْرَ الْجُمُودِ
 فِي قَرَى الْإِفْرَنْجِ تَرْدِيدَ الْأَذَانِ
 قُلْ عَنِ الدِّينِ وَأَنْبَاءِ الشُّعُوبِ
 مَنْ يَسِدْ تُطْعِمُكَ الْهَمُّ دَوَامَا
 فِيهِ مَرُّ الْجُوعِ فَالذُّلُّ أَمْرُ
 فَاتْرِكِ الْحُلُوءَ لِلطُّفْلِ الْغَرِيرِ
 كُنْ عَفِيفَ الْقَلْبِ وَانْعَمْ بِالْيَسِيرِ
 مَا الَّذِي تَحْمِلُهُ غَيْرَ الْعَبِيرِ
 فَاجْعَلِ الصَّحْرَاءَ سَيْلًا هَادِرَا
 وَابْعَثِ الْعِطْرَ سَلَامًا فِي الْوُجُودِ
 أَنْتَ فِي السَّلَامِ رَسُولٌ لِلْإِخَاءِ
 لَيْسَ سِرُّ الْحَقِّ عَنْهُمْ فِي خَفَاءِ
 لِيَعْمَ الْخَيْرُ كُلَّ الْعَالَمِينَ
 مِنْ دَجَى اللَّيْلِ إِلَى فَجْرِ النَّدَى

حَفِظْتُ فِي الْكَوْنِ ذَاتَيْتَهَا ثُمَّ حَلَّتْ فِي الدُّجَى عُقْدَتَهَا
وَبَنَى عُصْرَهَا شَوْقُ الْحَيَاةِ وَاسْتَقَرَّتْ حَيْثُ أَحْيَاهَا الْإِلَهَ
وَمَضَتْ تَجْتَازُ فِي صَمْتِ الْفُضَاءِ خَلْسُوهُ الْأَفْلَاكَ فِي جَوْ السَّمَاءِ
جَانِبْتُ أَنْ تَجْعَلَ الْبَحْرَ الْهَدَفَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تَتَوَارَى فِي الصَّدَفِ
بَلْ أَقَامْتُ بَيْنَ أَحْضَانِ السَّحَرِ لَمَحَةً كَانَتْ حَيَاةً لِلزَّهَرِ
فَتَحَّ الْوَرْدُ بِهَا أَجْفَانَهُ وَسَقَى مِنْ عَطْرِهِ أَغْصَانَهُ
هَكَذَا الْمُؤْمِنُ رَمَزُ التَّضْحِيَّاتِ يَتَفَانَى فِي اقْتِنَاءِ الْبَاقِيَّاتِ

مناجاة الشمس

جَرَتْ فِي حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ سَنَةٌ أَدْبِيَّةٌ سَلَكَهَا الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ فِي مَخَاطَبَةِ
الشَّمْسِ ، وَلَعَلَّ أَقْرَبَ مِثَالٍ إِلَيْنَا فِي الْجَدِيدِ قَصِيدَةُ أَحْمَدَ شَوْقِي (قَفِي يَا أُخْتِ
يُوشَعَ خَبْرِينَا) فَالشُّعْرَاءُ خَاطَبُوا الشَّمْسَ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهَا ، وَتَفَتَّنُوا فِي ذَلِكَ ،
وَأَبْدَعُوا ، وَهَذَا نَحْنُ نَرَى إِقْبَالَ يُخَاطِبُهَا قَائِلًا :

يَا مَبْعَثَ الْإِشْرَاقِ وَالْثُورِ الَّذِي عَمَّ الْبَرِّيَّةَ مِنْ ضِيَاءِ الْبَارِي
فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ضَمِيرٌ مَشْرِقٌ مِنْ ضَوْئِكَ الْفَيَاضِ كُلِّ نَهَارٍ
مِنْكَ الْحَرَارَةُ لِلْحَيَاةِ وَيَعْنُهَا وَنُضَالُهَا فِي مَوْجِهَا الْمَوَّارِ
أَوْدَعْتَ كُلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهُورِ رَ عَلَى هَدًى مِنْ حِكْمَةِ الْأَفْقَادِ
كَيَّدَ الْكَلِيمِ أَرَى جَلَالَكَ سَابِحاً فِي مَوَكِبِ مُتَجَدِّدِ الْأَسْفَارِ
يَطْوِي الْمَسِيرَ عَلَى جَدَاوِلَ فِضَّةٍ فِي زُورْقٍ مِنْ عَسْجِدٍ وَنُضَارِ
أَرْسَلْتَ بَدْرَ التَّمِّ بَعْدَكَ فِي الدُّجَى ^(١) يَجْلُو مُحَاسِنَهُ عَلَى الْأَنْظَارِ
أَهْدَيْتَ لِلْيَاقُوتِ وَمُضْ بِرَيْقِهِ وَلَعَلَّ بَيْنَ بَوَاطِنِ الْأَحْجَارِ

(١) الدُّجَى : سَوَادُ اللَّيْلِ وَظُلْمَتُهُ .

وسكبت في قلب الشقيق حرارة
بعروقه تجري الدماء وقد غدا
والنرجس^(١) الغض استفاق من الكرى
لينال من هذا الشعاع نصيبه
مزحى لقد وافى قدومك بالسنا
حتى تجلّى نخل سيننا مائلاً
أنت الصباح المرتجى لكنتي
فهبي لوجداني سراجاً مشرقاً
وليسر ضوءك في ترابي شعلنة
وصلي حياتي واجعلي هذا السنّا
لأنيل فكر الشرق أوضاح الهدى
وأثير ناراً في الصدور جديدة
إني سأسمعهم نشيد المجد من
وأحيل خام الطبع وعياً صارخاً
وأصوغ للائام دوراً مقبلاً
ليحرروا الأرواح والأفهام من
لا يستقي نبض الحياة حرارة
ومجال تحرير النفوس أمانة
والشغب حين يضل في آماله
وتحول فضته النقية بهرجاً
ويموت داخل صدره القلب السليم

صَبَغَتْ مَلَابِسَهُ بِلَوْنِ النَّارِ
يَخْتَالُ بَيْنَ عَرَائِسِ الثُّوَارِ
وَأَزَاحَ عَنْ جَفْنَيْهِ أَلْفَ سِتَارِ
بَيْنَ الْغُصُونِ الْخُضِرِ وَالْأَشْجَارِ
وَسَمَا بَطْلَعَهُ وَجْهَكَ اسْتَبْصَارِي
فِي كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَشْجَارِ
ظَلُّ الْمَسَاءِ الْغَارِبِ الْمُتَوَارِي
يَهْدِي خُطَايَ إِلَى عِلَا وَفَخَارِ
تَصْفُو بِهَا نَفْسِي مِنَ الْأَكْدَارِ
مَنْ حَوْلَهَا سَتَراً مِنَ الْأَنْوَارِ
كَيْمَا يُبْذَلْ لَيْلَهُ بِنَهَارِ
مَشْبُوبَةٌ بِعِزَائِمِ الْأَخْرَارِ
قِيَارَةٌ أَوْتَارُهَا أَشْعَارِي
مُتَحَفِّزاً لِلتَّبَقِ فِي الْمِضْمَارِ
غَيْرَ الَّذِي شَهِدَتْ مِنَ الْأَدْوَارِ
لَغْوِ الْفَرَنْجِ وَزَيْفِ الْإِسْتِعْمَارِ
إِلَّا بِذِكْرِ مُقَدَّرِ الْأَقْدَارِ
مَوْصُولَةٌ بِنِزَاهَةِ الْأَفْكَارِ
عَنْ قَضِيهِ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ بَوَارِ^(٢)
مَنْ ذَا يَسْوِي بِهِرْجاً بِنُضَارِ
وَيَنْطَوِي فِي ذَلِكَ وَصَغَارِ

(١) النرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبه بها العين .

(٢) بوار ، أي : هلاك .

حَتَّى تَرَى الْمُغَوَّجَ فِي نَظَرَاتِهِ يَبْدُو سَلِيمًا عَالِي الْمَقْدَارِ
وَإِذَا رَأَى فِي الْكَائِنَاتِ صِرَاعَهَا طَلَبَ الشَّوَاطِئَ خَشْيَةَ الْإِعْصَارِ
فَإِذَا الْحَيَاةُ هِيَ السَّلَامَةُ وَالشُّكُورُ نُ وَفُوزُهُ مِنْ حَرْبِهَا بِفِرَارِ
فِي بَخْرِهِ مَوْجُ الْأَمَانِي رَاسِبٌ مَا فِيهِ مِنْ لُجٍّ وَلَا تَيَّارِ
الْخَطْوَةُ الْأُولَى لِنَهْضَةِ أُمَّةٍ تَحْرِيرُهَا بِالْعَزْمِ وَالْإِضْرَارِ
لَوْ أَمَكْنَ التَّطْهِيرُ أَمَكْنَ بَعْدَهُ أَنْ يَسْهُلَ التَّغْيِيرُ لِسُلُوفِ الْفَكَارِ

حكمة الكلیم - سياسةُ الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصة ، فوجّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهّم جلال النبوة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصادق ليشحذ من عزمته وينفخ فيه روح التحرّر ، ويوقظ في فطرته معاني القوة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغية ، وجبروت جبار ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاوزه إليه دون سواء ، فنراه يتخذ من صفات النبيّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتدوّد عن حياضها ، وتدفع العدو عن حماها :

عِنْدَمَا يَضْدَعُ النَّبِيُّ بِأَمْرِ اللَّهِ جَهْرًا فِي مَسْمَعِ الْأَكْوَانِ
يَتَحَدَّى بِوَحْيِهِ كُلَّ حُكْمٍ لِأَمِيرٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْطَانِ
لَا يَسِرُّ قَضْرَهُ سِوَى رَسْمِ دِيرٍ مِنْ بَقَايَا هِيََاكِلِ الْأَوْثَانِ
لَا يَسِينُ الْمَقَامَ فِي مَوْطِنِ السُّدْلِ وَلَا يَرْتَضِي بِعَيْشِ الْهَوَانِ
تَتَذَكَّرُ بِنُورِ صَحْبَتِهِ النَّفْسُ وَيَهْدِي الرَّشَادَ لِلْحِيرَانِ
يُخْذِثُ الصَّبْغَةَ الرَّهْيِيَّةَ فِي الْأَيَّامِ حَتَّى تَسِيرَ طَوْعَ الْأَمَانِي
مُغْلَنًا فِي الْوُجُودِ لَا رَبَّ غَيْرَ اللَّهِ يُخْشَى وَيُزْتَجَى كُلَّ أَنْ
كَيْفَ يَرْضَى إِذْ لَالَ عَبْدٌ لِعَبْدٍ وَامْتَهَانَ الْإِنْسَانُ لِلْإِنْسَانِ

قطرة من نداء تُشعلُ ناراً في عروق الكُروم والأغصان
ويُجلّي في قبضة من تراتٍ بغث روح اليقين والإيمان
حارسُ الفطرة التي فطرَ الله عليها الأرواح في الأبدان
لا يسامى جلالُ حكمته العقلَ ولا عبقريةُ الفنان
حكمة في غنى عن الحشدِ والجمعِ وزهورِ العُروش والتيجان
من جُمودِ الشتاء يحيي ربيعاً باسمِ الرّوضِ ناصِرِ الأفنان
وئسّالِ الرّاحِ المُعتقِ أشهى من رَجَبٍ مُصنّفٍ في الدّنان^(١)
ابتهالاتُ صُنِجِه توقظُ الكونَ فيصحو من ليله الوَسنان^(٢)
وله نظرة من الحقّ فيها نبأ يُغلنُ انقلاب الرّمان
ولديه وثيقة الأمانِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في مُحكم القرآن
وخيّه يغمُرُ الصّدورَ الخوالي بقلوبٍ جديدة الإيمان
دزّسه العزمُ والرّضا المحضُ والتّسليمُ منه في السّرّ والإعلان
كسراجٍ يشقّ قلبَ الدّياجيرِ^(٣) باهرَ الضّوءِ ساطعَ البُرْهان
قدرة حارتِ النّواظرِ فيها أيّ سرٍّ بها خفي المعاني
يَضْبَعُ الرّوحَ في الجُسومِ بلسونٍ غيرَ كلّ الرّسومِ والألوان
حوَلَتْ كيميائِهِ الصّدفَ البالي عِفْداً من الدّراري الحِسان
يتولّى ملءَ الفراغِ بحزمٍ يَفْهَرُ المستحيلُ بالإمكان
وينادي العَبْدُ المُصَفّدَ^(٤) هيّا لا تحالك القيودُ للإنسان
فإلى المَخوِ والبلى كلّ معبودٍ قديمٍ مَعَ الحُطامِ الفاني
مَنْ يُحَارِبُ وسيفه رَبِّي الأعلى يُدْمِرُ قواعِدَ الأوثان

-
- (١) الدّنان : وهي جِزار الخمر .
(٢) الوَسنان : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .
(٣) الدّياجير : واحدها الدّيجور، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور .
(٤) المصَفّد ، أي : المشدود .

إِنَّ أَرَدْتَ الْفَقْرَ الْغَيُورَ فَلَا تَفْقِذْ مَعَ الْعُدْمِ ثَزْوَةَ الْإِيمَانِ
 فَمِنْ الْحَالِ لَا مِنْ الْجَوَاهِرِ وَالْمَالِ دَوَامُ الرِّضَا وَالْأَطْمِئْنَانِ
 رَأْسُ مَالِ الْأَخْرَارِ صَدَقٌ وَإِخْلَاصٌ وَوَجْدٌ وَخُرْقَةٌ وَتَفَانٍ
 لَيْسَ فِي الْحَلِيِّ وَالْمَظَاهِرِ وَالثُّوبِ الْمَوْشَى وَالْأَصْفَرِ الرِّئَانِ
 لَا تَحَاوُلْ دَرْكَ الْمَعَالِي بِكَأَوُوسَ وَخَسِرُوا فِي غَابِرِ الْأَزْمَانِ
 طُفْ إِذَا شِئْتَ حَوْلَ ذَاتٍ : حَزْأً لَا تَطْلُفُ بِالسَّرِيرِ وَالْإِيْوَانِ
 قَدْ تَبَاعَذَتْ عَنْ مَقَامِكَ حَتَّى صِرْتَ فِي ذِلَّةِ الْأَسِيرِ الْعَانِي
 لَا تَسِرْ وَاهِنَ الْخُطَى كِبَفَاتِ الطَّيْرِ بَيْنَ الطُّلُولِ وَالْجُذْرَانِ
 كُنْ نَظِيرَ الشَّاهِينَ فِي الْقِمَمِ الشَّمَاءِ لَا فِي مَسَارِبِ الْوُذْيَانِ
 تَتَحَرَّى الطُّيُورُ عِنْدَ بِنَاءِ الْعُشِّ أَعْلَى الْفُرُوعِ فِي الْبُسْتَانِ
 لَسْتَ دُونَ النُّسُورِ بِأَسَافٍ فَحَاوُلْ دَارَةَ النُّجُمِ أَوْ ذُرَى كِيْوَانِ
 مِنْ مِهَادِ الثَّرَى إِلَى التُّشْعَةِ الْأَفْلَاكِ فَوْقَ الزُّمَانِ فَوْقَ الْمَكَانِ
 غَيْرِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَعَمَّرْ فِيهِ دُنْيَا جَدِيدَةَ الْبُنْيَانِ
 وَالَّذِي يَنْشُدُ الْجِهَادَ فَنَاءً فِي رِضَا الْحَقِّ وَهُوَ مَاضِي الْجَنَانِ
 هُوَ سِرُّ الْأَقْدَارِ وَهُوَ قَضَاءُ الْحَقِّ فِي الْمُمْكِنَاتِ وَالْإِمْكَانِ
 فَتَمَثَّلْ نِصَالَ أَسْلَافِكَ الْأَمْجَادِ نَخْوَةَ الْعُلَى بِغَيْرِ تَوَانِي
 وَتَذَبُّزْ كَيْفَ اسْتَهَانُوا بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
 أَظْهَرَ الْجَوْهَرَ الْكَرِيمِ مِنَ الْأَصْدَافِ وَاجْعَلْهُ بَادِيًا لِلْعَيَانِ
 وَتَحَرَّزْ مِنْ هَيْكَلِ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْهَوَى وَالْهَوَانِ
 وَاجْعَلِ الْفَطْرَةَ النَّقِيَّةَ نَبْرَاسًا لِعَيْنِكَ بَيْنَ قَاصِي وَدَانِ
 كُلُّ مَنْ ضَاعَ حَظُّهُ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ بَيْنَ الْجُحُودِ وَالنَّسْيَانِ
 لَمْ يَنْلُ طَوْلَ عُثْمَرِهِ مِنْ جَمَالِ الْحَقِّ غَيْرِ الْإِبْعَادِ وَالْحِزْمَانِ
 مَبْدَأُ الْعِشْقِ وَالصَّبَابَةِ قَهْرٌ وَخُطُوبٌ مُوَصُولَةُ الْأَشْجَانِ^(١)

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهو من بعدها دلالٌ وتية بين طيبِ المُنَى وَصَفْوِ الأمانِي
 ويعودُ المحبُّ بالقُرْبِ محبوباً وَيَتَسَّى لواعِجِ الهِجْرانِ^(١)
 الوجودُ الأسمي هو المؤمنُ الحرُّ الأبِّي الوفيُّ في كلِّ آنٍ
 وبقايا الوجودِ فيما سِوَاهُ مَظْهَرٌ حائلٌ وظلٌّ فانِ
 حِينَ يَدْعُو أَنْ لَا إِلَهَ سِوَى اللَّهِ الْقَدِيرِ الْمُهَيِّمِ الدَّيَّانِ^(٢)
 يُذْعَنُ الْكَوْنُ وَالْمَكَانُ وَلَا يُشْرِقُ إِلَّا بِفَوْزِهِ الْقَمَرانِ

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالاً قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة
 العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا
 العنوان ، (حكمة الكلیم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنما يُريد بياناً لسياسة
 الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار
 وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حرّيته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قَدِمْتُ حِكْمَةَ النَّبِيِّ لِلْعَيْنَانِ وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ حِكْمَةُ الطُّغَاةِ
 تَبْقَى عَلَى الْإِنْسَانِ جِسْمَ الْحَيَوَانِ وَتَسْلُبُ الرُّوحَ كَرَامَةَ الْحَيَاةِ

حِكْمَتُهَا حَرِيَّةٌ مَارِقَةٌ^(٣) تَعِيشُ فِي الدُّنْيَا بِهَا مَنْ غَيْرُ دِينِ
 وَالتَّنَفُّسُ فِي أَوْهَامِهَا شَارِدَةٌ لَمْ تَعْرِفِ الشُّوقَ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ

-
- (١) الهِجْرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
 (٢) الدَّيَّانُ : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ .
 (٣) مَارِقَةٌ : خارجة عن دينها .

وسائل التهذيب من هذا النظام سلاسل الأسرى وأغلال العبيد
كما يرى السيد ينقاد الغلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

وذلك البارغ في مهنته يضطّيع التجديد في الدين القويم
قد شطر الوحدة في أمته فما له نذ سوى عصا الكليم

متى يفيق القوم من وهنتهم وهم لحكم الغير زرع وحصاد
قد هدموا بناء ذاتيتهم وغيرهم في أرضهم ساد وشاد

كم من غرير استطال وأدعى حصافة الفكر ودقة النظر
قد خبر الوجود والدنيا معاً وما لديه عن وجوده خبر

أزال نقش الحق من خاتمه وكل خير عن ضميره استر
قد ولد الرجاء في عالمه لكنه في المهد ولّى وانذر^(١)

ما تضح الأيام بالقوم الألى لم يُرزقوا حظاً من العزم الغيور
قد أضبحت أرواحهم رهن البلى^(٢) وما سوى أجسامهم لها قبور

ومزق الكبار أَسَارَ الحياء وقلد الشَّبَابُ صُنْعَ الغانيات^(٣)

(١) انذر : دثر واثقى وفني .

(٢) البلى : الفناء ، ومنه بلى الميت أفنته الأرض .

(٣) الغانيات : النساء الغنيات بحسنهن وجمالهن عن الزينة .

كَأَنَّهُمْ بَيْنَ عَوَامِلِ الْفَنَاءِ يَأْتُونَ مَوْتِي مِنْ بَطُونِ الْأَمْهَاتِ

وهذه الحسناء تَقْضِي يَوْمَهَا فِي مَنْظَرٍ عَارٍ وَصَبْغٍ مُسْتَعَارِ
سَاعِدُهَا الْفِضْيُ يُنْدي جِسْمَهَا بِمَنْظَرِ الْأَسْمَاكِ فِي لُجِّ الْبَحَارِ^(١)

جمودُ هذا الشَّعْبِ عَنْ كَفَاحِهِ يَحْكِي رَمَاداً لَيْسَ تَحْتَهُ شَرَرُ
مَسَاوُهُ رَانَ عَلَى صَبَاحِهِ بِظِلْمَةٍ فِي لَيْلِهَا زَاغَ الْبَصَرُ^(٢)

كُلٌّ يَعِيشُ فِي إِطَارِ نَفْسِهِ وَالْعَيْشُ وَالْمُتَعَةُ فِي الدُّنْيَا مَنَاهُ
يَخْشَى الْبَلَى قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِهِ^(٣) فَاعْجَبْ لِمَيِّتٍ لَمْ يَزَلْ قَيْدَ الْحَيَاةِ

وَذُو الْغِنَى فِي الشَّخِّ يَحْكِي جَلَمَداً وَمَالُهُ فِي اللَّهْوِ يُغْرِقُ السَّحَابَ
حَيَاتُهُ ضَاعَتْ عَلَى الْغَيِّ سُدًى تَشْغُلُهُ قُشُورُهَا عَنِ الْبُكْبَابِ

يَبْنِعُ دَيْنَهُ لِـدُنْيَا غَيْرِهِ وَفِي رِضَا غَاصِبِهِ يَسْتَشْهَدُ
وَيَوْمُهُ الْحَاضِرُ كُلُّ عُمْرِهِ فَلَيْسَ فِي تَارِيخِ دُنْيَاهُ عَدَدُ

وَكَمْ تَرَى فِي الْقَوْمِ حَمَالاً كُتِبَ ثَقِيلَةً يَعْبَأُ بِحَمْلِهَا جَمَلُ

(١) لُجُّ الْبَحَارِ ، أَي : غُرُضُهَا .

(٢) زَاغَ الْبَصَرُ ، أَي : مَالَ عَنْ مَسْتَوَى النَّظَرِ حَيْرَةً وَشُخُوصاً ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

(٣) الرَّمْسُ : هُوَ التُّرَابُ الَّذِي يُحْتَمَى عَلَى الْقَبْرِ .

يدور في الناس كحَمَلِ الحَطَبِ وَيُزْسَلُ الأقوالَ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ

ولاؤه لِلغَيْرِ كُلِّ هَمٍّ حَتَّى بَنَى الذَّيْرَ بِأَحْجَارِ الحَرَمِ
مَاتَ وَلَكِنْ مَا دَرَى بِمَوْتِهِ قَدْ عَاشَ وَهَمًا ثُمَّ وَاوَاهُ العَدَمُ

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(رباعيات)

إِنَّ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ تَأْثِيرَهَا البَالِغَ فِي حَيَاةِ الأُمَمِ ، فَإِنَّهَا لِلْفَرْدِ والمَجْتَمَعِ عَقِيدَةُ
القُوَّةِ ، وَرَكِيزُ التَّقْدُمِ والانْطِلَاقِ ، وإِفْرَادُ العِبَادِيَّةِ لِلخَالِقِ ، وَرَفْضُ كُلِّ عِبَادِيَّةٍ
لِمَا سِوَاهُ ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَخْضَعُ الْعَبِيدَ إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي يَقُولُ لَهُ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التوحيد التي تُجَدِّدُ الصُّورَةَ الإنسانية في القلب الترابي هيكلًا
من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشُورِ ، يقول محمد إقبال :

فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ يَشْدُو خِيَالِي بِصَدَى الحَقِّ مِنْ رِجَالِ الحَالِ
إِنَّمَا تُذَرِّكُ القُلُوبُ هَذَاهَا بِصَفَاءِ الأَحْوَالِ لَا الأَقْوَالِ

حَرْفُ (لَا) مُظْهَرٌ لِسَرِّ الجَلَالِ وَهُوَ لِلخَوَرِ مَنذَرٌ بِالزَّوَالِ
بَعْدَ نَفْسِ الظُّلَامِ وَالظُّلَمِ يَبْدُو عِنْدَ (إِلَّا) إِشْرَاقُ صُبْحِ الجَمَالِ

لَا وَإِلَّا فَتَحْ لِبَابِ الحَيَاةِ وَاحْتِسَابُ الوُجُودِ والكَائِنَاتِ

بِهِمَا تَقْهَرُ الْمَهَانَةَ وَالضَّيْمَ وتمضي الأمور في الحادثات

حِينَ يَقْوَى مَعَ الرَّجَاءِ الْيَقِينُ فجواب الأقدار كُنْ فَيَكُونُ
يَذْفَعُ النَّفْيُ لِلتَّحَرُّكِ وَالْجِدْ وَعِنْدَ الْإِبْطَاتِ يَأْتِي السُّكُونُ

كُلُّ شَعْبٍ يَرْوُمُ عِرَّ حَمَاهُ فنبور التَّوْحِيدِ لَا بِسِوَاهُ
لَيْسَ يَحْمِي بِلَادَهُ غَيْرُ حُرٍّ سِيفُهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

حَرْفُ (لَا) آيَةٌ لِبَدْءِ الْمَسِيرِ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ نَحْوُ الْمَصِيرِ
إِنَّهَا أَوَّلُ الْمَنَازِلِ طَرًّا لِرَجَالِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ

كُلُّ شَعْبٍ يَمْضِي بِخَطْوِ سَدِيدٍ لِلْعُلَى فِي حَرَارَةِ التَّوْحِيدِ
يَبْتَنِي مِنْ تُرَابِهِ صَرْخُ دُنْيَاهُ وَبِحَيَا فِيهَا يَخْلُقُ جَدِيدٍ

قَوْلُ (لَا) ثَوْرَةٌ أَمَامَ الطُّغَاةِ هُوَ عِنْدَ الْأَحْرَارِ مَعْنَى الْحَيَاةِ
ثَوْرَةٌ مَنْ نَضَالِهَا يُضْنَعُ الْمَجْدُ وَيَسْدُو تَجَدُّدُ الْكَائِنَاتِ

لَيْسَ فِي ذَلِكَ الْجَنُونَ الْعَرِيقِ كُلُّ ثَوْبٍ يَفُورُ بِالسَّخْمِزِيقِ
لَا أَرَى فِي الْغَنَاءِ ^(١) وَالْقَشِّ ^(٢) يَوْمًا حَطْبًا صَالِحًا لِهَذَا الْحَرِيقِ

(١) الْغَنَاءُ : هُوَ مَا يَحْمِلُ السَّيْلُ مِنْ رَغْوَةٍ وَمِنْ فُتَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

(٢) الْقَشُّ : هُوَ مَا يَتَخَلَّفُ مِنَ الْقَمَحِ وَالرَّزِّ وَنَحْوِهِمَا بَعْدَ اسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ .

لو يَمَسُّ التَّوْحِيدُ فِكْراً نَقِيّاً وضميراً حَيّاً وَقَلْباً أَيّْاً
لأَحَالِ الخُمُولِ وَالضَّغْفَ إِيْمَاناً وعزماً يَغْزُو نُجُومَ الثُّرَيَّا^(١)

حَرْفٌ (لَا) صَيْحَةً تَثِيرُ الْعَيْدَ لِيَزُولُوا مَا لَمْ يُزِيلُوا الْقِيُودَا
وَيَقِيمُوا فِي الدَّهْرِ عَصراً مَجِيداً لَا تَرَى فِيهِ سَيْداً وَمُسُودَا

لَوْ سَرَتْ شَعْلَةُ الْهَدْيِ فِي الصُّدُورِ وَتَمَشَّى وَمِضْهُهَا فِي الضَّمِيرِ
لَأَقَامَ الْأَحْرَارُ لِلْهَوْلِ يَوْماً يَتَحَدَّى أَهْوَالَ يَوْمِ الشُّشُورِ

صَوْتُ (لَا) مِنْ دَوِيِّ صَوْتِ الرُّعُودِ لَيْسَ شَكْوَى نَائٍ وَلَا لَحْنَ عُودٍ
لَوْ يَضِيقُ الْفَضَاءُ يَوْماً عَلَى الْحَرِّ تَخْطِئِي بِهِ نِطَاقَ الْوُجُودِ

يَا لَهَا مِنْ ذِكْرِي لِأَمْجَادِ الْعَرَبِ آيَةً كُبْرَى وَتَارِيخُ عَجَبٍ
حَرَّرُوا أَقْدَارَهُمْ بِالْعَزَمَاتِ فِي جَمِيعِ الْكَوْنِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فَارَزَهُنَّ مِنْ نَوْرِهِمْ كُلُّ مَكَانٍ وَتَغْنَى بِأَسْمِهِمْ كُلُّ زَمَانٍ
لَمْ تَدُمْ عُزِّي^(٢) وَلَمْ تَبْقَ مَنَاةُ^(٣) هَوَتْ الْأَصْنَامُ تَحْتَ الضَّرْبَاتِ
حِينَ نَادَى الْمُؤْمِنُونَ (اللَّهُ أَكْبَرُ) زَالَ كِسْرِي وَأَنْطَوَتْ أَعْلَامُ قَيْصَرٍ
أَيُّ سَيْلٍ هَادِرٍ عَمَّ الصَّحَارَى أَيُّ طُوفَانٍ جَرَى يَغْزُو الْبَحَارَ

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .

(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من الشجر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق الشجرة .

(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

وَحَدُّوا الْخَلْقَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ
 مِنْ تَحْدَى نَارِهَا أَضْحَى هَبَاءً
 وَأَزَالُوا كُلَّ جِبَارٍ عِنْدَ
 كُلِّ هَذَا كَانَ مِنْ أَنْوَارِ (لا)
 فِي سُهوبِ الْأَرْضِ أَوْ دَيْرٍ قَدِيمٍ
 وَأَقَامُوهَا عَلَى النَّهْجِ الرَّشِيدِ
 فَجَرَى الْحَقُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ
 كُلُّ نَوْرٍ يُجْتَلَى مِنْ شَمْسِهِمْ
 فَهُوَ مِنْ شَاطِئِ نَهْرِ الْعَرَبِ
 نَقْشَ غَيْرِ (الله) ، عَلَامِ الْغُيُوبِ
 ثَوْرَةَ الْإِيمَانِ فِي كُلِّ الشُّعُوبِ
 حَطَّمُوا الْقَيْدَ بِعِزِّ مَنْ حَدِيدِ
 وَاسْتَرَدُّوا أَمْنًا حَرِّيَّاتِهِمْ

هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ الصَّيْدُ الْأَبَاهُ
 شَعْلَةٌ مِنْ نَوْرِهَا الْحَقُّ أَضَاءُ
 قَدْ أَبَادُوا كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ
 وَسَمَوْا فَوْقَ الدَّرَارِيِّ مَنْزِلًا
 بَيْنَمَا الْعَالَمُ كَالْعَظْمِ الرَّمِيمِ
 أَنْشَأُوا دُنْيَاهُ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
 أَيْقَظُوا الدُّنْيَا بِتَكْبِيرِ الْأَذَانِ
 كُلُّ خَيْرٍ يُرْتَجَى مِنْ غَرْسِهِمْ
 كُلُّ رَوْضٍ بِالْمَعَالِي مُخَصَّبٌ
 قَدْ أزالَ الْعُزْبُ مِنْ لَوْحِ الْقُلُوبِ
 فَأَقَامُوا فِي شَمَالٍ وَجَنُوبِ
 فَتَرَى فِي أَمَمِ الْغَرْبِ الْعَبِيدِ
 أَعْلَنُوا الْحَرْبَ عَلَى سَادَاتِهِمْ

بِاسْمِ (لا) حَتَّى أَثَارُوا الْأُمَمَا
 وَأَطَاخُوا بِمَعَايِيرِ الشُّنَنِ
 لَمْ يَرَوْهُمْ نَحْوَ (إِلَّا) مَنْزِلًا
 بَعْدَ حِينٍ يَقْهَرُونَ الْعَاصِفَهُ
 نَحْوَ (إِلَّا) يَذْفَعُونَ الْمَوْكِبَا
 كُلُّ نَفْسٍ دُونَ إِبْثَاتٍ عَدَمٍ
 هَاتِفًا يَدْعُو لِتَوْحِيدِ الْقَدِيرِ
 دُونَ (إِلَّا) فَهِيَ لِلصَّدَقِ دَلِيلُ
 يَخْشُدُ الْأَلْفَاظَ حَشْدَ الْمَكْتَبَاتِ
 أَسْمِعِ النَّمْرُودَ تَوْحِيدَ الْجَلِيلِ

صَارَ شَعْبُ الرُّؤُوسِ نَارًا وَدَمَا
 فَاسْتَهَانُوا بِتَقَالِيدِ الرَّمَنِ
 وَقَفَّ الرُّكْبُ بِهِمْ فِي بَابِ (لا)
 سَتَرَاهُمْ كَجِيُوشٍ زَاخِفِهِ
 وَتَرَى لِلْقَوْمِ أَمْرًا عَجَبًا
 لَا وَ (إِلَّا) بِهِمَا الْعَدْلُ انْتِظَمَ
 إِنَّ لِلْفِطْرَةِ فِي كُلِّ ضَمِيرٍ
 لَمْ يَنْ فِي حَرْفِ (لا) صَدَقَ الْخَلِيلُ
 يَا مَقِيمًا فِي زَوَايَا الْحُجُرَاتِ
 إِنَّ تَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الْخَلِيلِ

والذي تبصره حول الفضاء
كلُّ حرٍّ في يديه سيفٌ (لا)
فهو للعلواء دوماً في صُعود
أيها الشادي بقرآن كريم
قم وأسمِغه لكلِّ العالمين
لا يساوي قذره وزنَ الهباء^(١)
ثمَّ لا يقبلُ عنه حولا
أمره النَّافذُ في كلِّ الوجود
وهو في عزْلته ناء مُقيم
قم وأبلغه البرايا أجمعين

فَقْرُ الصَّالِحِينَ

خصَّ إقبال موضوع فقر الصالحين بهذه الأبيات على أسلوبٍ خاص من
التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

يا عبيدَ الماء والطِّينِ اسْمَعُوا
هو عِزٌّ فإنَّ طريقَ العارفين
ذلكَ الفقرُ عزيزٌ في غناه
يُحكِّمُ الإبداعَ في صنعِ الحياه
يزْعَشُ الكونُ إذا دَوَّى صَدَاهُ
خَيْرُ حَرِّهَا ذاكَ الفقير
خاشعٌ لله ذِيكَ القدير
حالُه ذوقٌ وشَوْقٌ وِرْضَا
يا لَهْ كُنْزاً به العَيْشُ صفا
ليله المُظْلِمِ لِلْمَجْدِ سِرَاجُ
يَقْهَرُ الْمُؤْمِنُ نَامُوسَ^(٢) الْفَلَكِ

ما هو الْفَقْرُ الْغَنِيُّ الْأَزْفَعُ
وارتواءُ الْقَلْبِ مِنْ عَيْنِ الْيَقِينِ
هَامَةُ الْجَوَازِ مِنْ أَدْنَى خُطَاهُ
ويرى التَّوْحِيدَ نَبْرَاسَ هُدَاهُ
لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ إِلَهَ
لَمْ يَكُنْ ثُمَّ سِوَى حُبِّ الشَّعِيرِ
وإليه خَاشِعاً يَسْعَى الْأَمِيرُ
ثُمَّ تَسْلِيمٌ لِمَا اللَّهُ قَضَى
فهو مِيرَاثُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
يَضْنَعُ الْجَوْهَرَ مِنْ أَدْنَى رُجَاجِ
فهو إِنْسَانٌ وَفِي النُّورِ مَلَكُ

(١) الهباءُ : الثَّرابُ الذي تُطِيرُهُ الرِّيحُ ويلتصق بالأشياء .

(٢) نَامُوسُ : القانون أو الشريعة .

فَلَقَدْ تَنَقَّلُ دُنْيَاكَ إِلَى
 فِي هُدَى الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
 ذَلِكَ الْمُسْكِينُ فِي رُقْعَتِهِ
 صَامِتٌ لَيْسَ يُطِيلُ الْكَلِمَا
 وَلَهُ مِنْ طَاقَةِ الرُّوحِ جَنَانٌ
 حَوْلَ الْعَصْفُورِ نَسْرًا فِي الْفُضَاءِ
 بِنَسْدَاءِ الْحَقِّ يُحْيِي مُدْنَا
 مُسَلِّمٌ دَوْلَتُهُ فَوْقَ الْحَصِيرِ
 لَيْسَ يَرْضَى الْعَيْشَ إِلَّا فِي مَقَامٍ
 لَا يِيَالِي مِنْ لَهُ هَذَا السُّلُوكُ
 يَتَلَاشَى الْجَمْرُ فِي نِيرَانِهِ
 صَوْتُهُ فِي الشَّعْبِ يَذْكِي لَهَبًا
 لَا تَرَى الْأُمَّةَ تَخْشَى مِنْ مُغْيِرٍ
 نَحْنُ بِاسْتِغْنَائِهِ نَلْقَى الْغَنَى
 فَاُمْتَحَنَ وَجْهَكَ فِي مِرَاتِهِ
 تَكْتَسِبُ مِنْهُ مَزَايَا الصَّادِقِينَ
 تَتَجَلَّى حِكْمَةُ الدِّينِ جَمَالًا
 قُوَّةُ الدِّينِ وَتَشْيِيدُ عُلَاهُ
 كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْأَحَدِ
 إِنْ يَكُنْ فِي صُورَةِ النَّمْلِ خَفَاءُ
 قَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ تَاجُ الْمُرْسَلِينَ
 كَيْفَ يَعْلَمُونَ مِنْبَرًا لِلْمُسْلِمِينَ
 يَا لَهَا كَارِثَةٌ فِي الْعَالَمِينَ

حَالَةٍ اسْمَى وَشَأْنٍ أَفْضَلَا
 دَائِمَ الْإِسْعَادِ مَوْصُولِ النِّعَمِ
 يَسْعُ الْعَالَمَ فِي مُهْجَتِهِ^(١)
 وَهُوَ بِالصَّنْتِ يَرْبِّي أُمَمًا
 يَمْنَحُ الْخَامِلَ ذَوْقَ الطَّيْرِانِ
 فَبَدَا لِلْأَرْضِ تَفْسِيرُ السَّمَاءِ
 وَبِصِدْقِ الْعَزْمِ يَنْبِي وَطْنَا
 كَانَ يَخْشَى بِأَسَهُ أَلْفُ سَرِيرٍ
 يَسْتَوِي الشَّاهِينَ فِيهِ وَالْحَمَامِ
 أَنْ يَقُولَ الْحَقُّ فِي وَجْهِ الْمُلُوكِ
 وَيَخَافُ الْبَحْرُ مِنْ طُوفَانِهِ
 وَتَخَافُ النَّارُ مِنْهُ الْحَطْبَا
 وَلَذِيهَا مِثْلُ ذِيكَ الْفَقِيرِ
 وَعَلَى أَشْوَاقِهِ نَزَجُوا الْمُنَى
 وَانْشُدَ الْحِكْمَةَ مِنْ آيَاتِهِ
 وَتَفَسَّرَ مِنْهُ بِسُلْطَانٍ مُبِينِ
 حِينَ يُبْدِي الْفَقْرُ عِزًّا وَدَلَالَا
 فِي تَسَامِي الْفَقْرِ عَنْ ذُلِّ الْحَيَاةِ
 لَا يُذِلُّ النَّفْسَ يَوْمًا لِأَحَدٍ
 لَيْسَ يَرْجُو مِنْ سُلَيْمَانَ عَطَاءُ
 كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 فَوْقَ أَرْضٍ فِي يَدِ الْمُسْتَعْمِرِينَ
 مَسْجِدُ الْهَادِي بِأَيْدِي الْغَاصِبِينَ

(١) الْمُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَرَّرَ الْأَرْضِ مَعاً وَالْمَسْجِدَا
 أَهْلَهَا النَّاصِحُ لَيْلاً وَنَهَارَا
 إِنَّ مَعْنَى تَرْكِهَا تَسْخِيرُهَا
 وَالَّذِي يَغْلُو عَلَى صَهْوَتِهَا
 فَاتَّخِذْهَا مِنْ مَطَايَا الْآخِرَةِ
 هِيَ صَبْدُ الْمُؤْمِنِ الْحَرِّ الْجَسُورِ
 كُلُّ زُهْدٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَاجِدٍ
 أَنَا مِنْ مُشْكَلَتِي طَالَ اكْتِسَابِي
 أَهْلُهَا الشَّاهِينَ^(١) مَا هَذَا الْجُمُودِ
 يَأْسُ أَمْ أَنْتَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ^(٢)
 مَا شَكَا مِخْلَبِكَ النَّسْرُ وَلَا
 الْجِبَالُ الشُّمُّ وَالْآفَاقُ لَكَ
 طَرَزَ إِلَى النَّجْمِ وَحَلَقَ مِنْ جَدِيدٍ
 فَقَرْنَا تُمْلِيهِ آيَاتُ الْكِتَابِ
 فَقَرْنَا مَعْنَاهُ تَسْخِيرُ الْجِهَاتِ
 يَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَوْقَ الشُّبُهَاتِ
 فَقَرُّ أَهْلِ الْكُفْرِ هَذَا لِلْفِطْرِ
 عَيْنُهُ بَيْنَ الْمَرَامِيِّ وَالْكُهُوفِ
 لَمْ يَكُنْ فِي الذَّهْرِ مِنْذُ الْمَوْلِدِ
 لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ بِالْفَقْرِ اعْتِزَالُ
 بَيْنَمَا الْأَوَّلُ فِي صَفَتِ الْجُمُودِ
 ذَاكَ يَطْوِي الْعُمُرَ فِي تَرْكِ الْبَدَنِ

لَا يَكُنْ غَيْرُكَ فِيهَا سَبْدَا
 دَاعِيَا أَنْ تَتْرَكَ الدُّنْيَا احْتِقَارَا
 فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ لَا تَذْمِيرُهَا
 بِأَمْنِ الْمِغْنَةِ مِنْ عَشْرَتِهَا
 تَنْجُ مِنْ تِلْكَ الْعَجُوزِ السَّاجِرَةِ
 قَبْلَ أَنْ يَصْطَلَّاهُ فِيهَا الْعُرُورُ
 فَهُوَ سَلَوَى لِعَدِيمٍ فَاقِدِ
 حُلُمَا أَعْيَا عَلَى الْجُهْدِ صَوَابِي
 أَيْنَ مِنْكَ الْبَاسُ أَوْ أَيْنَ الضُّعُودُ
 أَمْ خَشِيتَ الْوُتْبَ فِي هَوَاجِ الرِّيَّاحِ
 فَرَّ مِنْ عَزْمِكَ طَيْرٌ فِي الْفَلَاحِ
 أَهْلُهَا الْهَارِبُ مِنْ أَوْجِ الْفَلَكَ
 فِي الْفَضَاءِ اللَّازُورِدِيِّ الْبَعِيدِ
 لَيْسَ فِي رَفْصٍ وَسُكْرِ وَرَبَابِ
 وَاحْتِسَابِ لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ
 مَظْهَرًا أَعْلَى لِقُدْسِي الصِّفَاتِ
 وَمَجَافَاةً لِعُمُرَانِ الْبَشَرِ
 لَا تَرَى مَوْضِعَهُ بَيْنَ الصُّفُوفِ
 غَيْرَ صِفْرِ فِي بِسَارِ الْعَدَدِ
 هُوَ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ نِضَالُ
 سَارَ هَذَا نَحْوَ تَعْمِيرِ الْوُجُودِ
 طَالِبًا لِلرُّشْدِ أَوْ تَرْكِ الْوُطْنِ

(١) الشَّاهِينَ : طائر من جوارح الطَّيْرِ وسباعها ، من جنس الصقر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وترى المؤمنَ في أُمَّته
 نحو إدراك المعالي ساعياً
 فقرُّنا الحرُّ إذا ناجى القَدْرُ
 فقرُّنا العاري تولاه الزَّوال
 إنَّه إيمانٌ بسدرٍ وحَيْنِ
 أسفاً لم يَبْقَ عندي سَيْفٌ (لا)
 أسفاً ، إنِّي أرى دُنْيا الفِتَنِ
 يا شبابَ الحقِّ ، يا دُخْرَ الشُّعوبِ
 إنَّ دُنْيا اليومِ أبلاها القَدَمُ
 أينَ مِنْكُمْ يا ذوي المَاضِي الكَرِيمِ
 طالَ هذا النُّومُ عن صَوْنِ حَمَاهِ
 يَدَابُ الحرِّ عُذْوَاً وَعَشِيَّاهِ
 وَجْهَادُ الْمُصْطَفَى بِرَهائِهِ
 يا لقومَ ، أنجبوا كلَّ أميرٍ
 لا تَسَلْ عن قِصَّةِ القَوْمِ بيانا
 أَلَمْ أَغْمَدْ في صَدْرِي سِهَامَهُ
 هَوُلُ هذا الحَشْرِ أَعْيَا الوَاصِفِينَا
 قوَّةُ الدِّينِ في النُّصْرِ القَرِيبِ
 أينَ مَنَعَاهُمْ وَهُمْ في العَاجِلَةِ
 ليسَ لِلشَّيْطَانِ فِينَا مَأْرَبُ
 فتراثُ الدِّينِ قد طار شُعاعا
 كَمْ تَغْنَى بِمَزَايا بَايَزِيدٍ^(١)
 فيرى في دولَةِ الأَغْيَارِ رَحْمَهُ

يَنْشُدُ الحَقَّ بِذَاتِيَّتِهِ
 وسراجاً في الليالي هَادِيَا
 يُزْهِبُ الشَّمْسَ وَيَخْتَلُ القَمَرَ
 قد نأى المُسْلِمُ عن هذا الجَلالِ
 إنَّه زَلْزالُ تَكْبِيرِ الحُسَيْنِ
 وأرى غَمْسَكَ مِنْهُ قَدْ خَلا
 زَلْزَلَتْ إِيْمَانَهُ فِيهَا المَحَنُ
 حَرُّوا مِمَّا سِوَى اللَّهِ القُلُوبِ
 فاخلقوا دُنْيا سِوَاهَا في الأَمِ
 غيرةُ الأحرارِ لِلدِّينِ القَوِيمِ
 ما أرى المَوْتَ سِوَى هَذِي الحَيَاةِ
 ثُمَّ يَبْنِي ذَاتَهُ صَرْحاً عَلِيَّاهِ
 وسجايَا المُصْطَفَى مِيزَانَهُ
 فمتى يُولَدُ في القومِ فَقِيرُ
 أَسَكَتَ الدَّمْعُ عَنِ الوَصفِ اللِّسَانَا
 هُوَ في قلبي كَأَهْوَالِ القِيَامَةِ
 فليقدِّم في الصَّدْرِ مَطْوِيَّاً دَفِينَا
 فكأنَّ القَوْمَ في شَكٍّ مُرِيبِ
 قَطَعُوا عِنداً طَرِيقَ القَافِلَةِ
 لا وَلا لِلصَّرِّ مَنَّا مَطْلَبُ
 وتراثُ المَالِ قَدْ وَلَّى ضِيَاعَا
 ذو رِياءٍ هُوَ لِلوَزْدِ مُرِيدُ
 وكأنَّ الدُّلَّ في دُنْياه نِعْمَةُ

(١) لا أدري مَنْ يرثي الشاعرُ به .

وينادي أَنَّ حُكْمَ الدُّخْلَاءِ
أَيْهَا الْمَحْرُومُ مِنْ وَجْدَانِهِ
أَوْ تَذْرِي أَنَّنَا مِنْ عَضْرِنَا
كُلُّ حَيٍّ مَعْرُضٌ عَنْ ذَاتِهِ
عِشْنِ وَلَوْ يَوْمًا عَزِيزَ الْمَطْلَبِ
مَنْزِلُ الشَّاهِينِ فِي أَوْجِ السَّحَابِ
لَمْ يَزَلْ فِي الرَّوْضِ ظِلٌّ وَتَمَرٌ
كُنْ كَحَدِّ السَّيْفِ فِي صِدْقِ الْمَضَاءِ
إِنَّ فِي رُوحِكَ سَيْلًا كَالْعُبابِ
انْدِفَاعُ السَّيْلِ إِثْبَاتُ الْبَقَاءِ
أَنَا لَمْ أَسْلُكْ إِلَى الْفَقْرِ سَبِيلًا
لَمْ أَكُنْ فِي الْفَقْرِ ذَا فَهْمٍ ذَوِيقٍ
فَكْرَةٌ جَاشَتْ بِهَا الْقَلْبُ اضْطِرَابًا
كُنْتُ فِي الدِّينِ حَدِيدَ الْبَصَرِ
وَانْجَلَتْ وَاحِدَةٌ بَيْنَ مَنَاتٍ
فَاغْتَرَبْتُمْ مِنْ فَاقَتِي حَظًّا يَسِيرًا
أَيْهَا الشَّادِي بِقِرَانِ كَرِيمٍ
قُمْ وَأَبْلِغْ نَوْرَهُ لِلْعَالَمِينَ
إِنَّ نَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الْخَلِيلِ
مَنْ لَهُ مِنْ ثَرْوَةِ الْهَادِي نَصِيبٍ
يَا غَرِيبًا عَنْ مَقَامِ الْمُصْطَفَى

فِيهِ لِلدِّينِ ازْدِهَارٌ وَازْتِقَاءُ
وَمِنْ الشُّوقِ وَمِنْ أَشْجَانِهِ
غَرِيبًا فِيهِ عَنْ أَنْفُسِنَا
فَقَدْ الْجَوْهَرَ مِنْ مِرَاتِهِ
أَجْنِبِيَا عَنْ طَرِيقِ الْأَجْنَبِيِّ
مَا لَهُ يَسْكُنُ فِي وَكْرِ الْغُرَابِ
فَالْتِمِسْ عُشَّكَ فِي أَعْلَى الشَّجَرِ
وَاحْتَسِبْ نَفْسَكَ فِي كَفِّ الْقَضَاءِ
يَنْسِفُ الشَّمُّ وَيَهْوِي بِالْهَضَابِ^(١)
وَسَكُونُ اللَّيْلِ مَعْنَاهُ الْفَنَاءُ
أَتَحَرَّى الْحُكْمَ فِيهِ وَالذَّلِيلَا
فِي سَلُوكِ بَيْنِ رُؤَادِ الطَّرِيقِ
ثُمَّ لَمْ أَفْلِكْ عَنِ الْقَوْلِ اخْتِجَابًا
رَغَمَ مَا بِي مِنْ قُصُورِ النَّظَرِ
بَعْدَ لَايٍ مِنَ الْوَفِّ الْمُشْكِلَاتِ
فَعَسَى أَلَا تَرَى مِثْلِي فَقِيرًا
وَهُوَ فِي رَكْنٍ مِنَ الْبَيْتِ مُقِيمٍ
قُمْ وَأَسْمَعْهُ الْبَرَايَا أَجْمَعِينَ
أَسْمَعَ النَّمْرُودَ تَوْجِيْدَ الْجَلِيلِ
فَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ فِي الدُّنْيَا قَرِيبٍ
عُدْ إِلَى الْحَقِّ تَجِدُ نُورَ الصَّفَا

(١) الْهَضَابُ ، جَمْعُ هَضْبَةٍ : جَبَلٍ مَنِسَطٍ مَمْتَدٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

الرجلُ الحرُّ

قدّم إقبال في أبياته السابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلا أنه شاء أن يخصّ المسلم الحرّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرجل الحرّ من مقام ، ولذا نجد إقبالاً يكرّر في هذه الأبيات بعض المعاني كصاحب رسالة نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مَسْرِ النَّجْمِ لِلْحَرِّ هَدَفَ	وَزَدَهُ فِي كُلِّ حِينٍ لَا تَخَفَ
أَمِنَ فِي سِلْمِهِ فِي حَزْبِهِ	رَأْسُهُ فِي الْكَفِّ لَا فِي جَيْبِهِ
عَرَفَ اللَّهُ فَلَمْ يَزْهَبْ سِوَاهُ	كَيْفَ يَخْشَى الْخَلْقَ مَنْ خَافَ الْإِلَهَ
لَا يَرَى قَطُّ مَعَ الْبُؤْسِ الْمَرِيرِ	عَبْدَ سُلْطَانٍ وَلَا ظِلَّ أَمِيرِ
جَمَلٌ فِي الْيَدِ مَوْصُولِ الصَّبَامِ	يَخْمِلُ الْأَثْقَالَ وَالشُّوْكَ طَعَامَ
هُوَ تَبَضُّ فِي عُروْقِ الْأَمَلِ	وَهُوَ سَغِيٌّ فِي طَرِيقِ الْعَمَلِ
مَنْ عَلا تَكْبِيرُهُ مِنْ غَيْرِ تَاجٍ	يُلْزِمُ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَجِ
قَدْ ذَكَّتْ نِيرَانُنَا مِنْ جَمْرِهِ	وَجَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ خُمْرِهِ
جَنَّةُ الْوَرْدِ شَذَا مِنْ سِخْرِهِ	شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ
وَتَرَى فِي قَصْرِ رَبِّ السَّرِيرِ	رَاعِشاً مِنْ سَهْمِ عُزْيَانٍ فَقِيرِ
شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْخَبْرُ	وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظَرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ نَسْتَجِدِي الْأَمَانِي	وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي طَيْبِ الْمَجَانِي
أَصْبَحَ الدَّيْرُ لَدِينَا مَقْصِداً	نَحْنُ لِلْعَبْرِ نَبِيعُ الْمَسْجِدا
وَهُوَ يُسْقَى مِنْ يَمِينِ الْمُصْطَفَى	كَوْثَرُ عَذْبَاءَ بِهِ الْوَرْدُ صَفَا
فِي ضَمِيرِ الْحَرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهَ	فِي جَيْبِ الْحَرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
نَحْنُ لِلْإِفْرَنْجِ أَسْلَمْنَا الْقِيَادَا	وَاتَّخَذْنَاهُمْ لَدَى الْجُلَى عَتَادَا
وَابْتَغَيْنَا عَنْدهُمْ عِزَّتَنَا	وَجَعَلْنَا وَدَّهْمَ قِبَلَتِنَا
وَشَعَارُ الْحَرِّ عِزٌّ وَإِبَاءُ	رِزْقُهُ مِنْ يَدِ جَبَّارِ السَّمَاءِ
فَلْغَيْرِ اللَّهِ مَا مَدَّ الْيَمِينِ	لْغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَخُنِ الْجَبِينِ

متعة الدنيا لنا كل المرام
 هو في الحق جهاد وثبات
 إننا نبني قصوراً في الخيال
 وهو بالأعمال في كل مجال
 لو رمى شمم الجبال العاتية
 اجتنب صخبنا واستعد به
 الزم الحر ودغ أهل البوار^(١)
 صحبة الحر إلى العلياء باب
 صحبة الحر تنير العالم
 قربه للحر أصفى منهل
 هو يوم السلم في أوطانه
 بجديد الفكر يحيي عصره
 وهو يوم الحرب في ميدانها
 سيفه يحفر فيها قبره
 ليس زرع القلب في ماء وطين
 إن أردت العيش حراً صافيا

رُباعيات (٢)

أقبل الحر على يوم الفداء ومضى يرمي على النجم الهدف
 وكأن السوخي لقاء النداء من سماء الله أقدم لا تخف

(١) أهل البوار : أهل جهنم .

(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أَشْرَقَ التَّوْحِيدُ نَوْرًا فِي هِدَاةِ وَسَرَى التَّحْرِيرُ مِنْهُ فِي الضَّمِيرِ
أُتْرِى مَنْ لَمْ يَخَفْ غَيْرَ الْإِلَهِ يَزْهَبُ السُّلْطَانُ أَوْ يَخْشَى الْأَمِيرَ

رُوحُهُ تَكْشِفُ أَسْرَارَ الْخُلُودِ عَنْ حَيَاةٍ مَا لَهَا فِي الدَّهْرِ مَوْتُ
يُرْسِلُ التَّكْبِيرَ مِنْ قَلْبِ الْوُجُودِ لَغَةً تُغْنِيهِ عَنْ حَزْفٍ وَصَوْتِ

سَلْ مَلُوكَ الْأَرْضِ عَنْ دُنْيَا الْغُرُورِ فِي الْمَلَاهِي خَلَفَ أَسْتَارِ الْحَرِيرِ
زَلَزَلَتْهُمْ بَيْنَ أَبْرَاجِ الْقُصُورِ ضَرْبَةً مِنْ سَهْمِ غُرَيَّانٍ فَقِيرِ

ضَرَبَ الْبَخْرَ كَمُوسَى بِعَصَاهِ وَرَمَى الصَّخْرَ حُطَامًا مِنْ زَجَاجِ
ذَلِكَ الْأَوَابُ فِي ثَوْبِ تَقَاهِ أَلْزَمَ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَاجِ

قَدْ جَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ بَخْرِهِ وَأَضَاءَتْ نَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
بِسْمَةِ الْوَزْدِ شَذَا مِنْ عَطْرِهِ شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ

شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْحَبْرُ وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظَرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ فِي ظِلِّ الشَّجَرِ وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي مَجْنَى الثَّمَرِ

لَبِنِي الْإِفْرَنْجِ فِي الدُّنْيَا عَيْنِدِ فِي قَبُودٍ مِنْ حَرِيرٍ أَوْ حَدِيدِ
كَمْ تَغْنَى بِمَزَايَا بَايَزِيدِ ذُو رِيَاءٍ وَهُوَ لِلْوَرْدِ مُرِيدِ

فِي حَدِيثِ الْمُصْطَفَى شَمْسُ الْهُدَى كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

كَيْفَ تَبْنِي فَوْقَ أَرْضٍ مَسْجِدًا إِنَّ تَرَكْتَ الْأَرْضَ لِلْمُسْتَعْمَرِينَ

لَيْسَ حَيًّا مَنْ يُرَى مُسْتَعْبَدًا لِسَوَى مَنْ فِي يَدَيْهِ رِزْقُهُ
مَيِّدٌ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى سَيِّدًا مَا خَلَا رَبِّي فَكُلُّ عَبْدُهُ

فِي ضَمِيرِ الْحَرْزِ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ فِي جَبِينِ الْحَرْزِ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
مَوْتُهُ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ تَزْفُحُ الدُّنْيَا لِذِكْرِهِ الْعَلَمِ

هُوَ يَوْمُ السَّلَامِ فِي نَهْضَتِهِ يَسِدُ الْإِصْلَاحَ يَبْنِي عَضْرَهُ
وَيَذْبَعُ الْخَيْرَ فِي أَمَّتِهِ مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عِطْرِهِ

وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي مَاحَتِهِ سَيْفُهُ يَخْفِرُ فِيهَا قَبْرَهُ
يَتَحَدَّى الْمَوْتَ فِي وَثْيَتِهِ أَوْ يُتَمُّ الْعَزْمُ فِيهَا نَضْرَهُ

إِنَّ عَرْسَ الْحَقِّ فِي نَوْرِ الْقُلُوبِ غَيْرُ شَأْنِ الزَّرْعِ فِي مَاءٍ وَطِينِ
فَالْتَمِسْ لِلْمَجْدِ أَحْرَارَ الشُّعُوبِ إِنَّهُمْ فِي الدَّهْرِ أَعْلَامُ الْيَقِينِ

فِي أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ

لم يتحدث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدين فيها ، ولكنه من جهة أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادّيون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إني وعيت

عن جلال الدين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَلٍ ، ما كِدْتُ أَنَا مَلُهَا حَتَّى أَصَابَنِي الْمَقْعَدُ مِنَ التَّفَكِيرِ ، فيقول :

حِكْمَةٌ قَدْ وَعَيْتَهَا عَنْ جَلالِ الدِّينِ فِيهَا أَدْرَكْتُ مَعْنَى الْجَلالِ
أَنَّ حِفْظَ الْأَمْوَالِ مِنْ أَجْلِ حِفْظِ الدِّينِ زَادٌ وَعِدَّةٌ لِلنُّضالِ
قَدْ أَبَانَ الرَّسُولُ أَنَّ صَلَاحَ الْمَالِ يَزْكُو بِهِ^(١) صَلَاحُ الرُّجَالِ
إِنْ يَكُنْ هُمْكَ الْغِنَى لَمْ تَكُنْ لَهُ عَبْدًا بَلْ أَنْتَ عَبْدُ الْمَالِ

كَمْ شَهِدْنَا الْإِصْلاحَ مِنْ فارِغِي الْأَيْدِي وَأَهْلِ الْخِصاصةِ الْمُغْدَمِينَ
كَمْ وَجَدْنَا الْكِسادَ مِنْ خازِنِ الْمالِ وَأَهْلِ الْأَهْواءِ وَالْمُتَرْفِينَ
هُمْ يَضيقُونَ بِالْعَدالَةِ فِي الْأَرْضِ لِيَقْضُوا حِياتَهُمْ ناعِمِينَ
لَا يَخافُونَ فِي الْمَصيرِ حساباً بَلْ يَخافُونَ غُضْبَةَ الثَّائِرِينَ

يَأْكُلُونَ التَّراثَ جَمْعاً وَيُخْلا	ثُمَّ هُمْ يَأْكُلُونَ خُبْزَ الْأَجِيرِ
وتَزِيدُ الْمأساةَ رُغْباً وَهولاً	عندما يَسْرِقُونَ حَقَّ الْفَقِيرِ
يَقِفُ الْعامِلُ الْمُسِينُ ^(٢) لَدَيْهِمْ	خاشِعَ الطَّرْفِ خافِضَ التَّعْبِيرِ
يَصِلُ اللَّيْلُ بِالنَّهارِ أَنْيناً	دُونَ جَذْوَى ^(٣) فِي بؤْسِ عَيْشٍ مَرِيرِ

ليس في بيته الرغيفُ ولا يَشْتُرُ مِنْ عَزِيهِ سِوى الْأَسْمالِ^(٤)
يَبْتَنِي الْقَضَرَ وَهُوَ يَلْتَمِسُ الْأَكْواحَ بَيْنَ الرُّبُوعِ وَالْأَطْلالِ

(١) يَزْكُو بِهِ : يَزِيدُ بِهِ .

(٢) الْمُسِينُ : كَبِيرُ السِّنِّ .

(٣) دُونَ جَذْوَى : دُونَ فَائِدَةٍ .

(٤) الْأَسْمالُ : الْأَثْوابُ الْخَلِقةِ الْبَالِيَةِ .

نال ربح الدَّارين من جَعَلَ المَالَ سبيلاً إلى كريمِ الفُعالِ
هم حيارى لا يَنْظرون بنورِ الله بل يَنْظرون رأسَ المالِ

يستوي الحلُّ والحرامُ لدى القومِ وأين الدُّجى مِنَ الأنوارِ
فأسألِيهم مخادعةَ الخلقِ وتعميرهم خرابُ الدُّيارِ
دولةٌ تعتدي على دولةٍ ظلماً وقطرٍ يغني على أقطارِ
كادحٌ يزرعُ الحقولَ فيأتي غيرُه عاجلاً لجَنِي الثمارِ

مِنْ صميمِ الحياة . مِنْ فطرةِ الله ، مِنْ القلبِ ، مِنْ لقاءِ الضميرِ
يشرقُ الدِّينُ بالهدايةِ والرُّشدِ كما يشرقُ الضُّحى بالنُّورِ
فلو أن الحرامَ يبدو حرماً يَخْجُزُ النَّاسَ عنه وعِي الضميرِ
يصبح العدلُ شاملاً كلَّ أرضٍ في الحياة الدُّنيا ليومِ النُّشورِ

حكمةُ الدِّينِ أن تُسَلِّمَ للشَّرعِ وترضى بكلِّ حكمٍ قَضاهُ
مِنْ ضميرِ الرُّسولِ أينع هذا الدِّينُ في غَرْسِهِ وطابَ جَناهُ
إنَّ هجرَ الحبيبِ يستلبُ اللَّبَّ ويُذكي في القلبِ نارَ جَوَاهُ
لو أزيلَ الحِجَابُ لم تبقَ حياً خلُّ أمرِ الوصالِ واطلبِ رِضاهُ

عِشْ بأحكامه تَرِ العِيشَ صفواً ورخاءاً أو نضرةً ونعيمًا
وأطع أمره تُطغسك البرايا وترى الأمنَ حيثَ كُنْتَ مُقيماً
قد حبأك الإلهُ أحسنَ تقويمٍ لتحيا خلُقاً سوياً كريماً
إنَّ إزث^(١) الخليلِ إيمانه الصادقُ فاحفظ ميراثَ إبراهيمَ

(١) إزث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كُلُّ قَلْبٍ لَهُ مِنَ الْحَقِّ نَوْرٌ وَلَهُ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ نَصِيبٌ
 لَا يُشَابُّ الْيَقِينَ^(١) مِنْهُ بَرِيبٌ وَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ الْأَمِينِ قَرِيبٌ
 بِمَا مَقِيمًا فِي حُجْرَةِ الدَّاءِ رَيتُوه وَهُوَ عَمَّا يَتْلُوهُ نَاءُ
 قُمْ وَأَنْذِرْ بِهِ الْخَلَائِقَ طَرًّا تَجِدِ الْكَوْنَ كُلَّهُ يَسْتَجِيبُ

وَتَقَبَّلْ أَوْامِرَ الْمَدِينِ بِالرَّغْبَةِ وَالشُّوقِ وَالرَّضَا كُلَّ وَقْتٍ وَأَنْ
 كَمَلُ فَرَضٍ تَقْضِيهِ جَبْرًا وَقَهْرًا لَا تَرَى فِيهِ نَشْوَةَ الْإِيمَانِ
 حِكْمَةُ الدِّينِ فِي الْعَدَالَةِ وَالْحُبِّ لَيْسَتْ فِي الْبُغْضِ وَالطُّغْيَانِ
 وَبَأَنَّ لَا يَحْتَاجُ فِي الْأَرْضِ إِنْسَانٌ لِيَحْظَى بِالرُّزْقِ مِنْ إِنْسَانٍ

قَدْ خَبَرْتُ الدُّعَاءَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَالْمُدَّعِينَ لِلْإِلَهَامِ
 أَطْفِئُوا جَسَدَ الْإِرَادَةِ فِي الشَّعْبِ وَزَادُوهُ خَيْرَةً فِي الظُّلَامِ
 وَأَصَاغُوا التَّأْوِيلَ فِي كُلِّ نَصٍّ حِيلَةً لِلْغِنَى وَجَمَعَ الْحُطَامِ
 لَا أَرَى فِي مَنَابِرِ الْقَوْمِ إِلَّا سَلَّةَ الْكَمَكِ أَوْ خِوَانِ الطَّعَامِ

كَمْ أَطَالُوا الْجِدَالَ فِي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي الْمِرَاءِ
 أَيُّ بَابٍ مِنَ الْهَدَايَةِ يُزْجَى مِنْ كَلِيمٍ^(٢) بِمَا يَدُ بِيضَاءِ
 أَيُّ أَمْرٍ يَفِيدُهُ مِنْ كَلَامٍ فَنِي صَبَاحٍ مُرَدِّدٍ وَمَسَاءِ
 صَاحِبِ الْحَقِّ أَنْتَ فَاطِلُهُ بِالسَّغْيِ وَلَا تَنْتَظِرْهُ بِالْإِعْطَاءِ

= « إِنْكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(١) لَا يُشَابُّ : لَا يَخْتَلُطُ .

(٢) كَلِيمٍ : يَرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدّها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وُحدةٌ وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلّا أنّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السّفاكين على الأبرياء الأمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضّ المسلمين على ثورة عارمة بأسلوب دينيّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همالايَا ونهرَ الكنجِ إني أرى صُورَ الحياةِ بغيرِ معنى
فلم أدركَ لها في الذوقِ رأياً ولم أعرفَ لها في الحسنِ لونا

شعوبُ الشرقِ والغربِ استقلتْ وضاقَ بنا على الأرضِ الفضاءُ
فلأغيارِ ثروتُنَا متاعاً وَمِنَ لبناتِنَا لهُمُ البِنَاءُ

وأيُنَ حياتِنَا والغَيرُ فيها يَصُولُ كما يشاءُ ويستطيلُ
وليسَ النَّومُ ما صرنا إليه فذاك الموتُ لا النَّومُ الثقيلُ

وإنَّ بذورَ هذا الموتِ جاءتْ من الأعماقِ مُنْذُ الابتداءِ
ومُنْذُ المهدِ كانَ القومُ صَزَعَى^(١) وهذا الموتُ ليسَ من السَّماءِ

وليسَ فقيدُ هذا الموتِ أهلاً لُغُسلٍ أو لِقَبْرِ أو بُكاءِ
ولا شقُّ الثَّيابِ عليه حزنأ ولا سعيِ الوفودِ إلى عَزاءِ

جهنَّمُ سوى ما قد عرفنا فليسَ لها إلى الفَلَكِ انتسابُ
ويومُ حسابِ كُلِّ الخلقِ يأتي بلا عملٍ فليسَ له حِسَابُ

حصاؤُ الرِّزارعينِ غداً وهذا بلا زرعٍ فمن أين الحَصَاؤُ
ومدَّةُ عمرِه في الدَّهرِ يومٌ وكلُّ حياتِه يومٌ مُعَاؤُ

(١) صَزَعَى ، جمع الصَّرِيع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس - والمجون .

وَأَيُّهُ أُمَّةٌ تَرْجُو الْأَمَانِي بِلا جَهْدٍ وَتَمْضِي فِي رُكُودٍ^(١)
يَكُونُ مَصِيرُهَا عَدَمًا وَمَحْوًا وَيَنْسَى نَفْسَهَا سِفْرُ الْوُجُودِ

وَكَمْ فِتْنٍ تَمَادَى^(٢) الْغَرْبُ فِيهَا وَاحْكَمَ حَوْلَهَا السُّخْرَ الْمِينَا
فَمَا أَبْقَى عَلَى الْكُفَارِ كُفْرًا وَلَا أَبْقَى لِأَهْلِ الدِّينِ دِينَا

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا الدَّاجِي^(٣) ظِلَامًا فَمَا تَدْرِي الشَّرَابَ مِنَ الشَّرَابِ
هِيَ الْغَمَرَاتُ مَا مِنْهَا نَجَاةٌ وَلَا حَلٌّ بِغَيْرِ الْإِنْقِلَابِ

فِيَا مَنْ هَامَ بِالدُّنْيَا مَتَاعًا وَأَصْبَحَ هُمًّا شَبَعًا وَرِيًّا^(٤)
تَطْلُبُ فِي حُضُورِ الْحَقِّ قَلْبًا وَفِيًّا صَادِقَ الْإِيمَانِ حَيًّا

فَهَذَا الْقَلْبُ لِلدُّنْيَا سَرَاجٌ لَهُ أُمَمُ الْخَلِيقَةِ فِي أَنْظَارِ
وَهَذَا الْقَلْبُ مَعْدِنُهُ تَرَابٌ وَجَوْهَرُهُ فَرِيدٌ فِي الدَّرَارِي^(٥)

بِفَوْقِ السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ قَذْرًا يَهْمَّتُهُ وَلَا يَأْلُو رُقْيَا

(١) الرُّكُودُ : الهدوء ، والسكون .

(٢) تَمَادَى : لَجَّ ودام عليه .

(٣) لَيْلَهَا الدَّاجِي ، أَي : حَالِك .

(٤) رِيًّا : مصدر رَوِيَ ، أَي : شَرِبَ .

(٥) الدَّرَارِي ، جمع الدَّرِي : نسبة إلى الدَّر في حسنه وبهائه .

يَقِيمُ عَلَى الثَّرَى وَلَهُ أَمَانٌ إِلَى الْعِلْيَاءِ أَدْنَاهَا الثَّرْيَا^(١)

وَفِي حَرْبِ ضَرُوسٍ^(٢) كُلَّ حِينٍ مَعَ التَّارِيخِ مُتَّصِلِ النَّضَالِ
يَضْرِبُ الْجِبَالَ تَصِيرُ عَنْهَا وَتُزْهِبُهُ الضَّرَاغِمُ فِي الْجِبَالِ

تَرَى لِشَعُورِهِ الْمَشْبُوبِ نَاراً تَوْقَدُ مِنْ حَرَارَتِهَا ذُكَاءً
لَهُ مِمَّا سِوَى التَّنُورِ خَبْزٌ وَمِنْ غَيْرِ الطَّعَامِ لَهُ غِذَاءٌ

حُضُورُ الْحَقِّ يَمْلَأُهُ يَقِيناً فَمِنْهُ الْخَوْفُ مَخْضاً وَالرَّجَاءُ
شُهُودُ الْحَقِّ إِنَّهُ هُوَ غَابَ عَنْهُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الدُّنْيَا بَقَاءُ

طَيْفُ الْجَلُوتِ وَالْخُلُوتِ طُرّاً يَضِيءُ الْكَوْنُ بِالرَّأْيِ الْمُنِيرِ
وَمَالِلُ الْعَشَقِ فِي سُكْرِ وَصَخْوِ دَلِيلٌ غَيْرَ أَوَابٍ فَقِيرِ

فَصَاحِبُ مَنْ لَهُ قَلْبٌ عَظِيمٌ لَعَلَّكَ تَدْرِكُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَا
وُلِدْتَ عَلَى مَهَادِ الدُّلِّ عَبْدَاً فَجَاهِذْ نَمَّ مَثَّ حُرّاً كَرِيمَا

(١) الثَّرْيَا : مجموعة من النجوم .

(٢) حَرْبِ ضَرُوسٍ ، أي : شديدة مهلكة .

السِّيَاسَةُ الْحَاضِرَةُ

إنَّ إقبالاً كشف الأقنعة المزيفة عن وَجْه السِّيَاسَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَوَجَّه أُمَمِ الشَّرْقِ إلى تَجَنُّبِ أخطارِ دُولِ الْغَرْبِ وسياستها ، وَقَدَّمَ حقائقَ وصوراً عن التَّدْهُورِ الْخُلُقِيِّ فِي قِادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَوْجِهِينَ لَشُعُوبِهِمْ لاسِيَّما فِي شِبْهِ الْقَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَى أَرْضِهَا هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الْكُبْرَى قَبْلَ الْاِسْتِقْلَالِ . وَمِنْ أَرْوَعِ مَا نَشْهَدُهُ مِنْ رَوَائِعِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ ذَلِكَ الْاِسْتِدْرَاكُ الْعَجِيبُ الَّذِي صَرَّحَ فِيهِ إِبْقَالُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُسْتَعْبَدَ الذَّلِيلَ يَكَادُ يَفْقَدُ حَقَّهُ فِي أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى لِسَانِهِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَالْمَحْ إِلَى الْحَالَةِ الْمُسَوِّفَةِ الَّتِي شَهِدَهَا فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَلَا سِيَّما فِي شِبْهِ الْقَارَّةِ ، وَبَيَّنَّ بِجَلَاءٍ أَنَّ الْعِبُودِيَّةَ وَالذُّلَّةَ لَا تَلْتَقِيَانِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فِي قَلْبِ إِنْسَانٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ إِبْقَالُ :

صَوَّرَ الْغَاصِبُ عَذْلًا ظَلَمَهُ مَا هُوَ التَّفْسِيرُ لِلْعَذْلِ الْجَدِيدِ
زَادَ فِي التَّحْرِيرِ مَعْنَى أَنَّهُ يُخَكِّمُ الْقَيْدَ لِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ

قَالَ لِلطَّيْرِ إِذَا رُمْتَ الْأَمَانَ فَاتَّخِذْ فِي مَنْزِلِ الصَّيَادِ وَكُورًا
لَيْسَ فِي الْأَجْوَاءِ لِلطَّيْرِ مَكَانٌ لَا وَلَا تَأْمَنُ فِي الصَّحَرَاءِ نَسْرًا

حِينَ يَلْقَى الْحَبَّ فِي أَشْرَاكِهِ يَسْقُطُ الطَّيْرُ وَيَهْوِي ثَمَلًا^(١)
وَيَغِيبُ الرُّشْدُ عَنْ إِذْرَاكِهِ سَاعَةً يَفْقَدُ فِيهَا الْأَمَلَا

سَدَّدَ الرَّأْيَ وَحَادِثَ كَيْدَهُ كُلُّ مَا يَأْنِي بِهِ زُورٌ وَمَيِّنٌ^(٢)

(١) الثمل : النشوان من السكر .

(٢) الميِّن : الكذب .

إِنْ سَقَاكَ الْمَاءَ فَاتْرُكْ وَزِدْهُ وَلَتُمُتْ ظِمَانٌ حُرّاً كَالْحُسَيْنِ

لَا تُصَدِّقْ مِنْهُ مَا تَسْمَعُهُ فَهُوَ تَخْذِيرٌ مَبِيدٌ لِلْبَشَرِ
وَاحْذَرِ الْكُخْلَ الَّذِي يَصْنَعُهُ إِنَّهُ الْكُخْلُ الَّذِي يُعْمِي الْبَصَرَ

ضَاقَ صَدْرِي بِأَمِيرِ الْقَافِلَةِ لَيْسَ فِيهِ وَمُضَّةٌ^(١) مِنْ لَا إِلَهَ
عَابِدُ الْمَالِ يَحِبُّ الْعَاجِلَةَ عَبْدُ جَسَمٍ عَبْدُ نَفْسٍ عَبْدُ جَاهٍ

كَانَ بِالتَّوْحِيدِ مَرْفُوعَ الْعِلْمِ يَنْشُدُ الْمَجْدَ طَرِيفاً وَتَلِيداً
ذَلِكَ الْمَوْلُودُ فِي ظِلِّ الْحَرَمِ مَا لَهُ أَضْبَحَ لِلْغَيْرِ مُرِيداً

أَيُّنَ مَنْ كَانَ بِهِمْ يَسْتَرْشِدُ كُلُّ مَرْتَابٍ فِيحْظَى بِالْيَقِينِ
وَتَرَى الْأَرْضَ إِذَا مَا سَجَدُوا زُلْزَلَتْ مِنْ جَبْهَاتِ السَّاجِدِينَ

فِي دَوَىِّ الْهَوْلِ كَانُوا يُعْلِنُونَ تَخَتَّ ظِلُّ السَّيْفِ تَوْجِيدُ الْإِلَهِ
بِمَدَادٍ مِنْ دِمَاءٍ يَكْتَبُونَ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا نَخْشَى سِوَاهُ

أَيُّنَ ذَاكَ الشَّوْقُ وَالْقَلْبُ الصَّبُورُ وَمَرَايَا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ
قَدْ طَوَّنَهَا فِي تَوَالِيهَا الْعُصُورُ وَتَوَارَتْ فِي اللَّيَالِي الْخَالِيَاتِ

(١) وَمُضَّةٌ : لَمْعَةٌ خَفِيفَةٌ .

قَدْ بَلَّوْتُ الرُّقَّ^(١) مُنْذُ الْإِبْتِدَاءِ لَمْ يَكُنْ مَهْدِي فِي أَرْضِ الْحَرَمِ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ يَغْرُونِي الْحَيَاءُ^(٢) حِينَ يَدْعُو بِاسْمِهِ الْغَالِي فَمِي

لَكَ قَلْبٌ وَمَعَ الْقَلْبِ ضَمِيرٌ أَمْ غَدَا صَدْرُكَ لِلْأَصْنَامِ دَيْرًا^(٣)
أَنْتَ لِلْغَاصِبِ مُحْكُومٌ أَسِيرٌ تَحْتَ حُكْمِ الْغَيْرِ لَنْ تَضَعَنَّ خَيْرًا

تَدَّعِي الْحُبَّ لِخَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْذَبُ الْأَقْوَالِ مَا لَمْ يَنْدُ فِعْلًا
وَإِذْ لَمْ يَتَّبِعِ الْقَوْلَ اقْتِدَاءً لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ أَوْ لِلْقُرْبِ أَهْلًا

لَذَّةُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ قَلَّ أَنْ يُذَرِّكَهَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ
مُسْلِمٌ مُسْتَسْلِمٌ لِلطَّامِعِينَ آزَرِي^(٤) حَادٌّ عَنْ دِينِ الْخَلِيلِ

صَلَوَاتُ الْحَرِّ بَعَثَتْ لِلشُّعُورِ فَهِيَ مِفْرَاجٌ إِلَى الْعَيْشِ الْكَرِيمِ
وَصَلَاةُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ حُضُورٍ عَادَةٌ جَوْفَاءُ فِي رَسْمِ قَدِيمِ

إِنَّ لِلْأَحْرَارِ فِي الْعِيدِ السَّعِيدِ مَظْهَرُ الْعِزَّةِ فِي دُنْيَا وَدِينِ
وَلَدَى الْأَسْرَى وَفِي عَيْشِ الْعَبِيدِ يُضْبَحُ الْعِيدُ هَجْوُ الْمُؤْمِنِينَ

(١) الرُّقُّ : العبودية .

(٢) يعروني الحياءُ : يُصِيبُنِي الْحَيَاءُ .

(٣) دَيْرًا ، مصدر من دَارَ يَدُورُ ، أَي : طَافَ حَوْلَهُ .

(٤) آزَرِي : نَسَبَ إِلَى آزَرَ وَالِدِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

إلى الأمة العربية

خصَّص محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمة العربية ،
ليسجل فيها فضلها وسبقها في حمل الرسالة الإسلامية ، والأخذ بيد
الإنسانية ، وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى
موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة
هذه الأمة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ
على سجيته ، ويعطي القلب والعاطفة زمامه ، ويسترسلُ في الحديث ،
فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنْ الذي
سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ^(١) ، وَمَنْ الذي
أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنْ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى
بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي
أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فئاتٌ مائدتكم ، وهل قوله تعالى :
﴿ فَأَصْبَحَتْهُمُ بُنُوعُهُمْ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إِنَّ نَفْسَ ذَلِكَ
الأمي أعاد على هذه الصحراء الخُصْبَ والنمو ، فأنبئت الأزهار والرياحين ، إِنَّ
الحرية نشأت في أحضانها ، وَإِنَّ حاضِرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسيه ، إِنَّ الجسد
البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشف اللثام عن جمال
وجهه ، إِنَّهُ حَطَمَ كُلَّ صَنَمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا

كسرى بعده . »

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلى الأذان بقراءة « الصافات »^(١) بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأبواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكر جلال الدين الرومي ، وفكر فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةً من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره^(٢) ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهر آمن مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سمو ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبار العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاء وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء .

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثَّل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له طَبَّة فهو لا يُنتفعُ به ، فيقول الشاعر :

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحدَّ منه ،
وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم
انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من
مالكي أَعْتَنَها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهناك دوت تكبيراتكم
وصلواتكم ، وزمزت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين ، فارتجَّ بها
ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك
الغزوات . »

وبعدما يمدحُهم الشاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبَتهم المضرة
في الله ورسوله ، ويبيد فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما
يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرقة بعد
الوَحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً
معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم
الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت ! أما أنتم فما قَدَّرْتُمْ قَدَرَ هذه الصحراء التي نشأتم
فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أُمَّةً واحدةً ، أُمَّة الإسلام ، فصرتم
اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم
جمعَكم ، ومَرَّقتم شملَكم ، وانقسمتم على أنفسِكم . »

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه
مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ،
وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم
يجنِ عدوً على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسء أحدٌ إلى أحدٍ
إساءة تكم إلى أَمَّتكم ، إنكم آذيتُم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألِّمةٌ
متوجَّعةٌ شاكيةٌ مستغيثةٌ . »

الشاعر عارف بمكاند الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل

منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرّسهم وخبرهم ، فهو يتألم إذ يرى في الأمة العربية من يُحسن الظنّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إياكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وِزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سلبية حزينة لا تملك شيئاً ، إنّها مزقت وخدّعت العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يجدوا من يرثي لهم ، ويرفّق بهم ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزال فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب ! وردّوا فيكم روحَ عمر بن الخطاب مرّةً أخرى ، إنّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمانةً للسّرّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنّ غريزتكُم العربية الإسلامية ميزانٌ للخير والشرّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أفلّتْ نجومُ الآخرين ، وطوّيَ بساطُهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السّيل ، حتى تُشريحَ ركائبكم في مضمار الحياة ، وتسبقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خَلَّفَكُمْ فِي الْحَيَاةِ ؟ إِنَّ الْعَصْرَ الْحَاضِرَ وَلِيدُ نَشَاطِكُمْ ،
وكفاحكم ، وصنيعُ جهادكم ودعوتكم ، وما زلتم سادته ، وولاته حتى أَفْلَتَ
زمامه منكم ، فتنبأه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا
المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على
الدين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيّدَ الصَّحراء ! عُدْ إِلَى قُوَّتِكَ وَعِزَّتِكَ ، وامتلك ناصية
الأيام ، وخذ عِنانَ التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى .

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضَيَاعَ الأمة
الإسلامية ، وانطفاءَ شعله الحياة والإيمان في نفوس العرب ، ويشكو وَخَذَتُهُ
وغربته في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةً مَنْ قام بين
يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لَقَدْ تَشَتَّتَ شَمْلُ أَمَّتِكَ يَا مُحَمَّد ! يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِلَى أَيْنَ يَلْجَأُ الْمُسْلِمُ
الْحَزِينُ ، وَإِلَى مَنْ يَأْوِي ؟ لَقَدْ سَكَنَ بَحْرُ الْعَرَبِ الْمَضْطَرِبَ الْمَائِجَ ، وَفَقَدَتِ
الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ ذَلِكَ اللَّوْعَ ، وَذَلِكَ الْقُلُقَ ، الَّذِي عُرِفَتْ بِهِ ، فَإِلَى مَنْ أَشْكُو أَلَمِي ،
وَأَيْنَ أَجِدُ مَنْ يَسَاعِدُنِي عَلَى آلَمِي وَأَحْزَانِي ؟ وَمَاذَا يَفْعَلُ حَادِي أَمَّتِكَ ، وَكَيْفَ
يَقْطَعُ الطَّرِيقَ الشَّاسِعَ ، وَيَطْوِي السَّفَرَ الْبَعِيدَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ وَالْمَهَامِهِ ، وَقَدْ ضَلَّ
سَبِيلَهُ ، وَفَقَدَ زَادَهُ ، وَانْقَطَعَ عَنِ الرِّكْبِ ، بِاللَّهِ ! قُلْ لِي مَاذَا يَصْنَعُ حَامِلُ
دَعْوَتِكَ ، الْمُؤْمِنُ بِرِسَالَتِكَ ، وَأَيْنَ يَجِدُ زَمَلَاءَهُ وَرُفَقَتَهُ ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرون إلى الأوروبيين الإنجليز
والأمريكيين كأصدقاء مخلصين ، وأعوان مُتَجِدِّين يحلُّون لهم مشكلة
اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود
ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحافي ، يقول :

« أَنَا أَعْلَمُ جَيْدًا يَا إِخْوَتِي الْعَرَبُ ! أَنَّ النَّارَ الَّتِي شَغَلَتْ الزَّمَانَ ، وَبَهَرَتْ

التاريخ ، لم نزل ولا نزالُ نشتملُ في وجودكم ، صدّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنَّ اليهود لا يزالون يتحكّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنَّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربى فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور .

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطّف واعتذار :

« معذرةٌ يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي^(١) أن يخاطبكم ، ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةٌ للعرب ؟ إنكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقُ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدّين ، وإنه لا يتمّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاع عن « أمي لهب » ، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطّاغوت ، كذلك لا تتمّ الفِكرَةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنَّ العالم العربيّ أيها السادة ! لا يتكوّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدّين الإسلامي وعلى الصلة بمحمد ﷺ »^(٢) .

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبة والمَجد المؤنَّل^(٣) في بدو وفي حَضَرٍ حتّى ضُحى المحشر
مَن الَّذي حرَّزَ الدُّنيا لخالقها وأسمَعَ الخلقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَر

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٢٤ - ١٣٥ .

(٣) المؤنَّل : المبني الأصل .

مَنْ قَبْلَكُمْ أَبْلَغَ الْآيَاتِ نَاطِقَةً بُوْحِي مِنْ خَلْقِ الدُّنْيَا وَسَوَّاهَا
مَنْ غَيْرُكُمْ رَفَعَ الْمِضْبَاحَ مُؤْتَلِفًا وَوَحَّدَ الْخَلْقَ لَمَّا وَحَّدَ اللَّهُ

لَمْ يَطْعَمِ النَّاسُ إِلَّا فِي مَوَائِدِكُمْ عِلْمًا شَهِيًا وَتَهْذِيًا وَعِزْفَانَا
فِي شَأْنِكُمْ أَرْسَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ فَأَصَدَّ بِحُجَّتُمْ بِنِعْمَتِهِ فِي الْخَيْرِ إِخْوَانَا

مَنْ حَوْلَ الْبَيْدِ رَوْضًا وَالْخَصْيِ دُرَرًا وَأَنْبَتَ الْوَزْدَ فِي الصَّحْرَاءِ لِلْعَرَبِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا غَيْرُ النَّبِيِّ بِهَا أَغْنَتْ مَكَارِمُهُ فِيهَا عَنِ الشُّحْبِ^(١)

فَكُلُّ مَعْبُودٍ قَدِيمٍ فِي الشُّعُوبِ هُوَ بِعِزْمِهِ سَاجِدًا لِلَّهِ إِكْبَارَا
وَكُلُّ غَصَنِ هَشِيمٍ مِنْ نَدَاهِ غَدَا يُجَدِّدُ الْحُسْنَ أَوْرَاقًا وَنَوَارَا

وَاهَا لَهَا جَذَبَاتٌ طَالَمَا حَفَرَتْ مِمَّا الْخُطَا وَأَثَارَتْ لِلْعَلَا هَمَمَا
قَدْ أَبَدَلْتُنَا اللَّيَالِي مِنْ سَعَادَتِهَا يَاسَا مَرِيرًا وَمِنْ أَنْوَارِهَا ظُلُمَا

كُلُّ الشُّعُوبِ أَعَدَّتْ مِنْ مَوَارِدِهَا حِصْنَ الرِّخَاءِ وَصَارَتْ لِلْمُنَى قَدَمَا
وَمَلَأَ صَحْرَانِكُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ غَنَى وَثُورَةً وَكُنُوزَ تَغْدِيقِ النُّعْمَا

كَيْفَ انْقَضَى حِفْلُكُمْ وَانْفَضَّ سَامِرُكُمْ^(٢) وَكَانَ بِالْأَمْسِ مِثْلَ الْعَقْدِ مُنْتَظَمَا

(١) شُحْبٌ ، جمع السُّحَابِ : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .

(٢) سَامِرٌ : هو مَنْ يتحدَّثُ مع زميله في الليل .

تَوَحَّدَتْ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ أُمَّتُكُمْ مَا بِأَلْهَا انْقَسَمَتْ فِي أَرْضِكُمْ أُمَّا

قَدْ خَادَعَتْكُمْ مِنَ الْمُسْتَعْمِرِينَ يَدٌ سُمُّ الْعِقَارِبِ فِي أَكْمَامِهَا اسْتَتَرَا
كَمْ أَهْدَرُوا مِنْ شُعُوبٍ آدِمِيَّتَهَا كَمْ أَيْقَظُوا فِتْنًا ، كَمْ أَفْسَدُوا فِطْرَا

تَوَارَتْ الْعَرَبُ الْأَحْرَارُ وَخَذَتْهُمْ مَدَى عَصُورٍ وَأَجْيَالٍ وَأَزْمَانٍ
حَتَّى إِذَا جَاءَ الْأَسْتِعْمَارُ قَسَمَهَا إِلَى شُعُوبٍ وَأَقْوَامٍ وَأَوْطَانٍ

اضْرِبْ خِيَامَكَ فِي دُنْيَا وَجُودِكَ لَا تَقِفْ بِهَا عِنْدَ رَسْمِ الدَّارِ وَالِدَمَنِ^(١)
وَادْفَعْ بِنَاقَتِكَ الْمِيدَانَ أَسْبَقُ مِنْ رِيحِ الصَّحَارَى وَأَنْقِذْ وَخْدَةَ الْوَطَنِ

يَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ انْظُرْ لِعَصْرِكَ فِي دُنْيَا يَفُوزُ بِهَا مَنْ أَخْكَمَ النَّظْرَا
بِالسَّلَامِ بِالْعَدْلِ تَبْنِي مَا تُؤَمِّلُهُ إِنْ شِئْتَ لِلْأَرْضِ عُمرَانًا فَكُنْ عُمرَا

نُعَادُ هُنَا نَفْسُ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ فِي صِيَاغَةٍ أُخْرَى ، يَقُولُ :

(١)

أُمَّةَ الصَّحْرَاءِ يَا شُعْبَ الْخُلُودِ مَنْ سِوَاكُمْ حَلَّ أَغْلَالَ الْوَرَى
أَيُّ دَاعٍ قَبْلَكُمْ فِي ذَا الْوُجُودِ صَاحٍ لَا كَسْرَى هُنَا لَا قِيسْرَا

(١) الدَّمَنِ ، جمع الدَّمنة : وهي آثار الدَّارِ .

من سِوَاكُمْ فِي حَدِيثٍ أَوْ قَدِيمٍ أَطْلَعَ الْقُرْآنُ صُبْحاً لِلرَّشَادِ
هَاتِفاً فِي مَسْمَعِ الْكَوْنِ الْعَظِيمِ لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ رَبّاً لِلْعِبَادِ

حَدَّثُونِي الْيَوْمَ عَنْ أَيِّ حَيَوَانَ قَدَّمَ الْحِكْمَةَ قَوْتاً لِلْفَطِنِ^(١)
يَا مَصَابِيحَ النَّأخِي^(٢) وَالتَّفَانِي أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُضْبَحْتُمْ لِمَنْ

(٢)

وَابِلٌ مِنْ فَيْضِ أُمِّي اللَّقَبِ الْكَرِيمُ الْفَزْدُ فِي كُلِّ الْكِرَامِ
أَنْبَتَ الزَّهَرَ بِصُخْرَاءِ الْعَرَبِ بَلْ سَقَى فِي الْقَفْرِ بُسْتَانَ الْوِثَامِ

يُهْدَى الْحَرْثَةُ الْعَلِيَا أَنْارَ فَهِيَ رَوْضٌ مُؤَنَّقٌ مِنْ غَزِيرِهِ
يَوْمُهَا الْحَاضِرُ فِي كُلِّ الدِّيَارِ لَمْ يُنْزَ إِلَّا بِذِكْرِ أَمْسِهِ

كُلُّ صَدْرٍ مِنْ بَقَايَا آدَمَ صَاغَ فِيهِ لِلْعُلَا قَلْباً جَدِيداً
مَنْحَ الْإِنْسَانِ مُلْكَ الْعَالَمِ بَعْدَ مَا عَلَّمَهُ النَّهْجَ الرَّشِيداً

كُلُّ رَبٍّ غَيْرَ خَلَاقِ النَّسَمِ صَارَ مِنْ عَزَمَتِهِ تَحْتَ الثَّرَى^(٣)
كُلُّ غُضَنِ كَانَ فِي يَنْسِرِ الْعَدَمِ يَنْدَاهُ اخْضَرَّ حَتَّى أَثْمَرَا

(١) فَطِنٌ : الْفَهْمُ الذَّكِي .

(٢) النَّأخِي ، مَصْدَرٌ مِنْ نَأَخَى فَلَاناً : اتَّخَذَهُ أَخاً .

(٣) الثَّرَى : الثَّرَابُ النَّدِي .

(٣)

لا تسلني الآن عَنْ ثَوْرَتِهِ إِنَّهَا مِيدَانُ بَذْرِ وَحْنَيْنِ
في أبي بكرٍ وفي صاحِبِهِ في عليٍّ ثُمَّ في صَبْرِ الحُسَيْنِ

سيفُ أيوبَ وتقوى بايزيد فيهما مفتاحُ كَنْزِ العالمين
أشكر الدنيا بجامٍ واحدٍ فحوى الدنيا وضمَّ المشرقَيْنِ

هاهنا الحكمةُ والدين القويم وهناك الحُكْمُ للدُّنيا يُقام
كلُّ قلبٍ فيه لِلْمَجْدِ الصِّمِيم ثورةٌ تعلو به فوق المَرامِ

(٤)

لا تَقُلْ أينَ ابتكارُ المسلمين وسلِ الحَمراءِ واشهدْ حُسْنَ تاج^(١)
دولةً صارَ ملوكُ العالمين نَحْوَهَا طَوْعاً يُوَدُّونَ الخَرَاجَ

دولةٌ تقرأ في آياتها مَظْهَرُ العِزَّةِ والمُلْكِ الحَصِينِ
وكنوزُ الحقِّ في طَيَّاتها دونها حارَتْ قلوبُ العارفينِ

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من المعجائب السبعة في العالم .

(٥)

أرسل الشُّكْرَ إلى غير انتهاء لِنَبِيِّ اللَّهِ قُدْسِي الْجَنَابِ^(١)
أشعل الإيمان ناراً بالعراء أوقد الثُّور بكفٍّ من تُراب

وجباهُ الله مِنْ عَلَيَّائِهِ عَزَمَةٌ فَلَّ بِهَا سَيْفَ الْغَيْرِ
راكِبُ النَّاقَةِ فِي صُخْرَائِهِ سَارَ فِيهَا رَاكِباً خَيْلَ الْقَدَرِ

كَبَرُوا اللَّهَ فِي ظِلِّ الْحُرُوبِ وصفوفاً تَحْتَ ظِلِّ الْمَسْجِدِ
ضَجَّةٌ دَانَتْ لَهُمْ فِيهَا الشُّعُوبُ وارتَقَوْا فِيهَا مَكَانَ الْفَرْقَدِ^(٢)

(٦)

وَيَ كَانَ لَمْ تُشْرِقُوا فِي الْكَائِنَاتِ يَهْدِي الْإِيمَانَ وَالنَّهْجَ الرَّشِيدَ
وَنَسِيتُمْ فِي ظِلَامِ الْحَادِثَاتِ قِيَمَةَ الصُّحْرَاءِ فِي الْعَيْشِ الرَّغِيدِ^(٣)

كُلُّ شَعْبٍ قَامَ بَيْنِي نَهْضَةً وَأَرَى بَيْنَانَكُمْ مُنْقَسِمًا
فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كُنْتُمْ أُمَّةً لَهْفَ نَفْسِي كَيْفَ صِرْتُمْ أُمَّةً

(١) الْجَنَابُ : النَّاحِيَةُ .

(٢) الْفَرْقَدُ : نَجْمٌ قَرِيبٌ مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ثَابِتُ الْمَوْقِعِ تَقْرِيباً وَلِهَذَا يُهْتَدَى بِهِ . وَهُوَ الْمُسَمَّى بِـ « النَّجْمِ الْقُطْبِيِّ » .

(٣) الرَّغِيدُ : الْعَيْشُ الطَّيِّبُ الْوَاسِعُ .

كُلُّ مَنْ أَهْمَلَ ذَاتَيْتَهُ فهو أولى النَّاسِ طُرّاً بِالْعَنَاءِ
لَنْ يَرَى فِي الدَّفْرِ قَوْمِيته كَلُّ مَنْ قَلَّدَ عَيْشَ الْغُرْبَاءِ

فَكُورُوا فِي عَضْرِكُمْ وَاسْتَيْقُوا طَالَمَا كُنْتُمْ جَمَالاً لِلْعَضْرِ
وَامْلُؤُوا الصَّحْرَاءَ عِزْماً وَاخْلُقُوا مَرَّةً أُخْرَى بِهَا رُوحَ عُمَرِ

والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق^(١)

يندّد إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ، وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ، ولكن التطوّر السريع والثورات المتوالية في الشرق والغرب ، غيّرت الكثير من الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمة العربيّة - بعد أن وجّه إليها خطابه - :

تَسِرُّ الخلائقُ في الأرض طُرّاً وقد سامها الغَرْبُ عَسْفاً وَجُوراً^(٢)
فيا أُمَّمَ الشَّرْقِ فِيمَ التَّوَانِي لقد آنَ أَنْ يُضَيِّحَ الشَّرْقُ حُرّاً

أكادُ أرى ثورةً في التُّفُوس تشدُّ الحياةَ إلى المَجْدِ جَرّاً
مضى الليلُ وانجَبَ عَهْدُ الظُّلَامِ وبَغْدَ الدُّجَى يَعْقُبُ الليلَ فَجْراً

وما بَرِحَ الغَرْبُ يَخْتالُ يَنْهَـا^(٣) وَيَخْتَرِفُ الكَيْدَ لِلْعَالَمِينَ
لينشُرَ في الكونِ إلْحادَهُ وَيُنْشِئُ دُنْيا على غَيْرِ دِينِ

وَيَسْتَبْطِنُ الذُّئْبُ في جِلْدِ شاةٍ بأنيابِهِ العُضْلَ^(٤) خَلَفَ الكَمِينَ

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوان لهذا الكتاب .

(٢) جُوراً : ظلماً .

(٣) يَنْهَـا : ضلّالاً .

(٤) العُضْلُ : المعوجة .

أرى مشكلات بني آدم يزِيدُ بهم شرُّها كلَّ حين

فَمَا قَدَّرُ إِنْسَانَ هَذَا الْوُجُودِ لَدَيْهِمْ سِوَى هَيْكَلٍ مِنْ تُرَابٍ
تَشْكَلُ فِي الْخَلْقِ مَاءٌ وَطِيناً وَبِنَائِهِ صَائِرٌ لِلْخَرَابِ

وَقَافِلَةُ الْكَوْنِ ضَلَّتْ خُطَاهَا بِحِكْمَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ
لَأَطْمَاعِهِمْ كُلُّ شَرٍّ مُبَاحٍ وَمَا لِلضَّمِيرِ عَلَيْهِمْ حِسَابُ

وَلِلْحَقِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ دَلِيلٌ وَمِنْ نُورِهِ كُلُّ مَا تُبْصِرُونَ
وَفِي كُلِّ مَعْنَى لَهُ حِكْمَةٌ يَفُوزُ بِأَسْرَارِهَا الْعَارِفُونَ

إِذَا شَهِدُوا آيَةَ اللَّهِ عَاشُوا أَبَاةً عَلَى الضَّيِّمِ^(١) لَا يَزْهَبُونَ
لَقَدْ نَظَرُوا فَاسْتَبَانُوا الْهُدَى بِإِدْرَاكِهِمْ أَفْلا يَنْظُرُونَ

وَلِلْمُؤْمِنِ الْحَرِّ مِنْ رَبِّهِ هُدًى فِي الْحَيَاةِ وَنُورٌ مَبِينٌ
وَفِي قَلْبِهِ لَوْعَةٌ^(٢) وَاشْتِيَاقٌ وَعَظْفٌ عَلَى مِخْنَةِ الْآخِرِينَ

(١) الضَّيِّمُ : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضَيُّوم . قال المثقَّب العبدِي :
ونحني على الثغر المخوفِ ونَتَّقِي بفارتنا كبدَ العِدَا وضُيُومَهَا
(٢) لَوْعَةٌ : حرقه في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إذا العِلْمُ حُلَّ بِقَلْبِ الْفَتَى أحلَّ به خَشْبَةُ الْمُتَّقِينَ
ويزدادُ خَوْفاً مِنْ اللَّهِ حَتَّى يردُّ الأمانَ إلى الخائِفينَ

هو العلمُ لنا فيه كيمياءُ إلى قدرةِ الله يَهْدِي البَصَرُ
فيا أسفا لَيْسَ لِلْغَرْبِ مِنْهُ سوى حيرةٍ في دِياجِي الْفِكْرِ

فَلَمْ يُجِبْهُ الْعِلْمُ عَقْلاً سَوِيّاً يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ
فلا ينبع الطلُّ مِنْ جَفْنِهِ وفي صدره قطعةٌ مِنْ حَجَرٍ

فبالعلمِ كانَ رقيُّ الحياةِ تضيءُ القرونُ به والعصرُ
فَحَسُولُهُ الْغَرْبُ سِيفاً رَهيباً لِمَخَوِ الْبُؤَادِي وَقَتْلِ الْحَضَرِ

تصيرُ الملائكُ لو جَاوَزَتْهُمْ معاولٌ^(١) هَدمَ لِمَخَوِ الْبَشَرِ
ولو كانتِ الأرضُ جَنَّةَ عَذْنٍ لِسُكَّانِهَا جَعَلَوْهَا سَقَرِ

غدا مظهرُ العلمِ في عَصْرِهِمْ بكلِّ الشُّعوبِ خِداً عِلاً وَسِخْراً
معاذَ الحَقِيقَةِ ، ما ذاكُ سِخْرٍ لقد بدَّلوا نعمةَ اللَّهِ كُفْراً

لَهُمْ فِتْنٌ تَجْعَلُ الْوَرْدَ شَوْكاً وتُوقِدُ في رَوْضَةِ الْأَمَنِ جَمْراً

(١) المَعَاوِلُ جمع المِغْوَلِ : آلة من الحديد يُنْقَرُ بها الصخر ، ويُهدَمُ بها البيوت .

خُذِ السَّيْفَ مِنْ عُصْبَةِ الْمُعْتَدِينَ إِذَا كُنْتَ تَتَشَدَّدُ لِلْحَقِّ نَصْرًا

لَقَدْ آَنَّ لِلرُّوحِ أَنْ تَسْتَفِيقَ وَلِلشَّرْقِ أَنْ يَسْتَبِينَ الدَّلِيلَا
لِيَجْعَلَ أَنْفَاشَ هَذَا الْبِنَاءِ عَلَى الظَّالِمِينَ كَثِيبًا مَهِيلَا

إِذَا الْعَقْلُ أَذْعَنَ لِلْقَلْبِ حَكْمًا رَأَى طَاعَةَ اللَّهِ أَهْدَى سَبِيلَا
وَأِنْ لَمْ يُجِبْ دَاعِيَ الْقَلْبِ أَضْحَى كَابِلَيْسَ مَكْرًا وَشَرًّا وَبَيْلَا^(١)

يَرَى الْغَرْبَ يَسْتَغْلُ الْبَرَايَا^(٢) كَمَا يَشْتَهِي دُونَ قَبْلِ وَقَالَ
يَرَى الْآدَمِيَّ مِثْلَ الْقَطِيعِ فَهُمْ لَقَمِ الذَّنْبِ رِزْقٌ حَلَالٌ

لَقَدْ حَانَ تَغْيِيرُ دُنْيَا بِهَا نَرَى الْعَدْلَ أَمْرًا بَعِيدَ الْمَنَالِ
وَسُرَّاقِ أَكْفَانِ مَوْتَى الْقُبُورِ عَلَى يَدِهِمِ أَيُّ خَيْرٍ يُنَالِ

صَوَارِي السَّبَاعِ التَّقَتْ فِي جَنيفِ^(٣) لَطَمَسِ الْهُدَى وَالتَّهَامِ الْعِبَادِ
فَدِ اقْتَسَمُوا كُرَّةَ الْأَرْضِ نَهْبًا^(٤) وَهُمْ نَحْوَ تَقْسِيمِهَا فِي اتِّحَادِ

(١) وَيَلًا : شَدِيدًا .

(٢) بَرَايَا : جَمْعُ الْبَرِيَّةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ .

(٣) جَنيف (Geneva) : مَدِينَةُ فِي سُوِيْسَرَا .

(٤) نَهْبًا : غَصَبًا .

يقولون هذي بلادِي لَكُمْ ونحنُ لنا كُلُّ تلك البلاد
هنا ثورَةٌ وهنا فتنةٌ بهم نارُها أبدأ في ازدياد

لَكَ الأرضُ أم هذه أرضُه وأيُّكم في حِمَاها نزيل
بنفسك كن واثقاً مؤمناً وعِشْ كافرأ بالعدوِّ الدَّخِيل

فَمِنْكَ إِلَيْكَ العُلا والهَوَان وَمَجْدُكَ فِي الشَّرْقِ عَالٍ أَصِيل
كرامةٌ أَجِيالُه فِي يَدِيكَ فَأَنْتَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ الدَّلِيل

على قوة الحقِّ تحيا الشعوب وتجتازُ فِي المَجْدِ حَدَّ المَجَال
فلا شعبٌ يقوى بلا وَخْدَةٍ تَضُمُّ الصُّفوفَ لَنِيلِ المَعَالِي

ومهما سَمَا الرَّأْيُ إِنْ لَمْ يَقُمْ على قوةٍ فَهُوَ زَيْفُ الحَيَالِ
وفي قوةٍ دُونَ رَأْيٍ جُنْسُونَ وَجَهْلٌ وَطَيْشٌ وَعُقْبَى وَبَالٌ

بنا لَيْسَ العِشْقُ ثَوْبَ الدَّلَالِ وفاضَ على الكونِ طيباً وَحُسْنًا
وفطرةُ آدمَ فِي كُلِّ حَيٍّ رَوَتْهَا الخلائقُ فِي الدَّفْرِ عَنَّا

تَعَلَّمَتِ الأُمَمُ النَّاهِضَاتُ مَنْ الشَّرْقِ دِيناً وَعِلْماً وَفَنًّا
رفعنا الحِجَابَ عَنِ الكائناتِ فَتَخُنْ مِنَ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ مِنَّا

إِذَا لَاحَ فِي صَدَفٍ جَوْهَرُ فَذَلِكَ مِنْ قَطْرِ نَيْسَانَا
وَإِنَّ هَذَرَ الْمَوْجِ فِي بَحْرِهِ فَذَلِكَ مِنْ قَيْضِ طُوفَانَا

حَرَارَةُ شَذُو الْهَزَارِ الطُّرُوبِ عَلَى غُضْنِهِ بَعْضُ نَيْرَانِنَا
سَقَيْنَا دَمَ آدَمَ قَلْبَ السُّورُودِ فَأَهْدَى رَسُولَهُ إِيْمَانِنَا

فَتَى الشَّرْقِ أَنْتَ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ فَأُظْهِرْ يَدَ الْعَزَمِ لِلنَّاسِ جَهْرًا
لِتَخْرُجَ بِيضَاءَ مَنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَتُبْطِلَ مَنْ فِتْنَةِ الْغَرْبِ سِخْرًا

عِلَامَ اِزْتَبَطْتَ بِرُؤُوسِهِ وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ عَلَى الْقَيْدِ صَبْرًا
فَوَحِّدْ بِلَادَكَ صَوْبَ الْعُلَا بِإِيْمَانِهَا تَلَقَّ عِزًّا وَنَصْرًا

لَقَدْ نَشَرَ الْغَرْبُ أَسْوَاقَهُ وَمَنْ حَوْلِهِ الْجُنْدُ أَقْوَى سِيَّاحِ
وَسِلَعَتُهُ شَرَكٌ لِلشُّرَاءِ وَمَتَجَرُّهُ ظِلُّ عَرْشٍ وَتَاجِ

لَهُ فِي التَّجَارَةِ رِبْحٌ وَنَفْعٌ وَبِالْحُكْمِ يَأْتِيهِ كَنْزُ الْخَرَّاجِ
وَيَلْقَاكَ بِالكَلِمَاتِ الْعِذَابِ وَفِي قَلْبِهِ الْحِفْدُ خَلْفَ الرُّتَاجِ

فَكُنْ فِي مِتَاجِرِهِ زَاهِدًا فَفِيهَا الْحَسَارَةُ وَالْمَغْرَمُ
نَسِجُ بِلَادِكَ أَقْسَى خِيوطًا وَقُطْنُكَ مِنْ خَزٍّ^(١) أَنْعَمُ

(١) خَزٌّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهاز المنايا بدولابه يدور وأنت به أعلم
يميتك بالغش من غير حرب وأنت له الرُّنح والمغنم

إذا جاء يَغْرِضُ نَقْشَ البِساطِ فدغهُ وعش راضياً بالحصير
وإن وصلتك به رُفْعَةٌ فلا تُعطه يثدقاً^(١) بالوزير

جواهره بهرج^(٢) زائف لجمع النقود ويبيع الضمير
ونافجة^(٣) المسك في سوقه من الكلب لا من غزال غريب

تنبه لهذا الدخيل الذي تفر الثعالب من مكبره
ولا تتعمم بمنسوجه ولا تغمض العين عن غديره

وإما مرزت على حانه تعود برئك من شره
فمن ذاق خمرته لم يعد إلى داره بل إلى قبره

باصباغه وبألوانه تفل البصيرة قبل البصر
يسلغته قد غدونا سكارى وصاحبها بالغنى قد سكر

(١) اليبْدَق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .

(٢) البهْرَجُ : الباطل .

(٣) النافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِنْ جَهْدِ كَسْبِكَ مَا يَجْتَنِيهِ وَمَا يَقْتَنِيهِ وَمَا يَدَّخِرُ
وَمِنْكَ الْغِذَاءُ مَعَاً وَالْكِسَاءُ لَهُ فِي نَعِيمٍ وَعَيْشٍ نَفِيزُ

وَأَنَّ ذَوِي الْفَضْلِ فِي كُلِّ شَعْبٍ عَلَى مَجْدِ أُمَّتِهِمْ سَاهِرُونَ
فَهُمْ بِسَوَاعِدِهِمْ يَعْمَلُونَ وَهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ يَزْرَعُونَ

وَمَنْ أَرْضَهُمْ كُلُّ مَا يُتَجُونَ وَمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَلْبَسُونَ
فِيَا مَنْ غَدَا مُنْكَرًا ذَاتَهُ إِلَى آيْنٍ يَمْضِي بِكَ الْمَاكِرُونَ

وَكَمْ بَغَتْ مَخْضُولَ زَرْعٍ لَهُ رَخِيصاً وَأَنْتَ غَدَا مُشْتَرِيهِ
يَعُودُ بِأَضْعَافٍ مَا نَلْتَهُ بِرَبْحٍ سَخِيٍّ لِمُسْتَوْرِدِهِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَشَقَّ مِنْ أَجَلِهِ وَلَا كُنْتَ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَارِعِيهِ
أَفِي الْبَحْرِ لَوْلَوْهُ كَامَنْ وَمَنْ يَدُ غَوَاصِهِ يَشْتَرِيهِ

شكوى ومُنَاجَاة

كان محمد إقبال كثير الاعتداد بالإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلفنا في أحشائه ، وملكتنا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غُلتَه من معين غريب يقول : « رفقا يا رسول الله بفقير غيور أبي النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال^(١) (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيمتها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتور بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوف الموت ، إنك حطمت الأصنام القديمة كاللات ومناة ، وجددت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقتته إيَّاه الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيا برديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا - وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية - رفضنا أن نعبد الشور والبقر ، وأبينا أن نطأ طيء رؤوسنا أمام الكهّان والسّدنة ، فلم نخزَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطْفُ حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على الثُفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثُك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرْتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلامي قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضماؤهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رفاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطبقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النُّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبير كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الضُّقور التي تحلق في السماء عصافيرَ صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا في المتنام والطعام ، إنه حَكَم الغرب في

نفسه لينلقى منه رغيماً ، وقبل مئة مئة إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطّم
الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من
الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بحثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرّةً
ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن
يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمّتك وأصحابك ، أن يَكُلُّوا عروش
كسرى وقبصر ، والعالم ينتظر من جديدٍ ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ،
ويكسر طلاسّم هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسى فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف بي لحظةً أبث
إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لسانى وخاننى البيان ، إنَّنى فى صراعٍ بين
سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لى : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من
الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إِيَّاكَ والفضول ، فافتح العينين وأطبق
الشفتين ، ولكنَّ الشَّوْقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إننى أطلب منك نظرة
التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذى زَهَدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه
الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت فى أحضانك ، إنَّ صوتى قد
اختنق فى حلقومى ، وإنَّ اللهب عاد لا يتجاوز صدرى ، وإن أنفاسى قد تجرّدت
من لوعة القلب ولهب الصدور ، وإننى فقدت اللذة التى كنت أجدها فى قرآن
الفجر .

إنَّ الزفير الذى لا يسهه الضمير كيف يستقر فى الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه
يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التى لا حدود لها ، يا لها من
عللٍ يعانىها جسدى وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليّ من طرف خفى ، إن
هذه الأدوية التى يصفها الأطباء لا تناسب روحي العلية ، فإن شامتي اللطيفة
لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء
الأطفال ، إذا جرّعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالבوصירي أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليّ ذلك اليوم الذي فقدته ، إنّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالآثم الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنّ عليّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنّ قيمة الجسم بالروح ، وإنّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أخذ ، وقوى أشد ، حتى أتم مهمتي ، وأحقّق رغبتني ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهي فضعتني على المسنّ ، فإنني حديدٌ من معدنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافرِ جوادك الأصيل ، إنّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، إنما يتسلّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديّ لوعة العرب ، اسمح للهنديّ أن يمثّل بين يديك ، ويتحدّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاءه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعمود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطّاب في الصحراء مرّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبَ السَّير ، فمضى وخلفه ، وبقي الحطّاب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة^(١) ؟ .

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يا رأسَ مالِ البائسينَ ويا منارَ الحائرينَ
ادعُ الإلهَ يَهَبْ لأمَّتِكَ : الشَّجَاعَةَ واليَقينَ

ويعيذُهم من شرِّ خوفِ الموتِ من قَبْلِ المَمَاتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهم على قيدِ الحياةِ

يا مَنْ هَدَمْتَ اللَّاتَ والعُزَّى وحَزَّرتَ الحَرَمَ
وبنيتَ أعلى أمةٍ تهدي بِسِيرَتِها الأُمَمَ

ذكرُ الإلهِ وَيَقْظَةُ الوجدانِ في إنسٍ وجانِ
من فيضِ وحيِّكَ يا صلاةَ الصُّبْحِ يا صَوْتَ الأَذانِ

فحرارةُ الإيمانِ في القلبِ المَشْوقِ إلى النُّضالِ
وسراجُ ليلِ الفِكْرِ (لا معبودَ إلا ذو الجلالِ)

لَمْ نَتَّخِذْ في الكونِ ربّاً من رُخَامٍ أو حَجَرٍ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

كلا ولم تَسْجُدْ لنجمٍ أو نباتٍ أو بقر

لم نلقِ جبهتنا لدى الكُهَّانِ في ذُلٍّ حقير
لم نحنِ هامتنا لسلطانٍ قويٍّ أو أمير

من فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفضلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرحِ المَجدِ في توحيدِ ربِّ العالمين

ذكراك وردُّ سائغٍ يحلو به العيشُ المرير
وبِغَيِّرةِ الإيمانِ صارَ الدِّينُ كنزاً للفقير

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريقِ السَّالِكين
يا مَنْ إلى أنوارِهِ تَهْفُو قلوبُ العاشقين

فَيَنثَارَتِي^(١) ثَقُلْتُ وأَغْيَاها التَّجَاوُبُ والزَّين
أوتارها لا تستجيبُ إذا عَزَفْتُ ولا تبين

فإذا نصحتُ فإِنَّنِي ناديتُ مَنْ لا يسمعون
وإذا نهيتُ فإِنَّمَا أَسْمَعْتُ مَنْ لا يَسْتَهْون

(١) القيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طَوَّفْتُ فِي أَرْضِ الْأَعَاجِمِ ثُمَّ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ
لَمْ أَلْقَ فِيهَا الْمَصْطَفَى وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَبَا لَهَبٍ

عَجَبِي لِهَذَا الْمُسْلِمِ الْمَزْهُوِّ بِالْعَصْرِ الْمُنِيرِ
لَا هِمَّةٌ تَحْدُو خُطَاهُ وَلَا سِرَاجٌ فِي الضُّمِيرِ

وَأَرَى شَبَاباً وَاهِنَ الْعِزْمَاتِ فِي لَيْنِ الْحَرِيرِ
وُلِدَتْ أَمَانِيهِ فَكَانَ الْمَهْدُ مَصْرَعَهَا الْأَخِيرِ

ذَاكَ الْغُلَامُ بِنُ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ
فِي شَرْعِهِ تَحْرِيرُ أُمَّتِهِ مُحَالٌ أَوْ حَرَامٌ

الذِّبْنَ لَيْسَ لَهُ بِذُنْيَاهُ زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ
كُلُّ الَّذِي أَذْرِيهِ عَنْهُ أَنَّهُ بِالْأَمْسِ كَانَ

عَنْ ذَاتِهِ أَضْحَى غَرِيباً مُسْتَهَاماً بِالذَّخِيلِ
بِذُلِّ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ ثَمناً لِمَطْعَمِهِ الذَّلِيلِ

كَالطَّيْرِ غَايَتُهُ التَّقَاطُ الْحَبُّ فِي ظِلِّ الْقُصُورِ
هُوَ طَائِرٌ لَكِنَّهُ لَمْ يَذَرْ تَحْلِيْقَ الثُّسُورِ

قَدْ ذَابَ فِي نَارِ الْفَرْنَجِ فَمَا لَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ^(١)
وَأَتَتْهُ نَارُ جَهَنَّمَ لَكِنَ بِأَسْلُوبٍ جَدِيدٍ

هُوَ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ مِنْ جَنَّةِ الشُّهَدَاءِ هَارِبٌ
لِيَسْتَقَرَّ بِقَلْبِهِ أَنْ (لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ غَالِبٌ)

ذَاكَ الَّذِي فَقَدَ الْيَقِينَ وَقَلْبُهُ فَقَدَ الْحَيَاةَ
وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَنَامُهُ أَغْلَى مِنْهُ

وَتَرَاهُ بِالْمِنَنِ الثَّقَالِ مَقِيداً وَمُكَبَّلاً
مِمَّنْ يَقُولُ : (نَعَمْ) وَمِمَّنْ لَا يُجِيبُ بِغَيْرِ (لَا)

فَلْيَبْضُغْ مِنْ غَفْلَاتِهِ لِيَعُودَ حَيّاً قَلْبُهُ
وَيَعِيشَ فِي أَوْجِ الْكَرَامَةِ هَاتِفاً (اللَّهُ هُوَ)

مَدِينَةُ الْإِفْرَنْجِ مَاضِيَةٌ بَنَّا نَحْوَ الزُّوَالِ
قَتَلْتُ مُوَاهِبَنَا بِلَا حَرْبٍ تَدَوَّرُ وَلَا قِتَالِ

فَاكْشِفْ لِقَوْمِكَ عَنْ كَرِيمِ النَّفْسِ مُتَّقَدَ الْحَيَاةِ
ثِمْلٌ يَحِبُّ اللَّهَ لَا يَرْجُو وَلَا يَخْشَى سِوَاهُ

(١) فَمَالَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ ، أَي : مَالَهُ مِنْهَا مَفْرُ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ مُسْلِمٌ فِي ذَاتِهِ شَرَفَ الْمَكَانَةِ
أَخْلَقَ بِهِ فِي الدَّهْرِ أَنْ يَخْتَارَ فِي الدُّنْيَا مَكَانَةً

أَيُّهَا الْفَارِسُ الْمِغْوَارُ أَهْلُ فِي الْمَسِيرِ
وَاحْبِسْ عِنَانَكَ لِمِحَّةٍ تَسْتَقْبِلُ الْقَمَرَ الْمُنِيرَ

أَمْلِي عَلَى شَفَتَيْ مُخْتَبِسٍ عَنِ النَّطْقِ اخْتَجَبَ
وَالشُّوقُ يَفْتَحُمُ الْمَقَامَ فَلَيْسَ بِحُكْمِهِ الْأَدَبُ

هَذَا يَقُولُ أَبْنُ عَنِ الشُّكْوَى وَلَا تَكْتُمُ أَسَاكَ
وَيَقُولُ ذَاكَ انْظُرْ وَلَا تَهْمَسْ بِحَرْفٍ عَنْ جَوَاكَ

أَنْتَ الْهَدَايَةُ وَالذَّلِيلُ وَأَنْتَ عِزْفَانِي وَفِكْرِي
وَسَفِينَتِي فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَطُوفَانِي وَبَحْرِي

زَادَتْ بِي الْأَنْثَا وَالْعَبْرَاتُ حَتَّى عَيْلِ صَبْرِي
فَالِي مَتَى هَذَا اللَّهَيْبُ يَظَلُّ مَطْوِيًّا بِصَدْرِي

فَلَمْ يَبْقَ لِلْأَرْوَاحِ فِي شَوْقِ الْعِبَادَةِ مِنْ أَنْزَرٍ
لَمْ يَبْقَ لُطْفُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ

قَدْ كُنْتُ يَا شَمْسَ الْخَلِيقَةِ مَنْقُذًا فِي النَّائِبَاتِ

وأبرّر بالعاصين رفقا من قلوب الأمهات

في حَرْبِ عِبَادِ الظَّلَامِ أَصَارُغُ الدَّاءِ الْعِيَاءِ
فَامْنَحْ سِرَاجِي مِنْكَ زَيْتاً قَبْلَ مَا يَخْبُو الضُّيَاءُ

كُلُّ الْخِمَائِلِ^(١) فِي رِيَاضِ الْكَوْنِ أَنْتَ رَبُّهَا
مِنْكَ الْفَوَاضِلُ كُلُّهَا وَالْمَكْرُمَاتُ جَمِيعُهَا

الْجِسْمُ فِي بُنْيَانِهِ بِالرُّوحِ يَكْتَسِبُ الْحَيَاةَ
لَكِنْ حَيَاةَ الرُّوحِ فِي قُرْبِ الْحَبِيبِ وَفِي رِضَا

انْظُرْ إِلَيَّ فَأَنْتَ بِالْجَدْوَى وَبِالْإِحْسَانِ أَوْفَى
إِنْ لَمْ أَكُنْ يَهْدَاكِ مِفْتَاحاً ، أَكُنْ بِحِمَاكِ سِيفاً

لِي مُحَنَّةٌ مِنْ دُونِهَا قَطَعُ الصُّخُورِ مِنَ الْجِبَالِ
فَاجْعَلْ لِفَاسِي مِنْكَ حَدّاً مَاضِياً عِنْدَ النُّضَالِ

إِنْ كَانَ عُمْرِي قَدْ بَدَأَ خِلَواً مِنَ الْمَخْصُولِ جَدْبَا
مَا زِلْتُ أَمْلِكُ مَضْغَةً^(٢) يَدْعُونَهَا فِي الْحُبِّ قَلْبَا

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلَة : كل موضع كثرة فيه الشجر .

(٢) الْمُضْغَةُ : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أَخْفِيَتْهُ لِأَكُونَ فَرْدًا فِي هَوَاكَ وَفِي رِضَاكَ
وَعَلَيْهِ خَاتَمُ حُبِّكَ الْغَالِي فَلَيْسَ بِهِ سِوَاكَ

إِنَّ الَّذِي لَا يَبْتَغِي مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعًا
إِنْ لَمْ يَنْلُ قُرْبَ الْحَبِيبِ تَكُونُ دُنْيَاهُ ضَيَاعًا

كَمْذَا يُعَانِي الْقَلْبُ مِنْ نَارِ اللَّوَاعِجِ وَالشُّجُونِ^(١)
وَيَتَّيْنُ مِثْلَ النَّايِ بِالشَّكْوَى لِمَنْ لَا يَعْلَمُونَ

قَدْ خَلَفْتُهُ عَلَى رُبَى الصَّخَرَاءِ قَافِلَةً الرِّفَاقِ
كَهَشِيمٍ غُضِنٍ يَضْطَلِي بِالْجَمْرِ فِي نِصْفِ اخْتِرَاقِ

يَزْنُو إِلَى الْبَيْدَاءِ وَالْمُدُنِ الرَّحِيَّةِ وَالْفَضَاءِ
فَعَسَى تَمَرُّ قَوَافِلٍ أُخْرَى تُعِيدُ لَهُ الرِّجَاءَ

يَا مَنْ خَلَعْتَ عَلَى صَلاَحِ الدِّينِ حُلَّةَ خَالِدٍ
فَمَضَى بِعِزٍّ دَائِمٍ يَبْقَى وَمَجْدٍ خَالِدٍ

(١) الشُّجُونُ : الهموم والأحزان .

الدِّيَّانُ التَّاسِعُ

هَدِيَّةُ الْحِجَازِ
أرمغان حجاز

نَقْلُهُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور حسين مجيب المصري

نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسيّ والأردويّ معاً ، وهو يتألّف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصوّر جلسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإيليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسيّة والعصرية التي تهدّد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعِدَ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخّص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسيّة .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهي هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض
بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دله الشوق والتوق ، فيقول معبراً عن
وجدته وكمده :

هياجٌ ماجٌ في ماء وطبن بلاءُ العشق من قلبٍ حزين
قَراري برهةً حقاً حرام فرققاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في
عشق الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم
يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ
بالمعنى الأصحَّ الأدقَّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من
المادية بصفائها :

لي الدارين إني لا أريد وحسبي فهم ما روحٌ تفيض
فهني سجدتي فيها احتراقي ومنها الكون في وجدٍ يميز

غير أن إقبالاً حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة
لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلع نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ،
فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجّع ويتوجّع للمخلوق وقد
تردّوا في ضلالهم وتحيروا في طريقهم ، وعزَّ عليه ألا يذكرهم وهو في مناجاة
ربه ، فجأراً بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب
نفسه داعية حقٍّ يبينه لهم ليضع أمرهم في نصابه :

على قومٍ إلهي فلنُعْثي كَراعي الضأن عالمهم بفنٍّ
رأت عياني ما يقْذِي عيوناً ألا يا ليت أُمي لم تلِدني

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعايهم في رأيه ، كان على ذكر من
الإنسانية ، ولم يفتَهُ أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقلي والروحي وهو يقول :

إلهي زُنْ لنا خيراً وشرّاً هب الدنيا نعيماً مستمرا
وشاهدنا خلقنا من تراب لنجعل عالم الغبراء نظرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائن من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضح التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مساءً مثل صبحٍ قد تبسّم تمطّى صبحُها والليلُ أظلم
تمهّل إن خطوت على رمالٍ كقلبي كلها قلبٌ تألم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساء أن يكون للمسلم قلبٌ أفقر من حبيب ، وهو يلتمح بذلك إلى أن صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلام إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غيّد أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداء والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربأ بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منظوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صَدَّرَه بقوله « صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى » وتندرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد ليبصِّرَها بمبادئه المثالية ونزعته الإنسانية ، ويذلل النصيح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفرادهِ ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبشما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل ويتنزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبر مقتاً عنده تعالى :

ولاءُ الأمرِ من ربِّي لشعبٍ زماماً يملكون لكلِّ أمرٍ
ولكن لا يحب الله شعباً به الفلاح يزرعُ كي يلبِّي

ويخصُّ الذاتية بالذكر لأنَّه من يجلُّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تنفي في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة . وها هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لذاتك لا إله فضم مرءٍ لتُخرج من ترابٍ مات نظره
ولا تقبض يمينك عن وجودٍ له القمران في وهق بجره

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملا » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السليبين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في تأكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلف اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ آخذ بالمظهر لا يتجاوزهُ إلى الجوهر ، أما الصوفي في عزلته وسليبيته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من وراء :

لُمُلاً أو لصوفيٍّ أسير ! وفي القرآن للعيش الكثير
من الآيات ما أدركت شيئاً ومن ياسين بُغْيَتِكَ الحفير !

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة نفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتِها وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه لبقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتبس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلَّى دعوته إلى التأدُّب بآداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيهِ حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أمأً صالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقرأ حتى رق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحرَّياتِه وأدَّ الطغساء

كما أنه يقدح في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم
لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلدوا ، وتلك منه
دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد
من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض
المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهمي لا يكل عن العمل
الدائب ساعده القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة
عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى
الغايات ويتفوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو
يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن
العلم مقطوع الصلة بالعشق ، ثائر متمرّد كالشيطان . أما إذا زاوجه العشق فهو
إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم
بفضل منه نعمة للبشر .

القسم الأول
(بالفارسيّة)

أَلَا يَا حَبَّذَا تِلْكَ الطَّرِيقُ تَطُولُ وَلَا يُوَآنِسُهَا الرِّفِيقُ
لَهَا الزَّفَرَاتُ، فَافْتَحْ مِنْكَ قَلْبًا لَتَحْرِقَ فِيهِ حَزْنًا لَا تَطِيقُ

القسم الأول^(١)

(المترجم من الفارسية)

مَنَاجَاةٌ

(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية
شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .

في الحضرة الإلهية

لقد سلبوا لنا قلباً ومزوا وكانوا شعلَةً خمدت ومزوا
عوام القوم عايشهم رويداً فإن خواصهم ثملوا ومزوا

أطالوا القولَ شكاً في وجودي وقد أقصرتُ عن قولٍ سديد^(١)
لحي القلب هل تدري سجوداً عليّ احكم بهذا من سجودي

فؤادي كان قيدَ الكيفِ والكم يرى لكن وراءَ البدرِ إن تم
خلاء به حتى في سكير بخلوته كفوراً فهو يهتم
هياجٌ ماج في ماء وطين بلاء العشق من قلب حزين
قراري برهة حقاً حرام فرفقاً ، شأن قلبي من شؤوني

أجنبني من عن الدنيا تخلى لها حسن ، لمن حُسن تجلّى^(٢)
تقولُ احذر من الشيطان لكن أتعرف موجدَ الشيطان أم لا ؟

ولسي قلبٌ طليقٌ في عذاب نصيبي من عتابٍ أو خطاب

(١) أقصر عن القول : سكت عنه .

(٢) نخلي عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليسَ أنا ما سؤت قلباً خطيئة كل حين من صواب
صنبت الكأسَ عنا أم عمرو وكان الكأسُ مجراها اليميناً^(١)
إذا ما كانَ هذا دابَ عشق بكأسك فاضرب البيت المصوناً^(٢)

أسيرُ هوى ، على النفس انطواءً به ألمٌ وما يجدي دواءُ
عجيبٌ أنْ تُكَلِّفني سُجُوداً خراجُ الأرضِ والأرضُ الخلاء ؟!

بلا أمدٍ تراخى بي طريق نثرُ الحبِّ ، أين لي الوريق^(٣)
من الآلام لا أخشى ولكن بهذا القلبِ هبّ ألماً يليق
سريع السكر لا تُرشف شرابي وأبعد عن غريرٍ في ارتياب^(٤)
عن القصباء يحسن بُعد نارٍ خواصَّ القوم وحدهم فحاب^(٥)

أنت لقيت في طلب لغوباً وما أصليت في شوقٍ لهيباً^(٦)

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصنبت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمّنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمعات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الداب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمرو بن الفارض خمرة مشهورة مظلماً :

شرينا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وَأَنْسَى هَارِبٍ مِنْ لَا مَكَانِي فَتَوَحُّ الْوَهْنِ لَمْ يُشْجِ الْقُلُوبَا^(١)

أَنْزَ دُنْيَاكَ خَذْ مِنْي الْمَثِيرَا بِهَا التَّغْيِيرَ فَاجْعَلْهُ الْكَبِيرَا
لَكَ الْإِنْسَانُ فَاخْلُقْ مِنْ ثَرَاهَا أَيْزُ مَنْ كَانَ لِلْمَالِ الْأَسِيرَا^(٢)

بَنُورِ الشَّمْسِ دُنْيَانَا ظَلَام وَلَيْسَ الْحَقُّ مَا أَدَى كَلَام
إِلَى كَمْ ، إِنَّ دُنْيَانَا خَرَاب سَيَكْسُوها دِمَاءُهُمُ الْأَنَام^(٣)

(١) الوهن : منتصف الليل . ويردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يبعثنا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي ، وقد تابعه على ذلك القارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين . والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حد اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء متمكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشيئان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمتنع من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما ينتهي الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده . ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار ، فيقول إن الإناء قد يمتلئ بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلئ الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره . ولقد دلتني الدكتور سهر فضل الله مدرسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضاك ، فإنني عبد ذليل بأمر منك يمضي بي السبيل
إذا ما قلت سَمَّ العَير طرفاً فهذا القول حقاً لا أقول^(١)

فؤادي ليس فيه من حُبور ومن لهب خلا من تُربي ونور^(٢)
صلاتي تلك خذ منها ثواباً صلاتي ليس فيها من حضور!^(٣)
أعن دينٍ وعن وطنٍ كلامي وهذا السرُّ يُطوى بالتمام
فلا تغضب ، جَفَوْتُ وَمِنْ جَفَاء بنيت الديرَ يبدو كالخطام^(٤)

من الإفرنج إن ضاقت قيودُ فقلُّبك لا يحقُّ ما يريد
على عتباتٍ غيرِ الله وجهُ تَعَفَّرَ لا يليق به السجود^(٥)

لي الدارين إنني لا أريد وحسبي فهمُ ما روحٌ تفيذُ
فهني سجدتي فيها احتراقي ومنها الكون في وجدٍ يميزُ^(٦)
أنا المكسألُ ما تبغيه مني أهبَّتْ هبوةٌ لم تقتلِعني^(٧)

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .

(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .

(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .

(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .

(٥) تعفر الوجه : ترمغ في التراب .

(٦) يميز : يتحرك ويضطرب .

(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتثيره .

رَأَيْتَ ابْنِي يَصْلِي فِي صَبَاحٍ مَسَائِي فَلْيَقُلْ بِالصَّبْحِ زَيْنِي^(١)

عَلَى قَوْمٍ إِلَهِي فَلْتَعْنِي كِرَاعِي الضَّانِ عَالَمُهُمْ بَفَنٍ^(٢)
رَأْتُ عَيْنَايَ مَا يَقْذِي عَيْوَنًا أَلَا يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِذْنِي^(٣)

إِلَامَ بَعِينٍ عَتَبَكَ أَنْتَ تَنْظُرُ وَأَصْنَامَ لَدَيْكَ إِلَامَ تَحْضُرُ
لَأَبْنَاءِ الْخَلِيلِ رَأَيْتَ دَارَا وَنَمْرُودُ يَرْبُّهُمْ وَيَكْفُرُ^(٤)

أَبْرِجْ عُنْ مِنْ نَعِيمِي مَا تَوَلَّى وَمِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ الرِّيحُ ؟ كَلَّا
وَهَذَا الْعَمْرُ يَا لَهْفِي تَقْضَى فَهَلَّا عَادَ مِنْ أَحْبَبْتُ هَلَّا ؟

إِذَا مَا جَاءَ مِنْ ذَا السَّرِّ يَعْرِفُ بِلَحْنِ الْقَلْبِ أَسْمَاعًا فَشَنَّفُ^(٥)
وَرَوْحَ الْقَلْبِ مَنْ أَبْقَى وَنَقَّى كَلِيمًا أَوْ حَكِيمًا وَهُوَ يَعْرِفُ^(٦)

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزَيْنِي : من زان يزين .

(٢) راعي الضأن مضرب المثل في الجهل .

(٣) أَقْذَى الْعَيْنِ : أَوْقَعَ فِيهَا الْقَذَى . وَهُوَ مَا تَنَازَى بِهِ مِنْ غِبَارٍ أَوْ نَحْوِهِ

(٤) الْخَلِيلُ : سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . يَرْبُ : يَرْبِي .

(٥) شَنَّفَ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى جَعَلَ لَهُ شَنْفًا أَيْ قَرْطًا ، وَشَنَّفَ كَلَامَهُ : زَيَّنَهُ وَحَلَاهُ وَشَنَّفَ السَّمْعَ : زَيَّنَهُ وَأَطْرَبَهُ .

(٦) يَتَرَدَّدُ فِي الشَّعْرِ الصُّوْفِيُّ ذَكَرَ الْعَزْفَ وَالْغَنَاءَ عَلَى أَنَّهُمَا رَمَزَ لِنَشْوَةِ الْعَشْقِ الْإِلَهِيِّ .

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْحَسَنَاءَ وَالصَّهْبَاءَ وَالْغَنَاءَ تَوَلَّفَ وَحْدَةً قَلَمًا نَجَدَ انْفِصَامًا بَيْنَ مَقُومَاتِهَا الثَّلَاثَةِ .

أرجي لي فؤاداً قد توجع شكوتُ فمن شكاتي سوف يسمع
بزمهرٍ قانيء يزدان قبري عديم النطق دامي اللحن موجع^(١)

أسيرُ القلب لا يفدي الأسيرا وليس يزيدُ من ألمٍ كثيراً
وينفخُ في الثرى الأنفاس دوماً ورامَ الأكلَ أو سكنَ الحفيرا^(٢)

من الأضلاع لي قلبٌ يفزُّ تبقى صورةٌ معناهُ سرَّ
طريدُ البابِ يفضلني كثيراً رآهُ اللهُ ، لي في السمعِ ذكر

نداءُ جبرئيل ليس يدري ففي طلبِ مقامٍ طيِّ سِرْ
وهذا عبدُك المسكينُ سألُ عنِ الآمالِ في حلٍ ومُرْ
صفاتُ هبْ لخسرو أو لرومي وجُدْ لي من سنائي بالمروم^(٣)

(١) الفانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفيرا : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .

والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤ هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المثنوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا على ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

ألفَتْ صفاتَ عبدٍ منذَ دهرٍ فليسَ لكلِّ هذا من لزومٍ
فقيراً عفاً عن لبسِ المرقعِ لهذا منه جبريلٌ توجّع
لدينا أمةٌ أخرى لنخلقُ بها كلاً عن الدنيا لنرفعُ

وشعبٌ منه جهدٌ في التَّائي ومنَ إبْرٍ تَراءَ الشهدُ يُجْنَى
وذاكَ بعالمٍ منَ ليسَ يَرْضَى فتحتَ العالمينَ الظَّهرُ يُخْنَى

وقومٌ وخَدُّوا عِنْدَ ابتِهالٍ أنازوا الفجرَ منَ جوفِ الليالي
رأوا في الشمسِ صباحاً مستقراً فأبدتْ نهجَ نجمٍ منَ رَمالٍ^(١)
لحفلٍ في الليالي كنتُ زينا نقَضْتُ وكنْتُ بدرأ ذاقَ أينَا^(٢)
وفي هذا التغافلِ كمَ أفاضوا ولكني تركتُ الجمعَ وهنَا^(٣)

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .
أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥ هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواحيه ، ويثن تالماً من جفاء الخلان وصروف الزمان . غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيج الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنية في الإنجليزية وحاملة التبن أو نائرتها في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبانة لأنها تشبه طريقاً تنائر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبان الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كهذا العصرِ عصراً ما رأينا حزينُ القلبِ جبريلُ علينا
هنا قد شئدوا ديراً عجيباً يزيد لمؤمنٍ كفرٌ لدينا !

أرى دنياك في أيدي اللئام ولأحرارٍ في أسرٍ مُقام
فضيلٌ بينَ مَنْ فقهوا أموراً يعيشُ كمثلي نسرٍ لا الأنام^(١)

مريدٌ قال عندَ الشيخِ يوماً إلهي لم يحطُ بالناسِ علماً ؟
كمثلِ العرقِ في عنقٍ قريبٍ وليسَ كبطننا في القربِ حتماً

لأرضِ الهندِ حالٌ بعدَ حالٍ وهذا الكونُ أمسى في اختلالٍ
إلينا كيفَ تطلبُ أن نصلي برأسِ الجيشِ عبدٌ كالمحالِ
ويحكمُ مسلمٌ فالنفسَ باعاً وآذاناً وعيناً قد أطاعا
وهتَ أجسادنا مِن إضرٍ حُكمٍ فآدَ الشرعُ متناً والذراعاً^(٢)

إلهي زِنَ لنا خيراً وشراً هبِ الدنيا نعيماً مستمراً
وشاهدنا خُلُقنا مِن ترابٍ لنجعلَ عالمَ الغبراءِ نَضراً^(٣)

خُلُودُ المرءِ في الدنيا عَرِفنا وعن مَوْتِ الفجاءةِ ما سمعنا
ووقْتُكَ لَنْ تُعَرِّضَهُ لنقصٍ إن خلدتَ قالوا قد ضُررنا ؟ !

(١) الفضيل : ذو الفضل .

(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظاهر .

(٣) الغبراء : الأرض .

إِنَّ الدُّنْيَا دَنْتٌ مِنْ مَتْنِهَاهَا أَبَانَ الدَّمْرُ أَسْرَاراً طَوَاهَا^(١)
فَلَا تَفْضُخْ لَدَى الرَّحْمَنِ أَمْرِي حَسَابِي صَفْحَةً مَا إِنْ رَأَاهَا !

بَقِيْتُ هُنَا وَلِي رُوحٌ تَسِيرُ إِلَى الْبَطْحَاءِ أَشْوَاقِي تَطِيرُ^(٢)
خَوَاصُّ الْقَوْمِ عَاشِهِمْ ، تَلَبَّثُ بِشَوْقِي دَارَ مَنْ أَهْوَى أَزُورُ^(٣)

(١) أَبَانَ : أظهر .

(٢) الْبَطْحَاءُ : مكة المكرمة .

(٣) عَاشِهِمْ : عش معهم . تَلَبَّثُ : ابقى .

القسم الثاني
الرَّسَالَة

تمهل لا تُقسَم تلك الخياما دليلُ الركبِ في البيداء هَامَا^(١)
وهذا العقلُ نعدمه دليلاً لذا أسلمتُ للقلبِ الزماما

سويدائي بها ألقىتُ نظره بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فتره^(٢)
بريح للمدينة ضقتُ ذرعاً لقلبي من نسيمِ اليدِ خطره

ولي قلبٌ لمن كان الشهيداً هو الخفاقُ يالفُ أن يميداً^(٣)
إلى الصحراء أحمله فيأسى على شطِّ الغديرِ بكى وليداً^(٤)
ولا تسأل عن الركبِ السُّكاري فما يرضون تلك الدَّارِ داراً
يهزُّ قلوبهم جرسٌ مدو نسيماً في ذرى القصباء ثاراً^(٥)

ليشربَ كان في كُبْرَى رَحِيلِي وبِي فَرَحُ اللقاء مَعَ الخليلِ
كَأَنِّي الطيرَ قبلَ الليلِ يمضي ويَبْغِي العِشَّ في الرِّوْضِ الجميلِ

أَدَانُوا عاشقاً رَشَفَ المَدَامَا وَكَمْ لِمَحَنِّكَ عَابُوا الكَلَامَا

(١) الركب : راكبو الإبل ، وفي الأصل القافلة . والبيداء : الصحراء . وهام : سار على غير هدى .

(٢) السويداء : حبة القلب . استروح : استراح .

(٣) يميد : يتحرك في اضطراب .

(٤) يأسى : يحزن . الغدير : النهر .

(٥) ذرى القصباء : أعالي القصب في منبته .

عَلَى نَعَمِ الْحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي وَمَا إِنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامَاً^(١)
 أَتَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتٍ لِلْخَنِي وَمَاذَا يَعْرِفُ النَّدْمَانُ عَنِّي^(٢)
 لَقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّخْرَاءِ رَحْلِي وَفِيهَا اخْتَلَسِي حَتَّى أُغْنِي^(٣)

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرَّفَقِ سِيرِي بَشِيخٍ فَازِفِقِي دَنِيفٍ حَسِيرٍ^(٤)
 وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْرًا عَنِيفًا أَتَخْطُو فِي الرَّمَالِ أَمْ الْحَرِيرِ !

وَيَا جَمَالَ عَنْهَا اطْرَحْ عَقَالًا لِرُوحِي رُوحَهَا كَانَتْ مِثَالًا
 تَهَادَتْ مَوْجَةً أَقْنَنْتُ مِنْهَا بِأَنَّ عَلَى الْفَوَادِ الْأَسْرُ طَالًا
 تَرَفَّرَقَ دَمْعُهَا سُودَ الْعَيُونِ وَمِنْ زَفَرَاتِهَا كَانَتْ شُجُونِي
 مُدَامَ أَضْرِمَتْ فِي الْقَلْبِ نَارًا بِنَظَرَتِهَا كَمَوْجٍ يَخْتَوِينِي

وَفِي الصَّخْرَاءِ قَافِلَةٌ تَكُونُ وَفِي تَوْدِيْعِهَا خَفَقَتْ لُحُونُ^(٥)

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رَأَيْهِ فِي السَّمَاعِ رَأْيَ حِجَازِي وَفِي الشَّرَابِ رَأْيَ أَهْلِ الْعِرَاقِ
 (٢) المقام : من مصطلحات الموسيقى . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الغناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : التنديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصعبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحون : الألحان .

أَلَا فَاسْجُدْ عَلَى رَمْلٍ تَلْقَى عَلَيْهِ الْوَسْمُ يَخْتَرِقُ الْجَبِينَ^(١)

مَسَاءٌ مِثْلُ فَجْرِ قَدْ تَبَسَّمَ
تَمَهَّلْ إِنْ خَطَوْتَ عَلَى رَمَالِ
أَمِيرِ الرِّكَبِ مَنْ ذَا الْأَعْجَمِيِّ
يُغْنِي وَالْغَنَاءُ لَهُ سَرَابٌ
تَمَطَّى صُبْحُهَا وَاللَّيْلُ أَظْلَمَ^(٢)
كَقَلْبِي كُلُّهَا قَلْبٌ تَأَلَّمَ
بَغِيرِ لِسَانِنَا لَحْنٌ شَجِي
وَفِي الصَّحْرَاءِ مِنْهُ الْقَلْبُ حَيٌّ

وَمِنْ عِشْقٍ وَمِنْ سُكْرِ مُقَامِهِ
لَهُ الْأَنْعَامُ تُطْرِبُ كُلَّ قَلْبٍ
وَفِي مَاءٍ وَفِي طِبْنٍ ضِرَامُهُ^(٣)
لَنَا قَلْبٌ يَفْلُذُّهُ قِوَامُهُ^(٤)

خَفِيَ الْحَزَنُ فِي صَمْتِ تَرَاهُ
طَرِيقُ وَغَرَّةٍ وَالنَّضْوُ فِيهَا
رَبِيعُ الْمَرْجِ مُخَمَّرُ الزَّهْوِ
أَتَوْقُ إِلَى الْبَقَاءِ هُنَاكَ وَخَدِي
لِسَانُ الْمَرْءِ فِي خُبْرٍ رَوَاهُ
بِلَا نُورٍ لِنَصَبَاحِ هَذَا^(٥)
أَقَامَ الصَّحْبُ فِي كَنْفِ السَّرُورِ
وَفِي جَبَلٍ عَلَى شَطِّ الْغَدِيرِ^(٦)

(١) الوسْم : أثر الكي .

(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .

(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .

(٤) الغلظة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .

(٥) النضر : المهزول الضعيف .

(٦) أتوق : أشتاق .

وَأَقْرَأَ تَارَةً شِغَرَ الْعِرَاقِي^(١) وَأَخْيَاناً مِنَ الْجَامِيِ احْتِرَاقِي^(٢)
أَبَيَّنَ لِحَوْنٍ أَعْرَابٍ وَلِحَنِ لِحَادِي نَاقَتِي بَغْضُ اتِّفَاقِي^(٣)

أَشْبَ فَرَحاً بِأَخْزَانِ الطَّرِيقِ وَكُنْ مَجْنُونَهُ غَيْرَ الْمَفِيقِ
طَرِيقاً طَالَ يَا حَادِي لِتَسْلُكَ وَآلَامَ الْمَفَارِقِ مِنْ حَرِيقِ^(٤)
أَنِيسُ الرُّوحِ بَادِلْنِي شَكَاتِي وَقُلْ مِثْلِي «بِذِي حَسَنِ مَمَاتِي»
«لِنَمْسُخِ مَوْضِعِ الْقَدَمَيْنِ» فَاهْمِسْ «بِأَجْفَانِ رِقَاقِ دَائِمَاتِ»

لَقَدْ غَضُّوا وَغَضُّوا مِنْ حَكِيمٍ جَهُولٍ كَانَ ذَا الْفَضْلِ الْعَمِيمِ^(٥)
وَنَخْنُ الْيَوْمَ فِي عَضْرِ سَعِيدٍ لَدَى السُّلْطَانِ دَرْوِيشٍ عَظِيمٍ

يَصْدُرِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَعَيْتُ بِرَأْسِي «لَا مَكَاناً» قَدْ حَوَيْتُ
وَلَمَّا جُزْتُ فِي الْعَلْيَاءِ سَقْفاً جَنَاحِي كُلِّ فِي أَرْضِي هَوَيْتُ

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يمزج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلتزم أتباعها بالسباحة فراح في البلاد طويلاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطانها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية ويعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبية على شعره ، وقد نظم قصة ليلى والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاتاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِوَادِينَا خُلُودٌ لِلزَّمَانِ بِأَلَا صُورٍ نَمَتْ فِيهِ الْمَعَانِي
حَكِيمٌ دَائِمًا أَخَى كَلِيمًا لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنِ (لَنْ تَرَانِي) ^(١)

وَيُسَدِّي الْمُسْلِمُ الْمَحْبُوبُ فَقَرَهُ يُصْعَدُ مِثْلَ حَرِّ النَّارِ زَفَرَهُ
شَكَا مِنْهُ الْفَوَادُ وَلَيْسَ يَذْرِي فَهَيْئًا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَظَرَهُ

عَذَابُكَ مِنْهُ كَمْ دُقَّتِ الْعَذَابَا بِكَ الْأَلْحَانُ لِي كَانَتْ عَذَابَا
حَزِينٌ ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ يَوْمًا بِأَرْضِ الْهِنْدِ قَطُّ لَكَ الصَّحَابَا
لِعَبْدِ الْهِنْدِ لَيْلٌ ضَاعَ فَجْرُهُ وَأَيْنَ الشَّمْسُ بَلْ قُلْ أَيْنَ بَذْرُهُ
أَنَا الْمِسْكِينُ فَلْتَرْفُقْ بِحَالِي أَمْثَلِي مُسْلِمٌ قَدْ عِيلَ صَبْرُ ^(٢) ؟

فَقِيرٌ ضَاقَ بِالْأَلَمِ الْمُقِيمِ بِدِينِ الْحَقِّ ذُو الْأَصْلِ الْكَرِيمِ
إِلَهِي كُنْ لِمَحْزُونٍ مُعِينًا هَوَى مِنْ صَرْحِهِ الْعَالِي الْقَدِيمِ

لِسَانِي كَيْفَ يَرَوِي عَنْهُ شَيْئًا وَتَعْلَمُ مَا بَدَأَ بِلِ وَالْخَفِيَا

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّ وَلَكِنْ نُنْظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَوْكِنَاهُ فَسَوْفَ نَرِيَّ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُوقًا فَلَمَّا أَهَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال جلال الدين الرومي في شعره : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :

(لن تراني) إنها المعنى الدقيق ولتضع فيه فذا البحر العميق

(٢) عيل صبره : نفذ .

وما قاساه في دهر طويل طوى قلبي على الآلام طيا
جسرى فلك على غير المرام شكاة الركب من بُعد المقام
أفي هذا كلام ليت شعري وهذا الشعب كان بلا إمام

دماء فيه تخلو من لهاب وما زرع الأزاهر في الخراب (١)
خلي الغمد . ما في الكف مال وهذا الرف يهوى بالكتاب (٢)

بظاهر ما يراه القلب قيد فمن ذوق ومن شوق تجرد (٣)
صغير الصغر حنما ليس يذري على طن البعوضة من تعود
له بالقلب بابا ما فتخنا وذاتاً في نراه ما رأينا
ولا التخيير دوى في ضمير ومنه الذكر قط ما سمعنا

يقد الجيب مقطوع الرجاء لماذا قد تردى في البلاء (٤)
شبه الموت ما يلقي نصيباً إذا ما كف عبد عن ثناء

أنله الحق ، منكبين أسير فقيرو وهو في قلق يثور
وهذي حانة قد أوصدوها ليظماً والردى كاس تدور (٥)
فطهر ماءه والطيسن طهر بذنيا منه هذا القلب عمز

(١) اللهاب : اشتعال النار

(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .

(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .

(٤) يقد : يشق . الجيب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .

(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَرَّقَ ذَيْلُهُ وَالرَّيْحُ تُسْفِي فَقِي مِضْبَاحِهِ الْمَخْطُومَ فَكَّرُ^(١)

عَرُوسٌ هَذِهِ الدُّنْيَا لِغَيْرِهِ مَقَامٌ لِلْفَنَاءِ نَهْجٌ لِسِنِيرِهِ
وَقَبْلَ الْمَوْتِ آدَتُهُ الْخَطَايَا لَهُ الْمَلَكَانِ مِنْ دَبْرِ بَقْبِرِهِ^(٢)

أَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ أَوْ سُورُورُ وَمَا فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ صَبُورُ
لِهَذَا الشَّعْبِ كُنْ رَبِّي مُعِينًا فَضَى ، قَالُورُوحٌ مَا فِيهَا حُضُورُ^(٣)
حَنِيفٌ وَالرَّدَى مَا لَيْسَ يَأْلَفُ أَيْخَلَعُ قَلْبَهُ رُغْبًا وَيَأْنَفُ^(٤)
وَبَيْنَ ضُلُوعِهِ مَا كَانَ قَلْبُ يَقْطَعُ زَقَرَةً حَرَى وَيَأْسَفُ !

وَحُكْمُ الْفَرْدِ شَرٌّ لِلْأَنَامِ فَمَنْ مِنْ شَرِّهِ غَيْرُ الْمَضَامِ
شَكَاةُ الْقَلْبِ لِلْخِلَافِ فَاسْمِعْ إِذَا مَا شِئْتَ تَخْفِيقَ الْمَرَامِ

رَكِينًا كَانَ جِسْمُ الْمُسْلِمِينَ بِنَاءٌ ظَلَّ فِي آدِ مَتِينَا^(٥)
وَأِنْ نَظَرُوا فَقَدْ ظَهَرُوا بِذَاتِ لَهُمْ فِي الْخَفَقِ أَشْبَهَتِ الْوَتِينَ^(٦)

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمخطوم : المحطم .

(٢) آدته : أثقلته .

(٣) فضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم المعيني .

(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .

(٦) الوتين : عرق في القلب .

حَجُولٌ مُسْلِمٌ هَانَتْ شُؤُونُهُ لَهُ الْخَانِقَاهُ فَقَرُّ ، مَاتَ دِينُهُ ^(١)
 بِدُنْيَانَا فَقُلْ مَاذَا وَرَثْنَا كَلِيمٌ عَنْ مُلُوكٍ نَسْتَبِينُهُ ^(٢)

وَعَنْ أَخْوَالِهِ لَا تَسْأَلْنِي فَقَدْ سَاءَتْ وَفِيهَا حَارَ ظَنِّي
 وَهَذَا الطَّيْرُ بِالثَّمَرَاتِ يَغْذُو لَهُ فِي الْيَدِ تَقَرُّ بِالتَّعْنِي ^(٣)

لِعَيْنَيْهِ الْحَيَاةُ أَنَا فَتَخْتُ وَمَا فِي الْأَمْسِ وَالْغَدِ كَمْ شَرَحْتُ
 كَشَفْتُ الرُّوحَ أَمْرَاراً فَهَلَّا بِلَاغَةٍ يَغْرُبُ يَوْمًا مَنَحْتُ
 وَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ جَيْشٌ عَرْمَرَمَ بِذَاتِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَكْرَمَ ^(٤)
 فَلَوْ رَدُّوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ حَقًّا لَكَانَ جَلَالُهُ لَا رَبِّبَ أَعْظَمُ

أَسَاطِيرُ مَتَاعِ الشَّيْخِ حَقًّا مِنْ الْأَوْهَامِ أَقْوَالًا تَلْقَى
 لَهُ الْإِسْلَامُ بِالرُّثَارِ يَنْدُو وَذَا حَرَمٍ وَمِنْ دَبِيرٍ تَبْقَى

وَعَالَمُنَا بِالْحَادِ تَغْيِيرُ وَأَنَّ الرُّوحَ مِنْ جَسَدٍ تَقَرُّزُ

- (١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى المبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقات ووقف الأموال عليها .
- (٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نستبينه : نعرفه ونميزه .
- (٣) التعني : الشدة والصعوبة .
- (٤) الجيش العرمرم : الشديد .

يَفْقِرُ كُنْتُ لِلصَّدِيقِ تُغْطِي أَنْزَ رَوْحاً تَسَامَى أَوْ تَطَوَّرُ^(١)
لَنَا حَرَمٌ فَمَاذَا يَسْتَعِيرُ بِهِ صَنَمٌ هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ
وَأَظْلَمَ حَقْنًا نَحْنُ الْحَيَارَى وَمَا فِي الْقَلْبِ لِأَمَالٍ نُورُ

فَقِيرٌ رَكْعَةً لِلَّهِ صَلَّى طَغَاءٌ أَوْ بُغْسَاءٌ مَنْ أَدَلَّا
وَبَلَكَ النَّارُ إِنْ خَمَدَتْ بِصَدْرِ إِلَى عَتَبَاتٍ مَنْ ظَلَمُوا تَوَلَّى^(٢)

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن يتهكموا بالشيخ أو الزاهد .
والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة
والفقهاء ، ولا غرو فالتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن
الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فوقافون عند حرفية النصوص لا يمعنون
في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد
والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربِي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة
يوم أَلَسْتَ) والإشارة في يوم أَلَسْتَ إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ
مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ والشاعر يريد ليقول
إن الصوفية اتحفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني
على وسطه .

يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على
رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي
أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل
ماله كله معه . وقال لها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباهما قد فجعهما بماله
فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان
أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدها الضريع ووضعت يده عليها
فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدها وتوهمه بأن
أباهما ترك شيئاً ، ولم يترك لعياله أي شيء .

(٢) تولى : مضى وأدبر .

يَعَادِي الْمُنِِّلْمُونَ الْأَقْرَبِينََا وَظَلُّوا فِي شِقَاقٍ رَاغِبِينََا
تَدَاعَى مَسْجِدٌ يَوْمًا لِيَاسُوءَا وَكَانُوا مِنْهُ دَوْمًا هَارِبِينََا ^(١)
لِغَيْرِ اللَّهِ عَقَّبَرْنَا الْجَبِينََا وَكُنَّا كَالْمَجُوسِ مُهَلِّلِينََا
فَأَنْفُسَنَا شَكُونَا لَا سِوَانَا لِمِثْلِ عُلَاكَ لَسْنَا لَا يُقِينَا

خَلَّتْ مِنْ رَاحِهَا كَأْسُ التُّدَامَى إِلَامَ الصَّنُتْ لِلْسَاقِي إِلَامَا
عَلَى الزَّفَرَاتِ مِنْي الْقَلْبَ أَطْوِي دُخَانًا لِلْسَرَّاجِ مَحَا الظَّلَامَا ^(٢)

لَدَى الصُّوفِيِّ دِنَ مَا رَوَاهُ وَيَطْوِي مَكْتَبًا نَهَجًا طَوَاهُ ^(٣)
أَغَادَرَ مَجْلِسَ الشَّعْرَاءِ كَرَاهَا وَمَاتَ اللَّحْنُ فِي نَايِ حَوَاهُ
غَرِيبٌ ، مُسْلِمٌ ، عَنْ كُلِّ دَارٍ وَلِي دُنْيَا أَعَافُ ، مِنْ الْغُبَارِ
وَهَذِي لَوْعَتِي مِنْ فَرْطِ عَجْزِي لِغَيْرِ اللَّهِ أَبْدَيْتُ اقْتِدَارِي

وَتَمْنَحْنِي جَنَاحًا كَيَ أَطِيرَا وَالْحَانِي خَفَقَتْ بِهَا سَعِيرَا ^(٤)
فَهَلْ مِنْ مُسْلِمٍ يَخْشَاهُ مَوْتُ؟ أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا الْمَسِيرَا

سَأَلْتُ اللَّهَ بِالدَّمْعِ الشُّكُوبِ أَحَانَ لِمُسْلِمٍ رَفَعَ الْكُرُوبِ؟

(١) يَاسَى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .

(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .

(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعمير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتفنيد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .

(٤) السعير : النار .

نِدَاءٌ ظَلَّ فِي سَمْعِي يُدَوِّي لَهُ قَلْبٌ وَأَقْفَرُ مِنْ حَيْسِبِ
لِمَاذَا أَدَّكُرُ الْمَاضِي الْمَجِيدَا فَهَذَا الذِّكْرُ مَا كَانَ الْمَفِيدَا
بِصَدْرِي قَدْ حَوَيْتُ أَنَا سِرَاجَا وَفِي قَرْنَيْنِ آنَسْتُ الْخُمُودَا^(١)

وَيَخْرُسُ كَغَبَّةَ بَنَاءٍ دِير يَقِينُ مَاتَ فِيهِ رَنَا لِغَيْرِ^(٢)
وَتَقْصُرُ نَظْرَةٌ مِنْهُ وَفِيهَا تَجَلَّى بِأَسْهُ مِنْ كُلِّ خَيْر

وَتَشْرِيدُ وَنَارٌ لِلْفَقِير مِنَ الْحَرْقَاتِ هَبْ نَارَ الضَّمِير
وَفِيهِ الْقَلْبُ ثَبَتَ أَوْ أُنْزِرْهُ بِأَمَالِ الْيَقِينِ كَفَيْضِ نُور
وَلِي مِنْ نَشْوَتِي^(٣) قَدْ تَرَنَّخَ بِلَا سَيْفٍ دِمَاءٌ كُنْتُ أَسْفَخَ
فَهَيَّنِي نَظْرَةً وَازَافَ بِحَالِي فَلِي عَصْرٌ أَجَاهِدُهُ وَأَكْدَخَ

لَقَدْ آثَرْتُ أَنْ أَشْكُو وَحِيدَا وَيَتَرَبَّ رُمْتَهَا فَاجْتَزْتُ بِيدَا
أَطْلُبُ مَكْتَبِي أَمْ هَانَ شَوْقِي تَحْيِيزُ ، حَيْرَتِي تَأْبَى الْمَزِيدَا

أَطِيرُ بِجَوِّهِ هَذَا الْمَحَبِّبِ وَمِنْ غَيْمِ جَنَاحِي قَدْ تَرَطَّبِ
وَبَيَّتُ اللَّهَ أَخَوِيهِ بِقَلْبِي أَغْنِي مَا يَقْلِبِي ثُمَّ أَطْرَبِ
أَقُولُ السَّرَّ مِنْ مَا قُلْتُ يُفْهَمُ وَمَنْ مِنْ دَوْحَتِي الثَّمَرَاتِ يَطْعَمُ
أَمِيرَ الْقَوْمِ أَنْصِفْنِي فَإِنِّي عُرِفْتُ بِشَاعِرٍ غَزَلَ تَسْرَتُمُ

(١) آنس : رأى . والشاعر يشير إلى فساد حال القوم في القرنين الماضيين .

(٢) رنا : أدام النظر .

(٣) النشوة : السكر .

خِلَافَ الشُّعْرِ مَا أَبْغَى بِقَوْلِي وَخُلْتُ عُقْدَةَ الْمَعْنَى بِحَلِّي
وَأَكْسِرَ لِعِشْقٍ مَا أَرْجَى فَدِزَهُمْ مُفْلِسٍ ذَهَبَ بِصَفْلِي ^(١)

حَيَاةَ الْخُلْدِ عَنْهَا قَلْتُ خَبِرَ وَمَنْ مَاتُوا حَدِيثَ الرُّوحِ ذَكَّرَ
وَقَوْمٌ يَجْحَدُونَ الْحَقَّ قَالُوا بِمَوْتِهِمَا إِذَا مَا شِئْتُ بَشَّرَ
جَبِينِي مِنْ أَسَى كَالزُّعْفَرَانِ جَرَتْ عَيْنِي بِمِثْلِ الْأَرْجَوَانِ ^(٢)
وَحَالِي أَنْتَ تَعْلَمُ رَغَمَ صَنْتِي فَهَذِي عُقْدَةٌ لِي فِي لِسَانِي

غَرِيبٌ ، لِي لِسَانٌ وَهُوَ نَظَرَهُ وَذُو أَلْسَمٍ تُكَلِّمُ سَهْ بِعَبْرَهُ
فِيمِي أَوْصَدْتُ ، بِالْعَيْنَيْنِ أَزْنُو فَشَرَعِي لَا يَجِيزُ الْقَوْلَ مَرَّهُ

مَنْخَتْ الذَّاتِ مِنْ ذَاتِي غَرِيبَا وَزَمَزَمَ بَيْنَ صَلَاصَالِ قَلِيَا ^(٣)
فَهَيَّيْ زُفْرَةَ حَرَّى وَمِنْهَا سَاضَلَى كُلَّ بَلْبَالٍ لَهِيَا ^(٤)
زَفِيرٌ لَيْسَ فِي قَلْبِي سِوَاهُ وَلِي أَمَلٌ وَنَبْعُكَ مَا رَوَاهُ
لَمَنْ أَشْكُو غَمُومًا فِي فُؤَادِي عَلَى مَنْ غَيْرَ ذَاتِكَ مَا طَوَاهُ

غَرِيبٌ شَجَوَهُ بِالنَّايِ أَبْدَى وَنَارُ اللَّحْنِ مِنْهَا ذَابَ وَجَدَا
أَتَعْلَمُ مَا يَقُولُ وَمَا تَمْنَى يَرُومُ الْقَلْبَ ^(٥) عَنْ دَارَيْنِ صَدَا

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحبله إلى ذهب خالص .

(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .

(٣) القلب : البئر .

(٤) البلبال : الهم .

(٥) يروم القلب : يُريدُ .

وما زهراً ولا قطراً أريد لتلك الريح ، شمسك كم تجود
وتعلو نظرتي عن كل نجم ورأيي لا أبدله سديد
يحر شطّاه لم أدر بغيره دليلُ العاشقين القلبُ وحده
إلى البطحاء تأمرنا بسير وإلا كنت ما وقفت عنده^(١)

أنطرُ مَنْ يتوقُ إلى الحضور ألنّت ولسْتُ أعرف بالصّبور
بما أحبيت مُزٍ إلا بصبر عجزت أنا إليه عن المسير

دُمى الإفرنج قلبٌ لي تعشّق ومن نارٍ لأهل الدير أحرق^(٢)
لقد أصبحت عن نفسي غريباً فما أذري وجوداً لي تحقّق
بحانِ الغربِ عاقرتُ الشّراباً بروحي قد شريتُ لي العذاباً^(٣)
وكم جالستُ أهلَ الحسنِ لكنْ بدتْ يرانهم ثلجاً مُذاباً

فقيّرُ فلتحقّقْ لي رجائي هشيمي اجعله قلباً في الفضاء^(٤)
سئمتُ الدرسَ يلقىهِ حكيمٌ فلي من نظرتي فيضُ الذّكاء

-
- (١) البطحاء : مكة المكرمة .
(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهاافت على تقليد الغربيين .
(٣) عاقر الخمر : آدمن شربها . شريت : اشتريت .
(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أَنَا الصَّوْفِي وَالْمَلَأُ أَجَافِي وَتَعْلَمُ مَنْ أَكُونُ بِلَا خِلَافٍ ^(١)
 عَلَى صَفَحَاتِ قَلْبِي « اللَّهُ » فَكُتِبَ لِأَشْهَدُهُ وَذَاتِي بِالشُّغَافِ ^(٢)
 فِي قَلْبٍ لَمَلَأَ الْقَمَّ حَلًّا وَهَلْ بِالدَّمْعِ بَلَّ الْعَيْنَ بَلًّا
 أَوْلَى مِنْ مَجَالِسِهِ فِرَارًا أَزِينُ حِجَازَهُ بِالْبِشْرِ ؟ كَلَّا

يَقُولُ الْقَوْلَ نَضْلًا لِلْحَرَابِ وَفِي حِضْنٍ لَهُ كَمْ مِنْ كِتَابٍ
 وَتَخْجَلُنِي الصَّرَاحَةُ فِي كَلَامِي عَنِ الذَّاتِ اخْتَفَى لَا عَنْ صِحَابٍ ^(٣)

أَجِبْ بِاللَّهِ مِنْ مَلِكِ الْقُلُوبَا وَمَنْ قَدْ أَلْهَمَ الشُّوقَ الْمَذِييَا
 كِلَانَا مَنْ رَمَى فِي الدِّينِ سَهْمًا فَقُلْ فِي الرَّمِي مَنْ كَانَ الْمَصِييَا
 وَلَسْتُ بِمُخْفَلِي غَيْرِ الْغَرِيبِ لِمَنْ فِي مُشْكِلِي شَكْوَى كُرُوبِي ؟
 ذُبُوعَ السَّرِّ يَبْنِ الْقَوْمَ أَخْشَى شَكَاتِي صَنْتُ عَنْ قَلْبِي الْكَثِيبِ

وَقَلْبِي لَسْتُ أَسْلَمُهُ لِأَيْدٍ أَضِيقُ بِعَقْدَتِي وَأَجِلُّ وَخَلِيدٍ
 إِلَى غَيْرِ الْإِلَهِ رَفَعْتُ عَيْنِي لَذَا مِنْ قَمْتِي كَانَ التَّرْدِي

-
- (١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقير وغير الصوفي .
 (٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبه . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المنصوفة . غير أنه يريد ليخرج ضيق الأفق من المسلمين المتزمتين الجامدين .
 (٣) يعبر إقبال عن نزعة الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتزيد الغرض .

بِرُّ أُمِّي جَمْرَةٌ هَذَا الْجَنُونُ
وَمِنْ أَمْوَاجِ طُوفَانٍ تَقْضَى
لِهَذَا التَّرَبِّ مَا زَالَ الشَّرَارُ
بِمَا أَهْدَيْتَ مِنْ نَوْرِ التَّجَلَّى
بِصَدْرِي فَسُورَةٌ هَذَا الْفُتُونُ^(١)
بِرُوحِي الْمَوْجُ يَجْفُوهُ الشُّكُونُ^(٢)
لِهَذَا الصَّدْرُ زَفَرُ الْفَجْرِ نَارُ
عَلَى نَظَرٍ لِعَيْنِي اقْتِدَارُ

أَشَاهِدُ غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَرْغَبُ
وَهَذَا الْعَضْرُ مِنْ رَوْحٍ تَخْلَى
وَيَنْ جَوَانِحِي قَلْبٌ تَلْهَبُ
فَقُلْ مَا السُّرُّ أَوْ مِثْلِي تَعَجَّبُ^(٣)

وَفِي عَصْرِ بَلَا لَهَبٍ خُلِقْتُ
وَفِي عُنُقِي حَيَاتِي مِثْلُ حَبْلٍ
وَمَا لِلزَّمْرِ أَلْوَانِي وَرِيحِي
وَمَا وَسِعَ الْكَلَامُ أَسَى خَفِيًّا
تُرَابِي فِيهِ مَا يَهْفُو مُنْخَثُ
عَلَى عَوْدٍ كَأَنِّي قَدْ صُلِيتُ
يَضِيقُ الصَّدْرُ بِالْأَمَلِ الْجَرِيحِ
لَمَنْ أَشْكُو بِقَوْلٍ لِي صَرِيحِ

وَفِي شَرْقٍ وَفِي غَرْبٍ غَرِيبُ
هُمُومُ الْقَلْبِ أَشْكُوهَا لِقَلْبِي
فُوَادِي لَا يُوَاسِيهِ الْحَيِيبُ
فَكَانَ لِقُرْبِي خَذَعٌ عَجِيبُ

لِعِلْمِ الْيَوْمِ أَنْبَلْتُ الطَّلَسْمَا^(٤)
حَطَمْتُ حَبَائِلًا بِالْحُبِّ حَطَمًا

(١) الجنون عند المتصوفة هو جذبة العشق الإلهي .

(٢) تقضى : مضى وانتهى .

(٣) تخلى منه وعنه : تركه .

(٤) الطَّلَسْمُ وَالطَّلَسْمُ ، ج : طلاسَم وطلسمات ، يونانية معربة : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر .

وَإِسْرَاهِيمَ مَنِ اشْبَهْتُ حَقًّا فَمَا كَانَتْ لَدَيَّ النَّارُ هَمًّا
حَبَوْتُ الْعَيْنَ بِالْبَصَرِ الْبَصِيرِ وَقَوْلُهُ « لَا إِلَهَ » كَفَيْضِ نُورٍ
وَفَجْرًا فَلْتَهَبْ مِنْ « مَنْ رَأَى » فَلْيَلِي مِنْكَ ذُو الْبَذْرِ الْمَنِيرِ^(١)

وَفِي يَوْمٍ جَذَبْتُ إِلَى ذَاتِي بِأَنْوَارٍ مَقَامِي مُشْرِقَاتٍ
بِهَذَا الدَّيْرِ مِنْ نَعَمَاتِ فَجْرِ خَلَقْتُ دُنَى الْقُلُوبِ الْوَالِهَاتِ^(٢)

بِعَالَمِنَا جَنَّاتٍ عَالِيَاتٍ لدوحتها دموعي الجاريات^(٣)
سَكُونٌ كَانَ حَتَّى الْيَوْمِ فِيهَا فَأَيُّ لَامٍ لَأَدَمَ آتِيَاتُ
أَلَا هَبَهَا فَتَى يَخْتَالُ فِيهَا هَوَاهُ الْكَأْسُ دَارَتْ يَحْتَسِيهَا
نَرَاهُ مِثْلَ حَيْدَرٍ فِي قَوَاهِ مَنَى الدَّارَيْنِ مَا إِنْ يَشْتَهِيهَا^(٤)

أَدْرِي يَا صَاحِبَ كَاسَاتِ النُّدَامَى وَزِدْ فِي نَائِي الْخَانِي ضِرَامًا^(٥)
وَهَذَا الْقَلْبُ رَدٌّ إِلَى ضُلُوعِي لِأَفْضَلِ كُلِّ مَنْ مَلَكَوَا ، مَقَامَا

وَمِنْ عِشْقِي لَنَا الدُّنْيَا بِصَدْرِكَ وَتَفَرَّحَ فَرَحَةً نَشْوَى بِصَدْرِكَ
فَمِنْ جَبْرِيلَ ؟ إِنِّي لَنْسُتُ أَذْرِي أَلْبَدْتُ جَوْهَرًا مِرْزَاةَ صَدْرِكَ

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رأى فقد رأى الله) كذا في الأصل .

(٢) الدنى : جمع دنيا .

(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .

(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فَوَادِي لَمْ يُمِثْ أَحَدًا بِمَعْبَدٍ مُقَامِي أَيْنَ ؟ كُنْتُ بِهِ الْمُقَيَّدُ^(١)
إِلَهُ يَتَغَيَّي مِنْي سُجُودًا ! لَقَدْ حَطَّمْتُهُ وَهُوَ الْمَبْدَدُ

وَهَذِي زَهْرَةٌ نَبَتَتْ بِثُرَيِّي بَدَتْ فِي حَمْرَةٍ مِنْ ذُوبِ قَلْبِي
تَقْبَلُهَا ، بِهَذَا الْقَلْبِ رَفَقًا فَلِي قَلْبٌ ، وَهَذَا الْقَلْبُ حَسْبِي^(٢)

لِهَذَا الشَّعْبِ إِنِّي قَدْ خَفَقْتُ وَلِحِنِي النَّارَ فِي رُوحِي خَلَقْتُ
وَجِزُّ الْقَوْلِ خَيْرُ الْقَوْلِ قَالُوا خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكُنِّي اسْتَرَحْتُ
بِفَطْرَةٍ مِنْ تَمَجَّنْ رَمْتُ صِدْقًا وَتَحْرِقُ زَفَرَتِي الْأَرْوَاحَ حَزَقًا^(٣)
سَحَابًا لِلرَّيِّعِ فَهَبْ ثَرَابِي وَفِيهِ الْحَبُّ أَنْثَرُهُ لِيَبْقَى

بَكْفِي الْقَلْبُ ، مَالِي مِنْ حَبِيبٍ مَتَاعٌ لِي ، فَمَنْ لَصَّ الدُّرُوبَ ؟^(٤)
وَهَذَا الصَّدْرُ فَلَتَسْكُنُهُ دَارًا وَحِيدٌ ، لَا أَشْبَهُ بِالْغَرِيبِ

بَيْتِ اللَّهِ كَالرُّومِيِّ أَذَانِي فَسِرُّ الرُّوحِ أَوْضَحُ وَالْمَعَانِي^(٥)
طَوَاهُ بَفْتَنَةِ عَصْرٍ قَدِيمٍ وَلَكِنْ لِي الْجَدِيدُ مِنَ الزَّمَانِ
لَكَ الْبَسْتَانُ أَنْبَتْ مِنْ ثَرَابِي وَلَوْنُهُ بِدْمُعِي فِي انْسِكَابِ

(١) ومث : أحب .

(٢) حسي : كفايتي .

(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .

(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .

(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

وما أملتُ سيفَ أبي ترابٍ فهبْ عيناً كسيفِ أبي ترابٍ^(١)

على شطِّ يطولُ به الوقوفُ فعنْ عملٍ وعنْ أملٍ عزوفُ^(٢)
لمنْ غيري أنا المسكينُ حقاً على أسرارِهِ كانَ الوقوفُ

ومنْ مناهُ للمحبوبِ عطراً وهذاكَ الربيعُ يرفُّ زهراً^(٣)
تناسى قَوْلَةَ قِلْتُ فمناً على قَضَائِهِ بالنَّارِ مَراً
غديري هَبْهُ دُرّاً مِنْ بِحَارِكَ متاعِي ضَعْ بطودِكَ أَوْ قِفَارِكَ^(٤)
بطوفَانٍ فَمَا فتحتُ قَلْبِي فهَبْنِي غيرُهُ طوعاً وبارِكَ

أثرتُ الوجدَ في نايي ، تأملُ بناري ذبتُ مُخْتَلِياً ، تأملُ
عرفتُ الفقرَ عَنْ سَلَفِي قَدِيماً عَنِ السُّلْطَانِ إِحْجَامِي ، تأملُ

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ .
والخبر في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ساقطاً عن ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً وعمار بن ياسر كانا رفيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما سنة وتتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان يطيب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلالاً نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَالِي أَغْنِي
مَعَ الْمَحْبُوبِ تَسْأَلُ كَيْفَ حَالِي
لَقَدْ شَارَكَتُ فِي وَجْدٍ وَرُودَا
فَمَنْ لَقَنْتَ شَوْقِي لَيْتَ شِغْرِي ؟
كَشَفْتُ اللَّبْسَ عَنْ مَعْنَى بَفْنِي
يُؤَافِي مَرَّةً وَيَغِيبُ عَنِّي
ضَمِيرَ الْعَيْشِ أَفْتَحُهُ وَئِيداً^(١)
أَغْنِي مَا أَغْنِيهِ وَحِيداً

بُشُورِكَ كُنْتُ أَفْتَحُ مُقْلَتِيكَ
وَأُنْسِي مُسْلِمٌ بِأَلْهَفٍ نَفْسِي
وَقَدْ شَاهَدْتُ أَعْمَاقَ الثَّرِيَّا
فَمُشْكَلُ (لَا) أَرَى صَعْباً عَلَيَّا^(٢)

بِأَرْضِكَ حَرَقْتُ الْأَلْحَانَ حَسْبِي
لِرَبِّي قُلْتُ مَتَشِيئاً بِوَجْدِي
مَنْ الْأَشْوَاقِ نَائِرَتِي لَتَنْظُرُ
وَلَيْتَ ابْنِي بِعَشْقِكَ فِي دَوَامٍ
وَبَدَأُ وَانْتِهَاءُ مِنْكَ ، حَسْبِي
رَسُولُ اللَّهِ يَا رَحْمَنُ ، حَسْبِي
فَلِأَنْهَارٍ مِنْ حَجَرٍ تَفْجُزُ
يُرَزِّقُنِ بِالتَّلَوُّنِ وَالتَّعَطُّرِ

قَتَى الْإِفْرَنْجِ^(٣) فَلْتَشْهَدْهُ حِينَا
قَتَانَا سَادِجٌ مِنْ قَرْطِ ظُرْفٍ
بَدَأَ قَمَرًا لَعِينِ النَّاطِرِينَا
وَقَاهُ اللَّهُ عَيْنَ الْكَافِرِينَا

يَمِينُكَ مُدَّهَا لِلْعَائِرِينَا
فَمِنْ نَارٍ أَضْرَمُهَا بِسُرُوجِي
إِلَيْكَ الرَّاحُ مِنْ كَأْسِ الْحَبِيبِ
وَمَنْ لِسَوَاكَ كَانُوا نَاطِرِينَا
نَصِيباً هَبْ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَا
لِتَسْكُنَ دَائِماً قَلْبَ الْحَبِيبِ

(١) وئيداً : على مهل .

(٢) في الأصل (لا إله) .

(٣) الإفرنج والإفرنجية والفرنج : اسم لسكان أوربة كلها ماعدا الأروام والأتراك .

أَيَا هَذَا (المليك) أَذَا سُجُودِ ! لتكنيسَ مُقْلَتِي دَارَ الْحَيْبِ^(١)

لَكَ السُّلْطَانُ لِكُنِّي فَقِيرُ لَأَرْضِ الرُّوحِ وَالْمَغْنَى أَمِيرُ^(٢)
وَدُنْيَا لَا إِلَهَ ، بَدَثَ تَأْمَلُ حَوَاهَا كُلُّهَا مِنِّْي ضَمِيرُ

دَوَاءٌ لَيْسَ يَنْجَعُ فِي سَقَامِي فَإِنِّي الشَّيْخُ قَدْ وَهَنَتْ عِظَامِي
أَلَا يُلْقُونَنِي عَنْهُمْ بَعِيداً أَلَسْتُ لِدِينِهِمْ أَحَدَ السُّهَامِ !
تَعَالَ وَفِي اغْتِنَاقِي نَحْنُ نَرْقُصُ وَدُنْيَانَا نُجَافِيهَا ، وَنَرْقُصُ^(٣)
وَعِنْدَ دِيَارِ مَنْ نَهَوَى تَوَقَّفُ دِمَاءَ الْعَيْنِ نَذْرِفُهَا ، وَنَرْقُصُ

(١) في الأصل اسم أحد الملوك .

(٢) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف . ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعففها عن ذل الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقاً من كل قيد . وفي كتابه جاويدنامه الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصيحة لولده قائلاً :

إن رأست القوم أو صرت الغنيا فعلى الفقر احرصن يا بنيا
(٣) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع نفوسهم من عالم الثرى ليمسوا بها إلى العالم العلوي . كما يشير الطرب والخوف عند التائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :

(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيتين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

بِصَخْرَاءَ لَكَ اخْتَرْتَ الْمَقَامَا وَيُشْبِهُ لَيْلَهَا الصَّبْحَ ابْتِسَامَا
فَفِي أَيِّ الْبَقَاعِ خِيَامَكَ انْصَبْ وَكَانَ الْجَبَلُ مِنْ أَحَدِ حَرَامَا^(١)

بِأَرْضٍ تَخْتَوِينَا الْيَوْمَ ضِيقَنَا وَمِنْ كُلِّ السَّمَوَاتِ انْطَلَقْنَا
أَرَاهُمْ سَجْدَةً قَدْ عَلَّمُونَا وَكُنْهُ الْحَاكِمِينَ بِهَا عَرَفْنَا
عَنِ الْإِفْرَنْجِ فَلْتَكُنِ الْبَعِيدَا لَقَدْ كَذَبُوا وَإِنْ بَدَلُوا وَعُودَا
لَكَ النُّظْرَاتُ خُذْهَا عَنْ «مَلِيكَ» وَشَكَّلْ عَالَمًا حُرًّا جَدِيدَا^(٢)

(١) يقول : إن اقتراض جبل الخيمة من أحد حرام .

(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .

القسم الثالث

المُجْتَمَع

عَدِمْتُ أَنَا كَلَامَ الْعَارِفِينََا فَطَبِعِي كَانَ طَبِيعَ الْعَاشِقِينََا
يَدْمَعُ مِنْ دَمٍ فِي الرُّوضِ هَذَا لِفَرْطِ الْوَجْدِ أَفَعَمْتُ الْعُيُونَا^(١)
وَدَارُكَ تَشْبَهُ الْقَمَرِ الْجَدِيدَا بِأَوْجِ سَمَاكَ حَاوِلَ أَنْ تَزِيدَا
سَتَنُمُوا إِنِّ وَهَبْتَ اللَّهُ قَلْبَا طَرِيقَ الْمُصْطَفَى فَاسْلُكْ رَشِيدَا

عَلَوْتُ كَمَوْجَةٍ مِنْ بَخْرِ دَاتِي كَمَنْتُ كَجَوْهَرٍ تَحْتَ الصَّفَا^(٢)
وَكُنْتُ غَضْبَةً النَّمْرُودِ مِنِّي أَعْمُرُ بَيْتَ رَبِّي فِي حَيَاتِي

بِجَامِكَ سَاقِسِي الْجُلَاسِ أَقْبَلْ عَلَى الدَّارَيْنِ هَذَا الذَّيْلَ أَسْبِلْ^(٣)
حَقِيقَتَنَا لَنَا الْخُمَيْرُ أَبْدَى لِمُلَا لَا تَقُلْ «ذَا الدِّينُ قَاعِقِلْ»^(٤)
تَعَالِ عَنِ الْجَبِينِ اطْرَحْ نِقَابَا فَدَمْعِي يَخْتَوِي قَلْبِي الْمَذَابَا
يَلْخَنِ لَيْسَ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ لَتَعْرِفَ (لَا تَخَفْ) تُطْرِبُ صِحَابَا^(٥)

وَمِنْ صَدْرِ لَكَ التَّكْبِيرَ صَعُدْ وَيَا الْأَكْسِيرِ تُزْبِكَ فَلْتَجِدْ
وَذَاتِكَ فَاْمْلِكَنَّ تَعِشْ سَعِيدَا لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْأَقْدَارَ حَسِدْ

(١) أفعم : ملا .

(٢) الصفاة : الصخرة .

(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .

(٤) الخُمَيْر : السكر . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالمشق الإلهي .

(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ والخطاب من

الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

يَبْلُكَ الذَّاتِ شَارَفَتِ الْكَمَالَ
إِذَا مَا قُلْتَ ذَاتِي لِي مَتَاعٌ
وَأَنْتَ الذَّاتُ يَوْمًا إِنْ تُشَاهِدُ
وَتِلْكَ الذَّاتُ إِنْ غَرَبَتْ عَنْهَا
وَالْأُكُنْتُ لِلْعَبْدِ الْمِثَالَا
فَنَسِيَانُ لَهَا لَيْسَ الْحَلَالَا^(١)
تَقْرَأُ كَجَوْهَرٍ فِي الْبَحْرِ رَاقِدُ
فَأَنْتَ لِأَجْلِ هَلِكِكَ مَنْ تُجَاهِدُ

كَشَفَتِ السُّرَّ عَنْ وَجْهِ الْمَصَائِرِ
وَمِمَّا قُلْتَ إِنْ أَضْمَرْتَ شَكَا
يَنْهَجُ الْمَضْطَّقُ سِرَّ يَا مُسَافِرُ^(٢)
فَمَتَّ يَا مَنْ شَكَّكَ وَأَنْتَ كَافِرُ

لِتَرْكَ فَتَحُوا مَا أَوْصَدُوهُ
تَمَسَّكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِذِيْلِ ذَاتِ
إِذَا قَوْمٌ رَبَّيْعُهُمْ تَوَلَّى
وَتُنَيْتُ أَرْضَهُمْ زَهْرًا وَلَكِنْ
وَفِي مِضْرَ آسَاسٍ وَطَدُوهُ
يَغْيِرُ الذَّاتِ ذَا لَمْ يَغْهَدُوهُ
فَعِطْرُهُمُ التَّوَهُّمُ لَيْسَ إِلَّا
تُشَاهِدُ لِلذُّبُولِ عَلَيْهِ ظِلَا

وَلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّي لِشَغَبِ
وَلَكِنْ لَا يُحِبُّ اللَّهُ شَغَبًا
زَمَامًا يَمْلِكُكَ لِكُلِّ أَمْرِ
بِهِ الْفَلَاحُ يَزْرَعُ كَيْ يُلْبِّي

مِنْ الرَّازِي كِتَابَ اللَّهِ فَافْهَمْ
وَلَكِنْ لِي كَلَامٌ فِيهِ فَاَنْظُرْ
وَمِنْهُ الثُّورُ خُذْ فَالْلَيْلُ أَظْلَمُ
أَنْحِيَا بِالْفُؤَادِ وَمَا تَصَرَّمُ^(٣) ؟

-
- (١) يوجه الخطاب إلى المسلم .
(٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات فعبّر عن الدنيا إلى الآخرة .
(٣) تصرَّم : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِذَاتِكَ لَا إِلَهَ فَضُمَّ مَرَّهٗ لِيَخْرُجَ مِنْ تُرَابٍ مَاتَ نَظَرَهُ
وَلَا تَقِيْضُ يَمِيْنُكَ عَنْ صُبُوْدِ لَهُ الْقَمَرَانِ فِي وَهَقٍ بِجُرَّهٗ^(١)

جَهْوً ، عِلْمُ هَذَا الْقَلْبِ ، فَأَعْلَمَ طَرِيْقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَأَعْلَمَ
تَمَكَّنَ مُؤْمِنٌ مِنْ كَشْفِ سِرِّ بِلَا مَوْجُوْدٍ إِلَّا اللهُ ، فاعلم^(٢)

بِقَلْبِكَ مَا اخْتَفَى هَذَا اللَّهَابِ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا لِلنُّوْرِ بَابُ
طَرِيْقِ الذَّاتِ فَاَنْضَحْهَا بِمَاءِ لِبَحْرِ لَا يَرَى فِيهِ الْعِبَابِ^(٣)

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأُس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأمانى . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهبه الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصبود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلمح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنا الحق) ذي مقامِ الكِبَرِيَاءِ أَكَّانَ لَهَا الصَّليبُ مِنَ الْجَزَاءِ !
فَهَذَا جَائِزٌ فِي رَأْيِ قَرْدٍ وَيَبْطُلُ عِنْدَ قَوْمٍ بِالإِبَاءِ ^(١)

أَلَيْسَتْ قَوْلَةٌ لَاقَتْ بِشَغَبٍ يَجُودُ دَمًا لِعُضَنِ فِيهِ رَطْبُ
جَلَالٌ فِيهِ قَدْ أَخْفَى جَمَالًا تَجَلَّى فِي سَمَوَاتٍ لِقَلْبِ

وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ سَمَا مَقَامَا فَلِلدَّارَيْنِ قَدْ كَانَ الْإِمَامَا
وَلَمْ يَمَسْسْهُ فِي خَلْقٍ لُغُوبٌ عَلَيْهِ النَّوْمُ يَجْعَلُهُ حَرَامَا ^(٢)
سَعِيرُ الْقَلْبِ تَشْهَدُهُ الْعُيُونُ وَدُنْبَاهُ الْهَشِيمُ وَكَمْ يَهُونُ
يُبَيِّنُ بِهِمَّةٍ مَعْنَى أَنَا الْحَقُّ وَتَأْتِي بَعْدَ كُنْ دَوْمًا يَكُونُ ^(٣)

جَنَاحٌ مِنْهُ يَخْفِقُ فِي الْفَضَاءِ وَيَزُمُّقُ عِشَّةُ وَالْعُشُّ نَاءِ

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكائرة من شيوخ المتصوفة الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والضمن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) واصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصيح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِي وَهْنٍ لَهُ الْقَمَرَانِ صَنِدٌ وَطَوْعُ يَمِينِهِ كُلُّ الرَّجَاءِ^(١)

بِشَّانٍ تَرَاهُ الْعُنْدَلِيَّيَا وَصَفْرًا كَانَ فِي مَزَجٍ مَهِيَّيَا
أَمِيرٌ فِيهِ قَدْ يَنْدُو فَقِيرًا فَقِيرٌ مِنْ غَنَى نَالَ النَّصِيَّيَا
إِلَيْكَ الْكَأْسَ أَفْعُمُهَا بِخُمُرٍ وَنُورَكَ صَبَّ فِي جُحْرِ وَقْضَرٍ
وَنَلَّ مِنْ غُضَنِ مَنْصُورٍ ثَمَارًا وَقَلْبُكَ فِيهِ (إِلَّا اللَّهَ) تَسْرِي^(٢)

الصوفيُّ والمُلاّ

هُوَ الْمَلَأُ ، عَبُوسٌ وَكَتَّابٌ وَقِشْرًا لَا يَمِيزُ مِنْ لُبَابٍ
بَيَّنْتَ اللَّهَ يَطْرُدُنِي لِديني وَذَلِكَ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْعُجَابِ^(٣)

بَيَّنْتَ اللَّهَ صَيَّادٌ وَدَيِّرُ وَلِلصُّوفِيِّ لَمْ يَكُ أَيُّ ضَيَّرُ^(٤)
عَلَى الْمَلَأِ قَصَصْتُ الْآنَ هَذَا جَوَابًا لَمْ يَحْزُ وَدَعَا بِخَيْرٍ !
تَحَدَّثْ وَاعْظُ لِي عَنْ جَهَنَّمَ وَمِنْهُ كَافِرٌ فِي الْقَوْلِ أَخْزَمُ
غُلَامٌ حَالُهُ مَا إِنْ ذَرَاهَا وَقَالَ « جَهَنَّمُ لِسِوَايَ فَاعْلَمْ »

(١) الوهن : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .

(٢) منصور : الحلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .

(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويهتمونه بركة الدين .

(٤) يريد الغربي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما

يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين

وكرامة المسلمين .

مَرِيدٌ كَانَ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ لِشَيْخٍ فَاهٍ بِالْقَوْلِ الشَّدِيدِ
وَجَنَى الرِّزْقِ مَوْتُ ، مِنْ تُرَابٍ تَكُونُ فَوْقَ هَاتِيكَ اللَّحُودُ ،

لِشَيْخٍ كَانَ ذَا قَوْلٍ الْغَلَامِ تَأَمَّلْ وَاسْتَمِعْ لِسِي بِإِهْتِمَامٍ
لِهَذَا الْعَصْرِ نَمْرُودٌ جَدِيدٌ فَمِنْهُ اخْلُصْ خَلِيلًا لِلْأَنَامِ ،
لِمَلَأَ أَوْ لِصُوفِيٍّ أَسِيرًا ! وَفِي الْقُرْآنِ لِلْعَيْشِ الْكَثِيرِ
مِنَ الْآيَاتِ مَا أَذْرَكْتَ شَيْئًا وَمِنْ «يَاسِينَ» بُغَيْتِكَ الْحَفِيرُ^(١) !

لَكَ الْقُرْآنُ كَالْمِزَاقِ فَانْصُبْ وَنَفْسَكَ دَعْ إِذَا غُيِّرَتْ وَاهْرُبْ
لِمَا قَدَّمْتَ مِيزَانًا لِتَضَنِّعْ وَفِي الْمَاضِي قِيَامَاتٌ لِيَتَطَلَّبْ

عَلَى الصُّوفِيِّ وَالْمَلَأِ سَلَامِي كَلَامُ اللَّهِ قَالَا بِالتَّمَامِ
وَلَكِنْ أَوَّلًا مَّا أَوْلَاهُ فَحَارَ الرُّوحُ بِلْ خَيْرِ الْأَنَامِ^(٢) !

جَلَالُ الدِّينِ الرُّومِيَّ

تَرَشَّفَ يَا نَدِيمَ الرُّوحِ خَمْرًا لَهَا كَأْسٌ تُسَاوِي مُلْكَ كِسْرَى

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس لحيوا حياة حرة كريمة وتهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة «يس» فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وَلِلرُّومِ أَشْعَارُ رِقَاقٌ فَلَذِ يَحْمَى فُؤَادُكَ حِينَ تَقْرَأُ

وَفِي كَاسَاتِهَا لَوْنٌ تَوَرَّدُ بِهِ الْيَاقُوتُ يُضْبِحُ كُلَّ جَلَمَدٍ^(١)
وَقَلْبُ الْأَسَدِ تَمْنَحُهُ غَزَالًا وَمِنْهَا الْوَسْمُ عَنْ نَمِرٍ تَبَدَّدُ

وَفِيهَا مَسْوَرَةٌ مِنْهَا نَصِيي دُجَايَ سَنَا يَكُوكِبُهَا الْعَجِيبِ^(٢)
فَشَاهِدْ فِي الْحَمَى إِنْ شِئْتَ ظَنِيًّا بَدَا فِي بَشْمَةِ الْأَسَدِ الْغُضُوبِ^(٣)
حَيِّبٌ حُبُّهُ كَانَ اخْتِرَاقِي وَمِنْهُ الْوَضْلُ يَنْطَلِقُ عَنْ فِرَاقِ
جَمَالُ الْعَشْقِ مِنْ نَائٍ لَدَيْهِ تَسْرِينَ مِنْ عَلَاءٍ بِاتِّتِلَاقِ

وَلِي عُقْدِي ، فَحَلَّ بِمَا يَشَاءُ غُبَارٌ فِي طَرِيقِي الْكِيمِيَاءِ^(٤)
وَأَسْمَعَنِي لَهُ أَنْغَامَ نَائٍ فَفِي سُكْرِي وَفِي عِشْقِي رَجَاءُ

وَهَا قَدْ فَتَحُوا بَاباً لِقَلْبِي كَمَا خَلَقُوا لَهُمْ دُنْيَا بِتُرَيْبِي^(٥)
وَمِنْ قَيْضٍ لَهُ نِلْتُ اعْتِيَاراً فَبِي مَا حَقَّقُوا مِنْ صُنْعِ شُهْبِ
نُجُومِ الْأَفْقِ جَالِسٌ بِالْخَيَالِ وَرَاءَ الْبَذْرِ يَنْظُرُ فِي مَجَالِ
فَقَدَّمَ قَلْبَهُ الضَّاوِي إِلَيْهِ لَهُ الْأَنْفَاسُ تَخْفِقُ فِي انْتِصَالِ^(٦)

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .

(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .

(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .

(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .

(٥) الترب : التراب .

(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَنِ الرُّومِيِّ خُذْ سِرَّ الْفَقِيرِ يُثِيرُ بِفَقْرِهِ حَدَّ الْأَمِيرِ
وَفَقْرٌ ذَلِكَ لَكِنْ مِنْهُ فَاخْذَرْ مَقَاماً نِلْتَ يُذْنِي مِنْ حَفِيرِ^(١)

وَعَنْ ذَاتِ إِلَهِي وَهُوَ نَاءٍ تُمِذْ الْكَفَّ فِي طَلَبِ الْعَطَاءِ
وَلِلرُّومِيِّ عَيْنٌ حَقَّقَتْ لِي سُرُوراً مِنْ مَقَامِ الْكِبَرِ يَسَاءِ
رَجِيئُ طَابَ مِنْ كَرَمِي تَدَقُّنْ وَيَسْعَدُ مَنْ بِذَنَلِي قَدْ تَعَلَّقُ^(٢)
نَصِييِي كَانَ مِنْ لَهَبٍ قَدِيمَا سَنَائِي نَالَ وَالرُّومِيَّ يُخْرِقُ

إلى مصر

رِيَّاحَ الْبَيْدِ وَافِينِي وَسِيرِي عُبَابَ النَّيْلِ فِي خَفَقِ أُثِيرِي^(٣)
وَأَذِي الْقَوْلَ عَنْ عُمَرٍ فَقُولِي « كُنِ السُّلْطَانَ يُعْرِفُ بِالْفَقِيرِ »

وَمَا تِلْكَ الْخِلَافَةُ غَيْرَ فَقْرٍ لَهُ تَاجٌ ، فَكَانَ دَوَامَ أَمْرِ
تَمَسَّكَ يَا فَتَى دَوْماً بِفَقْرٍ بِغَيْرِ الْفَقْرِ مُلْكُكَ عِنْدَ قَبْرِ

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سرير يري) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ،
والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكانه يريد ليقول : أن تلقى
الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيق : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْمًا مَن يُشَاهِدُ يُقِمُّ فِي الْعَدِّ لِلدُّنْيَا الْقَوَاعِدُ
وَمَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ يَخْلُوتُهُ بِذَاتٍ ، وَهُوَ قَاعِدُ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابْغِ بَابًا وَخُذْ مِنْ شَيْخِ حَانَاتِ شَرَابَا
إِلَى الْحَاجَاتِ فَلَتَسْلُكْ سَبِيلًا لَتَطْرُخَ مَظْهَرًا وَاطْهَرِ لِبَابَا

وَتَسْعُدُ أُمَّةٌ لِلذَّاتِ عَادَتْ وَفِي عَمَلٍ وَفِي نَصَبٍ تِمَادَتْ^(١)
سَبْلُكُمْ نُورُهَا فِي الْأَفْقِ شَرْقًا إِذَا بَسِيوْفَهَا ضَرْبًا أَرَادَتْ

وَمَلَّاحُ مِنَ الْأَتْرَاكِ طَرَّبَ بِذَوْبِ الْوَرْدِ مِنْهُ الْخُدَّ رَطَّبَ^(٢)
إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ فِي الْبَحْرِ سِيرًا فَلِي الطُّوفَانُ أَقْهَرُهُ وَأَرْكَبُ
بِمَلِكِ الْأَرْضِ قَدْ مَزَجُوا ثَرَانَا بِآيَاتِ الْإِمَامَةِ هَلْ تَرَانَا^(٣)
لِنَادِينَا بَعْمَقِ الذَّاتِ شَاهِدُ بِهَذَا الْقَلْبِ حَبًّا مِنْ ذُرَانَا^(٤) ؟

وَأَسْرَارَ الْيَقِينِ إِذْ عَرَفْتَا عَنِ الْاِثْنَيْنِ عَيْنَكَ هَلْ كَفَفْتَا
لِمَصْبَاحَيْنِ نُورٌ لَيْسَ إِلَّا بغيرِ الدِّينِ مُلْكًا هَلْ أَلْفَتَا

(١) النصب : الإعياء .

(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :

(لو اكثر هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لو هبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .

(٣) الآيات : العلامات .

(٤) ذرى الحب : نثره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عرّضتَ ذاتكَ لاختبارٍ خلقتُ لكَ السماءَ من الغبارِ
شرارُ الشوقِ طَيَّبَ القلبَ منه تُضيءُ الشمسَ في وضحِ النهارِ^(١)

شعراء العرب

وقل للشاعرِ العربيِّ عَنِّي لياقوتِ الشفاءِ البخسِ مُني^(٢)
قبستُ النورَ بالقرآنِ حتَّى جعلتُ الليلَ لي فجراً يغني

وفي الأرواحِ قد أذكىتم جمرًا ترابي ما يراه الناسُ قصرًا^(٣)
غديرٌ ساكنٌ حركتَ فيه عباباً ، ثارَ في النكباءِ بخرًا^(٤)

أرسمُ صورةً ؟ لا يا غريز لتعملَ ما يحبُّذه الضميرُ^(٥)
وروضتُنا خفقتَ بها جناحاً حنيفاً خُصَّ بالقبسِ المنيرُ^(٦)
تَرابٌ نحنُ ذو قلبٍ كئيب وطلُّ ظلٍّ في الغصنِ الرطيب
وقدَا النبغُ فجَّره بِسحرٍ جوانحُ مسلمٍ حرِّمَ القلبُ^(٧)

(١) الخطاب إلى المسلم .

(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاء ولا شبهها بالياقوت .

(٣) أذكى النار : أضرها .

(٤) النكباء : الريح بين الريحين .

(٥) الغريز : الناقص التجربة .

(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .

(٧) القلب : البثر . والمقصود بها بثر زمزم .

وَيَحْوِي قَلْبُهُ أَسْرَارَ ذَاتِ
بَنُورِ اللَّهِ تَشْهَدُ فِيهِ حَسَنًا
لَهُ أَصْلٌ بِقَلْبِ الْكَائِنَاتِ

لَتَمْنَحَ ذَاتَهُ نُورًا وَنَارًا
وَذَاكَ اللَّحْنَ فَلَتَعَزِفَ بِفَيْضِهِ
لَغَيْرِكَ يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ حَزَقُ
وَذَاتُ أَنْتَ تَنْكَرُهَا لَشَعْبِ
لِيَصْبَحَ لَيْلُهُ الدَّاجِي نَهَارًا
فَذَلِكَ ذَوْقُ تَبْدِيلِ أَثَارًا
وَمِثْلُ خَفُوقِ قَلْبٍ سِوَاكَ خَفَقُ
« وَنَحْنُ الشَّعْبُ » قَوْلُ مَنْكَ حَقُّ

وَلِلْأَرْوَاحِ أَسْرَارُ دَرَاهِمَا
لَتَعَزِفَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ لَحْنًا
بَعَيْنِ الذَّاتِ مِنْ دُنْيَا رَاهَا
حَيَاةً مِنْ ذُبُولِ قَدْ بَرَاهَا

لَتَحْفَظَ مَا يَصْلُصَالٍ لَدَيْكَ
لِهَذَا أَوْ لَذَاكَ الدَّنْ خَلُورُ
وَهَذَا اللَّيْلُ يَوْحِشُنَا بِقَدْ قَدْ
وَلَيْسَ يَضِيءُ رَهْبَانِ مِرَاجَأُ
فَكَمْ مِنْ نَشْوَةٍ حَامَتْ عَلَيْكَ
وَقَلْبُكَ قَدُمُ الصَّهْبَا إِلَيْكَ^(١)
فَأَيْنَ الْمَاءِ وَالشَّحْرُورُ غَرْدُ^(٢)
فَشَمْسُ الصَّبْحِ حَتْمًا سَوْفَ تَشْهَدُ

وَفِي سِيَمَاكَ ذِي نَظَرًا فَكَّرُزْ
وَسَزْ مِثْلِي بِصَحْرَاءِ الْحُمَى سِرْ
وَفِيمَا تُخَيِّئُ الْآيَامَ فَكَّرْ
لَأَنَّكَ عَمَقَ ذَاتِكَ قَدْ تَقَدَّرْ

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .
(٢) الفدغد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التفريد .

يا بنَ الصحراءِ

تَنِيرُ الْبَيْدَ بِالْفَجْرِ الْجَمِيلِ وَيَصْدَحُ طَائِرٌ بَيْنَ النَّخِيلِ^(١)
« خِيَامُكَ يَا فَتَى الصَّحْرَاءِ دَغَهَا أَيْمَكُنْ أَنْ تَعِيشَ بِلَا رَحِيلٍ ؟ »

وَاللُّؤْكَبَانِ مِنْ عَرَبٍ دَلِيلُ فَمَحْنَةُ رَبِّهِمْ فَقَرُّ طَوِيلُ^(٢)
وَهَذَا الْفَقْرُ إِنْ أَمْسَى غِيوراً تَرْجَفُ كُونَنَا وَهُوَ الذَّلِيلُ

شَهَدْنَا الصَّبْحَ فِي لَيْلٍ مَبِينَا تَجَلَّتْ فِيهِ أَنْوَارُ لَيْسِينَا^(٣)
صَحَحْنَا مِنْ رِيَّاحِ الْبَيْدِ رَوْحاً فَمَنْهَا الْقَوْمُ كَانُوا الْقَادِمِينَ

وما يدريك أنَّ المغوارَ فِي هذا الغبارِ

رِضَاكَ وَذَلِكَ التَّسْلِيمُ مَذْهَبُ وَعَنْ نَهْجٍ لَصَدَقِ أَيْنَ تَذْهَبُ
وَشِعْرِي لَا تَفْشُرْ بِاجْتِهَادٍ جَنُونِي فِي حِجَايَ لَدَيْكَ مَكْتَبُ^(٤)

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَلٍ عَلَى النَّارِ هُذًى ﴿ ويقول الشاعر : إن الأمم ظهرت من سينا .

(٤) الحجي : العقل . المكتب : المدرسة .

وهذا المرجُ أَفْقَرُ مِنْ جنوزي وأصبح كالغريب بلا خدين
وفي بلدٍ أصبح ومن صياحي جنونٌ ظلَّ كالعقل الوزين

ربيعي منبتٌ في الفجرِ زهري وإنني مُخْرِقُ زَهْرِي بِجَنَرِي
أتحسبُ أنني أَبْقَى وَجِيداً وزهري ليسَ يدخلُ تحتَ حَصْرِ
أتركني المشتَّتُ كالغبارِ على النسماتِ مَسْلُوبَ القرارِ
فطوبى لي ويَا بُشْرَى فُوَادِي فَمَنِي فَارِسٌ يَبْدُو بَغَارِ^(١)

يسودُ القومَ في زمنٍ يَضِيرُ ويظهرُ فيهمُ البطلُ الشهيرُ^(٢)
لديه السرُّ من أسرارِ غيبٍ أَكُلُ ثَرَى بِهِ بطلٌ جَسُورُ

خَفَقْتُ كموجةٍ في موجِ ذاتِي إلى الطوفانِ أَذْتُ سَافِيَاتِي^(٣)
ومَا شَهِدْتُ لَوْناً مِثْلَ هَذَا وإِلَّا مِنْ دَمِي رُسْمُ شِيَاتِي^(٤)
دِنَانُ الخمرِ بالنظراتِ أَفْعَمُ وَرَاحَ مِنِّي بهَذَا الكرمِ أَفْحَمُ
ومن طوفانِهِ أُنْسَى غَدِيرُ صَغِيرٌ مِنْ بحارِ البحرِ أعْظَمُ

زَمَامَ الركبِ يوماً إِنْ تَسَلَّمَ فَقَدْ كَشَفَ الخفا عَنْ كُلِّ مَبْهَمٍ
وأَظْهَرَ مِنْ بِأَفْلَاكِ جِهَاراً سَمَوَاتٍ بِهَا مَا كَانَ يَهْتَمُّ

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المنتصر من ورق الكرم .

(٢) يضير : يؤذي .

(٣) السافيات : الرياح .

(٤) الدمى : الصور والتماثيل . الشيات : الألوان .

وَزُفَّ لِهَذِهِ الرُّوحِ التَّهَانِي
أَلُوذُ بِحَضْنِهَا أَمَّا رُؤُومًا
يَقُولُ الصَّدْرُ فِي قَلْبِي حَبِيبُ
وَعِنْدَ الْمَوْتِ فِي سَمْعِي يَدَوِي
أَلَمْ تَلِدِ الْأَمِيرَ رَفِيعَ شَانٍ
وَأَخْجَلُ مِنْهُ حُورًا فِي الْجَنَانِ
مَغِيرٌ جَاءَ هِيءَ مَا يَصِيبُ
« بِسَقْطَةِ زَهْرَةٍ ثَمَرٌ يَطِيبُ »

الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ

بَنُورٍ لِلنَّبِيِّ الْقَلْبُ أَضْرَمَ
وَلَكِنَّ الْخِلَافَةَ وَسَطَ تَبِ
أَنَارَ بِشَرْقِهِ مَا كَانَ أَظْلَمَ^(١)
فَهَذَا الْمُؤْمِنِينَ الْمَلِكُ عَلَّمَ^(٢)

وَنَشْهَدُ أَنَّنَا نَسْتُمُو مَقَامَا
خِدَاعُ كُلِّهِ ، بَلْ كُلُّ مَكْرٍ
وَهَذَا الْمَلِكُ قَدْ كَانَ الْحَرَامَا^(٣)
وَتَرَعَى عَهْدَ رَبِّي وَالذَّمَامَا^(٤)

نَزَاعٌ فِيهِ مَلِكٌ وَالْكَلِيمُ
هِيَ الْأَقْدَارُ تُجْرِي كَيْفَ شَاءَتْ
وَمَنْ أَكْدَى وَأَعْوَزُهُ كَلِيمُ^(٥)
فَعَصْفُ الرِّيحِ مَا وَهَبَ النَّسِيمُ !
هُوَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَلَامُ
لِفَقْرِ عَظِيمٍ قَوْمٌ كُنْتُ عَبْدًا
وَلَيْسَ لِمَا يَزَاوُلُهُ تَمَامُ
لَدَيْهِ الْمَلِكُ فِي دِينٍ حَرَامُ

-
- (١) يقصد العربي .
(٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .
(٣) الخلافة هي التي تشهد .
(٤) الذمام : الحرمة والحق .
(٥) أكدي : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بنظرتي المحبة ما يدوم ومنه السكرُ تفديراً يرؤم
وهذي « عبده » كانت مقاماً بترييب لأشواقٍ يقوم^(١)

التركي العثماني

بملكك واسع أضحى أميراً بقلبٍ قد وعى أمسى بصيراً
يظل من الفرنجة في قيودٍ لسحرٍ طلسمهم بقي الأسيراً

لمن قد أبطلوا ذا السحر طوبى تحدى قبلهم قوم خطوباً^(٢)
بذاتك فاعترف واليأس جانب

بهم قد حقق الترك الرغائب ونالوا بغتة أعلى المراتب
ليس لمسلم عيناً بصيراً لقد كشف المصير له الأجانب

(١) تردد ذكر « عبده » في ديوان « رسالة الخلود » لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان « الحلاج » :

عفر العالم خدأ عنده	نفسه سمى النبي عبده
عبده فهماً ليديك تبهر	إنه الإنسان وهو الجوهر
عبده قد شكلت هذا القدر	بالفيافي الخصب منها قد ظهر
غير عبد عبده فلتعتبر	عبده فيها انتظار المنتظر
عبده كنه جميع الكائنات	عبده فيها معان مغلفات

(ص ٢٠١-٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاة المجتمع

فتاتي دعك من هذا التجمل^(١) من الكفار نزين أجمل؟^(٢)
وصدّي القلب عن توريد خدّ فإن الغزو من عين التأمل^(٣)

لك النظرات من ربي حسام لروح من جراحات قوام^(٣)
ومنها يستمد القلب شيئاً فمساء للحياء هو المرام

ضمير العصر ليس له نقاب على حسن تفكّح منه باب
بنور الله دنيّا فلتنيري عليه في تجليه الحجاب
ويصلح عشنا بالأمّهات أمين قلبهنّ لممكنات
وهذا إن يغب عن فكر قوم فليس لأيّ أمر من ثبات

أصنّنا العقل من ذاك الجنون بنظرة هذه الأم الحنون
وما في مكتب عين وقلب وهل من مكتب غير الفنون

ويسعد من رأوا بالواردات قيامات بتلك الكائنات^(٤)

(١) يجمل : يحسن .

(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .

(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .

(٤) الواردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكر ولا تدبر .

وما قد فات أو ما سوف يأتي لهم أبدى جبين الأمهات
ونُصحي فاجعليه ملء أذنك ليفنى الناس طراً قبل دفنك^(١)
عن العصر اختفى ، كوني بتولاً ليبقى شبرٌ في دفء حضنك^(٢)

ومن ليل لنا فجرأ أنيري إلى القرآن عودي بالبصير^(٣)
(قرات) وتعلمين لها أواز بها عمرٌ تغير في كثير^(٤)

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحرَّائمه وأدُ الطغاة
وَجُوءٌ فيه للإنسانِ شامت وأفسدَ نقشه حتى الهواة^(٥)

ونظرته بها تصويرٌ كفرٍ وليس كمالٌ فنٌ غيرَ جمرٍ

(١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن أمة تموت وأنت لا تموتين .

(٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

(٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .

(٤) يلوح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدهما يقرأان سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ثم أسلم .

(٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

ومن تُجاره في السوقِ فاحذر فهذا ميسّر في كلِّ أمرٍ

شبابَ القومِ هذا العصرُ أفسد لإبليسَ دُجَاهَ الصبحِ فاشهد
لَهُ الأذيالُ تطوينَا كَنَارِ فكلُّ شُعاعٍ نورٍ فيه يُخَمِّدُ
جَمَعْنَا بَيْنَ سُلْطَانٍ وَفَقِيرٍ وَمَا يَغْنِي وَمَا يَنْقُصُ لَدَهْرٍ
عِذَاذًا مِنْهُ بِالْبَارِي عِذَاذًا دُمُ الشَّيْطَانِ فِي السُّلْطَانِ يَجْرِي !

أرقصُ ذاكَ ؟ إني لستُ أدري أنشوءُ فرحةً أم سكرُ خمِرٍ
لتقليدِ الفرنجةِ كانَ رقصُ وليسَ دماً بعريقك وهو يَجْرِي

البرهمي

فتحْتُ لفتنةٍ باباً وباباً مشيتُ ، سقطتُ ، لاقيتُ الصعاباً
دُمى للبرهميِّ تزيّنُ طاقاً برأسِ الطاقِ علقْتُ الكتاباً ؟^(١)

أفني عملٍ ونى ؟ لا بل أطلّالاً له الأحجارُ يكسوها الصقّالاً^(٢)
بقوّةِ ساعديه برى إلهاً صلودَ الصخرِ قد يزُنُ الجبالاً^(٣)

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .

(٢) ونى : أبطأ .

(٣) برأ : خلق .

ويحفظُ بزهمي كُلَّ أمرٍ ولا يفضي إلى أحدٍ سرَّ
وهذي سبعةً قالَ أطرحها بزُنارٍ على كَتفيهِ يجري^(١)
وقالَ لتبتعدَ عن بابٍ غيرِ فمن أهلٍ لنا نحظى بخيرِ
ومَا تسعُ المساجدُ غيرَ مُلأ ومن سحرِ الدُّمى كَانَا بدَّيرِ

التعليم

يدومُ لقلبنا هذا اللهبُ كَسوطٍ ، والحياءُ هي النجيبُ^(٢)
فعلُّمُ ذاكَ أبناءَ فعلُّم لأنَّ كتابهم سخرٌ يخيبُ

ومن علمٍ بقلبٍ ليسَ حرقا نسأَلُ متوقِ خيرٍ وأبقى
وأضفى من عيونِ الصقرِ قلبُ هوَ المزورُّ عن دارِهِ حقًّا^(٣)

إلهي مؤمناً لا ريبَ يسألو من الروحِ الرقيقةِ وهوَ يخلو
لذا عن مكتبِ الخلانِ أمضى فما صادفتُ من بالذاتِ يغلو^(٤)
ألا يا حَبذا هذا الضريسُ إذا ما أخطأَ النظرَ البصيرُ
أفضلُ جاهلاً ورعاً تقياً بعلمٍ ليسَ يخدعُنِي الكفورُ

(١) أطرحها : ألقيها . الزنار : ما يشده النصراني وسطه .

(٢) النجيب : الفرس الكريم .

(٣) ازورُ : مال وحاد .

(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم النفس .

أَبْجَدِي الْفِكْرُ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ يَحُومُ عَلَى النُّجُومِ بِلَا انْتِهَاءِ
كَأَنَّ الرِّيحَ تَزْجِيهِ سَحَابًا فَتَاهُ مَمْرُقًا وَسَطَ الْفَضَاءِ^(١)

عَلِيمٌ زَانَهُ أَدَبٌ وَجَاهِلٌ كَرِيمٌ مِنْهُ مَنْ يَحْظَى بِحَاصِلِ^(٢)
وَمَا أَحَبُّهُ إِنْسَانًا عَلِيمًا وَمِنْ أَدَبٍ نَصِيبٌ غَيْرُ كَامِلٍ
لَمَّاذَا الْيَأْسُ مِنْ طِفْلِ صَغِيرٍ إِذَا مَا شِئْتَ فَانْعَثْ بِالْغَرِيرِ
وَلَكِنْ مَنْ يَعْلَمُهُ لَسَّالٌ أَلِأَطْفَالِ قَلْبٌ فِي الصُّدُورِ ؟

صَغِيرَكَ لَقِّنَ الدِّينَ عِلْمًا لِيَشْرِقَ سَعْدُهُ بَدْرًا وَنَجْمًا
وَلَوْ قَدَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَضْلًا لَزَيْنَ بِالْيَدِ الْبَيْضَاءِ كُفًّا^(٣)

غَنَاءٌ مِنْ بَلَائِلِ مَا أَصَابَا أَوَاثُ بِالْوُرُودِ لَدَيْهِ طَابَا^(٤)
يَعْلَمُ لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ فُخْرٍ فَعَنْ رُوحٍ لِأَجْلِ الْخَبْرِ غَابَا
إِلَهِي حَيٌّ لِلدَّرْوِيشِ ذِكْرِي يَفْتَحُ قَلْبَنَا عِطْرًا وَزَهْرًا
وَيَنْصَحُ طِفْلَنَا نَصْحًا حَكِيمًا « لَخَيْرُكَ لَا تَذِلَّ النَّفْسَ أَسْرًا »

و « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » مَنْ دَوْمًا تَذَكَّرَ مَنْ الْمَلَأَ وَمِنْ دَرَسٍ تَحَرَّرَ^(٥)

(١) تزجيه : تدفعه .

(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَأَضْمَمْتَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَءٍ ﴾
وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .

(٤) الأوار : لهيب النار .

(٥) في الأصل (لا إله) .

بِهَذَا الْعِلْمِ لَا تَبْشُطُ جَنَاحَا بِهِ الْإِنْسَانُ فِي عَجْزٍ تَحْيِيزُ^(١)

وَأَنْ لِّصْرٍ عَلَى رَكْبٍ أَغَارَا أَسْأَلُ كَيْفَ أَوْزَدَهُمْ بِوَارَا^(٢)
فَلَا تَأْمَنُ إِذَا حَصَلْتَ عِلْمًا فَمَنْهُ الرُّوحُ يُمْكِنُ أَنْ تُضَارَا^(٣)
فَتَى رَاقَتْ فَصَاحَتَهُ وَسِيمُ وَنَظَرَتْهُ كَلَيْتٌ لَا تُقِيمُ^(٤)
وَفِي دَرَسٍ تَلَقَّنَ عِلْمَ شَاةٍ وَمَا إِنْ يَسَّرَ الْوَرَقَ الْجَمِيمُ^(٥)

وَمَقْبَبِ أَيِّ شَيْءٍ مَا ذَرَاهُ إِلَهِي قَالِ إِنِّي لَا أَرَاهُ^(٦)
فَقَالَ أَبُوهُ قَدْ يُعْنَى بِعَيْرٍ بَعَثَتْهُ لِيُشْهَدَ مَنْ بَرَاهُ^(٧)

السَّعْيُ فِي الرِّزْقِ

أَمِنْ سَطْحٍ إِلَى سَطْحٍ تَطْيِيزُ بِهَذَا مَا سَمَتْ قَطُّ الصَّقُورُ
إِذَا مَا كَانَ صَيْدُكَ بَغْضَ رِيَشٍ فَخَيْرٌ مِنْهُ مَوْتُ فِي الْوُكُورِ^(٨)

-
- (١) فِي الْأَصْلِ : هَذَا الْعِلْمُ يَسْلُبُنَا عَيْنَنَا وَقَلْبَنَا وَيَدُنَا .
(٢) الْبَوَارُ : الْهَلَاكُ .
(٣) تَضَارُ : تَصَابُ بِالضَّرَرِ وَالْأَذَى .
(٤) يَشْبَهُ نَظَرَتْهُ فِي دَوَامِ حَرَكَتِهَا بِأَسَدٍ جَوَالٍ لَا عَرِينَ لَهُ .
(٥) الْجَمِيمُ : النَّبَاتُ .
(٦) السَّقْبُ : وَلَدُ النَّاقَةِ .
(٧) يُعْنَى : يَتَلَى . بَرَاهُ : خَلَقَهُ .
(٨) الصَّيْدُ : الْفَرِيسَةُ . الْوُكُورُ وَالْأَوْكَارُ : جَمْعُ وَكَرٍ وَهُوَ الْعَشُ .

لِذَاتِكَ نَظْرَةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ لَنَا مِنْ نَظْرَةٍ سَوِيًّا لِنَجْرِي
وَمَا نَسَعَى وَرَاءَ الذِّكْرِ إِلَّا لِكَيْ نَعْلُو وَنَعْلُو مِثْلَ طَيْرٍ

التمساح وصغيره

وَلِلتَّمْسَاحِ هَذَاكَ الْكَلَامُ «لَزُومُ الشُّطِّ فِي دِينِي حَرَامٌ
عَنِ الشُّطِّ ابْتِعِذْ مُوجِبًا تَسْلُقُ فَعِشْ بِحَرْنَا وَبِهِ نَنَامُ»

وَهَذَا الْبَحْرُ فِي صَدْرِ حَمَلَتِهِ وَذَا الطُّوفَانُ فِي حَرْبِ غَلَبَتِهِ^(١)
وَلَوْ فِي بُزْمَةٍ أَغْيَا وَأَغْفَى لَكَانَ مُقَاتِلًا مَا إِنْ قَتَلْتَهُ

خاتمة

عَنِ السَّاقِي وَعَنْ كَأْسِ الْمَدَامِ سَكَتٌ وَكَانَ عَنْ عَشْقٍ كَلَامِي
مِنَ الْأَخْيَارِ فِي قَوْمٍ حَدِيثًا سَمِعْتُ لِكَيْ أَبْلُغَ بِالنَّمَامِ

بِقَلْبِكَ أُمِّيكَنَّ وَعِذْ لِنَفْسِكَ وَصَدْرُكَ فَلْيَكُنْ دَارًا لِحَبْسِكَ
لِتَسْقِ الْحَقْلَ دَمْعًا مِنْ دِمَاءِ نَثَرْتَ الْحَبَّ فَلتَعْمَلْ بِفَأْسِكَ

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بِقَلْبٍ حَوْلَ هَذَا الْبَيْتِ طُفْنَا وَمَا كَمْطُوفٍ بِالْبَابِ كُنَّا^(١)
وَيَكْمُنُ بَيْنَنَا سِرٌّ عَجِيبٌ وَهَذَا الرَّمْزُ عَنْ جَبْرِيلَ عَنَّا^(٢)

العالمُ الإنساني^(٣)

كَانَ حُبُّ الْخَيْرِ لِلْمَرْءِ احْتِرَامًا كَيْفَ تَنْسَى أَنَّهُ يَسْمُو مَقَامًا
جاويدنامة^(٤)

تمهيد

عَلَيْنَا فَلْتُدِزْ كَأْسَ الشُّمُولِ وَنَضَّرْ لِي رَيْعًا فِي ذُبُولِ^(٥)
وَأَنْفَاسًا مِنَ الْأَنْفَاسِ مَبْنِي أَضْرَمَ نَارَ نَائِي بِالْأَلِيلِ^(٦)

بَقِيَتْ بِخُلُوةٍ فَلَتَأْتِ مَرَّةً وَصَدْرُكَ فِي الصَّبَا فَتَحُ بِخَطَرِهِ

(١) طوف : طاف .

(٢) عن عنه : بعد .

(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .

(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامة » لمحمد إقبال الذي ترجمته الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .

(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .

(٦) الأليل : الأنين .

مَقَامَ الرِّيحِ وَالْأَلْوَانِ دَوَى فَرَزْدَ فِيهِ لِهَذَا الطَّيْرِ تَبَرَهُ

أَنَارَ الدَّهْرُ فِتْنَتَهُ ، وَوَلَّى لِنَامِ النَّاسِ مَنْ رَبَّى ، وَوَلَّى
بِلَادَ اللَّهِ بَغْدَاداً مَحَاهَا عَلَى عَجَلٍ كَجَنَكِيْزٍ ، وَوَلَّى
بِهَذَا الْغَدِ كَمْ شَغَلُوا الْقُلُوبَا فَهُمْ فِي أَمْسِهِمْ ذَاقُوا شُعُوبَا^(١)
فَمَنْ فِي يَوْمِهِ أَحْيَا دَوِيّاً لِيَسْعَدَ أَوْ لِيَسْمَغَهُ الطُّرُوبَا ؟

أَنُخِتَ كَمَا يُنُوحُ الْعَنْدَلِيْبُ فَمَا لِلرُّوحِ مِنْ نَوْمٍ هُبُوبٍ
بِهَذَا الرُّوضِ قَطَفُ الزَّهْرِ حَلَّ وَلَيْسَ لَدَيْكَ مِنْ شَوْكِ نُدُوبٍ^(٢)

عَلَى الذَّاتِ انْطَوَاءً ، فَلْتُعْلَمْ بِظَفْرِكَ حَفَرُ صَدْرِكَ ، فَلْتُعْلَمْ
تَرْجِي رُؤْيَا الْمَوْلَى عَيَاناً فَرُؤْيَا عَمَقِ ذَاتِكَ ، فَلْتُعْلَمْ
عَنِ الشُّكُوى مِنَ الْأَيَّامِ أَقْصَرُ فَمَنْ لَمْ يَنْصَهَرْ كَالثَّبْرِ يُخْسِرُ^(٣)
يَطِيبُ الْمَاءُ فِي نَهْرٍ بِصَخْرٍ يَشْتَتُ مِنْهُ أَمْوَاجاً وَيَكْبِرُ

عَنِ السُّورَقَاءِ لِلْفَزَخِ الصَّغِيرِ « بَطَّعَ كَيْفَ نَخِيّاً كَالْحَرِيرِ^(٤) »
فَقُلْ فِي نَشْوَةِ الْأَشْوَاقِ يَا هُوَ وَخُذْ مَا زَانَ هَامَاتِ الصُّقُورِ »

(١) شعوب : الموت .

(٢) الندوب : جمع ندب وهو أثر الجرح .

(٣) أقصر عن الكلام : سكت .

(٤) السُّورَقَاءُ : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُوَئِكَ مِنْ مَقَامِ الْكِبْرِيَاءِ وَعَقَّرْتَ الْجَبِينِ لِأَذْنِيَاءِ^(١)
وَسَاهِينَا أَرَاكَ تَصِيدُ ذَاتَا وَلَكِنْ فِي شِبَاكِكَ بِأَرْتَمَاءِ
لَكَ الْبُشْرَى فَذَاتَكَ تَسْتَرِدُّ وَمِنْ فَقْرِ غِنَى مَا تَسْتَمِدُّ
حَيَاةَ الْخُلْدِ هَذِي فِي يَقِينِ وَفِي حَدْسٍ لِمَوْتٍ تَسْتَعِدُّ^(٢)

أَعَنْ ذَاتٍ تَحْجَبُ بِالْحِجَابِ إِلَيْهَا حَبْذَا يَوْمُ الْإِيَابِ
وَفِي رِزْقِي لِي التَّفَكِيرُ كَفَرُ وَأَنْتَ كَفَرْتَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ^(٣)

لَسَقِبَ قَالَ هَذَاكَ الْبَعِيرُ تَأْمَلُ أَنْتَ لِي نِعَمَ النَّظِيرُ
لَتَعْمَلْ مِثْلَنَا ، جِنَا الصَّحَارَى بِأَحْمَالٍ لَنَا كُنَّا نَسِيرُ^(٤)
كَلَامُ جَهْدِ الْإِفْرَنْجِ قَالَا وَفِي كَوْنٍ وَفِي عَدَمٍ أَطَالَا^(٥)
مَنْ الْأَعْجَامُ شَيْخٌ قَالَ قَوْلَا أَبْلَغُهُ ، فَأَلْقِ إِلَيْهِ بَالَا

غَرِيبٌ عَنْكَ يَجْعَلُكَ الْقَتِيلَا لِقَلْبٍ تَشْتَرِي الْحَزْنَ الْوَيْلَا^(٦)

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم .
ويروى أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى
رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته :
(اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس لعلم العشق دفتر عندنا) .

(٤) جاب الصحراء : اجتازها .

(٥) الجهيد : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .

(٦) الويل : الشديد .

وَيَفْضُلُ كُلَّ تَأْوِيلٍ لِشَيْخٍ مَعَ الذَّاتِ الْجُلُوسُ وَلَوْ قَلِيلًا

وَجُودُ ذَاكَ أَمْ هَـذَاكَ مَظْهَرُ حَكِيمٍ عِنْدَنَا الْإِشْكَالَ فَسَّرُ
وَعَلِمُ الْغَوْصِ ضَمَنَهُ كِتَاباً وَلَكِنْ لَبَنَهُ فِي الْعُمْرِ أَنْحَزُ^(١) !
إِلَيْكَ الْفَاسَ ، هَذَا يَسْتُسُونُ وَبَادِزُ ، دَهْرُكَ الْعَاتِي خَوْوُنُ^(٢)
شَرَّازَ الْفَاسِ دَعِ مَنْ قَالَ عَنْهُ أَمِنْ فَاسٍ ؟ أَمِنْ حَجَرٍ يَكُونُ ؟

سِرَاجُ مُنَاكَ فِي كَفَيْكَ أَبْوِ مَقَامَ الْهَاتِفِينَ قَنَلٍ بِحَقِّ
وَفِي دُنْيَاكَ فَاحْذَرْ مِنْ ضَيَاعِ بِذَاتِكَ خُذْ ، دَعِ الدُّنْيَا لِمَعْقُوقِ^(٣)

وَهَذَا الْقَلْبُ بَخْرٌ مِنْكَ يَسْكُنُ وَمِنْ جَرَاكَ فِيهِ الدُّرُّ يَكْمُنُ^(٤)
فَسَرِّ يَا مَوْجُ وَاحْذَرْ مِنْ سُكُونِ فَهَذَا الْبَخْرُ دَارًا مِنْكَ يَخْضُنُ
إِلَى ذَاتِ لَكَ الدَّارَيْنِ فَاجْذِبْ أَعَنْ ذَاتِ تَشْرِقُ أَوْ تَغْرِبُ
وَيَسُومَكَ مِنْهُمَا نُورًا لَتُبْصِرَ وَهَذَا الثُّورُ يَسُومَكَ لَا تُجْنِبُ

(١) يتهمك الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .

(٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . ويستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريقاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .

(٣) محققه محققاً : أهلكه .

(٤) من جراك : من أجلك .

لَنَا يَا زَهْرَةَ هَا قَدْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِ الْحَسَنِ دُنْيَانَا أَنْزَتْ
وَهَذِي زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ قَالُوا بَغْضِنِكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ صُرْتَ ؟

مَنْ التَّبْرِيحَ لَا يَبْكِي الرَّجَالَ بِصَرْفِ الدُّهْرِ يَوْمًا لَمْ يُيَاوُوا^(١)
وَقَدْ تَبْكِي وَلَكِنْ لَسْتَ مِنْهُمْ لِدَمْعٍ مِنْ لَظَى الشَّوْقِ انْهَمَالُ^(٢)
وَمَنْ فِي مِخْنَةِ نِسِي الْفَنَاءِ وَلَوْ شَهِدَتْهُ فِي الْمَوْتِ السَّمَاءُ^(٣)
وَأَنْتَ بِمَوْتِهِ هَذَا جَدِيرٌ وَإِلَّا فَلَنْمُتَ مَوْتًا تَشَاءُ

تُرَابُكَ وَهُوَ عَنْ رُوحٍ غَرِيبٍ غَصُونُكَ لَيْسَ يَرُويهَا صَيِّبُ^(٤)
عَلَيْكَ بِحَرَقَةِ الْأَنْفَاسِ وَاسْعُدْ فَمُبْتَهِجٌ بِهَا الصَّدْرُ الْكَثِيبُ

عَلَيْنَا قَدْ تَكَاثَرَتِ الْغَمُومُ غَرِيبًا مُسْعِدًا كُنَّا نَرُومُ^(٥)
فَهَيْئَةُ فِي غَدٍ مَا أَنْتَ تَبْغِي وَلَكِنْ إِنْ عَرَفْتَ بِكُمْ يَقُومُ^(٦)
كَرِيمٌ ذَاتُهُ وَالْقَلْبَ ضَمًّا بِرَمِي الشَّصْرِ لَا يُؤْذِي الْخِصْمًا^(٧)
تَجَلَّى السَّكْرُ لِلنَّظَرَاتِ حِلًّا بَغْلُ الْقَلْبِ وَالْكَفَّيْنِ حَتْمًا

-
- (١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .
(٢) انهمل الدمع : سال .
(٣) المحنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيبهم الله بالبلاء ليلوهم به .
(٤) الصبيب : المصبوب . والمقصود به هنا الماء .
(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .
(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .
(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

هُمُومٌ قَلْبُنَا مِنْهَا تَفْطَّرُ تَرَابٌ أَضْلُهَا وَضُرٌّ وَأَكْثَدُ^(١)
وَلَكِنْ مَا عَرَفْنَا الِهِمَّ يَخْلُو بِأَصْلِ الْفِكْرِ فِي عَقْلِ تَفَكَّرُ^(٢)

إِلَى الْأَقْدَارِ لَا تَنْسِبُ أُمُورًا وَكَانَ اللَّهُ وَمَأْبَأَ عُقُورًا
وَلَكِنْ قَلْبِ الدُّنْيَا فِيهَا حَقِيرُ النَّاسِ مَنْ قَمَرِ الْأَمِيرِ^(٣)
مَرِيرَ الْحَقْدِ فَلْيَلْفُظْ جَنَانُ مِنَ الشُّبَّانِ فَلْيَخْرُجْ دُخَانُ^(٤)
وَلَيْسَ لِحَقْلِ قَلْبِكَ مِنْ خِرَاجٍ فَيَا دُهْقَانَ هَلْ مِنْكَ الْأَمَانُ؟^(٥)

لَفَجْرِ مِنْ لِيَالِيهِ الظُّهُورُ لَكُوكِبِهِ عَلَى الدَّارَيْنِ نَوْرُ
وَأَعْجَزُ عَنْ كَلَامٍ فِيهِ عَجْزًا فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَغْشَاهُ السَّرُورُ

وَقَالَتْ لِلصَّبَا فِي الْعُلَى قَطْرَةٌ مُنَايَ إِلَيَّ مِنْ عَيْنِكَ نَقْطَرَةٌ
مَنْ الْأَزْهَارِ فِي قَلْبِي مَلَالٌ فَهَبِّي كُنِّي أَوَاْفِي الْعَشْبِ مَرَّةً^(٦)

-
- (١) الوضر : القنر .
(٢) يقول : إن الهم الحلو المتناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .
(٣) قمره : غلبه في القمار .
(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .
(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .
(٦) وافى : أتى .

القلب

بِلَا شَطِّ خِضَمٍّ كَانَ قَلْبًا يَثِيرُ بِهِيَّةَ الْأَمْوَاجِ رُغْبًا
بَسِيلٍ مَغْرَقٍ سَهْبًا وَسَهْبًا حَبَابٌ فِيهِ بِالْأَفْلَاكِ بَعْبًا^(١)

لَهَيْبٍ ، جَسْمُنَا مَوْجُ الدِّخَانِ وَمِنْ خَفَقَاتِهِ رَجْعُ الْأَغَانِي
وَمَجْلِسُهُ بِذِكْرِ الْوَهْنِ أَمْسَى كَقَطْرَةِ زُبْقٍ تَبْدُو لِرَانٍ^(٢)

وَيَنْجِجُ سَعْبُهُ دَهْرَ مُثَابِرٍ بِصَوْنِ الذَّاتِ دُرُوشُ يُجَاهِرِ
وَصُنَّ لِلْقَلْبِ سُلْطَانًا وَفَقْرًا فَهَذَا الْبُخْرُ قَدْ صَانَ الْجَوَاهِرِ^(٣)
قِيَّ لِلذَّاتِ يَوْمًا مَّا بَلَوْتَا وَقَيْدًا بَعْدَ قَيْدٍ مَّا حَطَمْتَا^(٤)
يَدُومُ الْعَقْلُ لِلْإِنْسَانِ قَيْدًا إِذَا فِي صَدْرِهِ الْقَلْبُ افْتَقَدْنَا^(٥)

تَقُولُ الْقَلْبُ مِنْ تَرْبٍ مَهِينٍ يَذُوقُ الْأَسْرَ مِنْ كَافٍ وَنُونٍ

-
- (١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحجاب : الفقايع التي تعلو الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي فقاعة واحدة في هذا السيل .
(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة .
الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .
(٣) أنجحه : جملة ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عادته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .
(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .
(٥) افتقد : فقد .

وَفِي صَدْرِ لِقَابٍ مُسْتَقَرٍّ هُنَا مَا كَانَ يَوْمًا بِالقَطِينِ^(١)

وَدُنْيَا النِّيرَيْنِ بِهَا تَمْنَطُوقُ وَكَمْ عَقْدٍ يَحِلُّ إِذَا تَحَرَّقُ^(٢)
فَقُلْ لِلْهِنْدِ هَذَا مِنْ كَلَامِي بِصُخُوتِهِ غُلَامُ الْهِنْدِ يُغْنَقُ
وَكُنَّا حَقْلَ رَبِّي وَهُوَ حَاصِلُ لِعَالَمِنَا عَرُوسٌ وَهُوَ مُحَمَّلُ
غَبَارَ مَنْ دَرَى سِرًّا بِدَرْبِ وَلَمْ يَكْ غَيْرَ هَذَا الْقَلْبِ ، فَاعْقِلْ^(٣)

دُؤُوبٌ يَطْلُبُ الْحَسْنَ الْغَرِيْبَا خَطِيْبٌ كَانَ مِنْرُهُ صَلِيْبَا^(٤)
وَسُلْطَانٌ لَهُ خَيْلٌ وَجَيْشٌ وَيَعْدُمُ عِنْدَ دَوْلَتِهِ نَصِيْبَا

وَدُنْيَا الْقَلْبِ مَا اتَّسَمَتْ بِرَوْنَقُ وَمَا يَبْدُو بِهَا حِجْرٌ وَجَوْسَقُ^(٥)
وَمَنْ أَرْضٍ خَلَتْ بِلَ مِنْ سَمَاءِ وَ « اللَّهُ هُوَ » تَغْشَاهَا فَتَفَرَّقُ
رَأَتْ عَيْنٌ ، أَتَى قَلْبٌ مَرِيْعَا أَرَادَ يَقِيْسُ عَالَمِنَا الْوَسِيْعَا
وَهَذَا الْقَلْبُ سَكِيْرًا يَسْمَى تَحْشَى مَا بِهِ حُسْنًا بِدِيْعَا

سَهَامُ الْعَشَقِ مِنْ عَيْنٍ تَصِيْبُ يَطِيْبُ الْجَرْحُ وَالرَّامِي حَيِيْبُ
بِصَيْدِ الْقَلْبِ سَهْمُكَ فَلْتَدْعُهُ بِكُلِّ الصَّيْدِ ، مَنْ نَظَرَ تَوُوبُ^(٦)

(١) المراد بـ « هنا » : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم

(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .

(٣) الدرب : الطريق .

(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .

(٥) الجوسق : القصر .

(٦) الصيد : اسم من صاد وبمعنى ما يصيد .

الذاتية

بنور الكبرياء لها اشتعال ومن نقص لها كل الكمالات
مقامات الوصال لها فراق كما أن الفراق لها وصال

ومن جدل لقوم أن يربحوا ليزهر عندهم أمل نجيح^(١)
بدت ذاتية سيفاً حساماً ويعرف حده لون وريح

وجود الله أكسبها الوجوداً فكانت مظهراً جاز الحدوداً
أزاهما جوهراً من جوف بحر سواء بمثل من لن يجوداً
وطبن حينما يرضاه قلب يطره لطيب النوم حب
ومن نوم بخلق (أنا) سيضحو بجسم حين يحكمها سيخبو

لنا وصل فراق فيه يظهور وهذي عقدة للحل تنظُر
تضيق جواهر من حضي بحر وليس لماء بحر ما لجوهر !

ولي من بابه هذا التراب ومن صدر له زهر عجاب
ولا أدري (أنا) أو ما عداها يصدر منه تخويني رحاب^(٢)

(١) أراح : استراح . والنجیح : الذي تنجح أموره .

(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبر والاختيار

سَيُوزَنُ كُلُّ شَيْءٍ يَوْمَ حَشْرِ لَدَى الْإِنْسَانِ مِنْ جُحْرِ وَقْضَرِ
فَمَاذَا فِي غَدٍ يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيَرْضَى اللَّهُ عَمَّا سَوْفَ يَجْرِي ؟

وَلِي شَيْخٌ مِنَ الرُّهْبَانِ قَالَا كَلَامِي ذَاكَ أَلْقَى إِلَيْهِ بَالَا
بِتَقْدِيرٍ لَكُمْ عَمْرٌ سَيَفْنَى سَتُقْتَلُ نَحْنُ بِالتَّذْيِيرِ طَالَا

الموت

لِرَبِّي قَالَ ذَا الْمَوْتُ الْمَرِيدُ لَعِينٍ أَصْلُهَا طِينٌ جَمُودُ^(١)
مَنْ الْإِنْسَانُ يَخْجَلُ قَبْضُ رُوحِ أَمِنْ مَوْتٍ لَهُ الْعَارُ الْجَدِيدُ !

وَأَيَّدَ فِيهِ مَنْ مَلَكَ الْجِهَاتِ بِمَقْوَدِهِ يَقْوَدُ الْكَائِنَاتِ
لِذَلِكَ الْمَوْتُ مَا أَغْضَى حَيَاءَ غَرِيبٍ عَنْهُ نَامُوسُ الْحَيَاةِ

إِلَى إِبْلِيسَ فَلْتَنْقُلْ مَقَالِي إِلَّا مَ لِي التَّمَلُّلُ فِي الْعَقَالِ^(٢)
وَلِي دُنْيَا الشَّرَى لَا أَزْطِئُهَا فَفِيهَا الصَّبْحُ مَهْدٌ لِلْيَالِي

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التملل : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

وَلَمَّا أَخْرَجُوا الدُّنْيَا إِلَيْنَا ضَمِيرًا خَامِدًا فِيهَا رَأَيْنَا
يَغِيرُ الرُّوحَ أَيْسَنَ لَنَا لِهَيْبُ لَقَدْ خَلَقُوكَ مِنْ نَارٍ لَدَيْنَا

فِرَاقُ يَجْعَلُ الشُّوقَ الْبَصِيرَا بَعْمَقِ الْبَحْثِ يَجْعَلُهُ الْجَدِيرَا
وَلَكِنْ كَيْفَ حَالُكَ لَسْتُ أَذْرِي وَطِينُ قَالَ لِي «كَانَ الْخَيْرَا»

لَقَدْ طَرَدُوكَ يَا مَنْ لَنْ يُعَادَا لَكَ التَّفَكِيرُ بَيْنَ الْخَلْقِ زَادَا
قَضَيْتُ الدَّهْرَ فِي بُلُوَى عَذَابِي فَقَلْبِي فِيهِ كَمْ زَرَعُوا الْقَتَادَا^(١)
مُصِيبًا مَزْتُ مِنْ غَيْرِ الْمَصِيبِ عَدِمْتُ النَّبْتَ فِي حَقْلِي الْجَدِيدِ^(٢)
وَلَمْ تَسْجُدْ فَمَنْ أَلَمْ تَقَاسِي أَخَذْتُ إِلَيْكَ مَالِي مِنْ ذُنُوبِ

تَعَالَ النَّرْدَ فِي مَرْحٍ لِلْعَبْ وَدُنْيَانَا لِنَحْرِقَهَا فَتَعَطَّبْ
بَسْحَرٍ مِنْ هَشِيمٍ كَانَ فِيهَا لِنَصْنَعُ جَنَّةَ الْأَفْلَاكِ فَاعْجَبْ

إِبْلِيسُ التَّرَابِيِّ وَإِبْلِيسُ النَّارِيِّ

فَسَادُ عَصْرِنَا أَوْهَى وَأَثْقَلُ وَأَفْلَاكُ تَشَاهِدُهُ فَتَخَجَلُ
أَلَيْسَ لَدَيْكَ لِلنَّظَرَاتِ ذَوْقُ لَتُخْدَمَ عِنْدَ شَيْطَانٍ وَتُحْمَلُ

(١) القَتَادُ : الشوك .

(٢) النَّبْتُ : النبات .

وَمَنْ عَيْنَاهُ وَالْأَذْنَانِ سَارِقٌ تَرَصَّدُ فِي الظُّلَامِ لِسُلْبِ خَافِقٍ
وَكَانَ السَّعْرُ فِي الْأَسْوَاقِ بَخْسًا بَفْلَسٍ تَشْتَرِي ذَنْبًا ؟ تَحَامِقُ^(١)

عَجِيبُ السَّعْيِ شَيْطَانٌ عَجِيبٌ بِسَخِرٍ لِلْعَمَى عَيْنًا يَصِيبُ
اسْمَى ذَلِكَ الشَّيْطَانُ مَيْتًا فَمَثَلُكَ صَيْدُهُ وَهُوَ الطَّلِيبُ^(٢)
لَهُ كَأْسٌ بِهَا سَمٌّ ذَهَابًا لِقَتْلِ الرُّوحِ ، جَسْمٌ مَا هُنَاكَ
لَكَ الْحَلَقَاتُ تَبْدِيهَا شَبَاكَ وَمَا شَاهَدْتَ فِي الْحَبِّ الشَّبَاكَ !

هُوَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْلَى مَقَامٍ فَضَاقَ مَجَالُهُ عِنْدَ ارْتِطَامِ^(٣)
بَلَا طَعْمٍ وَلَا لَوْنٍ ذَنْوَبٌ وَإِبْلِيسُ لَهُ طَبْعُ الْأَنَامِ^(٤)

وَمَنْ شَيْطَانٍ هَذَا الْعَصْرِ فَاحْذَرْ خَسِيسٌ مَنْ يَضْلُلُهُ وَيَسْخَرْ
أَرَى إِبْلِيسَ خَيْرًا مِنْهُ حَقًّا رَأَى الرَّحْمَنَ فَهُوَ بِذَاكَ يَفْخَرْ
لَهُ النَّدُّ الْمَغَالِبُ مِنْ هُمَامٍ وَبِالنِّيْرَانِ يعلُو فِي الْمَقَامِ
وَمَا كُلُّ التَّرَابِ رَمَاهُ صَيْدًا وَأَعْجَفَ أَنْ يَصِيدَ مِنَ الْحَرَامِ^(٥)

خَسِيسُ الطَّبْعِ هَذَا لَيْسَ يَفْهَمُ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فِيهِ قَدْ تَحْتَمُّ

(١) حَامِقُهُ : سَاعَدَهُ عَلَى الْحَقِّ ، فَكَانَ بِذَلِكَ الثَّمَنِ السَّخِي فِي الذَّنْبِ يَعِينُ الْحَقُّوُ الَّذِينَ يَبِيعُونَ بِالثَّمَنِ الْقَلِيلِ .

(٢) الطَّلِيبُ : الْكَثِيرُ الطَّلَبِ .

(٣) الْارْتِطَامُ : الْوُقُوعُ فِي الْوَحْلِ .

(٤) الْأَنَامُ : النَّاسُ .

(٥) الْأَعْجَفُ : الْهَزِيلُ .

أبالسة بهذا العصر جافى غيور وهو طول العنبر يائمه

إلى رُفقاء الطريق

تعال لقومنا أمراً ندبُر لنكسب إن هذا العيش ميسر
نصعد في مساجدنا أيناً على إخرق قلب الشيخ يقدر

وصقر في السموات القلندر لخفق جناحه ذو الثقل أصغر^(١)
وفي هذا الفضاء له مصاد بعش لم يطف فالعش أغبر

ولحن « الله » من روجي تردّد متاع الكون عثيره تصعد^(٢)
ولي في معزفي وتسر بنار تقطّع ، ياله دمعي المبدّد

خفقت كدمعة سالت فطره إلى عيني وصلت بفضل طفره^(٣)

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياه من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يبالون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكثرثون بما يشاهد الناس من ظاهريهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياه وكان اهتمامه بيوطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولي إشراقه في الهذب تبذو على هذا الهشيم نثرت قطره^(١)
ولم يف منطق لي بالمرام دليل فيه خلو من تمام
سيفتح كل باب أو صدوه بيت قاله الرومي وجامي^(٢)

تعال إليك مني بنت حان تثير الروح في طين الدنان^(٣)
ومن قارورتني فلتسق غصناً لتشهد فيه إنساناً يراني^(٤)

بكفي معزفي شعري يغني أنين فيه من لون ولون
عليه بمخلب الأسد عزفي به الأوتار من وجه المجن^(٥)
لكسري العصر عني القول ينقل كرهاد لدى الفأس تحمل ؟
بصدري شوكة أدمته وخزا لقلب الطود منها السيف يعمل

فقيّر نظرة لي كل مالي هشيم ما لصحي من جبال
على البازي أفضل زاع ميت ولو رباه كسري في الدلال^(٦)

(١) الهشيم : النبات اليابس المتكسر .

(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .

(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .

(٤) يقول : إذا سقيت غصناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .

(٥) المجن : الترس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .

(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير

ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من

خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت على منصة عالية ويعرضونها

لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر .

لقلبي قط ما أوصدت بابا ولا قاطنتُ أهلاً أو صحاباً
 قبعْتُ بمجلسي في عقرِ صَدْرِي فجزْتُ بمجلسي هذا السحاباً^(١)
 عدمتُ بروضة عَزِيَّ وَجَاهِي نصيبي أي شيء كني أباهي ؟
 وصاحبها يسميني وقاحاً بعينِ نرجسِ جذَب انتباهي^(٢)

وللعلماء في الحفل المزيّن كلام رَقٍّ مثلُ الياسمينِ
 ولكن من رأى في الروضِ شوكتاً لوصفِ الروضِ بالقولِ اليقينِ ؟

بعلم أو بفن ما اهتمامي مقام آخر فيه كلامي
 ضعيف الركب يجعله لهيبي خفيف الخطو يعدو في الأمامِ
 أحسبني لفجرٍ عندليبا وحسبي الروض أفعمه نجيباً
 تمسك بي تجذ مفتاح روضي بعُشِّي كنت تخشى أن يغيباً

هي الدنيا لعيني الممرُّ رفيق ليس لي والكل سفرٌ^(٣)
 نفاري من قويب كان خيراً غريبٌ وهو لي همٌّ وشرُّ

وفي عدم تعلم كيف تحيا وزد ذاتاً من التقدير هياً

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يريه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفي أعماق أنعامي تَلْبَسُ ببخري لؤلؤ فاسكن ملياً^(١)
وتربيبي بتلك الأرضِ كأننا ولكن أجتوبها لي مكاناً^(٢)
تبثُّ بها بفيض من نَدَاهَا ساءَ لي أشهدُها عياناً

إلى نفس الرجالِ كنِ القريبَا لهم أنفاسهم تحيي القلوبا
شكاة الذاتِ هُمُّهم يجافي فما عن ذاته كان الغريبَا

لتخلق نظرةً والروح أبصر تجد زهراً بغصن غير مزهر
ولأ فلتكن سهماً لقوسٍ ومن يزمي له هدفاً يُقْدَرْ^(٣)
تغرب عقلاً ذا عن يقين بدا كمقام العلم المشين^(٤)
جهولٌ كان خيراً من حكيم بنظرته إلى الحق المبين

ومن ذهبٍ ودُرٍّ ما المرام وما سرجُ المطهر والغلام^(٥)
من الدارين شيء لا يرجى وذلك لمال ذي الفضل القوام

وسكرُ أنا لتلك الذاتِ عقل وإن الصمتَ في حاني لفضل
شرابي ما صفاء ، لكن ترشَّف ففي يوم مضى للذنُّ بزل^(٦)

(١) ملياً : زماناً طويلاً .

(٢) التريب : التربية .

(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميهِ الهدف ولا يحتد هو هدفه بنفسه .

(٤) المشين : المعيب .

(٥) الجواد المطهر : التام الحسن .

(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لَدَيْكَ بِخَرْقَةٍ أَوْ فِي نَصِيبٍ وَمَنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شَذَا الْحَبِيبِ^(١)
لَدَيَّ الْمَالُ مِنْ خَشَبٍ لِنَاءٍ وَلَيْسَ لِمَنْبِرٍ أَوْ لِلصَّلِيبِ^(٢)

بِمِرَاةٍ لِدَاثِي قَدْ بَصُرْتُ بَصَاذِي خُلُوءٍ فِيهَا قَرَرْتُ
مَنْ الْعِمْيَانِ فِي عِلْمٍ وَفَنٍّ بِلَبَّاسٍ قَدِيمٍ لِي فَرَرْتُ

رَجِيلِي حَانَ عَنْ هَذَا التَّرَابِ فَقَالَ الْكُلُّ «كَانَ مِنَ الصَّحَابِ»
فَمَنْ هَذَا الْمَسَافِرُ لَيْتَ شِعْرِي وَمَنْ قَدْ خُصَّ بِالْقَوْلِ الْعَجَابِ
عَلِمَ الْقَلْبِ رَفَاقُ الضَّمِيرِ أَمِيرٌ وَهُوَ يُعَرَّفُ بِالْفَقِيرِ
وَلَيْسَ لِمَعْدَمٍ دِينًا وَعِلْمًا قَبَاءٌ بَلْ لَهُ سَرَجُ الْحَرِيرِ

لَجَمٍ أَنْتَ تَسْجُدُ أَوْ لِدَارًا فَلَا تُلْحِقْ بَيْتَ اللَّهِ عَارًا^(٣)
وَلَا تَطْلُبْ إِلَى الْغَزِيَّ شَيْئًا بِقَلْبِكَ حَطَّمِ الصَّنَمَ الْمَعَارَا

بِسْمْعِي طَافَ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ عَقْلٌ وَإِشْرَاقُ الضَّمِيرِ
«فَقِيرٌ إِنْ يَصُنْ بِالْفَقْرِ ذَاتًا» فَمَلِكُ الْعَالَمِينَ لَذَا الْفَقِيرِ
وَفِي حَرْفَيْنِ هَذَا السَّرُّ يَسْتَرُ مَقَامَ الْعَشْقِ لَا يَبْدُو كَمَنْبَرِ
وَأِبْرَاهِيمَ نَمْرُودًا أَيْخَشَى لِعُودِ نَفْحَةٍ بِالنَّارِ تَنْشَرُ

(١) الخرقه : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .

(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .

(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بمعظمه الملك .

أَلَا يَا زَهْرُ مَا طَلَبُ الْعِزَاءِ ؟ بِذَاتِكَ فَالتَزِمَ خَلَّ الْوَفَاءِ
وَصَدْرَكَ افْتَحَرَّ لِكُلِّ رِيحٍ وَصَنَ وَشَمًا قَدِيمًا فِي الْخَفَاءِ^(١)

يَدْوِي النُّضْحُ فِي سَمْعِي دَوِيًّا « بَرُوحِكَ وَحَدَهَا عِشْ يَا بَنِيَّا
لِتَحْذِرَ مَنْ أَضَاعَ الرُّوحَ رَهْنًا بِجَسْمٍ لَا بِرُوحٍ وَهُوَ يَحْيَا »
لَشَطِّ قَالٍ مَوْجٌ وَهُوَ يَهْدُرُ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ ذَاتِي أَقْدِرُ
عَلَى ذَاتِي التَّفَافِي مِثْلُ أَفْعَى وَارْقُصْ بِانْتِظَارٍ فِيهِ أَصِيرُ

بِجَاهِ الْغَرْبِ إِنْ كُنْتُ الْقَمِينَا عَلَى عَتَاتِهِ عَفَّرَ جَيْنَا^(٢)
أَذِرْ لِعَصَاهُ عِنْدَ الضَّرْبِ ظَهْرًا كَعِيرٍ سَيَقُ فَلَئْكَ الْمِهِينَا^(٣)

وَأَيْنَ فَوَادُهُ طَوَعَ الْيَمِينِ خِلَاءَ مُلْكُهُ مِنْ كُلِّ دِينِ^(٤)
شِيطَانٌ تَطُوفُ لَهُ بَيِّتِ وَتُوجِشُ غِيْبَةُ الرُّوحِ الْأَمِينِ^(٥)
وَمِنْ قَلْبٍ وَمِنْ دِينٍ يَشْنَبَا كِعْطَرِ الْوَرْدِ مِنْ أَصْلِ هَرْنَبَا
وَمَاتَ السَّيْنُ مِنْ مَوْتٍ لِقَلْبٍ لَنَا مَوْتَيْنِ نَحْنُ قَدْ اشْتَرَيْنَا !

حَنِيفٌ كَانَ يَعْرِفُ قَدَرَ دِينِ لِرَبِّي مِنْهُ تَعْفِيرُ الْجِينِ
بِمَا لَا يَشْتَهِي الْأَفْلَاكُ دَارَتْ أَدَارَ الْأَرْضِ مِنْهُ بِالْيَمِينِ

(١) الوسم : أثر الكي .

(٢) القمين : الجدير .

(٣) العير : الحمار .

(٤) يريد الرجل من الفرنجة .

(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

مَنْ دُنِيَ لَنَا قَلْبٌ غَرِيبٌ لَهُ الْإِيمَانُ مِنْ فَلَكٍ نَصِيبٌ^(١)
 صَلَاةُ الْعَشَقِ مَيِّزُهَا بِوَقْتِ فَلَيْسَ لَهَا الْمَوْذُنُ وَالْخَطِيبُ
 مَقَامُ الْعَشَقِ يَفْعُمُهُ الْيَقِينُ يَقِينًا يَصْعَبُ الرُّوحَ الْأَمِينُ
 إِذَا حَصَلَتْ مِنْ هَذَا نَصِييَاً فَرَسٌ قُدَمَا ، فَمَا اعْتَرَضَ الْكَمِينُ

وَعِزُّ قَانٍ وَإِذْرَاكَ لِمُسْلِمٍ وَعَيْنِيهِ « بَلَوْلَا » الْذَاتِ يَفْعَمُ^(٢)
 سَمَا رَبِّي سُمُوًّا عَنْ قِيَاسِ بِقَائِلِ « مَا عَرَفْنَا » النَّفْسِ أَكْثَرُ^(٣)

وَأَضْنَامُ الْفَرَنْجَةِ مَا عِبَدْنَا بِمَعْبِدِهِمْ فَبُئْسَ الْمَوْتُ مِثْلَا
 وَعَقْلُكَ كَانَ عَنْ قَلْبٍ غَرِيبَاً فَمَا بِسَلَاكِ مَنْ سَلَفُوا سَكْرَتَا^(٤)
 أَكَلُ النَّاسِ مِنْ نَفْسَا يُسِيلُ وَمِنْ سُكْرِ التَّدَلُّلِ مَنْ يَمِيلُ
 قَبَاءُ « لَا إِلَهَ » بِهِ دِمَاءُ عَلَى قَدْ الْخَسَاسِ هُوَ الطَّوِيلُ

وَيَحْرِقُ مُؤْمِنًا حَرُّ الْوَقِيدِ مِنْ الْأَبْوَابِ يَفْتَحُ مَا يَرِيدُ^(٥)
 جَلَالُ الْكِبَرِيَاءِ لَهُ قِيَامٌ جَمَالُ الصَّبْرِ يَظْهَرُهُ السُّجُودُ

أَتَسْأَلُ عَنْ صَلَاةِ الْعَاشِقِينَ وَفِيهَا خُفْيَةٌ هُمْ سَاجِدُونََا
 أَرَى « اللَّهُ أَكْبَرُ » مِثْلَ نَارٍ أَفِي خَمْسٍ بَدَتْ لِلنَّاطِرِينََا

(١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .

(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .

(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .

(٤) السلاف : الخمر .

(٥) الوقيد : الوقود .

نِذَاءُ الْعَالَمِينَ بِهَا يَدُومُ وَمِنْهَا مُسْلِمٌ خَلَدًا يَرُومُ
صَرِيحُ الْعَصْرِ فِينَا لَيْسَ يَذِرِي قِيَامَاتٍ « لَقَدْ قَامَتْ » تَقُومُ

رَأَى مَتَفَرِّجٌ لِّلَّهِ حُكْمًا فِرْزَقٌ وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْهُ دَوْمًا
عَلَى الشَّيْطَانِ أَغْدَقَ أَيُّ رِزْقٍ ! إِلَى أَنْ حَارَ فِيهِ اللَّهُ يَوْمًا

وَفِي قَوْلِي لِمَ الْإِسْهَابُ كَانَا أَقُولُ الْحَرْفَ عَنْ سِرِّ أَبَانَا^(١)
وَعَالِمُهُ لَمْتَجَرِّينَ أُعْطَى مَكَانَ كَيْفَ يَذِرِي اللَّامَكَانَا
لَمَنْ تَضْفُو قُلُوبُهُمْ نَعِيمٌ وَأَخْرُ فِيهِ ذُو هَمَمٍ يُقِيمُ
فَبَلِّغْ مُسْلِمًا فِي الْهِنْدِ بُشْرَى « نَعِيمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ شِيمُوا »^(٢)

إِلَى التَّقْرِيرِ مَا مَالَ الْقَلَنْدَرُ كَأَكْسِيرٍ لَهُ رَأْيٌ يَقْلَدُ
وَهَذَا الْحَقْلُ أَقْفَرُ مِنْ حَصَادٍ فَمَا يَرُوي نَراهُ دَمٌ لَشَبَرٍ^(٣)

(١) أبان عنه : فسرهُ .

(٢) شيموا : انظروا .

(٣) الحصاد . الزرع . شبر : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

القسم الرابع

قَمَائِد

(١) من هُنا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثرأ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .

برلمان إبليس

هذه قصيدة بديعة لمحمد إقبال ، وصف فيها وصوّر جلسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدّد مهمّتهم في العالم وتُحبط مساعيهم ، أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهات نظرهم ، وترأس هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، ويُعِدّ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخّص في : أنّ المسلم هو المنافس الوحيد ، والمصارغ الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصّادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصّائبة الدّقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيد الاطلاع عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنّ الشياطين وزملاء إبليس وأعوّانه اجتمعوا في مجلس شوري ، وتباحثوا في سير العالم ، وأخطار الغد ، وفتنه ، وما يتوجّسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ، ومهمّتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أهدقت بهم ، وهذّدت نظامهم ، وجلّكوا خطبها ، وتناذروا شرّها ، فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولك أمرها ، فإنّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشمرُ بكرامته ، وخفنا ثورةً على نظامنا قد لا تُحمدُ عاقبتُها ألهيئاه بلعبةِ الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجود شخصٍ تتركز فيه الملوكية ، وفردٍ يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيشَ الإنسانُ عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءً في ذلك الشعبُ والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه مشرقٌ وصَّاحُ ، وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأسَ إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الذَّهْماء التي أثارها هذا اليهوديُّ الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنَّه أقام العالم وأقمده ، وأثار العبيد على السَّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسَّيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا يريدون المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البُغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالزَّحاح (أعلامُ أرضٍ جُعِلَتْ بطائِحاً) إنا قد استهتأ بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولٍ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلس « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأنصَرَفَ به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهاوشت الكلابُ ، وافترسَ بعضها بعضاً فِعْلُ الذئاب ، وإذا هَمَسْتُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنُّ جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخَرْقَ الذي أحدثته

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية)
لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليكُ الشفهاء .

إِنْ كُنْتُ خَائِفًا ، فَأَيْ أَخَافُ أُمَّةً لَا تَزَالُ شِرَارُهُ الْحَيَاةَ وَالطَّمُوحَ كَامِنَةً فِي
رِمَادِهَا ، وَلَا يَزَالُ فِيهَا رِجَالٌ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، وَتَسِيلُ دُمُوعُهُمْ
عَلَى خُدُودِهِمْ سَحَرًا ، لَا يَخْفَى عَلَى الْخَبِيرِ الْمُتَفَرِّسِ : أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ فِتْنَةُ الْغَدِ ،
وَدَاهِيَةُ الْمُسْتَقْبَلِ ، لَيْسَتِ الْإِشْتِرَاكِيَّةُ .

أَنَا لَا أَجْهَلُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ اتَّخَذَتْ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ، وَأَنَّهَا قُتِنَتْ بِالْمَالِ ،
وُسُفِفَتْ بِجَمْعِهِ ، وَادْخَارِهِ ، كَفِيرَهَا مِنَ الْأُمَمِ ، أَنَا خَيْرٌ بِأَنَّ لَيْلَ الشَّرْقِ دَاجٍ
مُكْفَهَرٌ ، وَأَنَّ عُلَمَاءَ الْإِسْلَامِ وَشَبُوحَهُ لَيْسَتْ عِنْدَهُمْ تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي تَشْرِقُ
لَهَا الظُّلُمَاتُ وَيُضِيءُ لَهَا الْعَالَمُ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنَّ قَوَارِعَ هَذَا الْعَصْرِ وَهَزَاتِهِ
سَتَقْضُضُ مُضْجَعَهَا ، وَتَوْقُظُ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، وَتُوجِّهَهَا إِلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ (ﷺ) ، وَإِنِّي
أَحْذَرُكُمْ وَأَنْذَرُكُمْ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ (ﷺ) ، حَامِي الدِّمَارِ ، حَارِسِ الدِّمِّ
وَالْأَعْرَاضِ ، دِينِ الْكِرَامَةِ وَالشَّرَفِ ، دِينِ الْأَمَانَةِ وَالْعَفَافِ ، دِينِ الْمَرْوَةِ ،
وَالْبَطُولَةِ ، دِينِ الْكَفَاحِ وَالْجِهَادِ ، يُلْغِي كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّقِّ ، وَيَمْحُو كُلَّ أَثَرٍ
مِنْ آثَارِ اسْتِعْبَادِ الْإِنْسَانِ ، لَا يَفَرِّقُ بَيْنَ مَالِكٍ وَمَمْلُوكٍ ، وَلَا يُوَثِّرُ سُلْطَانًا عَلَى
صَعْلُوكٍ ، يَزْغِي الْمَالَ مِنْ كُلِّ دَنْسٍ وَرَجَسٍ ، وَيَجْعَلُهُ نَقِيًّا صَافِيًّا ، وَيَجْعَلُ
أَصْحَابَ الثَّرْوَةِ وَالْمَلَائِكِ مُسْتَخْلَفِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ ، أَمْنَاءُ اللَّهِ ، وَكَلَاءُ اللَّهِ
الْأَمْوَالِ ، وَأَيُّ ثَوْرَةٍ أَعْظَمُ ، وَأَيُّ انْقِلَابٍ أَشَدُّ خَطَرًا مِمَّا أَحْدَثَهُ هَذَا الدِّينُ فِي عَالَمِ
الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ ، يَوْمَ صَرَخَ : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ لَا لِلْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ .

فَابْذُلُوا جِهَدَكُمْ أَنْ يَظْلَ هَذَا الدِّينُ مُتَوَارِيًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَلِيَهْنِكُمْ أَنْ
الْمُسْلِمَ بِنَفْسِهِ هُوَ ضَعِيفُ الثِّقَةِ بِرَبِّهِ ، قَلِيلُ الْإِيمَانِ بِدِينِهِ ، فَخَيْرٌ لَنَا أَنْ يَظْلَ مُسْتَغْلَا
بِمَسَائِلِ عِلْمِ الْكَلَامِ ، وَالْإِلَهِيَّاتِ ، وَتَأْوِيلِ كِتَابِ اللَّهِ ، وَالْآيَاتِ ، اضْرَبُوا عَلَى
أَذَانِ الْمُسْلِمِ ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسِرَ طِلَاسَمَ الْعَالَمِ ، وَيَبْطُلَ سِحْرُنَا بِأَذَانِهِ
وَتَكْبِيرِهِ ، وَاجْتَهَدُوا أَنْ يَطُولَ لَيْلُهُ ، وَيُطِئَ سَحَرُهُ ، اشْغَلُوهُ يَا إِخْوَتِي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسر الرّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجّر هذا العالم ، ويمتزلّه ، ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأئمة ، التي يَغزِمُ عليها دينها أن تراقب العالم وتعهّد^(١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلًا نجح شياطينُ الإنس والجنّ في مهمّتهم ، وكانت مؤامرة مبيتة ضدّ الإسلام ، وخطة منظمة ضدّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرّة الإيمانيّة ، التي لا تزال كامنة في الرّماد ، وتجريدُ المسلمين في بلاد العرب والمعجم من الحميّة الدّينية ، والعاطفة الإسلاميّة ، التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله ، والثورة على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنّ المجاهد الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغلو العرب بالأفكار الغربيّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الدّينيّ تمكّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إنّ في الأفغان غيرةً دينيّة ، وعلاجُها أن يقصّي العالمُ الدّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجرّد الشباب المسلم من الروح الدّيني والعواطف الإسلاميّة والعقليّة الإسلاميّة ، وينشئ فيه طبيعةً النفعيّة والأبيقورية ، وطبيعةً التهام الحياة ، وانتهاج

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرات ، وتقديس المادّة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقيّة والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشكّ في الدّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرة ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللّعنات ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنّه رُزِقَ شيئاً من الابتكار ، وبُعِدَ النظر ، ودقّة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ، ينشئُ الجيل الإسرائيليّ الجديد كما يشاء ، ويسبكُ العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدّينيّ ، ويحمل العاطفة الدّينية ، والغيرة القوميّة ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمراتب ، والدرجات ، لو أنّ فرعون وُفّقَ لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحدوث ، ووصلَ إلى غايته في سهولة ويسر ، وهدوء وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربّي الجيل » وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الدّيني :

ويرى محمد إقبال أن أنصارَ الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فضعفَ الشعورُ الدّينيّ في بلاد الإسلام ، وخمدتْ جذوةُ الإيمان ، وفقدت البطولةُ الإسلاميّةُ وروح الجهاد ، وفشتِ النفعيةُ ، وجَمَحَتِ المادّيّةُ ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثيرٍ من البلاد الإسلاميّة والعربيّة : « لقد تجوّلت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنفاء المغرب » ، ويقول في قصيدةٍ قالها في فلسطين : « لا أرى في بلاد العرب تلك اللّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السموّ الفكريّ الذي كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلةُ والفراتُ متعطشين إلى بطلٍ من أبطال

الإسلام ، ولكنِّي لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع ، يقول في أبيات : « يا وارث التوحيد الإسلامي لقد فَقَدَت الكلامَ الجذابَ السَّاحرَ ، والعملَ المسخرَ القاهر ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً » . ويقول في موضعٍ آخر : « إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشاق الأرضُ الجديدة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول في بيتٍ : « لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نازُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر في محيطك أيُّها المسلم لؤلؤة الحياة ، قد بحثتُ عنها موجةً موجةً ، وتفقدتها صدفةً صدفةً » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمان وشعلة الحياة ، يقول : « لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونزَفَ منهم دَمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائغة ، والقلوبُ مضطربة ، والسَّجدةُ لا لذةَ فيها ، ذلكَ لأنَّ القلبَ خالٍ من الحنان » .

البقطة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمَّد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدَمَاتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلامي أفضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه ديبُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « إذا رأيت النجومَ شاحبةً منكدرَةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، هامي الشمس قد ذرَّ قرنُها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدبارهِ ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلئ »

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ ديبب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرّاً لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنّ المسلم سيُمنحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي ، ويقول في بيت :
 « إنّ إقبالاً ليس يائساً من تربته الحفيرة ، فإنّها إذا سقيت أنت بحاصل كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنّ الحضارة الغربية قد مثّلت دورها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمَتْ ، وأينعتْ كالفاكهة ، وحانَ قطافها ، وأنّ العالم القديم الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهاز قريباً ، والإنسانية تتمخضُ بعالم جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنّ هذا العالم الجديد لا يُحسنُ تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث إبراهيم ومحمد ﷺ في قيادة العالم وإرشاده ، فيهبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن يقومَ ويمسحَ النّوم من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذن أن تُرفعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنّ الأوربيين قد حوّلوها إلى خمار ، وبيت فسق ودعارة ، ومكان نهب وغارة ، وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقومَ ، ويُصلحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالم من جديد^(١) .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ٢٣٠ - ٢٣٣ نقلًا عن «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص ١١٤ - ١٢٣ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

١ - هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصر^(١) ، وهذه الدُّنيا الوضيعة

كانت سبباً في قتلِ أُمّياتِ ساكني العرشِ الأعظم^(٢) .

٢ - الخالقُ الذي سَمّاها دنيا الكافرِ والنون^(٣)

مُتَهَيِّئاً اليومَ لتدميرِها .

٣ - عَرَضْتُ على الإفرنجِ حُلُمَ المُلوكِيَّةِ

وحطَّمتُ سِخْرَ المسجدِ والمعبدِ والكنيسة .

٤ - علَّمتُ الجهلاء درسَ القَدَرِ

وأعطيتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .

٥ - من يستطيعُ أن يطفئ نارهَ المتأججة^(٤) .

إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإِبِلِيسِيَّةَ .

٦ - أغصانه^(٥) تنمو وترتفعُ من ماءِ سُقيانا

فَمَنْ يستطيعُ أن يُنكسَ أغصانَ هذا النَّخلِ القديمِ ؟

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .

(٢) أي : الملائكة .

(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .

(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

- ٧ - لا شك أن هذا النظام الإبلسيّ مُحكَمٌ
ففي ظلّه أَلَفَ الشَّعْبُ طَنَعَ العُبودية .
- ٨ - الخضوعُ والمذلةُ على جبين هؤلاء المساكين
فنظرتهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام
- ٩ - لا تَنَبُّتٌ لديهم الأمنيةُ أساساً
فهي إن تَظْهَرَ تَمُتْ أو تَبْقَ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .
- ١٠ - وهذه هي معجزةُ جهدينا المتواصل
فاليوم صار الصُّوفيُّ والملاّ عبداً - بشكْلِ تامٍّ - للملكيّة .
- ١١ - هذا الأفيونُ - الملكيّةُ - كانَ مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشَّرْقِ .
مع أنْ عِلْمَ الكلام ليس بأقلَّ من « الغناء الصُّوفي »^(١) .
- ١٢ - لو بَقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّوافِ ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالاً .
- ١٣ - إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلم
دليلٌ على اليأس ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

- ١٤ - هلْ غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتنِ الجديدةِ في العالمِ !

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنّى به الصُّوفيّة .

المُستشار الأول

- ١٥ - نَعَمْ ، ولكن بصيرتي تخبرني :
لو تبقى المَلَكِيَّة كالسُّنَّار فلا خطر !
- ١٦ - فحينَ صارَ الإنسانُ مدبِّرًا ومفكِّرًا إلى حدِّ ما
ألبسنا المَلَكِيَّة لباسَ الجُمهوريَّة .
- ١٧ - شؤونُ الحُكْم شيءٌ آخر
لا يَنحصِرُ في وجودِ الأميرِ والسُّلْطَنَةِ .
- ١٨ - وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأُمَّة - أو يكونُ بلاطُ برويز
فالحقيقةُ أنَّ السُّلْطَانَ هو من تكون عيونه على زَرْعِ الغَيْرِ .
- ١٩ - أمَّا رأيتَ أنَّ النُّظَامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكنَّهُ من الدَّاخِلِ أحلكُ من جنكيز^(١) .

المُستشارُ الثالث

- ٢٠ - رُوِحُ السُّلْطَنَةِ بادِيَةٌ فَأَيُّ اضطرابٍ بعدَ ذلك
لكنَّ ما هو الرُّدُّ على شقاوَةِ ذلكَ اليهوديِّ^(٢) .
- ٢١ - هو الكَلِيمُ بغيرِ تَجَلٍّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولًا ولكنَّ في حِضْنِهِ كتابٌ » .
- ٢٢ - ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظَرُ هذا الكافرِ الذي يخرقُ السُّنَّاتِ ؟
هذا النُّظَرُ صارَ كيومِ حسابٍ لأقوامِ الشَّرْقِ والغربِ .

(١) مثالٌ لظلم جنكيز وقهره ، ثم التمييز عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .

(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ - لا يوجد للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطّم العبيدُ أطنبةَ خيام السّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ - انظر ردّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى^(١)
فقد أعدنا على آلِ قَيْصَرَ حُلُمَ قَيْصَرَ مرّةً ثانية^(٢) .
٢٥ - من الذي يتلوّى بأموّاج بحر الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصّنوبر - وأحياناً يبكي كالزّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ - الرّجلُ الذي فضح سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا اعترفُ أبداً بدرايته للأمر .

المُستشار الخامس

(يُخاطب إبليس)

٢٧ - يا من أمورُ العالم قائمةٌ بأنفاسِك المحترقة ا
أنت الذي أظهرتَ كلَّ مختفٍ حينَ شئتَ .
٢٨ - صارَ الماءُ والطّين من حرارتك عالماً مليئاً بالحُرقة والغناء
وصارَ أبْلَهُ الجنّة^(٣) بتعليمك عالماً بالأمر .

(١) أي : الإمبراطورية الرومانية .

(٢) هذا هو ردّ شقاوة اليهودي .

(٣) أبْلَهُ الجنّة : هو « آدم » .

- ٢٩ - هو ليس أعرف منك بسرّ الفِطْرة
ذلك الذي اشتهر بين العباد البسطاء باسم الرب .
- ٣٠ - أولئك الذين لم يكن لهم عمل سوى التقديس والتسبيح والطواف^(١)
هم بسبب غيرتك سيبقون أذلاء خجلين إلى الأبد .
- ٣١ - ومع أنّ سحرة الإفرنج جميعاً من مرديدك
لكن لا اعتمد على فراستهم .
- ٣٢ - ذلك اليهودي^(٢) المثير للفتن الذي هو ظهور لروح مزّدك
والذي كاد كلّ قباء أن يكون فتاناً بسبب جنونه .
- ٣٣ - غراب الصّحراء صار ندّاً للشّاهين والعقاب
كيف يتغيّر بسرعة طبع الزّمان^(٣) .
- ٣٤ - إنّ ما اعتقدناه قبضة غبار بسبب الجهل
انتشر فاغبرّت سعة الأفلاك .
- ٣٥ - إنّ هيبة فتنة الغد قد وصلت إلى درجة أنّ
الجبال والسهول والهضاب والأنهار كلّها ترتعد .
- ٣٦ - وهذا العالم الذي لم يكن يدار إلا بسيطرتك
أوشك - يا مولاي ! - أن يضطرب فيصبح أعلاه سُفلاه .

(١) أي : الملائكة .

(٢) كارل ماركس .

(٣) الغراب لم يكن أبداً ندّاً للعقاب ، والمعروف أنّه من أحسن الطيور ، وهو رمزُ الجاهل الخبيث النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

٣٧ - عالمُ اللّونِ والرائحة^(١) هذا^(٢) في قبضتي المتصرّفة

سواء هذه الأرض ، أو هذه السّماء ، أو كلّها جميعاً .

٣٨ - وسوف يرى أهلُ الشّرقِ والغربِ بأعينهم

حينَ أتيرُ دماءَ أقوامِ أوربة .

٣٩ - ما قيمةُ أئمةِ السّياسة ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة

إنَّ صبيحةً واحدةً منّي تُذهِلُهم وتذهبُ بعقولهم .

٤٠ - الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الرُّجّاج

عليه أن يحاولَ أن يحطّمَ كأسَ وأباريقَ هذه المدينة

٤١ - الجيوبُ الّتي مرّقتها يدُ الفِطْرة

أصبحَ من المُحالِ رَتْقُها بإبرةٍ منطوقٍ مزدك^(٣) .

٤٢ - كيفَ يستطيعُ هؤلاءُ المتشرّدونَ الاشتراكيّونَ

أن يخيفوني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ - إنَّ ما بين جنباتي من خطرٍ ليس إلّا من هذه الأئمة^(٤)

ففي رمادها حتى الآنَ شرارةُ الأمل .

٤٤ - فعنّى الآنَ يوجدُ في هذه الأئمة قليلٌ من النّاس

يتوضّؤون بدموعِ الأسحارِ .

(١) أي : العالم المحسوس .

(٢) أصلها في النص « هو » .

(٣) جاء بعد زردشت وماني وأدعى النبوة ، وهو أوّل من نادى بالاشتراكية الشيوعية .

(٤) الأئمة الإسلامية .

٤٥ - إِنَّ مِنْ كُشِفَ لَهُ بَاطِنُ الْأَيَّامِ يَعْرِفُ
أَنْ فِتْنَةَ الْغَدِ لَيْسَتْ مَزْدَكِيَّةً لَكِنَّهَا الْإِسْلَامُ .

(٢)

٤٦ - أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَحْمِلُ الْقُرْآنَ
وَأَنَّ الرَّأْسَمَالِيَّةَ هِيَ دِينُ الْعَبِيدِ الْمُؤْمِنِ .

٤٧ - أَعْرِفُ أَنَّهُ فِي ظِلْمَةٍ دَجَالِ لَيْلِ الشَّرْقِ
فَإِنَّ أَكْبَامَ شَيْوِخِ الْحَرَمِ خَالِيَةٌ مِنَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ ^(١) .

٤٨ - لَكِنَّ الْخَوْفَ مِنْ مَطَالِبِ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ ،
أَلَّا يَظْهَرَ شَرْعُ النَّبِيِّ .

٤٩ - الْحَذَرُ ، الْحَذَرُ مِثَّةَ مَرَّةٍ بِنِظَامِ الرَّسُولِ فَهُوَ
حَافِظٌ لِكِرَامَةِ الْمَرْأَةِ ، وَمَخْتَبِرُ الْمَرْءِ ، وَيَخْلُقُ الرُّجَالَ .

٥٠ - هَذَا النِّظَامُ كِرْسَالَةُ الْمَوْتِ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادِيَّةِ
لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مَلِكِ الْعَصِينَ ، أَوْ فَارِسٍ ، أَوْ مُسْكِينٍ ذِي مَتْرَبَةٍ .

٥١ - إِنَّهُ يُطَهِّرُ الثَّرْوَةَ وَيَخْلِيهَا مِنْ كُلِّ قَذَارَةٍ
وَيَجْعَلُ الْأَغْنِيَاءَ أَمْنَاءَ عَلَى الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ ^(٢) .

٥٢ - لَا يُوْجَدُ فِي الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ ثَوْرَةٌ أَعْظَمُ مِنْ :
« هَذِهِ الْأَرْضُ لِلَّهِ وَلَيْسَتْ لِلْمُلُوكِ » ^(٣) .

٥٣ - يَا حَبِذَا لَوْ يَبْقَى هَذَا النِّظَامُ مَخْتَفِياً عَنْ عَيْنِ الْعَالَمِ

(١) إشارة إلى قصّة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و[النحل : ١٢] و[القصص : ٣٢] .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في جناح جبريل قطعة بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ - وهذا أحسنُ أن يبقى في شركِ الإلهيات

ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ - الإنسانُ الذي حطَّمَتْ تهليلاته سِخَرِ الجهاتِ السَّتِّ^(١)

كيفَ لا يضيءُ الليلَ الحالكَ لهذا الورعِ التَّقِيّ .

٥٦ - أمانتُ ابنِ مريمَ ؟ أم هو حيٌّ باقي ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ

هل صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أم عَيْنُ الدَّاتِ ؟

٥٧ - هل يقصِّدونَ بالقادمِ المسيحِ ابنِ مريمَ أم هو المجددُ

الَّذي تكمنُ فيه صفاتُ ابنِ مريمَ ؟

٥٨ - هل ألفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟

وفي أيِّ عقيدةٍ منها تكمنُ نجاةُ الأمةِ المَرْحُومَةِ ؟

٥٩ - ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام

هذه الأصنامُ^(٢) المنحوتةُ من الإلهيات ؟

٦٠ - اجعلوه غريباً عن عالمِ العملِ لكي

تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشَّطرنجِيَّةِ على بساطِ الحياة .

٦١ - فهذا خيرٌ أن يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامةِ

ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية .

ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحس المشترك ،

وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ - الشَّغْرُ والتَّصَوُّف اللذان يغطيانِ عن عُيُونِهِ مَنَظَرَ الحَيَاةِ
أَحْسَنُ بِالنُّسْبَةِ لَهُ .

٦٣ - إِنِّي أَخَافُ مَعَ كُلِّ نَفْسٍ مِنْ يَفْظَةِ الْأَمَّةِ
فَحَقِيقَةُ دِينِهَا هِيَ احْتِسَابُ الْكَائِنَاتِ .

٦٤ - أَسْكِرُوهُ وَاجْعَلُوهُ يَنْتَشِي بِالذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْأَسْحَارِ
وَأَنْضِجُوا فِيهِ طَبْعَ الْخَانِقَاهَاتِ .

نصيحة بلُوش عجزوز لابنهِ^(١)

لِيُنْعِشَكَ هَوَاءُ صَحْرَائِكَ

فَلَيْسَتْ دَهْلِي وَلَا بَخَارِي بِأَرْوَاحِ مِنْ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ .

إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسِيرَ كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ حِينَمَا تَرِيدُ

فَهَذَا وَادِينَا وَهَذِهِ صَحْرَاؤُنَا

الاعْتِرَازُ بِالنَّفْسِ لَهُ قَدَرٌ عَظِيمٌ فِي دُنْيَا الْكَدِّ وَالْجُهْدِ

فَهُوَ يَلْبِسُ الدَّرْوِشَ قَاجَ دَارِ^(٢) .

عَلَيْكَ أَنْ تَنَالَ هَذَا الْفَرْقَ الْخَفِيَّ مِنْ كَامِلٍ ، إِذْ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ :

إِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الرُّجَاجِ صَخْرًا جَلْمُودًا .

إِنَّ تَقْدِيرَ الْأُمَمِ بِيَدِ الْأَفْرَادِ

(١) فِي الْأَصْلِ : بَلُوج ، هُوَ اسْمُ لَقَبِيْلَةٍ تَسْكُنُ مَنَاطِقَ بَلُوجِسْتَانِ فِي بَاكِسْتَانِ الْغَرْبِيَّةِ عَلَى الْهَدُودِ بَيْنَ إِيرَانَ وَالسُّتْدِ وَهِيَ بِلَادٌ صَحْرَاوِيَّةٌ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَتَبَ عَنْهُمْ أَوَّلُ قَاتِحِ إِسْلَامِي دَخَلَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ أَشَدُّ أَعْوِيَاءَ .

(٢) مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ إِيرَانَ .

ومع كل فرد نجمٌ تقدير الأمة .
 هذا الغواصُّ الذي لا يترك صُحْبَةَ الساحل
 ظلَّ محروماً من ثورة البحر .
 لو ضاعَّ الدِّينُ من يدِ الأُمَّةِ الحرَّةِ
 فهذه التجارةُ خسارةٌ للمُسلم .
 إنَّ العالمَ يواجهُ معركةَ الرُّوحِ والجَسَدِ مرَّةً ثانيةً
 فإنَّ المدينةَ قد هيَّجتُ وحوشَها .
 اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلم
 وإبليسُ يعتمدُ على آلاتِ أوربة .
 ما هو تقديرُ الأممِ ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقول
 لكن لو تجدُ فِراسةَ المؤمنِ ، فالإشارةُ كافية .
 اطلبِ الإخلاصَ في العملِ من الأسلافِ القُدماءِ
 أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكةُ على الشَّحاذينِ !

الصُّورةُ والمصوِّرُ

الصورة :

قالتِ الصُّورةُ للمصوِّرِ :
 سببُ ظهوري من إبداعك وفنك^(١) ،
 كم من الظُّلم أن تكونَ

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوّر :

صَغُبْتُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْبَصِيرَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَيْنٌ تَنْظُرُ

مَاذَا حَلَّ بِالشَّرِّ مِنْ رُؤْيَا الْعَالَمِ .

فَلْتَقْتَنِي أَيْتُهَا الْجَاهِلَةُ بِهَذَا الْخَيْرِ - إِنَّ النَّظَرَ لَيْسَ إِلَّا

الْغَمُّ وَالْأَلَمُ وَالْحَمِيَّةُ وَالنَّشَاطُ .

الصُّورَةُ :

الْخَيْرُ عَجَزُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ

النَّظَرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْخَالِدَةُ

لَيْسَ جَدُّ وَجْهُهُ هَذَا الزَّمَانُ

لَا نَفَقاً بِحَدِيثِ ﴿ كُنْ تَرَنِّي ﴾

المصوّر :

أَنْتِ مِنْ رَوَائِعِ فَنِّي

وَلِذَلِكَ فَلَا تَبْأَسِي مِنْ مُبْدِعِكَ .

لَيْسَ هُنَاكَ شَرْطٌ لِرُؤْيِي

سِوَى أَلَا تَخْتَفِي أَنْتِ عَنْ نَظْرِكَ .

عَالَمُ الْبَرَزَخِ

الْمَبِيتُ (بِخَاطِبِ قَبْرِهِ) :

مَا هَذَا ؟ وَأَيُّ يَوْمٍ تَكُونُ الْقِيَامَةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

ألا تعرفُ بعدُ ، يا مَيِّتَ المِثَّةِ عام ؟
بأنَّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

المَيِّتُ :

أنا لستُ أسيراً في شَرَكِ ذلكِ المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .

فمع أنني مَيِّتٌ منذ مئةَ سنو
إلا أنني لستُ متضايقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .
آه لو تلبَّسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرَّةً أخرى
فإنِّي لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبانِ والعقربِ أو الغزالِ والوَحشِ
فإنَّ الموتَ الأبديَّ ليسَ إلَّا للأممِ المستعبدة .

صوتُ إسرافيل^(١) لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئك
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوحِ في دنياهم .

ولو أنَّ مُستَقَرَّ كلِّ ذي روحٍ هو حِفْضُ اللَّحْدِ
إلا أنَّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرار .

القبرُ (يخاطبُ ميتَه) :

آه أيُّها الظَّالِمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لَمْ تَرَابِي مَلْتَهَبٌ هَكَذَا ؟

ازدادت ظُلُمَاتِي بِجَسَدِكَ ظِلْمَةً

وَتَمَرَّقْتُ سِتَارَةَ نَامُوسِ الْأَرْضِ بِجَسَدِكَ .

الْحَذَرُ مِنْ جَسَدِ الْمَيِّتِ الْمَحْكُومِ ، الْحَذَرُ مِنْ مَرَّةٍ

يَا إِسْرَافِيلُ ! يَا رَبَّ الْكَائِنَاتِ ! النُّجْدَةُ أَتَيْتَهَا الرُّوحُ الطَّاهِرَةُ .

نَدَاءٌ مِنَ الْغَيْبِ :

مَعَ أَنَّ النِّظَامَ الْكُونِيَّ مُضْطَرَبٌ بِسَبَبِ الْقِيَامَةِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الْاضْطِرَابَ يَكْشِفُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ .

بِالزَّلَازِلِ تَطِيرُ الْجِبَالُ كَالسَّحَابِ

وَتُظْهِرُ فِي الْوُودِيَانِ عَيُونََ جَدِيدَةٍ .

لَا بَدَّ لِكُلِّ تَعْمِيرٍ جَدِيدٍ مِنْ تَخْرِيْبٍ كَامِلٍ

فَفِي هَذَا حَلٌّ لِكُلِّ مُشْكَلاتِ الْحَيَاةِ .

الْأَرْضُ :

أَوْ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ الدَّائِمِ ، أَوْ مِنْ مَعْرَكَةِ الْحَيَاةِ

هَلْ يَنْتَهِي صِرَاعُ الْكَائِنَاتِ إِلَى الْأَبَدِ ؟

لَا يَجْدُ الْعَقْلُ النُّجَاةَ مِنْ أَصْنَامِهِ

الْعَارِفُ ، الْعَالِمُ ، الْعَامَّةُ ، جَمِيعُهُمْ صَارُوا عِبِيداً لِلْأَتِّ وَمَنَاةِ .

كَمْ صَارَ خَاضِعاً ذَلِيلاً هَذَا الْأَدْمِيُّ الْمَتَمَثِّلُ لِمُصَافَاتِ اللَّهِ

فَبَقَاءُ هَذَا الْعَالَمِ ثَقِيلٌ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ وَالنَّظَرِ .

فَلِمَاذَا لَا يَكُونُ لَيْلٌ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَظِيمِ سَحَرًا ؟

الملك المعزول^(١)

فلنبارك هذا الملك الطيب
الذي فصحت تضحيته أسرار الملوكية .
الملك في المعبد البريطاني ليس إلا صنماً من التراب
يمكن أن يحطمه العباد حينما يشاؤون .
هذا المسك ممزوج بالافيون لنا نحن العبيد
أيها الساحر الإنجليزي انحت لنا سيِّداً آخر !

مُناجاة جهنمي

العباد في هذا الدَّير القديم ذوو احتياج
يذكرون الله حين يتألَّمون من الأصنام .
ولا تفيدهم الصَّلاة ، ولا تفيدهم عبادة الأصنام
فحط هؤلاء المساكين ليس إلا التَّوابع والعويل .
مع أنَّ العمارات تطاول الفلك رفعة
لكنَّ الحقيقة أنَّ كلَّ مدينة كخرابو عامرة .
انظر إلى تقلبات خطِّ الفأس
فبرويز مرتو ، وفرهاد ظمآن كبده^(٢) .
هذا العلم ، هذه الحكمة ، هذه السياسة ، هذه التجارة

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقد أنه يشير إلى : Edward Assamen .

(٢) انظر خطِّ الفأس كيف كان حين استعملها برويز ، وكيف كان حين استعملها فرهاد .

جميعها أشياء من إبداع المَلَكِيَّة .
شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعة من الأرضِ الملتهبة^(١)
حرَّة من عبوديَّة التَّاجر الأوربيِّ .

مسعود المرحوم^(٢)

هذه الشَّمْسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجُومُ ، وهذه السَّمَاءُ الزُّرْقَاءُ
منْ يدري أهذا عالمُ الوجودِ أم الفناء ؟
التَّفكيرُ في الرِّحلة والهدفِ ما هو إلا خُرَافَةٌ
فالحياة كُلُّها رحيلٌ دون هدف .
والأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الزَّمانِ تَذْكَارُ
كمالاتِ أحمد ومحمود^(٣) .
تأسَّفَ العِلْمُ والفنُّ لموته المفاجيء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .
تُبَكِّيني جفوةُ أهلِ الدُّنيا
فإنَّهم يعتقدونَ أنَّ بكاء طيورِ السَّحَرِ نغماتٌ .
لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصَّدِيقِ يَمَكُنُ بالصَّبْرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغْزِ الموتِ كامِنٌ في الصَّبْرِ .

(١) جهنم .

(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في الدراسة ، وأشارت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة .

(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسعود . وكان مسعود هو ذكرى كمالانهم .

القلبُ الذي يَعْشَقُ وَيَضْبِرُ ليس سوى حجر
 فبينَ العِشْقِ والصَّبْرِ ألفُ فرسخٍ ^(١) .
 لا تسلني عن العُمُرِ الذي يمرُّ بسرعة
 فلا أحد يدري ما هذا التغيُّرُ والجاذبية .
 كلُّ من خُلِقَ من التُّرابِ سيوارى فيه
 أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟
 وهبْ لغبّار الطُّريقِ ذوقَ الجمال
 والعقلُ لم يستطع أن يكشفَ المعنى الخفي .
 اليسَ القلبُ والنظَرُ من إعجازِ هذا الماءِ والطَّينِ ^(٢) ؟ وإن لم يَكُنْ
 فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذا ؟
 إن « لا إله إلا هو » هي روحُ الدُّنيا الخالدة
 فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليبِ ؟
 مِن نطلبُ القصاصَ لدمِ الآمالِ
 مِن المُذنبِ ؟ وما هي الفِديةُ ؟
 لا تَحْزَنُ فنحنُ مكبَّلونَ بغيرِ الدُّنيا
 فالقلبُ الذي نملكُ يحطِّمُ الطلاسمَ ^(٣) .
 لو أنَّ معرفةَ الذاتِ حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
 لأنَّ العِشْقَ يختبرُ ثباتها بالموت .

(١) هذا البيت من شعر سعدى وقد ضمنه إقبال قصيدته .

(٢) الإنسان نفسه .

(٣) هذا البيت بالفارسية :

غمین مشوکه به بند جهان گرفتاریم طلسمها بشکند آن ولی که مادریم

لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً ، فَبَخْرُوكَ لَا شَاطِئَ لَهٗ
 وَمَوْجُ النَّيْلِ وَالْفِرَاتِ يَتَوَقُّ لَأَنْ يَنْدَمِجَ مَعَكَ .
 لو تَكُنِ الذَّاتُ مَيِّتَةً فَهِيَ كَأَعْوَادِ الْقَشِّ أَمَامَ النَّسِيمِ ؛
 لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً فَهِيَ سُلْطَانُ كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ .
 لو أَنَّ الْبَصِيرَةَ حُرِّمْتَ مِنْ تَجَلُّ وَاحِدٍ
 فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى مِثَّتَيْ تَجَلُّ لَتَعْوِضَ مَا فَاتَ .
 اللَّاتُ وَمَنَاةٌ مِّنْثَرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى الثَّرَيَّا
 بَيْنَمَا مَقَامُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ الْفَلَكَ .
 مَقَامُهُ الْأَبَدِيُّ هُوَ حَرَمُ الذَّاتِ
 وَلَيْسَ مَكَانَهُ الْقَبْرِ الْمَظْلَمُ وَلَا مَكَانَ تَجَلِّي الصِّفَاتِ .
 أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَوا مَعْرِفَةَ الذَّاتِ وَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا .
 قَدْ حَطَّمُوا طِلْسَمَ الشَّمْسِ وَالْفَلَكَ وَالنُّجُومِ ^(١) .



صوت من الغيب

يأتي صوتٌ من العَرْشِ الْأَعْلَى ذاتَ صَبَاحٍ ، يَهْتِفُ :
 « كَيْفَ ضَاعَ جَوْهَرُ إِدْرَاكِكَ ؟ »
 كَيْفَ أَصْبَحَ مِشْرَطُ التَّحْقِيقِ لَدَيْكَ كَالْأُ ؟
 لِمَاذَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمَزَّقَ أَكْبَادَ النُّجُومِ !
 لَقَدْ كُنْتَ جَدِيرًا بِخِلَافَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

(١) أصله فارسي .

هل تكون الشعلة أسيرة للأعشاب الجافة^(١) ؟

لماذا لا تخضع لك الشنس والقمر ؟

لماذا لا ترتجف الأفلاك من أنظارك ؟

مع أن الدّم يجري في عروقك

لكنك لا تملك حمية الأفكار ، ولا الفكر الجريء .

العين التي لا يوجد في ثناياها النظر الطاهر

تكون مضيئة لكنها لا ترى العالم .

لم يبق في أحضانك صفاء مرآة ضميرك

يا قتل السلطنة والملأ والمشيمة !

(١) حرفياً : الثبن والنشارة .

القسم الخامس

رَبَائِعَات

(١)

١ - لا أدري ما هي ثَمَرَةُ غُصْنِ أُمْلِي
فأني دراية لي بتقديرِكَ
بِرُغْمِ الزَّهْرَةِ يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيم صُبْحِ الغد !

٢ - حَزْزُهُ من عَمَلِ الدُّنْيَا
حتى يتحرَّر من امتحانِ كُلِّ نفس
صارَ تفكيرُ الشَّيْطَانِ بسَبَبِ الكِبَرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثم جديد ؟^(١)

٣ - غَيَّرَ وبدَّلَ عالمَ الماءِ والسَّخَرِ
أقْلَبَ هذه الدُّنْيَا الجافَةَ والطرِيَّةَ
ولتبقِ الوَهْيُتَكَ طاهرةً من الوصمة
واخذِز من الشُّجودِ الخالي من أيِّ ذوق .

(٢)

٤ - أنا في حالةِ الفَقْرِ محسودُ الغِنَى
لأنَّ فقري ذو غيرة

(١) المفروض أن تكون أاثامه قديمةً قَدَمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الْحَذَرُ مِنْ ذَلِكَ الْفَقْرِ وَالتَّصَوُّفِ
الَّذِي عَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ الذَّلَّ وَالْخُسُوعَ .

٥ - الْغَوْثُ الْغَوْثُ مِنْ ضَيْقِ ذَيْلِ الْعَقْلِ !!
الْغَوْثُ الْغَوْثُ مِنْ زِيَادَةِ التَّجَلِّي !!
إِنَّ النَّظَرَ يُفْضَلُ النَّظَرَ فِي غَيْرِ اللَّهِ
الْغَوْثُ الْغَوْثُ مِنْ كُفْرِ النَّظَرِ .

٦ - قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَشَيْخِ الْحَرَمِ :
مَنِ الَّذِي نَامَ تَحْتَ مَحْرَابِ الْمَسْجِدِ ؟
أَجَابَتْ جِدْرَانُ الْمَسْجِدِ :
هُوَ الَّذِي تَاهَ فِي بَيْتِ أَوْثَانِ الْإِفْرَنْجِ .

٧ - صَارَتِ الْهَيْجَانَاتُ الْقَدِيمَةُ رَغْبَةً بَارِدَةً سَقِيمَةً
دَمَاءُ الْمُسْلِمِ أَصْبَحَتْ بَارِدَةً
فَلْتَبَارِكْ لِلْأَصْنَامِ كَفْرِي
إِذْ إِنَّ نَارَ اللَّهِ هِيَ أَصْبَحَتْ الْيَوْمَ بَارِدَةً .

٨ - حَدِيثُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ
الْكَبِيرِ مَلِيءٍ بِالْدَّمِ ، النَّفْسُ مُضِيئَةٌ ، النَّظَرُ حَادَّةٌ
كَيْفَ تَتَيَسَّرُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَضِيءُ الْمُخْفَلُ
فَهُوَ لَا يَخْتَلِطُ بِنَا إِلَّا قَلِيلًا .

٩ - صفاء ضمير الصُّبح المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشُّوكِ والرَّهر
حمايةَ الرَّهر غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشُّوكَةِ طبعَ الحرير .

١٠ - لا تذكرِ الفراقَ واللقاءَ
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهور
إنَّ انفصالَ اللؤلؤِ من قلبِ البَخرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبَخرِ ولا لِلؤلؤِ .

١١ - لماذا لا يجتاحُ الطوفانُ بَحرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتكُ مسلمةً ؟
عبثٌ تلكَ الشُّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنتَ قَدَرَ الله ؟

١٢ - لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلبِ
يرى العالمَ مُضاءَ بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمسِ والقَمَرِ
لا يَحْسِبُهُ إلا دورانَ الليلِ والنَّهارِ^(١) .

١٣ - أحياناً ترتفعُ من البحرِ كالْمَوْجِ

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ البَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ البَحْرِ
فأظهر لنا سرَّ مقامِ ذَاتِكَ واضحاً .

مُذاكرات مُلّا زاده ضيغم اللّولابي^(١) الكشميريّ

(١)

ماءُ عيونِكَ كالزُّئبقِ الرَّجراجِ
طيورُ السَّحَرِ قلقةٌ في أجوائِكَ
يا واديّ اللّولاب .

لو لم يكنْ خطيبُ المنبرِ والمحرابِ ذا همّةٍ ونشاطٍ
فالَّذينَ للعبيدِ المؤمنِ إمّا الموتُ ، وإمّا الحُلمُ
يا واديّ اللّولاب .

النعَماتُ المُخرِقةُ للقلبِ إنّما تنبُعُ من الآلةِ الموسيقيّةِ
فلو كانت أسلاكُها رِخوةً فلا فائدةٌ تُرجى من مِضْرابِها
يا واديّ اللّولاب .

بصيرةُ المؤمنِ خاليةٌ من نُورِ الفِرَاسةِ^(٢)
والخمرُ الصّافيةُ في حانةِ الصّوفيةِ خاليةٌ من الحُرقةِ
يا واديّ اللّولاب .

(١) ضيغم هو الأسد ، لولاب : اسم وادي في كشمير . والواقع أنّ إقبال كتب هذا الشعر إلى أهل كشمير .

(٢) تلميح إلى الحديث : « اتقوا فِرَاسةَ المؤمن فإنّه يرى بنور الله » .

إِنَّ الْفَقِيرَ^(١) الَّذِي تَسْتَيْقِظُ الْقُلُوبُ مِنْ آهَتِهِ السَّحَرِيَّةِ
لَا يَوْجَدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْذُ زَمَانٍ
يَا وَادِي اللَّوْلَابِ .

(٢)

الْمَوْتُ الصَّعْبُ اسْمُهُ الْعِبُودِيَّةُ
أَلَا لَيْتَ الْعَبْدَ يَفْهَمُ مَكْرَ وَخِدَاعِ السَّادَةِ .
انْظُرْ تَنْوُّعَ الْأَحْكَامِ فِي شَرْعِ الْمُلْكِيَّةِ
غَوْغَاءُ الصُّورِ حَلَالٌ ، لَذَّةُ الْحَشْرِ حَرَامٌ .
يَا مَنْ ذُبِلَتْ^(٢) رَوْحُكَ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ
أَتَبْحَثُ عَنْ مَقَامِ الذَّاتِيَّةِ فِي الصَّدْرِ الْخَالِي مِنَ الْخُرْقَةِ ؟

(٣)

كَشْمِيرُ الْأَتِي سَمَّاها أَهْلُ النَّظَرِ بِالْأَمْسِ إِيرَانَ الصَّغِيرِ
هُوَ الْيَوْمَ بِلَدٍّ خَاضِعٍ وَفَقِيرٍ .
حِينَ يَخَافُ رَجُلُ الْحَقِّ السُّلْطَانَ وَالْأَمِيرَ
تَخْرُجُ آهَاتُ مُخْرِقَةٍ مِنْ صَدْرِ الْأَفْلَاكِ .
مَنْزِلُ الْحَزَنِ لِفَلَاحِ عَجُوزٍ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
يَحْكِي لَنَا حِكَايَةَ قَسْوَةِ الْأَيَّامِ :
وَالْأَسْفَاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ النَّجْبَاءِ ذِي الْأَيْدِي النَّشِيطَةِ وَالْذِّمَاجِ الْخَلَّاقِ^(٣) .

(١) استخدم كلمة « درويش » بمعناها الصوفي .

(٢) استخدم اللفظ العربي « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .

(٣) في الأصل : (تودماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس^(١) . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حين تنورُ الشعوب المغلوبةُ على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعة ، واللّونِ والرّائحة^(٢) .
ضميرُ الإنسانِ يتطهرُ من الظنِّ والتّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلّ طريق .
ذلكَ الفتنُ القديمُ الذي لم يستطعَ العقلُ رتقَهُ
يُخيطُهُ العشقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرةٍ أو خيطِ الرّقاء .
صنمُ الحُكم له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ من زجاج
وهو يصبحُ في النهايةِ قطعاً مبعثرةً من الدّقِّ المُستمر .

(٥)

عظمةُ الشّاهين وشوكتُهُ توجدُ في طيرانِ الدّراج
والصّيادُ في حيرةٍ شاهينٍ هذا أم درّاج .
تلاطمتْ أفكارُ كلّ قوم
فالיוםَ مُظهرٌ لغدِ القيامةِ في الشّرق .
الميتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُورِ إسرافيل
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابةً لمطالبِ الفطرة !

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية ويعد تمهّل شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ و بو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

(٦)

حتى السُّكْبِرُون^(١) أيضاً يعرفونَ كمالاتِ الصُّوفِيَّةِ
مع أنَّ كراماتهم غيرُ معروفةٍ ، وغيرُ مشهورةٍ .
حينَ يكونُ السَّالِكُ حُرّاً فهذه هي مقاماته :
عزَّةُ النَّفْسِ وثباتُها والصَّوْتُ الحسنُ القائلُ « أنا الحق »^(٢) .
حينَ يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبوديةُ هي كلُّ شيءٍ له
فهو نفسه مَيِّتٌ ، وهو المريدُ ، وهو الموتُ المفاجيءُ نفسه .

(٧)

اخْرُجْ من الخانقاهات ، وقم بتقليدِ شبير
فليسَ فقرُ الخانقاهاتِ إلَّا الهمُّ .
من دينك وأدبك تَهْبُ رائحةُ الرُّهبانِ
إنَّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للآممِ التي حانَ موتُها .
في عيونِ شياطينِ المَلَكِيَّةِ يوجدُ السَّحَرُ
الذي يخلقُ في قلبِ الصَّيَّادِ طَنَعَ المَصِيدِ
كيفَ مَضَوْا غيرَ مكرثينَ بآهاتي السَّحَرِيَّةِ
ومَن الذي ذهبَ بالنَّشوةِ والنَّشاطِ مِنَ العيونِ الكشميريَّةِ السَّوداءِ^(٣) ؟

(٨)

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ من دمٍ فهو كذلك
فقلبُ الإنسانِ إنما هو - فقط - جذبةٌ عاليةٌ .

(١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسك بها .

(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في العجة غيرُ الله » .

(٣) « تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء » .

لا يُعْجِبُهُ دوران القمر والنجوم
فهو الذي يَخْطُطُ سَحْرَهُ ومِساءه .
لا يُمْكِنُ أَنْ يَبْزُدَ ذَلِكَ التُّرابُ الْأَصِيلُ
الذي تَكْمُنُ فِي ضَمِيرِ تِرابِهِ نارُ چِنار^(١) .

(٩)

حين انفتحت في الرّوضة مكتبة الورود
فإنَّ العِلْمَ الكتابيَّ لم يَنْفَعِ الْمُلاَّ .
كانَ هواءُ الرِّبيعِ محطماً للجَدِّيَّةِ
فبدأ شيخ « أندراب »^(٢) يُنشدُ الغزل .
قالت زهرة شقائق النُّعمانِ ذاتُ القميصِ الأحمرِ
إنَّني مظهرَةٌ لأسرار الرُّوح^(٣) .
مَنْ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ النَّوْمَ فِي القَبْرِ هو الموتُ
إنَّ سَرَ تَعْمِيرِ كُلِّ شَيْءٍ يَكْمُنُ فِي تَخْرِيْبِهِ^(٤) ؟
ليستِ الحَيَاةُ سِلْسِلَةُ الْأَيَّامِ والليالي
ليستِ الحَيَاةُ نَشْوَةٌ وَغَفْوَةٌ .
الحَيَاةُ والاحتراقُ فِي نارِكَ
فما أَسْعَدَ اللَّحْظَاتِ حينما تَسْتَعِيدُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ :

-
- (١) چِنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصة في الأصل .
(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .
(٣) لأنها مفتحة في الوسط .
(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي - انظر المثنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفلكِ » .

(١٠)

شِزْيَانُ الْحَرِّ صُلْبٌ كَشِزْيَانِ الْحَجَرِ
شِزْيَانُ الْمَحْكُومِ رَقِيقٌ كَشِزْيَانِ الْكَرَمِ .
قَلْبُ الْمَحْكُومِ مَيْتٌ سَقِيمٌ يَأْنِسُ
قَلْبُ الْحَرِّ حَيٌّ مَفْعَمٌ بِالْحَرَارَةِ يَبْعَثُ الطَّرْبَ .
ثَرْوَةُ الْحَرِّ قَلْبٌ مُضِيءٌ وَنَفْسٌ حَامِيَةٌ
ثَرْوَةُ الْمَحْكُومِ لَيْسَتْ إِلَّا عَيْنًا دَامِعَةً .
الْمَحْكُومُ غَرِيبٌ عَنِ الْإِخْلَاصِ وَالْمَرْوَةِ
مَعَ أَنَّهُ بَارِعٌ فِي الْبَرَاهِينِ الْمُنْطَلِقَةِ .
لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الْمَحْكُومُ نَذًا لِلْحَرِّ
فَهُوَ عَبْدٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْحَرُّ سَيِّدُهَا .

(١١)

جَمِيعُ الْعَارِفِينَ وَالْعَامَّةِ غُرَبَاءُ عَنِ الذَّاتِ
فَلْيَقُلْ أَحَدٌ إِنْ اسْتَطَاعَ : أَهَذَا مَسْجِدٌ أَمْ خَمَّارَةٌ ؟
لَقَدْ أَخْفَى هَذَا السِّرَّ عَنَّا « مير واعظ » ^(١)
إِنَّ الْفَرَاشَةَ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مَصْبَاحِ الْحَرَمِ هِيَ الْحَرَمُ .
طَلَسُمُ الْجَهْلُ هُوَ الْكَفَرُ وَالتَّدْبِيرُ

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان
حوالي عام ١٩٦٦ م .

وحدثُ الشَّيْخِ والبرهمن ليس إِلَّا سِحْرٌ وخرافة .
 فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرويشُ نصيبَ هذه الأرض
 ففي فقرِه تكْمُنُ طرقُ الكليم .
 إلى متى تبقى لآلِء بحيرةٍ وُلِّر^(١) الفريدةُ من نوعها .
 مخفيةً عن أعين الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ من قوَّة عملهم
 فالأممُ الحيَّة خاضت معاركَ كبيرةً .
 إِنَّ تقويمَ المُتَجَمِّمِ للغدِ باطلٌ
 فالنُّجومُ القديمةُ سقطتْ من السَّماء .
 ضميرُ العالمِ ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
 حتى أَنَّ أمواجَ البحرِ كَسَرَتِ النُّجوم .
 الأرضُ لم تَعُدْ خاليةً من الزَّلَازِلِ
 فالدَّلَائلُ الدَّقِيقَةُ لِلْفِطْرَةِ ظاهرةٌ .
 إِنَّ الخضرَ - قايغ - يفكِّرُ على شاطئِ بحيرةٍ وُلِّر^(٢)
 إلى متى تفورُ عيونُ الهملابا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشُّعوبِ الخالدةِ على مرِّ الزمان :
 أَنَّ تقديرَهم يتغيَّرُ صباحَ مساء .

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .

(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ - ٨٢) .

حياتهم هي كمال الصدق والمروءة
 حتى الفطرة أيضاً تعفو عن تقصيرهم .
 أعمالهم كأعمال القلندر ، وجلالهم كالجلال الإسكندري
 هذه الأئمة في العالم كالسيوف المسلولة .
 إن جمال وجلال الرجل العارف يكمن في معرفة ذاته
 هذا هو الكتاب ، وما تبقى كله تفاسير له .
 أنا لا أنكر عظمة العيد
 لكن ما يقبل هو تكبيرات الحر .
 كيف يعرف الحكيم سر نعماتي
 وأن تدابير أهل الجنون فيما وراء العقل ؟

(١٤)

كيف تقامر - قمار الحياة - كالكاfer ؟
 ذلك أنك تسير مع الزمان ولا تسير مع نفسك .
 لم أر في مدارس الحرم مرة ثانية
 قلب جنيد ونظرة الغزالي والرازي .
 في حكم الفتى الأعظم الذي هو نفسه حكم الفطرة الأزلية :
 أن أعمال الصقور حرام في عقيدة الصغوة .
 قال ذلك الفقيه الأزلي للصغير الصغير :
 عليك أن ترتبط بالسما ولا تتعلق بالأرض .
 أنا الذي لها أقلع عن الكلام الصريح
 خوفاً من وشيهم بي لدى السلطان .
 قدم التحيات منا نحن الفقراء إلى ترك شيراز

فليس في أيدينا سمرقند وبخارى^(١) .

(١٥)

ضميرُ الغرب ضميرُ التُّجَّارِ ، ضميرُ الشرق ضميرُ الرُّهبانِ
هناك التغيير المستمرُّ في كل لحظة ، وهنا لا يتغيَّر الزَّمانُ .
قال لي الخضر على شاطئ البحر وكأنني محرم لأسراره :
إنَّ طرقَ الإسكندر^(٢) والقلندر كلُّها طرقٌ سحريةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني نذاً لهم
ويَخْشون ألا ينشئَ حَجَرٌ عتبتهم من نواحي
النَّصيحة الواضحة والعلامة المميَّزة لعلم ومعرفة الأمم المستعبدة :
أنَّ الأرض لو ضاقت بها هو فضاء الفلكِ بلا حدود .
لا أعرفُ بماذا أسميه ، هل أسميه اختبارَ الله^(٣) ، أم خداعَ النفس ؟
إذ إنَّ المسلم أصبح خالياً من العمل بعد أن اختلق من القَدَرِ عُذراً له .
قال غصنُ الوردِ عن أسري قولاً أبكى الصَّياد :
إنَّ عُشَّ هذا المفرِّدِ المفعم بالخزقة لم يكن ثقيلاً عليّ .

(١٦)

يا أيُّها الوطن العزيزُ لا حاجةَ للشرح والبيانِ
عن صورةِ قلبنا المليء بالدم ، كشافاتِ النُّعمانِ .

(١) إشارة إلى شعر حافظ :

اكر اين ترك شيرازي بدست آرد دل مارا بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا

(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .

(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟

إذ إنَّ المسلم أصبح خالياً من العمل بعد أن اختلق من القَدَرِ عُذراً له .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأة الأعمال
هذه هي رسالة آلهة الهمالايا .

جسده عارٍ في ريح الشتاء
ذلك الذي يقدم للأمراء رداءً من الصوف بفنه وإبداعه .
لا تأمل في وفاء دولة الدنيا
فهي كالغزال ، الهروب من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على من علمته معرفة الذات نسيان الجسد
حرامٌ على هذا الرجل المجاهد أن يلبس الذئع !

(١٨)

اخمل على ذلك العزم الرفيع ، واستمع إلى عويلي
لكي تقوم القيامة في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريب هذه المدينة ، فاستمع إلى عويلي
لكي تقوم القيامة في صدرك أيضاً .
أغنيات الممزوجة بالغم والحزن متاع عزيز
ونعمة القلب الحزين ليست عاتية في هذه الدنيا .
أنوح وأشكو من ذوق هذا الزمان الأعمى
الذي فهم محتتي على أنها محنة فرهاد .
أعرف أن الصوت الذي ينبعث من ضرب الفأس على الحجر
أعرف أنه آخر ، فهو صوت الفأس والكيد معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدكن^(١)

كَانَ هَذَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَنْ يُعْطَى الْقَلَنْدَرُ

ذُو الصِّفَاتِ الْمَلَكِيَّةِ عَظْمَةً بِرُوزِ^(٢) .

قَالَ لِي : خُذْ وَصِرْ حَاكِمًا وَأَعْطِ الثَّبَاتَ

لِحَسَنِ التَّدْبِيرِ لِكُلِّ مَا هُوَ آتٍ وَلِكُلِّ مَا فَاتَ .

كُنْتُ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ أَتَحْمِلَ عِبَاءَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ عَلَى كَتْفِي

لَأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَرٌّ طَعْمُهُ يَصِيرُ فِي حَلْقِ الدَّرُوشِ الشُّكْرِ .

وَلَكِنْ غَيْرَةُ فَقْرِي وَعَظَمَتُهُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْبَلَ مَا قَدَّمَهُ

حِينَ قَالَ ، إِنَّ هَذِهِ هُوَ زَكَاةُ لَالُوْهِيَّتِي .

حسين أحمد^(٣)

لَا يَغْرِفُ الْعَجَمُ حَتَّى الْآنَ أَسْرَارَ الدِّينِ

وحسين أحمد الديوبندي - ما هذا العجبُ العجَابُ .

مَنْ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَائِلًا بِأَنَّ الْمَلَّةَ قَائِمَةٌ عَلَى الْوَطَنِ

كَمْ هُوَ جَاهِلٌ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ^(٤) !

عَلَيْكَ أَنْ تَصِلَ بِنَفْسِكَ إِلَى النَّبِيِّ فَإِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .

(٢) أي : المال والدنيا .

(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ، وهذا الشعر بالفارسية .

(٤) يقصد الدين .

فإن لم تصل إليه فكلُّ هذا يعدُّ من أعمالِ أبي لهب .

السَّيِّدُ الْإِنْسَان

وَصَلَتْ دَرَجَةُ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لشيءٍ أَنْ يَخْتَفِيَ ، فِهَذَا عَالَمٌ نَوْرَانِي .

لَوْ نَظَرَ أَحَدٌ لِرَأْيِ أَنْ حِجَابَ الْفِطْرَةِ رَقِيقٌ إِلَى دَرَجَةٍ :
أَنَّ الْبَسْمَاتِ الْخَفِيَّةَ لِلْمَلَائِكَةِ تَظْهَرُ وَاضِحَةً .

هَذِهِ الدُّنْيَا دَعْوَةٌ لِابْنِ آدَمَ أَنْ يَشَاهِدَ وَيَنْظُرَ
فَكُلُّ مُسْتَوٍ قَدْ وَهَبَ ذَوْقَ التَّعَرِّي .

هَذَا هُوَ ابْنُ آدَمَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْأَنْهَارَ
تَفِيضُ مِنْ دَمَوَعِهِ الدَّامِيَةِ .

مَاذَا يَعْرِفُ الْفَلَكَ ؟ مَقَرُّ مَنْ هَذَا الْمَسْكَنُ الثَّرَائِي ؟
وَالْهَدَفُ مِنْ خَلْقِ النُّجُومِ هُوَ حِرَاسَةُ بَيْتِ مَنْ ؟

لَوْ أَنَّنِي مَقْصُودُ الْكُلِّ فَمَاذَا « مَا وَرَائِي »
وَمَا هِيَ نَهَايَةُ اضْطِرَابَاتِي الْمُتَجَدِّدَةِ !!

• • •

• •

•

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الديوان السادس : ضرب الكليم	٥
محتوى الديوان	٨
إلى القارئ	١٨
تمهيد	١٩
القسم الأول : الإسلام والمسلمون	٢١
الصبح - لا إله إلا الله	٢٣
الاستسلام للقدر - المعراج	٢٤
إلى سيد مصاب بالفلسفة	٢٥
الأرض والسماء - اضمحلال المسلمين - العلم والعشق	٢٦
اجتهاد	٢٧
شكر وشكوى - الذكر والفكر	٢٨
شيخ الحرم - القدر - التوحيد	٢٩
العلم والدين - المسلم الهندي	٣٠
على ذكر الإذن بحمل السيف - الجهاد	٣١
القوة والدين - الفقر	٣٢
الإسلام - الحياة الأبدية	٣٤
السلطان - إلى الصوفي	٣٥
صريح الفرنج - التصوف	٣٦
الإسلام الهندي - قطعة	٣٧
الدنيا - الصلاة	٣٨
الوحي - هزيمة - العقل والقلب	٣٩
سكر العمل - القبر - همة القلندر	٤٠

الموضوع	الصفحة
الفلسفة - رجال الله	٤١
الكافر والمؤمن	٤٢
المهدي الحق - المؤمن في الدنيا - في الجنة	٤٣
محمد علي الباب - القدر - الخالق وإبليس	٤٤
أين روح محمد	٤٥
مدنية الإسلام - الإمامة	٤٦
الفقر والترهب	٤٧
قطعة - التسليم والرضا	٤٨
نكتة التوحيد - الإلهام والحرية	٤٩
الروح والجسم - لاهور وكراچي	٥٠
النبوة - الإنسان - مكة وجنينا	٥١
يا شيخ الحرم - المهدي	٥٢
المؤمن	٥٣
المسلم البنجاي - الحرية - نشر الإسلام في بلاد الإفرنج	٥٤
لا وإلا - إلى أمراء العرب	٥٥
الأحكام الإلهية - الموت	٥٦
قم بإذن الله	٥٧
القسم الثاني : التعليم والتربية	٥٩
المقصود - إنسان هذا العصر	٦١
أمم الشرق - التنبيه - مصلحو الشرق	٦٢
الحضارة الغربية - أسراء ظاهرة	٦٣
وصية السلطان تيبو - قطعة	٦٤
اليقظة - تربية الذات	٦٥
حرية الفكر - حياة الذات - حكومة	٦٦
المدرسة الهندية - التربية	٦٧
الحسن والقبیح - موت الذات	٦٨

الموضوع	الصفحة
ضيف عزيز - العصر الحاضر - طالب العلم	٦٩
امتحان - المدرسة	٧٠
الحكيم نيتشه - الأساتذة - قطعة	٧١
الدين والتعليم - إلى جاويد	٧٢
القسم الثالث : المرأة	٧٧
الرجل الإفرنجي - سؤال - حجاب	٧٩
الخلوة - المرأة - حرية النساء	٨٠
حصانة المرأة - المرأة والتعليم - المرأة	٨١
القسم الرابع : الأدب والفنون	٨٣
الدين والفن - التخليق	٨٥
جنون - إلى شعره - مسجد باريس	٨٦
الأدب - البصيرة - مسجد قوة الإسلام	٨٧
مسرح	٨٨
شعاع الأمل	٨٩
أمل	٩٠
البصيرة - إلى أهل الفن	٩١
قطعة	٩٢
الوجود - الغناء	٩٣
النسيم والندى - أهرام مصر	٩٤
مخلوقات الفن - إقبال - الفنون الجميلة	٩٥
صبح المرج	٩٦
الخاقاني	٩٧
الرومي - العجدة	٩٨
مرزا بيدل - الجلال والجمال	٩٩
المصور - الغناء الحلال	١٠٠
الغناء الحرام - النافورة	١٠١

الموضوع	الصفحة
الشاعر - شعر المعجم	١٠٢
أصحاب الفن في الهند - الرجل العظيم	١٠٣
عالم جديد - خلق المعاني	١٠٤
الموسيقا - لذة النظر - الشعر	١٠٥
الرقص والموسيقا - ضبط النفس - الرقص	١٠٦
القسم الخامس : سياسات المشرق والمغرب	١٠٧
انقلاب - تملق - المناصب	١٠٩
أوربة واليهود - عبودية الأنفس	١١٠
الروس الشيوعيون - اليوم والغد - المشرق	١١١
سياسة الإفرنج - العبيد - إلى أهل مصر	١١٢
الحبشة - أوامر إبليس إلى أبنائه الساسة	١١٣
جماعة الأمم الشرقية	١١٤
الملك الخالد - الجمهورية - أوربة وسورية - من موسوليني	١١٥
شكوى - انتداب	١١٦
السياسة اللادينية - شبكة التمدين	١١٧
نصيحة - قرصان وإسكندر	١١٨
عصبة الأمم - الشام وفلسطين - أئمة السياسة	١١٩
نزعات العبودية - صلاة العبيد	١٢٠
إلى عرب فلسطين - الشرق والغرب - نزعات التسلط	١٢١
القسم السادس : أفكار محراب غل الأفغاني	١٢٣
الديوان السابع : رسالة الخلود	١٣٣
مناجاة	١٣٩
تمهيد سماوي	١٤٣
أغنية الملائكة - تمهيد أرضي	١٤٥
غزل	١٤٦
زروان (وهو روح الزمان والمكان)	١٥٢

الموضوع	الصفحة
زمزمة النجوم	١٥٤
القسم الأول - فلك القمر	١٥٧
الحكيم الهندي الذي أثر الخلوة	١٦١
الرومي	١٦٢
جهان دوست	١٦٣
تسع كلمات للعارف الهندي	١٦٥
تجلّي سروش	١٦٧
لحن سروش	١٦٨
الرحيل إلى وادي يرغميد	١٦٩
طاسين جوتاما بودا	١٧١
الراقصة - طاسين زرادشت	١٧٣
زرادشت	١٧٥
طاسين المسيح	١٧٦
طاسين محمد - ﷺ -	١٧٨
القسم الثاني - فلك عطارد	١٨٥
ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني	١٨٧
الأفغاني - زنده رود - الدين والوطن	١٩٥
الشيوعية والرأسمالية	١٩٦
سعيد حليم باشا	١٩٨
زنده رود - الأفغاني	١٩٩
محكمات العالم القرآني	٢٠٠
الحكم الإلهي	٢٠٣
الأرض ملك لله	٢٠٤
القسم الثالث : فلك زحل	٢٠٧
الحكمة خير كثير	٢٠٩
زنده رود - سعيد حليم باشا	٢١٠

الموضوع	الصفحة
الأفغاني	٢١٢
رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا	٢١٣
جلال الدين الرومي	٢١٦
غزل زنده رود	٢١٧
فلك الزهرة	٢١٩
عودة الجاهلية	٢٢١
أغنية بعل	٢٢٥
الغوص في بحر الزهرة - غزل	٢٢٧
الرومي - فرعون	٢٢٩
الرومي - اللورد كتنسر - فرعون	٢٣٠
ظهور درويش السودان	٢٣١
القسم الرابع : فلك المريخ	٢٣٣
أهل المريخ	٢٣٥
ظهور فلك المريخ من المرصد	٢٣٧
الرومي	٢٣٨
حكيم المريخ	٢٣٩
التجوال في مدينة مرغدين - حكيم المريخ	٢٤٠
قصة فتاة المريخ التي ادعت النبوة	٢٤٣
رسالة نبيه المريخ	٢٤٤
الرومي	٢٤٦
القسم الخامس : فلك المشتري	٢٤٧
أرواح الحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة	٢٤٩
لحن الحلاج	٢٥١
لحن غالب	٢٥٢
لحن الطاهرة	٢٥٣
زنده رود يعرض مشكلاته على الأرواح	٢٥٤

الصفحة	الموضوع
٢٦٦	ظهور رأس أهل الفراق إبليس
٢٦٩	شكوى إبليس
٢٧١	القسم السادس : فلك زحل
٢٧٣	الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن
٢٧٤	بحر الدماء
٢٧٥	روح الهند تظهر - روح الهند تنوح وتنتحب
٢٧٧	صيحة راكب في زورق بحر الدماء
٢٧٩	القسم السابع : ما وراء الأفلاك
٢٨١	منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه
٢٨٣	الرحيل إلى جنة الفردوس
٢٨٥	قصر شرف النساء
٢٨٧	زيارة الأمير سيد علي همداني وملا طاهر غني كشميري
٢٨٨	في حضرة أمير همدان
٢٩٦	حديث مع الشاعر الهندي برتري هري
٢٩٩	السفر إلى قصر سلاطين المشرق
٣٠٣	ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها
٣١٠	رسالة السلطان الشهيد إلى نهر كاويري
٣١٣	زنده رود يغادر الجنة العالية
٣١٥	في الحضرة الإلهية
٣١٧	نداء الجمال الأبدي
٣٢٣	القسم الثامن : كلمة إلى الجيل الجديد
٣٢٧	الديوان الثامن : والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق
٣٤٢	التمهيد
٣٤٦	مناجاة الشمس
٣٤٨	حكمة الكلیم - سياسة الأنبياء
٣٥١	حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

الصفحة	الموضوع
٣٥٤	كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)
٣٥٨	فقر الصالحين
٣٦٣	الرجل الحر
٣٦٤	رباعيات
٣٦٦	في أسرار الشريعة
٣٧٠	دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة
٣٧٤	السياسة الحاضرة
٣٧٧	إلى الأمة العربية
٣٨٩	والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق
٣٩٦	شكوى ومناجاة
٤٠٩	الديوان التاسع : هدية الحجاز
٤١٧	القسم الأول : بالفارسية - مناجاة
٤٢٣	في الحضرة الإلهية
٤٣٣	القسم الثاني : الرسالة
٤٥٧	القسم الثالث : المجتمع
٤٦١	الذاتية
٤٦٢	أنا الحق
٤٦٣	الصوفي والملا
٤٦٤	جلال الدين الرومي
٤٦٦	إلى مصر
٤٦٨	شعراء العرب
٤٧٠	يابن الصحراء
٤٧٠	وما يدريك أن المغوار في هذا الغبار
٤٧٢	الخلافة والملك
٤٧٣	التركي العثماني
٤٧٤	فتاة المجتمع

الموضوع	الصفحة
العصر الحاضر	٤٧٥
البرهمي	٤٧٦
التعليم	٤٧٧
السعي في الرزق	٤٧٩
التمساح وصغيره - خاتمة	٤٨٠
العالم الإنساني - تمهيد	٤٨١
الذاتية	٤٨٩
الجد والاختيار - الموت	٤٩٠
إبليس التراي وإبليس الناري	٤٩١
إلى رفقاء الطريق	٤٩٣
القسم الرابع : قصائد	٥٠١
برلمان إبليس	٥٠٣
نصيحة بلوش عجوز لابنه	٥١٨
الصورة والمصور	٥١٩
عالم البرزخ	٥٢٠
الملك المعزول - مناجاة جهنمي	٥٢٣
مسعود المرحوم	٥٢٤
صوت من الغيب	٥٢٦
القسم الخامس : رباعيات	٥٢٩
مذكرات ملأ زاده ضيغم اللولابي الكشميري	٥٣٤
إلى سر أكبر حيدري - حسين أحمد	٥٤٤
السيد الإنسان	٥٤٥
فهرس الموضوعات	٥٤٦
